

المداولة العثمانية

دَوْلَةُ إِسْلَامِيَّةٍ مُفْتَرَى عَلَيْهَا

تأليف
أستاذ دكتور

عبد العزيز محمد الشناوي

الجزء الثاني



مكتبة الأنجلو المصرية

الدولة العثمانية

دولة إسلامية مفترى عليها

تأليف

أستاذ دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ورئيس قسم التاريخ
بكلية الدراسات الإنسانية بجامعة الأزهر
فرع البنات بالقاهرة

الجزء الثانى

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

اسم المكتسب: الدولة العثمانية (الجزء الثاني)

اسم المؤلف: د/ عبد العزيز الشناوي

اسم الناشر: مكتبة الانجلو المصرية

اسم الطابع: مطبعة محمد عبد الكريم حسان

رقم الاستدعاء: 9326 لسنة 2004

التقييم الدولي: 2-2046-05-977-I-S-B-N

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا »

مقدمة الجزء الثاني

استكمل المؤلف فى هذا الجزء ، الرسالة التى حددها لنفسه منذ الصفحات الأولى من الجزء الأول من هذه الموسوعة الثرية المعنونة بـ «الدولة العثمانية - دولة إسلامية مفترى عليها» ، حيث يعاود رفع ماحاق بتاريخ هذه الدولة من غبن وظلم ..

يقع هذا الجزء فى عشرة فصول ، تحكمها منظومة ثلاثية الأبعاد ، يركز بعدها الأول فى مناقشة تلك الإدعاءات والصور التى صاحبته من حملات التشهير فى الفصول من الأول إلى الرابع ، بينما يتناول البعد الثانى خدمات الدولة العثمانية للإسلام والعروبة فى الفصول من الخامس إلى السابع .. ويناقش البعد الثالث الآراء المحايدة التى قيلت فى حكم السلطان العثمانى عبدالحميد الثانى فى الفصول من الثامن إلى العاشر .

يناقش المؤلف فى البعد الأول بتحليل ثاقب حقيقة ما قيل من حملات التشهير ، وكيف أنها تركزت على ادعاءات تركز على أن الدولة العثمانية قد حرصت على حرمان الولايات العربية من علمائها المبرزين وعمالها القديين المهرة ، وأنها لم تحقق إلا نجاحاً محدوداً فى الانفتاح بين الولايات العربية وأوروبا ، وقد ركز المؤلف على مناقشة جوهر الأسباب فيما ذهب إليه المتحاملون من باحثين ودارسين ومستشرقين ؛ إذ تناول مختلف العوائق الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ؛ مدحضاً كل هذه الدعاوى بما حققته الولايات العربية كمصر وبلاد الشام والعراق من صلات مكثفة بالعالم الخارجى ، وكيف أنه كانت هناك عوامل انفتاح متعددة على العالم الخارجى ، أسهمت التجارة والسياحة إلى حد كبير فى ازدهارها . كما يبين المؤلف فى هذا البعد حقيقة نشأة قصة «المريض المشرف على الموت» باعتباره وصفاً لزم الدولة العثمانية ، وكيف جانبت حملات التشهير الصواب ، حين انطلقت فى سياق خاطئ ، غير معبر بصدق عن حقيقة ما تقوم به هذه الدولة .

ويركز المؤلف فى البعد الثانى على ما قامت به الدولة العثمانية من خدمات جليلة للإسلام والعروبة ، تركزت أول ما تركزت فى حماية الأماكن الإسلامية المقدسة من مخططات الصليبية البرتغالية ، والمحافظة على إسلام وعروبة شمالى إفريقيا ، وكيف أنها أعادت تونس إلى رحاب الكتلة الإسلامية من بين برائن إسبانيا ، وأنقذت

طرابلس من فرسان القديس يوحنا . كما يذكر المؤلف نجاح الدولة العثمانية في إيجاد وحدة على الطبيعة بين الولايات العربية ، وأنها أبعدت الزحف الاستعماري عن الوطن العربي ، طوال فترة تراوحت بين ثلاثة وأربعة قرون . ويتمثل أعظم إنجاز لهذه الدولة - في هذا الصدد - في منع هذه الدولة لليهود من استيطان سيناء ، وإحباط محاولتهم في إقامة وطن قومي لهم في فلسطين ، ومنعها عقد مؤتمرات صهيونية في فلسطين ، رغم ما مورس عليها من ضغوط من الدول الأجنبية .

وفيما يتعلق بالجانب المحايد والموضوعي في تناول حكم السلطان عبدالحميد الثاني ، فقد عمد المؤلف إلى ذكر حقيقة الأسباب والدوافع وراء حملات التشهير المتعددة التي تعرض لها السلطان عبدالحميد الثاني ، مستنتجاً من خلال ذلك طبيعة الدوافع والأسباب التي سبقت اعتلاء السلطان العرش ، ومدى ما كان يتمتع به من دبلوماسية شديدة وثاقب نظري في معالجة المتاعب والمعوقات التي لاقاها في بداية توليه الحكم ، وكيف أن ذلك أسهم إلى حد كبير في قدرته على تحقيق ماورد في البعد الثاني من إنجازات للإسلام والعروية ..

إن الكتاب الذي بين يديك - باعتباره الجزء الثاني من سلسلة الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها - ليحلل بعمق وموضوعية ومثابرة ، تحسب للمؤلف ، تجعلنا أمام محاولة جادة لاستخلاص مافى تاريخ هذه الدولة من مغالطات وخط للحقائق .. لكي نرى تاريخ هذه الدولة بعين حيادية ، لاتهول الأخطاء ولاستهين بالإنجازات .

الناشر

الفهرست

الفصل الأول

١٧ - ١٤ صور من حملات التشهير بالدولة (١)

الفكرة وراء حملات التشهير (١٧) .

نماذج لحملات التشهير :

أولاً : حرمان الولايات العربية من علمائها المبرزين وعمالها المهرة
الفنيين (١٨) .

ثانياً : عزلة الولايات العربية عن العالم (٢٢) البرتغاليون يستهدفون
تخريب مكة المكرمة والمدينة المنورة (٢٣) السلطان سليم يعقد
معاهدة مع جمهورية البندقية لتشجيع البنادقة على ممارسة نشاطهم
فى مصر (٢٤) - معاهدة البندقية رد علمى وعملى على
المتحاملين على الدولة العثمانية (٢٩) معاهدة عام (١٥٢٨)
(٣٠) عرض وتحليل لمعاهدة (١٥٣٥) (٣١) الدولة العثمانية
تستجيب لمساعى إنجلترا لعقد معاهدات تجارية معها (٣٦) التعريف
بمصطلح معاهدات الامتيازات الأجنبية (٣٩) سريان معاهدات
الامتيازات الأجنبية على الولايات العربية (٤٠) نجاح محدود
لمياسة الانفتاح بين الولايات العربية وأوروبا (٤١) عوائق دينية
(٤٢) عوائق اجتماعية (٤٢) عوائق ثقافية (٤٣) عوائق
اقتصادية (٤٤) عوائق سياسية (٤٦) .

أولاً : مصر

صلات عربية وإفريقية وآسيوية مكثفة بدلاً من

العزلة النسبية عن أوروبا (٤٦)

بريطانيا وفرنسا تعقدان معاهدات تجارية مع الأمراء
المماليك فى مصر (٤٨) فرنسا تعقد ثلاث اتفاقيات تجارية مع
مصر (٥١) .

ثانياً : بلاد الشام

أسباب اتصال بلاد الشام بأوروبا

إبان الحكم العثماني (٥٢)

عاملان رئيسيان أسهما في قيام اتصال وثيق ومستمر بين بلاد الشام وأوروبا طوال الحكم العثماني (٥٢) عوامل حاسمة أخرى :
 التنوع البشري (٥٣) تنوع اللغوي (٥٣) التنوع الديني (٥٤)
 الطوائف المسيحية (٥٦) تعدد البعثات التنصيرية والديرية
 وأهدافها (٥٩) اليهود (٦٠) جهود الدولة العثمانية لإلغاء معاهدات
 الامتيازات الأجنبية (٦٣) إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية في
 ولايات الشرق العربي الآسيوي (٦٤) إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية
 في مصر بعد أكثر من ثلاثين عاماً بعد إلغائه من الولايات العربية
 في غربي آسيا (٦٤) .

الفصل الثاني

صور من حملات التشهير بالدولة (٢)

٦٥ - ١٠٢

مناقشة عزلة العراق

عوامل انفتاح العراق على العالم الخارجي (٦٥) التنظيم
 العثماني للعراق عقب فتحه (٦٥) .

أولاً : إعادة مرور شطر لا يستهان به من التجارة الشرقية عبر
 العراق (٦٦) ازدهار البصرة (٦٨) تصدير الخيول العربية
 من البصرة إلى الهند (٧٠) إحصائية عن تصدير الخيول
 (٧١) دراسة تحليلية لإحصائية الخيول (٧٢) تصدير معظم
 محصول التمور من البصرة إلى الخارج (٧٣) إحصائية عن
 قيمة التمور المصدرة من البصرة (٧٣) دراسة تحليلية
 لإحصائية التمور (٧٣) انتعاش بغداد (٧٤) العراق
 «بؤرة» لطرق القوافل (٧٥) المغامرون والسائحون الأجانب في
 العراق (٧٧) إنشاء خطوط ملاحية بخارية في أنهار العراق

تتصل بخارجه (٧٧) أهداف بريطانيا من إنشاء ملاحه بخارية فى أنهار العراق (٧٧) جهود بريطانيا لإنشاء خطوط ملاحه بخارية فى أنهار العراق (٧٨) رحلة شيزنى الأولى (٧٨) مشكلة استصدار فرمان من السلطان (٨٠) مشكلة أخرى تواجهها البعثة (٨١) وصول البعثة إلى ساحل الشام (٨١) اعتراض مصر (٨٢) بدء تحرك الباخرتين (٨٤) مصاعب البعثة فى رحلتها إلى البصرة : غرق الباخرة «دجلة» (٨٤) البعثة البريطانية تتجاوز اختصاصاتها (٨٦) دراسة تحليلية لفرمان عام (١٨٣٤) (٨٦) اعتراض فرنسا (٨٨) بواخر تحمل العلم البريطانى وتعمل فى نهر دجلة (٩٠) قرار الصدر الأعظم سنة (١٨٤٦) (٩٢) إنشاء أول شركة للملاحه البخارية فى العراق (٩٣) خطاب الصدر الأعظم إلى والى بغداد عام ١٨٦١ لمساندة شركة لينش (٩٤) غرق «دجلة» أخرى (٩٧) حادث الباخرة «خليفة» (٩٧) الاعتراض على حق البواخر فى قطر صنادل (٩٨) محاولة الحكومة العثمانية منع الملاحه البريطانية فى نهر دجلة عام (١٨٨٣) (٩٩) النشاط العثمانى المضاد (١٠٠) مد خطوط للاتصالات البرقية عبر العراق ليربط أوروبا بالهند (١٠١) .

الفصل الثالث

١٠٣ - ١٢٢ صور من حملات التشهير بالدولة (٣)

مناقشة عزلة العراق (تتمة)

ثانياً : السياحه الدينية فى العراق : العتبات المقدسة (١٠٣) إدارة أضرحة العتبات المقدسة (١٠٥) تدفق شيعة فارس على العتبات المقدسة (١٠٥) شيعة فارس يصحبون معهم جثث أقاربهم لدفنها فى العتبات المقدسة (١٠٧) «الهلود المتقاعدون» فى العتبات المقدسة (١٠٨) وصية ملك أوض

- فى الهند (١٠٩) زيارات الهندوس السنين للعراق (١١٠) .
 ثالثاً : التنوع البشرى والدينى فى العراق (١١١) نشاط البعثات
 التنصيرية (١١٢) سؤال يفرض نفسه فرصاً (١١٦) .
 رابعاً : الصراع بين الدولة العثمانية وفارس على العراق (١١٧)
 خلاصة موضوع عزلة الأقاليم العربية (١٢١) .

الفصل الرابع

١٢٣ - ١٤٦ صور من حملات التشهير بالدولة (٤)

السلطان العثماني رجل أوروبا المريض

نشأة قصة المريض المشرف على الموت (١٢٣) مسئولية
 أوروبا (١٢٥) إجراء مذابح دينية عامة بين رعايا الدولة المسيحيين
 (١٢٦) بواعث الدولة على إجراء المذابح الدينية (١٢٧) المذابح
 الجماعية بين المسلمين والمسيحيين فى اليونان (١٢٨) مذابح
 المسلمين فى بلغاريا (١٣١) هياج الرأى العام الإسلامى : المطالبة
 بالمعاملة بالمثل (١٣٤) خطف فتاة مسيحية اعتلقت الإسلام (١٣٥)
 عقد مؤتمر دولى فى برلين لبحث حماية رعايا الدولة المسيحيين
 (١٣٦) تشهير جلاستون بالدولة العثمانية (١٣٧) تحليل موقف
 جلاستون (١٣٩) مذكرة بريطانيا للدولة العثمانية : عرض وتحليل
 ونقد (١٤٢) نتائج حملات جلاستون التشهيرية بالدولة
 العثمانية (١٤٥) .

الفصل الخامس

١٤٧ - ١٨٨ خدمات الدولة العثمانية للإسلام والعروبة (١)

أولاً : حماية الأماكن المقدسة الإسلامية

من مخططات الصليبية البرتغالية (١٤٧)

حماية المسجد الحرام والمسجد النبوى والمسجد الأقصى (١٤٧)

ثانياً : الدولة تحافظ على إسلام وعروبة شمالي إفريقيا (١٤٩)

الدولة تبسط سيادتها على ثلاثة أقاليم في شمالي إفريقية (١٤٩)
نشأة الأسطول العثماني : الفتوحات العثمانية الأولى كانت برية (١٥١)
كان إنشاء الأسطول ضرورة حربية للعثمانيين (١٥٢)البندقية
تنشئ إمبراطورية استعمارية في الليفانت(١٥٢) القائد العام للأسطول
(١٥٤) تنظيمات البحرية (١٥٦) وحدات الأسطول (١٥٦) تطوير
الأسطول العثماني (١٥٨) مصطلحات الأسطول العثماني ذات أصول
إيطالية (١٦٠) الأسطول العثماني عبر تاريخ الدولة(١٦٣) نشاط
مكلف للأسطول على عهد أبي الفتوح بعد فتح القسطنطينية (١٦٤)
الأسطول على عهد السلطان سليمان المشرع (١٦٧) النشاط
الحربي للأسطول العثماني في بحر إيجة عام (١٥٣٧) (١٦٨) نشاط
الأسطول على سواحل دلماشيا في البحر الأدرياتي سنة (١٥٣٨)
(١٦٩) انتصار بحري ساحق للأسطول في معركة پريفيزا
(١٦٩) امتداد نشاط الأسطول إلى الحوض الغربي للبحر
المتوسط (١٧٠) هجوم الأسطولين العثماني والفرنسي على
ثغر نيس(١٧١) الأسطول العثماني يتخذ من طولون قاعدة حربية
له (١٧٢) هزائم الأسطول العثماني (١٧٤) مسلمو الأندلس
يستجدون بالدولة العثمانية (١٧٦) أهداف البرتغاليين والإسبانيين
من نقل الحرب الصليبية إلى شمالي إفريقية (١٧٧) تفاقم الخطر
الصليبي الإسباني على شمالي إفريقية (١٧٧) مسلمو الأندلس
وشمالي إفريقية يستغيثون بالدولة العثمانية (١٧٩) :

(أ) أهل غرناطة يستجدون بالسلطان محمد أبي الفتوح (١٧٩).

(ب) أهل الأندلس يستجدون بالسلطان أبي يزيد الثاني (١٨٠).

سكان شمالي إفريقية مجاهدون إسلاميون وليسوا قراصنة :
مناقشة فرية أصقت بهم(١٨١) للدولة العثمانية ومجاهدو شمالي
إفريقية (١٨٢)الدولة العثمانية وخير الدين (١٨٣) سكان مدينة
الجزائر يرسلون رسالة استغاثة للسلطان سليم الأول (١٤) دراسة
تحليلية للوثيقة (١٥) استجابة سليم الأول لاستغاثة أهل مدينة
الجزائر (١٦) صعوبة موقف خير الدين (١٨٧) .

أولا : الجبهة الإسبانية لطرد الإسبانين من الجيوب التي أقاموها على ساحل الجزائر (١٨٧) .

ثانياً : الجبهة الداخلية لتوحيد المغرب الأوسط (١٨٨) .

خير الدين يجعل الجزائر قاعدة عثمانية لصد الهجوم الإسباني (١٨٨) .

الفصل السادس

خدمات الدولة العثمانية للإسلام والعروبة (٢) ١٨٩ - ٢٢٨

الدولة العثمانية تحافظ على إسلام وعروبة

شمالى إفريقية (تتمة) (٢)

الدولة تعيد تونس إلى رحاب الكتلة الإسلامية (١٨٩)

السلطان سليمان يعهد إلى خير الدين بفتح تونس (١٨٩) استيلاء شارل الخامس على تونس (١٩٠) هزيمة منكرة للإمبراطور (١٩١) أهالى الجزائر يبعثون برسالة إلى السلطان عقب هزيمة الإمبراطور يحددون فيها مطالبهم (١٩٣) الإسبان ينفلون نشاطهم الحرى إلى تونس (١٩٤) الطبع على ومحاولة إعادة الحكم الإسلامى إلى إسبانيا (١٩٥) تونس تعود إلى رحاب الكتلة الإسلامية العثمانية (١٩٨) أهل طرابلس يستغيثون بالدولة العثمانية من فرسان القديس يوحنا : طرابلس تدخل فى رحاب الدولة العثمانية (١٩٨) هبوط حدة الصراع بين الدولة العثمانية وإسبانيا (٢٠١) إخفاق الدولة العثمانية فى بسط سيادتها على مراكش (٢٠٢) .

ثالثاً : إيجاد وحدة على الطبيعة

بين الولايات العربية (٢٠٥)

إيجاد وحدة من نوع خاص بين الولايات العربية (٢٠٥) عوامل هذه الوحدة وأمثلة عليها (٢٠٦) تفتتت العالم العربى بعد سقوط الدولة العثمانية (٢١٣) تفتتت سوريا ولبنان (٢١٤) إنشاء كيان سياسى فى شرقى الأردن (٢١٥) فصل شرقى الأردن عن فلسطين (٢١٦) العراق (٢١٧) نجد (٢١٧) .

رابعاً : إبعاد الزحف الاستعماري عن الوطن العربي

طوال فترة تراوحت بين ثلاثة وأربعة قرون (٢١٨)

بقي الوطن العربي بعيداً عن الزحف الأوروبي الاستعماري
ما بقيت الدولة قوية مهيبة الجانب (٢١٨) احتلال فرنسا لنيابة
الجزائر عام (١٨٣٠) (٢١٨) للحرب اليباردة بين الدولة العثمانية
وفرنسا لاسترداد الجزائر (٢٢١) بسط الحماية الفرنسية على تونس
(١٨٨١) (٢٢٣) الاحتلال البريطاني لمصر (١٨٨٢) (٢٢٣) تساقط
معظم الولايات العربية قبيل الحرب العالمية الأولى وفي أثنائها تحت
الاستعمار الأوروبي (٢٢٤) .

خامساً : الدولة تضلّى الهدوء والاستقرار على الولايات العربية (٢٢٥) .

سادساً : الدولة تمنع انتشار المذهب الشيعي إلى ولاياتها العربية (٢٢٨) .

الفصل السابع

خدمات الدولة العثمانية للإسلام والعروبة (٣) ٢٢٩ - ٢٥٧

سابعاً : الدولة تمنع اليهود من استيطان سيناء (٢٢٩) .

ثامناً : الدولة تحد من هجرة اليهود إلى فلسطين (٢٣٥) .

الدولة العثمانية تعاصر مولد ونشأة الحركة الصهيونية (٢٣٥)
الدولة ترفض طلب يهود روسيا الهجرة إلى فلسطين (٢٣٦) اليهود
ينتهجون سياسة التحدى الباب العالي (٢٣٧) مؤتمر كاتونيز (٢٣٨)
الدولة العثمانية تطيل مدة إقامة اليهود في فلسطين إلى ثلاثة أشهر
(٢٣٨) الوضع الإداري لبית المقدس قبل السلطان عبدالحميد الثاني
(٢٣٩) عبد الحميد يدخل تعديلاً على الوضع الإداري لبית المقدس
(٢٤١) المستعمرات الصهيونية الأولى (٢٤١) التمويل المالي
الأوروبي للمستعمرات (٢٤١) تفسير قيام المستعمرات الصهيونية
الأولى (٢٤٢) السلطان عبدالحميد يواجه زعيماً صهيونياً خطيراً
(٢٤٤) اتساع نطاق الحركة الصهيونية (٢٤٥) تجديد فرض القيود
على هجرة اليهود إلى فلسطين عام (١٩٠٠) (٢٤٦) مشروع

صهيوني يعرضه هرتزل على السلطان (٢٤٦) عقد أول مؤتمر صهيوني في فلسطين سنة (١٩٠١) (٢٤٨) الدولة تمنع عقد مؤتمرات صهيونية في فلسطين (٢٤٩) مشروعات صهيونية لغزو فلسطين مالياً وبشرياً (٢٥٠) عبدالحميد يرفض إنشاء جامعة عبرية في فلسطين (٢٥٠) نقطة الضعف في سياسة عبدالحميد تجاه المسألة الفلسطينية (٢٥٤) .

الفصل الثامن

آراء محايدة في

حكم السلطان عبدالحميد الثاني (١) ٢٥٩ - ٢٧٧

إسفاف في إلصاق التهم بعبدالحميد (٢٥٩) الانقلاب الدستوري (٢٦٠) الانقلاب العسكري (٢٦١) وسائل الإرهاب التي لجأ إليها عبدالحميد (٢٦٢) حادث قصر چراغان (٢٦٣) إحراق الباب العالي (٢٦٤) من ذيول حادث قصر چراغان (٢٦٤) محاولة أخرى للقيام بانقلاب (٢٦٥) مناقشة أسر الشريف الحسين وعائلته في إسطنبول (٢٦٧) أهداف حملات التشهير بالسلطان عبدالحميد (٢٧٠) .

الفصل التاسع

آراء محايدة في

حكم السلطان عبدالحميد الثاني (٢) ٢٧٩ - ٣٠٦

حقيقتان هامتان (٢٧٩) الحقيقة الأولى (٢٧٩) نظريتان استعماريّتان في السياسة الدولية (٢٧٩) روسيا تبتلع معظم آسيا الوسطى ومعظم القوقاز (٢٨٠) روسيا تحتل بعض الأراضي الأفغانية (٢٨١) تقسيم فارس إلى منطقتي نفوذ روسي وبريطاني (٢٨١) محاولة روسيا إنشاء مستعمرة لها في شرقي إفريقيا (٢٨٢) خصائص استعمار إفريقية (٢٨٣) الاستعمار البريطاني : حركة الجامعة البريطانية في إفريقية (٢٨٥) الاستعمار الفرنسي (٢٨٨)

نزول ألمانيا وإيطاليا وبلجيكا ميادين الاستعمار (٢٩٠) أولاً :
 الاستعمار الألماني (٢٩٠) ثانياً : الاستعمار الإيطالي (٢٩١) مكافحة
 الإجراء من أسباب الاستعمار الإيطالي (٢٩١) عوامل أخرى دفعت
 إيطاليا إلى الاستعمار (٢٩٢) ثالثاً : الاستعمار البلجيكي : مؤتمر
 برلين الإفريقي (١٨٨٤-١٨٨٥) (٢٩٤) التنافس الاستعماري على
 منطقة الخليج العربي (٢٩٦) بوادر تسلل استعماري أمريكي (٢٩٩)
 اضمحلال الدولة العثمانية قبل ارتقاء عبدالحميد الثاني العرش (٣٠١)
 تسابق الدول الأوروبية على امتلاك الولايات العثمانية (٣٠٣) لم تكن
 الدول الاستعمارية قد بلغت حد التشيع إبان حكم عبدالحميد (٣٠٤)
 وسائل الدول الاستعمارية في بسط سيطرتها (٣٠٥) .

الفصل العاشر

آراء محايدة في

حكم السلطان عبدالحميد الثاني (٣) ٣٠٧ - ٣٥١

الحقيقة الثانية (٣٠٧) دبلوماسية عبدالحميد لإحباط مؤتمر
 الآستانة (١٨٧٦-١٨٧٧) (٣٠٩) عبدالحميد يتلقى إنذاراً من الدول
 (٣١٢) الروسية تعلن الحرب رسمياً على الدولة (٣١٣) الأحداث
 السياسية والدينية في أثناء الحرب (٣١٤) من أخطاء السلطان
 عبدالحميد (٣١٥) نجاح الدبلوماسية الروسية في أثناء الحرب
 (٣١٦) أمجاد عسكرية حققتها القوات العثمانية (٣١٧) عبدالحميد
 يطلب وساطة الدول لدى قيصر روسيا لوقف إطلاق النار (٣١٨)
 ظهور مشكلتين لم تكونا في حساب عبدالحميد (٣١٩) .

- (١) رغبة اليونان في دخول الحرب ضد الدولة (٣١٩) الروسية
 تعرض على اليونان الاشتراك في الحرب (٣٢١) .
- (٢) ثورة كريت (٣٢٢) .

وصول القوات الروسية إلى ضواحي إستانبول (٣٢٤) شروط
 جائزة فرضتها روسيا لعقد هدنة (٣٢٤) بريطانيا ترسل
 أسطولها إلى البوسفور (٣٢٤) الروسية تطلب إرسال أسطولها إلى

المضايق ودخول جيشها في إستانبول (٣٢٥) ضغط مهين مارسته روسيا على الدولة العثمانية (٣٢٦) معاهدة سان ستفانو، عرض وتحليل ونقد (٣٢٧) إخفاق الدبلوماسية الروسية بعد الحرب (٣٣٢) اعتراض الدول على معاهدة سان ستفانو (٣٣٢) المطالبة بعقد مؤتمر دولي لإعادة النظر في معاهدة سان ستفانو (٣٣٣) مؤتمر برلين الأوروبي (١٨٧٨) (٣٣٤) معاهدة برلين (١٨٧٨) (٣٣٤) .

أولاً : خسائر الدولة في أوروبا (٣٣٥) .

ثانياً : خسائر الدولة في آسيا (٣٣٧) .

ثالثاً : خسائر الدولة في حوض البحر المتوسط (٣٣٨) .

رابعاً : خسائر الدولة في إفريقية (٣٤١) تونس (٣٤١) احتلال مصر (٣٤٦) مطامع إيطاليا في ولايتين عثمانيتين : تونس ومصر (٣٤٨) مجموعة كوارث تنزل بالدولة في معتزل حكم عبدالحميد (٣٥٠) أكذوبة رئيس وزراء بريطانيا (٣٥٠) أوروبا لم تعط الدولة العثمانية فرصة استجمام لالتقاط أنفاسها (٣٥١) .

* * *

الفصل الأول

صور من حملات التشهير بالدولة (١)

الفكرة وراء حملات التشهير :

أشرنا في مستهل الفصل الأول من هذه الدراسة إلى بعض الملامح العامة لحملات التشهير التي تعرضت لها الدولة العثمانية في مسيرتها الطويلة عبر العصور والأدوار والأحقاب من كبريات الدول الأوروبية الاستعمارية والبابوية في روما والصهيونية العالمية وغيرها من القوى الضالعة معها . واستهدفت هذه الحملات التشهيرية النيل من الدولة : سلطاناً مسلماً ، وحكومة إسلامية ورعايا مسلمين . وأسهم في هذه الحملات رجال الحكم والسياسة والدين والمؤرخون والباحثون وغيرهم في أوروبا . وردد عدد من أقرانهم العرب في العصور المتأخرة جوانب كثيرة من هذه الحملات بحيث استقرت في أذهان الكثيرين مفاهيم خاطئة عن الدولة .

وكان مرد هذه الحملات إلى أن الدولة العثمانية كانت أول دولة إسلامية في التاريخ استطاعت أن تفتح الجزء الجنوبي الشرقي في أوروبا . وكانت تحارب في أول الأمر في جبهتين في وقت واحد : جبهة أناضولية للقضاء على الدول المسيحية والكيانات المسيحية المتناثرة وقتذاك في شبه جزيرة الأناضول ، وجبهة أوروبية بعد أن عبرت جيوشها البحر إلى أوروبا وانتقلت من نصر إلى نصر تكتسح الأقاليم الأوروبية وتدماب غرباً في سهول المجر وتدخل عاصمتها بودابست وتقترب من مشارف فيينا عاصمة النمسا . وإذا كانت قد طويت صفحة الحكم الإسلامي في الأندلس بعقد معاهدة غرناطة عام ١٤٩١ ، فإن الدولة العثمانية قد استبدلت بهذه الهزيمة انتصارات إسلامية مؤزرة على أرض القارة الأوروبية وحوض البحر المتوسط وشمال إفريقيا حيث نشب صراع صليبي عنيف حمل لواءه البرتغاليون والإسبانيون ، وابتغوا من ورائه الاستيلاء على أقاليم شمالي إفريقيا وتحويل سكانها إلى المسيحية . ونظر الأوروبيون إلى الدولة على أنها دولة إسلامية حربية من الطراز الأول تروم تحويل دار الحرب إلى دار الإسلام^(١) . ومن هنا نبئت حملات التشهير بالدولة سواء وهى فى أوج مجدها أو فى

(١) يقسم الفقه الإسلامى العالم إلى قسمين : دار الإسلام ودار الحرب . وتشمل الأولى البلاد التى يكون للمسلمين ولاية عليها . وتضم إلى جانب المسلمين أشخاصاً من غير المسلمين هم «الذميون والمستأمنون» وسنشرح مدلولهما عند الكلام على معاهدات الامتيازات التى عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية . أما دار الحرب فتشمل البلاد التى ليس للمسلمين ولاية عليها ، ولاتقام فيها أكثر شعائر الإسلام .

عصر اضمحلالها أو بعد زوالها . وقد امتدت هذه الحملات إلى ممتلكات الدولة في أوروبا وإلى ولاياتها العربية . وسنعرض نماذج لهذه الحملات من كلا النوعين .

نماذج لحملات التشهير :

أولاً: حرمان الولايات العربية من علمائها المبرزين وعمالها المهرة الفنيين

كانت من أولى الحملات التي وجهت ضد الدولة العثمانية أن السلطان سليم الأول بعد أن فتح مصر عام ١٥١٧ أمر بترحيل أفواج كثيفة العدد من صفوة علماء الفقه الإسلامى وأصوله ومذاهبه وعلوم القرآن الكريم والتفسير والحديث والتوحيد والأحكام والإفتاء ، وغيرهم من كبار الموظفين والتجار والصناع من حى خان الخليلى وموظفى الحسابات الحكومية ورجال الأعمال . وكانوا يضمون عدداً من المسيحيين من ذوى المهارات الخاصة . وقد بلغ عددهم زهاء ألف وثمانمائة رجل ، أنزلتهم السلطات العثمانية تبعاً فى سفن نيلية شقت طريقها إلى الإسكندرية ، ومنها استقلوا السفن العثمانية إلى إستانبول .

وترحيل هذه الثروة البشرية إلى إستانبول واقعة صحيحة لامراء فيها ، ذكرها المؤرخ المصرى العملاق محمد بن أحمد بن إياس ، وكان معاصراً لأحداث الفتح العثمانى لمصر ، وكان لا يكتفى بتقديره للعثمانيين بعامة والسلطان سليم الأول بخاصة . ونظر إليهم على أنهم كانوا السبب المباشر فى انقضاء حكم دولة المماليك الشراكسة ، وكان يتبوأ فيها مكاناً عالياً ، وقد أضاف ابن إياس إلى واقعة ترحيل المصريين إلى إستانبول نتيجة مهمة هى «تعتل فى مصر نحو خمسين صنعة ، وتعتلت منها أصحابها ، ولم تعمل فى أيامه بمصر» (١) .

وتلقت فريق من المؤرخين والباحثين الأوروبيين هذه الحقيقة التاريخية دون تمحيص أو متابعة لما كتبه ابن إياس بعد ذلك فى هذا الموضوع بالذات . والواقع أن هذه الحقيقة كانت قصيرة الأمد لم تطل أكثر من ثلاث سنوات . والجملة الأخيرة التى اختتم بها ابن إياس عبارة تفيد هذا المعنى كما سنوضح بعد قليل . ولكن أقام المتحاملون صروحاً من الخيال الواسع ، فقالوا إن حرمان البلاد العربية من ذلك الرصيد البشرى المتميز والتمايز قد أضرب بالحياة الفكرية فى مصر وبر الشام ، وأعاق للنشاط المهنى والحرفى فيها ، وأنه عاد بالنفع الجزيل على عاصمة الدولة . وذهب بعضهم إلى القول بأنه كان نوعاً من النفى L'exil ، وأن العرب الذين فرضت عليهم الإقامة الجبرية فى إستانبول كانوا فى عداد المنفيين (٢) Les Exiles ، وهى حقيقة

(١) ابن إياس ، مصدر سبق ذكره ، ج ٥ ، تحقيق ونشر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م ، ص ٢٠٧ ، حوادث شهر شعبان ٩٢٣ .

(٢) لعل منشأ هذه التسمية أنه كان يوجد فى إستانبول معتقل أو سجن يسمى «يدى قوله» أى قلعة الأبراج السبعة (انظر ماسبق عن هذا المعتقل) وكان يعتقل فيه بعض الشخصيات العثمانية والأجنبية . وكان =

تتهاوى حين نعلم أن معظمهم رفضوا العودة إلى مصر بعد ذلك^(١) . ويلاحظ أيضاً أن إستانبول كانت وقتذاك أجمل وأكبر مدن العالم الإسلامي ومن أكبر مدن أوروبا . إن مايكن أن يذكره باحث محايد أن مصر قد قامت كرهاً في أثناء إقامة سليم الأول في مصر بدور دولة رائدة في تصدير بشرى حضارى إلى إستانبول . وهو الدور ذاته الذى تقوم به مصر طوعاً فى القرن العشرين بشكل أكثر وضوحاً وبروزاً وقوة وشمولاً بتصدير العقول المصرية والعمالة المصرية والخبرات المصرية إلى شتى أنحاء العالم الإسلامى والعربى .

نشير بعد هذه الوقفة القصيرة إلى عدة حقائق ، منها :

أولاً: السلطان سليم صاحب نظرية ترحيل العناصر البشرية العلمية والعملية من البلاد العربية إلى إستانبول قد غادر القاهرة يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر شعبان عام ٩٢٣ الموافق اليوم العاشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥١٧ إلى بلاد الشام فى طريق عودته إلى عاصمته دولته - ولكن لم يطل به العمر إذ قضى نحبه فى التاسع من شهر شوال عام ٩٢٦ الموافق الثانى والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥٢٠ . والمعنى المستفاد من هذا التسلسل التاريخى أنه لم يطل على قيد الحياة إلا زهاء ثلاثة أعوام ، وخلفه على العرش ابنه السلطان سليمان المشرع . وكان من أولى تصرفاته أنه أصدر فرماناً بأن يعود إلى مصر جميع الطعام والعمال الذين كان والده قد أمر بترحيلهم من مصر^(٢) .

ثانياً : على الرغم من صدور هذا فرمان السلطانى ، رفض المصريون العودة إلى بلادهم وفضلوا البقاء فى إستانبول ، ومعنى هذا الرفض أن الحياة طابت للمصريين فى

= السلطان سليم قد أمر بإيداع المتوكل ، الخليفة العباسى فى القاهرة ، فى هذا المعتقل حين علم أنه مستغرق فى التسيّات وأنه يرتكب أموراً لا تتفق مع مركزه الدينى ، ولما توفى سليم رأى ابنه السلطان سليمان أن خليفة على هذا الخلق لا يستحق أن يودع فى المعتقل ، فأمر بإعادته إلى مصر حيث عاش على هامش الحياة إلى أن أدركته الوفاة . وكذلك أمر السلطان سليم بأن يودع فى هذا المعتقل الأمراء والمالِك والشراكسة الذين أظهروا لداً فى عدائهم للعثمانيين . ولما تولى سليمان العرش ظل على رأى والده ولم يقبل قديم شفاعته .

انظر :

ابن إياس ، مصدر سبق ذكره ، ج ٥ ، ص ٤٠٢ من حوادث شهر رمضان عام ٩٢٧ (الخامس من شهر أغسطس - آب - حتى الثالث من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥٢١) .

(١) انظر ص ٦٩٣ .

(٢) ابن إياس ، مصدر سبق ذكره ، ج ٥ ، ص ٢٩٤ ، من حوادث شهر جمادى الأولى عام ٩٢٧ حيث يقول «وفى هذا الشهر حضر جماعة كبيرة من إستانبول ممن كان السلطان سليم شاه أسرهم وأخرجهم من مصر . فلما مات سليم شاه بن عثمان واستقر واده سليمان بعده رسم بعد الأسراء قاطبة إلى بلادهم . ورأف عليهم ، وأظهر العدل فيهم ...» .

إستانبول . ويبدو أن فرص العمل كانت أمامهم كثيرة وميسرة وأن رزقهم كان يأتيهم رغداً من كل مكان ، أو لعلهم تزوجوا شركسيات واقتنوا الجوارى الفاتنات ، أو لسبب أو آخر .

ثالثاً : لما أدرك السلطان سليمان المشرع أن المصريين يرفضون مغادرة إستانبول ويؤثرون الإقامة فيها على العودة إلى مصر ، أصدر فرماناً لاحقاً في شهر رجب عام ٩٢٧ (٧ من يونيو - حزيران - إلى ٦ من يوليو - تموز - عام ١٥٢١) أمر فيه بشنق كل مصرى يرفض العودة إلى مصر أو يتباطأ في العودة إليها (١) .

رابعاً : نجم عن هذا الفرمان أن تعاقب وصول المصريين أفواجا إلى مصر ، حتى اتخذت عودتهم شكل ظاهرة طرأت على المجتمع في مصر في ذلك الوقت . وكان ابن إياس لا يزال مقيماً في القاهرة . وأشار إلى هذه الظاهرة في أكثر من موطن في يومياته (٢) ، بل إنه كان يذكر بصفة كانت تكون رتيبة أسماء المصريين العائدين إلى مصر . وكان بعضهم يحضر براً والبعض الآخر بحراً . وقد نظر ابن إياس إلى تصرف سليمان المشرع بإعادة المصريين إلى بلدهم على أنه مآثرة من مآثر هذا السلطان . وتصرع إلى الله سبحانه وتعالى أن يؤتية من لدنه نصراً مبيناً لأنه سمح للمصريين بالعودة إلى بلدهم (٣) .

خامساً : إن حرمان مصر من بعض عناصرها البشرية المنتجة لم يستمر أكثر من ثلاث سنوات على أكثر تقدير . وقد تكون هذه الفترة الزمنية ذات بال على حياة فرد ، ولكنها لا تكون بأى حال من الأحوال ذات أثر يعرقل مسيرة شعب ، لأن شعوب الأمة العربية لم تبدأ من فراغ ، وإنما هي ذات ماض حضارى يطاول الزمان وجوداً . وقد عاد أهل الفكر والصناعة إلى مصر بعد غيبة ثلاث سنوات ، وباشروا نشاطهم العلمى والمهنى والحرفى فى ربوع البلاد . ولما جاء بونابرت إلى مصر عام ١٧٩٨ على رأس الحملة الفرنسية بعد قرابة ثلاثة قرون (١٥١٧-١٧٩٨) كان الأزهر يروج بنشاط علمى . ونظر بونابرت إلى المشايخ علماء الأزهر نظرة إجلال وتقدير عميقين ، استناداً إلى أن لهم صفتين : الصفة الأولى أنهم الصنف الممتازة من الطبقة المستنيرة فى البلاد المتعمقون فى الدراسات الدينية واللغوية أو السريونيين Les Sorbonistes ، وأما الصفة الثانية فهى أنهم زعماء الشعب فى مصر (٤) . ومارس فى الوقت ذاته أيضاً الصانع

(١) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٩٧ .

(٢) انظر على سبيل المثال : المصدر السابق ، ص ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٤٠٣ ، ٤٢١ ، ٤٢٦ ، ٤٣٤ ، ٤٥٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠٣ .

(٤) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : صور من نور الأزهر إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٠٥ .

والعمال المهرة المصريون نشاطهم المهني والحرفي في خان الخليلي وأسواق العقادين والنحاسين والصاغة والمروجية وغزل ونسج الأقمشة الكتانية والقطنية وتطريز الحرير والجوخ والجلود بأسلاك الذهب والفضة ، والأخشاب المخروطة في عمل المشربيات واللواظ وصناعة العاج وغيرها .

سادساً: استخدم ابن إياس الدقة في الصياغة اللفظية ، حين ذكر الإجراء الذي اتخذه السلطان سليم بتصدير الخبرات المصرية إلى إستانبول ، وقال إنه نجم عن هذا التصرف تعطل نحو خمسين صنعة في مصر لم تعمل في أيامه في مصر . وهو أسلوب بارع في التعبير يوضح أن التعطل العلمي والمهني قد حدث إبان حكم هذا السلطان ثم استأنف أصحاب الخبرات نشاطهم بعد انقضاء حكمه . وقد فات هذا التعبير وهذا المعنى معظم المؤرخين والباحثين العرب في القرن العشرين . ومع ذلك يعيب البعض على أسلوب ابن إياس أنه ملئ بالألفاظ العامية ، ولكن اتضح أن النسخة المختصرة لكتابه هي التي كتبت باللغة الدارجة - أما النسخ المطولة التي كتبت بخط المؤلف أو طبق الأصل منها - فهي بأسلوب مصقول جيد وإن كانت مليئة بكثير من الألفاظ والأساليب غير العربية ؛ لانتشار اللسان التركي في مصر بين طبقات الخاصة في العصر المملوكي ولأسباب أخرى (١) .

واستكمالاً لبحث جميع جوانب هذا الموضوع ، تبقى نقطة أخيرة هي مناقشة رأى فريق من أساتذة التاريخ في بعض الجامعات العربية ، لأن كثيرين منهم يذكرون جانباً واحداً من الحقيقة ، وهو أن السلطان سليم الأول أصدر الخبرات العلمية والفنية إلى إستانبول ، ويغفلون ذكر الجانب الثاني ، وهو أن هذه الخبرات عادت إلى مواقعها واستأنفت نشاطها بعد ثلاثة أعوام ، وهذا الإغفال يتنافى مع مناهج البحث العلمي . ويرجع التفسير المحايد والموضوعي لرأيهم إلى أن هؤلاء الزملاء اكتفوا بما كتبه المؤرخون والباحثون الأوروبيون أو المتحاملون ، ولم يتابعوا ما كتبه ابن إياس في الجزء الخامس من كتابه عن السنوات الأولى من الحكم العثماني في مصر عقب وفاة السلطان سليم ؛ أي في خلال السنتين الأوليين من حكم ابنه السلطان سليمان المشرع ، وهي فترة امتدت عامين وبعض عام ، وعلى وجه التحديد من ٩ من شوال ٩٢٦ (٢٢ من سبتمبر - أيلول - عام ١٥٢٠) حتى نهاية عام ٩٢٨ هـ في العشرين من شهر نوفمبر - تشرين ثان - ١٥٢٢ . وقد كتب ابن إياس تاريخ هاتين السنتين في حوالي مائة وأربع وثلاثين صفحة من القطع الكبير المطبوع (٢) . ومن المستبعد جداً - إن لم يكن في حكم الاستحالة - أن يعلم

(١) دكتورة سيدة إسماعيل كاشف : مكانة ابن إياس بين مؤرخي مصر في العصور الوسطى ، من بحوث ندوة ابن إياس ، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٧ ص ٤٧-٦٢ .

(٢) ابن إياس : ج ٥ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦٠-٤٩٤ .

أساتذة جامعيون عرب أجلاء الحقيقة بعنصريها ، ويكتمون العنصر الثاني ويكتفون بالعنصر الأول ، لأن في هذا الإغفال تشويهاً للحقائق التاريخية وإساءة للدولة العثمانية من غير مقتض . أما المتحاملون فلا حيلة لنا معهم إلا كشف زيفهم . إن مثلهم في موقفهم كمثل الذي يذكر قول الله سبحانه وتعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة» ثم لا يستكمل بقية الآية الكريمة التي هي جزء منها ولا يستقيم المعنى دونها ، وهي «وأنتم سكارى . حتى تعلموا ما تقولون» (١) ، أو كالذي يذكر الآية القرآنية الكريمة «فويل للمصلين» (٢) ثم لا يردفها بالآية التالية ، وهي : «الذين هم عن صلاتهم ساهون» (٣) .

ثانياً : عزلة الولايات العربية عن العالم

أما عن العزلة التي قيل إن الدولة العثمانية قد فرضتها على الأقاليم العربية التي دانت لحكمها .. فإن الأحداث الدولية التي سبقت ثم صبحت ثم لحقت الفتح العثماني لهذه الأقاليم كفيلاً بالرد على هذا الافتراء . فالعثمانيون فتحوا بلاد الشام عام ١٥١٦ ، ثم مصر عام ١٥١٧ ، وفي ذات هذه السنة دخل الحجاز دخولاً سلمياً تحت السيادة العثمانية . ونهج هذا النهج الأمراء المماليك الذين كانوا يحتلون وقتذاك بعض مناطق في اليمن . وهكذا دخلت في خلال عام وبعض عام أربعة أقاليم عربية تحت السيادة العثمانية . وظهرت الدولة العثمانية لأول مرة في تاريخها دولة من دول البحر الأحمر تطل مصر والحجاز واليمن على ساحليه الغربي والشرقي .

ولكن حدث قيل أن تدخل هذه الأقاليم الإسلامية العربية تحت الحكم العثماني ، وقبل أن تصبح الدولة العثمانية من دول البحر الأحمر ، أن بدأ الغزو البرتغالي للبحار الشرقية ومنطقة الخليج العربي بوصول طلائع الغزاة البرتغاليين تحت ستار الكشوف الجغرافية . وكانت تحملهم سفن مسلحة بقيادة فاسكو دي جاما Vasco de Gama وألقت مراسيها في ثغر كاليكوت Calicut على الساحل الغربي للهند في اليوم الثامن عشر من شهر مايو - آيار - ١٤٩٨ ؛ أي قبل وصول العثمانيين لتلك الأقاليم العربية التي دخلت تحت سيادتها بتسعة عشر عاماً (١٤٩٨-١٥١٧) . وكان هذا الغزو البرتغالي هو أول غزو عسكري أوروبي مسيحي في التاريخ الحديث لأجزاء من العالم الإسلامي والعالم العربي في الشرق ، واستهدف تحقيق أغراض صليبية واستعمارية واقتصادية . وكان شعار هذا الغزو الطاريء «الصليب أو المدفع» ، أي كان على المسلمين أن يعتنقوا المسيحية ، أو يتعرضوا لقصف مدافع الأسطول تلك المدن والمساجد والمنشآت والمكان .

(١) سورة النساء . مطلع الآية رقم ٤٣ .

(٢) سورة الماعون . الآية رقم ٤ .

(٣) سورة الماعون الآية رقم ٥ .

كما كان من أهداف البرتغاليين الاستيلاء على أقاليم شاسعة فى الهند وشرقى الجزيرة العربية وجنوبيها وأقاليم مطلة على البحر الأحمر والساحل الشرقى لإفريقية المطل على المحيط الهندى وجنوبى شرق آسيا وغيرها ، ثم تطور هذا الهدف إلى إنشاء مراكز تجارية مسلحة فى هذه الأقاليم ؛ نظراً لأن إنشاء هذه «الإمبراطورية» الشاسعة كان يتطلب قوات عسكرية كبيرة وكانت البرتغال تعاني من عدم كثافة سكانها . وكان من أهم أهداف البرتغاليين أيضاً احتكار التجارة الشرقية لأنفسهم بالحصول عليها من مصادر إنتاجها أو مواطن صنعها . وكان من هذه السلع العقاقير الطبية والأقمشة الحريرية والتوابل والبخور وللعطور وغيرها ، ثم يتولى البرتغاليون نقل هذه السلع بمعرفتهم عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى لشبونة حيث يتم توزيعها وتسويقها فى دول أوروبا . وقد نجحوا إلى حد بعيد فى تحقيق هذا الهدف الأخير وطاردوا السفن الإسلامية والعربية فى مياه المحيط الهندى مما أدى إلى إغلاق الطريقين التجاريين القديمين التقليديين وهما : طريق الخليج العربى والعراق ثم إلى الشام حيث كانت السفن الأوروبية تتردد على أساطيلها (١) ، تشحن منها شتى ملح التجارة العالمية وتنقلها إلى الدول الأوروبية . أما الطريق الآخر فكانت السفن العربية الإسلامية تمر منه فى البحر الأحمر إلى السويس ، ثم تنقل السلع على ظهور الإبل إلى القاهرة ومنها فى النيل إلى أساطيل مصر مثل الإسكندرية ودمياط ورشيد .

البرتغاليون يستهدفون تخريب مكة المكرمة والمدينة المنورة :

وضع البرتغاليون أيضاً مخططاً صليبيّاً خطراً للغاية تمثل فى دخولهم البحر الأحمر وفى استيلائهم على جدة ، ثم الزحف منها على مكة المكرمة لهدم الكعبة الشريفة ، ثم مواصلة الزحف منها على المدينة المنورة لنهب قبر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ومواصلة الزحف بعد ذلك إلى تبوك وصولاً إلى بيت المقدس حيث المسجد الأقصى وقبة الصخرة . وكان الشريف بركات أمير مكة المكرمة قد ارتأب فى ثلاثة أشخاص تسللوا إلى مكة المكرمة . وكانوا يحرمون حول المسجد الحرام متظاهرين بأنهم مسلمون ، ويرتدون زى العثمانيين ، ويتكلمون العربية والتركية . فأمر بالقبض عليهم . وبالكشف على أجسامهم اتضح أنهم مسيحيون لأنهم كانوا يغيرون ختان . وباستجوابهم اتضح أنهم جواسيس برتغاليون بعثت بهم سلطات لشبونة ليعملوا أدلاء للجيش البرتغالى الصليبي عند دخوله مكة وقد وضعهم فى الحديد وبعث بهم إلى السلطان الغورى (٢) . وقد وقع هذا الحادث فى عام ١٥١٠ ، أى قبل امتداد النفوذ العثمانى إلى البحر الأحمر بحوالى سبعة أعوام . وكان السلطان الغورى قبل زوال دولة

(١) أساطيل كلمة تركية مفردتها أسكلة بمعنى الميناء ، أو رصيف السفن ، أو مرسى السفن .

أنظر مشتقات هذه الكلمة وأصلها الإيطالى فى ثبت المصطلحات التركية فى نهاية هذه الدراسة .

(٢) ابن إياس ، مرجع سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ١٩١ .

الممالك الشراكسة قد خاض صراعاً حريماً عنيفاً ضد البرتغاليين ، وخرج أسطول الممالك من البحر الأحمر إلى الهند لضرب البرتغاليين . ولكن باءت محاولاته بالفشل ، لأن المعارك كانت تدور فوق سطح الماء . وكان الأسطول البرتغالي أكثر قوة وتسليحاً وتدريباً ؛ وبحارته أكثر خبرة وكفاية في الفنون البحرية الحربية من بحارة الأسطول المملوكي . وكان البرتغاليون بعد وصولهم إلى الهند قد نقلوا جزءاً من نشاطهم الحربي إلى منطقة الخليج العربي وبحر العرب واستولوا على مسقط وهرمز والبحرين وقلعات على ساحل عمان ، وقريات ، وصحار ، وحور وغيرها وجزيرة سقطرى Socotra أو Socotra وضربوا ساحل عمان . وعلى الرغم من أنهم فشلوا في احتلال عدن ، نجحوا في دخول البحر الأحمر . وبعد أن ضربوا بعض الجزر القريبة من مدخله الجنوبي وبعض ثغوره اتجهوا عام ١٥١٧ لاحتلال جدة . وكانت دولة الممالك الشراكسة قد لفظت أنفاسها الأخيرة . وباءت بالفشل محاولة البرتغاليين . ثم قاموا بهجوم ثانٍ عليها عام ١٥٢٠ ولكنهم فشلوا أيضاً . وحاول السلطان سليمان المشرع ضرب البرتغاليين بإرسال حملة كبرى عام ١٥٣٨ ، وقد نجحت الحملة في الاستيلاء على عدن ، وفشلت في ضرب البرتغاليين في الهند . ورد البرتغاليون على الدولة العثمانية بحملة بحرية كبرى دخلت البحر الأحمر واتجهت إلى ميناء السويس ، وهي مقر القاعدة العثمانية البحرية . ولكنها ولت مدبرة على أعقابها بعد أن تبين لها أن الأسطول العثماني في حالة تأهب . وقررت الدولة العثمانية وضع خطة جديدة لحماية الولايات العربية للخاضعة لها ، وتمثل هذه الخطة في اتخاذ عدن - وهي البوابة الكبرى للبحر الأحمر - خط دفاع وقاعدة عسكرية لضرب المراكز البرتغالية في شرقي الجزيرة العربية وللسيطرة على البحر الأحمر ، وزيادة نشاط الترسانة البحرية في السويس في بناء سفن حربية جديدة وعديدة . وتنفيذاً لهذا المخطط العسكري قررت الدولة ، كإجراء أمن داخلي وخارجي ، إغلاق البحر الأحمر في وجه السفن البرتغالية ، ثم عممت هذا المبدأ على جميع السفن المسيحية ؛ فكان لايسمح لها بالإبحار في البحر الأحمر فيما وراء ثغر المخا جنوبى ثغر الحديدة في اليمن ، فتفرغ شحناتها ويعاد شحن حمولاتها على سفن إسلامية تجوب أنحاء البحر الأحمر ، وتتردد على ثغوره وموانئه . وكانت ذريعة الدولة العثمانية في هذا المنع هي أن أهم الأماكن المقدسة الإسلامية في العالم على الإطلاق تقع في الحجاز . ويطل ساحل هذا الإقليم على مياه البحر الأحمر . وتأسساً على هذه الحقيقة يجب ألا تبحر فيه إلا السفن الإسلامية ، وظلت الدولة حريصة على تطبيق هذا المبدأ حتى القرن الثامن عشر .

السلطان سليم يعقد معاهدة مع جمهورية البندقية لتتسبب في البنادقة علي ممارسة نشاطهم في مصر ؛

ولكن قبل اتخاذ هذا الإجراء ، وفي أثناء إقامة السلطان سليم الأول في مصر ، وقد

امتدت ثمانية أشهر^(١)، عقد هذا السلطان فى اليوم الثانى والعشرين من شهر المحرم عام ٩٢٣ الموافق اليوم الرابع عشر من شهر فبراير - شباط - عام ١٥١٧ معاهدة بين الدولة العثمانية وجمهورية البندقية لتشجيع رعايا هذه الجمهورية على القدوم إلى الإسكندرية بسفنهم وبضائعهم ومباشرة نشاطهم التجارى فى جو من الطمأنينة والعدالة والأمن . وقد نشر الأستاذ إتيان كومب Etienne Combe أستاذ كرسى تاريخ العصور الوسطى الأوروبية بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية سابقاً اثنتين وثلاثين مادة من هذه المعاهدة^(٢) . وقد جاء فى ديباجتها أو مقدمتها أن هذه المعاهدة موجهة بصفة خاصة إلى حاكم الإسكندرية وموظفيها العموميين وضباط الشرطة ومن إليهم كى يحاطوا علماً بأن الامتيازات التى سبق أن منحها سلاطين دولة المماليك الشراكسة لرعايا جمهورية البندقية تستمر نافذة ، بعد أن وافق عليها السلطان سليم الأول .

وقد نصت المادة الأولى على أن رعايا جمهورية البندقية يقابلون من الجميع بترحاب وعدالة وسلوك اجتماعى ممتاز . ولا يجوز لأحد أن يوجه إليهم إهانة أو يظهر استعلاء عليهم فى جميع الموانئ المصرية . ومن حقهم البيع والشراء ، والأخذ والعطاء . ولا يجوز مساءلتهم عن خطأ ارتكبه غيرهم من رعايا الدول الأخرى فى المدن المصرية أو شخص آخر من البنادقة . ويجب إعلان هذا المبدأ القانونى بين جميع القضاة وأعضاء الهيئات المسئولة ، كما يجب معاملتهم طبقاً للأصول والتقاليد والعادات المتبعة دون أى تعديل .

ونصت المادة الثانية على تجنب إلحاق أى ضرر أو أذى أو مضايقة للبنادقة أو الاستيلاء بالقوة على ممتلكاتهم أو متاجرتهم أو سفينهم أو ممتلكاتهم مخازنهم ، ولا يحق لأى فرد أن يجبرهم على البيع إذا لم يوافقوا على هذا البيع ، كما لا يجبرون على دفع عوائد غير عادية وتصفية .

Ne pas molester les Vénitens, ni rien saisir de leurs biens, ni de leurs marchandises, par violence, ni sur leurs bateaux, dans leurs magasins, ne pas les obliger de vendre, s'ils n'y consentent pas; ne pas leur faire.. payer des taxes extraordinaires et abusives.

ونصت المادة الثالثة على أنه فى استطاعة القنصل أن يبيع السلع نقداً .

أما المادة الخامسة فقرررت أن القنصل دون سواء هو الذى يتولى السلطة القضائية بين

(١) دخل السلطان سليم القاهرة فى الثالث من شهر المحرم عام ٩٢٣ وكان يوافق اليوم السادس والعشرين من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٥١٧ وغادرها عائداً إلى بلاده فى الثالث والعشرين من شهر شعبان عام ٩٢٣ وكان يوافق اليوم العاشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥١٧ .

(2) Combe Etienne, Précis etc, op. cit, t. III, PP. 96-101.

مواطنيه وبيت في الأمور المتصلة بمصالحهم . فإذا رفض أحدهم الانصياع إلى حكم أصدره القنصل ولجأ إلى القاضي المسلم للطعن في هذا الحكم أو لكي يستشكل في تنفيذه فإن القاضي المسلم لا يستمع إلى دعواه ، وعليه أن يحيل الموضوع إلى القنصل . وإذا أراد القنصل إبعاد أى بندقى فعلى القاضي أن يقدم له مساعدة قوية . وليس في استطاعة أى فرد من رعايا جمهورية البندقية مغادرة الإسكندرية في سفينة للذهاب إلى بلاده أو إلى أى مكان آخر ، إلا إذا حصل من القنصل على إذن - جواز سفر .

ونصت المادة السادسة على أنه إذا وصلت سفينة تابعة لجمهورية البندقية إلى ميناء الإسكندرية .. فليس من حق أى موظف مصرى أن يصعد إليها أو يحصل منها على ما يريد ، ولا أن يحتك بأى فرد فيها ، ولا يسمح له بالتواجد عليها إلا في حالة الشراء فقط . وهذا الحق مقصور بوجه خاص على السفن التي تحمل الفوكة والعسل .

وقررت المادة السابعة منع أى فرد ، سواء كان محافظ المدينة - الإسكندرية - أو أحد أعيانها ، أو أحد عامة الشعب ، أو أحد قباطنة الميناء أو السفن ، أن يستولى على سفن جمهورية البندقية القادمة (إلى الميناء) أو - على ملاحيتها - طاقمها - أو أدواتها أو مجاديفها سواء عن طريق السلفة أو الشراء .

Personne, ni gouverneur de la ville, ni notables, ni gens du peuple, ni capitaines du port ou de navires, n'ont à s'occuper des bateaux vénitiens arrivant, ni de l'équipage, ni du grèement, ni des avirons, ni de quoi que ce soit, ni pour les emprunter, ni pour les acheter.

وقررت المادة التاسعة أنه إذا رغب القنصل في مقابلة أى موظف حكومى في مقر منصبه وامتنطى صهوة جواده ، أو إذا رغب في الخروج إلى الحدائق أو إلى أى مكان بعيد ، فله أن يفعل ذلك دون أن يمنعه أحد أو يعترضه أحد . وكان هذا الامتياز قد جدد على عهد السلطان طومان باى .

ونصت المادة العاشرة على أن السلع التي تحملها سفينة تتعرض للغرق يتم إنقاذ سلعها ومراقبتها وتسلم لأصحابها . أما عتاد السفينة وأخشابها وأدواتها يكون ملكاً لصاحب الجلالة (السلطان) فترد إليه أو إلى المحافظ . أما السلع التي تقذفها الأمواج إلى الساحل نتيجة غرق إحدى السفن فإنها ترد إلى أصحابها إذا عرفوا أو أثبتوا ملكيتهم لها . فإذا لم يستطيعوا فإنها ترد إلى القنصل . والسفن التي تصل إلى الساحل سليمة بعد إنقاذها يجب المحافظة عليها .

أما المادة الحادية عشرة فقد قررت أن السفينة التي تلجأ ضد رغبتها إلى ميناء الإسكندرية لسوء الأحوال الجوية ، ولا ترغب في أن تفرغ أى جزء من حمولتها ، لها أن تتم

رحلتها إذا لم تكن تحمل أى سلع برسم الإسكندرية . أما إذا كان عليها سلع خاصة بالإسكندرية ، وإذا قامت بهذه الرحلة بطريقة عادية فليس لها الحق فى أن تتجه إلى أى ميناء آخر على الساحل لتفريغ شحناتها . وعلى العكس إذا كانت شحنة السفينة من السلع التى لم يرد ذكرها فى المعاهدات ولا يتاجر بها عادة فى الإسكندرية .. فإنها تستطيع أن تتجه إلى أى ميناء آخر ، ولكنها تمنع من التعامل أو الملاحة على مقربة من جميع السواحل المصرية .

Le bateau qui, vu le mauvais temps, entre dans le port d'Alexandrie, contre son gré, mais n'y décharge aucuné marchandise, pourra continuer sa course, s'il n'a à bord aucune marchandise detainée à Alexandrie. Mais s'ila à bord des marchandises spéciales à Alexandrie, et s'il fait ordinairement ce trajet, il ne pourra pas se diriger vers un autre port de la côte. Par contre, si les marchandises ne sont pas de celles qu'on traite ordinairement à Aldexandrie, il peut le faire - (interdiction - de cabotage).

ونصت المادة الثانية عشرة على أنه إذا وقع حادث لأحد رعايا السلطان فى البندقية أو فى إحدى الجزر التابعة لها أو إذا وقع نزاع ، فلا يسأل القنصل ولا أحد من أتباعه عن هذا الذى حدث ، كما أنهم لا يتحملون النتائج المترتبة على الحادث . وإذا كان شخص مديناً لأحد رعايا السلطان فإنه يحجز حتى يسدد الدين . ويسرى هذا الحكم على الضامن أو الكفيل . ولكن لا يقبض على برىء من أجل مذهب . ويجب أن يكون جميع رعايا السلطان فى أمان سواء فى موانئ البندقية أو مذهبها الساحلية .

ونصت المادة الثالثة عشرة على أن القنصل معفى من دفع الضرائب والرسوم إلا فى الحالات التى يصدر فيها أمر من السلطان أو حكم قضائى .

وذكرت المادة الرابعة عشرة أنه إذا أسر أحد القراصنة^(١) سفينة تابعة للبندقية وجاء لبيعها فى أحد الموانئ ، فممنوع على أى شخص أن يتقدم لشراؤها .

ويجب إطلاق سراح السفينة ، إذا كان ذلك ممكناً ، كما يجب تحرير طاقمها وإعادة

(١) يحيط الغموض بكلمة قرصان un pirate فى هذه المعاهدة ، لأن الثابت تاريخياً أن فرسانا القديس يوحنا بعد انسحاب الصليبيين من عكا سنة ١٢٩١م اتخذوا من جزيرة رودس معقلاً لهم بهاجمون السفن الإسلامية فى أعالي البحار ، ويسمرون فريقاً من ركبائها ، ويفرقون فريقاً آخر ، ويستولون على شحنة السفينة ، ويقربونها إلى أحد موانئهم . وكانت هذه العمليات فى شتى مراحلها تندرج تحت وصف القرصنة . ومن الثابت تاريخياً أيضاً أن سكان شمالي إفريقيا كانوا يتصدون لهم .. وكانت عملياتهم جهاداً دينياً إسلامياً بحرياً ضد السفن الصليبية . ولكن قلب المارخون والباحثون الحقائق وأطلقوا على سكان شمالي إفريقيا قرصنة وعلى جهادهم الدينى الإسلامى البحرى قرصنة .

السلع إلى التجار .

Si un pirate a capturé un navire vénitien, et vient le vendre dans un port, aucun acheteur ne doit se présenter. Il faut libérer le bateau, si c'est possible, ainsi que l'équipage, et rendre les marchandises aux négociants."

ونصت المادة الخامسة عشرة على أنه إذا حدث نزاع بين عربي وإفريقي ليس من رعايا البندقية ، فيجب عدم إهانة القنصل أو إلحاق الضرر به أو بالتجار أو بأحد من مواطنيهم أو بأحد ممن ينتمون إلى وكالتهم التجارية .

وذكرت المادة السادسة عشرة أنه يجب أن تعاط جميع السلطات علماً بهذه الأحكام . ويجب أن تدون في سجل خاص .

أما المادة السابعة عشرة فقد خولت القنصل ، حسب المعتاد ، الحق في أن يعين له نائباً عنه - نائب قنصل Vice-Consul في البرلس .

وقررت المادة العشرون منع موظفي الجمارك أو الحمالين أو المفتشين - للكشافين - من مضايقة البنادق في حالة إعادة تسليمهم الفواكه ، أو أي سلع أخرى تجلبها سفنهم .

ونصت المادة الثانية والعشرون على تخفيض الرسوم التي تدفع عند وفاة أي إفريقي .

وقالت المادة الثالثة والعشرون إن الإفريقي الذي يذهب من الإسكندرية إلى القاهرة أو إلى رشيد أو إلى دمياط لا يحصل منه ضرائب إطلاقاً ، سواء عند وصوله إلى هذه الأماكن أو عند مغادرته لها .

وذكرت المادة الخامسة والعشرون أنه في حالة نقل السلع المصدرة أو المستوردة من باب الجمر إلى السفن وبالعكس لا يطالب القنصل أو تجاره بشيء ما ، كما أنه لا يجوز منع التجار من توزيع وبيع الأطعمة والفواكه المحفوظة والمسكرة للمسافرين .

وقررت المادة السابعة والعشرون أن من حق التجار البنادقة ممارسة كافة العمليات التجارية مع جميع الذين يتفقون معهم أو يتعاملون معهم ، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهوداً وذلك دون أي قيود . ولا تتم أي عملية تجارية في المكان المخصص لوزن البضائع إلا بعد التحقق من صحة الوزن . ولا يجوز منع أي ترجمان - مترجم - من تسجيل أي عقد أمام القاضي . ويتمتع القنصل وتجاره ووكالته التجارية وكل من يأوي إلى فندقه بواجب الحماية من لدن السلطان .

Ils (Les marchands vénitiens) peuvent faire toutes les opérations commerciales avec qui ils l'entendent, musulmans, chrétiens ou juifs, sans

aucune restriction. Aucune opération ne se fera dans le local de la pasée des marchandises, mais après que cette vérification aura eu lieu. Achère qui veut, sans restriction. Personne ne peut empêcher un drogman de dresser un contrat devant le juge. Le Consul, ses négociants, sa colonie et ceux qui se joignent à son fondique (les protégés jouiront de la protection de la sécurité”.

وخولت المادة الثامنة والعشرون الحق للبنداقية فى شحن وتفريغ سلعهم فى سفنهم وقواربهم الخاصة .

وقررت المادة الثلاثون ألا يقصدى أى فرد للقنصل أو للتجار البنداقية إلا عن طريق القضاء . ولا يؤخذ الابن بجريرة الأب ، ولا الأب بجريرة الابن ، ولا الأخ بجريرة الأخ إلا إذا كان أحدهما ضامناً للآخر شخصياً ومالياً . أما الديون فيكون سدادها أو استعادتها طبقاً لقواعد الشريعة الإسلامية ولا يجوز إكراه مستأجر سفينة على تسيير سفينته .

ونصت المادة الحادية والثلاثون على أن التجار البنداقية ومرافقيهم الذين يصلون إلى موانئنا ، يجب أن يعاملوا بكل احترام وتقدير من الجميع .

وجاء فى المادة الثانية والثلاثين أن قنصل البندقية قدم مذكرة قرر فيها أن البنداقية كانوا يتمتعون أيام دولة المماليك الشراكسة بالإعفاء من ضريبة البهار . ولكن حدث أن فرضت حكومة السلطان قانصوه الغورى رسوماً جديدة بلغت خمسة آلاف دينار سنوياً ، ويطالب للقنصل بإعادة تقرير هذا الإعفاء الضريبى ، وتقرر الاستجابة لهذا الطلب .

معاهدة البندقية رد علمى وعملى على المتحاملين على الدولة العثمانية :

إن الهدف من عرض ترجمتنا لأهم مواد هذه المعاهدة إنما هو الرد العلمى والعملى على النفرة ، التى يرددها المؤرخون والباحثون المتحاملون على الدولة العثمانية بأنها فرضت على ولاياتها العربية العزلة عن أوروبا . فطلى الرغم من أن الحكم العثمانى لم يكن قد استقر تماماً فى مصر ، أقدم السلطان سليم الأول فى أثناء إقامته فى مصر وسط مشاغله المتزايدات على إبرام معاهدة تجارية مع جمهورية البندقية ، وكانت الغالبية العظمى من مواردها تنصب على مصر وعلى ميناء الإسكندرية وغيرها من الموانئ المصرية المطلة على البحر المتوسط ، وتستهدف تشجيع رعايا جمهورية البندقية على تكثيف نشاطهم التجارى والاقتصادى مع مصر التى غدت ولاية عثمانية .

ويقول الأستاذ كرمب تعليقاً على هذه المعاهدة ، وفى أثناء إقامة السلطان سليم فى مصر حضر اجتماعاً خاصاً مع مبعوثين أرسلتهم إليهم جمهورية البندقية . وقد ثارت شكوك حول التاريخ الدقيق الذى تم فيه هذا الاجتماع . ولكننا اهتممنا اهتماماً زائداً بالوقوف على المعاهدة ،

وهي مؤرخة في اليوم الثاني والعشرين من شهر المحرم عام ٩٢٣ الموافق اليوم الرابع عشر من شهر فبراير - شباط - عام ١٥١٧ وقد وقعت المعاهدة عقب ذلك الاجتماع . إن هذه المعاهدة هي أول وثيقة رسمية أعلنها السلطان العثماني الذي خلف أعداءه الشركاسة على أرض مصر عقب الانتصار الذي أحرزه عليهم . إن هذه المعاهدة من ناحية الشكل والمحتوى تقرر بوضوح الامتيازات ، التي سبق أن منحها السلاطين المماليك للجمهوريات الإيطالية .

C'est le premier document officiel promulgué par le sultan ottoman, silcesseur des Circassiens sur le sol de l'Egypte, après sa victoire sur ses ennemis. La forme et le contenu de ce diplôme rappellent nettement les privilèges accordés antérieurement par les sultans Mamlouks aux républiques italiennes.^(١)

وفضلاً عن هذه الأهمية التي أشار إليها الأستاذ كومب .. فإن لمعاهدة البندقية أهميتين : أولاً وجود فارق بين هذه المعاهدة والمعاهدات التي عقدها السلطان سليمان المشرع وخلفاؤه تبعاً مع الدول الأوروبية في هذا الصدد . فبينما كان الهدف من المعاهدات الأخيرة هو تشجيع رعايا الدول الأوروبية على توثيق صلاتهم التجارية مع ممتلكات الدولة العثمانية^(٢) ، كانت معاهدة البندقية تستهدف تشجيع رعايا جمهورية البندقية على تكثيف نشاطهم التجاري في مصر ؛ خاصة في الإسكندرية . أما الأهمية الثانية لمعاهدة البندقية فترجع إلى أن كثيراً من نصوصها ، أو نصوصاً على غرارها ، قد أدرجت بعد ذلك في المعاهدات اللاحقة التي عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية ، إذ كان هناك تنافس بين الدول على الحصول على أكبر قدر من الامتيازات لرعاياها ؛ فكانت كل دولة أوروبية تحرص على أن تجيء المعاهدة التي تعقدها مع الدولة العثمانية جامعة شاملة لكل الامتيازات ، التي سبق تقريرها لغيرها استناداً إلى ما يعرف في القانون الدولي العام باسم «قانون العادة»^(٣) .

معاهدة عام ١٥٢٨ :

وجاء بعد السلطان سليم الأول ابنه السلطان سليمان المشرع ، فخطا خطوات هامة في سياسة انفتاح الدولة العثمانية تجارياً مع عدد من الدول الأوروبية . فعقد مع فرنسا الأول ملك فرنسا معاهدة عام ١٥٢٨ جددت فيها الدولة العثمانية الامتيازات التي سبق أن منحها سلاطين

(١) Combe Etienne; op. cit., p. 14.

(٢) يستثنى من هذه المجموعة من المعاهدات معاهدة عقدت بين الدولة العثمانية وفرنسا عام ١٥٢٨ . انظر مايلي .

(٣) على ماهر باشا أحد رؤساء الوزارات المصرية السابقين : القانون الدولي العام . مطبعة الاعتماد شارع حسن الأكبر ، القاهرة ، ١٣٤٢هـ-١٩٢٤ م ، ص ٢٣٧-٢٣٨ .

دولة المماليك الشراكسة للفرنسيين وأهل كتالونيا Les Catalans ، وكانت المعاهدة الجديدة تكفل لتجار فرنسا ورعاياها الأمن والطمأنينة على أرواحهم وأموالهم ومتاجرهم في أثناء تواجدهم في ممتلكات الدولة ، وتكفل لهم حرية المتاجرة والتنقل براً وبحراً دون أن يمسسهم سوء ، ودون أن يتعرضوا لمضايقات من السلطات العثمانية ، وتنظم إقامتهم في أحياء أو خانات خاصة بهم وعدم المماس بكنائسهم وعدم فرض ضرائب عقارية عليها ، ومنع السفن العثمانية التي تقوم برحلات بحرية بين إسطنبول وموانئ الشام ومصر من عرقلة نشاط السفن الفرنسية التي تعمل على هذه الخطوط الملاحية . ويمكن إلحاق معاهدة ١٥٢٨ بمعاهدة البندقية لعام ١٥١٧ من حيث الهدف ؛ إذ كانت موادها مقصورة في الغالب على بلاد الشام ومصر بعامه ومصر بخاصة .

وكان إبرام هذه المعاهدة مشجعاً لملك فرنسا فرنسوا الأول والسلطان سليمان المشرع ، نظراً للعلاقات الودية الوثيقة بينهما ، على عقد معاهدة هامة أكثر شمولاً عرفت باسم معاهدة صداقة وتجارة بين الإمبراطورية العثمانية وفرنسا . وقد عقدت في شهر فبراير - شباط - عام ١٩٣٥ وتقرر فيها منح تجار فرنسا وسائر رعاياها الذين يذهبون إلى أقاليم الدولة العثمانية شتى الامتيازات في مقابل منح الرعايا العثمانيين امتيازات مماثلة لها تقريباً .

عرض وتحليل لمعاهدة ١٥٣٥ :

وتقع معاهدة ١٥٣٥ في ست عشرة مادة . قررت المادة الأولى منها السماح لرعايا الدولة العثمانية وفرنسا وتابعيهم بالتجول في جميع ممتلكات الدولتين بما فيها المدن والنجور والجزر والبحار وسائر الأقاليم التي تدخل في حوزة كل من السلطان وملك فرنسا في قابل الأيام . ويكون هذا التجول بهدف ممارسة العمليات التجارية والعودة إلى بلادهم بكامل حريتهم دون أن يقع اعتداء عليهم أو على متاجرهم .

ونصت المادة الثانية على أن العمليات التجارية تشمل البيع والشراء والمبادلة في كافة السلع غير الممنوع الاتجار فيها ونقلها براً وبحراً بعد سداد الرسوم المقررة بحيث يدفع الفرنسيون في أقاليم الدولة العثمانية ما يدفعه العثمانيون ، وأن يسدد العثمانيون في فرنسا ما يدفعه الفرنسيون دون أن يدفع أي من الطرفين ضرائب أو مكوساً جديدة أخرى .

وقررت المادة الثالثة أنه ، فضلاً عن هذا ، كلما يعين ملك فرنسا في إسطنبول^(١) أو ببرا أو غيرهما من مدن الدولة العثمانية أحد رجال القانون^(٢) كالقنصل المعين حالياً في الإسكندرية .. فيجب أن يقابل هذا القانوني والقنصل بطريقة لائقة ، وأن يحتفظ كل منهما

(١) وردت في النصين الفرنسي والإنجليزي القسطنطينية .

(٢) وردت هذه اللفظة في النص Bailiff ومن معانيها محضر أو أحد رجال القانون .

بسلطته الخاصة بحيث يكون لكل منهما الحق في الفصل في جميع القضايا والخلافات المدنية والجنائية التي تقع في دائرته طبقاً لعقيدته وقانونه بين التجار ورعايا ملك فرنسا الآخرين، دون أن يتمتع من ذلك أى قاض أو صوباشى^(١) أو أى موظف آخر . ولكن إذا رفض أحد من رعايا ملك فرنسا إطاعة الأوامر الصادرة من القانونى أو القنصل فلهما في هذه الحالة فقط أن يستعينا بالصوباشى أو أحد ضباط السلطان في تنفيذ الأحكام . وعلى هؤلاء الصوباشية أو الضباط الآخرين أن يقدموا مساعدتهم الضرورية ، والتي تكفل إجبار الآخرين على تنفيذ أحكامهم . ولكن ليس للقاضى أو أى ضباط تابعين لحكومة السلطان أن يحكموا في المنازعات التي تنشأ بين التجار ورعايا ملك فرنسا حتى لو طلب التجار المذكورون ذلك ، وإذا نظر القضاة بمجرد المصادفة في قضية .. فإن حكمهم يكون لاغياً وباطلاً .

Likewise, whenever the King shall send to Constantinople or Pera or other places of this Empire a bailiff - just as at present he has a consul at Alexandria - the said bailiff and consul shall be received and maintained in proper authority so that each one of them may in his locality, and without being hindered by any judge, cadi, soubashi, or other, according to his faith and law, hear, judge and detetmine all causes, suits and differences, both civil and criminal, which might arise between merchants and other subjects of the King. Only in case the orders of the said bailiffs and consuls should not be obeyed and that in order to have them executed they should appeal to the soubashi or other officer of the Grand Signior, the said soubashis or other officers shall lend them the necessary aid and compulsory power. But the cadi or other officers of the Grand Signior may not try to any difference between the merchants and subjects of the King, even if the said merchants should request it, and if perchance the said cadis should hear a case their judgment shall be null and void.

ومنعت المادة الرابعة استدعاء أو الاعتداء على التجار ورعايا ملك فرنسا أو محاكمتهم في الدعاوى المدنية ، التي يقيمها عليهم العثمانيون أو جباة الخراج أو غيرهم من رعايا جلالة

(١) الصوباشى ونكتب أيضاً الشوباشى ، وترد هذه اللفظة في المراجع التاريخية بعدة معان ، منها ضابط في الجيش العثماني كانت رتبته تعادل حالياً رتبة نقيب . ومنها ضابط مرموق يعينه المصدر الأعظم أو الباشا في إحدى الولايات «متسلماً» على مدينة ، أو توفده الدولة في مهمة خاصة إلى إحدى الولايات . وكان يطلق هذا اللفظ أحياناً على أحد أعيان تقسيم إدارى صغير أو متوسط .

السلطان ، مالم يكن بيد المدعين مستندات بخط المدعى عليهم أو حجة رسمية صادرة من القاضى الشرعى أو رجل القانون الفرنسى أو القنصل . وفى حالة وجود هذه المستندات والحجج لايجوز للقضاة الشرعيين أو الصوباشية أو أى موظفين آخرين سماع الدعوى ومحاكمة هؤلاء الرعايا الفرنسيين ، إلا فى حضور ترجمان قنصل فرنسا .

ونصت المادة السادسة على أنه لانتجوز محاكمة التجار الفرنسيين ومستخدميهم وخدمهم وجميع رعايا ملك فرنسا الآخرين ، فيما يختص بالمسائل الدينية أمام القضاة الشرعيين والصناجق البكوات والصوباشية أو غيرهم ، بل تكون محاكمتهم أمام الباب العالى . ولايمكن اعتبارهم مسلمين أو النظر إليهم على أنهم مسلمون ، إلا إذا رغبوا فى ذلك واعترفوا صراحة ودون إكراه يقع عليهم ، ولهم الحق فى ممارسة دينهم .

Likewise, as regards religion, it has been expressly promised, concluded, and agreed that the said merchants, their agents, and servants, and all other subjects of the King shall never be molested nor tried by the cadis, sandjak-beys or soubashis, or any person but the Sublime Porte only, and they can not be made or regarded as Turks (Mohammedans) unless they themselves desire it and profess it openly and without violence. They shall have the right to practise their own religion.

وقررت المادة السابعة أنه إذا تعاقد شخص أو أكثر من رعايا ملك فرنسا مع أحد العثمانيين أو إذا استولى على سلع منه ، أو اقترض مبالغ ثم غادر بلاد جلالة السلطان قبل أن يقوم بالوفاء بالتزاماته أو ديونه فلا يسأل رجل القانون الفرنسى أو القنصل أو أقارب المدين أو أى شخص فرنسى آخر عن ذلك مطلقاً ولايتعرض له أحد بالإيذاء . ولايكون ملك فرنسا ملزماً بشئ . ولكن يمكنه أن يستوفى طلب المدعى من المدعى عليه ومن أملاكه ، لو وجدت له أملاك فى الأراضى الفرنسية .

ونصت المادة الثامنة على أنه لايجوز إلقاء القبض على تجار فرنسا ووكلائهم وخدمهم وسائر الرعايا الفرنسيين ، وإكراههم على العمل فى خدمة السلطان العثمانى أو أى شخص آخر فى البر والبحر مالم يكن باختيارهم وطوعهم . وكذلك لايجوز استخدام سفنهم أو قواربهم أو مايجود بها من معدات أو مدافع أو ذخائر أو سلع إلا بموافقتهم ورضائهم .

Likewise, the said merchants, their agents, and servants, and other subjects of the King, their ships, boats or other equipments, artillery, ammunition, and mariners shall not be seized, coerced, or used by the Grand

Signior or other person against their pleasure and desire for any service or duty either on sea or land.

وقررت المادة العاشرة أنه بمجرد تصديق السلطان وملك فرنسا على هذه المعاهدة ، فإن جميع رعاياهما الموجودين عندهما أو عند تابعيهما أو على سفنهما أو في أى مكان تابع لسلطتهما ، فى حالة الرق ، سواء كان ذلك بشرائهم أو بوقوعهم فى الأسر وقت الحرب أو باحتجازهم ، يطلق سراحهم فوراً بمجرد طلب وتقرير من السفير أو القنصل أو أشخاص آخرين يعينون لهذا الغرض . وإذا كان أحد الأسرى قد تحول عن دينه فلا يكون تغيير عقيدته الدينية مانعاً من إطلاق سراحه .

ومن الآن فصاعداً لا يجوز للسلطان ، ولا لملك فرنسا ، ولا لقادة الأساطيل البحرية ، ولا لقواد الجيش ، ولا لأى أشخاص آخرين تابعين لأحد العاهلين أو لمن يستأجرانهم لذلك ، سواء فى البر أو فى البحر ، أخذ أو شراء أو بيع أو حجز أسرى الحرب بصفة أرقاء . وإذا حارب أحد القراصنة أو غيره من رعايا العاهلين أسراً أحد رعايا الطرف الآخر أو اغتصاب أملاكه أو أمواله ، فيجب إحاطة حاكم الجهة علماً بذلك ، وعليه ضبط الفاعل ومعاقبته بتهمة تعكير السلام بين الدولتين ويكون عقابه عبرة لغيره ، ورد ما يكون عنده من الأشياء المغتصبة إلى من أخذت منه . وإذا لم يضبط الجانى فوراً واستطاع الهرب دون محاكمة ، فيجب نفيه من بلاده مع جميع شركائه . وتقوم الحكومة التابع لها هؤلاء الجناة بمصادرة ممتلكاتهم ودفع التعويضات عن الأضرار التى أصابت المجنى عليه ، من ممتلكات الجناة ، وهذا لا يمنع من مجازاتهم إذا تم القبض عليهم فيما بعد . وللمجنى عليه أن يستعين على الحصول على التعويضات من ضامن هذا الصلح ، وهما السر عسكر عن السلطان ، وأكبر القضاة عن ملك فرنسا .

ونصت المادة الثانية عشرة على أنه إذا وصلت إلى أحد موانئ أو سواحل الدولة العثمانية إحدى السفن التابعة لرعايا ملك فرنسا ، سواء كان وصولها بطريق الصدفة أو غير ذلك ، فيجب تزويدها بما يلزمها من مواد تموينية وغيرها من الضروريات فى مقابل دفع الثمن المناسب دون إلزامها بتفريغ شحلاتها أو دفع رسوم ، ثم يباح لها السفر إلى حيث تريد . وإذا وصلت إلى إسطنبول وأرادت السفر منها بعد حصولها على جواز الخروج من أمين الجمرك ودفع الرسوم المقررة وتفقيشها بمعرفة أمين الجمرك المشار إليه فلا يجوز زيارتها أو تفقيشها فى أى مكان آخر إلا عدد الحصون المقامة عند مدخل بوغاز غاليبولى ، دون أن تدفع شيئاً مطلقاً لرحيلها سواء عند هذا البوغاز أو فى أى مكان آخر عند خروجها سوى ماسبق دفعه سواء كان الطلب باسم السلطان أو أحد ضباطه .

وذكرت المادة الثالثة عشرة أنه إذا تحطمت أو غرقت بطريق الصدفة أو غير ذلك إحدى السفن التابعة لرعايا أحد العاهلين في البلاد التابعة لهما ولقضائهما .. فإن جميع الأفراد الناجين من هذا الخطر يظلون متمتعين بحريتهم ، ولا يحال بينهم وبين أخذ أو جمع ما يكتسبون من الأمتعة وغيرها . أما إذا غرق جميع من بها فإن البضائع التي يمكن إنقاذها تسلم إلى القنصل أو أحد رجال القانون في القنصلية أو من يمثلها ليسلمها إلى من تتعلق بورتتهم دون أن يستولى القيونان باشا أو الصنچق بك أو الصوياشي أو القاضى أو أى ضابط أو أحد رعايا السلطان على شيء منها ، وألا توقع عليهم العقوبات ، وعلى هؤلاء أن يقدموا التسهيلات والمساعدات لمن يعهد إليهم باستعادة البضائع .

ونصت المادة الرابعة عشرة على أنه إذا هرب أحد العبيد التابعين لأحد رعايا السلطان وادعى هذا العثماني أن عبده قد لاذ بأحد رعايا ملك فرنسا وخدم في سفينته أو في منزله ، فإن هذا العثماني لا يستطيع أن يجبر الفرنسي على عمل شيء ، سوى السماح له بالبحث عن العبد في سفينته أو في داره . وإذا أسفر البحث عن العثور على العبد فإن الفرنسي يعاقب بمعرفة قنصله ويرد العبد لمسيده . وإذا لم يوجد العبد في سفينة أو دار الفرنسي ، فيجب ألا يتعرض الفرنسي للإيذاء مطلقاً وعلى أى نحو من الأنحاء بسبب هذا الحادث .

أما المادة الخامسة عشرة فقررت أن كل فرد من رعايا ملك فرنسا - لم يكن قد أقام بأراضى الدولة العثمانية مدة عشر سنوات كاملة ، دون انقطاع - لا يلزم بدفع الخراج أو أى ضريبة أياً كان اسمها ، ولا يلزم بحراسة الأراضى المجاورة أو مخازن السلطان ولا بالعمل فى ترسانة أو أى عمل آخر بطريق الإكراه . ويمنح رعايا الدولة العثمانية امتيازات مقابلة فى بلاد فرنسا . وتضمنت المعاهدة اقتراح ملك فرنسا بدعوة البابا وملك إنجلترا ، أخيه وحليفه الأبدى ، وملك أسكتلندا للانضمام إلى هذه المعاهدة بشروط ، سنتكلم عنها فى موطن قادم فى هذا الفصل .

وأخيراً قررت المادة السادسة عشرة أن يتم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة بمعرفة العاهلين ، فى خلال ستة أشهر من تاريخ التوقيع عليها مع الوعد من كليهما بالمحافظة على تنفيذها والتنبيه على جميع القضاة والضباط ورعاياهما بمراعاة جميع أحكامها بكل دقة . وحتى لا يدعى أحد الجهل بها ، يجب نشر نصه منها بعد التصديق عليها فى إستانبول وإسكندرية ومارسيليا وناربون Narbonne ، وفى جميع المدن والموانئ المشهورة التابعة لكل من الطرفين^(١) .

وكانت هذه المعاهدة هى آخر أعمال إبراهيم باشا الصدر الأعظم ؛ لأن السلطان سليمان

المشرع استجاب لرغبة الباش قادين روكسلانه وأمر بقتله .

وقد حددت هذه المعاهدة بعد ذلك عدة مرات ، وأضيفت إليها أحكام جديدة ^(١) . ثم أصبحت هذه المعاهدة تجدد تلقائياً كلما ارتقى عرش الدولة سلطان جديد . وقد أرسى هذا التقليد في اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٧٤٠ السلطان محمود الأول (١٧٣٠-١٧٥٤) ، اعترافاً منه بفضل فرنسا حين تدخل في صيف ١٧٣٩ الماركيز دى فيلنيف السفير الفرنسي في بلغراد لإنهاء حالة الحرب بين الدولة العثمانية Marquis de Villeneuve والروسيا ، وكان من نتائج مساعيها الحميدة إبرام معاهدة بلغراد في اليوم الثامن عشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٧٣٩ ^(٢) .

الدولة العثمانية تستجيب لمساعي إنجلترا لعقد معاهدات تجارية معها :

كانت المعاهدة التي عقدت بين الدولة العثمانية وفرنسا عام ١٥٣٥ قد نصت في مادتها الخامسة عشرة على دعوة ملك إنجلترا وغيره إلى الانضمام إليها والاستفادة من أحكامها ، بشرط أن يقوم ملك إنجلترا بإبلاغ السلطان العثماني ، في خلال ثمانية شهور من تاريخ التوقيع على المعاهدة ، بصدور تصديق الحكومة الإنجليزية على المعاهدة ويطلب اعتماد هذا التصديق؛ أي أراد السلطان سليمان المشرع وفرنسا الأول ، تحويلها من معاهدة ثنائية إلى معاهدة جماعية. ولكن لم تجد هذه الدعوة استجابة من ملك إنجلترا ، وظلت السفن الإنجليزية التي تتردد على الموانئ العثمانية تبحر في الموانئ والمياه العثمانية تحت الأعلام الفرنسية طبقاً لأوامر الحكومة العثمانية ، ثم ازداد عدد السفن الإنجليزية التي تشق طريقها إلى موانئ الدولة العثمانية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر. وتطلعت إلى منافسة البنادقة والفرنسيين في هذه المنطقة ^(٣) . وكان أحد التجار الإنجليز واسمه أنطوني جنكنسن Anthony Jenkinson قد استطاع مقابلة السلطان سليمان المشرع عام ١٥٥٣ في حلب ، وهو يستعد للزحف على فارس . ونجح في الحصول على موافقة السلطان لهذا الإنجليزى على الانجار داخل ممتلكات الدولة ، على قدم المساواة مع البنادقة والفرنسيين وعلى ألا يدفع أكثر من الرسوم المقررة ^(٤) . على أن هذا الحادث الأول من نوعه لم يفتح لإنجلترا عهداً تجارياً مهماً ، على الرغم من الامتيازات الواسعة التي منحها سليمان لذلك التاجر

(١) حدث هذا التجديد وتلك الإضافات في ١٨ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٥٦٩ وفي شهر يوليو - تموز - عام ١٥٨١ ، وفي شهر فبراير - شباط - عام ١٥٩٧ ، وفي ٢٠ من شهر مايو - آيار - عام ١٦٠٤ ، وفي ٥ من شهر يونيو - حزيران - عام ١٧٣٩ .

(٢) انظر في هذه الدراسة ، الجزء الأول ، ص ١٩٥-١٩٦ .

(٣) Hoskins Halford Lancaster; British Routes to India, New York, 1928, PP. 2-4.

(٤) انظر نص هذا الاتفاق في

الإنجليزي^(١) .

غير أن الحكومة العثمانية استقبلت بعثة إنجليزية عام ١٥٧٨ ، أى بعد خمس وعشرين سنة ، واستطاعت البعثة أن تحقق نجاحاً كبيراً فى وضع الحجر الأساسى للتجارة الإنجليزية فى الدولة العثمانية . وكان من بين معالم هذا النجاح أن السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٦) أرسل رسالة مؤرخة فى ١٥ من شهر مارس - آذار - عام ١٥٧٩ إلى الملكة إليزابيث الأولى . وكان مما جاء فيها «إن البلاد العثمانية ستبقى دائماً مفتوحة للتجار الإنجليزى ... ولن نقعس عن تقديم المساعدة والمعونة لأى فرد منهم ينبغى تقدير صداقتنا وإحساننا ومساعدتنا، بل سنعد إرضاءهم جزءاً من واجبنا»^(٢) .

ولم تكن هذه الرسالة السلطانية مقنعة فى نظر ملكة إنجلترا ؛ لأنها لم تشمل على تحديد موضوعات تتصل بتيسير ممارسة الرعايا الإنجليز نشاطهم التجارى ، وتطلعت إلى عقد اتفاق يكون أوفى بالغرض تخصيصاً وشعولاً . ومهدت له بمنح التجار العثمانيين امتيازات داخل بلادها تكون مماثلة لما يحصل عليه التجار الإنجليز من امتيازات فى بلاد الدولة العثمانية . وما أن تلقى السلطان مراد الثالث الرسالة الملكية حتى أصدر فى شهر يونيو - حزيران - ١٥٨٠ «براءة» تضمن للتجار الإنجليز امتيازات واسعة النطاق . وكان مما جاء فيها على لسان السلطان «وعلى هذا فإننا نمنح جميع أفراد شعبها ورعاياها حرية المجئ إلى إمبراطوريتنا بأمن وسلام، مع كل مالديهم من متاجر وسلع بحراً فى سفن كبيرة وصغيرة ، وبرا فى عربات ، دون أن يتعرض لهم أحد بأذى ، ولهم أن يمارسوا عمليات البيع والشراء دون عائق ، وعليهم أن يراعوا عادات وأوامر بلادهم (الإنجليزية)» .

“Our Imperial commandement and pleasure is, that the people and subjects of the same Queen, may safely and securely come to our princely dominions, with their goods and marchandise, and ladings, and other commodities by sea, in great and small vessels, and by land with their carriages and cattels, and that no man shall hurt them, but they may buy and sell without any hinderance, and observe the customes Sie and orders of their owne Sie country”^(٣)

(١) دكتور زكى صالح : مجمل تاريخ العراق الدولى فى العهد العثماني . من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص ١٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٣) النص الكامل لهذه البراءة أو المعاهدة منشور فى

وقد لقيت هذه المعاهدة معارضة عنيفة من جانب السفير الفرنسي في إستانبول وسعى لدى السلطان لوقف تنفيذها . ونجحت مساعيه ، ولكن إلى أمد قصير ، ففي العام التالي (الحادى عشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥٨١) صدر العقد التأميسى الأول لإنشاء شركة اليقائن^(١) The Levant Company وهى شركة إنجليزية^(٢) مارست اختصاصات سياسية وتجارية واسعة : فهى التى كانت ترشح سفراء إنجلترا فى إستانبول ، وتدفع لهم مرتباتهم ، وكان جميع فواصل إنجلترا وكل موظفيها الدبلوماسيين فى ممتلكات الدولة العثمانية يعدون مستخدمين فى الشركة ويتقاضون منها مرتباتهم . وظل هذا التقليد سارياً أكثر من قرنين حتى سنة ١٨٠٣ . أما الاختصاصات التجارية لهذه الشركة .. فقد حصلت من اليقائين الأولى ملكة إنجلترا على حق احتكار المتاجرة فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط . وكان نشاطها كثيفاً فى الأناضول وحلب والإسكندرون والإسكندرية وغيرها من أساطل الشام ومصر والساحل الغربى لشبه جزيرة الأناضول . ولم يمتد نشاط الشركة بوضوح إلى العراق ، الذى كان أكثر تأثراً بنشاط شركة الهند الشرقية البريطانية . وفى سنة ١٨٥٣ عينت الحكومة الإنجليزية وليم هاربورن William Harborne سفيراً لها فى إستانبول ، ومنحته سلطات متشعبة على جميع التجارة الإنجليزية فى ولايات الدولة العثمانية ، وخولته اختصاصات واسعة فى تعيين القناصل . وغدا هاربورن سفيراً إلى جانب صفته كممثل لشركة اليقائن . واستغل هاتين الصفتين فى حمل السلطان مراد الثالث على تنفيذ معاهدة سنة ١٥٨٠ ، وقدم مع أوراق اعتماده الهدايا للسلطان وكبار رجال الدولة . وسرعان ما أثمرت جهوده . وعلى هذا تعتبر سنة ١٥٨٣ بداية التاريخ الفعلى والرسمى لتنفيذ معاهدات الامتيازات المتبادلة بين التجار الإنجليز فى أملاك الدولة والتجار العثمانيين فى إنجلترا . وفى سنة ١٦٠٤ حصلت الحكومة الإنجليزية على موافقة السلطان أحمد الأول على أن تبحر السفن الإنجليزية داخل المياه والموانئ العثمانية تحت الأعلام الإنجليزية ، بينما كانت السفن الأجنبية - باستثناء سفن البنادقة - مضطرة إلى رفع العلم

= وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة فى إستانبول فى اليوم الثالث من شهر مايو - أيار - عام ١٥٨٣ . وتقع هذه المعاهدة فى اثنتين وعشرين مادة .

(١) نشر هذا العقد التأميسى تحت عنوان :

The First Charter of the (English) Levant Company.

فى :

Hurewitz J.C.; op. cit., Vol. 1, pp. 9-15.

(٢) يرد ذكر اسم شركة اليقائن فى بعض المراجع العربية على هذا النحو : «شركة الشرق الأدنى» تأسيساً على أن منطقة اليقائن كانت تغطى منطقة الشرق الأدنى The Near East وقد استخدم المؤرخون الغربيون المصطلح الأخير فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ثم رأت الولايات المتحدة الأمريكية إسماع مصطلح الشرق الأدنى مع مصطلح الشرق الأوسط The Middle East فاصبح المصطلح الأخير يشمل حالياً تركيا وسوريا ولبنان وإسرائيل والأردن ومصر والعراق وشبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج وإيران وأفغانستان .

الفرنسي . وفي عام ١٦٤١ عقد شارل الأول معاهدة مع السلطان إبراهيم الأول كفلت لشركة الليغانت حرية التجارة في جميع أنحاء الدولة العثمانية . ثم عقد السلطان محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧) معاهدة مع إنجلترا في شهر سبتمبر - أيلول - ١٦٧٥ جددت فيها الامتيازات التجارية ، التي سبق منحها في معاهدات سابقة وأضيف إليها مواد جديدة . وأطلق على المعاهدة الجديدة اسم «المعاهدة النهائية للامتيازات بين الإمبراطورية العثمانية وإنجلترا : Final Treaty of Capitulations The Ottoman Empire and England»^(١) ، وهي تقع في خمس وسبعين مادة، وتمثل هذه المعاهدة المرحلة الثانية المهمة في تاريخ الامتيازات التجارية البريطانية في الدولة العثمانية . وقد أوجز الدكتور زكي صالح الهدف من هذه الامتيازات قائلاً «إنه يُلخص في نيل التاجر الإنجليزي حرية التجارة داخل البلاد العثمانية ، والسماح له بمرور بضائعه منها على سبيل الترانسيت ، والتمتع بما يكفي حماية نفسه وماله . وقد ضمنت الامتيازات اسماً مثل ذلك للتجار العثماني في البلاد الإنجليزية ، غير أن الجانب العثماني لم يستفد في الواقع سوى ما يأخذه السلطان أو الباشوات من رسوم على البضائع الإنجليزية تبلغ عادة ثلاثة في المائة من ثمن البضاعة»^(٢) .

ولم يحدث بعد معاهدة ١٦٧٥ شيء يذكر حتى عام ١٨٠٩ ، حين نجحت بريطانيا في استمالة الدولة العثمانية إليها بعد فترة حروب وجفاء بينهما ، واستطاعت في اليوم الخامس من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٠٩ أن تعقد مع الدولة العثمانية معاهدة الدردنيل : معاهدة السلام والتجارة والتحالف السري^(٣) . وقد جاء في مادتها الرابعة أن جميع الامتيازات التي سبق تقريرها في معاهدة ١٦٧٥ ومعاهدات سابقة أخرى «تظل ملحوظة ومرعية كأن لم يطرأ عليها تعطيل» .

shall be observed and maintained as if they had suffered no interruption.

وقد عقدت الدولة العثمانية تباعاً معاهدات أخرى على شاكلتها مع عدد من الدول الأوروبية الأخرى .

التعريف بمصطلح معاهدات الامتيازات الأجنبية :

اشتهرت هذه المجموعة من المعاهدات باسم Les Capitulations باللغة الفرنسية ومعاهدات الامتيازات الأجنبية، باللغة العربية . وبعد أن عرضنا هذه النماذج من المعاهدات التي عقدتها الدولة العثمانية مع فرنسا وبريطانيا ، وإذا تركنا جانباً الترجمة العربية التي أطلقت

(١) Hurewitz J.C.; op. cit., Vol. I, 25-32.

(٢) دكتور زكي صالح ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦ .

(٣) انظر في هذه الدراسة ص ص ٢١٧-٢١٨ .

عليها وهي «معاهدات الامتيازات الأجنبية» ، ولجأنا إلى ترجمة متحررة Une traduction libre بدلاً من الترجمة المتحررة المفصلة والشاملة هي «المعاهدات المتضمنة المبادئ القانونية لإقامة المستأمنين من رعايا الدول الأجنبية في ممتلكات الدولة العثمانية ولممارسة نشاطهم التجاري المشروع فيها وتقرير حق رعايا الدولة العثمانية المقيمين في أراضي تلك الدول في سريان هذه المبادئ» عليهم . والمستأمنون مصطلح فقهي إسلامي . وقد سبق أن ذكرنا أن علماء الفقه يقسمون العالم إلى دار الإسلام ودار الحرب . وقلنا إن دار الإسلام تشمل البلاد التي يكون للمسلمين ولاية عليها ، وتضم إلى جانب المسلمين أشخاصاً من غير المسلمين هم «الذميون والمستأمنون» . والذميون هم الذين يقيمون في دار الإسلام بأمان مويد ، أما المستأمنون فيجئون إلى دار الإسلام بأمان محدد المدة . وعلى خلاف المستأمنين لا يعتبر الذميون أجانب عن الجماعة الإسلامية (١) . أما دار الحرب فتشمل البلاد التي ليس للمسلمين ولاية عليها ولا تقام فيها أكثر شعائر الإسلام .

وقد قرر بعض المؤرخين الأوروبيين أن معاهدات الامتيازات الأجنبية تستمد جذورها التاريخية من أصول بيزنطية ، تأسيساً على أن الدولة البيزنطية كانت تمنح رعايا جمهورية البندقية وغيرها من الكيانات السياسية في شبه جزيرة إيطاليا مثل هذه الامتيازات في أثناء إقامتهم في الأراضي البيزنطية . ويخلص هذا الفريق من المؤرخين إلى أن الدولة العثمانية قد نهجت نهج الدولة البيزنطية في عقد معاهدات الامتيازات الأجنبية . وهذا رأى اجتهدى لا يمثل الحقيقة ؛ لأن أصحاب هذا الرأي يجهلون أصول الفقه الإسلامي ويغفلون عن حقيقة هامة هي أن الدولة العثمانية كانت حريصة على الالتزام بقواعد الشريعة الإسلامية . ولا يعد قيام الدولة العثمانية بعقد معاهدات الامتيازات الأجنبية دليلاً على أنها قلدت الدولة البيزنطية تقليداً أعمى في هذا الصدد .

سريان معاهدات الامتيازات الأجنبية علي الولايات العربية :

أصبحت البلاد العربية التي دخلت تحت السيادة العثمانية منذ أوائل القرن السادس عشر دولاً تابعة ، يطلق على كل منها دولة تابعة Un Etat Vassal تربطها رابطة الخضوع والولاء للدولة العثمانية ، التي يطلق عليها في القانون الدولي العام الدولة المتبوعة L'Etat Suzerain ، وترتب على هذا الوضع القانوني للولايات العربية حرمانها من ممارسة سيادتها في الخارج ؛ بمعنى أنها لم تعد تشغل مركزها في الجماعة الدولية إلا عن طريق الدولة العثمانية التي تتولى تمثيلها وتقوم عنها بتصريف الشؤون الخارجية . وتلتزم الولايات العربية ، كل فيما يخصها ، بتنفيذ المعاهدات التي تعقدها الدولة العثمانية مع الدول الأجنبية . وكانت بيرا - وهي إحدى

(١) دكتور محمد حافظ غانم : مبادئ القانون الدولي العام ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤١-٤٦ .

صواحى إستانبول - مقرر البعثات الدبلوماسية للدول الأجنبية منذ أن أخذت الدولة العثمانية بنظام التمثيل الدبلوماسى^(١) . ولم يمنع قصر التمثيل الدبلوماسى على الدولة العثمانية والدول الأجنبية عن تعيين قناصل للدول الأخيرة فى المدن الهامة فى الولايات العربية الخاضعة للدولة العثمانية ، فكان لبعضها قنصل عام أو قنصل أو نائب قنصل^(٢) . وكانوا لا يتبعون فى العادة وزارة الخارجية البريطانية أو الفرنسية أو النمساوية أو غيرها ، وإنما يتبعون رؤساء بعثات دولهم فى إستانبول . وكان عملهم أول الأمر فى بلاد الدولة العثمانية مقصوراً على الشؤون التجارية وتعهد مصالح رعايا دولهم والتأشير على جوازات السفر وغير ذلك . ولكن لم يكن لهم أى اختصاص سياسى ، ثم أصبحوا بمضى الزمن ويلباز من رؤساء البعثات الدبلوماسية فى إستانبول يمارسون أنواعاً من النشاط السياسى أو الضغط السياسى على الولاة العثمانيين .

فجاح محدود لسياسة الانفتاح بين الولايات العربية وأوروبا :

كان من المنتظر أن تكون معاهدات الامتيازات التى عقدتها الدولة العثمانية فى هذا الصدد مع الدول الأوروبية تبعاً بمثابة نوافذ تطل منها الولايات العربية على أوروبا ، أو بمثابة القنوات the channels يتم عن طريقها الاتصال للمنشود . ولكن لم تكن هذه المعاهدات هى

(١) كانت ولا تزال درجات المبعوثين الدبلوماسيين تتفاوت . وقد عني مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ثم مؤتمر إكس لاشايل عام ١٨١٨ بترتيبهم فى أربع مراتب تطول كل منها الأخرى : فتشمل المرتبة الأولى السفراء ومبعوثى البابا ، وتشمل المرتبة الثالثة الوزراء المفوضين والمنووين فوق العادة ، وتشمل المرتبة الثالثة الوزراء المقيمين ، وتشمل المرتبة الرابعة القائمين بالأعمال . ثم استحدثت مرتبة جديدة يتقدم أصحابها فى الحفلات الرسمية على المبعوثين الدائمين . ويطلق على أصحاب المرتبة الجديدة «المبعوثون فى مهمة غير عادية Envoys ea mission extraotdinaire كالمفاوضة فى أمر ما أو حضور حفل رسمى كزواج أو تنويع أو الاشتراك فى تشييع جنازة أو حضور جنازة ، انظر :

دكتور على صادق أبو هيف : القانون الدولى العام ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٣٦-٤٣٨ .

(٢) القناصل نوعان : قناصل مبعوثون Missi وقناصل مختارون Electi فالقناصل المبعوثون هم الذين تبعث بهم ومن رعاياهم ويتقاضون مرتبات عن عملهم القنصلى ، وإذا فليس لهم أن يشتغلوا بأى مهمة أخرى أو بأى عمل تجارى خاص شأنهم فى ذلك شأن بقية الموظفين ، وإذا يطلق عليهم أيضاً Consuls de Carrière للدلالة على تخصصهم وانقطاعهم للأعمال القنصلية .

وأما القناصل المختارون فتعينهم الدولة من بين الأشخاص المقيمين فى الجهة التى ترغب أن يكون لها فيها تمثيل قنصلى . وهم كما كانوا من رعايا الدولة التى تختارهم ، كان يجوز أن تختارهم من رعايا الدولة التى يقيمون فيها مهمتهم أو من رعايا دولة ثالثة . ولا يعتبر القناصل المختارون موظفين فى الدولة التى يقيمون مصالحها ، وإنما هم مجرد وكلاء عنها فى الشؤون التى تعهد بها إليهم . ولذلك قلهم الحق - على خلاف القناصل المبعوثين - فى الاشتغال بالأعمال الخاصة من تجارة ومهن حرة وخلافها ، إلى جانب عملهم القنصلى . وهم لا يتقاضون عادة مرتبات من الدولة التى تختارهم ، ويطلق عليهم فى الوقت الحاضر اسم «القناصل الفخريين» Consuls Honotaires .

انظر المرجع السابق ، ص ٤٤٦-٤٥٠ .

التي حددت حجم ونوعية هذا الاتصال . ولكن كانت هناك أسباب عامة وأسباب خاصة بكل ولاية عربية حددت حجم ونوعية هذا الاتصال ، وكان من بين هذه الأسباب ماهو ديني واجتماعي وثقافي واقتصادي وسياسي .

عوائق دينية :

كان الرأي العام الإسلامي في الولايات العربية يشكل مجتمعات دينية إسلامية مغلقة ، ولم تكن العاطفة القومية قد وجدت بعد لدى سكان الولايات العربية (١) . وجسأت الدولة العثمانية فوجدت هذه المفاهيم مستقرة في أذهان الجماهير العربية . وكانت الدولة العثمانية نفسها قد أخذت بهذا النظام الذي عرف باسم «نظام الملل» ، وكان المسلمون لا يعرفون وقتذاك عن أوروبا إلا وجهها القبيح الذي كان يتمثل في الحروب الصليبية التي تعرضت لها أقاليم الشرق الإسلامي منذ نهاية القرن الحادى عشر الميلادى حتى أواخر القرن الثالث عشر ، وامتثلت هذه الحملات الصليبية للمتعاقبة من حملة قام بها لويس التاسع ملك فرنسا إلى تونس عام ١٢٧٠م ابتغاء الاستيلاء عليها وتحويل أهلها إلى المسيحية ليغضى فثله الذريع فى دمياط والمنصورة حيث وقع فى ذل الأسر . وكانت رواسب هذه الحروب لاتزال ماثلة فى أذهان سكان العالم العربى ، ويتناقلون أنباءها جيلاً بعد جيل ثم تسامعوا بأنباء حركة انتقال الحروب الصليبية إلى أوروبا حيث واجهت الدولة العثمانية كتكتلات دولية صليبية ، تنادت إليها البابوية فى روما ونعتها المؤرخون المحايدون بأنها كانت حروباً صليبية ، ثم عاصروا سقوط الحكم الإسلامى فى الأندلس وما سبق هذا السقوط ثم لحقه من اضطهاد دينى عنيف تعرض له المسلمون فى شبه جزيرة أيبيريا والذين اثاروا الاحتفاظ بدينهم ، ثم رأوا صراعاً صليبيّاً ضارياً فى الحوض الأرسط والحوض الغربى للبحر المتوسط وفى أقاليم شمالى إفريقيا ، حين اندفعت إسبانيا والبرتغال فى حروب بحرية وبرية تروم احتلال شمالى إفريقيا وتحويل سكانها إلى المسيحية . وأقاموا لهم قواعد عسكرية أو جيوباً صليبية تناثرت على الساحل الشمالى لإفريقية . وقد تصدى لهم سكان شمالى إفريقيا بمفردهم أول الأمر ، ثم وجهوا الاستغاثات للدولة العثمانية يطلبون تدخلها عسكرياً لإنقاذهم والحفاظ على إسلامهم وعروبتهم .

عوائق اجتماعية :

أما عن العلاقات الاجتماعية بين سكان الولايات العربية والأوروبيين فقد وقفت فى وجهها عدة عوامل ، ولعل من أهمها أزمة عدم ثقة بين الجانبين . وقد سبق أن أشرنا إلى

(١) انظر مآكثبه عن هذا الموضوع :

دكتور فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين . جزآن ، الطبعة الثانية ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ج ٢ ، ترجمة د. كمال اليازجى ومراجعة د. جبرائيل جبور ، ص ٢١٢-٢١٣ .

أسباب هذه الأزمة . وكان العرب ينظرون إلى الأوروبيين نظرة ملوؤها الشك والحذر معاً . وكانت أماكن إقامة الأوروبيين وتجارتهن ومعابدهن تصد في حى أو خان خاص بهم . ويتكون الخان من عدة مبانٍ تشمل مستودعات فسيحة للسلع ، تودع في الدور الأرضي وفوقه مساكنهم . وفي داخل الخان كنيسة خاصة بهم . ويعبداً عن مبانى الخان كانت تروابط خيولهم وبغالهم وحميرهم . ويلحق بالخان أرض لدفن موتاهم . فكانوا يقيمون في مستعمرة خاصة بهم . وزيادة في الحذر كان يقفل عليهم الباب الحديدى الضخم للخان ، كلما سجا الليل ويسلم مفتاحه إلى القنصل أو نائب القنصل الذى يرده في صبيحة اليوم التالى . وكان لا يسمح لهم بالخروج من الخان أيام الجمعة إلى أن تنقضى شعائر صلاة الجمعة كإجراء وقائى ، يلجأ إليه المسلمون خوفاً على حريمهم ومناجرهم في أثناء انصرافهم إلى المساجد . فإذا قضيت الصلاة سمح للأوروبيين بمغادرة مساكنهم .. وهكذا عاشوا في معظم الولايات العربية ، على هامش المجتمعات الإسلامية . فإذا كانت العلاقات الاجتماعية بين الجانبين ضعيفة داخل تلك الولايات العربية فإنها كانت معدومة تماماً في خارجها ؛ بمعنى أنه لم يكن من المتوقع قط في تلك العصور أن يقوم الشيخ جمعة من القاهرة أو الأسطى شحاته من جرجا أو الشيخ متولى من دمشق أو الشيخ خليل من بغداد برحلة إلى أوروبا يقضى فيها شطراً من فصل الصيف مصطحباً معه حريمه ومائز عياله ، ويذهب بهم إلى سويسرا للزحلق على ثلوج جبالها ثم يستأنف رحلته إلى مصيف دوفيل Davuille في شمالي فرنسا ، ويعرج في طريق عودته إلى موطنه على الريفيرا الفرنسية وجزيرة كابرى Capri ليستمتع بالاستحمام في مياه البحر المتوسط . وليس في هذا القول تهكم على العرب أو سخرية بهم ، ولكن كانت ظروفهم الاجتماعية لا تسمح لهم بالقيام برحلات خارج نطاق العالم العربى وبخاصة إلى أوروبا لأنهم كانوا يخضعون لتقاليد راسخة لا يستطيعون منها فكاكاً ، وإن كانت قلة من صدورهم تذهب لماماً إلى إسطنبول في مهمات رسمية أو شبه رسمية ، يهد بها إليهم ولاية الأقاليم العربية أو لتقديم شكائيات إلى السلطان أو الصدر الأعظم عن تصرفات ظالمة ، تعرضت لها الجماهير العربية الكادحة .

عوائق ثقافية :

أما عن العلاقات الثقافية .. فلم يكن يدور بخلد أحد من سكان الولايات العربية أن يوفد أبناءه إلى جامعات أوروبا للالتحاق بها واستكمال دراستهم فيها . فالبلاد العربية كانت حافلة بمراكز مرموقة للدراسات الإسلامية العربية العليا . نذكر منها على سبيل المثال الأزهر الشريف في القاهرة ، والقيروان في شمالي إفريقية ، ودمشق في الشام ، والكوفة والبصرة في العراق ، فضلاً عن مكة المكرمة والمدينة المنورة . وأطلق المستشرقون على هذه المراكز العلمية الإسلامية العربية اسم College Mosques أى الكليات الملحقة بالمساجد . وكانت هذه المراكز مركز جذب للراغبين في العلم كافة أنحاء العالم العربى والإسلامى . كما كان يتربد عليها

صدر العلماء المسلمين ينصدرون الحلقات الدراسية فيها ويلقون دروسهم فى موضوعات شتى تتصل بالعلوم الدينية واللغوية والعلمية وغيرها . وكانت هذه الحلق دراسات جامعية ، وكانت الصلات الوثيقة تربط بين علماء الإسلام بعضهم ببعض . واعتقد سكان الولايات العربية أنه ليست بهم حاجة إلى تعلم أبنائهم فى جامعات إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا أو غيرها . فهذه البلاد كانت فى نظرهم منذ القرن السادس عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر مهد الكفر والكفرة . ولم تكن الدولة العثمانية مسئولة عن هذه العزلة الثقافية التى فرضها العرب على أنفسهم كما فرضوا على أنفسهم العزلة الاجتماعية متأثرين بمفاهيم تلك العصور . وكانوا من أوروبا حذرين وفى شك مريب ، يخشون أن تفعل بهم ما فعلته من قبل مع أسلافهم العرب المسلمين .

عوائق اقتصادية :

أما عن العلاقات الاقتصادية بين الولايات العربية وأوروبا فكانت فى نطاق ضيق ، لأن الاقتصاد فى الولايات العربية كان يقوم على سياسة الاكتفاء الذاتى : يأكل السكان مما تفلّه أراضيهم الزراعية من حاصلات مثل الأرز والقمح والذرة والشعير والفول والبصل والعدس وما إلى ذلك ، ويرتدون ملابس من الأقمشة الرخيصة من الإنتاج المحلى . وكانت قلة الإنتاج من السمات البارزة فى الحياة الاقتصادية فى معظم الولايات العربية .

وكانت عمليات التصدير والاستيراد يتم داخل نطاق الولايات العربية فيما بينها مثل مصر وبلاد الشام والحجاز واليمن وأقاليم شمالى إفريقيا وغيرها . أما عمليات الاستيراد من أوروبا .. فكان معظمها مقصوراً على السلع الكمالية مثل الأثاث الفاخر والسجاجيد الوثيرة والثرثريات التى تتدلى منها قطع البلور والأقمشة الحريرية والصوفية والجوخ والقطيفة والرخام والزجاج الملون المزدان بالرسوم البديعة ، ويستوردها التجار الأثرياء ، وكان يطلق على التاجر العربى المعلم الثرى «الخواجة المكرم» . وكانوا يستخدمون بعض هذه السلع فى تزيين قصورهم وارتداء الملابس الفاخرة سواء فى الصيف أو فى الشتاء ، أو لبيعها للأعيان من ذوى البيوت والعصبيات القديمة والوجاقية - أبى ضباط وضباط الصف من الفرق العسكرية - والمماليك وغيرهم من كبار الحكام وصدور علماء الأزهر ، الذين تعددت مواردهم المالية من التظنر على الأوقاف وإصدار الفتاوى والاشتغال بالتدريس فى الأزهر الشريف وشغل المناصب القضائية ومن نظام الالتزام . فكان رزقهم يأتيهم رغداً من كل مكان ، وجنحوا إلى محاكاة كبار التجار والحكام فى معيشتهم فابتدأوا القصور وزينوها بأروع أنواع الأثاث المستورد من أوروبا . ويعطى الجبرتى صوراً رائعة عن هذه القصور وزخارفها ، وما حوت من سلع مستورة من أوروبا (١) .

وكان السفر إلى أوروبا محفوفاً بالأخطار التى تصل إلى حد المغامرة بأرواح المسافرين؛ إذ كانت السفن التى تقوم برحلات فى حوض البحر المتوسط - وهو بحر لجى - مصنوعة من

(١) انظر الأجزاء الثلاث الأولى من الجبرتى .

الأخشاب وتسير بالقلاع . ومما هو جدير بالذكر أنه لما أنشئ الخط الحديدي بين القاهرة والإسكندرية عام ١٨٥٦ كان المصريون يخشون ركوب القطارات خوفاً على حياتهم ؛ لأنها كانت في زعمهم تجرى بسرعة ، مع أن القطار كان يستغرق في مثل هذه الرحلة زهاء اثنتي عشرة ساعة ويقطع فيها مائتين وثمانية كيلو متراً . ولذلك كان معظم ركاب السكك الحديدية في مصر في السنوات الأولى من الأجانب . وكانت معظم السفن التي تتردد من أوروبا سفناً أوروبية ، تتبع جمهورية البندقية أو جمهورية جنوة أو غيرها من الكيانات السياسية في شبه جزيرة إيطاليا أو سفناً فرنسية أو يونانية أو عثمانية . أما السفن المصرية فكانت تسير في النيل لنقل المسافرين أو للتجارة الداخلية ، ولذلك تضاعفت أهمية أساكن^(١) الإسكندرية ورشيد ودمياط وبعض أسكنة الشام في العصر العثماني نتيجة الانقلاب التجاري The Commercial Revolution عقب تحول طرق التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح .

وكان سكان الولايات العربية يجهلون اللغات الأوروبية ؛ مما أقام حاجزاً لغوياً منيعاً، كان من الصعب اجتيازه ، حتى لو أراد سكان الولايات العربية السفر إلى أوروبا ، وهي فكرة كانت مستبعدة تماماً من أذهانهم .

وكانت العملة السائلة المتداولة قليلة ؛ إذ كان نظام النقد يقوم في كثير من الحالات على قاعدة المبادلة أو المقايضة Barter ويذكر أحد الباحثين أن قطاعات كثيرة من سكان أقاليم الوجه القبلي في مصر كانت لا تعرف النقود المعدنية ، بل كانت تتعامل بنظام المبادلة^(٢) . وانبج أصحاب الثروات إلى استغلال مدخراتهم في شراء العقارات المبنية أو الأراضي الزراعية وأوقفوها وفقاً خيراً أو أهلياً خشية مصادرة السلطات الحاكمة لها ولأن أراضي الأوقاف كانت تتمتع بالإعفاء الضريبي .

نخلص من هذا العوض إلى أن الدولة العثمانية لم تكن مسئولة عن هذا النظام الاقتصادي ، الذي فرض نوعاً من العزلة على الولايات العربية ؛ إذ لم يكن في مكتة الدولة القيام بدور الوسيط لإكراه الجماهير العربية على استيراد السلع من أوروبا بسبب «العقد النفسية» ، التي كانت تتحكم في هذه الجماهير إلى جانب «الموانع» التي أشرنا إلى طرف منها . يضاف إلى تلك العقد النفسية والموانع أن الدولة تركت ميداني الصناعة والتجارة لرعاياها غير المسلمين ، وانصرفت إلى الاهتمام بالقطاع الزراعي في الأناضول والمناطق القريبة من إسطنبول وأهملت النهوض بالزراعة في ولاياتها العربية . وهذا ما نأخذ عليها وسنعرض له في فصل قادم عن المآخذ عليها .

(١) سبق شرح هذا المصطلح . انظر في هذه الدراسة ص ١١ .

(٢) دكتور على الجريثلي ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦ .

عوائق سياسية :

أما عن الأسباب السياسية فكان بعضها يرجع إلى الدولة العثمانية حيناً ، والبعض الآخر إلى الدول الأوروبية أحياناً أخرى . أخذ نفوذ الدولة العثمانية في الولايات العربية يتضاءل رويداً رويداً منذ أواخر القرن السابع عشر ؛ بسبب ضعف الباشوات حكام الولايات العربية واستئثار العناصر المسلحة ذات العصبة بالحكم مثل الأمراء المماليك في مصر ومماليك العراق ورؤساء الطوائف في باشويات الشام ، وكان تنفيذ معاهدات الامتيازات يخضع لأهوائهم . وكانت الحكومات الأوروبية وسفراؤها وقناصلها وتجارها يقدمون الهدايا والرشاوى إلى كبار رجال الدولة ، سواء في إستانبول أو في الولايات العربية لتنفيذ نصوص المعاهدات . ومن جانب آخر استشرى نفوذ الدول الأوروبية وازداد تدخلها في الشؤون الخارجية والداخلية على السواء للدولة العثمانية . واتخذت هذه الدول من معاهدات الامتيازات سنداً لها في هذا التدخل ، وكانت الدولة تتعرض لهزائم عسكرية أليمة من الجيوش الأوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ووجدت الدول في هذه الهزائم مشجعاً لها على مزيد من التدخل ، أكثر مما نصت عليه معاهدات الامتيازات ، التي قامت أصلاً على أساس تبادل الحقوق والواجبات بين المستأمنين الأوروبيين في الدولة والرعايا العثمانيين في الدول الأوروبية بحيث أصبحت هذه المعاهدات غمراً على الدولة وغنماً للمستأمنين الأوروبيين ، الذين لم يقنعوا بالإعفاء الضريبي ، بل كانت لهم حصانة مدنية تجاه السلطة القضائية والسلطة التشريعية والسلطة التنفيذية في أقاليم الدولة . وتطلعوا إلى مزيد من الامتيازات وأصبحت الدولة عاجزة عن التدخل لحفظ حقوق رعايا المقيمين في الدولة أمام جشع الأجانب ؛ مما أدى إلى سيادة القوضى البالغة في الولايات العربية ، وابتعاد قطاعات من سكانها العرب عن الأوروبيين خوفاً من بطشهم وجبروتهم واستغلالهم^(١) .

أولاً : مصر

صلات عربية وإفريقية وآسيوية مكثفة بدلاً من العزلة النسبية عن أوروبا :

ولكن هذه العزلة بين أوروبا والولايات العربية كانت تقابلها علاقات تجارية مكثفة مع إفريقية وآسيا . كانت القوافل والسفن الإسلامية وسيلة الاتصال ، وكانت ترد من دارفور وسنار وكردفان في السودان وغيره من أقاليم جوف إفريقية حاملة العاج وريش الدعام والصمغ والتمر هندي والجلود والتمر والكحل وقرن الخرنيت والشب والرقيق الأسود . وكانت محطات وصول

(١) عن هذا الموضوع ، انظر كلا من :

على ماهر باشا ، مرجع سبق ذكره ص ٣٦٦-٣٤٠ .

نكتور حامد سلطان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤١٢-٤٢٠ .

تلك القوافل إلى مصر تقع في إسنا وأبى نيج وأسيوط والقاهرة . وكانت هناك قوافل أخرى تأتي من شمالي إفريقية : مراکش والجزائر وتونس وطرابلس حاملة الأصواف والشيلان والطرابيش والأحذية والزيت والشمع والعسل^(١) . وكانت حركة وصول قوافل شمالي إفريقية إلى مصر تشتد إبان موسم الحج ؛ إذ يجتمع حجاج شمالي إفريقية في القاهرة ؛ حيث ينضمون إلى قافلة الحج المصري في رحلتها إلى الحجاز . وكانوا يحرصون على الوصول إلى العاصمة المصرية في وقت مبكر قبل تحرك قافلة الحج المصري في السبت الثالث من شهر شوال من كل عام ، وكانوا يحرصون على قضاء شهر رمضان المعظم في القاهرة يزاولون ألواناً من النشاط التجارى ، ويقضون بقية النهار وزلماً من الليل في تلاوة القرآن وزيارة المساجد وأضرحة أولياء الله . وكانت ترد إلى مصر أيضاً حاصلات بلاد التكرور - وهى الإقليم الغربى لجنوب السودان على جانبيه نهر السنغال ، ويسمى بالفرنسية Toucouleur وبالإنجليزية Tuculor . وإقليم تكرور لا يعدو أن يكون إقليماً من الأقاليم المكونة لمملكة مالى وحدودها من المحيط الأطلسى غرباً إلى بلاد البرنو شرقاً في قلب إفريقية ، اعتنق سكانه الإسلام في النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى ، وكانوا أسبق طوائف غربى إفريقية اتصالاً بمصر . ووجدت علاقات اقتصادية وثقافية بين الشعب الإسلامى في مصر وبين التكروريين^(٢) . وكانت القوافل تحمل حاصلات بلادهم إلى مدينة قوص ، ثم تنقلها السفن النيلية إلى القاهرة . وكان أهل تكرور يمرّون بمصر وهم في طريقهم إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وفي عودتهم منها^(٣) ، وابتلى تجار تكرور في القاهرة مدرسة لتعليم أبنائهم قبل إلحاقهم بالأزهر وعرفت باسم مدرسة ابن رشيق^(٤) . وكان لطلبة تكرور رواق خاص بهم فى الأزهر الشريف . واستطاب التكروريون الإقامة في قرية ساحلية بالجيزة - قبالة القاهرة - كانت تسمى منية بولاق ، ثم عرفت باسم

(١) دكتور محمد فهمى الهبط : تاريخ مصر الاقتصادى إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٦ .

(٢) يرى بعض الباحثين أن كلمة تكرور اشتقت من لفظة تكرر ، لأن أهالى هذا الإقليم كانوا يحرصون على تكرار أداء فريضة الحج ، بينما يرى البعض الآخر أن الكلمة أخذت من كلمة تكرر أى تنقية وتطهير وتزكية إيمانهم وبعيدتهم عن طريق تادية فريضة الحج عدة مرات . ويرى البعض الثالث أنه تكرار اسم مدينة ، وأنه يطلق أيضاً على القبائل التى تقطن السودان في أقصى الجنوب من المغرب . وإن هذه القبائل تشبه الزنج إلى حد كبير .
انظر كلام من :

Burckhardt J.L., Travels in Nubia. London, 1819. P. 404.

ياقوت الحموى : معجم البلدان ، القاهرة ، ١٩٠٦ ، ج ٢ ، ص ٣٩٩ .

(٣) ابن فؤدى : الإمام محمد بلو بن عثمان بن فؤدى : إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور . تحقيق ونشر دكتور شوقي عطا الله الجمل . وكلمة بلو بلغة قبائل الفولاني تعنى المساعد أو المعين . وقد أطلق عليه هذا اللقب لمعرفته لأبيه عثمان فؤدى فى حروبه وفى شئون الحكم والإدارة .

(٤) المقرئى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ، ١٨٥٣ ، ج ٢ ، ص ٣٣٦ .

بولاق التكرور^(١) . فكان لأهل تكرور نشاط تجارى مع مصر طوال السنة بحكم جاليتهم الكبيرة فى القاهرة ، وكانوا يتبادلون المحاصيل والمنتجات . ويشهد هذا النشاط التجارى إبان موسم الحج على غرار قوافل شمالى إفريقية .

وبجانب القوافل التجارية كانت السفن الإسلامية التى تخمر عباب البحر الأحمر تقوم برحلاتها من ثغر المخا فى اليمن إلى موانئ سواكن وجدة والقصير والسويس تحمل البين من اليمن وبعض السلع من أقاليم آسيا ، كما كانت ترفأ إلى دمياط ورشيد والإسكندرية السفن العثمانية واليونانية من فلسطين وسوريا وأزمير وإستانبول وغيرها ، تحمل الصابون والتبغ والزيوت والحريز والأخشاب .

بريطانيا وفرنسا تعقدان معاهدات تجارية مع الأمراء المماليك في مصر :

يلاحظ أن بريطانيا وفرنسا لم تقنعا بإبرام معاهدات امتيازات مع الحكومة العثمانية فى إستانبول فقط ، بل اتجهت كل منهما إلى مصر لعقد معاهدات على غرارها ، بعد أن ضعف نفوذ الحكومة العثمانية ضعفاً شديداً فى مصر واستبد الأمراء المماليك بالحكم ؛ خاصة منذ حركة على بك الكبير عام ١٧٦٩ ، وكان قد قام تناقض شديد بين تلكا الدولتين على إيجاد طريق قصير وسريع وسهل بين أوروبا وممتلكاتها فيما وراء البحار . وكانت بريطانيا تفضل إحياء الطريق البرى القديم The Overland Route من السويس عبر الصحراء القاهرة ثم الإسكندرية بينما كانت فرنسا تؤثر شق قناة بحرية بين البحرين

(١) أقام فى هذه القرية رئيس التكروريين فى القاهرة ، وأسمه الشيخ أبو محمد يوسف ابن عبدالله التكرورى . وقد نقل الضريح والجامع إلى داخل البلدة خوفاً من تصدع البناء ، إذا جاء الفيضان عالياً خطيراً .

بجانب المصادر والمراجع التى سبق ذكرها عن هذا الموضوع ، انظر كلاً من :

المقريزى : الإلام بأخبار من بارض العيشة من ملوك الإسلام . نشره دكتور رنك ومحفوظ بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت أرقام ١٤٥٧-١٤٥٨ ، ١٤٦٤-١٤٦٥ ، ١٤٦٦ ، ٢٢٩٥ ، وتوجد مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٥٠٠ تاريخ .

ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدا والخبر ، ببيروت ، ١٩٥٩ ، ج ٦ ، ص ٤١٣-٤١٥ .

ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ١٨٨٢ ، ج ٢ ، ص ١٤ .

على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٠ ، ص ١٦ .

دكتور سعيد عبدالفتاح عاشور : العصر المماليكى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩٠ ، حاشية رقم ٤ .

دكتور إبراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الشراكسة ، مرجع سبق ذكره ، ص

١٤٩-١٥٠ .

Levtzion N.; The Thirteenth and Fourteenth Century Kings of Mali (J. Afr. Hist. iv, No. 3, 1763.

دى لافوس De lafosse . دائرة المعارف الإسلامية ، مادة تكرور ، الطبعة الثانية .

المتوسط والأحمر^(١) ، ونجحت كئاثما في عقد معاهدات مع الأمراء المماليك في مصر .

أبرمت بريطانيا سلسلة من الاتفاقيات ، كان من بينها اتفاقية مع علي بك الكبير بعد أن فتح الحجاز ، وأراد أن يستأثر بتجارة البحر الأحمر الحرة وسواحل الهند . وقد عين بالتار Balthar - أخ كارلو دي روسي Carlo de Rosetti - قنصل للنمسا العام في مصر وصديق علي بك الحميم - أميناً لجمرك جدة . ووصلت سفينة إنجليزية إلى هذا الميناء ، ثم تطلع إلى إنشاء طريق بحري للتجارة بين الهند وميناء السويس ؛ كي يستفيد من الرسوم الجمركية على السفن وعلى ماتحملة من بضائع . وازدادت تطلعاته فأراد تحويل التجارة الشرقية عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى الطريق البري القديم عبر مصر . ووصلت سفينة إنجليزية من البنغال إلى السويس ، غير أن نهاية علي بك جاءت سريعة في عام ١٧٧٣ فتوقف مشروعه . وعلى عهد خلفه الأمير المملوكي محمد بك أبي الذهب ، استطاع الرحالة الإنجليزي جيمس بروس James Bruce أن يستصدر فرماناً محلياً من أبي الذهب عام ١٧٧٣ إلى شركة الهند الشرقية التجارية ، جاء فيه أنه لما كان التجار الإنجليز يشكون من المظالم التي أنزلها بهم شريف مكة وعماله في جدة ، وكان التجار الإنجليز يودون المجيء بسفنتهم إلى السويس في أمن وسلام ، فقد سمح أبو الذهب بحضور السفن الإنجليزية إلى السويس ، وتعهد بعدم التعرض للتجار بالأذى ، من جانبه أو جانب ضباطه وخدمه ورعاياه . ثم حدد الضريبة بثمانية في المائة من المتاجر المجلوبة إلى السويس أو من قيمتها ، بالإضافة إلى خمسين ريالاً إسبانياً (أبو طلاقة) كرسوم يدفع عن كل سفينة . وأجاز أبو الذهب للتجار الإنجليز إحضار متاجرهم إلى القاهرة ذاتها والتجارة فيها إذا رغبوا في ذلك ، أو التجارة في السويس^(٢) وكانت مينرفا Minerva أولى السفن الإنجليزية التي وصلت إلى السويس بعد هذا الإتفاق في يناير - كانون ثان - ١٧٧٥ وكانت تحمل مندوبين من قبل وارن هيستنجز Warren Hastings حاكم البنغال إلى أبي الذهب . ونجح هؤلاء في ٧ من مارس - آذار - ١٧٧٥ ، في عقد معاهدة للتجارة والملاحة بين أبي الذهب وهيستنجز حاكم البنغال من قبل الدولة البريطانية . وقد خولت هذه المعاهدة حق التجارة في الهند وفي مصر لمواطني المتعاقدين على السواء ، وخفضت الرسوم الجمركية على البضائع المجلوبة من الهند إلى السويس ، وأجازت للإنجليز شراء وتصدير المنتجات المصرية دون فرض ضرائب عليها . وتعهد أبو الذهب عن نفسه وعن خلفائه في حكومة مصر ، بالمحافظة على المتاجر المنقولة من الطور أو السويس إلى القاهرة في طريق تصديرها إلى الخارج . وقد اعترض الباب العالي على مجيء السفن الإنجليزية إلى السويس . وكانت

(١) انظر عرضاً لهذا التناقض ومظاهره في :

دكتور عبدالعزيز محمد الغنواوي : قناة السويس والتغيرات السياسية إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص

ص ٦٧-٦٨ .

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩-٤٧ .

حجته في هذا الاعتراض هي أن الاحترام الواجب للحرمين الشريفين لا يجوز للسفن الإنجليزية الملاحة في البحر الأحمر شمالي جدة . وجاءت وفاة أبي الذهب الفجائية في ٨ من شهر يونيو - حزيران - عام ١٧٧٥ فجعلت تنفيذ هذه المعاهدة أمراً متعذراً . فقد استأثر بحكم مصر الأميران المملوكيان إبراهيم بك الكبير ومراد بك وشاعت الفوضى في البلاد . غير أن أحد كبار التجار الإنجليز ، واسمه جورج بولدين George Baldwin ، ممن كانوا يمارسون نشاطاً تجارياً واسعاً في منطقة الشرق الأدنى منذ سنة ١٧٦٠ ، كان يعتقد أن استخدام الطريق البري عبر مصر يعود بفوائد كثيرة على التجارة بين الشرق والغرب ، وأن نقل البريد بوجه خاص بين إنجلترا ومستعمراتها في الهند لا يقل أهمية عن نقل البضائع . ولما لم يكن هناك من يشرف على مصالح الإنجليز في مصر في تلك الآونة ، عزم على أن يأخذ على عاتقه هذه المهمة ، واستطاع أن يظفر من شركة الليفانت الإنجليزية ومن شركة الهند الشرقية للتجارة بما يخوله الإشراف على مصالح هاتين الشركتين في الشرق الأدنى بما فيها مصر . وبذل بولدين منذ عام ١٧٧٥ جهوداً مكثفة في مصر لتنظيم خط مواصلات منتظم من الهند إلى السويس - القاهرة - الإسكندرية - إنجلترا وبالعكس ، وأثمرت جهوده إلى حد أن السلطات الهندية والإنجليزية في عام ١٧٧٧ أصبحت تعتمد اعتماداً كلياً على الطريق البري عبر مصر في نقل بريدها . وعاد الباب العالي يعارض هذا المشروع واتخذ من الناحية الدينية الإسلامية سبباً لاعتراضه . فأصدر السلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٤-١٧٨٩) فرماناً في عام ١٧٧٩ يمنع أي سفينة من سفن الإفرنج من الاقتراب سراً أو علانية من ميناء السويس ، وجاء في هذا فرمان ... إن بحر السويس هو الطريق المميز للحج للمقدس إلى مكة المكرمة . وإن السماح لهذه السفن بالملاحة ومساعدتها ، وعدم منعها ، خيانة للدين والسلطان والإسلام قاطبة^(١) .

والواقع أن الدولة العثمانية كانت تخشى أن تتخذ إنجلترا من السماح للسفن الإنجليزية بالملاحة في البحر الأحمر إلى السويس وسيلة لاحتلال مصر وغيرها من الممتلكات العثمانية المطلة على هذا البحر . وأصررت على سياستها التقليدية كإجراء أمن لها . ولذلك لم يؤذن إلا للسفن العثمانية بنقل البريد من جدة إلى السويس . وذلت الأحداث على أن مشروع نقل البريد عبر طريق السويس البري كان سابقاً لأوانه ، لأن فوضى الحكم كانت تتفاقم يوماً بعد يوم على عهد إبراهيم بك الكبير ومراد بك ، واختل الأمن عبر الطريق الصحراوي . ولم يقدر لهذا المشروع أن ينفذ تنفيذاً سليماً إلا في القرن التاسع عشر على عهد محمد علي بمعرفة توماس واغورن Thomas Waghein أحد الضباط الإنجليز في شركة الهند ، ونظم قوافل من الإبل للخدمة بانتظام بين السويس والقاهرة . وكان الأمن مستتباً في مصر ، واشتدت قبضة الحكومة على العريان والأهليين .

(1) Charles Roux J.; L'Isthme et le Czanol de Suez. Historique. Etat actuel. 2 vol. Paris, 1901, Vol. I, Annexe No5, pp. 419-420.

فرنسا تعقد ثلاث اتفاقيات تجارية مع مصر :

أما فرنسا .. فقد هالتها المحاولات المكرورة التى بذلها الإنجليز فى مصر لإنشاء مركز تجارى متميز لهم فيها ، وإحياء طريق السويس البرى ، وهالتها أيضاً مساعى سفير النمسا فى إستانبول لإحياء مرور التجارة الشرقية بين تريستا والهند عن طريق مصر والبحر الأحمر ، واحتمال نداعى الدولة العثمانية ، فأوفدت فرنسا الضابط البحرى تروجيه Truguet إلى مصر فى أواخر عام ١٧٨٤ ، ونجح فى عقد ثلاث إتفاقيات سنة ١٧٨٥ : كانت الأولى فى ٩ من شهر يناير - كانون ثان - مع مراد بك ، تعهد فيها الأخير بحماية التجارة الفرنسية عند مرورها من السويس إلى القاهرة . وحدد الضريبة على تجارة الهند باثنين فى المائة للباشا العثمانى وأربعة فى المائة للبك الحاكم وتخفيض إلى ثلاثة فى المائة فقط إذا كانت السلع مصدرة إلى فرنسا . وقد وقع على هذه الاتفاقية بعد ذلك الأمير إبراهيم بك الكبير ، وكانت الاتفاقية الثانية فى ٢٣ من شهر يناير - كانون ثان - مع يوسف كساب الملقم العام للجمارك فى مصر ، تعهد فيها بعدم زيادة الرسوم الجمركية على السلع الفرنسية وتحصيل نصف فى المائة من قيمة السلع المفرغة من السفن فى السويس . وعقدت الاتفاقية الثالثة فى الشهر ذاته أيضاً مع الحاج ناصر شديد أحد شيوخ العريان ، تعهد فيها بنقل البضائع الفرنسية بأمان فى طريق الصحراء من السويس إلى القاهرة ، فى مقابل أجر عن كل جمل (١) . غير أن هذه الإتفاقيات الثلاث لم تسفر عن النتيجة المرجاة لأن إبراهيم بك الكبير ومراد بك دلأيا على الإعمان فى مظالمهما وإرهاق التجار الأجانب وابتزاز الأموال منهم . وكان إبرام هذه الإتفاقيات سواء مع إنجلترا أو فرنسا فى مقدمة الأسباب ، التى حملت السلطان عبد الحميد الأول على إرسال حملة عسكرية بقيادة حسن باشا الجزائرلى إلى مصر لكسر شوكة الأمراء المماليك . وهذه للحملة من الحملات الفريدة فى تاريخ مصر ؛ فالدولة العثمانية ترسل حملة عثمانية إلى مصر العثمانية لدعم السيادة العثمانية وتقليم أظافر المماليك . وقد دخلت الحملة القاهرة فى شهر أغسطس - آب - عام ١٧٨٦ ولم تحقق نجاحاً يذكر ، إذ اعتصم إبراهيم بك الكبير ومراد بك فى الصعيد ، واستدعت الحكومة العثمانية الحملة فى السنة التالية بسبب نشوب الحرب مع الروسيا فى شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٧٨٧ ، وعاد هذان الأميران المملوكيان إلى القاهرة وظلا يحكمانها حكماً ثنائياً استبدادياً ، تكدست فيه المظالم من يمين ويسار على سكان البلاد - مصريين وأجانب - فتعذر أو استحال تنفيذ الاتفاقيات التجارية ، سواء التى عقدتها بريطانيا أو فرنسا مع الأمراء المماليك . وظل الموقف على هذا المنوال حتى مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨ .

وإذا كان اتصال مصر بإبان الحكم العثمانى بأوروبا ظل ضعيفاً هامئاً ، شاحباً لأسباب

(1) Charles Roux F.; Autour d'une Route L'Angleterre., L'Isîme de Suez et L'Egypte au XVIII siècle. Paris, 1922, P. 172.

كانت كلها أو غالبيتها خارجة عن إرادة الدولة العثمانية .. فإن بعض الولايات العربية الأخرى كان على اتصال وثيق ومستمر مع أوروبا بل والولايات المتحدة الأمريكية ، وكان من بين هذه الولايات : باشويات الشام وولايات العراق ونيابات شمالي إفريقية .

ثانياً : بلاد الشام

أسباب اتصال بلاد الشام بأوروبا إبان الحكم العثماني :

كانت لبلاد الشام أوضاع خاصة بها ، اختلفت اختلافاً جذرياً عن الأوضاع في مصر وغيرها من الولايات العربية فيما عدا نيابات شمالي إفريقية . وقد أسهمت هذه الأوضاع في قيام اتصال وثيق ومستمر بين باشويات الشام وأوروبا طوال الحكم العثماني من أوائل القرن السادس عشر (١٥١٦) حتى نهاية الحرب العالمية الأولى (١٩١٨) ؛ بحيث كانت العزلة مع أوروبا شبه منعدمة فيها . ويمكن القول بأن اتصال بلاد الشام بأوروبا كان أكثر وأوثق من اتصال أي ولاية عثمانية أخرى في الشرق العربي مع أوروبا ، في خلال تلك القرون الأربعة . وحسبنا أن نذكر ثلاثة عوامل أدت إلى هذه النتيجة .

كان العامل الأول هو أن بلاد الشام لم تخضع لحكومة مركزية واحدة كما حدث في مصر ، بل قسمت إلى عدد من الوحدات الإدارية ، عرفت باسم الباشويات أو الإيالات - جمع إيالة - وكانت هي باشوية حلب ، باشوية دمشق ، ويطلق عليها باشوية الشام حيناً ، وباشوية سوريا حيناً آخر ، ثم باشوية طرابلس . وكانت كل باشوية مستقلة عن الأخرى . وكان يطلق عليها حاكم كل منها أول الأمر أمير الأمراء - ميرميران - وكان رئيساً للسلطة في إيالته مسئولاً عن ضمان استمرار ولائها للسلطان وتوفير العدالة والأمن للسكان . ومارس اختصاصات واسعة في الشؤون الإدارية والعسكرية والقضائية والإقطاعية . وكثيراً ما تضاربت اختصاصاته مع القضاء ، وكان يتدخل في تحديد الأسعار ومراقبة النقد وتوفير المواد الغذائية ، ولكنه لم يكن يتدخل في تنفيذ مشروعات اقتصادية أو اجتماعية . ولكن هدفه الأول كان المحافظة على الأمر الواقع ومحاربة البدع وتطبيق قوانين الدولة وإقامة مساجد أو تكايا أو خانات أو مدارس^(١) . وكانت له حاشية تشبه حاشية المصدر الأعظم . ولم يظل التقسيم الإداري لبلاد الشام ثابتاً ، بل أدخلت عليه تعديلات كثيرة تبعاً للأحداث السياسية التي واجهتها الدولة في بلاد الشام . ونلاحظ أن الدولة العثمانية لم تأت بجديد في هذا التقسيم ، فقد درجت دولة المماليك الشراكسة على مثله في بر الشام وكانت تطلق على التقسيمات الإدارية الرئيسية «نيابات» الشام .

(١) دكتور عبد الكريم غربية ، مراجع سبق ذكره ، ص ٤٠-٤٤ .

أما العامل الثاني فإن التجارة كانت ولا تزال تمتص في أفئدة أهل الشام ، يرون فيها أفضل وسيلة لاستثمار أموالهم واستغلال نشاطهم نظراً لما تدره عليهم من أرباح وفيرة . ولذلك امتازت الأساكن والمدن الداخلية في إيالات الشام بنشاط تجارى كثيف ومستمر ووجود جاليات أوروبية متعددة الجنسيات ، قام أفرادها بدور الوسيط في عمليات التصدير والاستيراد وتعايشوا مع سكان البلاد .

أما العامل الثالث فكان العامل للحاسم ، وبالتالي الأكثر أهمية . كانت بلاد الشام مليئة بتنوع بشرى ولغوى ودينى ندر ، أو قل أن وجد له مثيل فى أى بقعة فى أنحاء العالم .

التنوع البشرى :

كانت تقطن بلاد الشام العناصر السامية العربية ، وجاليات قديمة من اليهود والسرمان والتركمان والأكراد والكريتيون والأرمن والروم الكاثوليك والروم الأرثوذكس وجاليات طارئة من البشناق^(١) والألبانيين ومن رعايا الكيانات السياسية فى شبه جزيرة إيطاليا ومن رعايا فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية . وكانت تزد أعداد وفيرة من اليهود والمسيحيين من كافة أرجاء العالم إلى الجزء الجنوبى من بلاد الشام وهو فلسطين ؛ لزيارة الأماكن المقدسة اليهودية والمسيحية ، وكانوا يأتون إلى فلسطين إما براً وإما بحراً من يافا إلى بيت المقدس . وكانت قبائل البدو تقطن جهات متعددة من بلاد الشام ، وتحول كثير من أفرادها إلى أعمال السلب والنهب .

التنوع اللغوى :

كان التنوع اللغوى على أشده ؛ إذ كانت هذه العناصر البشرية المتعددة تتكلم لغات شتى من اللغات الميئة والحية . ومن اللغات الأولى كانت العبرية^(٢) والسرمانية والآرامية واللاتينية . ولم يكن استخدام هذه اللغات الميئة مقصوراً على الطقوس الدينية والكتب الدينية فحسب ، ولكن

(١) البشناق نسبة إلى البوسنة وهى إقليم يقع حالياً فى يوغوسلافيا كان قد امتد إليه الحكم العثمانى .

(٢) كانت اللغة العبرية من اللغات الميئة إبان الحكم العثمانى . ولكن بدأ إحيائها منذ المؤتمر الذى دعا إلى عقده الصحفى النمساوى اليهودى تيودور هوتزل فى مدينة بال فى سويسرا . وقد انعقد المؤتمر فى ٢٩ من شهر أغسطس - آب - ١٨٧٩ . وكان من قرارات هذا المؤتمر تقوية المشاعر اليهودية والوعى القومى وتعزيزهما . ثم اتخذ هذا الإحياء طابعاً رسمياً حين فرضت بريطانيا نفسها دولة منتدبة على فلسطين ، وصدرت له الانتداب ، وصنفت عليه عصبة الأمم فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يوليو - تموز - عام ١٩٢٢ . وجاءت صياغة المادة الثانية والعشرين على النحو التالى «تكون الإنجليزية والعربية والعبرية اللغات الرسمية لفلسطين ، وكل عبارة أو كتابة بالعربية يجب أن تكرر بالعربية» ، ولما أنشئت دولة إسرائيل يجب أن تكرر بالعبرية . وكل عبارة أو كتابة بالعبرية يجب أن تكرر بالعربية» ، ولما أنشئت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ كانت العبرية اللغة الرسمية لها .

انظر :

الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين . المجموعة الأولى ١٩١٥-١٩٤٦ نشر الأمانة العامة لجامعة =

كان استخدامها يمتد إلى الحياة اليومية المدنية العادية . أما عن اللغات الحية فقد تكلمت طوائف أخرى من السكان العربية والتركية والكردية والشركسية وكذلك اللغات الأوروبية الحديثة .

التنوع الديني :

كان التنوع الديني أكثر وضوحاً وأقوى بروزاً وأشدّ تعقيداً . كان المسلمون في بلاد الشام طوائف قدا . كان من بينهم قطاعات هامة من أهل السنة ، وكان من بينهم العرب والعثمانيون والتركمان . وكان لهم ثقل سياسي في حياة البلاد . وتابع العثمانيون والتركمان والأكراد المذهب الحنفي ونهج تهجم بعض الأعيان العرب من سكان المدن المذهب الحنفي تقريباً إلى السلطان العثماني لأن المذهب الحنفي كان المذهب الرسمي للدولة . وانتمى عدد قليل من السنيين للمذهب الحنبلي ، بينما كان المذهب الشافعي هو السائد في فلسطين والأردن وغيرها من المناطق المتأثرة بمصر . وفي ذات الوقت وجدت إلى جانبهم قطاعات أخرى من أهل الشيعة . وكان الأخيرون ذوي عصبية قوية ويشكلون عشائر كثيرة وكبيرة . نذكر منهم على سبيل المثال الدرّوز . ويقول عنهم الأستاذ محمد عبدالله عنان إنهم يعتقدون في ألوهية الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي (٣٨٦-٤١١ هـ - ٩٩٦-١٠٢٠ م) . فهذا الخليفة ليس في اعتقاد الدرّوز إنساناً بكافى البشر ، ولكن الروح الإلهية انتقلت من آدم إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثم إلى الحاكم بأمر الله وحلت به ، وأنه سيعود من رمسه آخر الزمان في شخص الإمام أو المهدي . وهذا هو في الواقع أساس عقيدة الدرّوز وعمادها الجوهرى . وهم يعتقدون في التناسخ أى ينسخ مذهبهم أو عقيدتهم ، على وجه الدقة ، جميع الأديان والشرائع السابقة . وفي زعمهم تعد عقيدتهم خاتمة الديانات . وهم ينكرون الأنبياء والرسل جميعاً . وينكرون أصول الإسلام والنصرانية واليهودية^(١) ولا يأخذون بشيء من أصول الإسلام كالصلاة والزكاة والصيام والحج . ولا يتبعون علم الفرائض أو المواريث لأنهم ينكرون أحكام الشريعة^(٢) . وكان معظم الدرّوز يسكنون جبل لبنان وحوارن ووادي التيم ، وقاموا بدور الريسي بارز في تاريخ جبل لبنان ونزعوا المنطقة وغدوا حكامها الفعليين لعدة قرون . وبلغ عددهم زهاء مائة ألف ، واشتهروا

= النول العربية . إدارة فلسطين . (الشعبة السياسية) ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ١٢٨-١٣٧ .

دكتور أحمد طربين : فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار (١٨٩٧-١٩٢٢) من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة النول العربية . القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٦٢ .

(١) ينتسب الدرّوز ظاهراً إلى الإسلام ويتظاهرون أمام المسلمين بأنهم مسلمون ، وأمام النصارى بأنهم نصارى ، ويحرصون أشد الحرص على كتمان عقائدهم السرية وينكرون مايقخذ عليهم منها ، بل ينمونها زمام المفترضين رياء ونفاقاً .

(٢) إن المؤسس الحقيقي والإمام الحقيقي لعقيدة الدرّوز رجل يدعى حضرة بن علي بن أحمد الرّوزنى ، ويعرف بالباد . ظهر في القاهرة عام ١٠١٧ هـ (١٠٠٨ هـ) ودعا إلى ألوهية الحاكم بأمر الله . وإن كانت هذه العقيدة تنسب إلى محمد بن إسماعيل الرّوزى ، الذى قيل إنه أول من أذاع الدعوة بألوهية الحاكم بأمر الله =

بالتمسالة فى الحروب وبطاعتهم لرؤسائهم واشتركوا فى معظم الانتفاضات التى قامت ضد الحكم العثمانى . وظلت منطقة جبل لبنان المركز الرئيسى لتجمعاتهم إلى أوائل القرن الثامن عشر ، حينما بدأت هجرتهم إلى حوران .

وكان من العصبية الدرزية التتوخيون ، والقيسيون ، والمعنيون أو بنو معن ، وأصبوا أقوى قوة فى جنوبى لبنان إبان الحكم العثمانى . وبلغ نفوذهم الأوج على عهد الأمير فخر الدين المعنى الثانى (١٥٧٢-١٦٣٥) ، الذى تحالف مع أمراء توسكانا فى شبه جزيرة إيطاليا ، وكون قوة عسكرية ذات بأس شديد من الدروز والسكمان (١) والنصارى ، وشجع التجار الأجانب . وكان هناك أيضاً آل علم الدين وكانوا يمينيين ، والأمراء الأرسلانيون ، والمتاوله وهم من غلاوة الشعية سكنوا فى جنوبى لبنان فيما يعرف بجبل عامل ، وامتدوا إلى البقاع وسيطروا على بعلبك ووجدت جالية منهم فى دمشق . ووثقوا علاقاتهم الدينية بفارس واتصلوا بحكائهم وأمدوا فارس بعدد من العلماء الشيعة السورى الأصل ، وتلقى عدد منهم العلم فى معاهد النجف الأشرف . وتفاوت عددهم بين خمسة وعشرين ألفاً وضعف هذا العدد ، وقد تعرضوا لضغط شديد من جيرانهم الدروز . والنصيرية أو العلويون وهم طائفة شيعية باطنية يجيزون الزواج من الحرمان مثل الأم ، والأخت ، والابنة . وتسببوا فى خلق متاعب كثيرة للدولة ولجيرانهم ؛ إذ كانوا يعتدون على المعلمين السنيين وعلى المسيحيين . والاسماعيلية أو الإسماعيليون وهم من أقدم الطوائف الشيعية فى بلاد الشام ، ومركزهم الرئيسى فى السلمية شمالى شرق حمص . واعترف إسماعيليو الشام بزعامة الأغاخان . وبنو شهاب ، وكانت الأسرة الشهابية أقوى الأسر القيسية أنشأت إمارة على جبل لبنان ، واختير الأمير بشير الشهابى سنة ١٦٩٧ أميراً للجبل ، وبنو حرقوش وكانوا من غلاة الشيعة ، ونشب صراع عنيف بينهم وبين الطوائف الدرزية مثل المعنيين والشهابيين . وكان هناك الأكراد وأشهر عشائهم بنو جانبولاد ، وعرفوا أيضاً باسم الجنبلاطية واعتقدوا فى لبنان العقيدة الدرزية وارتفعت مكانتهم ، حتى كان يطلق على الزعيم

= انظر :

محمد عبده عنان : الحاكم بأمر الله الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٧-١٩٨ ص ٢٠٥ ، ٢٤٢ ، ٢٩٦ ، ص ٣١٦-٣١٨ .

دكتور محمد كامل حسين : طائفة الدروز . تاريخها وعقائدها ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٨ ، ص ٣١-٧٢ ، ٨٣-٨٨ ، ١١٧-١٢٠ .

(١) السكمان وترد هذه اللفظة فى بعض المراجع السكبان وتعنى كلاب الصيد ، وكانت تطلق على طوائف من الجنود غير النظاميين . بدأ ظهورهم منذ أواخر القرن السادس عشر . جمعهم عبدالعليم اليازجى أحد أصحاب العصبية الذين خرجوا على البولة العثمانية . ولم أخفقت حركته تفرق جنوبه والتفوا بخدمة فخر الدين المعنى وغيره من أصحاب المشائر .

انظر :

المحبى : خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر . ج ١ ، ص ٢٨٦ ، ص ٨٤ ، ص ٢٢٢ .

منهم شيخ الشيوخ . وكان هناك أيضاً السيفيون أو بنو سيفا، وهم من الأكراد وعظم مركزهم حين علا نفوذهم على نفوذ الباشا العثماني في طرابلس ، ودان لهم شمالي لبنان وامتد نفوذهم إلى حماة وحمص .

وعلى هذا النحو كانت بلاد الشام مسرحاً تزاحمت عليه طوائف إسلامية ، كان منهم أهل السنة وكان منهم أهل الشيعة . وانقسم الأخيرين إلى جماعات عديدة من أصحاب العصبية والعقائد والمذاهب ، تناوب أفرادها جرياً وراء تحقيق مصالح شخصية ، وكان نفوذ زعماء هذه الطوائف يطو نفوذ الباشوات العثمانيين .

ومما هو جدير بالذكر أن فريقاً من المسلمين ارتدوا عن دينهم وتحولوا إلى المسيحية . وكان يحدث أن الأسرة المسلمة الواحدة تنقسم إلى فرعين : فرع يبقى على إسلامه ، وفرع يرتد إلى المسيحية . ونذكر على سبيل المثال الشهابيين ، فقد تحول فريق منهم إلى النصرانية . وكان منهم الأمير بشير الشهابي الكبير حليف محمد علي باشا وإلى مصر ، وأصبح الشهابيون في لبنان مسيحيين بينما كان الشهابيون في سوريا من المسلمين . وكذلك تحول بنو حرفوش وهم أمراء بعلبك والبقاع إلى المسيحية بعد أن كانوا من غلاة الشيعة . وتحولت أيضاً إلى المسيحية عقب معركة عين دارا (عنداره) سنة ١٧١١ أسرة أبي اللمع أو بالعم . وكان هذا التحول يحدث عادة دون صنجة (١) .

وقد وصف قسطنطين في أحد مؤلفاته هذا التعدد في الأديان والطوائف في بلاد الشام وصفاً معبراً بقوله : ويمتاز أهل الشام عن بقية أهل الأرض بكثرة أديانهم . فليس في المسكونة بلاد صغيرة مثل هذه تضم العدد العديد من الأديان والطوائف . وفيها أديان خاصة بها لا وجود لها في سواها من البلدان ... وليس في الأرض كلها أناس من طائفة الروم الكاثوليك والموازية إلا في بلاد الشام والبلدان التي يتردد عليها أهل الشام . ومن غريب أمر الطوائف أن بينها أربعة هي طوائف الدروز والإسماعيلية والسمرية والنصيرية ، التي لا وجود لها في غير بلاد الشام (٢) .

الطوائف المسيحية :

وكانت الطوائف المسيحية في بلاد الشام على شاكلة الطوائف الإسلامية من حيث تعددها وتناوبها وتصارعها على النفوذ ابتغاء تحقيق مطامع أو مصالح خاصة بها . واتخذت كل طائفة مسيحية لنفسها شرعة ومهاجراً . وكان من بين هذه الطوائف : الروم الأرثوذكس ، والروم الكاثوليك ، والسريان اليعاقبة ، والسريان الكاثوليك ، والأرمن الأرثوذكس ، والأرمن

(١) انظر ماكتبه عن هذا الموضوع دكتور قليب حتى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٣٣١ ، ٣٤٢ .

(٢) قسطنطين (نعمان بن عبده بن يوسف الدمشقي) : حصر الشام عن نكبات الشام . القاهرة ١٨٩٥ ، ص ٥-٦ .

الكاثوليك والأقباط ، والأحباش ، والموارنة ، واللاتين ، والبروتستانت .

كان الروم الأرثوذكس يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية - اليونانية - في إسطنبول . وكان أتباع هذه الكنيسة أكبر الطوائف المسيحية في بلاد الشام أهمية وعدداً . وعانت هذه الكنيسة من انقسامين خطيرين : فقد أبدى أتباعها العرب سخطهم على الأوضاع السائدة فيها ؛ إذ كان اليونانيون يمتنعون بالنفوذ الأكبر في الكنيسة ، ويحتلون مناصبها الدينية العليا ويفرضون اللغة اليونانية في إقامة الطقوس الدينية ، وكان العرب الأرثوذكس لا يفقهون من هذه اللغة شيئاً . وتطور النزاع حين طالب هؤلاء العرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بتعريب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية . ومما زاد في حدة تعدد الهيئات المسيحية في بلاد الشام الانقسام الذي حدث بها بإنشاء بطريركيتين هما : بطريركية للقدس ومركزها بيت المقدس ، وبطريركية أنطاكية ومركزها دمشق ، وقام تنافس حاد بينهما ، وأنشأ بطريرك القدس داراً جديدة للبطريركية واستورد مطبعة وأوعز بتعريب الكتب الدينية وشيد مدرسة . وارتبطت بكرسى بطريركية القدس أسقفيات الناصرة وعكا وطبريا والكرك والسلمة وعجلون وسمسطية وطور سيناء وشرقية نمرين . وارتبطت بكرسى بطريركية أنطاكية أسقفيات باشوية الشام وبعليك وحلب . وكان للأرثوذكس في دمشق سبع عشرة كنيسة ، وبنوا كنيسة جديدة بعد أحداث فتنه سنة ١٨٦٠ ، وقاموا بترميم الكنائس التي تصدعت في أثناء هذه الفتنه ، ومضوا في القرن التاسع عشر ينشئون كنائس عديدة في بلاد الشام . وقاموا بدور بارز في نشر التعليم بإنشاء المدارس ، وكانوا يشكلون أقلية كبيرة في دمشق وحمص وحماء وحلب واللاذقية وطرابلس وعكا والناصرة وبيت لحم ، وكانوا في جميع هذه المدن أكبر الجاليات المسيحية (١) .

أما الروم الكاثوليك .. فكانوا يتبعون الكنيسة البابوية في روما ، وتعرضوا أول الأمر لاضطهاد شديد من جانب الروم الأرثوذكس ، وانتخب الروم الكاثوليك بطريركاً خاصاً بهم واعترقوا برياسة البابا ، وأنشأوا ثلاثاً وأربعين كنيسة في باشوية دمشق وغيرها .

أما السريان فكانت لهم أول الأمر كنيسة واحدة ، أطلق عليها الكنيسة السريانية البيعوقية وعرف أتباعها باسم السريان البيعاقية . ولكن تعرضت كنيستهم لانقسامات دينية . انتخب أحد رجالها عام ١٧٨١ بطريركاً بيعقوبياً ولكنه أثر الارتباط بروما ، فثار عليه أتباعه وأجبروه على الهرب وانتخبوا بطريركاً جديداً . وأسس البطريرك الأول وأنصاره كنيسة سريانية كاثوليكية جديدة تابعة لروما . ورفضت السلطات العثمانية الاعتراف بها ، وحاولت حمل أتباعها على العودة إلى حظيرة الكنيسة الأولى ، ثم وافق السلطان العثماني على الانفصال وأنشئت كنيسة جديدة باسم بطريركية أنطاكية للسريان الكاثوليك وكان مركزها حلب . وكان لها كليستان في

(١) دكتور عبد الكريم غرابية ، سورية إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٥-١١٧ .

باشوية دمشق وللسريان اليعاقبة كنيسة سانس ، واستخدم السريان فى كنائسهم اللغة السريانية وأصبحت لغة الكنيسة ولغة الخاصة . أما العامة فقد تكلموا العربية وكتبوها أحياناً بحروف عربية .

وانقسم الأرمن إلى أرثوذكس وكاثوليك . وكان الأرمن حتى أوائل القرن السابع عشر من أتباع الكنيسة اليعقوبية ، ثم انشق بعضهم ونصبوا بعد عام ١٧٣٩ بطريكاً كاثوليكياً . وكان لكل من طائفتى الأرمن كنيسة صغيرة فى دمشق ، وألحقت بالكنيسة الأرثوذكسية مدرسة ابتدائية تدرس الأرمنية ، وكانت القدس مقر بطريك الأرمن اليعاقبة بينما كانت بيروت مقراً لبطريك الأرمن الكاثوليك^(١) .

وكان عدد من الأقباط والأحباش يقيمون فى القدس ، وينتمون إلى الكنيسة اليعقوبية القبطية فى بلاد الشام ، وقام نزاع بينهم بصورة مستمرة على ملكية بعض الأديرة . واستعان ملك الحبشة عام ١٨٥٢ بالانفصل البريطانى فى القدس ، وعهد إليه برعاية مصالح الأحباش . ولكن الحكومة العثمانية حسمت الموقف لصالح الأقباط سنة ١٨٦٨ .

أما الموارنة فيقول عنهم الدكتور عبدالكريم غرايبة إنهم كانوا «أهم طائفة مسيحية فى بر الشام لاسبب عددهم وتكثفهم فى منطقة جبلىة ، بل بسبب الدور السياسى الذى لعبوه فى تاريخ البلاد والدور القيادى فى تقرير مصير لبنان وتوجيه سياسته ، كانوا أول الأمر يتبعون الكنيسة الشرقية ويشبهون فى هذه التبعية الروم الأرثوذكس . ولكن دب شقاق بين الجانبين أسفر عن اعتراف الموارنة برياسة البابا فى روما لكنيستهم ، غير أنهم احتفظوا باستقلال كنيستهم بطقوسها الشرقية ولغتها السريانية . وبقيت هذه اللغة أمدأ طويلاً لغة الكنيسة والخاصة ثم حلت محلها اللغة العربية . وبطاركة الكنيسة المارونية من خريجي مدرسة دينية مارونية تعددهم لشغل المناصب الإكليريكية ، وللموارنة عدد هائل من الكنائس والأديرة والمدارس .

وازاد فى العهد العثمانى عدد اللاتين وهم أتباع الكنيسة الكاثوليكية فى روما ، وكانوا يمارسون شعائرهم الدينية وفقاً لطقوسها . ولكنهم لم يأخذوا طابع الطائفة الوطنية المستقلة . وبالتالي لم يكن لهم بطريك خاص بهم إلا بعد عام ١٨٤٧ ، حين قرر بابا روما إحياء بطريركية القدس اللاتينية ، التى انتشرت بعد أن أخفقت الحركة الصليبية فى الشرق العربى وتم جلاء الصليبيين عن عكا سنة ١٢٩١ . وعين البابا أحد رجال الدين الكاثوليك بطريكاً ، وذهب

(١) المرجع السابق ، ص ١١٩-١٢٠ وانظر أيضاً .

أنطونيوس جورج ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٧-١٠٩ وقد تكلم عن النشاط التنصيرى الأوروبى والأمريكى فى بلاد الشام ؛ خاصة فى القرن التاسع عشر ، وأثبت أن نشاط اليسوعيين التنصيرى أدى إلى زيادة حدة العداوة المذهبية بين الأملين .

إلى القدس وشغل منصبه كقاصد رسولى وبطريك للقدس وفلسطين والأردن وقبرص، وكان عدد أتباعه لا يتجاوز الأربعة آلاف ، وكانت لهم ثمان كنائس .

تعدد البعثات التنصيرية والديرية وأهدافها :

ووفدت إلى بلاد الشام بعثات تنصيرية وديرية ، قامت بدور بارز فى حياة البلاد الدينية والثقافية . وكان أهم هذه البعثات اليسوعيون . وقد وصلوا إلى حلب عام ١٦٢٥ ، ثم أسسوا أديرة فى دمشق عام ١٦٤٣ ، وصيدا عام ١٦٤٤ ، وطرابلس عام ١٦٦٤ ثم أغلقت مؤسساتهم وعهد بها إلى الرهبان العازاريين عام ١٧٧٣ ، ولكن عاد اليسوعيون مرة أخرى عام ١٨٢١ إلى بلاد الشام ؛ حيث استأنفوا نشاطهم مكثفاً وفى نطاق واسع . وفد أيضاً الفرنسكان الإيطاليون ، والغريز ، والكرمل ، كما كانت هناك راهبات الناصرة ، وراهبات القديس يوسف ، وراهبات الكرمليات ، وراهبات قلب يسوع ، ومريم .

وتعاقب وصول البعثات البروتستانتية إلى بر الشام فى مطلع القرن التاسع عشر ، وأنشأ أعضاؤها أول مركز لهم عام ١٨٢٠ فى بيروت . وأوجس منهم المسلمون والسلطات العثمانية خيفة إذ نظروا إليهم نظرة الريبة ، إذ رأوا فيهم بوادر تسلل استعماري غربي ، وأنهم يسترون وراء وظيقتهم التنصيرية ، كما رأى فيهم الأرثوذكس والكاثوليك تهديداً خطيراً لكيانهم الدينى . وعلى الرغم من المقاومة التى صادفها البروتستانت .. فإنهم مضوا فى ممارسة نشاطهم ، ومدوا هذا النشاط إلى دمشق وحلب وحمص وحماة وجبال التنصيرية ، معتمدين على حماية قناصل بريطانيا والولايات المتحدة ، وأسسوا أسقفية فى القدس وفى عدد من المدن . وانفتحت فيكتوريا ملكة بريطانيا وفرديريك الرابع ملك بروسيا عام ١٨٤١ على إنشاء كنيسة متحدة فى القدس تعترف لأسقف كانتربرى بالسلطة العليا ، ويسهم العاهلان فى دفع نفقاتها ، وتدارب الإنجليز والبروسيون أعمال مطرانها . وقد بلغت حدة العداء بين البروتستانت واللاتين أن أحرق الأخيرون ، فى احتفال كبير أقيم فى ٢٨ من فبراير - شباط ١٨٥٥ ، الكتب الدينية البروتستانتية .

والواقع أن الهدف الأسمى لأعضاء هذه البعثات التنصيرية لم يكن تنصير السكان ، بل كان لأعضائها أهداف سياسية واقتصادية واجتماعية سعوا لتحقيقها لمصلحة الدول الأوروبية التى بعثت بهم إلى بر الشام . وكان المنصرون يضمرون العداوة والبغضاء نحو العرب المسلمين ، وعدواة أخرى نحو المسيحيين المختلفين عنهم مذهبياً ، وكان اليسوعيون أشد المنصرين تعصباً تأججت فى نفوسهم الروح الصليبية العنيفة . كما كانت للمنصرين أهداف شخصية شوهت اسم المسيحية فى الشرق . ولم تكن تصرفات بعضهم فوق مستوى الشبهات ؛ إذ انتشح سلوكهم بقاذورات بلغت حد اغتصاب السيدات والأنساء والاعتداء عليهن وجسهن فى

بيوتهم ، مستغلين شتى الحصانات التي منحتها إياهم معاهدات الامتيازات الأجنبية^(١) .
اليهود :

وقام اليهود بدور متزايد الأهمية في حياة البلاد لم يتناسب مع قلة عددهم ؛ فلم يزد عددهم في فلسطين خلال القرون الثلاثة الأولى من الحكم العثماني عن عشرة آلاف نسمة وكانوا ثلاثة أمثال هذا العدد في بر الشام كله . وتزايد هذا العدد في أواخر القرن التاسع عشر حتى بلغ حوالي المائة ألف بسبب تزايد الحملة لتهجير اليهود إلى فلسطين وأسسوا مدارس لتعليم العبرية ، وأقاموا مستوطنات في قضاء حيفا واشتروا أراضي زراعية من الإقطاعيين . وكان لهم نشاط تجارى كبير ؛ إذ سيطروا على تجارة صفد ودمشق ، وقاموا بدور بارز في الحياة الاقتصادية في حلب وبيروت وعكا وحيفا . وكان لهم في دمشق وحدها أكثر من أربع وعشرين مؤسسة تجارية بلغ رأسمالها خمسة ملايين فرنك . وسيطروا أيضاً على تجارة دمشق مع بريطانيا^(٢) .

وقد أوجدت هذه الكثرة العددية الرهيبة في عدد الطوائف الدينية المسيحية والبعثات التنصيرية فضلاً عن اليهود والحجاج المسيحيين واليهود عديد المسارب بين بلاد الشام وأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية .. وهكذا فتحت الأبواب في وجه المؤثرات الحديثة ، وهي ظاهرة من أخصب الظواهر في تاريخ بلاد الشام^(٣) . وكانت البابوية في روما والحكومات الأوروبية والأمريكية توثق صلاتها بالطوائف الدينية غير الإسلامية وبزعمائهم ومؤسساتهم الدينية والتعليمية وغيرها ، تدمم بالأموال ورجال التحطيم وبعض رجال الدين والعلماء . وانتهى الأمر بأن بسطت بريطانيا حمايتها على الدروز ، وبسطت روسيا حمايتها على الروم الأرثوذكس ، وبسطت فرنسا حمايتها على الموارنة ؛ مما أدى إلى تعميق هذه المسارب بين بلاد الشام وأوروبا .

وبفضل تلك المسارب ازدهرت الحياة الاقتصادية في باشويات الشام بصفة عامة واتسع نطاق عمليات التصدير والاستيراد بينها وبين أوروبا ؛ إذ كانت إسبانيا قد نجحت في ضم البرتغال إليها سنة ١٥٨٠ ، وكان من نتائج هذا الصم اضطراب خطوط الملاحة البرتغالية في طريق رأس الرجاء الصالح من ناحية ، ولتكماش حجم التجارة الشرقية التي كانت تحتكرها البرتغال من ناحية أخرى ؛ مما ساعد على بحث مزيد من النشاط في الطريق البرى تسير فيه

(١) دكتور مصطفى خالد وبكتور عمر قنوخ : التبشير والاستعمار في البلاد العربية . عرض لجهود المبشرين التي ترمى إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربى . بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٣٩٠-١٩٧٠م . انظر فيه عرضاً لبواعث التبشير من ص ٢٤-٥٧ .

(٢) دكتور عبدالكريم غرابية ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٤-١٢٩ .

(٣) دكتور فيليب حتى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ .

القوافل الوافدة من فارس والخليج العربي والبصرة عبر العراق والجزيرة إلى حلب حاملة منتجات الهند والشرق الأقصى ، مثل : التوابل والعقاقير والأصبغة والسجاد والأقمشة الهندية والفارسية . وكان التجار الأوروبيون في حلب يشترون هذه السلع لتصديرها إلى أوروبا الغربية ، وقامت منافسة شديدة بين أسكلة إسكندرونه وأسكلة طرابلس أيهما تكون منفذاً بحرياً لحلب . وكانت الإسكندرونه تمتاز بقربها من حلب وأمن الطريق بينهما ، وأسفرت هذه المنافسة عن اتخاذ الإسكندرونه ميناء لحلب ، تشحن منها بضائع الشرق الأقصى والهند وفارس والخليج العربي والعراق إلى أوروبا . وكانت عمليات شراء هذه البضائع تتم غالباً عن طريق المقايضة بالأقمشة الأوروبية مع دفع الفروق بالنقد الفضي الأوروبي ، وكانت تصدر الأصواف الأوروبية إلى فارس . واستفاد تجار الشام من هذه الحركة كوسطاء ، كما استفاد منها عريان بادية الشام عن طريق حمايتهم للقوافل وتزويدهم بإياها بالجمال والأدلاء .

وقد بلغ دخل العريان أكثر من نصف مليون قطعة ذهبية سنوياً^(١) ، وكانت الشام تصدر إلى أوروبا فائض إنتاجها من القطن والحريز والحبوب والمنسوجات الحريرية والقطنية والتبغ . وفي حلب نشأت مستعمرة من أهل البندقية كانت تصلهم قوافل محملة بالتوابل لحسابهم الخاص ، كما كان يقيم بها تجار فرنسيون وإنجليز ومن أهل جنوة ، وقامت بها قنصليات لدول أوروبية . وأصبحت حلب حتى منتصف القرن السابع عشر السوق الرئيسية للشرق الأدنى ، بينما ظلت دمشق حتى أوائل القرن الثامن عشر مركزاً فكرياً ، ثم أخذت الأخيرة تتفوق على حلب كمناقص تجارى قوى وانتزعت منها الزعامة التجارية والاقتصادية ، كما نمت عكا ثم بيروت لينافسا إسكندرونه وطرابلس ، وكانت سفن دوقية فلورنسا ، في شبه جزيرة إيطاليا ، تنقل منتجات لبنان من الحريز والصابون وزيت الزيتون والقمح إلى أوروبا .

ويجانب الازدهار الاقتصادي الذى شهدته بر الشام إبان الحكم العثمانى ، كانت الحياة

(١) دكتور عبد الكريم غرابية ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٠ ، وقد أتاح هذا الوضع اليد فى بلاد الشام أهمية كبيرة فى البناء الاقتصادى فيها ؛ إذ كانت القوافل هى الوسيلة الوحيدة للنقل والسفر حتى أواخر القرن التاسع عشر . وكان البدو يتعهون الجمال بالتربية والإكثار منها . وأوجنوا لهم فى المدن الرئيسية وكلاء يتعاقد معهم الراغبين فى السفر أو فى نقل بضائعهم . وكانت القافلة تضم دليلاً يديداً وعدداً من الحراس المسلحين يمتثلون القبائل التى تمر القافلة فى مناطقها . واعتبرت جميع هذه القبائل مسئولة عن حماية القافلة عن طريق تمثيل رمزى فى حرس القافلة وفى مقابل أجر . وكانت القوافل التى تقطع الصحراء أهم وأكبر من غيرها ؛ إذ كان يصل تعداد جمالها أحياناً إلى ثلاثة آلاف جمل . وكانت كل قافلة تمتاز بتنظيم دقيق جعلها شبه مدينة متحركة ، وكان لكل قافلة شيخ مسئول عنها تمتع باختصاصات واسعة وسلطات مطلقة لتمكينه من تنفيذ مهمته . واستمرت القوافل وسيلة السفر والنقل الرئيسية حتى أواخر القرن التاسع عشر ، إذ تأخر مد الخطوط الحديدية فى بلاد الشام إلى عام ١٨٩٢ ؛ حين أنشئ خط حديدى بين القدس ويافا .

انظر دكتور عبد الكريم غرابية ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٤-١٥٥ .

الثقافية حية حفلت بعدد من المؤلفات في التاريخ والجغرافية والرحلات واللغة والأدب والطوم والرياضة ، وكثر عدد الجمعيات الأدبية والعلمية ، وبذلت محاولات لإنهاض اللغة العربية ، ودخلت في البلاد المطابع بحروف عربية وسريانية قبل أن تدخل المطبعة العربية مصر مع الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ . وانتشرت المدارس والمؤسسات التعليمية الإسلامية والمسيحية واليهودية . وكان أعضاء البعثات التنصيرية هم الذين قاموا بإنشاء المدارس والمعاهد المسيحية^(١) كما حفل العصر العثماني بوجود آثار معمارية رائعة ، حسبنا أن نذكر منها القصر الذي بناه أسعد بن إسماعيل بك العظم والي دمشق عام ١٧٤٩ في هذه العاصمة ، وهو أروع أثر عربي ظهر في القرن الثامن عشر ، فطراره الهندسي ، وما اشتمل عليه من فنون الفسيفساء والحفر على الخشب يمثل أروع ما بلغه الفن الإسلامي . وقد استورد من إيطاليا كل ما فيه من رخام^(٢) ، وكذلك القصر الذي بناه الأمير بشير الثاني في قرية بيت الدين ، وليس في لبنان دار أخرى تضاهيه روعة وفخامة .. فقد جلب الأمير إلى القصر المياه في قناة طولها تسعة أميال من منابع عين رحلة ، التي تغذيها الثلوج والأمطار من التلال الحافلة بأشجار الأرز^(٣) .

ويذكر دكتور فيليب حتى ، وهو من المؤرخين المتحاملين على الدولة العثمانية ، ثلاث فقرات قصيرة ، تعطى فكرة عن بر الشام في أواخر الحكم العثماني فيقول «تسرب إلى شمالي سوريا وشرقي الأردن بضعة آلاف من الشراكسة المسلمين ، على أثر الحرب الروسية العثمانية سنة ١٨٧٧ ، وقصد لبنان بضعة ألوف أخرى من اللاجئين الأرمن بعد الحرب العالمية الأولى ، فألقوه جنة من جنات الله . وقد بقيت العربية لغة الشعب ، ولم تستمد من التركية إلا ألفاظاً قليلة جلبها يتصل بالسياسة أو الجيش أو الطعام»^(٤) . وتدل الفقرة الأولى على أن الولايات العربية بصفة عامة في الدولة العثمانية كانت ملاذاً يلجأ إليه رعايا الدولة المسلمون ، إذا تعرضت بلادهم لغزو أوروبي مسيحي . وتدل الفقرة الثانية على أن لبنان لم يكن بقعة تسرب إليها الخراب ، أما الفقرة الثالثة والأخيرة فتدل على أن بلاد الشام احتفظت باللغة العربية إبان الحكم العثماني ، ولم تستبدل اللغة التركية بها . والواقع أنها ظاهرة عامة اشتركت فيها الولايات العربية ، وكان من بين أسباب هذه الظاهرة عدم محاولة الدولة العثمانية غثمة الشعوب

(١) انظر عرضاً وافياً لمظاهر الحياة الثقافية على اختلاف صورها ومظاهرها في :

دكتور عبدالكريم غزاوية ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٢-٢٢٧ .

(٢) اتخذ هذا القصر مقراً للمعهد الفرنسي في دمشق .

(٣) دكتور فيليب حتى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٣١٦-٣١٧ ، ٣٤٢-٣٤٣ .

(٤) دكتور فيليب حتى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٣١٦-٣١٧ ، ونكر أن من بين الألفاظ التركية التي دخلت في اللغة العربية : باشا ، وبيرق ، وبلط ، وجاويش ، وبرغل ، وقاورمة ، وقال إن بعض الألفاظ التركية المقتبسة ترجع إلى أصل يوناني أو فارسي أو محرفة . ويتناسى دكتور فيليب أن كثيراً من الكلمات العربية دخلت في اللغة التركية .

العربية ، وقد سبق أن تعرضنا في هذه الدراسة لهذا الموضوع ^(١) .

جهود الدولة العثمانية لإلغاء معاهدات الامتيازات الأجنبية :

لما ظهرت النذر الأولى لاضمحلال الدولة العثمانية ، أخذت الدول الأوروبية تتابعاً تتدخل في شئونها . وكانت معاهدات الامتيازات الأجنبية الباب الى ولجت منه هذه الدول ولوجاً لتحقيق أغراضها ، وفسرت هذه المعاهدات تفسيراً تعسفياً . فبدلاً من أن تنظر إليها على أنها امتيازات منحها سلطان يحكم دولة مستقلة ، فسرتها بأنها حقوق انتزعت من سلطان ضعيف أو من دولة منهزمة ^(٢) ، مع أن الدولة منحتها وهي في أوج قوتها ، وأصبح الرعايا الأوروبيون في الدولة العثمانية يتمتعون بحصانة أعفتهم من الخضوع للسلطات العثمانية ، وأصبحوا وكأنهم يشكلون حكومة داخل الحكومة العثمانية *imperio in imperio* وكانت هذه الامتيازات عبقة كؤود أمام الدولة ، حالت دون قيامها بتنفيذ مشروعات إصلاحية واستبطان موارد مالية جديدة لمواجهة نفقات الإدارة والحكم . ولذلك أصبحت معاهدات الامتيازات الأجنبية بمثابة موانع مذلّة للعثمانيين حتى سقوط دولتهم عقب الحرب العالمية الأولى ، وكانت الدولة قد بذلت جهوداً كبيرة عقب حرب القرم وقيل انعقاد مؤتمر باريس في اليوم الخامس والعشرين من شهر فبراير - شباط - عام ١٨٥٦ لإلغاء نظام الامتيازات الأجنبية كوسيلة ، تساعد على تنفيذ الإصلاحات التي جاءت في خطي همايوتي ، الذي أصدره في اليوم الثامن عشر من شهر فبراير - شباط - عام ١٨٥٦ ^(٣) - أي قبل انعقاد مؤتمر باريس بأسبوع - السلطان عبد المجيد الأول (١٨٣٩-١٨٦١) ، ولكن لم تجد الدولة العثمانية استجابة من الدول الأعضاء في المؤتمر والتي كانت متحالفة معها في حرب القرم . وجاء هذا الرفض متعارضاً أشد التعارض مع رأي جمهرة المؤرخين بأن الدول الأوروبية الكبرى ممثلة في المؤتمر قد أعطت الدولة العثمانية فرصة لانظير لها لتنظيم شئونها فأضاعت هذه الفرصة .. ولو حسنت النيات لوجدت الدولة استجابة لإلغاء الامتيازات الأجنبية أو على الأقل للحد من مساوئها المزديدة ، وعقب انقلاب عام ١٩٠٨ حاول أعضاء الاتحاد وقرقي جمعيتي ، أي جمعية الاتحاد والترقي ^(٤) إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية ، ولكنهم أخفقوا في محاولتهم . ولم تمض سنوات ذات عدد حتى قامت الحرب العالمية الأولى في أغسطس - آب - ١٩١٤ ، وأرسلت الحكومة العثمانية منشوراً في التاسع من شهر سبتمبر - أيلول - ١٩١٤ إلى سفراء الدول في

(١) انظر في هذه الدراسة الفصل الحادي عشر الجزء الأول .

(٢) نكتور فيليب حتى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٣١٣ .

(٣) نكتور عبدالعزيز محمد الشناوي ونكتور جلال يحيى : وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤-١٦ .

(٤) كان اسم هذه الجمعية أول الأمر «عثمانلى اتحاد وترقى جمعيتى» أي جمعية الاتحاد والترقى العثمانية . ثم استبعدت منها لفظة عثمانلى ، واشتهرت بالاسم الجديد المختصر .

إستانبول ، تبليغهم أنها قررت إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية اعتباراً من أول أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١٤ ، ورد السفراء بمذكرة في اليوم التالي يحتجون فيها على قرار الحكومة ، ويعلمون تمسك حكوماتهم ببقاء ذلك النظام سارياً . ولما دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى في الخامس من نوفمبر - تشرين ثان - ١٩١٤ منضعة إلى دولتي الوسط ضد بريطانيا وحليفاتها أعلنت دولتا الوسط - ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية - قبولها إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية . ولما انتهت الحرب بهزيمة الدولة العثمانية ودولتي الوسط ، قررت بريطانيا وحليفاتها في معاهدة سيفر التي قرصتها في اليوم العاشر من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٢٠ على الدولة العثمانية الإبقاء على نظام الامتيازات الأجنبية (المادة ٢٦١) عقاباً لها وإذلالاً لها . وبفضل نجاح الحركة الكمالية ، استبدلت بمعاهدة سيفر معاهدة جديدة هي معاهدة لوزان في اليوم الرابع والعشرين من شهر يوليو - تموز - عام ١٩٢٣ ، تقرر فيها إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية (المادة ٢٨) ، وبذلك تخلصت تركيا من هذا النظام الوبيل .

إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية في ولايات الشرق العربي الآسيوي :

أما سوريا ولبنان والعراق وفلسطين ، فقد ألغى فيها نظام الامتيازات الأجنبية عقب انفصال هذه الأقاليم العربية بعد الحرب العالمية الأولى ، ووضعها تحت نظام الانتداب الفرنسي والبريطاني وفقاً للمادة (٢٢) من ميثاق عصبة الأمم ، والموقع عليه في اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو - حزيران - ١٩١٩ .

إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية في مصر بعد أكثر من ثلاثين عاماً :

بقي نظام الامتيازات الأجنبية نافداً في مصر أكثر من ثلاثين عاماً بعد إلغائه في الولايات العربية في غربي آسيا . وفي اليوم السادس عشر من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٩٣٧ دعت مصر إلى عقد مؤتمر دولي في مدينة مونترية بسويسرا في الثاني عشر من شهر أبريل - نيسان - عام ١٩٣٧ ، حضره مندوبون عن الدول صاحبة الامتيازات فيها . وتوصل هذا المؤتمر إلى عقد اتفاقية مونترية ، ونصت على إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية في مصر بعد فترة انتقالية حددت بانثي عشر عاماً تنتهي في اليوم الرابع عشر من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٤٩ ، بزوال المحاكم المختلطة ، بوصفها آخر أثر أساسي لنظام الامتيازات الأجنبية .

الفصل الثاني

صور من حملات التشنهير بالدولة (٢)

مناقشة عزلة العراق

عوامل انفتاح العراق علي العالم الخارجي :

لم يعش العراق ^(١) في عزلة عن العالم الخارجى إبان القرون الأربعة التى خضع فيها للحكم العثماني منذ الثلاثينيات من القرن السادس عشر الميلادى حتى أوائل القرن العشرين كما يذكر فريق من المؤرخين والباحثين ، فقد تصافرت عدة عوامل أدت إلى انفتاح العراق على العالم الخارجى . وكان من بينها إعادة مرور شطر لا يستهان به من التجارة الشرقية عبر العراق ، ومانجم عنها من نشاط اقتصادى مكثف ومتعدد الصور ، والمشروعات البريطانية لتنظيم خطوط ملاحية نهريّة بخارية في النهرين التوأمين The Twin Rivers وهما دجلة والفرات ، وحرص بريطانيا على أن تتصل خطوط الملاحة البخارية في العراق بالخارج مباشرة أو ليصل شحناتها إلى منافذ العراق ، ثم النشاط العثماني المضاد في هذا الصدد ، والمساهمة الدينية ، وللتنوع البشرى والدينى في العراق ومانجم عنه من نشاط تنصيرى اشدت ساعده اعتماداً على معاهدات الامتيازات الأجنبية ، والصراع الحريى الذى كان يتفجر من وقت لآخر بين الدولة العثمانية وفارس على العراق .

التنظيم العثماني للعراق عقب فتحه :

كان العراق في حالة انهيار في الفترة التي مرت به منذ الغزو المغولي التخريبي بقيادة هولاكو في منتصف القرن الثالث عشر الميلادى والاحتلال الفارسى على عهد الشاه إسماعيل الصفوى في أوائل القرن السادس عشر . وكان هذا الشاه قد نجح في نشر المذهب الشيعى في ريوعه . وذبح أئمة السنة وهدم مقابر آبائهم . وأصبح ولا يزال أهل الشيعة وأهل السنة في العراق قوتين متوازيتين تقريباً . ولما فتح السلطان سليمان المشرع العراق في أواخر عام ١٥٣٤

(١) لم يكن العراق يعرف بهذا الاسم إبان الحكم العثماني . وإنما كان معروفاً باسم إيالة بغداد ، وإيالة الموصل ، وإيالة البصرة . وفي الميدان الدولى كان يطلق على العراق مصطلح Mesopotamia أى بلاد ما بين النهرين . وكان يزد به حوض دجلة والفرات ، أو ما يعرف بوادى الرافدين من حيث شموله معظم وادى الرافدين ومناطق هذه المدن الثلاث .

انتهج سياسة مثلى فى المحافظة على مشاعر أهل هاتين الطائفتين^(١). وأرسى السياسة التقليدية للدولة العثمانية فى حكم العراق. واعترف أيضاً بالعصبيات الكردية فى شمالي العراق. فأبقى حكم كردستان للعصبيات الكردية وجعل الموصل إيالة قائمة بذاتها، وكانت تتوغل قليلاً فى كردستان شرقاً وفى تكريت جنوباً. ولم تكن حدود إيالة الموصل واضحة تماماً نظراً لأنها كانت مجاورة لمنطقة كردستان التى أصبحت إيالة باسم «شهر زور»^(٢). وكذلك اعترف السلطان سليمان بحكم العصبيات العربية؛ إذ ترك الشيوخ العرب حكاماً على عشائهم، وأنشأ إيالة بغداد وكانت منذ الفتح العثمانى أهم وأكبر إيالات العراق، وكان باشا بغداد أكبر باشوات العراق رتبة. وكان الباب العالي يعهد إلى ولاية بغداد بحماية ولايات العراق الأخرى من الأخطار التى تتعرض لها. ولم يكن نفوذ باشوات بغداد قوياً على امتداد فترات الحكم العثمانى لأسباب ليست هذه الدراسة موطناً لمسطها^(٣). ولم يتوغل السلطان سليمان المشرع صوب البصرة لأن شيخها راشد بن مغامس أعلن ولاءه له. فألحقت البصرة على هذا النحو بالممتلكات العثمانية وعين السلطان شيخها راشد، حاكماً عليها على أن تكون تابعة لباشوية بغداد. ثم ارتاب العثمانيون فى نيات الشيخ راشد فوجها حملة استولت عليها عام ١٥٤٦، وتقدموا بعد ذلك على الساحل الغربى للخليج العربى، واستولوا على الأحساء عام ١٥٥٠.

أولاً: إعادة مرور شطر لا يستهان به من التجارة الشرقية عبر العراق:

سبق أن ذكرنا أن البرتغاليين حققوا نجاحاً فى تحويل مرور التجارة الشرقية إلى طريق رأس الرجاء الصالح وصولاً إلى أوروبا بدلاً من مرورها فى الطريقين التقليديين القديمين، وهما: الخليج العربى والعراق وباندية الشام إلى حلب ثم الإسكندرونة وغيرها من أساكى الشام، وطريق البحر الأحمر إلى السويس ثم القاهرة فالإسكندرية. وفقد العراق، كما فقدت مصر، معظم المكاسب المادية الهائلة التى كان يجنيها الإقليمان من تجارة المرور والوساطة. وتمت،

(١) انظر فى هذه الدراسة الفصل الأول - الجزء الأول.

(٢) لم تعمر هذه الإيالة طويلاً لأن الدولة العثمانية اتبعت سياسة الاعتراف بحكم العصبيات المحلية. وكان إقليم كردستان مليئاً بإمارات وعشائر كردية سنّية. وقفت فى وجه محاولات الغزو الفارسى وشدت أذى العثمانيين خلال حروبهم ضد فارس. فأبقت الدولة هؤلاء الأمراء على إماراتهم، ولكنهم مالبثوا أن استبدوا بالسلطة حتى لم يعد للولاة أى نفوذ عليهم فتركت الدولة أمر إيالة شهر زور لأمرائها تحت إشراف ولاية بغداد. وكانت ذكرى هذه الإيالة.

انظر دكتور عبدالعزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، مرجع سبق ذكره، ص ٧-٨.

(3) Longrigg S.H.; Four Centuries of Modern Iraq. London. (Oxford University), 1925, P.

نتيجة الغزو البرتغالي للبحار الشرقية ، ما يسمى عملية أسر نقل^(١) Transport Capture ولكن الحصار الذى فرضه البرتغاليون على منافذ الطريقين القديمين وهما الخليج العربى ومدخل البحر الأحمر لم يكن محكماً . فكان جانب من التجارة الشرقية يتسرب إلى أيدي التجار العرب فيحملونه فى سفنهم الخفيفة إلى البصرة من ناحية وإلى السويس من ناحية أخرى . وبذلك عمرت بالنشاط التجارى أسواق العواصم والمدن العربية : البصرة ، بغداد ، حلب ، دمشق ، السويس ، القاهرة ، الإسكندرية . وفى فترات السلام التى كانت تنخلل حالات الحرب بين الدولة العثمانية وفارس كانت القوافل تجتاز وسط آسيا عبر فارس تحمل إلى بغداد منتجات الشرق ، فكانت بغداد بمثابة مركز لتوزيعها . وعلى هذا النحو فإن موقع بغداد فى تلك المنطقة المتوسطة بين وسط آسيا وغربيها ، وفى تلك الشقة من الأرض التى تصل إلى مياه الخليج العربى ، كان موقعاً جغرافياً ممتازاً جذب إلى العراق جانباً لا يمتهان به من التجارة الشرقية . ويفضل هذا القدر من التجارة الخارجية لم يعش العراق فى عزلة عن العالم^(٢) .

على أن ذلك النجاح الذى أحرزه البرتغاليون بتحويل طريق التجارة الشرقية إلى طريق رأس الرجاء الصالح كان قصير الأمد ، فقد انضمت بلادهم إلى النتاج الإسباني (١٥٨٠-١٦٤٠) . وعادت هذه الوحدة التى فرضت على البرتغاليين بعواقب سيئة ، فالحكومة الإسبانية التى كانت قائمة فى تلك الفترة ، والتى كانت تسيطر على السياسة البرتغالية الخارجية ، كانت حكومة مركزية ومتحيزة وغير رشيدة^(٣) .

وعجز البرتغاليون فى ظل حكومة الوحدة عن إرسال تعزيزات لمراكزهم التجارية فى البحار الشرقية ، وتعرضت خطوط الملاحة البرتغالية للاضطراب فترأخت سيطرتهم على منطقة الخليج العربى . واشتدت عداوة الشعوب الشرقية للبرتغاليين بسبب سياستهم الجائرة^(٤) .

(١) دكتور جمال حمدان : التحدى الذى يواجه قناة السويس ، الأهرام ، العدد ٢٢٢٦٤ ، المصادر فى يوم السبت ١٢ من شهر أبريل - نيسان - ١٩٧٥ من ٧ مجموعة السنة الأولى بعد المائة .

(٢) دكتور محمد بدیع شريف ، ودكتور زكى المحاسنى ، ودكتور أحمد عزت عبدالكريم ، مراجعة الأستاذ محمد شفيق غريال . دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة . الناشر مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة . د ت ، ص ص ٢٢٧-٢٢٨ .

(٣) لوريمير ج.ج : دليل الخليج ١٤ جزءاً ، القسم التاريخى سبعة أجزاء ومثلها للقسم الجغرافى . ترجم من الإنجليز إلى العربية بمعرفة قسم الترجمة بمكتب حضرة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى أمير دولة قطر وعلى نفقة سموه . طبعة جديدة معدلة ومنقحة . د ت ، ج ، القسم التاريخى ، ص ٢٢ ، ص ص ٢٨-٢٩ .

(٤) فى رأى لوريمير أن وراء انهيار نفوذ البرتغاليين فى البحار الشرقية أربعة أسباب ، هى العنف وسوء النية فى التعامل مع جيرانهم من أهل الشرق ، ومشاعر الحسد والشقاق التى كانت فاشية بين البرتغاليين يوماً ، وعدم تأسيسهم شركة تجارية كما فعل منافسولهم الإنجليز والهولنديون ، بل كانت تجارتهم احتكاراً ملكياً سوء التنظيم والإدارة ، تخلل الأساس العسكرى الذى استندوا إليه ، فأصبح فى النهاية يفتقر إلى النظام والحصافة المهنية .

لوريمير ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج ١ ، ص ص ٦٧-٦٨ .

وأسهمت سياسة عباس الكبير شاه فارس (١٥٨٧-١٦٢٩) في إضعاف مركز البرتغاليين في الخليج العربي . وجمعت بينه وبين إنجلترا مصلحة مشتركة هي تصفية الوجود البرتغالي في منطقة الخليج ، ومن ثم أخذت السفن الإنجليزية ترقأ إلى موانئه . وانتهى الأمر بأن تغلب الفرس والهولنديون والإنجليز والعرب^(١) حربيّاً على البرتغاليين الذين فقدوا جزيرة هرمز عام ١٦٢٢ ، وكان سقوطها مقدمة لسقوط مسقط عام ١٦٥٠ ، وسرعان ما اختفى الاستعمار البرتغالي من منطقة الخليج العربي . ولكن لا يطي هذا زوال الوجود البرتغالي التجاري أيضاً ، لأن سفن البرتغاليين ظلت تؤم موانئ الخليج بعد ذلك للتجارة^(٢) . وكان لهم أسطول تجارى يذهب كل سنة إلى البصرة ويغمرسون أسواقها ببضائعهم وينافسون البضائع الإنجليزية . وقد شهدت منطقة الخليج تباعاً صراعاً عنيفاً بين الدول الاستعمارية الكبرى : هولندا وفرنسا ، وإنجلترا والروسيا على دعم نفوذها فيها . وكانت هولندا قد ظهرت كقوة استعمارية في بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر ؛ إذ أسسوا عام ١٦٠٢ شركة الهند الشرقية الهولندية ، وسيطروا على حوض الخليج وأسواق فارس ، وغزا أسطول هولندي مؤلف من ثمانى سفن البصرة عام ١٦٤٥ ، ولكن ضُيع مركز هولندا في منطقة الخليج العربي بسبب الحروب التي خاضتها في أوروبا ضد إنجلترا في سنة ١٦٥٢ ، ثم في ١٦٦٥ - ١٦٦٧ ، وانسحب الهولنديون من البصرة حوالى ١٧٥٢ ومن بوشهر (١٧٥٣) ويندر عباس (١٧٥٨) . وفي سنة ١٧٦٦ اختفى النفوذ الهولندي والتجارة الهولندية من مياه وشواطئ الخليج العربي أسوة بما حصل للبرتغاليين من قبل . وبقيت قوتان أوروبيتان تصارعنا على النفوذ والتجارة والقواعد العسكرية وهما فرنسا وإنجلترا . وأسست الأولى سنة ١٦٦٤ الشركة الفرنسية للهند الشرقية ، بناء على مرسوم أصدره الملك لويس الرابع عشر استجابة للصائح كولبير Colbert وزير مالية فرنسا .

ازدهار البصرة :

وكانت البصرة بحكم موقعها على شط العرب الذى ينتهى إلى الخليج العربى أكثر مدن العراق اتصالاً بالصراع الدولى الدائر على النفوذ فى الخليج . فإن البرتغاليين بعد ضياع هرمز من أيديهم سنة ١٦٢٢ ، وجهوا نشاطهم التجارى وحماهم للتصير إلى البصرة ، فأقاموا فيها وكالة تجارية ومركزاً للتصير ومؤسسة تعليمية^(٣) . وظلوا هناك حتى عام ١٦٤٠ على الأقل

(١) من بين انتصارات العرب الحربية على البرتغاليين أن الأخيرين اضطروا إلى الجلاء عن الشحر لوقعة عمانية فى عام ١٦٤٣ ، وكان البرتغاليين قد تركوا فى الشحر وسقط منذ طردهم من هرمز . انظر لويبر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج١ ، ص ٤٩-٤٩ .

(٢) دكتور أحمد مصطفى أبو حاكم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١-٣٢ .

(٣) لويبر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج٢ ، ص ٦٦ .

يشكلون منافساً نشطاً للتجارة الإنجليزية ، كما كانت مركز جذب قوى للأطماع الأوروبية الاستعمارية في العراق . خرجت إنجلترا من حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣) منتصرة على فرنسا ووضعت يدها على أكثر المستعمرات الفرنسية في الهند . وقد كشفت هذه الحرب لإنجلترا عن أهمية الطريق بين الهند وأوروبا عبر العراق وبادية الشام وحلب ، فقد استخدم الإنجليز طريق العراق إلى الهند خلال هذه الحرب ، كما كان أسرع طريق وقتذاك لنقل البريد والأنباء . وكان اتجاه البصرة بحرياً وبرياً في الوقت ذاته . فكان قريبها هي ومنطقة الخليج العربي إلى الهند سبباً في جعلها مركزاً لتطلعات شركة الهند الشرقية الإنجليزية ، التي حرصت على أن يكون لإنجلترا المركز الأول في المنطقة . وكانت هذه الشركة تنظر إلى وكالتها التي أنشأتها في البصرة عام ١٦٤٣ على أنها مركز تجارتها الرئيسي ^(١) ، ثم حول الإنجليز عام ١٧٦٤ الوكالة الإنجليزية في البصرة إلى قنصلية ، فلم تعد مهمة القنصل البريطاني مقصورة على رعاية الشؤون التجارية فحسب ، بل كان عليه أيضاً رعاية المصالح السياسية الإنجليزية . ولم تلبث أن أسست الشركات الأوروبية وكالات لها في البصرة ^(*) .

وكان الحكم العثماني مهتزاً في البصرة يتعرض لضغط القبائل العربية والعشائر البدوية ومحاولات فارس للاستيلاء عليها . وفي أوائل القرن السابع عشر تولى الحكم فيها أحد المفتصبين من بينها ويدعى أفراسياب . وظفرت البصرة بالأمن والاستقرار إبان حكم أسرة أفراسياب الذي انتهى سنة ١٦٦٨ ، وتمتعت الطوائف الدينية المسيحية بالتسامح . وكان حكام هذه الأسرة يرحبون بالأجانب جميعاً من هولنديين وإنجليز وفرنسيين وهنود وغيرهم فضلاً عن الأتراك العثمانيين والعرب الوافدين من إسطنبول وأزمير وحلب والموصل وديار بكر وبغداد والقاهرة وسائر أنحاء العالم العربي والإسلامي . وكانت تعقد في البصرة صفقات تجارية في السلع الواردة من الهند وفارس ، وكانت السلع تحمل في نهر دجلة إلى بغداد ومنها كانت القوافل تحملها إلى حلب . وفي أحيان أخرى كانت القوافل تعبر البادية رأساً من البصرة إلى حلب مارة بالنجف . ويلاحظ أن أساكن بر الشام كانت مفتوحة دون قيد أو شرط أمام العراق للتصدير والاستيراد ، فكانت السفن العثمانية والأوروبية تقوم بتفريغ شحناتها في هذه الأساكن مثل إسكندرون وطرابلس وبيروت واللاذقية وعكا وغيرها لتنتقل إلى حلب أو دمشق إلى العراق ، كما كانت تلك السفن تقوم بشحن السلع الواردة من العراق إلى أوروبا وبلاد الدولة العثمانية ^(٢) . وكانت البصرة تزدهم بالبدو ^(٣) ، الذين يقصدونها لبيع الإبل للتجار واستخدامها في نقل

(١) Longrigg R.H; Loc. cit., p. 108.

(*) Wilson Thomas Arnold; The Persian Gulf, London. 1964, p. 161.

(٢) دكتور محمد بنيع شريف وزميله ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٢٨-٢٠٠ .

(٣) استولى الفرس على البصرة أولاً في سنة ١٦٩٧ ، ثم تركوها بعد عامين . وأغار عليها نادر شاه ، ثم =

البضائع . ولم تفقد البصرة مكانتها التجارية للممتازة في الفترات التي حكمها فيها الفرس ؛ إذ عملوا على اجتذاب التجار الأجانب إليها ، فظلت العلاقات التجارية مزدهرة بين البصرة والهند .

وزاد عدد السفن التي ترقأ إلى البصرة قادمة من البنغال وبمباي حاملة الأقمشة الهندية الحريرية والتوابل والأرز والسكر الأمريكي والشيلان زيادة مطردة في القرن الثامن عشر .

وكان يرد إلى البصرة سنوياً ٣٠ ألف أقة من خيوط القطن ، وتصدرها البصرة إلى بغداد والموصل ودمشق وحلب ، وكانت تتردد على البصرة السفن القادمة من مسقط والبحرين وشرقي إفريقية ، تحمل العبيد والبن والعنبر .

أما سفن البحرين فكانت تحمل اللؤلؤ . وكانت التجارة الهندية عصب الحياة الاقتصادية في البصرة ، تستقبل معظم سلع الهند وتصدر إليها شتى أنواع السلع الواردة من الشام والأناضول وغيرها .

تصدير الخيول العربية من البصرة إلى الهند :

وعن طريق البصرة كان العراق يصدر إلى بمباي الخيول العربية . والخيول في العراق ذات سمعة طيبة وأعدادها لا بأس بها ، غير أنها لاتفوق خيول نجد في جودتها . وترى بعض الخيول الجيدة في المنطقة المجاورة لمدينتي الحلة والديوانية بالعراق .

إحصائية عن تصدير الخيول :

ونورد هنا إحصائية عن تصدير الخيول من البصرة إلى بمباي خلال عشرين عاماً ، فيما بين سنتي ١٨٨٧ و ١٩٠٦ وأسعارها في البصرة بالجنبيات الإسترلينية .

= خضعت مرة أخرى للفرس وعادت للعثمانيين سنة ١٧٧٩ بعد حكم دام ثلاث سنوات . وأصبحت البصرة متسلمية تابعة لوالى بغداد حتى سنة ١٨٧١ ، بعد عزل محمد باشا من ولاية بغداد ، فانفصلت البصرة عن بغداد ، وأصبحت تابعة رأساً لإستانبول . وكان السلطان يرسل لحكمها «متمصرفاً» إلى عام ١٨٨٢ ثم رقت البصرة إلى مرتبة ولاية ، بعد أن اقتطعت الدولة بعض أقاليم ولاية بغداد وضم إقليم الأحساء إليها . وأصبح ناصر باشا شيخ المتفق أول حاكم لهذه الولاية الجديدة ، على الرغم من أنه عربي المولد والقبيلة .

انظر :

لوديم ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ١ ، ص ٤٢٧ .

السنة	عدد الخيول	أسعارها في البصرة بالجنيهاً الاسترلينية
١٨٨٧	٢,٥٠٠	٦٢,٥٠٠
٨٨	٢,٢٠٦	٥١,١٥٠
٨٩	٢,٨١٥	٦١,٩٣٠
٩٠	٣,١٩٣	٦٣,٨٦٠
٩١	٣,١٤٩	٧٣,٢٣٠
٩٢	٢,٢٦٨	٣٧,٥٠٤
٩٣	٣,٤٣٢	٥٠,٤٠٨
٩٤	٣,٢١٨	٤٨,٢٧٠
٩٥	٤,٥٨١	٦٨,٧١٥
٩٦	١,٧٠٤	٢٥,٥٦٠
٩٧	١,٣١١	١٩,٦٦٥
٩٨	١,٩٣٦	٢٩,٠٠٤
٩٩	١,٥٢٨	٢٧,٥٠٤
١٩٠٠	٢,٢٧٩	٤٥,٥٨٠
٩٠١	٢,٤٥٥	٤٩,١٠٠
٩٠٢	٩٤٥	٥٦,٠٧٠
٩٠٣	٣,٨٤٥	٤٦,١٤٠
٩٠٤	٢,٦٨٢	٥٣,٦٤٠
٩٠٥	٢,٢٦٢	٤٩,٧٦٤
٥٠٦	١,٧٤١	(١) ٤٣,٥٢٢

دراسة تحليلية لإحصائية الخيول :

نخرج من هذه الإحصائية بعدة نتائج نماشياً مع القاعدة الاقتصادية القائلة إن الأرقام تتكلم . ومن هذه النتائج أو الملاحظات نذكر :

أولاً : كانت البصرة هي المكان الطبيعي لتصدير الخيول التي تربي في العراق ، وبصفة رئيسية في ولاية بغداد ، وكذلك لتصدير معظم خيول نجد وبعض مناطق الخليج العربي .

ثانياً : كان يحدث أن تصدر السلطات العثمانية في العراق أوامر بمنع تصدير الخيول ؛ مما أدى إلى نشاط عمليات تهريب الخيول من العراق إلى فارس حيث تباع في أسواقها ويتم

(١) لوريمر ج.ج . مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ١ ، ص ٣٣٤٢ .

تسويقها في المحمرة ، بدلاً من البصرة ؛ مما أدى إلى ضائقة حجم صادرات الخيول من البصرة في بعض السنوات .

ثالثاً : ازداد في سنة ١٨٩٥ طلب الخيول العربية زيادة ملحوظة فارتفع حجم صادرات الخيول من البصرة ارتفاعاً لم يسبق له مثيل ، ومن أجل ذلك تمت عمليات الشحن قبل ابتداء الموسم المعتاد .

رابعاً : في سنة ١٨٩٦ كان عدد الخيول التي صدرت من البصرة إلى بمباي أقل من المعدل بسبب غلاء العلف في الهند من ناحية ، وانتشار الطاعون الدملي في بمباي من ناحية أخرى .

خامساً : ازداد في سنة ١٨٩٧ تناقص حجم التصدير لانتشار الطاعون وغلاء العلف ، وقيام الحكومة العثمانية بشراء الخيول للأغراض الحربية .

سادساً : فرضت السلطات العثمانية في سنة ١٨٩٩ رسماً لتصدير الخيول بلغ أربعة جنيهات إسترلينية وعشرة شلنات عن كل حصان . وقد أدى هذا الرسم إلى الحد من عمليات تصدير الخيول من البصرة وتهريب أعداد كبيرة من الخيل إلى فارس ؛ حيث كانت تصدر من المحمرة إلى الهند . ومع ذلك بلغ عدد الخيل المصدرة من البصرة في تلك السنة ألفاً وخمسمائة وثمانية وعشرين حصاناً ؛ مما يدل على احتفاظ البصرة بقدر كبير من نشاطها في تصدير الخيول . واستمرت الزيادة في السنوات التالية ، على الرغم من أن السلطات العثمانية رفعت سنة ١٩٠٢ رسم التصدير ، فجعلته ستة جنيهات إسترلينية عن كل حصان ؛ مما أدى إلى هبوط عدد الخيول المصدرة في تلك السنة إلى ٩٤٥ حصاناً .

سابعاً : وجدت الخيول العربية في الهند منافسة شديدة في سنة ١٩٠٦ من الخيول الأسترالية . ولكن مما خفف من أثر هذه المنافسة الزيارة التي قام بها ولي عهد بريطانيا للهند في تلك السنة ، فبلغ عدد الخيول العربية التي شحنت في البصرة في ذلك العام ١,٧٤١ بعد أن كانت في السنة السابقة ٢,٢٦٢ حصاناً .

تصدير معظم محصول التمور من البصرة إلى الخارج :

أما التمور فهي أهم حاصلات وصادرات العراق ، وهي تزرع غالباً على ضفاف شط العرب أعلى وأسفل البصرة ، وفي منطقة تمتد من الفرات إلى أسفل بلدة الحلة بمسافة ثلاثين ميلاً ، وفي جوار كربلاء والنجف وحول بغداد . أما أحزمة التخيل على ضفتي شط العرب فذات عمق يتراوح بين نصف ميل وميلين . ويقدر عدد نخليها بمليون وتسعمائة ألف نخلة على كلتا الضفتين . وتصدر البصرة الجزء الأكبر من محصول تمور العراق . وأجودها

المعروف باسم «حلاوى» و«خضراوى» ويبلغ عدد بقية الأصناف الأخرى حوالى أربعين تدخل تحت اسم «ساير». أما التمور التى تصدر من منطقة بغداد فأغلبها من نوعى «زهدى» و«كرسى»^(١). وتصدر التمور من البصرة داخل صناديق إلى إنجلترا وأمريكا. وكان محصول تمور البصرة سنة ١٨٨٧ يقدر بحوالى ٦٠,٠٠٠ طن صدر منها حوالى ٤٤,٠٠٠ طن ، منها ٢٠,٠٠٠ بالبواخر إلى لندن وأمريكا. وكانت التمور من نوع حلاوى هى المفضلة فى أوروبا وأمريكا فى ذلك الوقت. وصدر ٢٤,٠٠٠ طن بالسفن المحلية إلى شبه الجزيرة العربية وفارس والهند. وكان التمر الزهدى يلقى رواجاً فى الهند. ونظراً لزيادة الطلب على تمور العراق توسع العراقيون فى تخصيص مساحات جديدة من الأراضي لزراعة النخيل. فازداد محصول التمر فى منطقة البصرة فى سنة ١٨٩٢ خمسة أضعاف خلال الاثنتى عشرة سنة السابقة، وأخذ مكان الصدارة فى الهند وإفريقية والأقاليم المطلة على البحر الأحمر. ومما يبرز المركز القيادى للبصرة فى تصدير التمور أن حجم صادرات هذا المحصول من البصرة فى سنة ١٨٩٦ قد بلغ ٦٠٠,٠٠٠ صندوق منها ٤٩٠,٠٠٠ شحنت إلى لندن، ٥٣,٠٠٠ شحنت إلى نيويورك رأساً، ٥٧,٤٠٠ إلى بمبادى ويافا وبيروت وأزمير وإستانبول.

إحصائية عن قيمة التمور المصدرة من البصرة :

ونورد هنا بياناً عن قيمة التمور التى صدرت من البصرة إلى الخارج فى خلال سبع سنوات فيما بين سنتى ١٨٩٩-١٩٠٠ و ١٩٠٥-١٩٠٦ مقدرة قيمتها بالجنهيات الإسترلينية، والمعدل فى هذه السنوات .

دراسة تحليلية لإحصائية التمور :

نخلص من هذه الإحصائية إلى ملاحظتين ، هما :

أولاً : ارتفع ثمن التمور المصدرة من البصرة وزاد حجمها فى سنة ١٩٠٠-١٩٠١ نظراً ؛ لأن الإقبال عليها فى الهند كان شديداً بسبب المجاعة التى تعرضت لها معظم أقاليم الهند فى تلك السنة .

ثانياً : إن اختلاف القيمة النقدية للتمور المصدرة من البصرة كان يختلف من سنة إلى أخرى هبوطاً وصعوداً . ويرجع هذا الاختلاف فى الأعم الأغلب إلى عوامل طبيعية ، سببت أضراراً بالغة بالمحصول ، مثل فيضانات شط العرب وموجات حر شديدة وهبوب رياح حارة ، وكانت كل هذه العوامل مجتمعة أو منفردة تؤدى إلى ذبول كميات هائلة من الثمار غير الناضجة ونقص وزنها .

(١) تنطق زهدى فتح الزاى وسكون الهاء وكسر الدال . أما كرسى فتنتطق بفهم الكاف وسكون الراء وكسر السين .

السنة	أسعارها في البصرة بالجنيهاً الإسترلينية
١٨٩٩-١٩٠٠	٢٩٥.٢٣٣
١٩٠١-١٩٠٠	٣٨٠.٩٧٣
١٩٠٢-١٩٠١	٣٢٧.٤٥١
١٩٠٣-١٩٠٢	٢٨٩.٢١٥
١٩٠٤-١٩٠٣	٣٥٩.٢٢٨
١٩٠٥-١٩٠٤	٣١٢.٧٦٧
١٩٠٦-١٩٠٥	٣٤٥.١٨٤
المعدل في هذه السنوات	(١) ٣٣٠.٠٠٧

انتعاش بغداد :

وكانت بغداد^(٢) هي الأخرى إبان الحكم العثماني مركزاً يعج بنشاط تجارى كثيف ، تأتى إليها القوافل محملة بالبضائع من الأناضول وإستانبول وحلب ودمشق وكركوك وديار بكر وماردين وفارس . وكانت القوافل الفارسية أغنى القوافل الشرقية ؛ إذ كانت تحمل التبغ والشيلان والفواكه . وكان التبغ أهم السلع التجارية ، فقد كان يعاد تصديره إلى دمشق وحلب وإستانبول نظراً لوجوده وتغوقه على التبغ العراقي الذى كان يزرع فى ضواحي بغداد . وكانت القوافل القادمة من حلب تحمل بضائع واردة من أوروبا ومن أهمها اللطوى والمنسوجات . وكانت بغداد محط قوافل تقدم من سنه ، وزهاب ، والسليمانية وغيرها . ثم كانت الهند مصدراً هاماً للتجارة الشرقية التى تتدفق على بغداد . وعن حجم التجارة الهندية ، يقول أحد الرحالة الهولنديين فى النصف الثانى من القرن السادس عشر «اتفق أنه فى يوم واحد رست خمس وعشرون سفينة مشحونة بالتوابل والعقاقير الثمينة أرسلت بحراً من الهند بطريق هرمز إلى البصرة حيث أفرغت فى سفن صغيرة صعدت النهر إلى بغداد حيث كان ينتظرها التجار الذين ضربوا خيامهم خارج المدينة لبيعوا بها فى القوافل»^(٣) . وإذا كانت البصرة قد نمت نمواً سريعاً للغاية فى المجالات التجارية ، إلا أن بغداد كانت هى العاصمة الحقيقية للعراق . وكان حكم بغداد المدنى إبان الحكم العثماني يتمتع بهيبة أكثر مما هو فى البصرة . وكان اعتماد الممطلين

(١) لويزير ج . ج . مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ٦ ، ص ٣٣١٢ .

(٢) يذكر البعض أن الاسم بغداد هو اسم فارسي قديم معناه المكان الموهوب من الله ، وتسمى بغداد أيضاً دار السلام وتعنى المكان الآمن ، ومدينة الخلفاء ومدينة الخلافة نظراً لأنها بقيت زهاء ثلاثة قرون العاصمة السياسية للعالم الإسلامى تحت حكم الخلفاء العباسيين فيما عدا الفترة من سنة ٨٣٦م إلى سنة ٨٩٢م أى نحو ٥٦ عاماً حين حلت مدينة سامراء محلها . وفى بعض الأحيان تذكر بغداد بالاسم القديم «الزراء» ، ويلاحظ أن الجريدة المحلية شبه الرسمية فى بغداد تسمى «الزوراء» .

(٣) نكتور محمد بدیع شریف وزميله ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣١ .

القنصليين من الرتب العالية يتم لدى وإلى بغداد . فضلاً عن ذلك كانت بغداد هي مقر القيادة العليا للقوات العثمانية في العراق . وفي بغداد كان يعين الموظفون الذين يشرفون على العمل في العراق بالنسبة للدرائر المختلفة مثل الدائرة السنية ودائرة الجمارك ودائرة الأوقاف ودائرة الصحة العامة ودائرة المواصلات ودائرة التعليم . وكانت بغداد تزخر بعدد وافر من المباني الفخمة للقنصليات الأجنبية مثل البريطانية والروسية والفرنسية والنمساوية والألمانية والأمريكية والبلجيكية والنرويجية والفارسية . وتقع معظم مباني هذه للقنصليات على الشاطئ الأيسر لنهر دجلة أو بالقرب منه .

العراق "بؤرة" لطرق القوافل :

والحق أن العراق كان بمثابة "بؤرة" لطرق القوافل . وكانت هذه القوافل تختلف من حيث حجمها ، مقاساً بعدد الجمال ، فهي تتراوح بين قوافل صغيرة تتكون من ثمانين جملاً إلى مائتي جملاً ، وأخرى كبيرة تضم من خمسة آلاف إلى عشرين ألف جملاً . والأخيرة تتعلق بالنقل الخارجي . كما كانت على نوعين : تجارية لنقل البضائع ، وأخرى لنقل المسافرين . وكانت هذه القوافل ، سواء ماكان يستعمل منها في الداخل أو الخارج ، تحتاج إلى الأدلاء وأصحاب التجارة والحمولة أو من ينوب عنهم وعدد كبير جداً من الحراس . وكان هذا التنظيم يتطلب توفير الماء والطعام وتبديل الإبل أو بيعها أو شرائها . ونشأت بعض القرى والمدن كمحطات على امتداد طرق القوافل لتقديم هذه الخدمات والمطلوبات (١) .

المغامرون والسائحون الأجانب في العراق :

تعددت سبل الاتصال بين المغامرين الأجانب الذين وفدوا على العراق في القرن الثامن عشر والجاهير العراقية . وزاد عدد هؤلاء المغامرين في القرن التاسع عشر تحت ستار التنقيب عن الآثار أو ممارسة للنشاط التجاري . وكان من بينهم عملاء الحكومات الأجنبية ووطدوا صلاتهم مع العشائر والقبائل وأصحاب العصبية العربية والكردية . وكانوا يقدمون لهم الأموال والهدايا . وكان بعض هؤلاء المغامرين يطالبون بحكوماتهم بضرورة اتخاذ الإجراءات لجلب رؤس الأموال الأجنبية وجذب المهاجرين الأجانب لاستعمار العراق اقتصادياً باستغلال موارده الاقتصادية وموقعه الجغرافي الهام في طريق المواصلات العالمية . وبعد أن أنشئت خطوط الملاحة البخارية في أنهار العراق - كما سنرى في موطن قادم في هذا الفصل - كان هؤلاء المغامرون يستخدمون رحلات السفن البخارية في مسح العراق جغرافياً واقتصادياً واجتماعياً .

وفي القرن الثامن عشر، اتسع نطاق علاقات العراق الخارجية بدول غربي أوروبا وزاد

(١) دكتور عبدالرازق عباس حسين : نشأة مدن العراق وتطورها . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٥٦ .

عدد السائحين الأوروبيين . وخصوصاً الإنجليز والفرنسيين ، الذين يزورون العراق ويتجولون في ربوعه وهم في طريقهم إلى فارس أو إلى الهند . وكانت هذه السياحة الأوروبية بدورها عاملاً في فتح أبواب العراق أمام العالم الأوروبي الغربي . واستقرت في المدن الكبرى في العراق جاليات أوروبية . وكان وكلاء شركة الهند الشرقية البريطانية يترددون على البصرة ويغداد وتستضيفهم السلطات العثمانية . وكان لهذه الشركة بريد منتظم تحمله الإبل من البصرة إلى حلب ويشرف عليه التتر . كما كان هؤلاء التتر يحملون إلى إستانبول بريد وإلى بغداد إلى الباب العالي ويريد القناصل الأوروبيين في الشرق الأوسط إلى سفراء دولهم .

على هذا النحو ظل العراق طريقاً بين الشرق والغرب ومركزاً هاماً لمرور أو توزيع أو استهلاك المناجر الشرقية الواردة من الهند وغيرها من أنحاء آسيا وكذلك بعض أقاليم شرقية إفريقية المطلة على المحيط الهندي ، والتجارة الأوروبية أيضاً . ولذلك كانت إنجلترا حريصة الحرص كله على الأمتياز بالنفوذ في العراق دولة أجنبية غيرها ، سواء كانت شرقية مثل فارس أو أوروبية مثل فرنسا ، واهتمت اهتماماً بالغا بأن يكون لها النفوذ الأول في هذا الإقليم . وكثيراً ما حدثت الدوائر السياسية في لندن والهند والقناصل البريطانيون في العراق عن وجوب قيام إنجلترا باحتلال العراق . ولكن حالت دون تحقيق هذا الأمل المرتجى السياسة التقليدية التي سارت عليها إنجلترا تجاه الدولة العثمانية حتى عام ١٨٧٨ وهي المحافظة على استقلالها وسلامة ممتلكاتها . فالجزء الجنوبي من العراق يطل على الخليج العربي . والاثنان معاً يعتبران البوابة الرئيسية الكبرى للهند . وأرادت إنجلترا أن تتخذ العراق قاعدة عسكرية لحماية الهند ولمناوئة الأطماع الروسية . والجزء الشمالي الشرقي من العراق مجاور لبلاد الشام وفيها فلسطين ، وهي مدخل إلى مصر وإلى قناة السويس بعد إتمام حفرها عام ١٨٦٩ ، وهي تريد أن تتخذ من شمالي العراق مركزاً لمراقبة أي نشاط معاد لها في بلاد الشام بعد أزمة التوسع المصري في الشام ونجد أيام محمد علي وإلى مصر . فضلاً عن أن العراق إقليم غني ذو موارد اقتصادية هامة ، إذا أحسن استغلالها جنت إنجلترا منه أعظم الفوائد . فهو مليء بالمعادن والخامات مثل النحاس والرصاص والكبريت والمنجنيز والفوسفات والبيتومين وغيره من المواد اللازمة للصناعة^(١) . وتربته خصبة تجود بزراعة وفيرة . وكان العراق في الأزمنة القديمة يعد من أخصب بلاد العالم حتى إن المؤرخ اليوناني هيرودوت كان يضرب به المثل في الخصب

(١) الدكتور نور خليل الرازي : الصناعة ومشاريع التصنيع في العراق ، من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٦-١٩٦٧ ، ص ٥-٢٢ ، ١٢٥ .

دكتور خطاب العاني : جغرافية العراق الزراعية . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ١١-٩٦ .

ووفرة الإنتاج^(١) . وإذا كانت مصر هي هبة النيل ، فإن العراق هو هبة الرافدين^(٢) .

ثانياً : إنشاء خطوط ملاحية بخارية في أنهار العراق تتصل بخارجه :

ونشطت بريطانيا في تنفيذ مشروع إنشاء خطوط ملاحية بخارية في أنهار العراق تسير عليها البواخر البريطانية كمرحلة من مراحل الطريق البري القديم الذي يمر بالخليج العربي والبصرة ووادى الرافدين ثم بادية الشام إلى حلب ومنها إلى أساكس الشام . وكانت شركة الهند الشرقية البريطانية قد فكرت في أواخر العقد الثالث ، من القرن التاسع عشر ، في إنشاء طريق قصير وسريع وسهل بين الهند وبريطانيا يمر بمصر أو العراق ليكون متصلاً بطريق رأس الرجاء الصالح . وكان لبده استعمال البخار في المواصلات العالمية وقتذاك أثره فيما أرادت الشركة تحقيقه . فالسفن البخارية الأولى كانت لصغر حجمها وضعف آلاتها أصح للمواصلات النهرية والساحلية ، منها للقيام بما كانت تقوم به السفن الشراعية الكبرى من الرحلات الطويلة في طريق رأس الرجاء الصالح . وكان الاعتقاد أن طريق مصر أو طريق العراق يؤدي إلى نقص كبير في تكاليف النقل ومدة السفر على الرغم مما كان يتطلبه كل منهما من نقل برى عبر مصر في الحالة الأولى ، وعبر بلاد الشام في الحالة الثانية . غير أن السلطات البريطانية اعتقدت في الوقت ذاته ضرورة القيام بدراسات تمهيدية واسعة النطاق لمعرفة أفضل الطريقين وللتثبت من الخطوات التالية^(٣) .

ولكن الدبلوماسية البريطانية أرادت أن تنفذ مشروع طريق العراق مرحلياً ، فتبدأ أولاً بنهر الفرات وحصرت مساعيها أول الأمر مع السلطان العثماني من أجل الحصول على فرمان يخلو لها الحق في تشغيل باخترتين في نهر الفرات . فلما فازت ببغيتها - كما سنرى بعد قليل - تطعلت إلى مد هذا الحق أو الامتياز إلى أنهار العراق الأخرى مثل دجلة و كارون ، ونجحت في تحقيق أهدافها ، دون أن تنال من السلطان فرماناً يخلو لها الحق في تجاوز حدودها الأولى.

أهداف بريطانيا من إنشاء خطوط ملاحية بخارية في أنهار العراق :

واستهدفت بريطانيا من إنشاء خطوط ملاحية بخارية للسفن البريطانية في أنهار العراق تسهيل المواصلات بينها وبين الهند ، وزيادة حجم التجارة ، ودعم نفوذها في العراق ومقاومة الخطر الروسي في منطقة الخليج العربي ، واحتمال امتداد هذا الخطر إلى العراق من ناحية وإلى الهند من ناحية أخرى . وكان الإنجليز يعتقدون أن نفوذهم في العراق ومصالحهم في منطقة

(١) دكتور محمد محمود الصياد : جغرافية الوطن العربي ، من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العليا ، القاهرة ، ج ٢ ، الزراعة ، القاهرة ، ١٩٦٧-١٩٦٨ ، ص ٤٢٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(٣) دكتور زكي صالح : مجمل تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني . من مطبوعات معهد الدراسات العربية المالية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ص ٤٥-٤٦ .

الخليج العربي وممتلكاتهم في الهند .. كل أولئك يتعرض لخطر داهم ، إذا غدا المجال مفتوحاً لتسلسل النفوذ الروسي إلى العراق واستقراره على ضفاف دجلة والفرات ، وهذه الفكرة هي التي استقرت في أذهان الإنجليز منذ سنة ١٨٣٠ .

وكان من مزايا مشروع إنشاء ملاحه بخارية بريطانية في أنهار العراق تجلب خطورة الملاحه في البحر الأحمر فيما لو استخدم طريق مصر البري أو قناة السويس فيما بعد ؛ بسبب الأعاصير المدمرة التي تهب على البحر الأحمر ووجود الصخور المرجانية فوق مياهه وتحتها . أما تعرض البواخر النهرية البخارية في نهر الفرات لهجوم القبائل والشاشر العربية والكردية ، فمن الممكن التغلب على هذا الهجوم بتسليح البواخر .

وكانت الدوائر البريطانية -سواء في إنجلترا أو في الهند - تنظر إلى العراق على أنه الإقليم الذي سيصبح في قابل الأيام سوقاً لتصرف البضائع الإنجليزية ؛ فالمصالح التجارية لبريطانيا في العراق لا تقل أهمية عن مصالحها في مصر . ورأى الباب العالي مقاومة هذا التسلسل البريطاني الملاحى البخارى في أنهار العراق ، على أن تكون هذه المقاومة بالأسلوب نفسه ، وهو إنشاء خطوط ملاحه بخارية عثمانية في أنهار العراق ، وأن تسير على هذه الخطوط بواخر حكومية وغير حكومية ، وأن يتصل بعضها بالعالم العربي والإسلامي . واستهدف الباب العالي من إنشاء هذه الخطوط العثمانية تنشيط التجارة الداخلية والخارجية للعراق وربطه بالعالم الخارجى إلى جانب مقاومة خطوط الملاحه البخارية البريطانية في أنهار العراق . ونبدأ بعرض سريع لجهود بريطانيا في هذا المجال ثم نتبعها بجهود الباب العالي ؛ لأن بريطانيا كانت أسبق من الدولة العثمانية في إنشاء الملاحه البخارية في أنهار العراق .

جهود بريطانيا لإنشاء خطوط ملاحه بخارية في أنهار العراق :

رحلة شيزنى الأولى :

قام الميجور - الجنرال فيما بعد - فرانسيس رودمن شيزنى Major Francis Rawsdon Chesney في أواخر عام ١٨٣٠ برحلة دراسية استطلاعية في وادى الرافدين (١)

(١) كانت الحكومة البريطانية قد أوفدت عام ١٨٢٩ للاشتراك في الحرب العثمانية الروسية إلى جانب القوات العثمانية . وقد بلغ إستانبول عقب انتهاء الحرب ؛ فوجه السفير البريطاني لدراسة مشروع استخدام البواخر في نهر الفرات ومشروع استخدام طريق مصر . وسافر إلى مصر مبتعثاً بهذه المهمة التي نيّطت به . والتقى في مصر بزملاء بريطانيين ، وقف منهم على المعلومات التي أرادها ، وترك مصر ورحل إلى الشام في أواخر عام ١٨٣٠ وطريقه إلى العراق .
يكتور زكى صالح ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٦ .

من دمشق إلى عانة ، ومن هناك استقل طوقاً يسمى أيضاً ذكك،^(١) في نهر الفرات حتى وصل إلى الفالوجة^(٢) ومنها انتقل إلى بغداد ثم إلى البصرة . وكان يسير عمق النهر ويدرس نياراته المائية ويسجل أسماء القرى التي يمر بها . وبعد أن وصل إلى البصرة ، درس نهر كارون مثلما درس نهر الفرات ثم عاد إلى لندن بعد أن استغرقت رحلته في العراق سنة واحدة (١٨٣٠-١٨٣١) ووضع خطة مشروع للاتصال بالهند عن طريق العراق . وفي سنة ١٨٣٣ أذن له وليم الرابع ملك إنجلترا بمقابلته ، وشجعه الملك الذي كان مهتماً بالمشروع على الاستمرار ، ونصحه بأن يعمل على إعداد أسطول بخارى صغير يكون جزءاً من البحرية الهندية ، ويكون مرساه فيما بين النهرين ليساعد على تقوية الدولة العثمانية وفارس ضد روسيا . ونجح في إقناع الحكومة البريطانية بما كان يراه من أهمية نهر الفرات من ناحية المواصلات بين بريطانيا والهند وكذلك من الناحية العسكرية . وبعد ذلك بقليل جاءت الأحداث الدولية مؤيدة لآراء شيرزني .. ففي سنة ١٨٣٢ كان الجيش المصري قد اجتاحت الشام وأجزاء من جنوب شرقى الأناضول على عهد محمد علي ، وفزعت الحكومة البريطانية من انتشار النفوذ المصري في تلك المناطق اعتقاداً منها أن النفوذ الفرنسي يجيء في أعقابها ، ومما أدى إلى تأزم الموقف أن السلطان محمود الثاني عقد مع روسيا معاهدة هنكار إسكسلي (٨ من يوليو - تموز - ١٨٣٣) ، وهي معاهدة دفاعية أتاحت للقوات المسلحة الروسية البرية والبحرية أن ت رابط في بعض المواقع العثمانية بحجة حماية السلطان من واليه اللأثر محمد علي^(٣) . وكانت السياسة البريطانية حريصة على منع وقوع خط المواصلات العالمية عبر الشام والعراق في يد مصر أو غيرها من الدول . ولهذا رأت أنه لامندوحة لها عن اتخاذ إجراءات فعالة ، تكفل لها السيطرة على هذا الطريق باستخدام نهر الفرات للملاحة البخارية البريطانية . وفي ٣ من يونيو

(١) الكك عبارة عن ألواح من الخشب يشد بعضها إلى بعض ؛ بحيث تشكل منصة مربعة أو مستطيلة ، يصل سمكها إلى قدم أو قدمين . ومقاس الكك هو ١٤ × ١٥ قدماً إلى ١٦ × ١٨ قدماً ، ويبلغ طول بعضها ٢٠ قدماً . ويثبت إلى الجزء المنحور في الماء ٢٠ أو ٥٠ جراباً من جلود الماعز عادة ، وتكون هذه الأجرية منفوخة حتى يزداد تعويم الكك . وهو لايسير إلا مع التيار ويسير في منتصف مجرى الماء بمساعدة مجدافين .. وكان شائع الاستخدام في العراق إبّان الحكم العثماني ويحملون عليه الفخار والخشب والفاكهة وعلب الزيت الفارغة ليبيعها على الطريق إلى القرويين والبدو . وتراوح حمولة الكك بين خمسة أطنان وثلاثين طناً . وعندما يصل الكك إلى وجهته يفكك وتباع أخشابها لبناء المنازل . أما الأجرية الجلدية فتنتقل على ظهور الإبل إلى المكان الأصلي الذي جيئت منه .
انظر :

لوديمر ج.ج. ، مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافي ، ج ٢ ، ص ١٠٢٢ .
(٢) الفالوجة وتكتب أحياناً الفلوجة قرية في العراق على الضفة اليسرى لنهر الفرات على بعد ٧٠ ميلاً من مدينة المسيب . وكان يوجد بها ، إبّان الحكم العثماني ، مسحة وخانان أو ثلاثة وسوف يحتوي على حوالي ثلاثين حائطاً يبنى أو سرأي الحكومة .

لوديمر ج.ج. ، مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافي ، ج ٢ ، ص ٦٩١-٦٩٢ .
(٣) انظر في هذه الدراسة الفصل الثامن - الجزء الأول .

- حزيران - ١٨٣٤ تشكلت لجنة خاصة هي لجنة الملاحة البخارية في مجلس العموم البريطاني لمعرفة أفضل الطريقين المصري والفرائي . وعقدت عدة جلسات استمعت فيها إلى آراء المختصين بطريق الفرات . وكانت شهادة شيزني بطبيعة الحال هي التي عولت عليها اللجنة في وضع تقرير براماني ضخم ، ناهز المائة صفحة من القطع الكبير عن الموضوع . وقد وافق مجلس العموم البريطاني في شهر أغسطس - آب - عام ١٨٣٤ على فتح اعتماد بمبلغ عشرين ألف جنيه استرليني لتمويل نفقات بعثة رسمية ، تقوم بدراسة الإمكانات المتاحة لتسيير سفن نهريّة بخارية في نهر الفرات . وأضافت إليه شركة الهند الشرقيّة مبلغ خمسة آلاف جنيه أخرى . وقام شيزني بتنظيم البعثة وصدر مرسوم ملكي ، مؤرخ في ٢٨ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٣٤ بتعيينه لقيادة البعثة وتوجيهها ^(١) .

مشكلة استصدار فرمان من السلطان :

وطلب لورد پونسونبي Lord Ponsonby السفير البريطاني في إسطنبول من الباب العالي استصدار فرمان من السلطان بالترخيص لباحرتين بريطانيتين بالملاحة في نهر الفرات . وتردد الباب العالي متعللاً بأن العضاير التي تمر بها الباخرتان في العراق مبعث خطر على حياة ركبهما ، وأنه تبعاً لذلك ليس في مكنته تحمل مسؤولية سلامتهم . وصرح ريس أفندي - وهو لقب كان يحمله وزير الخارجية العثمانية في القرن التاسع عشر^(٢) - أن الباب العالي مستعد لإصدار فرمان ، إذا تحملت بريطانيا مسؤولية الدفاع عنهم . ووافقت الحكومة البريطانية على هذا الشرط في مقابل أن تكون الباخرتان مسلحتين . واعترضت روسيا على إصدار هذا فرمان ، لأنها رأت أن مثل هذا فرمان سيقبى بالعراق غنيمة باردة في يد الإنجليز ، الذين سيجعلون من العراق قاعدة عسكرية لمقاومة النفوذ الروسي في منطقة الخليج العربي من جنوب غربي آسيا . وكان لدى الروس حجة قوية وهي أن الباب العالي ظلّ ممتنعاً امتناعاً تاماً لفقرات طويلة عن منح النعما حرية الملاحة في نهر الدانوب . وهو ، بالفرمان المرئجي ، يمنح امتيازاً للإنجليز لإيشاركهم فيه أحد^(٣) . وأخيراً استجاب الباب العالي للضغط البريطاني ، إذ كان في حاجة إلى استرضاء بريطانيا لتقف إلى جانبه ضد مصر . فصدر فرمان في ٢٩ من ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٣٤ بالسماح لباحرتين بريطانيتين بالتجول في نهر الفرات لتسهيل التجارة^(٤) . وقد أخطر الباب العالي كلا من علي رضا باشا وإلى بغداد ، ومتصرف البصرة بهذا فرمان^(٥) .

(١) دكتور زكي صالح ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٦-٤٧ .

(٢) انظر في هذه الدراسة الفصل التاسع ، الجزء الأول .

(٣) دكتور عبدالعزيز سليمان نوار ، تاريخ العراق الحديث إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٧ .

(٤) تجد نص فرمان مترجماً إلى الإنجليز في :

مشكلة أخرى تواجهها البعثة :

أطلت برأسها مشكلة أخرى واجهتها البعثة . فقد كان هناك رأى فى الدوائر الرسمية البريطانية يقول بوجود تحرك البخارتين من البصرة فى اتجاه الشمال ، بينما كان هناك رأى معارض يقول العكس . وكان شيزنى من أنصار الرأى الأخير استناداً إلى عدم قدرة البخارتين على الصمود فى وجه التيارات الشديدة فى الفرات والمتجهة جنوباً ، فضلاً عن أن صعود البخارتين فى الفرات من البصرة يوحى للأهلين بأن هناك خطة مبيتة لغزو العراق^(١) ، لأن تفوق الإنجليز فى منطقة الخليج العربى وسمعتهم الاستعمارية السينة تؤكدان فكرة الغزو فى أذهان الأهالى . واستقر الرأى على أن تبدأ البخارتان عملهما فى الفرات نازلتين ، بدلاً من صاعدتين فيه ، وعلى أن تشحن البخارتان مفككتين فى سفينة شراعية من إنجلترا إلى بلاد الشام عن طريق جبل طارق وجزيرة مالطة .

وصول البعثة إلى ساحل الشام :

وأخيراً صدرت التعليمات النهائية بإبحار البعثة فى أبريل - نيسان - ١٨٣٥ ، وحدد رئيس الوزارة مهمة البعثة ، على النحو التالى ، فى رسالة بعث بها إلى شيزنى :

أولاً : أن تقوم البعثة بدراسة نهر الفرات لتحديد مدى صلاحيته للملاحة البخارية لإنشاء طريق سريع إلى الهند وتنمية التبادل التجارى .

ثانياً : مدى سرعة نقل البريد بواسطة البواخر بطريق الفرات بين الهند وبريطانيا .

ثالثاً : التعاون مع السلطات العثمانية فى سبيل إنجاح البعثة .

رابعاً : تجنب الاشتراك فيما بين العشائر من منازعات وعدم استخدام العنف ، إلا إذا تطلب الأمر المحافظة على أرواح أعضاء البعثة^(٢) .

ولما وصلت البعثة إلى مالطة تعاقبت مع اثنى عشر مالطياً للانضمام إليها بغية تسهيل عملية اتصالها بالعرب . وواصلت السفينة رحلتها حتى بلغت فى ٣ من أبريل - نيسان - ١٨٣٥ السويدية . وقد فصلتها البعثة على الإسكندرونه ، لأن مواصلاتها أسهل مع أنطاكية ، وسارع شيزنى إلى إنزال البخارتين للصعود فى نهر العاصى .

(١) Hoskins H.L.; op. cit., pp. 163-164.

(٢) دكتور عبدالعزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث - إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٩ .

اعتراض مصر:

اعترضت السلطات المصرية في الشام على تفريغ أجزاء الباخرتين من السفينة التي جاءت بهما من ميناء ليفربول ، لأن محمد علي لم يبلغ بفرمان السلطان ، وتمسك بضرورة صدور فرمان من الباب العالي يوجه إليه ويطلب منه فيه مساعدة البعثة . وكان موقف محمد علي سليماً ، لأنه وال من قبل السلطان . ومواء كان محمد علي يحكم مصر فقط أو مصر والشام ، فإن هذين الإقليمين خاضعان للسيادة العثمانية . ولا يغير حكمه لهذين الإقليمين من صفته ومن مركزه القانوني كوال . وكان محمد علي يهدف من اعتراضه إلى تحميل الباب العالي مسئولية ما يقرب على وصول البعثة إلى نهر الفرات ؛ خشية أن يؤدي وجود البعثة بأسلحتها وذخائرها ورجالها إلى احتلال العراق ، وبذلك تصبح البلاد الواقعة تحت حكمه يهددها الإنجليز من العراق شرقاً ومن البحر المتوسط غرباً . وعبر عن رأيه بقوله في رسالة بعث بها إلى ابنه إبراهيم باشا ومؤرخة في ١٤ من مارس - آذار - ١٨٣٥ : «إن بعثة العراق أعظم مصيبة على الأمة الإسلامية . وإذا قبلناها حلت علينا الملامة واللجنة إلى يوم الدين . ولذلك لا يمكن أن نوافق عليها حتى لو بلغت الروح الحلقوم» (١) . وبذلت السفارة الروسية في إستانبول مساعيها لدى الباب العالي لتجميد الفرمان السلطاني الصادر عام ١٨٣٤ . وفسرت بريطانيا موقف محمد علي بأنه نوع من الانقسام منها لموقفها غير الودي منه في أزمة حرب الشام الأولى ، كما فسرت موقف روسيا بأنها ترى في وجود بعثة الفرات قيلاً لأطماعها من الانطلاق في منطقة الخليج وجنوب غربي آسيا . أما الباب العالي فقد رفض إصدار الفرمان الذي طلبه محمد علي ، تأسيساً على أن الفرمان الممنوح للبعثة البريطانية موجه إلى جميع باشوات الدولة دون استثناء .

ولكن بدأ محمد علي يتراجع أمام الضغط الذي مارسه عليه رونالد كامبل Ronald Campbell ، قنصل بريطانيا العام في مصر ، ورأى أن يتجنب الصدام مع الإنجليز ، فسمح بمرور البعثة عبر الشام إلى شاطئ الفرات ، وأن يتخلى عن الأراضي الواقعة على الضفة الشرقية لهذا النهر تجنباً لأي احتمال للتصادم مع الإنجليز . ولم يشاطر إبراهيم باشا والده في خطئه ، ورأى أنها تنطوي على تهريب من المسئولية . وتمسك بأن تبقى في قبضة القوات المصرية «روم قلعة» و «بيره چك» الواقعتان على الضفة الشرقية للفرات ، لأنهما مركزان استراتيجيان يضمنان سلامة القوات المصرية في تلك المناطق ، وسيطران على الطريق المؤدى إلى بغداد . وقال في رسالة أرسلها إلى والده ومؤرخة في ٢١ من أبريل - نيسان - ١٨٣٥ مصوراً تقديره للموقف «إن الإنجليز قد جاءوا معهم عساكرهم ومدافعهم ومهماتهم

وذخائزهم . فإذا بنوا سفنهم وهجموا على بغداد متخذين من العرب ذريعة لهم لهذا الهجوم ... وجلبوا على الأمة الإسلامية داهية دهياء ، يتهمنا الناس قائلين أنت الذى فعلت هذا ، وأنت الذى أذنت لهم بالمرور من أرضك ، وأنت الذى تسببت فى هذه المصيبة التى نزلت بنا ، دون أن يعلم أحد أن الدولة هى التى أذنت لهم فمروا^(١) .

وعاد محمد على تحت ضغط ابنه إلى إقناع الباب العالى بالأخطار التى تتعرض لها بلاد الشام والعراق من وجود البعثة فى العراق ، وطلب إلى السلطان سحب فرمان عام ١٨٣٤ لإنقاذ العراق مما يبيته له الإنجليز . وكان من نتائج مساعى محمد على - بالإضافة إلى الضغط الروسى فى إستانبول - أن أصدر الباب العالى تعليمات إلى مصر بأن تحجز الباخرتين فى السويدية حتى يصل الرد من لندن ، وكان معنى هذه التعليمات هو تجميد البعثة . وسارع محمد على من جانبه إلى تنفيذ هذه التعليمات . ولكن شيزنى رئيس البعثة كان عنيداً ، تحدى السلطات المصرية فى الشام مستنداً إلى فرمان السلطان الصادر بشأن البعثة ومعتمداً على دولته بصفتها من أكبر دول العالم . وكان شيزنى صادقاً فى حديثه ، إذ ما لبثت أن اتخذت حكومة لندن إجراءات خطيرة . فقد أرسلت إلى كامبل - فحصلها العام فى مصر - أوامر بأن يطلب من محمد على فى الحال أن يصدر أوامر صريحة لإبراهيم باشا بتقديم مساعدات لأعضاء البعثة ، وإذا رفض محمد على إصدار مثل هذه الأوامر .. كان على كامبل أن يخطر الأميرال رولى Rowley دون إبطاء بهذا الرفض ؛ حتى يتمكن من تنفيذ الأوامر التى كانت قد صدرت إليه . وكانت تقضى بأن يغادر كامبل والقطعة البحرية بقيادة رولى الإسكندرية إلى عرض البحر معلناً محمد على بأن رولى سيتخذ الإجراءات الكفيلة بالمحافظة على مصالح بريطانيا وحقوقها . وكان الإجراء الأول هو فرض الحصار البحرى على الإسكندرية لمنع خروج أى وحدة بحرية مصرية من الإسكندرية أو دخولها إليها ، سواء كانت هذه الوحدة حربية أو مدنية . وإذا أصرت أى سفينة على خرق الحصار فإنها تؤسر وترسل إلى مالطة . واختارت بريطانيا وقتاً ملائماً لتنفيذ تهديدها ؛ إذ إن محمد على كان قد أرسل أسطولاً إلى جزيرة كريت . وبذلك هدده الإنجليز بمنع أى اتصال بين الأسطول المصرى فى كريت وقاعدته فى الإسكندرية^(٢) .

وأمام هذا التهديد البريطانى الخطير تراجع محمد على للمرة الثانية خشية إضاعة مكاسبه وجهوده خلال السنوات السابقة . فلم يأمر فقط بترك البعثة تمر عبر الشام إلى بيره چك ، بل أمر بالإسراع بنقل أجزاء الباخرتين وعدم الاحتكاك بالبعثة ، وطلب من إبراهيم باشا أن يغض الطرف عن نقل المهمات الحربية كالمدافع والبنادق والذخائر وأدوات البعثة . ومما

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٢-٢٥٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٤-٢٥٥ .

ساعد على سرعة نقلها إسهام الباب العالي في تسهيل عمليات النقل التي كانت شاقة جداً^(١) . فقد أمر رشيد باشا بإرسال دواب النقل من ديار بكر إلى البعثة التي وصلت إلى بيره چك . وكان الباب العالي ينشد تأييد بريطانيا للدولة في جولة تالية ، تخوضها ضد محمد علي انتقاماً لهزيمتها في حرب الشام الأولى .

بدء تحرك الباخرتين :

اختير مرفأ ولیم پورت William Port على الفرات الأعلى^(٢) لاستقبال قطع الباخرتين مفككتين لتركيبهما هناك . وبدأت رحلتها من هذا المرفأ إلى البصرة في منتصف مارس ١٨٣٦ ، وأطلقت على إحدى الباخرتين اسم «الفرات» وكانت أكبر حجماً من الأخرى التي أطلق عليها اسم «دجلة» كما كانت آلات الأولى أقوى من الصغرى^(٣) ، ويحارثها أكثر عدداً منها . وقد روعي في تصميمها ظروف الملاحة في نهر الفرات . وكانت الباخرة الكبرى تدير في المقدمة ومن ورائها الباخرة «دجلة» . وانقسم أعضاء البعثة إلى مجموعات عمل ، منهم من رسم خرائط تفصيلية لمجرى نهر الفرات ، ومنهم من رصد تياره وعمقه ، ومنهم من سجل الملاحظات التي بدت لهم عن صفتي النهر ونوعية السكان ومستوى حضارتهم ، وأسماء القرى وما إلى ذلك من ملاحظات اقتصادية واجتماعية وجغرافية وسكانية .

مصاعب البعثة في رحلتها إلى البصرة :

غرق الباخرة «دجلة» :

سارت أمور البعثة أول الأمر سيراً مرضياً منذ أن بدأت رحلتها النهرية وأتمت بنجاح مسح أكثر من خمسمائة ميل من نهر الفرات . وبعد أن غادرت دير الزور ، وفي مكان لا يبعد كثيراً عن عانه ، تعرضت باخرتنا البعثة في مساء ٢١ من مايو - آيار - عام ١٨٣٦ لعاصفة شديدة شمالية غربية ، أثارتها رياح محملة بالرمال أغرقت في الحال الباخرة الصغرى «دجلة» وسط الظلام بما كانت تحمله من خرائط ومعدات وآلات علمية دقيقة وثمينة ، وغرقت معها أيضاً جميع الأموال التي كانت تخص البعثة . وبلغت الخسائر في الأرواح عشرين نفساً كان من بينهم ضابطان وثلاثة عشر أوروبياً وخمسة من أهل العراق . وكان شيزني رئيس البعثة على ظهر هذه الباخرة ، ولم يستطع أن ينجو منها وسائر الضباط إلا حين ألقوا بأنفسهم في مياه النهر . وعاد إلى لندن طاقمها من الضباط والمدنيين ممن كتبت لهم النجاة ، ولم يمكن تحديد

(١) كان نقل الأجزاء الكبيرة من هاتين الباخرتين عملاً يتطلب جهداً كبيراً . فقد نقلت «غلاية» الباخرة الصغيرة «دجلة» يجرها ١٠٤ من الثيران يقودها ٥٢ رجلاً من السائقين من أهل البلاد .

(٢) تقع على بعد ميلين ونصف ميل من بيره چك .

(٣) كانت قوة الباخرة الفرات خمسين حصاناً ، بينما كانت قوة الباخرة دجلة عشرين حصاناً .

المكان الذي غرقت فيه الباخرة مباشرة . وراحت الجهود تبذل مرة بعد الأخرى لانتشال الباخرة الغارقة ، وبقيت في مكانها عشر سنوات . أما الباخرة الكبرى «الفرات» فقد تعرضت لبعض الأضرار من جراء العاصفة ، ولكنها كانت أضراراً طفيفة واستطاعت أن تضى في رحلتها وفي مهمتها .

وعلى الرغم من فداحة الخسائر المادية ، كان لغرقها أصداء بعيدة في لندن ، إذ اعتقدت الدوائر الرسمية أن العواصف تشكل عقبة كبيرة في طريق الملاحة البخارية في نهر الفرات . واهتم شيرزى رئيس الحملة بتبديد هذا الاعتقاد ، مؤكداً أن غرق الباخرة «دجلة» كان حادثاً عارضاً لاتدل إطلاقاً على عدم صلاحية نهر الفرات للملاحة البخارية (١) .

ولما أوغلت الباخرة الكبيرة في حوض نهر الفرات بدأ شيرزى اتصالات مبكرة مع العشائر الكبرى مثل شمر الجريا ، وعنزة . وكانت كل منهما ذات بأس شديد ، وعجز إلى بغداد عن فرض السيطرة عليهما في معظم الأوقات .

ونجح رئيس البعثة في أن يعقد مع شيخ عشائر عنزة معاهدة باسم ملك بريطانيا في أبريل - نيسان - عام ١٨٣٦ ، ويحث بها إلى لورد بالمروستون فقبلها بقبول حسن واعتبرها مستنداً لبريطانيا في قابل الأيام ، تستطيع بها التدخل في أمور الصحراء وتجعل من هذه العشيرة القبلية الضخمة حليفاً لها ضد أى هجوم على العراق .

غير أن المقاومة الخطيرة التي تعرضت لها البعثة كانت من جانب العشائر الصغيرة ، وكان مرد هذه المقاومة إلى أسباب دينية وسياسية ؛ فواجهت مقاومة شعبية في بعض المناطق . كانت بعض هذه القبائل تجمع أفرادها على ضفتي نهر الفرات بعد أن تضع في مجراه جذوع الأشجار والنخيل لمنع تقدم الباخرة . وتدور معارك غير متكافئة ، لأن أفراد القبائل كانوا مسلحين بأسلحة بدائية مثل البنادق الضعيفة والسيوف ، بينما كانت الباخرة مزودة بمدفعية تقذف قنابلها على جموع العراقيين فتحدث فيهم خسائر فادحة في الأرواح . وفي جنوبي العراق أمر شيخ قبائل المنتفق رجاله بعدم تموين البعثة بالغنم ومواد التموين . وكان الحماس الديني الإسلامي قد اجتاح العراق بسبب هذه الباخرة البريطانية المسلحة التي تهبط العراق وتتوغل في جوفه . ومما زاد في تصاعد الشعور الديني الإسلامي المعادى للبعثة أن صمويل Samuel المنصر الإنجليزي الهروستانتى - وسنلتقى به في موطن قادم في هذا الفصل - جاء ليسلم البريد إلى الباخرة ، وكان هذا المنصر في تصرفاته مدافعاً أندفاعاً بلغ حد التهور والحماسة . ولم يدرك الصعاب السياسية والدينية التي تواجهها البعثة من يمين ويسار، فدعا في هذا

الوقت العصيب الأهليين إلى الارتداد عن الدين الإسلامي واعتناق المسيحية^(١) . وجاء هذا الحادث ليضيف أنقلا إلى أنقال البعثة . ووفر في أنهان الجماهير أن البعثة ذات أهداف عسكرية وسياسية ودينية واقتصادية^(٢) .

البعثة البريطانية تتجاوز اختصاصاتها :

والحق أن البعثة لم تثر سخط الجماهير فقط ، فقد يقال إن الجماهير كان يغمرها تعصب ديني دافق ، وإنها كانت ذات أفقى عقلى محدود ، ولكن البعثة أثارت بتصرفاتها مخاوف السلطات العثمانية فى العراق وإستانبول وأزعجت عدداً من العواصم الأوروبية وبخاصة باريس؛ لأنها تجاوزت الحدود التى رسمها لها فرمان عام ١٨٣٤ فقد سمح السلطان فى هذا فرمان لباخرتين بأن تبحرا فى نهر الفرات ، ولم يرد قط ذكر لنهر دجلة أو غيره من الأنهار . ولكن الباخرة أبحرت أيضاً فى أنهار دجلة ، والبهامشير ، وكارون . إذ لما وصلت الباخرة «الفرات» إلى أتيسرة صدرت الأوامر فجأة إلى شيزنى رئيس البعثة أن يصعد بالباخرة فى نهر دجلة فصعدت الباخرة فى هذا النهر حتى بغداد وتجاوزتها ، ثم هبطت النهر بحجة استلام البريد الهندي ، ووصلت البصرة مرة ثانية وتسلمت البريد ، ثم شرعت فى صعود نهر الفرات . ورأى شيزنى أن يبعث البريد بالطريق البرى إلى ساحل الشام لإرساله إلى إنجلترا . وقد وصل البريد متأخراً ثلاثة أشهر عن موعده ؛ الأمر الذى أساء إلى سمعة البعثة^(٣) .

دراسة تحليلية لفرمان عام ١٨٣٤ :

نعود لفرمان سنة ١٨٣٤ فنقول إن مقدمته ذكرت أنه موجه إلى جميع الباشوات والولاة سواء من يحمل منهم ثلاثة أطواخ أو طوخين^(٤) فقط ، وكذلك إلى القضاة وقباطنة الموانئ وسائر حكام الأماكن الواقعة على ضفتى نهر الفرات . ثم قرر فرمان أن لورد پونسونبى السفير البريطانى فى إستانبول وهو إحدى الشخصيات الذائعة الصيت للغاية بين الأمم المسيحية ، قد قدم مذكرة رسمية إلى الباب العالي قرر فيها أن الحكومة البريطانية تطلب الإذن لباخرتين فى أن تبحرا على التوالى فى نهر الفرات ، الذى يصب على مسافة قريبة من مدينة بغداد لغرض تسهيل التجارة . ومضى فرمان يقول إن الباب العالي بعث بمذكرة إلى على رضا باشا وإلى بغداد والبصرة ليدلى برأيه فى شأن المشروع المقترح للملاحة . وعلى الرغم من أن رد الوالى المذكور لم يصل بعد ، قام السفير البريطانى باتصالات لدى الباب العالي ، وأبلغه أن الحكومة

(1) Loc. cit. p. 161.

(2) Loc cit., p. 193.

(٣) دكتور عبدالعزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦١-٢٦٢ .

(٤) انظر فى هذه الدراسة مدلول كلمة أطواخ ، الفصل الثانى عشر ، الجزء الأول .

البريطانية تنتظر رداً منا . ولهذا السبب فإننا نسمح لباحرتين بالملاحة على التوالي في نهر الفرات ، على أن تستمر الملاحة طالما كانت هذه الملاحة طبقاً لما تقدم لنا ، وتثبت أنها مفيدة للدولتين . ولهذا الغرض أرسل فرمان رسمي للسفير البريطاني .

ويضيف هيرونز إلى نص فرمان ملحوظة بأن الباب العالي أرسل صورة ، طبق الأصل ، من هذا فرمان إلى علي رضا باشا وإلى بغداد والبصرة ^(١) .

والنص الوارد في فرمان واضح لا لبس ولاغموض فيه . ونحن نورد هنا الصياغة اللفظية الإنجليزية لهذا فرمان بعد استبعاد المقدمة التي تقول إن هذا فرمان موجه إلى جميع الباشوات والحكام ، الذين تقع أقاليمهم على ضفتي نهر الفرات .

The Ambassador Extraordinary and Plenipotentiary of Great Britain at Constantinople, Lord Ponsonby, one of the most illustrious personages among the Christian nations, has presented to our Sublime Porte an officialnote, by which he intimates that the British Government requires permission to cause to navigate by turns, two steam boats on the river Eutphrates which flows at a small distance from the city of Bagdad, for the purpose of facilitating commerce.

We, in consequence, issued to our very illustrious governor of Bagdad and Bussora, Ali Reza Pasha, an order to furnish out Sublime Porte with information of the proposed navigation.

Although the answer of the Pasha had not arrived, the Ambassador made representations on this Point, informing our Sublime Porte the British Government awaited our reply.

For this reason, we have and do permit two steam boats to navigate the Euphrates by turns, and this navigation is to continue as long as, conformably to what has been repersented to us, it may prove useful to the two Powers, and no inconvenience result the refrom, and it is to this purpose that an official rule has been transmitted to the British Ambassador. ^(٢)

(1) Hurewitz. C., op. cit, Vol. I, pp. 109-110.

(2) Pichon Jean; Les Origines Orientales de la Guerre Mondiale. Paris. 1937, pp. 60-61.

استغلت بريطانيا سياسة الأمر الواقع *le fait accompli* في ممارسة نشاطها الملاحى البخارى في أنهار العراق ، إذ استغلت عدم اعتراض الباب العالي على تجاوز بريطانيا لنصوص فرمان سنة ١٨٣٤ ، كما استغلت سكوت على رضا باشا وإلى بغداد ، ومن جاء بعده من الولاة عن هذا الإخلال الخطير بالفرمان المذكور . وكان على رضا باشا وخلفاؤه من المؤيدين لمشروع الملاحة البخارية في أنهار العراق ؛ نظراً لما تدره هذه الملاحة من أرباح وفيرة لخزانة الحكومة ، وماتودى إليه من نشاط متزايد في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في أرجاء العراق . ولكن كان الباب العالي والولاة العثمانيون في بغداد يجهلون عواقب الاستجابة للمطالب البريطانية تارة ، أو السياسة السلبية الصامتة تجاه النشاط البريطانى المتزايد في مجالات الملاحة البخارية في أنهار العراق تارة أخرى . ونظرت بريطانيا إلى ملاحة البوآخر البريطانية في أنهار العراق ، دون إذن من السلطات العثمانية المختصة إلى أنها «سابقة» وإلى أنها «حق مكتسب» *droit acquis* لها . وزاد من اعتدادها بقوة مركزها أنها كانت من بين الدول الأوروبية قاطبة صاحبة النفوذ الأول في العراق ، وانفردت بالنفوذ في منطقة الخليج العربى وستلجح في أواخر القرن التاسع عشر في عقد سلسلة اتفاقيات مع مشايخ الخليج ، تكفل لها هذا الانفراد بالنفوذ وتكسيبها الصفة القانونية لهذا النفوذ الذى كان عبارة عن حماية مقنعة . ولكن الدبلوماسية البريطانية أثرت تجنب تسمية هذه الاتفاقيات صراحة باسم حماية ، بل وصفتها بالمعاهدات المانعة *Exclusive Treaties* ؛ أى التى تجعل العلاقات مقصورة على بريطانيا وتمنع الأمير من أن يسلم أو يبيع أو يرهن أو يعطى للتصرف قسماً من أراضيه إلا بإذن منها .

وسنعرض لهذا الموضوع في موطن قادم في هذه الدراسة .

اعتراض فرنسا :

وتنبهت فرنسا لخطر هذا الوضع القائم في العراق وأنه لا يستند إلى أى أساس قانونى ، فضغطت على حكومة لندن مطالبة بحرية الملاحة والمرور لجميع الدول في طريق سوريا - الفرات - البصرة - الخليج ، وطريق إسكندرية - القاهرة - السويس - البحر الأحمر (١) . وقد

(١) كان بالمستون يقصد معاهدة لندن التى وقعت في هذا اليوم . وهى معاهدة جماعية أطرافها خمس دول هى بريطانيا والنمسا والروسيا وبروسيا من جهة ، والدولة العثمانية من جهة ثانية ، وتمهدت الدول بمساعدة السلطان في إخضاع محمد على باشا ، على أن يحكم مصر وراثية ، وولاية عكا طول حياته إلى آخر الشروط التى تضمنتها المعاهدة . وكان بالمستون وراء عقد هذه المعاهدة لعزل فرنسا عن المجموعة النوبية الأوروبية . وكان ينظر شذراً إلى اتصال محمد على الوثيق بفرنسا ، ويعتقد أن كل امتداد لنفوذ محمد على يقضى إلى زيادة نفوذ فرنسا ودعم مصالحها في الشرق . ولذلك كان شديد الكراهية لمحمد على ، ويعتبره من عوامل دم الدولة العثمانية . وأعلن أن سلامة هذه الدولة تتطلب أن ينكش محمد على في ولايته في مصر . وقد قربت هذه المعاهدة بين بريطانيا والروسيا وباعدت بين فرنسا وبريطانيا . =

رد لورد بالمريستون وزير خارجية بريطانيا وقتذاك على جيزو Guizot السفير الفرنسي في لندن بمذكرة مؤرخة في ٢١ من فبراير - شباط - ١٨٤١، جاء فيها «إن أهم ماوجه إلى السياسة البريطانية منذ ١٥ من يوليو - تموز - ١٨٤٠^(١) من انتقادات أنها أرادت اغتنام المسألة المصرية لحصر طرق النقل في يدها . وبلغ من دهائه الدبلوماسي أنه لم يغلق باب السعي أمام الدول الأوروبية للحصول على حقوق الملاحة على طول طرق الملاحة العالمية ، ولكنه أكد في الوقت ذاته أن بريطانيا ستعمل دائماً على ضمان مصالحها في كل اتفاقية تتعلق بالممرات الفرنسية أمام صلاية موقف بريطانيا واستقرار نظام الحكم فيها وقوة أسطولها وخرجت بريطانيا منتصرة على طول الخط من الأزمة العثمانية المصرية (١٨٣٩-١٨٤١)، وحققت أهدافها في هذه الأزمة : أغلقت في وجه السفن الروسية المضائق : البوسفور ، وبحر مرمرة ، والدردنيل . وقضت على سيطرة مصر على المرحلة البرية من طريق سوريا - الفرات - البصرة - الخليج العربي . وإن كانت قد بقيت لمصر الهيمنة على طريق السويس - القاهرة - الإسكندرية . وبهنا هنا أن نذكر أن مشروعات الملاحة البخارية في أنهار العراق أصبح معظمها في يد بريطانيا . ولعل هذه النتيجة كانت من أهم النتائج التي حققتها بعثة شيزني الرسمية التي استغرقت زهاء ثلاث سنوات (١٨٣٥-١٨٣٧) . وكان في مقدمة إنجازاتها العلمية وضع عدة خرائط تفصيلية لنهر الفرات والاتصال بالقبائل والعشائر ، وتعرف أحوالها والوقوف على كثير من المعلومات عن العراق في ماضيه وحاضره ، ومدى صلاحية نهر الفرات للملاحة البخارية واتخاذ العراق معبراً للاتصال بين إنجلترا والهند . وقد وضع شيزني عن كل هذه الموضوعات مجلدين ضخمين تضمنتا كثيراً من الدراسات الهامة^(٢) . كما كتب طبيب البعثة أنزورث Ainsworth مجلدين عنها ، تضمناً قدر كبيراً من المعلومات القيمة في المجالات السياسية والاقتصادية وغيرها^(٣) .

وقرر شيزني أن يبذل أقصى جهوده لاستبقاء الباخرة «الفرات» في مياه العراق ولمد أجل البعثة ومهمتها . وسافر لهذا الغرض إلى مبابي ، ولكن باءت مهمته في الهند بالفشل ،

= إما الباب العالي ، فقد تشجع وأعلن في ١٥ من سبتمبر - أيلول - ١٨٤٠ أمراً بعزل محمد علي حتى يضعف نفوذه لدى القبائل الثائرة في الشام .

(١) انظر نص المعاهدة وملاحقها في :

Hurewitz. C., op. cit., vol. 1, pp. 116-119.

Pichon Jean; op. cit., pp 61-62.

(2) Chesney R.A., (Commander of the Expedition); The Expedition for the Survey of the Rivers Euphrates and Tigris Carried on by the order of the British Government, in the years 1835-1837. London, 1850.

(3) Ainsworth W.F.; A Personal Narrative of the Buphrates Expedition. London, 1888.

صافر إلى لندن لإقناع الدوائر المسؤولة بوجهة نظره . غير أن رأى هذه الدوائر كان متأرجحاً ، إذ أنها تأخذ في اعتبارها رأى حكومة الهند^(١) . وكانت هناك في ذلك الوقت مفاضلة بين طريق العراق وطريق مصر ولكل طريق أنصاره . تلقى أعضاء بعثة شيزنى تعليمات من لندن بالإبحار بالبصرة «الفرات» إلى بمباي . وبينما كانوا يستعدون لتنفيذ هذه التعليمات جاءتهم أوامر جديدة بالعدول عن السفر وإبقاء البصرة في العراق ، لأن مجلس المديرين في الهند اشترى البصرة من الحكومة البريطانية وقرر إبقائها وأعضاء البعثة في العراق . ومما هو جدير بالملاحظة أن فريقاً من ضباط الأسطول البريطاني في الهند قاموا في تلك الفترة بدراسات ميدانية لأنهار العراق . وكان من بينهم فيلكس جونز Felix Jones الذي قام بأعمال مهمة تناولت بغداد وضواحيها والمكانين الأثريين بابل ونيوى . ولما عين هذا الضابط مقيماً بريطانياً في بوشهر^(٢) خلفه ١٨٥٥ القائد سلبى Selpy في ميدان الدراسات الميدانية وتركزت في نهر دجلة ما بين بغداد وسامرا . وانتهت مهمته في سنة ١٨٦٢ . وكانت العقود الثلاثة من القرن التاسع عشر (١٨٣٠-١٨٦٠) من أخطر فترات تاريخ العراق في العصر الحديث^(٣) قامت بريطانيا - في استئانة السلطات العثمانية - بعمليات المسح والتخطيط وأنفقت الأموال والجهود وتحملت المخاطر ونجحت في جمع معلومات هامة وخطيرة في شتى المجالات عن وادى الرافدين . فإذا انتهت هذه الدراسات العملية عملت بريطانيا على جنى ثمار هذه السياسة بنقل دراساتها من مجال البحوث إلى المجال التطبيقي بتكوين شركات تجارية أول الأمر تعتمد على الملاحة البخارية في نهر دجلة بين بغداد والبصرة في ممارسة عملياتها التجارية ، ثم بإنشاء شركات متخصصة في الملاحة البخارية في نهر الفرات ولتجعله حلقة من حلقات الاتصال بين أوروبا والهند ؛ مما وعد النفوذ البريطاني في ربوع العراق .

بواخر تحمل العلم البريطاني وتعمل في نهر دجلة

اقترح على التجار البريطانيين في بغداد في حوالى سنة ١٨٤٠ - وبعد أن كانت رحلة شيزنى قد ملأت الأسماع - فكرة استخدام سفن بخارية في نهر دجلة ، بإعداد أسطول صغير من سفن الحكومة البريطانية . وتأسست في ذلك الوقت شركتان تجاريتان بريطانيتان في بغداد ، ويدان بمزاولة التجارة في بغداد والبصرة ومباشرة عمليات النقل النهري بين هاتين المدينتين

(١) كانت شركة الهند الشرقية تتولى حكم الهند وفي أول نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٨٥٨ وافق البرلمان البريطاني على قانون الحكم الأفضل للهند . وكان يقضى بأن تنتقل إدارة الهند من شركة الهند الشرقية إلى الحكومة البريطانية رأساً ، وأصبح الحاكم العام في الهند يلقب نائب الملك Vice-Roy .

(٢) بوشهر هي المدينة الرئيسية على الجانب الفارسي من الخليج العربي ، ويطلق عليها بالإنجليزية بوشير: Boehir .

(٣) مكتور زكى صالح ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٨-٤٩ .

بواسطة قوارب محلية كانت الشركات تمتلكان بعضاً منها . وعملت هذه القوارب تحت العلم البريطاني في نقل محاصيل ومنتجات العراق إلى البصرة لتصديرها إلى الخارج وكانت تعود إلى بغداد محملة بالبضائع البريطانية المستوردة ، كما كانت تستخدم أحياناً في جلب الملح والخطب والسلع الأخرى إلى بغداد من شواطئ أنهار المناطق المجاورة . ولكن ظل الطابع البارز لهاتين الشركتين هو الطابع التجارى . أما عمليات النقل النهري فكانت متممة لنشاطها التجارى .

أراد الإنجليز التوسع في عمليات الملاحة البخارية في أنهار العراق باستخدام بواخر تنبئ أو تشتري تبعاً . كانت أولها الباخرة «كربلاء» ، بناها تاجر في بمبائ طبقاً لتصميم معين بحيث يكون في مكنها السفر من بمبائ إلى الصرة رأساً ، ومنها تنساب في مياه نهر دجلة إلى بغداد دون تفريغ شيء من حمولتها . واعترض نجيب باشا وإلى بغداد على وجود هذه الباخرة واستخدامها في المياه النهرية العراقية . وطالب السلطات البريطانية بتحويل «كربلاء» إلى باخرة عثمانية ترفع العلم العثماني وتدفع الحكومة العثمانية ثمنها . وقد كان هذا الباشا يرى أن السلطات العثمانية يجب أن تتولى عمليات الملاحة البخارية في أنهار العراق^(١) . فلما رفضت السلطات البريطانية طلب نجيب باشا وقف منها نجيب باشا موقفاً حازماً وفورياً ، فتقدم إليها بعدة طلبات ، كان من بينها :

- (١) الحصول على فرمان من السلطان يقرر لها حق تشغيل الباخرة «كربلاء» في نهر دجلة .
- (٢) قيام البواخر والقوارب البريطانية بدفع «الطلبية» ، وهي ضريبة تجمعها السلطات العثمانية في العراق ، في مقابل تكاليف حماية البواخر والسفن الشراعية من عدوان العشائر العربية^(٢) .

(٣) ضرورة رفع العلم العثماني على البواخر البريطانية طالما كانت في مياه العراق . وقد أنكرت المؤسسات البريطانية في العراق على الحكومة حقها في تحصيل «الطلبية» لأنها

(١) كان نجيب باشا قد أرسل مذكرة - عن طريق تيلور Taylor المقيم البريطاني في بغداد - إلى الحكومة البريطانية يطلب إليها أن تزده بباخرة مجهزة بالنابين البريطانيين لتعمل تحت القيادة العثمانية لحين تزويدها بالبجارة والخبراء العثمانيين . وقد ربح تيلور بمشروع نجيب باشا ووعد بتدليل القباط التي قد تعترضه . وكان هذا التأييد سبباً في وقوع نفور شديد بين تيلور والتجار البريطانيين الذين اتهموه بأنه يفضل المصالح العثمانية على المصالح البريطانية . وبلغ اللد في الخصومة أن اتهم التجار البريطانيون بأنه يرمي إلى تحقيق مغام شخصية من وراء تأييده لمشروع نجيب باشا . وقد نقل تيلور في أعقاب هذا الاتهام الخطير إلى أرضروم .

(٢) فرضت ضريبة الطلبية في بغداد سنة ١٨٢١ وكانت تجبي من السفن بنسبة الحمولة وطول الرحلة ومن كل رحلة تقوم بها . ونظراً لحصيلة هذه الضريبة الوفيرة ، وضعت ضمن جدول ضرائب الدولة . ونظراً لأنها أنشئت في الأصل بطريقة غير قانونية ، فلم تكن تجبي من أصحاب القوارب البريطانية حتى سنة ١٨٤٥ .

أعلنت في القيام بواجبها نحو حماية البواخر في أنهار العراق من عدوان العرب ، مما اضطر أصحاب البواخر إلى دفع إتاوات لرؤساء القبائل العربية . وكانت هذه الإتاوات تصل إلى ١,٥٠٠ قرش عن كل رحلة من بغداد إلى البصرة . ولأن ضريبة «الطليبة» والإتاوات تتعارض مع معاهدة بلطة إيمان^(١) . ولكن أصدر نجيب باشا على موقفه بالآلا ترفع الباخرة «كربلاء» العلم البريطاني ، وأعلن عدم استطاعته منع العرب من مهاجمتها في حالة رفضها دفع الرسوم المعتادة لمشايع المنطقة من العرب ، كما أعلن أنه سيحول الموضوع إلى إستانبول .

قرار الصدر الأعظم سنة ١٨٤٦ :

انتقل موضوع ملاحه البواخر البريطانية في نهر دجلة رسمياً إلى إستانبول سنة ١٨٤٥ ودارت محادثات بين الباب العالي والسفارة البريطانية في العاصمة . وتناولت المحادثات المسائل الأربع التالية :

- (١) من حيث المبدأ : هل يجب استخدام البواخر البريطانية في نهر دجلة بين البصرة وبغداد؟ وهل يجب استخدامها بصورة دائمة ؟
- (٢) فيما إذا كان يجب ، فهل يحق لها رفع العلم البريطاني على البواخر أثناء قيامها برحلاتها؟
- (٣) هل تدفع هذه البواخر الإتاوات التي يطالب بها الشيوخ العرب القاطنون على ضفاف النهر والتي ستمر البواخر عليها ؟
- (٤) هل تدفع هذه البواخر ضريبة «الطليبة» ؟

نجحت مساعي السفير البريطاني لدى الباب العالي ، فأصدر الصدر الأعظم في أبريل - نيسان - عام ١٨٤٦ خطاباً موجهاً إلى وإلى بغداد . وعلى النحو التالي جاءت الفقرة الأخيرة منه ، والتي تضمنت حلاً للمسألة .

«ومن ثم فأني أكتب إلى سعادتكم لتقوموا بالعناية بكل البواخر البخارية الإنجليزية التي

(١) هي معاهدة تجارية عقدت بين الدولة العثمانية وبريطانيا في ١٦ من أغسطس - آب - عام ١٨٢٨ حددت فيها الرسوم الجمركية على الصادرات والواردات بين الدولتين . وقررت منع التجار البريطانيين حق الشراء المباشر من المنتجين في بلاد الدولة العثمانية إلى غير ذلك من مسائل ذات صبغة اقتصادية . وكان من أهم أهداف هذه المعاهدة تحطيم نظام الاحتكار الذي فرضه محمد علي في مصر ، وحرمانه من المكاسب الهائلة التي كان يجنيها ، وتجريده من أعظم أسباب قوته .
انظر تصوص هذه المعاهدة في :

- كما ذكر بوضوح - سوف تستخدم مستقبلاً نهري الفرات ودجلة لأغراض التجارة الداخلية ، وأن تطبق عليها الحقوق الممنوحة لمراكب الرعايا العثمانيين ، بحيث لا تفرض أية رسوم على البواخر الإنجليزية القادمة من الخارج أو المتجهة إلى البلاد الأجنبية ، خلاف رسوم الجمارك المقررة ، ورسوم الرسوم بواقع خمسة قروش . وهذا كل ما هو مطلوب من سعادتكم . وكان معنى هذا القرار هو تقرير حرية البواخر البريطانية في القيام بنشاطها الذي يتمثل في عمليات النقل البخاري في نهري الفرات ودجلة . وأن تعامل معاملة مراكب الرعايا العثمانيين ، ولا تفرض أية رسوم على البواخر الإنجليزية القادمة من خارج العراق أو المتجهة إلى بلاد أجنبية ، خلال الرسوم الجمركية المقررة ، ورسوم الرسوم بواقع خمسة قروش عن كل سفينة ^(١) .

لقد كان قرار سنة ١٨٤٦ ، وقد أطلق عليه اتفاقية ، كسباً كبيراً للسياسة البريطانية الهادفة إلى دعم الملاحة البريطانية في أنهار العراق ؛ مما كان يشكل تهديداً خطيراً لهذا الإقليم العربي من أقاليم الدولة العثمانية ويربطه إن عاجلاً وإن أجلاً بالهند ، وجعله حلقة هامة في المواصلات البريطانية بين إنجلترا الأم والمستعمرات والممتلكات البريطانية فيما وراء البحار إلى غير ذلك من الأسماء والتعبيرات التي استحدثت في عالم الاستعمار . والحق أن ذلك القرار كان خطوة على الطريق إلى قيام بريطانيا باحتلال العراق في مطلع القرن العشرين ، عقب اندلاع الحرب العالمية الأولى مباشرة .

إنشاء أول شركة للملاحة البخارية في العراق :

كان شيرزى - حين غادر العراق - قد ترك رئاسة البعثة وقيادة الباخرة «الفرات» إلى أحد مساعديه وهو لينش Lynch H. Bless ؛ بناء على أوامر صدرت من السلطان البريطانية

(١) شرح السفير البريطاني إحساسه بفهم خطاب الصدر الأعظم في ضوء المباحثات التي تمت قبيل صدوره بالمبارات التالية .

(أ) البواخر التي يملكها بريطانيون سوف تستمر في الملاحة في مياه العراق تحت العلم البريطاني ، سواء كانت تعمل في تجارة أجنبية أو محلية .

(ب) تدفع البواخر البريطانية ضرائب على البضائع التي تنقلها وفقاً للرسم المحددة في معاهدة بلطه ليغان .

(ج) في حالة استخدام البواخر أكثر من ميناء دخول عادي في العراق ، وهي تمارس عمليات النقل ، فإنها تدفع رسوم المرسى ، وهي رسوم مصدق عليها في معاهدات الامتيازات الأجنبية .

(د) ليست هناك تفرقة بين البواخر والسفن التجارية من حيث المعاملة .

(هـ) السفن التي بنيت في العراق ويملكها رعايا بريطانيون ولا تحمل العلم البريطاني ؛ لأن أصحابها لم يسجلوها لدى القنصية البريطانية في العراق ، فإنها لا تدفع رسوماً أعلى من الرسوم المقررة على أى سفينة عثمانية .

انظر :

لويمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ٤ ، ص ٢٠٤-٢٠٦ .

فى الهند فى أبريل - نيسان - ١٨٣٧ . وقد شرع هذا الضابط - بتوجيه من سلطات الهند أيضاً - فى دراسة ميدانية لنهر دجلة فمخر عبابه صعوداً وهبوطاً ، ومسح الجزء الواقع بين بغداد وأعلى النهر ، ثم انتقل إلى شط العرب يقوم بدراسات على منوال دراساته فى دجلة . وكان من بين مهامه إجراء محادثات ودية مع رؤساء القبائل ، التى تقطن عادة فى حوض نهري دجلة والفرات والعمل على إقامة علاقات طيبة معهم بشكل يخدم مصالح بريطانيا ويزيد من التسهيلات فى سرعة نقل البريد من البصرة إلى أساكن بلاد الشام ، على أن يضع الضابط لينش فى ذهنه الاتفاقات أو الترتيبات التى سبق التوصل إليها مع القبائل العربية أو السلطات العثمانية فى العراق ^(١) . وقد استغرقت دراساته واتصالاته الفترة من عام ١٨٣٧ حتى ١٨٣٩ ، وقام لينش بعد ذلك بإنشاء مؤسسة تجارية فى بغداد حوالى سنة ١٨٤٠ مع بعض أفراد عائلته وأصابوا نجاحاً كبيراً ، ولعل لينش أراد أن يبقى فى العراق ينتظر الفرصة المواتية ليسهم فى إنشاء خط ملاحى بخارى ، وهو مشروع كان يسيطر على تفكيره نظراً للفوائد السياسية والعسكرية والتجارية ، التى أدرك أنها تعود على بلاده من هذا المشروع ^(٢) . وفعلاً نجح فى سنة ١٨٦٠ مع أفراد أسرته ومع عدد من الرأسماليين فى لندن فى إنشاء شركة عرفت باسم «شركة السادة لينش للملاحة البخارية فى نهري الفرات ودجلة» Messrs. Lynch of the Euphrates and Tigris Steam Navigation Company وكانت أول شركة للملاحة البخارية تأسست فى العراق ^(٣) تخصصت فى مجالات النقل المائى البخارى . وقد اعترض نامق باشا والى بغداد على تأسيس الشركة بدون فرمان مسبق من السلطان وعلى تسيير بواخرها فى أنهار العراق .

خطاب الصدر الأعظم إلى والى بغداد عام ١٨٦١ لمساندة شركة لينش :

وإزاء تصاعد الأزمة بين نامق باشا والى بغداد وشركة لينش للملاحة البخارية فى نهري الفرات ودجلة ، رأى السفير البريطانى فى إستانبول ضرورة التدخل لدى الباب العالى لمساندة شركة لينش الوليدة . وقد نجح ضغطه إلى حد بعيد ، إذ أرسل الصدر الأعظم خطاباً مؤرخاً فى ١٥ من يناير - كانون ثان - عام ١٨٦١ إلى والى بغداد ، يؤكد فيه اتفاقية عام ١٨٤٦ ، ويحول لشركة لينش الحق فى استخدام بواخرها فى الفرات ودجلة ^(٤) . ويقول لوريمر

(١) لوريمر ج.ج. ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى : ج ٤ ص ١٩٧٨-١٩٧٩ .

(٢) كان لينش قد عاصر أحداث الأزمة العثمانية المصرية (١٨٣٩-١٨٤١) وعلم أن الحكومة البريطانية قد أرسلت فى مستهل الأزمة ثلاث بواخر إلى شط العرب ، خشية أن يقوم محمد على بالزحف على العراق من بلاد الشام التى كانت تحت سيطرته . ثم عادت الحكومة البريطانية .. فسحب هذه البواخر بعد انتهاء الأزمة وانتفاء الغرض الذى من أجله أرسلت .

(٣) كانت شركة لينش بالتعبير الاقتصادى «شركة مساهمة محدودة» .

تعليقاً على قرار عام ١٨٤٦ وخطاب الصدر الأعظم في سنة ١٨٦١، وإن اتساع وشمول الدور الذي قام به البريطانيون لفتح العراق للملاحة البريطانية، إلى جانب عمليات المسح والاستكشاف، ماجعل المسؤولين البريطانيين المحليين في ذلك الوقت ينظرون إلى العراق، كما لو كان تقريباً إقليماً تشمله الحماية البريطانية،^(١).

وتتفيداً لخطاب الصدر الأعظم لسنة ١٨٦١، أنزلت شركة لينش أولى بواخرها واسمها «مدينة لندن» City of London في سنة ١٨٦٢. وعندما أرادت الشركة إنزال باخرة أخرى اعترض نامق باشا مرة أخرى، وبنى اعتراضه على أساس أن فرمان عام ١٨٣٤ نص على السماح لباخرتين فقط بالملاحة في نهر الفرات. وقد رد الإنجليز على هذا الاعتراض بأن فرمان عام ١٨٣٤ خاص بالبواخر الحكومية فقط، بينما اتفاقية عام ١٨٤٦ وخطاب للصدر الأعظم في سنة ١٨٦١ يتعلقان بالبواخر غير الحكومية، وأن الباخرة «مدينة لندن» هي باخرة غير حكومية تابعة لشركة لينش. وأخذ الباب العالي بوجهة نظر الإنجليز أو لعله اضطر إلى الرضوخ لرغبتهم؛ تجنباً لمزيد من المتاعب تثيرها الحكومة البريطانية أمام الدولة العثمانية. وكانت أزمة قناة السويس قد تصاعدت في ذلك الوقت، وتلاحقت المناقشات في مجلس العموم البريطاني تندد بسكوت السلطات العثمانية عن توسع شركة قناة السويس في الاعتماد على تسخير الفلاحين المصريين في حفر القناة^(٢).

وإذا كان الباب العالي قد أخذ بوجهة نظر بريطانيا فأذن لبواخر شركة لينش في الملاحة.. إلا أنه اشترط أن يكون نشاط بواخر الشركة جنوبي بغداد دون الصعود إلى الموصل، ووافقت شركة لينش على هذا الشرط؛ إذ كانت تحقق أرباحاً وفيرة في مجال نشاطها بين بغداد والبصرة، ولأن السفن الشراعية التابعة للبريطانيين أو العراقيين كانت تكفي لمواجهة مطالب نقل البضائع بين بغداد والموصل. وما كادت شركة لينش تنشئ خط الملاحة البخارية بين البصرة وبغداد وبغداد والموصل، حتى أنشئت خدمة بريدية بخارية، كانت تمويلها حكومة الهند وتولواها شركة الهند البريطانية للملاحة البخارية ابتداء من سنة ١٨٦٢، وكانت بمباى والبصرة هما المحطتين النهائييتين لهذا الخط. وقد حدد عدد الرحلات في البداية بمئاثي رحلات في كل سنة، ولكن ابتداء من سنة ١٨٦٦ أصبحت هذه الرحلة تتم مرة كل أسبوعين. واستكمالاً لهذا الخط الملاحي البخاري، أنشئ خط بريدي بخاري سنة ١٨٦٣ من البصرة إلى بغداد وبالعكس بإعانة من حكومة الهند وتولته شركة لينش للملاحة البخارية في نهري الفرات ودجلة، وكانت الرحلات في هذا الخط الجديد تتم مركبة كل ستة أسابيع، ثم أصبحت مرة كل

(١) لوييمر ج.ج.، مرجع سبق ذكره القسم التاريخي، ج ١، ص ٣٥٧.

(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشناوي: السخرة في حفر قناة السويس. الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية، الطبعة الثالثة، ١٩٦٦، ص ١٨٣-٢٢٥.

أسبوعين . ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت ثلاث مرات في كل شهر ، كما أنشئت مكاتب للبريد ابتداء بمسقط في الخليج سنة ١٨٦٤ وانتهاء بالبصرة وبغداد سنة ١٨٦٨ (١) ، وقد ظلت شركة لينش تهيمن على الملاحة البخارية مابين بغداد والخليج العربي إلى مابعد الحرب العالمية الأولى (٢) .

وإذا كانت المذاكرات بين السلطات العثمانية والمؤسسات البريطانية قد أسفرت عن إنزال باخرة ثانية ، فقد أراد الإنجليز كعادتهم في أن يتوسعوا في الامتيازات التي حصلوا عليها . وثارت في الثمانينيات من القرن التاسع عشر أزمات أخرى ، وأرادت الحكومة العثمانية أن تقف في وجه المحاولات البريطانية . ولكن كانت استئانة السلطات العثمانية طوال الخمسين سنة السابقة لخطر احتكار بريطانيا للملاحة البخارية في أنهار العراق ؛ مما رسخ أقدام الإنجليز في العراق . ولم يكن الأسطول البريطاني يسمح للعثمانيين باتخاذ أى خطوة إيجابية ضد البواخر البريطانية ، وكانت أسانيد الإنجليز قوية تهافت أمامها مقاومة العثمانيين للاحتكار البريطاني . وكان من بين أسانيد الإنجليز أنه منذ سنة ١٨٢٠ ، كانت ترابط أمام دار المقيسية البريطانية في بغداد سفينة بريطانية مسلحة تحمل العلم البريطاني (٣) ، ولم تعترض السلطات العثمانية على وجودها في مياه دجلة ، وأن فرمان سنة ١٨٣٤ سمح لباخرتين هما الفرات ودجلة بالملاحة في نهر الفرات ، ثم أبحرت الباخرة الفرات في سنة ١٨٣٦ ثم ثلاث بوآخر أخرى بين سنتي ١٨٤٠ ، ١٨٤٢ في دجلة وكارون ، دون اعتراض من السلطات العثمانية ، وأن الحكومة البريطانية استبقت الباخرة نيتوكريس في نهر دجلة . ولم تعترض السلطات العثمانية على وجودها . وأخذت الأزمة شكلاً حاداً ، وأرسلت بريطانيا باخرة مسلحة ألقت

(١) لوريمر ج.ج. ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ١ ، ص ص ٣٧٦-٣٧٧ .

(٢) دكتور زكي صالح ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٨ .

(٣) كان اسمها «كوميث» ، وهي باخرة ذات عجلات تجديف من الصلب ، تحت تصرف المقيم السياسي في بغداد ، ومسلحة بمدفعين عيار ٤٥ بوصة مثبتين في القواعد ، وحمولتها ١٨٢ طناً ، وأقصى سرعتها تسع عقد في الساعة . وكان الطاقم العامل عليها يتكون من ضابط وأربعة وكلاء وثلاثة وثلاثين صف ضابط وجندى . وأنشئ لها مستودع الفحم تحت مبنى دار المقيم .

ويلاحظ أن هذه السفينة قد دشنت عام ١٨٨٤ لتحل محل الباخرة الأولى ، وكان اسمها كوميث أيضاً . وكان قد تقرر عام ١٨٦٨ ، أن تحل باخرة جديدة محل الباخرة القديمة . وتم الحصول على إذن بذلك من الباب العالي عام ١٨٦٩ وإن كان التنفيذ قد تأخر عدة سنوات لأسباب مختلفة . وتقرر في سنة ١٨٨٠ على وجه التحديد بناء باخرة جديدة في بمباي . وقبل إتمامها أصبحت الكوميث غير صالحة للعمل في سنة ١٨٨٢ ، ورعى استئجار باخرة اسمها «لندن» ليستخدمها المقيم البريطاني في بغداد ، ولكنها غرقت في شط العرب قبل أن تصل إلى بغداد ، وأخفقت الجهود التي بذلت للحصول على باخرة مناسبة لتحل مؤقتاً محل الكوميث . وعندما تم بناء الكوميث الجديدة وجد أنها من الكبر بحيث لا تستطيع الإبحار في نهر دجلة ، ولذلك طالت مدة التأخير سنتين عدداً .

لوريمر ج.ج. ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ١ ، ص ٦٢٨ ، ج ٤ ، ص ٢٢٢٢ .

مراسيها تجاه البصرة . وكانت الدوائر البريطانية تعتقد أن المملك الاستفرازي الذي انتهجه والى بغداد ضد المصالح البريطانية كان بإيعاز وتشجيع قنصل روسيا في بغداد (١) .

غرق دجلة، أخرى :

ولم يأل الإنجليز جهداً في سبيل تدليل الصعاب الطبيعية والأمنية والسياسية ، التي اعترضت نشاط بواخرهم في أنهار العراق وتمسكوا بحقهم كاملاً وأكثر من حقهم في ممارسة الملاحة البخارية فيها .. ففي سنة ١٨٧٦ غرقت السفينة «دجلة» المملوكة لشركة السادة لينش للملاحة البخارية في نهري الفرات والدجلة ، عندما اصطدمت بحطام مركب أهلى كان قد غرق واستقر في قاع نهر دجلة قبل سنتين ، وقد أخفقت جميع الجهود لتعويم الباخرة البريطانية ، على الرغم من حضور غواصين وإرسال أجهزة من إنجلترا لهذا الغرض . وسارعت الشركة البريطانية إلى التعاقد على بناء باخرة أخرى في لندن مصنوعة من الحديد ويمدخنتين ، وطولها ٢٢٥ قدماً وعرضها ٢٩ قدماً وحمولتها ٣٨٣ طناً . وبلغت تكاليفها ٢٢,٠٠٠ جنيه ، قبل أن يتم تجميع أجزائها في ورش شركة لينش في ماجيل (٢) ؛ حيث أنفق على تجميعها وتجهيزها عدة آلاف أخرى من الجنيهات .

حادث الباخرة «خليفة» :

وتعرضت الباخرة «خليفة» التابعة للشركة ذاتها ، وهي متجهة إلى أعلى نهر دجلة ، لهجوم قطاع الطرق العرب في صباح اليوم الثامن من شهر يوليو - تموز - عام ١٨٨٠ ، وكانت تحمل ثمانين راكباً والبريد وحمولة عادية من البضائع . وقد ظهر العرب فجأة من بين الأعشاب الطويلة التي على ضفة النهر ، وفتحوا لمدة أربعين دقيقة نيراناً سريعة على الباخرة وحاولوا الصعود إلى ظهرها ، ولكنهم لم ينجحوا . وقتل على ظهرها أحد المسافرين وموجه الدفة الذي كان من أهالي البلاد ، وأصيب قائد الباخرة بعيار نارى في إحدى رئتيه . وبعد اتصالات مع والى بغداد ، صدرت الأوامر بأن تزود الباخرة في رحلتها التالية من بغداد إلى البصرة بحراسة عثمانية مكونة من ثلاثين جندياً ، كما أمر قارب حربي عثماني بالتوجه معها إلى البصرة . وأعلنت شركة لينش أنها ستطالب بتعويض عن هذا الهجوم . ومارس المقيم

(١) المرجع السابق ، القسم التاريخي ، ج ١ ، ص ٤٥٦-٤٥٧ .

(٢) تقع على الضفة اليمنى لشط العرب على بعد أربعة أميال شمالى البصرة . وكانت تضم إلى جانب ورشة تجميع أجزاء السفن مستودعاً للغم الحجري ومستودعات للأسطول البريطانى . وبنقلت ملكية هذا الموقع بين عدد من الوكلاء البريطانيين السياسيين في البصرة وبغداد إلى أن انتهت ملكيته لشركة السادة لينش للملاحة البخارية في الفرات ودجلة .

انظر :

لوريمر ج.ج. ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ٤ ، ص ٢٠٦-٢٠٦٦ .

السياسي البريطاني في بغداد ضغطاً على وإلى بغداد . كما بأمر مثل هذا الضغط السفير البريطاني في إستانبول على الباب العالي ، الذي وعد بإرسال حملة تأديبية ضد القبيلة المعتدية ، وهي قبيلة آل بو محمد التابعة لنفوذ الشيخ سيحود (١) .

الاعتراض على حق البواخر البريطانية في قطر صنادل :

وفي سنتي ١٨٨٠ و ١٨٨١ أثير حق البواخر البريطانية في قطر الصنادل في نهر دجلة ، وكانت شركة لينش قد مارست في بداية سنة ١٨٨٠ عمليات قطر الصنادل بعد أن قدمت إخطاراً لمدة ستة شهور عما تعترض القيام به . ولكن حدث بعد انقضاء ثلاثة أشهر على استعمال أحد الصنادل ، وبعد أن قام صندل آخر تقطره باخرة بعد رحلات أن اعتراض وإلى بغداد على العملية ، وطالب بضرورة حصول الشركة على فرمان من السلطان يجيز لها الحق في قطر الصنادل ، واستند الوالي إلى أن التصريح أو الفرمان الصادر للشركة لم يرد فيه ذكر على الإطلاق لاستخدام الصنادل ، وردت الشركة بأن العمل سار في السنوات السابقة على أن تقطر البواخر البريطانية قوارب أهلية ، عندما تشتد حركة الشحن والنقل ولم تعترض السلطات العثمانية قط على هذا التصرف ، كما أنه لا يوجد خلاف في المبدأ بين جر القوارب الأهلية وقطر الصنادل ، وأن حق تسيير بواخر يقتضي حق استخدامها بأي طريقة يمكن استخدامها البواخر فيها ، وذلك يشمل قطر الصنادل (٢) .

ولكن بقيت المسألة دون حسم ، وكانت تثار من وقت لآخر ، واستخدمت شركة لينش صنادل ، ولكن بإذن خاص فقط . وانتهرت هذه الشركة فرصة إنشاء شركة الملاحة العثمانية سنة ١٨٩٤ فطالبت برفع جميع القيود المفروضة على استعمال الشركة للصنادل . ولكن كان من رأى السفير البريطاني في إستانبول أن الوقت غير مناسب للتقدم بهذا الطلب ، وعاودت الشركة سنة ١٨٩٩ تقديم طلب جديد للحصول على تصريح واضح لاستخدام الصنادل في فصل انخفاض المياه في مجرى النهر أو على الأفضل السماح لها باستخدام باخرة . واستطاع السفير البريطاني في إستانبول أن يستصدر في شهر يونيو - حزيران - ١٨٩٩ فرماناً من السلطان موجهاً إلى وإلى بغداد ، يسمح فيه للبواخر البريطانية بقطر الصنادل . ولكن عاد السلطان في أغسطس - آب - من السنة ذاتها يسحب الفرمان ، وكان من نتائج هذا التخطي في سياسة السلطان عبد الحميد الثاني أن تكسبت البضائع في ميناء البصرة بكميات كبيرة؛ نظراً لعدم مقدرة شركات الملاحة على نقل البضائع المرسلة إليها لنقلها إلى بغداد حال تسلمها .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٥٥-٢٢٥٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٥٧-٢٢٥٨ .

وقد وضع المسئولون البريطانيون منكرات إضافية عن الأصول القانونية والتاريخية لحقوق الملاحة البريطانية في بلاد الرافدين ، تعزيزاً لموقف الجانب البريطاني .

ولذلك التمسّت شركة لينش في سبتمبر - أيلول - عام ١٩٠٥ عن طريق المقيم البريطاني في بغداد - مساعدة الحكومة البريطانية في الحصول على ترخيص لتسيير باخرة ثالثة على نهر دجلة ، إلا أن السفير البريطاني في إستانبول اعتقد أنه ليس هناك أمل في الحصول على هذا الترخيص من الباب العالي في ذلك الوقت .

محاولة الحكومة العثمانية منع الملاحة البريطانية في نهر دجلة عام ١٨٨٣ :

أرادت شركة لينش في شهر مايو - آيار - عام ١٨٨٣ إضافة باخرة جديدة لأسطولها وأطلقت عليها «المجيدية»^(١) ، ولكن والي بغداد اعترض تأسيساً على أن الشركة قد خول لها الحق في امتلاك وتسيير باخرتين فقط ، وإذا قامت ضرورة لاستبدال باخرة بأخرى .. فإن هذا الاستبدال يجب أن يكون من الحجم والحمولة نفسها . كما استند والي إلى أنه ليس لشركة لينش حق الملاحة في نهر دجلة على الإطلاق ، وأن حقها مقصور على نهر الفرات فقط . وفي ٢٨ من يونيو - حزيران - ١٨٨٣ منعت الباخرة «المجيدية» من حمل شحنتها من بغداد ، ودارت اتصالات مكثفة بين والي والمقيم البريطاني في بغداد، صرح فيها والي بعزمه على منع البواخر البريطانية من دخول نهر دجلة ، وأعلن أنه ينفذ التعليمات الواردة إليه من إستانبول .

وفي ٥ من يوليو - تموز - عام ١٨٨٣ أرسلت قوات الهندية - الشرطة - إلى الباخرة «المجيدية» التي كانت تستعد لرحلتها إلى البصرة ، ومنعت هذه القوات المسافرين والشحنات من الوصول إلى الباخرة ، ونقلت البضائع إلى باخرة عثمانية . وعادت «المجيدية» من بغداد في ٦ من يوليو - تموز - متوجهة إلى البصرة ، ولم تكن تحمل سوى البريد البريطاني . ونظراً لخلوها التام وخفتها فإن إحارها كان محفوفاً بالأخطار ، وتطور النزاع وأخذ مظهر التحدي السافر . فقد وصلت بغداد في ١٤ من يوليو - تموز - الباخرة «خليفة» قادمة من البصرة ، ولم تكد تلقى مراسيها حتى وضعت على ظهرها حراسة عسكرية عثمانية، ولم تسمح لها بإنزال ركابها أو شحنتها إلى الأرض ، كما منع إنزال طرود البريد البريطاني .

وأرسل المقيم البريطاني ترجماناً إلى والي بغداد ليحتج لديه على هذا الأسلوب ، فكان مما قاله والي بغداد عن موضوع طرود البريد البريطاني أنه أمر بمنع نزولها إلى البر لكي يضطر الإنجليز إلى إرسالها إلى البصرة ثم إحضارها إلى بغداد مرة أخرى على ظهر باخرة عثمانية . وأمام إصرار والي بغداد عادت الباخرة «خليفة» في اليوم التالي إلى البصرة ، وبعد اتصالات بين لندن وإستانبول قام موزوروس باشا السفير العثماني في لندن بإبلاغ لورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية في ٤ من أغسطس - آب - عام ١٨٨٣ أن «الباب العالي قرر مؤقتاً إلغاء الإجراءات التي اتخذتها السلطات العثمانية في بغداد فيما يتعلق بملاحة بواخر

(١) نسبة إلى السلطان عبدالمجيد الأول (١٨٣٩-١٨٦١) .

السادة لينش في نهر دجلة ، ، إلا أنه أوضح أن هذا القرار مقيد بثلاثة شروط ، هي :

(١) يجب ألا يفسر هذا القرار بأية حال من الأحوال بأنه ارتياب أو تقليل من قيمة الحقوق ، التي يطالب بها الباب العالي بخصوص الملاحة في نهر دجلة .

(٢) إن مسألة هذه الحقوق ومدى طبيعة الامتيازات التي منحت للشركة يجب التدقيق فيها ومناقشتها بين الحكومتين .

(٣) يجب ألا تكون هناك قضية للمطالبة بالتعويض بسبب ماحدث .

ونفذت الحكومة العثمانية ماوعدت به ، فأوقفت في ذات اليوم إجراءات التصدي لبواخر شركة لينش ، وأذنت لها باستئناف رحلاتها في نهر دجلة ، وأنهت في ٢٠ من أغسطس - آب - عام ١٨٨٣ هذه الإجراءات وغدت الملاحة فيه حرة طليقة (١) .

النشاط العثماني المضاد :

أفادت الحكومة العثمانية على خطورة الملاحة البخارية البريطانية في العراق ، واهتمت بوضع مشروعات عثمانية تتنافس البواخر البريطانية وتحد من خطورتها ؛ فأودعت أحد رجال البحرية للعثمانية - وهو نجيب بك - إلى البصرة سنة ١٨٤٧ لدراسة الإمكانيات المتوفرة محلياً لإنشاء قوة بحرية عثمانية في جنوبى العراق وتأسيس ترسانة بحرية في البصرة لخدمة السفن ، التي أزمعت الحكومة العثمانية شراءها واستخدامها سواء للنقل النهري الداخلى في العراق أو للنقل الخارجى من العراق .. فقد تألفت في بغداد شركة ملاحه بخارية عثمانية تسهم الحكومة في رأس مالها بمقدار النصف ويكتب التجار والأعيان بالنصف الآخر . واستطاع رشيد الكوزلكى - والى بغداد - تغطية الاكتتاب المطلوب ، وعهد إلى شركة بلجيكية ببناء باخرتين أطلق عليها بغداد والبصرة . ووصلت هاتان الباخرتان إلى العراق في عام ١٨٦١ وخصصتا للعمل في نقل المسافرين والبضائع في نهري دجلة والفرات ، ثم صدرت الأوامر بأن يكون نشاط الباخرتين مقصوراً على نقل الركاب والبريد والذهب والأموال السائلة ووقف عمليات شحن البضائع عليها ، وكان هذا المنع راجعاً إلى ضعف آلاتها . وعلى عهد نامق باشا والى بغداد ازداد الاهتمام بأمر البواخر النهرية ، فأمر في سنة ١٨٦٧ ببناء ثلاث بواخر جديدة ، هي : الموصل ، والرصافة ، والفرات (٢) .

وسار على هذا النهج مدحت باشا والى بغداد (١٨٦٩-١٨٧٢) ؛ فقد أبدى مزيداً من الاهتمام باستخدام البواخر التي استوردها من قبل كل من سلفيه رشيد الكوزلكى ونامق . وعمل

(١) لويزم جـ جـ ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ٤ ، ص ٢٢٥٩-٢٢٦٤ .

(٢) دكتور عبدالعزيز نوار ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧١-٢٧٢ .

على أن يجعل من نهر الفرات طريقاً للمواصلات العالمية ، يربط بين ساحل بلاد الشام وبغداد والبصرة ، ويمثل طريق قناة السويس . ولتنفيذ هذا المشروع ، أنشأ طريقاً برياً يربط ساحل بلاد الشام بنهر الفرات ، وأقام على طول الطريق نقاطاً للحراسة لمنع العشائر من تهديد القوافل على هذا الطريق ، وفي الوقت ذاته أمر بإجلاء دراسات ميدانية لنهر الفرات ابتغاء تحديد العقبات التي تحول دون استخدام البواخر فيه استخداماً آمناً ، واستورد كراكات لإزالة هذه العقبات (١) .

ومن إسهامات مدحت باشا أيضاً في مجال خطوط الملاحة البخارية في أنهار العراق أنه ربط نهري دجلة والفرات بقناة في أقصر مسافة بينهما وهي تقع بين بغداد والفالوجة ، وبذلك أصبح خط البواخر في دجلة متصلاً باستمرار بخط البواخر في نهر الفرات ، واستخدمت في النهر مجموعة من البواخر ، كان من بينها :

(١) الباخرة بابل .

(٢) الباخرة نيلوى .

(٣) الباخرة نجد .

(٤) الباخرة آشور .

وكانت تعمل بين بغداد والبصرة وإستانبول ؛ لمواجهة نمو التجارة المتبادلة بين العراق وأوروبا والهند .

وبعد عزل مدحت باشا في ٢٣ من مايو - آيار - ١٨٧٢ ، عملت السلطات العثمانية على دعم الملاحة البخارية في أنهار العراق ، فبلغ عدد البواخر التي تعمل في نهر دجلة سنة ١٨٧٨ سبع باواخر ، وكانت تعمل تحت إدارة رئاسة الأسطول العثماني في البصرة (٢) .

مد خطوط للاتصالات البرقية عبر العراق لربط أوروبا بالهند :

لم يكن الاهتمام الدولي بين العثمانيين والإنجليز والفرنسيين بالعراق مقصوراً على إنشاء وتنظيم خطوط ملاحية بخارية فحسب ، بل امتد هذا الاهتمام إلى ميدان آخر هو إنشاء خطوط للمواصلات الحديدية والبرقية عبر العراق . وتضافرت عدة عوامل سياسية في وسط آسيا والشرق الأوسط على اهتمام الإنجليز بإنشاء الخطوط الحديدية ، ولعل أهمها حرب الترم (١٨٥٣-١٨٥٦) وثورة جنود السيبوي Sepoy في الهند سنة ١٨٥٧ ضد الحكم البريطاني .. فقد حملت هذه الثورة الإنجليز على مزيد من التقدير لطريق العراق في المواصلات البريطانية كقاعدة لمواجهة التمردات العسكرية في الهند . ورأى الإنجليز أيضاً أن مد خطوط حديدية في

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩١ .

(٢) لويبر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ٤ ، ص ٢٢٥٤ .

العراق يساعد على نقل مزيد من التجارة الشرقية ، عبر العراق في طريق سريع وسهل وآمن إلى أوروبا ، كما أن التنافس التجارى بين روسيا وبريطانيا دعا السلطات البريطانية إلى التفكير في وسيلة فعالة للتغلب على النجاح الذى كانت تلقاه السلع الروسية (١) . وفى سنة ١٨٥٦-١٨٥٧ وبموافقة الحكومة البريطانية وتأييد شركة الهند الشرقية ، تكونت شركة لإنشاء سكة حديد وادى الفرات ليربط البحر المتوسط بالخليج عبر العراق ، وكان من بين القائمين على هذا المشروع شيزنى قائد بعثة الفرات الرسمية (١٨٣٥-١٨٣٧) . وقد أخفق مشروع سكة حديد الفرات سنة ١٨٧٢ بعد ستة عشر عاماً من الجهود ، وتلاه مشروع بريطانى آخر لسكة حدى وادى دجلة ، وكان يقوم على ربط ديار بكر والموصل وبغداد والكويت بخط حديدى واحد . ولكن لحق المشروع الجديد بمصير سابقه (٢) .

واقترن التفكير فى إنشاء الخط الحديدى بمشروع مد خطوط للاتصالات البرقية عبر العراق بين أوروبا والهند . وكان الاقتراح أن تتولى المشروع الأخير شركة المواصلات الهندية الأوروبية ، وكان لابد من الحصول على موافقة حكومتى إستانبول ولندن معاً على المشروعين وعلى موافقة السلطان على ضمان رأس مال الشركة التى تقوم بتنفيذ المشروع . وعرضت فرنسا مشروعاً يعارض المشروع البريطانى ؛ إذ تقدمت جماعة فرنسية بعرض لتنفيذ المشروع ، دون أن تتمكن بالحصول على ضمان السلطان رأس مالها (٣) . ولكن الحكومة البريطانية كانت تعتقد أن مشروع الخط الحديدى سيكون قليل الفائدة بعد شق قناة السويس ، كما أن قيمته ستكون تافهة إذا تم مشروع خط الاتصالات البرقية على طول نهر الفرات .

وشجرت الحكومة العثمانية خلال الخمسينيات من القرن التاسع عشر بالفوائد التى تجنيها من إنشاء خط الاتصالات البرقية ليربط العراق وغيره من أنحاء الدولة بإستانبول . وقررت أن تمد خطاً للبرق من إستانبول عبر آسيا الصغرى إلى بغداد والبصرة ، على أن تقوم الحكومة البريطانية بمد هذا الخط من الخليج العربى إلى الهند . وزاد اهتمام الإنجليز بهذا المشروع على أثر إخفاق المحاولات التى بذلت فى سبيل مد وتشغيل الخط للبرق عن طريق البحر الأحمر إلى الهند ، وأسفرت المفاوضات بين الحكومتين العثمانية والبريطانية عام ٢٨٦٣ على مد خط برقى تقوم الحكومة العثمانية بتمويله مالياً والحكومة البريطانية فنياً . ونفذ المشروع . وأصبح العراق هو الرابطة ، بواسطة الخطوط البرقية ، بين الشرق والغرب (٤) .

(١) دكتور زكى صالح ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٩-٥٢ .

(٢) لوديمر ج.ج. ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج ١ ، ص ٢٥٦ ، ج ٤ ص ٢٢٧٣-٢٢٧٤ . وانظر أيضاً مذكرة ضافية من مشروع سكة حديد وادى الفرات فى الجزء الرابع من المرجع السابق ، ص ٢١٤٠-٢١٤٩ .

(3) Hoskins H.L., op. cit., PP. 334-335.

(٤) لوديمر ج.ج. ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج ٤ ص ٢١٥٤-٢١٥٩ .

الفصل الثالث

صور من حملات التشهير بالدولة (٣)

مناقشة عزلة العراق (تنمة)

السياحة الدينية في العراق :

العتبات المقدسة :

توجد في العراق «العتبات المقدسة» وهي المزارات الرئيسية للشيعة يفتدون إليها من أنحاء العالم الإسلامي يتبركون بها . وقبل أن نشير إلى أماكن هذه «العتبات المقدسة» نذكر أولاً أن أضرح الشيعية في العراق تنقسم بوجه عام إلى ثلاث مجموعات ، تتعلق المجموعة الأولى باغتيال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، والثانية بموقعة كربلاء التي استشهد فيها الإمام الحسين بن علي ، والثالثة تتعلق بالأئمة الذين خلفوا الحسين ، وعلى ذلك فالعتبات المقدسة تشمل :

أولاً : قبر علي ويوجد في النجف^(١) . ويعتبر ضريحه من أهم معالم مدينة النجف ويسمى الضريح المقدس ، أو وادي السلام ، أو وادي الإنقاذ ، وله طابقان . والمئذنة محلاة بالذهب حتى الأرض ، وتوصف القبة بأنها هضبة من الذهب ترتفع وسط الصحراء . ويلاحظ أن مدينة النجف نشأت واتسعت حول هذا الضريح وسط صحراء موحشة . وتعرف مدينة النجف باسم النجف الأشرف أو «مشهد علي» .

ثانياً : قبر الإمام الحسين بن علي في كربلاء ، وهي موقع استشهاد الحسين ، ولذلك سميت باسم «مشهد حسين» ، وهي تقع على بعد خمسة وخمسين ميلاً من جنوب الجنوب الغربي من مدينة بغداد ، وتقع على الضفة اليسرى لقناة الحسينية التي تحيط بها من جانبيها الشمالي والغربي ، وهي محاطة من الشمال والشرق والجنوب بمزارع النخيل والحدائق والفواكه ، وتوجد إلى الغرب منها يادية الشام التي تقترب جداً منها حتى تصل إلى أسوارها . وتعرف الكربلاء أيضاً باسم «الغضارية» ، وقديماً باسم «نبوى» . والأضرحة الرئيسية في كربلاء ، هي : ضريح الحسين وضريح العباس أخ الحسين من

(١) تذكر مصادر إسلامية أن علياً دفن في الكوفة ولم يدفن في النجف ، بينما تقرر مصادر أخرى العكس وتقول إنه لا يوجد في مسجد الكوفة الكبير سوى المكان الذي جرح فيه على جرحاً أودى بحياته ، على الرغم من أن جرحه لم يكن بالفا ، ولكن السيف كان مسموماً .

أبيه . ويوجد ضريح الحسين ، ويسمى «بركة حضرة حسين» في اتجاه الطرف الغربي لكربلاء ، وهو مؤلف من مبنى كبير يقال له الصحن ، وله سبعة مداخل . وتحيط بالصحن خمس وثلاثون غرفة كبيرة ، ويقع الحرم في وسط الصحن ، وهو عبارة عن مبنى مسقوف عليه قبة مرتفعة مذهبة ، وعند كل نهاية من نهايتها مدنية عالية جداً تواجه المدخل الرئيسي للصحن . وترتفع من زاوية الصحن مدنية أضخم من هاتين المذنتين ، ولكنها أقل رونقاً . ويوجد مقام الحسين وابنه علي أكبر في وسط البناء تحت القبة ، ويحيط بالزريحين غطاء من الحديد الصلب المشبك المطلي بالفضة ، وبداخله غطاء من الخشب ، وكلاهما سداسي الشكل . وتوجد في إحدى الزوايا قبور اثنين وسبعين شهيداً سقطوا في معركة كربلاء إلى جانب الحسين (١) . أما ضريح العباس فيقع إلى الشرق من ضريح الحسين على مقربة من وسط المدينة ، وهو يشبه ضريح الحسين إلا أنه أصغر مساحة وقبة من الآجر المنقوش ، ولكن مآذنه مطلية بالذهب .

وتوجد في كل من هذه الأضرحة خزائن للثروات لا تعرف قيمتها . وفي عام ١٨٠١ قام الوهابيون بنهب خزائن ضريح الحسين ، ولكنها مع ذلك بقيت أغنى من غيرها . وقد بقيت هذه الثروات تحت إشراف دائرة الأوقاف العثمانية ، كما قام نادر شاه بطلاء قباب الأضرحة بالذهب . وتضاء المصابيح في مآذن الأضرحة كل ليلة ، ولكن أشد المناظر مهابة وجلالاً هو انعكاس ضوء الشمس عند المغيب على المآذن الذهبية التي تتوهج بنور يهرر الأبصار (٢) .

ثالثاً : للكاظمية وتقع على الضفة اليمنى لنهر دجلة على بعد ثلاثة أميال إلى الشمال الغربي لمدينة بغداد ، وكانت تتصل ببغداد عن طريق الترام الذي تجره الخيول ، وقد أنشأه محدث باشا وإلى بغداد عام ١٨٧٠ ، وهي تعد ضاحية من الضواحي الهامة لبغداد . ويعتبر ضريحاً الإمام السابع والإمام التاسع من أئمة الشيعة من المعالم الرئيسية لمدينة الكاظمية ، وهما الإمام موسى ابن جعفر وحفيده الإمام محمد بن علي . ولكن المدينة حملت اسمها نسبة لاسم الإمام السابع موسى الكاظم . ويلاحظ أن الزوار الشيعة كانوا يتركون حيوانات ركوبهم في الكاظمية قبل ذهابهم إلى كربلاء ، ولا يسمح للمسيحيين بدخول قباء للمكان المقدس المحاط بأسوار مرتفعة . والمبنى في شكله عبارة عن مكعبين كل منهما محاط بقبة ، وحول كل مبنى أربع مآذن ترتفع من زوايا البناء . وقام نصر الدين ، شاه فارس ، سنة ١٨٨٤ بطلاء القبتين وزخرفة المذنتين بالذهب تشبهاً بما عمله نادر شاه في مدينة كربلاء ، وقد أوقفت أموال كبيرة لصالح هذا المبنى .

(١) لوديمر ج. ، مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافي ، ج ٣ ، ص ١٠٢٩-١٢١٢ .

(٢) المرجع السابق ، القسم نفسه والجزء نفسه ، ص ١٢١٢ .

وتدير أملاكه دائرة الأوقاف العثمانية وهي تقوم بدفع المرتبات والنفقات والمساعدات .
ويبلغ عدد سكان الكاظمية الدائمين ٨,٠٠٠ نسمة منهم حوالي ٧,٠٠٠ من الشيعة
وحوالي ألف من الفرس ، ٢٠٠ من الهنود الشيعة و ٥٠ من رعايا روسيا من سلالة
فارسية ، وجدير بالذكر أن اللغة الفارسية واسعة الانتشار في «العتبات المقدسة» حيث
يفهمها عامة الناس تقريباً .

إدارة أضرحة العتبات المقدسة :

كانت دائرة الأوقاف العثمانية تقوم بإدارة شئون الأضرحة ، وتعين الحراس والخدم
وتدفع مرتباتهم . وكان يوجد في كل ضريح من الأضرحة الرئيسية - مثل : ضريح علي في
النجف ، والحسين وعباس في كربلاء ، وضريح الكاظمين في الكاظمية ، وأضرحة الأئمة
الشيعة المدفونين في سامراء - حارس يسمى «كدار» أي حامل المفاتيح ، ورئيس للخدم يطلق
عليه «سرخدمة» وعدد آخر من الخدم . ويقال إن الحرس والخدم في سامراء كانوا من أهل
السنة ، ويعتبر «كدار» النجف من أغنى رجال العراق . ويبلغ عدد الخدم الذين تدفع لهم
مرتبات في كل ضريح من أضرحة النجف وكربلاء والكاظمية خمسة عشر ، كما يوجد أيضاً
٩٥ خادماً في كربلاء و ٢٥٠ في النجف و ٣٠ في سامراء . وعلى الرغم من أنه كانت لا تدفع
لهم مرتبات إلا أنه معترف بوجودهم رسمياً^(١) .

وكانت دائرة الأوقاف مسئولة عن الإيرادات المالية للأضرحة ، التي يأتي جزء منها
عن طريق الهبات الكبيرة على شكل أراض ومنازل وحوانيت ، وجزء منها عن طريق
التبرعات الخاصة ، وتتكون مالية الأضرحة أيضاً من الكنوز الموجودة بها والتي يتكون الجزء
الأعظم منها من المجوهرات . وتوجد هذه الكنوز في عهدة موظفين من الدائرة يقومون
بفحصها ومراجعتها على فترات ، ولا يعرف الأغراب شيئاً عن عددها أو قيمتها ، ويحتفظ
الحراس بسجلات للهبات تشرف عليها دائرة الأوقاف . وكانت الحكومة الفارسية تسهم في
عمليات التمويل المالي لعمليات الصيانة والإنارة في «العتبات المقدسة» ، فكانت تقدم منحة
قدرها ثلاثة آلاف تومان لحراس كربلاء لإنارة الأضرحة ، ومنحة أخرى قدرها ألفان من
التومان لحراس النجف لصيانة ضريح علي ، ومنحة ثلاثة قدرها ١٢٥٠ توماناً لحراس
الكاظمية .

تدفق الشيعة فارس على العتبات المقدسة :

وكان عدد الزوار الشيعة يتراوح في السنة بين عشرين ألفاً وخمسة وعشرين ألف زائر
بما فيها الرجال والنساء والأطفال . ومع ذلك فإن عدد الزوار لم يكن ثابتاً . كان يتزايد أ

(١) المرجع السابق ، القسم التاريخي ، ج ٦ ، ص ٣٢٧ .

يتناقص من عام لآخر . ففي بعض السنوات كانت تنفجر أعدادهم ففزات كبيرة . وعلى سبيل المثال بلغ عدد الزوار الشيعة الذين دخلوا العراق عام ١٨٨٩ من جميع الجهات ٢٣,٩٩٠ زائراً ، وفقاً للإحصائيات الرسمية العثمانية ، ثم قفز عددهم في العام التالي (١٨٩٠) إلى ٥٦٧,٠٥٧^(١) .

وكان شيعة الفرس هم أكثر الزوار عدداً ، يليهم الهنود الذين يصلون بحراً إلى البصرة ، بالمئات بل بالألوف مع من ينضم إليها من شيعة الأفغان والتبت ، فضلاً عن سكان بنجاب ولاهور وكشمير وغيرها . وقد خصص لإقامتهم في البصرة خانات ، وهم يتدققون عادة بين شهرى أكتوبر - تشرين أول ، ومارس - آذار - قبل حلول شهور الصيف الحارة . وكان الممثلون البريطانيون السياسيون في العراق يؤدون الخدمات التي يحتاج إليها الزائرون للهنود باعتبارها رعايا بريطانيين . وكان من بين الذين يأتون سلوياً إلى البصرة مع الهنود أعداد كبيرة منهم تنتمي إلى طائفة البهرة .

ويبلغ متوسط المدة التي يقضيها الزوار في العراق حوالي شهرين . ويتراوح ماينفقه أفقر هؤلاء في هذه الفترة مابين ستين ومائة روبية ، بينما يبسط الأغنياء أيديهم في الإنفاق للعناية بأنفسهم وخبولهم أو لشراء سلع عادية وأشياء مقدسة أو لتقديم هبات للأضرحة أو هدايا للموظفين والأدلاء وللخدم .

وليس هناك وقت محدد من السنة لزيارة العتبات المقدسة ، ولكن يختار الشيعة عادة الأوقات ذات الطقس البارد للقيام بها لتخفيف أعباء الرحلة عنهم . ويركب الزوار الأثرياء المسافرون عن طريق البر الخيول أو يحملون على هوداج ، بينما تحمل النساء والأطفال فيما يشبه السلال على ظهور الخيل . ويقوم بإرشاد كل جماعة من الزوار شايش أو مرشد ، يحمل علماً أحمر أو أخضر مكتوبة عليه آية قرآنية أو أسماء الأئمة ، ويسبقه حصان تتدلى منه أجراس ذات أنغام^(٢) .

ويقوم الزوار القادمون عن طريق البر من الحدود الفارسية بزيادة الكاظمية أولاً ، ثم يستأنفون رحلتهم بالعربات التي تجرها الخيول إلى كربلاء والنجف . ويسلك هذا الطريق أيضاً معظم الزوار القادمين من الخليج العربي ، فيأخذون سفناً من البصرة إلى بغداد . ويسافر بعض الزوار القادمين عن طريق البحر من البصرة ويصعدون في نهر الفرات ويصلون إلى الكوفة ويوزرون النجف قبل دخولهم كربلاء ، ويوزر جميع الزوار أو غالبيتهم العظمى كربلاء والنجف والكاظمية . ويذهب حوالي ربعهم إلى سامراء ، وهم أولئك الذين يبدأون رحلتهم

(١) المرجع السابق ، القسم التاريخي ، ج ٦ ، ص ٣٢٧٨ .

(٢) المرجع السابق ، القسم التاريخي ، ج ٦ ، ص ٣٢٧٧ .

بالعربات من الكاظمية ، ثم يسلكون طريقاً يسير غرب دجلة يوصلهم إلى مكان مقابل لسامراء^(١) ، حيث توجد بها مدافن لأحد عشر إماماً من أئمة الشيعة ؛ ولذلك تعد المدينة مزاراً للوافدين الشيعة ، وبها وكيل قنصل لحكومة فارس يرعى شئون الزائرين الفرس .

وعندما يصل الزائر إلى أحد الأضرحة الكبرى في «العتبات المقدسة» .. فإنه يظهر نفسه أولاً بوصوه معين ، ثم يدخل صحن الضريح بإرشاد أحد الموظفين . وعند عتبة الضريح يطلب الزائر من صاحب المقام السماح له بالدخول ، وعندما يدخل يردد بعض الصلوات ثم يدور حول القبر ثلاث مرات مقبلاً السور الذي حوله ، وفي النهاية يركع أمامه مرتين . أما الزائر الثرى الراغب في الحصول على ميزات أكثر ، فيعهد إلى عدد من المقرئين بتلاوة القرآن الكريم ثم سرد قصة استشهاد الحسين . ثم يقوم هذا الزائر بتوزيع الصدقات على الفقراء وتقديم العطايا من النقود والمجوهرات إلى الضريح . ويتزود الزوار -وبخاصة في كربلاء- بالمسابح وبأقراص من «النرية» أو التراب المقدس يضعونها تحت رءوسهم عند الركوع في الصلاة . وكذلك يتزودون بأكفنة مطبوع عليها آيات قرآنية لاستخدامهم أو لاستخدام أقاربهم أو أصدقائهم ، وتطلق كلمة «الزيارة» على عملية السفر إلى العتبات المقدسة وزيارة الأضرحة . ويحق للزائر بعد إتمامها أن يطلق على نفسه «كربلائي» .

شيعة فارس يصحبون معهم جثث أقاربهم لدفنها في العتبات المقدسة :

كان شيعة فارس بوجه خاص يصحبون معهم إلى العراق جثث ذويهم ، الذين أوصوا بأن يدفنوا في أرض مقدسة بإحدى العتبات المقدسة . وكانت هذه أمية كل شيعي اعتقاداً منه بأنه سوف يحظى يوم الحساب بحماية الإمام الذي جاوره في قبره ، ومن ثم يدخل الجنة . وكانت جثث الموتى الشيعة في فارس توضع داخل غرفة أو قبة من الطوب حتى يحين موعد سفر أو صيائهم أو ذويهم إلى العراق لزيارة «العتبات المقدسة» ، فيأخذون الجثث معهم لدفنها هناك . وكانوا يسافرون بطريق القوافل ويضعون الجثث في ثوابيت خشبية مغطاة بطبقة سمكة من الصوف . وعند وصول الجنة أو بقاياها إلى المكان المعد لدفنها فيه .. كانت تجرى عملية الغسل مرة أخرى استجلاً للبركة ، وكانت عملية الغسل بالغة للخطورة على الصحة العامة ؛ إذ كانت تتسبب في انتشار الأوبئة في العراق خاصة في منطقة النجف^(٢) . وكانت السلطات العثمانية في العراق تتقاضى شتى الرسوم تحت مختلف الأسماء ، سواء عند اجتياز الزوار

(١) تقع سامراء على الضفة اليمنى لنهر دجلة . وقد أسسها الخليفة العباسي المعتصم الذي اتخذها مركزاً للخلافة العباسية عام ٨٣٦م وظلت على هذا الوضع حتى عام ٨٩٢م . وكان الاسم الأصلي الآرامي للمدينة هو سامر ، الذي تغير رسمياً إلى اسم «سر من رأى» ولكنه يكتب الآن وينطق سامراء .

(٢) في المفاوضات التي دارت بين الجانب العثماني والجانب الفارسي في أثناء زيارة شاه فارس للعتبات المقدسة عام ١٨٧٠ ، أثار الجانب العثماني موضوع نقل رفات شيعة فارس إلى العراق لدفنها في=

الحدود العراقية أو على رفات الموتى أو دفنهم ، وكانت القنصلية العثمانية في كرمان شاه في فارس تمنح الزوار تأشيرة دخول العراق بعد دفع عشرين قرشاً من الذهب ، أي مايساوي ثلاثة شللات وسبعة بنسات عن كل زائر ، وكانت هذه القنصلية تصدر تصاريح بمرور جثث الفرس المطلوب دفنها في العراق ، بعد دفع تسعة شللات عن كل جثة . واكتشفت السلطات العثمانية أن بعض الزوار كانوا يضعون جثتين في تابوت واحد كوسيلة للتهرب من دفع رسوم على إحدى الجثتين ، ولذلك عمدت السلطات العثمانية إلى فتح للتوابيت ، للتأكد من أن كل تابوت لايجوز إلا رفاتاً واحداً . وكانت رسوم الدفن تتراوح بين أربعين جنيهاً إسرائيلياً وعشرين جنيهاً وأربعة جنيهاً وجنيهين ، وجنيه ، وبضعة شللات تبعاً للمكان الخاص بالدفن^(١) ، وكانت أعلى أسعار الدفن في منطقة النجف ثم كربلاء ثم الكاظمية ثم سامراء . وقد بلغ عدد جثث الشيعة الفرس التي دخلت العراق عام ١٨٨٩ ودفنت في «العتبات المقدسة» ٥٦٢٠ ، ثم قفز عددها في سنة ١٨٩٠ إلى ٩٧٥٤ جثة^(٢) .

«الهنود المتقاعدون» في العتبات المقدسة :

وكانت توجد في «العتبات المقدسة» أعداد وفيرة من الهنود الشيعة ، اطمأنوا إلى قضاء حياتهم فيها على مقربة من مقابر الإمامين على والحسين وغيرهما . وقد تركزت إقامتهم في النجف وكربلاء^(٣) وعرفوا باسم «الهنود المتقاعدون» ، وقد تراوح عددهم بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف هندي ، وكانوا يتمتعون بحماية بريطانيا لهم على أساس أنهم رعايا بريطانيون . وكان لبريطانيا ممثلون سياسيون في النجف وكربلاء والكاظمية ، وكانوا من المسلمين الهنود^(٤) ، يرعون مصالح المتقاعدين من الشيعة الهنود .

= «العتبات المقدسة» . وقد طالب الجانب العثماني بالآ يتم نقل رفات الموتى من فارس إلا بعد انقضاء ثلاث سنوات على الوفاة منعاً لانتشار الأوبئة في العراق ، وقد أجيب الجانب العثماني إلى طلبه .

(١) كان المكان المخصص للدفن في كل منطقة من مناطق «العتبات المقدسة» هو الرواق أو إيوان الذهب ، أو حجرة الصحن . والمقابر الرئيسية في العراق الخارجة عن أروقة الأجنحة ، والتي يتم فيها الدفن أيضاً هي كالتالي من حيث الأهمية : وادي السلام في النجف ، وادي الإيمان في كربلاء ، ومقابر القرشي في الكاظمية ، وقرية في سامراء .

(٢) المرجع السابق ، القسم التاريخي ، ج٦ ، ٣٢٨٢ .

(٣) أما الجالية الهندية في بغداد فكان أعضاؤها يختلفون عن هنود «العتبات المقدسة» . كان هنود بغداد بمثابة لاجئين كرهو الحياة تحت حكم الإنجليز المسيحيين في الهند وأستقروا في بغداد بصفتها أقرب ملاذ لهم في دار الإسلام . وكانوا من أهل السنة يتفقون مذهبياً مع أهل بغداد ، وقد سمحت لهم السلطات البريطانية في الهند بأن يحصلوا على إيرادات أراضيهم في الهند .

(٤) نذكر من هؤلاء الممثلين السياسيين : محمد تقى خان في كربلاء ، ومحمد حسن خان في الكاظمية .

وصية ملك أوض^(١) oude في الهند :

وكانوا يحصلون على أنصبتهم من وصية ملك أوض ، وكان قد توفي بها عام ١٨٤٩ كان قد عقد اتفاقية قبل وفاته مع حكومة الهند ، وقصر توزيع حصيلة الوصية على الشيعة الهنود ثم الفرس ثم العراقيين في العتبات المقدسة ، وخص العاكفين على الدراسات المذهبية الشيعية فيها بنصيب متميز . وكانت حصيلة الوصية تشكل مبلغاً ضخماً ؛ إذ بلغت أول الأمر حوالي ٧٣٣٤ روبية كل شهر أى ما يوازي ٧٥٠ جنيهاً إسترلينياً حسب سعر التبادل في ذلك الوقت ، وهى مبلغ كبير بالنسبة إلى قيمة النقد وقوته الشرائية وقتذاك . ثم ازدادت حصيلة هذه الوصية نتيجة ضمايم أخرى من عقارات ملك أوض الراحل ، وكانت ضخامة هذه الوصية تضى عليها أهمية سياسية كبيرة ؛ إذ نشأ تخوف من أن تؤدي هذه الأموال الضخمة إلى سخط الباب العالي والسلطات العثمانية في العراق ؛ لأن الدولة العثمانية كانت سنية المذهب ، وأن يؤدي هذا السخط بدوره إلى تصاعد التوتر بين الشيعة وأهل السنة ، كما أن الوكالة السياسية البريطانية - من حيث هى ممثلة حكومة الهند في العراق - هى التى يتم عن طريقها التوزيع ، فأصبح فى يدها سلاح خطير ، وانزعجت السلطات العثمانية لتصاعد النفوذ البريطانى فى العراق فى مجال جديد هو شيعة «العتبات المقدسة»^(٢) . ولذلك نهبت حكومة الهند على الوكيل السياسى البريطانى فى العراق ، تجنباً لإثارة المشكلات السياسية ، أن يوزع تلك الأموال بروح الحكمة والحصافة ... ويمرور الزمن ظهرت مشكلات وارتباطات خطيرة فى توزيع أموال الوصية ، أسهم فيها عدم وضوح النص الأصلي للوصية التى وقعها ملك أوض . وصدرت التنبيهات بأن ينال الشيعة الهنود فى كربلاء والنجف والكاظمية نصيبهم كاملاً فى وصية أوض ، واشتبكت هذه الإجراءات اشتباكاً مخلاً بأعمال بعض التجار الهنود فى العراق وإجراءات حماية مصالح الهند البريطانية فى «العتبات المقدسة» .

(١) تكتب هذه اللفظة فى بعض المراجع العربية «أوده» .

(٢) فى الواقع نجحت الحكومة البريطانية فى إقامة علاقات مع جماعة «الإخوان المجتهدين» فى كربلاء والنجف من خلال وصية أوض . وكان بعضهم يتدخل فى توزيعها ، وكان الإخوان المجتهدين وهم من غلاة الشيعة عنصراً قوياً من عناصر الحياة السياسية والدينية فى «العتبات المقدسة» ، وظلوا فترات طويلة يتمتعون بهذا الوضع . وكانت أقوالهم وأراؤهم تظفر بالتقدير العميق من الجماهير . وكانوا يضمرون العداوة والبغضاء للمسيحيين ، وفى الوقت ذاته يتدخلون فى الشؤون الداخلية لحكومة فارس . وكان السفير البريطانى فى فارس يرجو أن يتحالف «الإخوان المجتهدين» مع الحكومة البريطانية لصد النفوذ الروسى فى فارس ، ولكنهم رفضوا أن يتخلوا فى ملاقات ودية وثيقة مع ممثل الحكومة البريطانية . ومع ذلك نجحت السلطات الفارسية فى إيفار صدر الباب العالي على المجتهدين ، واعتبرتهم عنصراً مشاغباً خطيراً ينشئون علاقات ونية بنبوة أوربية ، وكان من جراء هذه الخطة أن نفذ العثمانيون خطة القمع للإخوان المجتهدين فى عام ١٩٠٤ .

انظر :

لوريمر ج.ج ، مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج ١ ، ص ٥٥٥ و ج ٤ ، ص ٢٢٨٣-٢٢٨٥ .

ولما أصبح صرف تلك الأموال ، على الرغم من التحفظات الموضوعة لصالح الهنود ، بأيدى مجتهدى كريلاء والنجف أسىء صرفها أو بددت . وفى سنة ١٨٦٦ أثار «نواب إقبال الدولة» ، وهو نبيل هندي من المشتغلين بالحياة العامة ومن عائلة أوض ويقع فى بغداد ، مشكلة إصلاح هذا الاضطراب والعبث فى توزيع أموال الوصية . وفى سنة ١٨٦٧ أوصى الوكيل السياسى . بعد التشاور مع «نواب إقبال الدولة» بأن تصرف مستقبلاً حصيلة الوصية على مجتهدى الهنود فقط ، ويتم توزيعها عن طريق لجنة من وجهاء الهنود فى المنطقة بإشراف الوكيل السياسى ، ولكن رفضت حكومة الهند هذا الاقتراح استناداً إلى نص الاتفاقية كما فهمته وفسرته آنذاك .

وعرضت السلطات البريطانية حلاً لهذه المشكلة أن يسافر اثنان من علماء النجف إلى بمباى على فترات زمنية متقاربة لتسلم أموال الوصية والقيام بتوزيعها على مستحقها ، ولكن ظلت مشكلة وقف ملك أوض دون حسم ، وكثر تردد الشيعة بين العراق والهند فى محاولات مكثفة لإيجاد حل يرضى عنه جميع الأطراف . ومات «نواب إقبال الدولة» فى الحادى والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٨٧ ، والموضوع تتجاذبه تيارات متعارضة . وقد استغرق هذا الموضوع مكاتبات عديدة ضافية بين حكومة الهند والمقيم البريطانى فى العراق والممثلين السياسيين لبريطانيا فى «العتبات المقدسة» والسفير البريطانى فى إستانبول وحكومتي الدولة العثمانية وبريطانيا وزعماء الشيعة فى «العتبات المقدسة» . وكان واضحاً حرص الحكومة البريطانية - على مختلف المستويات - على حماية مصالح الشيعة الهنود فى «العتبات المقدسة» وكفالة الأمن والاستقرار لهم والطمانينة على حصولهم على أنصبتهم كاملة من وصية ملك أوض^(١) .

زيارات الهنود السنين للعراق :

وكان العراق يستقبل أيضاً زواراً من أهل السنة يأتون من الهند بوجه خاص لزيارة قبرى الإمام أبى حنيفة وعبدالقادر الجيلانى فى بغداد^(٢) ، وكانت أعدادهم أقل من أعداد

(١) لوديمر ج.ج. مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخى ، ج ١ ، ص ٤٢١-٤٢٢ ، ٤٤٦ ، ٤٥٧ ، ٤٧٣ ، ٤٨٧ ، ٥١٠ ، ٥٥٥ ، ج ٤ ، ص ٢٠٧٥-٢٠٨٢ ، ٢١٨٧ ، ٢٢٤٤-٢٢٥١ ، ٢٢٥٣ ، ٢٢٨٠ .

(2) Gibb Hamilton and Harold Bowen, op. cit., Vol. I, Part I, p. 75.

ويعتبر جامع الشيخ عبدالقادر وضريحه اللذان وصفا على سبيل التكريم باثهما «جناب غوث الاعظم والمستجير» ليس فقط من معالم بغداد الرئيسية ، بل هما أيضاً مركز دينى هام يزوره المسلمون السنين من أنحاء العالم ؛ وخاصة الأفغان والهنود ، والفقراء والنزلاء الذين لا يستطيعون تكاليف الإقامة ويعتمدون فى المعيشة على البقاء بالقرب من الضريح . وكان حوالى أربعة آلاف رغيف توزع يومياً من مطبخ «بيره المستجير» ، وكان دخل الضريح من الهبات والأوقاف الدينية يبلغ زهاء ١٢,٠٠٠ ليرة تركية فى العام . انظر : المرجع السابق ، القسم التاريخى ، ج ٦ ، ص ٣٢٩٣ .

الزائرين الشيعة ، ولكنهم كانوا يفدون بصورة مستمرة طوال العام .

وكانت هذه المباحة الدينية - بنوعها الشيعية والسنية - من العوامل التي أسهمت مع غيرها في انفتاح العراق على العالم الإسلامي الخارجي ؛ فلم يتعرض لعزلة خارجية فضلاً عن انتعاش الحياة الاقتصادية بما كان ينفقه الزوار من أموال ، وبما كانوا يجلبونه معهم من بضائع مثل السجاد الفارسي وقد ازدهرت تجارته في العراق ، كما كانوا يقومون بشراء مقادير كبيرة من الشاي والسكر والملابس الصوفية ؛ لأن أعداداً كبيرة منهم كانت تأتي من أقطار باردة الطقس ، وأنشئت بالمناطق المجاورة للعتبات المقدسة مجموعات كبيرة من الخانات والمحلات التجارية .. كل ذلك بالإضافة إلى الضرائب ، التي كانت تفرضها السلطات العراقية على الزوار وعلى رفات الموتى .

إن الدولة العثمانية - وهي الدولة السنية والمدافعة عن المذهب السني في العالم الإسلامي - قد بسرت السبل أمام شيعة فارس والهند وأفغانستان وغيرهم لزيارة العتبات المقدسة ، في العراق ، وكانت في تصرفاتها مثلاً يحتذى في الترفع عن سياسة التعصب الديني المذهبي . وقد يرى البعض أن الدافع لها على انتهاج سياسة التسامح هو رغبتها في الحصول على الإيرادات ، التي تأتي عن طريق زيارة الشيعة للمزارات المقدسة . ولكن لم تكن تشكل هذه الإيرادات دخلاً كبيراً للحكومة .. فقد قدر دخلها في عام ١٨٨٩ بمبلغ ٨٠٧ من الجنيهات الإنجليزية ، وبلغ هذا الدخل في السنة التالية (١٨٩٠) ٩٢٣٤ جنيهاً إنجليزياً . وكان في مقدور السلطات العثمانية في العراق الاستعاضة عن مثل هذه المبالغ بتدبير موارد مالية أخرى لخزانة الحكومة .

ثالثاً : التنوع البشري والديني في العراق :

كان العراق يموج بتنوع بشري وديني ، وإن كان أقل عنفاً من مثيله في بر الشام .. ففيه العصبية الكردية ، والعشائر العربية ، وأهل السنة وأهل الشيعة ، والعداء المذهبي مستحكم بين أفراد هاتين الطائفتين .. والأكراد منقسمون : منهم من يعتنق المذهب السني ، ومنهم من ينتمي إلى المذهب الشيعي . وإلى جانب هؤلاء وأولئك كان يوجد أتراك عثمانيون ، ومسيحيون منتشرون في طول البلاد وعرضها ، وكذلك يهود ، ولم يكن المسيحيون في العراق على مذهب ديني واحد ، ففيهم الكاثوليك ، وفيهم البروتستانت . وكانت الموصل من أهم معاقل المسيحية في العراق ، وكان للمسيحيين فيها ثلاث عشرة كنيسة .

وكان من أهم الطوائف المسيحية في العراق النساطرة واليعاقبة والأرمن . كان معظم المسيحيين في العراق من النساطرة ، واتخذ بطريرك النساطرة الذين اعتنقوا المذهب الكاثوليكي من بغداد مقراً له .. وكان يتسلم براءة تعيينه في منصبه من باب روما مباشرة . أما لليعاقبة ،

فقد تحولت جماعات منهم إلى الكاثوليكية وعرفوا باسم السوربان وظل الباقون على مذهبهم . وكانت الموصل مقراً لكرسيهم البطريركي ، وكانت تقيم في بغداد ستون أسرة من الكاثوليك المنتمين لكنيسة روما ، وكان أفرادها يترددون على البصرة لممارسة عمليات تجارية واسعة فيها ، وأنشأوا بها مستشفى الآباء الكرمليين والحقوه بالكنيسة الكاثوليكية . أما بطريركية الأرمن الكاثوليك فمقرها لبنان ، وكان يوجد أيضاً في بغداد مسيحيون كلدان وكانوا أصلاً من أتباع المذهب النسطوري ثم خرجوا عليه . وكانت لغتهم اللغة الكلدانية ، وكانوا يمارسون طقوسهم الدينية بها ، وانتشر الأرمن في شمالي العراق ووسطه وجنوبه على السواء في كركوك ، وأربيل ، والموصل ، وماردين ، وبغداد والبصرة ، وكانوا يفتلمون العربية والتركية والفارسية . وكان بعضهم يتحدث بالإنجليزية والبرتغالية والهندية ؛ مما أكسبهم ميزات هامة أفادتهم في نشاطهم التجاري ، كما اشتغلوا أحياناً للمقيم البريطاني في بغداد وهو لكدديوس جيمس ريتش Claudius James Rich (١٨٠٨-١٨٢١) ، وقد عين منهم موظفين له ، واتخذ هذا المقيم الإنجليزي من الأسقف الأرمني في ماردين وكيلاً له في هذه البلدة . وكان يوجد أيضاً في العراق اللاتين الكاثوليك .

نشاط البعثات التنصيرية في العراق :

وفي ظل الامتيازات الأجنبية ، وفدت إلى العراق جماعات من المنتصرين وازداد نشاطها بوجه خاص في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ووجد عداً دينياً مذهبي مستحکم بين المنتصرين الكاثوليك وأقرانهم البروتستانت .. كانت توجد بعثات تنصيرية من الكاثوليك الفرنسيين في بغداد والبصرة ومن الدومينيكيين الإيطاليين في الموصل والكوبشيين في الموصل أيضاً ، وعملت هذه الجماعات على تحويل أكبر عدد ممكن من مسيحيي العراق إلى المذهب الكاثوليكي ، وأحرزت انتصارات مذهبية كبيرة ؛ خاصة على عهد حكومة المعاليك (١٧٤٩-١٨٣١) ؛ إذ دخلت في الكاثوليكية أعداد لا يستهان بها من النساطرة واليعاقبة والأرمن . وبرز في هذا الميدان تريوش Trioch المنصر الفرنسي ، وكان من الخبراء الفرنسيين في شئون العراق ، وتولى منصب قنصل فرنسا في العراق ، وعين رئيس أساقفة وعن بالبعثة الكرملية في البصرة ، وكان أول رئيس أساقفة في العراق ، واهتم بالسيطرة على الكلدان ، فقد كان من المعتاد أن ينتخب المطران الكلداني من بين القسيسين الكلدان في العراق ، وأراد تريوش أن يجعل تولية المطران بمعرفة بابا روما ، وبذلك يسيطر عليهم النفوذ البابوي ويقوم سداً منيعاً دون تسرب البروتستانتية إليهم ^(١) ، وخيل للمراقبين في ذلك الوقت أن الكاثوليك بحماية فرنسا سيبتلعون مسيحيي العراق .

(١) انظر تفاصيل الخطوات التي اتخذها تريوش لتحقيق غرضه في :

دكتور عبدالعزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٣-٢٠٤ .

والحق أن وكلاء فرنسا السياسيين في بغداد ، والبصرة ، والموصل اهتموا بنشر المذهب الكاثوليكي في العراق اهتماماً فاق اهتمامهم بخدمة المصالح السياسية لفرنسا في هذا الإقليم ، بل كانوا يعتقدون أن المصالح التنصيرية والسياسية مرتبط بعضها ببعض بعروة وثقى ، لانقسام لها . وتنبهت الحكومة البريطانية لخطورة النشاط الفرنسي في التنصير الكاثوليكي . وكان المنصرون الإنجليز - إلى جانب القناصل والسلطات البريطانية بصفة عامة في العراق - لحكومتهم وسائل تغاды هذا الخطر المحتمل ، فاقترحوا أن توثق بريطانيا علاقات الصداقة والثقة مع مسيحيي العراق . وكان المنصرون الإنجليز ومعهم القناصل يعتقدون أن كل موظف فرنسي علماني هو في ذات الوقت منصر كاثوليكي ، وأن جميع البعثات التنصيرية الكاثوليكية تتمتع بالحماية الفرنسية ، وأنه عندما تنهار الدولة العثمانية ستجد فرنسا في مسيحيي العراق الكاثوليك ركيزة سياسية ودينية ، تساعد على بسط سيطرتها على أكبر رقة من ممتلكات الدولة العثمانية . وقد برز في ميدان التنصير الهروتستانتي جروفر Groves A.N. وهو أول منصر هروتستانتي إنجليزي ، وقد وصل إلى العراق عام ١٨٢٩ ، ووجد من السلطات العثمانية الحاكمة في العراق تسامحاً دينياً ؛ إذ سمحت له بفتح مدرسة لتعليم الإنجليزية والعربية ، وكان يقوم هو بالتدريس فيها ، واتخذ من التعليم وسيلة للدعوة الهروتستانتيية ، كما سمحت له ببيع الإنجيل ، وعقد اجتماعات دينية في حرية تامة .

وعلى الرغم من هذا التسامح فقد احتضنته المقيمة البريطانية في بغداد مع أقرانه ، وتعدى نشاطهم حدود بغداد إلى الموصل ، وماردين ، وبو شهر . وإزاء هذا النشاط اعتقد الفرنسيون أن الإنجليز لا يسعون إلى احتلال العراق فقط بل ، يتطلعون إلى تحويل سكانه إلى المسيحية . وكان ريتش نفسه يعتقد أن الدين الإسلامي هو العقبة في إصلاح أمور العراق ، وذهب جروفر في تفاوله إلى حد الاعتقاد بأنه من الممكن تحويل عدد كبير من مسلمي الموصل إلى المسيحية . ووصل إلى العراق المنصر الأمريكي الهروتستانتي جرانت في صف ١٨٣٩ ، وفي برنامجه تحويل نساطرة العراق إلى الهروتستانتيية . ويلاحظ أن النساطرة كانوا لا يكونون ولاء للدولة العثمانية ، بل كانوا يتطلعون إلى اليوم الذي تستولي فيه الدولة الأوروبية على ممتلكات الدولة . وكان المنصرون يغذون في النساطرة الاتجاهات الانفصالية عنها بمقولة إنهم يشكلون كياناً مسيحياً قائماً بذاته ، يجب أن يكون بمنأى عن نفوذ السلطان العثماني المسلم ، ولاتربطهم به أي رابطة من روابط التبعية . وكانت البعثات التنصيرية الأمريكية تقدم خدمات طبية إلى السكان بجانب العملية التنصيرية ، وفتحت بعض المدارس ، وأحضرت مطبعة طبعت كتباً تعليمية باللغة العربية .

ووجدت مؤسسات دينية مسيحية تعليمية يديرها المنصرون . وكانت رسائلها في الظاهر تعليم اللغة العربية وإحدى اللغتين الفرنسية أو الإنجليزية وقلة من المواد الثقافية ، ولكنها كانت

فى لاحتها وسداها مراكز للتصير ، وكانت لمؤسسات الفرنسية فى البصرة كاثوليكية ، و بها قسم لتعليم البنات اللغة العربية وأشغال الإبرة ، وكان فى هذه المدينة أيضاً دار للمكرملين ، وكانت هذه المؤسسات ذات نفوذ . وكان النفوذ الفرنسى الدينى ظاهراً ملموساً ، بل إن هذا النفوذ الدينى هو الذى تبقى للفرنسيين فى العراق . وعمل الإنجليز على مواجهة النشاط الفرنسى بنشاط على شاكلته . واتفقت المقيمة البريطانية فى بغداد مع جروفر المنصر الإنجليزى على استيراد كتب مطبوعة لتعليم اللغة العربية من مالطة . ولقيت هذه الكتب مقاومة من الكاثوليك . وأرادت إنجلترا أن تتخلص من مشكلة تصدير الكتب العربية إلى العراق ونجح جروفر فى إحضار آلة طباعة ، وقد وصلت هذه المطبعة إلى البصرة عام ١٨٣٠ ، ولكن الحرب التى نشبت بين داود باشا والى بغداد وعلى رضا باشا والى حلب الذى تولى مهمة طرد المماليك من العراق لم تسمح بإرسال المطبعة إلى بغداد .

وكان فى العراق الصابئون ، وهم بين النصارى والمجوس ، ويعبدون الكواكب والنجوم^(١) . وقد ورد ذكرهم فى القرآن الكريم فى موطئين : سورة البقرة ، «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون»^(٢) وسورة الحج «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شىء شهيد»^(٣) . ويثير بعض الباحثين ظلالاً من الشك حول الصابئين الموجودين فى العراق إبان الحكم العثمانى ، وهل هم الذين ورد ذكر أجدادهم فى القرآن الكريم . وكان مقرهم فى العصر العثمانى «سوق الشيخ» على نهر الفرات ، والناصرية ، والعمارة ، وقلعة صالح ، وشطرة المنتفك وغيرها ، ويقوم رئيسهم الدينى الذى يطلق عليه «القارىء» عادة فى سوق الشيخ ، ولغتهم العربية ضعيفة ، ويربى الرجال لحاهم حتى تطول ، ولهم مقدرة خاصة على العمل فى الذهب والفضة ، ويعمل معظمهم فى هذه المهنة وفى بناء القوارب وأعمال الدجاجة ، ونادراً من يعمل منهم فى الزراعة ، والتعميد هو أحد طقوسهم الرئيسية ويدخل الماء فى جميع شعائهم الهامة . ويحترمون يحيى أو يوحنا المعمدان كنبنى ويعتقدون أنه تجسد ، ويعتبرون أن موسى والمسيح عليها السلام كان معلمين زائفين ، ويعتقدون أن الجنة تقع فى النجم الشمالى . ولهم كتب

(١) محمد فريد وجدى : المصحف المفسر ، الطبعة السادسة ، مطبعة محمد على صبيح وأولاده بالأزهر بعصر ، ١٣٧٢هـ ١٩٥٣م ، ص ١٢ ، ص ٤٤١ .

سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، ج ١ ، دت . ص ٤٢ ، حاشية رقم ١ .
(٢) سورة البقرة ، آية رقم ٦٢ .

(٣) سورة الحج ، آية رقم ١٨ ومعناها : «والذين آمنوا واليهود والصابئون والنصارى والمجوس والمشركون سيعرضون على الله يوم القيامة فيحاسبهم على ما اعتقدوا وما عملوا فيفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون . إن الله على كل شىء شهيد .

مقدسة خاصة بهم وكتاب آخر للطقوس الدينية ، وليس من عاداتهم الختان ، وفي استطاعة الزوج أن يزوج إذا أثبت أن زوجته الأولى عاقر^(١) .

وكان الصابيون مجالاً للتنافس على النفوذ في العراق بين إنجلترا وفرنسا .. حاولت كلتاها أن تبسط حمايتها عليهم . وفي منتصف القرن التاسع عشر كان شيخ الصابليين ، واسمه يحيى ، من أنصار إنجلترا .. رحل من العراق إلى الهند ، ثم عاد منها ليوطد صلاته برجال الدين والمفسرين الأنجليكان والكاثوليك ؛ مما أدى إلى حدوث تصدع بين الصابيون إذ انتقدوا مملكته . وكان على رأسهم الشيخ داموق الذي لجأ إلى الحكام العثمانيين ، وكانوا يعملون في ذلك الوقت على كبح جماح النفوذ البريطاني المتزايد بين الطوائف ، ورد عليهم الشيخ يحيى بأن خفض رسوم العميد والزواج وغيرها من الرسوم الدينية ليكتسب شعبية بين أفراد طائفته . ولم تترك أثراً محسوساً للمجهودات التي بذلها قسيسو الموصل والربان البروتستانت خلال القرن التاسع عشر في أوساط الصابليين ؛ إذ ظلوا متمسكين بمذهبهم إلى الوقت الحاضر^(٢) .

أما اليهود فقد انتشروا في شتى مدن العراق ، وقد بلغ عددهم في بغداد في مطلع القرن التاسع عشر حوالي ٢,٥٠٠ أسرة يهودية تضم زهاء ثمانية آلاف نسمة ، وعددهم في السليمانية ١,٨٠٠ نسمة ، وفي ماردين حوالي ٨٠٠ ، وكانوا في كل مدينة يعيشون في أحياء خاصة بهم شأنهم في ذلك شأن سائر اليهود في الشرق وأوروبا . ويقال إن أول إصابة بالطاعون ظهرت في سنة ١٨٣٠ كانت في حيهام القدر ، وكانوا يشتغلون في أخطر العمليات التجارية والمصرفية ، وفي الوقت ذاته اشتغل بعضهم في أحقر الحرف .. كانوا يتحدثون بالعربية ويكتبون بالعبرية . ولم يكونوا في تصرفاتهم مثلاً للأمانة ، منهم من دبروا المؤامرات السياسية ، ومنهم من تعاونوا مع ريتش المقيم البريطاني في بغداد فكانوا يقدمون له إحصاءات عن دخل المدن الهامة في العراق ، ومنهم من عمدوا إلى الغش والتدليس في مسائل سك النقود ونقل الأموال السائلة خارج العراق ، وكان رئيس طائفة الصرافين يهودياً ، وكانوا تحت الحماية البريطانية .

وشعر يهود العراق أنهم على قدر كبير من الأهمية في نظر بريطانيا وفرنسا اللتين تنافستا على كسب ودهم واصطناعهم عملاء . وكان فونتانييه Fontanier ممثل فرنسا يسعى في أواخر الثلاثينيات من القرن التاسع عشر لجمع الأتباع من اليهود ويسط الحماية الفرنسية عليهم ، وكان اليهود يرحبون بأن يكونوا تحت حماية أي دولة أوروبية حتى يحصلوا على مزيد من الامتيازات ، ويكونوا بمنأى عن نفوذ السلطات العثمانية ويظفروا بفرص واسعة للإثراء . أما إنجلترا .. فقد اتخذت منهم عملاء اشتغلوا في خدمة مصالحها وبخاصة على عهد

(١) لوريمر ج.ج. مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافي ، ج ٦ ، ص ٢٠٦٣-٢٠٦٤ .

(٢) دكتور عبدالعزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١٨-٣٢٠ .

ريتش Rich القنصل البريطاني في بغداد ، واتجه اهتمام إنجلترا باليهود إلى ميدان جديد هو تنصيرهم على المذهب البروتستانتي . وأخذت الجمعيات التنصيرية ترسل مندوبين إلى يهود العراق ، وأسندت أول الأمر إلى منصر إنجليزي بروتستانتي يدعى صمويل Samuel مهمة تحويل اليهود إلى المسيحية ، وقدم إلى البصرة سنة ١٨٣٦ ، وخاض مجادلات مع كبار رجال الدين اليهود في المعبد اليهودي لم تسفر عن ازدياد تمسكهم بعقيدتهم فحسب ، بل أمعنوا في السخرية به إمعاناً بلغ حد إيذائه ، فترك البصرة على كره منه إلى بغداد حيث لقي أذى من اليهود فاق الضرر الذي أصابه في البصرة . وكان يتجول في شوارع بغداد ويوزع كتبه المسيحية . وثار ثائرة المسلمين إذ اعتقدوا أن هدف حكومته الإنجليزية من إيفاده إلى العراق هو احتلال البلاد وتحويل جميع السكان إلى المسيحية ، وكان مما قوى هذا الاعتقاد وجود بعثة شيزني في ذلك الوقت في نهر دجلة ، ثم النشاط المحموم الذي أبداه هذا المنصر الإنجليزي واجتمعت عليه نقمة المسلمين واليهود يبيتون خطة لاغتياله .. فقرر إخراجه من بغداد إلى البصرة على أن يغادر العراق سريعاً ، وتولى مهمة تحويل اليهود إلى المسيحية بعد صمويل عدد من البولنديين كانوا قد تحولوا من اليهودية إلى المسيحية . وباشروا عملهم التنصيري بطبيعة الحال تحت حماية الإنجليز ، وتكونت جمعية تشرف على عمليات تنصير اليهود ، وأطلق عليها Society of the Conversion of the Jews أي جمعية هداية اليهود إلى المسيحية ، وأحرزت نجاحاً جعل بعض المنصرين يعتقدون أنه في الاستطاعة تحويل المعبد اليهودي في بغداد إلى كنيسة (١) .

سؤال يفرض نفسه فرضاً :

وهناك سؤال يفرض نفسه فرضاً في هذا الصدد ، وهو ، لماذا لم تشهد مصر هذا النشاط التنصيري العريض والمكثف كما شهدته بلاد الشام والعراق ؟ وتتلخص الإجابة عن هذا السؤال في أن الأزهر الشريف وقف سداً منيعاً في وجه هذا النشاط ، فالأزهر كان ولا يزال قلعة الإسلام والقبلة العلمية للمسلمين ، كما كان ولا يزال أيضاً حصناً للغة العربية حافظ عليها طوال الحكم العثماني . يضاف إلى ذلك أن مصر كانت خالية من التنوع البشري والديني واللغوي ، الذي كان من أبرز سمات تاريخ الشام والعراق .. فلم يكن أمام المنصرين الأوروبيين مجال رحيب للتسلل إلى أوساط المجتمع في مصر لممارسة نشاطهم التنصيري ، وكان سكان مصر يتألفون من المسلمين والأقباط الأرثوذكس واليهود ، يتكلمون اللغة العربية . وكانت الجبهة الداخلية متماسكة هادئة تربط عناصرها الثلاثة صلات من اللوامة والتعاضد السلمي . كانت هجرة الأوروبيين إلى مصر قد زادت منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ونشطت في خلال

هذه الفترة حركة قدوم البعثات التنصيرية من كاثوليكية وبروتستانتية ، ومن فرنسية وإيطالية وإنجليزية وأمريكية وألمانية ، واهتمت بتحويل الأقباط الأرثوذكس إلى المذهب الكاثوليكي أو المذهب البروتستانتي ونشر المسيحية بين مسلمي مصر . ولكنها لم تصادف إلا نجاحاً محدوداً في المجال القبطي ، لأن الأقباط - شأنهم في ذلك شأن المسلمين - كانوا محافظين ومتعصبين . فلم يرض معظمهم عن مذهبهم الأرثوذكسي بديلاً . حقيقة .. التحق عدد كبير من الأقباط بالمدارس ، التي أنشأتها البعثات التنصيرية ؛ خاصة في الصعيد حيث قام تنافس شديد بين البعثات البروتستانتية والكاثوليكية لاجتذاب أقباط الصعيد إلى مذهبها . وكانت كفة البروتستانت أرجح من كفة الكاثوليك نتيجة الجهود المكثفة التي بذلتها البعثة التنصيرية الأمريكية ، بعد أن اتخذت أساليب مقرأ لها في الصعيد . وكان هدف الأقباط من إلحاق أبنائهم بمدارس هذه البعثة هو الإفادة من فرصة أتاحت لهم للتزود بسلح العلم ، وبقيت غالبية على المذهب الأرثوذكسي . أما تنصير المسلمين فكان يحدث في حالات فردية ونادرة ، وقعت تحت إغراء المال بثنتي صورته وأشكاله . وكان الأزهر الشريف يؤثر على هذه الحالات ، على الرغم من ندرتها وتفاهة المركز الاجتماعي للمسلمين الذين ارتدوا عن دينهم ، وحتى هؤلاء كانوا يعودون مراعاة إلى رحاب الإسلام .

رابعاً : الصراع بين الدولة العثمانية وفارس على العراق :

لم تتمر السياسة الحصيفة التي أرسى قواعدها السلطان سليمان المشرع في أثناء وجوده في العراق في سنة ١٥٣٥ عقب فتح هذا الإقليم ، حين احترم مشاعر الشيعة وحافظ على أماكنهم الدينية وهي «العتبات المقدسة» ويسر السبل أمام زائريها ^(١) ، فاستمرت الحروب والمنازعات بين الدولتين منذ الثلاثينيات من القرن السادس عشر حتى أوائل القرن التاسع عشر ^(٢) . وكانت هذه الحروب بين الدولتين تنقطع في بعض الفترات لتعود أشد ضراوة من سابقتها . وتبادل الطرفان الهزيمة والانتصار ، وعاد العراق أو أجزاء كبيرة منه لحكم فارس أكثر من مرة ^(٣) .

(١) انظر في هذه الدراسة ص ٢٤-٢٥ .

(2) Hurewitz J.C., op. cit., Vol. I, p. 90. A Historical Introduction to the Treaty of Peace, Erzurum, between the Ottoman Empire and Persia.. concluded on 28 July, 1823.

(٣) من الأمثلة التي تساق في هذا الصدد أن بغداد استسلمت عام ١٦٢٢ لحكم عباس الأول شاه فارس وأصبحت الكاظمية ، وكوت ، والعمارة ، وكربلاء ، والنجف ، بما فيها من أماكن يقصدها أهل الشيعة ، بل والحة أيضاً ، أصبحت جميعاً في أيدي الشاه ، واستمر العراق تابعاً للدولة الفارسية حتى عام ١٦٣٨ حين أعاد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) حملة على العراق ، وأستولى على بغداد وعاد العراق مرة أخرى للحكم العثماني . ثم ظهر على مسرح السياسة في بلاد فارس سنة ١٧٢٩ نادر شاه ، وهو أمير تركماني من قبيلة أفشار ، ويعرف أيضاً بلقب ملهماسب قولي خان ، وتمكن من القضاء على حكام فارس=

ويرجع العداء بين الدولتين إلى سبب عام ، هو العداء الديني المذهبي المستحكم بين أهل السنة وأهل الشيعة ؛ فالدولة العثمانية كانت تعتبر نفسها المدافع الأول عن المذهب السني بينما تعتبر فارس نفسها المدافع الأول عن المذهب الشيعي ، كما يرجع العداء إلى أسباب خاصة . كان الشيعة في العراق ينظرون إلى شاه فارس على أنه الملائد يلجأون إليه كلما نزل بهم ضيم أو أعوزتهم الأموال ، وكانت تنظم حملات في فارس لجمع التبرعات لشيعة العراق ، والتي كانت حكومتها تهتم بالقيام بإصلاحات معمارية في العتبات المقدسة ، أو قوافل تجارية . ومما شجع الفرس على غزو العراق أن نصف سكانه تقريباً كانوا من الشيعة ، ومما ساعد العثمانيين على صد هجوم فارس على العراق أن النصف الآخر من سكانه كانوا من أهل السنة . واستعان الفريقان المتصارعان بالعصبيات والعشائر العربية والكردية ، وقامت روسيا في بعض الأحيان بدور بارز في زيادة حدة النزاع بين العثمانيين والفرس تماشياً مع سياستها التقليدية في خلق الأزمات أمام الدولة العثمانية وتصعيد هذه الأزمات . واعتقدت بريطانيا أن روسيا هي السبب في اندلاع الحرب بين فارس ؛ والدولة العثمانية ، والتي استمرت من سنة ١٨٢٠ حتى سنة ١٨٢٣ ، وكان زمام المبادرة في الهجوم على العراق في يد فارس ؛ لأنها كانت تتطلع دائماً إلى استرداده ، بينما لم يكن لدى العثمانيين رغبة في التوسع على حساب الدولة الفارسية .

= الأفغانيين الستة ، الذين كانوا قد انتصروا بقيادة زعيمهم الثائر مير محمود سنة ١٧٢٢ على الصفويين وحلوا مكانهم . وأعاد نادر شاه الصفويين إلى الحكم ، وأصبح هؤلاء مجرد حكام صوريين ، وتركزت السلطة الفعلية في يد نادر شاه ، ومالبث أن أعلن نفسه حاكماً على فارس متخذاً لقب شاه سنة ١٧٣٦ بعد أن أزال الصفويين من الحكم ، وكان هو العدو الأكبر للعثمانيين حتى قتل في ١٩ يونيو - حزيران - ١٧٤٧ . وفي أثناء حكمه حاصر بغداد والموصل أكثر من مرة ، وعقدت عدة معاهدات صلح بينه وبين العثمانيين ، ولكنها سرعان ما كانت تنقض ويتجدد القتال . وقد حاول نادر شاه أن يدخل تعميلاً خطيراً على نظام قوافل الحج إلى الحجاز ليؤكد نفوذه الديني منافساً السلطان العثماني . وكان هذا الشاه قد تبنى المذهب الشيعي الجعفري ، نسبة إلى الإمام جعفر الصادق ، وأراد أن يرسل إلى الحجاز قافلة حج رئيسية فارسية يرأسها أمير حج فارسي . واستهدف أيضاً صرف الحجاج الفرس عن الذهاب إلى دمشق للانضمام إلى قافلة الحج الشامي كما جرت العادة ، ورفض السلطان العثماني ، الأخذ بهذا النظام لأنه اعتبره انتقاصاً لسلطته الدينية لإشرافه على الأماكن المقدسة في الحجاز ، ولأنه يستمد من هذا الإشراف لقب «حامي حامي الحرمين الشريفين» .

انظر :

Minorsky V., Encycl. of Islam, Art. Nadir Shah.

Muhammad Ali Hikmat; Essai sur l'Histoire des Relations

Irano - Ottomanes de 722 à 1747. Paris, 1937, pp. 184-184.

دكتور عبدالكريم رافق : بلاد الشام ومصر ، من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦-١٧٩٨)، دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٨ ، ص ٢٩٩-٣٠٠ .

لوريم ج. ج. مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ، ج ١ : ص ٥٥ ، ص ١٢٩-١٤١ .

وكانت حرب ١٨٢٠-١٨٢٣ هي آخر حرب بين العراق وفارس ، وانصهرت فارس في مراحلها الأولى ثم أحرز العراق انتصارات في مراحلها الأخيرة بسبب نفسي وباء الكوليرا في الجيشين . وظل الموقف معلقاً حتى أبرمت معاهدة أرضروم الأولى في ٢٨ من يوليو - تموز - عام ١٨٢٣^(١) ، ولكن هذه المعاهدة لم تحسم مشكلة الحدود بين العراق وفارس فبقيت مشكلة مزمنة متأزمة أثارت عديداً من المشكلات والأزمات ، وكافهر الجو بين العراق وفارس في الأربعينيات من القرن التاسع عشر بخاصة حين كان نجيب باشا والياً على بغداد (١٨٤٢-١٨٤٧) . وكان سبب تدهور العلاقات مشكلة الحدود والمشكلة الكردية ، ووقعت مصادمات بين العراقيين والفرس في عريستان ، والسليمانية ومنطقة بني لام ، وزهاب ، وطالبات فارس بلواء السليمانية وعريستان حتى القرنة ، وبإبعاد الأمراء الفرسي المناوئين للشاه عن بغداد ، وهددت بإرسال قوات فارسية لاحتلال البحرين والكويت ، واستعدت لشن حرب شاملة على العراق . وردت الدولة العثمانية بحشد قواتها على حدود فارس واستغفرت قبائل المنتفق وبني لام واليابانيين ، ودارت المناوشات العنيفة فعلاً على الحدود ؛ خاصة في منطقة السليمانية . ورأت بريطانيا أن تتدخل لإيجاد حل سلمي لمشكلة الحدود التي هي جوهر النزاع . واقترحت تشكيل لجنة مختلطة تضم أعضاء من الإنجليز والروس والعثمانيين والفرس ، أطلق عليها اللجنة المختلطة للحدود The Mixed Boundary Commission ، وكانت بريطانيا قد رأت إشراك الروسي معها حتى لا تنفرد الأخيرة بعمل انفرادي يؤدي إلى تصعيد الأزمة وازدياد النفوذ الروسي في المنطقة .

واعترض السلطان على تدخل الدولتين البريطانية والروسية في نزاع طرفاه دولتان إسلاميتان . ورأى أن المسألة تخص المسلمين فيجب أن يكون بحثها مقصوراً عليهم ولا شأن للدول المسيحية بهذه المسألة الإسلامية . ولكن الدولتين أرغمت السلطان على قبول وساطتهما ، واتخذت اللجنة مدينة أرضروم مقراً لها . وبدأت عملها في ١٥ من مايو - أيار - ١٨٤٣ ، وكانت مهمتها الرئيسية وضع خريطة دقيقة للحدود يرجع إليها عند الحاجة ، وواجهت اللجنة صعوبات جمة في عملها . ووقفت بريطانيا تؤيد الدولة العثمانية في مطالبها في العراق ، وأخذت الروسية بوجهة النظر الفارسية وتشعبت نقاط الخلاف ، واستبان للجنة أن تسوية جميع مشكلات الحدود أمر يتطلب وقتاً طويلاً حتى يستطيع وضع خريطة تفصيلية ، يحدد عليها مكان كل عشيرة في مناطق الحدود وتبعيتها منعاً لأي نزاع في المستقبل ، ومن ثم رأت اللجنة عام ١٨٤٧ وضع مشروع معاهدة تسجل فيها بعض المشكلات التي تم الاتفاق عليها ، وإرجاء المشكلات الأخرى التي لم يتم الاتفاق عليها ومواصلة بحثها وتسريتها .

وعلى هذا الأساس وضعت معاهدة أضروروم الثانية في ٣١ من مايو - آيار - عام ١٨٤٧ وهي معاهدة حدود boundary agreement ، وبعد إبرام المعاهدة تشكلت لجنة حدود ثانية ، فيها أعضاء إنجليز وروس ، لتسوية مشكلات الحدود المتبقية . ولم تحرز اللجنة الثانية تقدماً يذكر في أعمالها . وعندئذ اقترح بالمرستون إجراء مفاوضات بين حكومات الدول الأربع بدلاً من اللجنة ، فانتقلت المفاوضات إلى عواصم الدول الأربع ، وفي الوقت ذاته ، قامت لجنة فنية بمسح الحدود من مصب شط العرب جنوباً حتى الحدود المشتركة في الأناضول (١٨٥٧-١٨٦٥) . وكانت المفاوضات قد توقفت بسبب نشوب حرب القرم ، واستفاضت في أثنائها الشائعات بأن فارس ستدخل في هذه الحرب إلى جانب الروسيا ضد الدولة العثمانية . وعلى الرغم من أن الشاه صرح بأنه لن يطعن أخاه السلطان العثماني المسلم من الخلف ، كان رشيد باشا الكوزلكي - والي بغداد - يرى أن احتمال انضمام فارس إلى الروسيا هو احتمال قوي ، وأدرك حجم الخطر الجسيم ، الذي يتعرض له العراق لو دخلت فارس الحرب ضد الدولة العثمانية ، ولذلك طلب من الإنجليز أن يرسلوا قوات هندية للإسهام في الدفاع عن العراق ، ولم يكن يدرى أن القنصل البريطاني في بغداد كان يحث حكومته على احتلال العراق ، مذكراً إياها برغبتها في خلال أزمة التوسع المصري في الشام ونجد في تنفيذ هذا المشروع . وأكد لها القنصل أن أوضاع العراق تتطلب إلى حد بعيد احتلال بغداد . ولكن حال دون تحقيق هذه الرغبة تحالف بريطانيا مع الدولة العثمانية (١) ، وأخيراً أنجزت لجنة الحدود مهمتها في عام ١٨٦٥ ووضعت خريطة للحدود من جبال أارات إلى الخليج العربي ، وافقت عليها الدولة العثمانية وفارس وعقدت معاهدة حدود جديدة (٢) ، ومع ذلك لم تحل مسألة الحدود بصفة نهائية إلا في أواخر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١٤ ، عندما قبلت الدولتان بصفة نهائية تحديد الحدود بينهما (٣) .

حسبنا أننا ذكرنا ثلاثاً من الولايات العربية الكبرى هي مصر ، ویر الشام ، والعراق ، والتي دخلت تحت الحكم العثماني . أما الأقاليم العربية الأخرى التي خضعت للسيادة العثمانية مثل الحجاز واليمن وأجزاء من منطقة الخليج العربي .. فإن الوجود العثماني لم يكن مستقراً فيها ولم يكن قوياً ولم يكن مستمراً . أما الولايات العربية في شمالي إفريقيا ، وهي التي يطلق عليها النيسابات Les Régences ، وهي حسب ترتيب دخولها تحت الحكم العثماني : الجزائر ، وطرابلس ، وتونس .. فإن قريتها من أوروبا لم يفرض عليها عزلة ، بل قام صراع حربي صليبي سافر وعنيف بين البرتغاليين والإسبانيين من ناحية وسكان هذه النيبات من ناحية

(١) دكتور عبدالعزيز سليمان نوار ، تاريخ العراق الحديث إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤٤-٣٤٦ .

(2) Hertslet Ed., op. cit., pp. 167-168.

(3) Hurewitz, J.C.; op. cit., vol. 1, p. 90.

أخرى ، ثم تطور إلى جهاد دينى بحرى إسلامى ، حملت لواءه هذه اللبابات دفاعاً عن إسلامها وعروبيتها . وقد استطاع هذا الجهاد الدينى أمداً طويلاً حتى القرن التاسع عشر . ومما هو جدير بالذكر أن نيابات شمالى إفريقية كانت أولى الولايات العربية التى تماقتت تباعاً فى قبضة الاستعمار الأوروبى ؛ فاحتلت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠ وسطت حمايتها على تونس سنة ١٨٨١ ، أما طرابلس فقد احتلتها إيطاليا عام ١٩١١ .

نخلص من هذا العرض الموضوعى لمسألة العزلة التى قيل إن الدولة العثمانية قد فرضتها على الأقاليم العربية التابعة لها إلى عدة حقائق :

أولاً : إن الدولة العثمانية قد فتحت منذ وقت مبكر جداً أبواب ولاياتها العربية على مصاريعها للاتصال بأوروبا ، وأبرم السلطان سليم الأول فى عام ١٥١٧ معاهدة مع جمهورية البندقية لتعزيز العلاقات الاقتصادية بينها وبين مصر . ثم جاء ابنه السلطان سليمان المشرع فدعم هذا الانفتاح مع أوروبا أمام الدولة العثمانية بما فيها الولايات العربية ، فعقد عام ١٥٣٥ معاهدة الامتيازات الأجنبية مع فرنسا وعقد خلفاؤه معاهدات أخرى متعاقبة ، على غرارها ، مع إنجلترا ودول أوروبية أخرى .

ثانياً : لم تنقطع الصلات بين الولايات العربية ، فلم تكن هناك حواجز أو سدود مصطنعة بين هذه الولايات . وظلت العلاقات الاقتصادية والثقافية والدينية - ويمثل الأخيرة الحج إلى الحجاز - قائمة ومستمرة ووثيقة .

ثالثاً : إن غلق البحر الأحمر فى وجه السفن البرتغالية أولاً ثم السفن الأوروبية عامة كان الغرض منه منع التسال البرتغالى الصليبي إلى هذا البحر واحتلال ثغر جدة تمهيداً للزحف على مكة المكرمة والمدينة المنورة وغيرها من الأماكن المقدسة فى الحجاز ثم مواصلة الزحف على تبوك ومنها إلى بيت المقدس فى فلسطين . وكان هذا التسال قد اتخذ من الصليب والمدفع شعاراً له ، ثم لمنع الزحف الهولندى والفرنسى والبريطانى على الولايات العربية . وكان غلق البحر الأحمر أمام السفن الأوروبية بمثابة إجراء أمن داخلى وخارجى للحدود الشرقية للممتلكات العثمانية ، واتخذت الدولة من اليمن خط دفاع ، ورأت عدم الخرج إلى المحيط الهندى ؛ لأن صراع الدول الأوروبية مع الدولة العثمانية كان يدور فى معظم مراحلها فوق البحار . وكانت الدولة الأوروبية تملك من أسباب القوة البحرية أضعاف ماكانت تملكه الدولة العثمانية فى البحار الشرقية . وكانت القوات الصارية الرئيسية للدولة قوات برية ، ولم تكن قوات بحرية ؛ فالمعارك لم تكن متكافئة من حيث نوعية السلاح . وكانت الدولة العثمانية تضع نصب عينيها الدجاج

الذي حققه الاستعمار الأوروبي في استيلائه على الهند وغيرها من الأقاليم الواقعة فيما وراء البحار ، وكانت الدولة تخشى أن تصيب الدول الأوروبية الاستعمارية نجاحاً على غرارها باستيلائها على ولاياتها العربية البعيدة عنها، فظلت متمسكة بسياسة غلق البحر الأحمر أمام السفن الأوروبية حتى القرن الثامن عشر، ثم تخلت عن هذه السياسة مرحلياً لظروف كانت خارجة عن إرادتها .

رابعاً : إن غلق البحر الأحمر في وجه السفن الأوروبية لم يمنع السفن الإسلامية من أن تمخر عبابه ، محملة بشحنات من البضائع الشرقية فضلاً عن بعض محاصيل ومنتجات اليمن والحجاز وغيرها من الأقاليم الواقعة على ساحل هذا البحر . وكانت السفن الإسلامية تبدأ رحلاتها من ثغر المخا في اليمن وترافق إلى ثغور البحر الأحمر مثل جدة وسواكن والسويس^(١) .

خامساً : إن نظرة الشعوب العربية إلى أوروبا كانت قائمة على الحذر والشك ؛ لأن رواهب الحروب الصليبية في الشرق العربي كانت لاتزال عالقة في أذهان الجماهير .

سادساً : حدث انفتاح بين مصر وبلاد الشام والعراق من ناحية أوروبا من ناحية أخرى في القرن الثامن عشر ، ثم اتسعت في القرن التاسع عشر أبواب هذا الانفتاح وتعددت مجالاته وكثرت شرايينه ، وكانت لكل ولاية عربية ظروفها في الأخذ بسياسة الانفتاح . وهذه الظروف هي التي حددت حجم ونوعية هذا الانفتاح ، فظروف كل من مصر وبلاد الشام والعراق كانت تختلف بعضها عن بعض .

(١) انظر معلومات أكثر تفصيلاً عن العلاقات التجارية بين الولايات العربية بعضها وبعض وعن دور الحج في تنشيط العلاقات التجارية بينها ؛ نظراً لإلغاء بضائع الحجاج من الرسوم الجمركية ومن التفتيش وعن علاقات الولايات العربية في ميادين التجارة مع أوروبا :

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. 1., Part 1, pp. 299-313.

الفصل الرابع

صور من حملات التشهير بالدولة (٤)

السلطان العثماني رجل أوروبا المريض

نشأة قصة المريض المشرف على الموت :

من حملات التشهير بالدولة إطلاق عدة مسميات أو صفات على السلطان العثماني ، فهو «المريض الذي لا يرجى شفاؤه» و «المريض المشرف على الموت» و «رجل أوروبا المريض» . وقد أطلقت هذه المسميات ، أول ما أطلقت ، في المجال الدبلوماسي المظق وعلى أعلى المستويات . ولكن لم تمض سنوات ذات عدد حتى أذيعت هذه المسميات وما أحاطت بها من ملابسات في الخمسينيات ، من القرن التاسع عشر . ووقف عليها الرأي العام في بريطانيا ثم انتقلت إلى سائر الدول الأوروبية ، وتلقفها المؤرخون والباحثون ورجال السياسة المتحاملون واتخذوا منها مادة للتشهير بالدولة العثمانية . وسواء كانوا هذا التوجيه بإيعاز من حكومات بعض الدول الأوروبية ، أو جاءت كتابتهم بوحى من تفكيرهم وحدهم ، فقد كان الهدف هو النيل من الدولة والإعداد الفكري المسبق لدى الشعوب الأوروبية بأن سقوط الدولة العثمانية أمر وشيك ، وأن نهايتها السريعة آتية لا ريب فيها .

كانت عبارة «رجل أوروبا المريض The Sick Man of Europe» ، وأمثالها قد صدرت أولاً عن نيقولا الأول قيصر روسيا (١٨٢٥-١٨٥٥) في حديث جرى سنة ١٨٤٤ بينه وبين أبردين Aberdeen رئيس وزراء بريطانيا في وندسور Windsor في إنجلترا ، وكانت تجمع بين الاثنين صداقة وثيقة . والحق أن هذا التصريح لم يكن جديداً على القيصر ، فقد سبق أن أعلن رأياً يتفق في لحمته وسداه مع هذا التصريح ، وإن كان أشد عنفاً وأكثر بعداً عن اللباقة الدبلوماسية ، حين صرح عام ١٨٣٣ بقوله «ليس في استطاعتي أن أبعث الحياة في الموتى . إن الإمبراطورية العثمانية دولة ميتة ، وليس لدى ثقة في أن يستمر هذا الجسم العجوز محافظاً على الحياة . إنه في حالة انحلال في جميع النواحي» .

"I have no power to give life to the dead, and the Turkish Empire is dead. I have no confidence in this old body preserving life, it is in dissolution from all sides".^(١)

(١) دكتور محمد مصطفى صفوت : المسألة الشرقية ومؤتمر باريس ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧ .

ثم أعاد القيصصر عبارة رجل أوروبا المريض وعبارات أخرى على شاكلتها في شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٥٣، قبيل نشوب حرب القرم، في ثنايا حديث مع سير هاملتون سيمور Sir Hamilton Seymour السفير البريطاني لدى البلاط الروسي. وكان صديقاً حميماً له، ومع غيره من رجال السياسة. وكانت هذه الأحاديث تدور حول اعتقاد نيقولا الأول أن سلطان الدولة العثمانية رجل مريض للغاية، وقد يلفظ أنفاسه الأخيرة فجأة. وأن من الخير للسلام العالمي أن تفكر الدول ملياً في توزيع ممتلكاته قبل وفاته، وأعرب عن رأيه في إمكان تسوية الأمور بين بريطانيا والروسيا دون حاجة إلى قيام أي حرب.

وكان مشروعه لاقتسام ميراث رجل أوروبا المريض يقوم على الأسس الآتية :

أولاً : تحتل روسيا الأستانة، ولكن لاتضمها إليها.

ثانياً : ترابط القوات الروسية في اليوسفور، وترابط القوات النمساوية في الدردنيل.

ثالثاً : تستقل ولاينا للدانوب، وهما الأقلاق والبغدان، وكذلك الصرب وبلغاريا. ولكن تكون هذه الدول تحت حماية روسيا؛ أي يكون استقلالها استقلالاً مزيماً.

رابعاً : تحتل بريطانيا مصر، ولها إذا شاءت أن تستولي على جزيرة كريت.

وقد أثار عرض القيصصر شكوك بريطانيا واعتقدت أن نواياه هي القضاء على الدولة العثمانية. ولذلك لم تأخذ به لسببين : أولهما، أنها كانت لاتزال متمسكة بسياساتها التقليدية تجاه الدولة العثمانية، وهي المحافظة على سلامة الدولة وبماسك ممتلكاتها، وثانيهما أنها كانت تشك في إخلاص قيصر روسيا في تقديم مشروعه، لأنها علمت أنه عرض سراً على فرنسا الاستيلاء على جزيرة كريت. ولما نشبت حرب القرم، نشرت الحكومة البريطانية وثائق تلك المحادثات لتكشف للرأي العام الأوروبي الأغراض الحقيقية للروسيا من دخولها الحرب^(١). وقد ظلت بريطانيا متمسكة بسياساتها التقليدية تجاه الدولة العثمانية حتى عام ١٨٧٨، ثم تخلفت عنها على عهد الوزارة الثانية، التي شكلها بنيامين دزرائيلي اليهودي، وقد شكلها في فبراير - شباط ١٨٧٤^(٢) وتسمى عام ١٨٧٦ باسم لورد بيكونزفيلد Beaconsfield، فاحتلت بريطانيا جزيرة قبرص عام ١٨٧٨، ثم مصر عام ١٨٨٢ على عهد وزارة جلاستون الثانية. ومما

(١) انظر كلاً من :

Grant A. and temperley H.; op. cit., pp. 212-213, fn. 1.

Temperley H.; England and the Near East : The Crimea. 1936, pp. 233-237.

نكتور محمد مصطفى صفوت : مؤتمر برلين إنغ، مرجع سبق ذكره، ص ص٢٦-٢٨.

(٢) بقيت هذه الوزارة في الحكم حتى شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٨٠، وخلفتها وزارة جلاستون حتى

شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٨٥.

يذكر أن لورد سالزبوري Salisbury إبان وزارته الثالثة^(١) قد صرح في حديث له جرى عام ١٨٩٥ مع دى كورسيل de Courcel ، السفير الفرنسي في لندن، بأنه آسف أشد الأسف لأن الحكومة البريطانية رفضت مشروع تقسيم الدولة العثمانية الذى عرضه عليها نيقولا الأول قيصر الروسيا عام ١٨٥٣ ، وقال إن الحكومة البريطانية قد ساندت الحصان الخاسر. backed the wrong horse. ، وهكذا واكبت بريطانيا الدول الأوروبية وعلى رأسها الروسيا والنمسا فى خططها التدميرية للدولة العثمانية^(٢) .

مسئولية أوروبا :

هذا المرض الذى انتاب السلطان العثماني إنما هو تعبير دبلوماسي قصد به الضعف السياسى والعسكرى ، بعد أن بلغا بالدولة حد الاضمحلال والتدهور فى القرن التاسع عشر . حقيقة كان جانب من الضعف الذى أصاب الدولة يرجع إليها ، وسنفرد فصلاً عن المآخذ على الدولة نعرض فيه لمسئوليتها عن هذا التدهور . ولكن كانت الدول الأوروبية الكبرى هى المسؤولة عن جانب كبير من ذلك الضعف الذى ألم بالدولة .. أخذت الروسيا والنمسا أول الأمر بسياسة التوسع الإقليمي على حساب ممتلكات الدولة العثمانية فى وسط أوروبا وفى حوض الدانوب وعلى حدوده وعلى سواحل البحر الأسود وشبه جزيرة البلقان ، وتغلغت الروسيا فى القرم وأرمينيا وابتلعت معظم آسيا الوسطى والقرقاز . وأصبحت هاتان الدولتان فى حالة حرب لم تكد تنقطع مع الدولة العثمانية حتى استنفدتا قوة الدولة وحيويتها ولم تعطياها قسطاً طويلاً من الراحة لالتقاط أنفاسها أو لاستعادة حيويتها . ثم انضمت فرنسا إلى ركبهما فاحتلت الجزائر ثم وضعت تونس تحت حمايتها . ونهجت بريطانيا هذا النهج فاحتلت جزيرة قبرص ثم مصر بما فيها قناة السويس . واحتلت إيطاليا جزر الدوديكانيز وللايتى برقة وطرابلس . وهكذا اتبعت الروسيا والنمسا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا سياسة عدوانية تجاه الدولة ، استهدفت تمزيقها وتوزيع ممتلكاتها أسلاباً فيما بينها . وواجهت الدولة ثورات عنيفة قامت بها الشعوب المسيحية الخاضعة لها . ودأبت الروسيا والنمسا على تحريك هذه الشعوب ثورياً بدافع الشعور القومى حيناً ، وبمقولة إنه يجب ألا تخضع هذه الشعوب لسلطان مسلم جاهل متبربر حيناً ثانياً . وادعت

(١) ألف لورد سالزبوري ثلاث وزارات :

(أ) الوزارة الأولى وقد تآلفت فى شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٨٥ .

(ب) الوزارة الثانية وقد تآلفت فى شهر أغسطس - آب - عام ١٨٨٦ وظلت فى الحكم إلى شهر أغسطس

- آب - عام ١٨٩٢ .

(ج) الوزارة الثالثة وقد تآلفت فى شهر يونيو - حزيران عام ١٨٩٥ وظلت فى الحكم إلى شهر يوليو -

تموز - عام ١٩٠٢ .

Ensor R.C.K., of. cit., pp. 608-611.

(2) Taylor A.J.P. op.; cit., p. 359.

الروسيا لنفسها حق حماية الرعايا الأرثوذكس في الدولة العثمانية . ورأت فرنسا ضرورة حماية اللاتين ورجال الدين الكاثوليك في الدولة . ولم يكن أحد من هذين الطرفين مستعداً لقبول المساومة أو التحكيم . ثم بسطت فرنسا حمايتها على الموارنة في لبنان ، وبسطت بريطانيا حمايتها على الدروز في الجبل . وهكذا تسابقت أوروبا المسيحية المتحضرة على التهام ولايات دولة إسلامية ، وإنشاء مناطق نفوذ لها في ولايات أخرى ، وفرض معاهدات غير متكافئة على الدولة ، ونهب ثرواتها .

لقد أرادت الدولة الأخذ بسياسة الإصلاح وتطوير نظمها في الحكم والإدارة وتحقيق المساواة بين رعاياها دون تفرقة بين مسلم وغير مسلم . وأصدرت من أجل الإصلاح فرمانين مشهورين هما «خطى شريف جرخانة» عام ١٨٣٩ و «خطى همايونى» عام ١٨٥٦ ووجدت أن نظام الامتيازات الأجنبية يقف حجر عثرة في سبيل تنفيذ الإصلاحات المنشودة . وكان هذا النظام يجعل الأجانب في الدولة بمنأى عن الخضوع للسلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية . وطالبت الدولة عقب حرب القرم مباشرة للدولة الأوروبية ، التي كانت متحالفة معها في هذه الحرب الموافقة على إلغاء هذا النظام . فأجابت بأنها لا تقدر إطلاقاً إلغاء هذا النظام . وتكررت محاولات الدولة وتكرر رفض الدول ، ولو كانت نيات الدول الأوروبية خالصة نحو الدولة لاستجاب لطلبها . ولكنها ذهبت إلى أبعد من ذلك ففرضت رقابة دولية ضارية على شئونها المالية وفتحت أبواب بلادها على مصاريحها أمام جمعيات عثمانية سرية ، تتآمر على سلامة الدولة . ومع ذلك فإن رجل أوروبا المريض الذى لم يكن يرجى شفاؤه عام ١٨٥٣ ظل يقاوم الزحف الاستعماري الأوروبي في شتى صوره وأشكاله ما استطاع إلى هذه المقاومة سبيلاً ، ويعمل على إدخال الإصلاحات ما وسعته الإمكانيات وسط ظروف متناهية في صعوبتها وظلامها وأخطارها ، ولم تتحقق نبوءة قيصر الروسيا فظلت الدولة قائمة سبعين عاماً حتى سقطت عقب الحرب العالمية الأولى ، وتوارى رجل أوروبا المريض إلى مغيب .

إجراء مذابح دينية عامة

بين رعايا الدولة المسيحيين

وهناك مسألة خاض فيها المؤرخون والباحثون المتعاملون على الدولة العثمانية ، ونعوا عليها في استفاضة غير عادية قيامها بإجراء مذابح دينية عامة بين أفراد بعض الطوائف المسيحية الخاضعة للدولة ، وأذاعوا عنها أنباء مبالغاً فيها إلى حد بعيد ، ونظروا إليها على أنها بقعة سوداء في تاريخ الدولة ، والأمر العجيب أن الغالبية العظمى من هذا الفريق من المؤرخين والباحثين لم يتكلموا قط عن المذابح العامة ، التي تعرض لها رعايا الدولة المسلمون على أيدي المسيحيين . ويلاحظ أيضاً أن القلة الضئيلة العدد من المؤرخين الذين تكلموا عن مذابح

المسلمين ، لم يتعرضوا لها إلا بشكل عام في بضع كلمات ، لم تتجاوز سطراً واحداً في الوقت الذي لم ينادروا صغيرة ولا كبيرة من تفاصيل مذابح المسيحيين إلا أحصوها وأبرزوها ، بل وبالفراغ فيها . ويلاحظ عليهم جميعاً أنهم أغفلوا أو تجاهلوا عدة حقائق ، منها : أن أفراد الطوائف المسيحية هم الذين كانوا يبدؤون بذبح جموع المسلمين ، وأن هذه المذابح كانت تحدث في المناطق التي يتكاثر فيها عدد المسيحيين ، ويقف فيها عدد الرعايا المسلمين فيكون الأخيرون صيداً سهلاً في أيدي المسيحيين ، وأن السلطات العثمانية كانت تقاجاً بوقوع هذه المذابح على أيدي جمعيات ثورية إرهابية ، تكونت وتدرت خارج حدود الدولة بعلم وتشجيع حكومات بعض الدول الأوروبية ، فكان لامندوحة للدولة العثمانية عن مقابلة هذا العدوان على رعاياها المسلمين بعدوان على غرارها على الطوائف المسيحية ، التي اشتركت في ذبح المسلمين لحصر هذه المذابح في نطاق ضيق ، ومنع انتشارها في مناطق عثمانية أخرى .

بواعث الدولة على إجراء المذابح الدينية :

هناك عدة عناصر هامة تتصل اتصالاً وثيقاً بمسألة المذابح الدينية ، تحكمت في موقف الدولة فأملت عليها اتخاذ هذا الإجراء . ونحن لانسوق هذه العناصر دفاعاً عن الدولة ، بل للإحاطة بكافة جوانب هذه المسألة ؛ حرصاً منا على التزام الموضوعية والحيدة في هذه الدراسة . كان الرأي العام الإسلامي في الدولة بعمامة وفي استانبول بخاصة وكذلك أعضاء الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة تتورثاتهم ، عندما تتراعى إلى مسامعهم أنباء ذبح المسلمين في ولايات الدولة . وسرى بعد قليل أن المظاهرات الصاخبة كانت تطوف في شوارع العاصمة تنادى بضرورة الرد على هذه المذابح ، وتحمل السلطان الحاكم مسئولية تعرض الرعايا المسلمين للذبح وتتهمه بالتفاسع عن أداء واجبه . وقد سبق أن ذكرنا مراراً في هذه الدراسة أنه للحكم على حادث وقع في عصر سابق .. يجب أن يوضع في الاعتبار الأول التقاليد والعادات ، التي كانت سائدة في ذلك العصر ، ولانقيس الحادث بمعايير الوقت الحاضر . ومع ذلك ففي التاريخ المعاصر ، لاتزال تقع مذابح عامة بين طوائف من السكان في بعض الدول ، على الرغم من أن هيئة الأمم المتحدة قد أصدرت الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على امتداد الساحة العالمية في اليوم العاشر من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٩٤٨ أي منذ أكثر من ثلاثين عاماً . أما العصر الثاني فكان يتمثل في أن هذه المذابح الدينية قد حدثت في القرن التاسع عشر حين كانت الدولة تمر بدور عصيب من أدوار اضمحلالها والذي انتهى بزوالها عقب الحرب العالمية الأولى . وفي هذا الدور تعرضت جيوشها لهزائم حربية أليمة متعاقبة أو خاضت معارك ضارية متتالية ، مما أدى إلى أن تصاعد الإنفاق العسكري بسبب هذه وتلك ، وزادت القروض المالية الخارجية عدداً وحجماً ؛ مما أدى إلى ارتباطات مالية حادة في الموازنة العامة للدولة ، وأعلنت سنة ١٨٧٥ عجزها عن سداد فوائد القروض المتراكمة عليها لمدة خمس

سنوات^(١) ، فأساء هذا التصرف إلى سمعة الدولة وأفقدتها عطف الحكومات والأنصار في إنجلترا وفرنسا ، وأثار كثيراً من الشكوك حول قدرتها على البقاء دولة متماسكة .

فكانت الحالة النفسية للعثمانيين هابطة ، وأرادوا أن يثبتوا لأوروبا بعامة ولرعاياهم المسيحيين بخاصة أنهم قادرون على توجيه ضربات مماثلة لهم . وكان العنصر الثالث هو مبدأ المعاملة بالمثل ، وهو مبدأ تأخذ به دول عديدة في كثير من الحالات . ولعل هذا السبب هو الذى حدا ببعض المؤرخين إلى القول بأن المذابح الدينية التى أقدم عليها العثمانيون قد تعددت وبرزت فى تاريخ الدولة العثمانية كلما ازدادت هذه الدولة ضعفاً . وغفل هذا الفريق من المؤرخين عن حقيقة هامة ، هى أن تلك المذابح لم تحدث إلا نتيجة ثورات هادرة قامت بها الشعوب المسيحية للانفصال عن الدولة ، وأنها اتخذت من تلك المذابح وسيلة لتحقيق هدفها . ولم يسبق أن اشتعلت ثورات ، صاحبها مذابح حين كانت الدولة قوية منيعة مهيبة الجانب .

كان من نتائج الأسلوب الذى عالج به ذلك الفريق من المؤرخين والباحثين المتحاملين مسألة المذابح الدينية العامة أن علق فى أذهان الكثيرين أن الدولة العثمانية كانت دولة متبريرة بحلو لها من وقت إلى آخر إجراء مذابح عامة بين أفراد الشعوب المسيحية للخاصة لها ، وأن هدفها هو استئصال المسيحية من شرقى أوروبا وتصفية الوجود المسمى منها .

المذابح الجماعية بين المسلمين

والمسيحيين فى اليونان

خطط اليونانيون للثورة استهدفوا منها بصفة أساسية تحرير أنفسهم من سيطرة العثمانيين ، الذين كانوا يختلفون عنهم فى الدين والجنس واللغة والعقائد والعادات والثقافة . وقد مرت هذه الثورة بمرحلتين . تولت قيادة المرحلة الأولى والتخطيط لها جمعية الإخوان Philiké Hetairia ، وهى جمعية سرية تكونت فى سنة ١٨١٤ فى ثغر أوديسا على الساحل الشمالى للبحر الأسود ، وانضم إليها كل ذى حيثة من اليونانيين فى الدولة العثمانية . وانتخب إسكندر هيسلنتى Alexander Hyselantes أحد كبار ضباط الجيش الرومى رئيساً لها ، أملاً فى أن تظفر الجمعية بتأييد قيصر روسيا ، وكان برنامج الجمعية متشعباً :

استقلال اليونان ، وطرد العثمانيين من أوروبا ، وبعث الدولة البيزنطية ، واستعادة إستانبول - القسطنطينية - عاصمة لها . ورأى هيسلنتى أن تبدأ الجمعية نشاطها الثورى فى

(١) عقدت الدولة أكثر من أربعة عشر قرصاً حتى وصل الدين العثماني إلى مائتى مليون جنيه إسترليني بفائدة سنوية قدرها ١٢ مليون جنيه . وكانت النتيجة الأولى تأسيس البنك العثماني سنة ١٨٦٢ برعاية فرنسي ، ويتولى وكالته إنجليزى كشركة فرنسية بريطانية ، أسهمت أكثر من أى هيئة فى استنزاف ثروات الدولة وأدت بها إلى الإفلاس .

ولايتي الدانوب - الأفلاق والبغدان^(١) - فقد كان يحكم كل ولاية منهما حاكم يوناني من الفناريين^(٢) Phanariotes يطلق عليه هوسبودار Hsopodar . وكان السلطان العثماني يعينهما ، ويؤديان له الجزية . كما كانت غالبية السكان من المسيحيين ، بينما كان المسلمون فيهما يشكلون أقلية عددية . ونزل رئيس الجمعية مع أتباعه في ولاية مولدافيا في السادس من شهر مارس - آذار - عام ١٨٢١ ، ودخلوا عاصمتها وأذاع بلاغاً حربياً ، كان مما جاء فيه أن قوة عسكرية رهيبة قد تم إعدادها لمعاقبة العثمانيين على جرأتهم ، وهي تعزم إبادتهم عن بكرة أبيهم .

وفي الوقت ذاته جردوا القوة العثمانية المرابطة في العاصمة من أسلحتها . وكان عدد أفرادها قليلاً ، ثم شرعوا في إجراء مذابح عامة بين المسلمين سكان جالاتز Galatz وجاسي Jassy ، وقد أخذوهم على غرة ونالوا منهم مبالغاً عظيماً لأنهم كانوا قلة . وأقر رئيس الجمعية المجازر البشرية التي ذهب ضحيتها ألوف المسلمين في هاتين المنطقتين وفي غيرهما ، وانتقل رئيس الجمعية مع أعوانه إلى الولاية الأخرى «الآشياء» وتنادى الرعايا المسيحيون إلى الثورة على العثمانيين . وقد فشلت الثورة في المرحلة الأولى لعدة أسباب ليست هذه الدراسة موطناً لحرصها . وبهنا أن نذكر أن اليونانيين في المرحلة الأولى للثورة هم الذين بدأوا عمليات الذبح الجماعي للمسلمين . ولما علم السلطان محمود الثاني بما اقترقه الثوار اليونانيون ، أمر بذبح بعض اليونانيين في إستانبول ممن حامت حولهما الشبهات في أنهم كانوا من بين المخططين للثورة أو الضالعين معها ، كما استطاع الجيش العثماني إخضاع الثورة في غير عناء . ولكن مالبثت الثورة أن انتقلت إلى الجنوب في بلاد المورة وهي المهة الأول لليونانيين ، والتي قامت في أرجائها الحصار الإغريقية بمظاهرها الرائعة في العصور القديمة ، كما امتدت الثورة إلى الجزر اليونانية .

وبدأت الثورة مرحلتها الثانية^(٣) . وكان هدفها في هذه المرحلة مقصوراً على استقلال

(١) رومانيا حالياً . وكان يطلق على هاتين الولايتين أيضاً مولدافيا وولاشيا .

(٢) نسبة إلى حي الفار في إستانبول ، وكان يسكن هذا الحي الأرستقراطية اليونانية .

انظر في هذه الدراسة الفصلين الثالث والثالث عشر - الجزء الأول .

(٣) لم يشترك هيسلنتي في المرحلة الثانية ، لأنه لما أخفقت الثورة في مرحلتها الأولى خشي على حياته وترك جنوده لمسيرهم وفكر في ضمان سلامته . ورأس إليهم خطاباً أنطوى على إكاذيب ، كان من بينها أن تلقى رسالة من السلطات العليا في النمسا ، تطلب منه الذهاب إليها ليناقدش مع إمبراطور النمسا مخطط مواصلة العمليات الحربية ضد الدولة العثمانية : لأن الإمبراطور يريد أن تشترك القوات النمساوية في الحرب . وتسلل هيسلنتي مع أخوين له إلى النمسا . ولكنه لم يك عبء الحدود النمساوية حتى أمر مترنيخ بالقبض عليه وأبعده المعتقل حيث ظل فيه ست سنوات إلى أن مات في منفا سنة ١٨٢٨ ، انظر :

Miller W.: op. cit., p. 68.

اليونان فقط . ولم يكن من أهدافها طرد العثمانيين من أوروبا أو إحياء الدولة البيزنطية . واشتعلت الثورة في پتراس Patras في أبريل - نيسان - عام ١٨٢١ . وأوقع الثوار المسيحيون بالمسلمين مذبحه رهينة . ثم امتدت الثورة عبر مضيق كورنث Corinth إلى الشمال في مقدونيا وثرافيا Thessalie . واحتل الثوار تريبوليتزا Tripolitza مقر السلطات العثمانية في المورة ، ومثلوا بالمسلمين أفضع تمثيل . ولم يقل عدد المسلمين واليهود الذين ذبحهم الثوار اليونانيون في هذه المدينة عن ثمانية آلاف شخص ، تركت جثثهم في العراء مما أدى إلى انتشار أوبئة فتكت باليونان فتكاً ذريعاً . وزادت أغنية شعبية بين الثوار جاء مطلعها على هذا النحو « يجب ألا يبقى عثماني واحد في بلاد المورة ، وقد ترجعها الثوار من الناحية العلمية بذبح آلاف المسلمين في أنحاء شبه جزيرة المورة . وأسهم رجال الدين اليونانيون إسهاماً فعلياً في المذابح العامة التي ارتكبها الثوار اليونانيون في المورة ؛ مما أضفى على الثورة اليونانية الطابع الديني إلى جانب الطابع القومي ، وكان الثوار قد لجأوا إلى الرأي العام الأوروبي يستثيرونه لمساعدة شعب مسيحي في نضاله للتخلص من حاكم مسلم هو السلطان العثماني .

وكانت الحكومات الأوروبية قد وقفت أول الأمر موقف الحيطة ، ولقيت استغاثة الثوار استجابة من الشعوب المسيحية على الرغم من اختلاف المذاهب الدينية المسيحية بين هذه الشعوب والثوار . فقد كان يؤلف بين الفريقين وحدة الهدف وهو إنزال الهزيمة بالسلطان العثماني المسلم ، الذي يحكم شعباً مسيحياً لأول مرة في شرقي أوروبا . وفضلاً عن ذلك كان الأوروبيون ينظرون إلى الثوار اليونانيين على أنهم سلالة هوميروس وحفدة بركليس . وتألفت لجان في باريس ولندن وجنيف لمساعدة الثوار ولإمدادهم بالأموال والأسلحة والمتطوعين ، وكان أشد المتحمسين لهم بيرن Byron الشاعر الإنجليزي الذي ذهب إلى المورة في أغسطس - آب - عام ١٨٢٣ ليثير مزيداً من الحماس في نفوس اليونانيين وتكثيف عدد الثوار . وقد توفي في مدينة مسولونجي Mescologhi في اليوم التاسع عشر من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٢٤ ، ونظر إليه الثوار على أنه من أبطال الثورة ، وأقام له الشعب اليوناني فيما بعد التماثيل في عدة مدن وأطلق اسمه على شوارع المدن والقرى الجبلية وفاء لذكراه .

ولم يقف السلطان محمود الثاني مكتوف اليدين إزاء هذه الثورة وما تخللها من مذابح عامة ، فقد اتخذ عدة إجراءات . كان من بينها إرسال قوات عسكرية لإخماد الثورة ، ولكنها فشلت في إنجاز مهمتها . وكان الإجراء الثاني هو إجراء مذابح عامة بين كبار اليونانيين مثل باش ترجمان الباب العالي^(١) وعدد من كبار الفلاريين . ولما اتسع نطاق مذابح المسلمين على يد الثوار ، واشدرك بعض رجال الدين اليونانيين في العمليات الحربية وفي ذبح المسلمين أمر

(١) يطلق عليه كبير مترجمي الباب العالي أو الترجمان الأول .

السلطان بذبج جريجورى الخامس بطريك الكنيسة اليونانية فى إستانبول . وعلقت جثته ثلاثة أيام على بوابة قصره ، ثم جاء اليهود وأنزلوا الجثة وطافوا بها فى شوارع العاصمة ، وهى على الأرض ثم القوا بها فى البحر^(١) ، ولم ترهب الثوار المذابح التى أمر بها السلطان فعضوا يفتحون الحصون ويفتكون بحامياتها وبالمدينين المسلمين فى المناطق القريبة منها على نحو ما فعلوا فى تريبولتزا . ورد العثمانيون عليهم بإجراء مذابح فى جزيرة خيوس Chios وغيرها . وكان التصحر حليف الثوار فى الفترة من سنة ١٨٢١ حتى سنة ١٨٢٥ ؛ لتفوق اليونانيين فى البحر ولتدقيق المساعدات العسكرية والمالية على الثوار . ولم يغير المركز الحربى للطرفين إلا بعد أن استعان السلطان بمحمد على باشا والى مصر .. فأرسل حملة بقيادة ابنه إبراهيم نزلت فى المورة فى فبراير - شباط - ١٨٢٥ ، وأنزلت الحملة المصرية بالثوار هزائم أليمة متلاحقة مما أدى إلى تدخل الدول الأوروبية . وكانت روسيا قد أعلنت أنه لا بد من التدخل لإنقاذ الشعب اليونانى من الغناء^(٢) ، وقررت منح الثوار الاستقلال الذاتى لليونان ثم جعلته استقلالاً تاماً تضمنه الدول الأوروبية الكبرى ؛ كى تغل يد روسيا عن التدخل فى شئون اليونان إذا بقيت مستقلة استقلالاً ذاتياً . ويعد منح اليونان الاستقلال التام من أهم معالم الدراسات التاريخية البلقانية ، كما أنه يمثل مرحلة من مراحل انكماش رعة الدولة العثمانية فى أوروبا .

مذابح المسلمين فى بلغاريا

بينما كان كبار ساسة أوروبا يفكرون فى كيفية قضاء عطلتهم فى مستهل صيف ١٨٧٥ ، ويعتقدون أن فى استطاعتهم قضاء فترة راحة طويلة بعد أن تمت تسوية الأزمة الفرنسية الألمانية ، فوجئوا بقيام ثورة فى الهرسك والبوسنة . ولم يعبأ أحد بهذه الثورة أول الأمر غير إجناتيف Ignatiev السفير الروسى فى إستانبول ، وكان الرأى السائد لدى رجال السياسة أنها من الثورات العادية الوقوع فى الدولة . ولكن لم يكد يمر شهر واحد حتى اضطروا إلى توجيه أنظارهم نحو البلقان ونحو الدولة العثمانية ، ومن سوء حظ الأخيرة أنها تمهلت فى إخماد الثورة وفشلت فى القضاء عليها ؛ إذ سرعان ما امتدت الثورة إلى الشعوب البلقانية المجاورة منتهزة هذه الفرصة للاستقلال نهائياً عن الدولة العثمانية ، وكان البغارايين من بين هذه الشعوب . واكتسبت ثورتهم أهمية خاصة ؛ لأن عدداً من الحكومات والشعوب الأوروبية اتخذت منها مادة خصبة للتشهير بالدولة العثمانية ابتغاء استفزاز الرأى العام الأوروبى ، وإعادة فتح باب المسألة الشرقية . وتوزيع ممتلكات الدولة أسلاباً بين الدول الأوروبية .

اشتعلت الثورة هادرة فى بلغاريا فى شهرى مايو ويونيو - آيار وحزيران - عام ١٨٧٦ ،

(١) تشمل بعض اليونانيين فى ظلمة الليل وانتشلوا جثة البطريرك من البحر ، وأبحروا بها إلى أوديسا حيث تم دفنها ، ثم نقلت الجثة بعد خمسين عاماً إلى الكاتدرائية الكبرى فى أثينا حيث لبنت .

(2) Grant A.J. and Temperley Harold; op cit., p. 204.

وكانت روسيا وراء هذه الثورة . وكانت قد بدأت في شكل عصيان في سبتمبر وأكتوبر - أيلول وتشرين أول - من العام السابق ، واستطاعت الدولة أن تقضى عليها في مهدها بواسطة باشي بوزوق عساكرى أى قوات غير نظامية أرسلتها إلى بلغاريا . ولكن حدث أن تسال عملاء روس في أوائل شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٧٦ إلى هذه الولاية ، وخططوا لثورة يقوم بها السكان المسيحيون الصقالية الأرثوذكس - وتجمعهم مع الروس وحدة الجنس والعقيدة والمذهب الدينى - وقام هذا التخطيط على تحريك ثورة تبدأ بمذابح عامة يقوم بها الثوار ضد المسلمين . وفى الوقت ذاته ، ينشط الثوار فى إشعال الحرائق فى عدة مدن . وذكر العملاء أن الروس قد صحت عزيمتها على شد أزر الثوار وعلى تدخل قواتها لتأييدهم ، إذا تعرضوا لهزيمة وتعويض خسائهم . وتدفقت الأسلحة والأموال سراً إلى الثوار عن طريق ولاية الأقالق ، وهى جزء من رومانيا الحالية وتجاور بلغاريا . وكانت الاتصالات للتخطيط للثورة قائمة على قدم وساق بين عملاء الروسيا والبلغاريين . وكانت الاجتماعات تتم نارة فى بلغاريا ، ونارة أخرى فى رومانيا ، التى ازدحمت بعدد كبير من البلغاريين على اختلاف نوعياتهم .

وكان من أسباب تدمير البلغاريين أن الدولة العثمانية قد أنزلت فى بلغاريا عائلات من الشراكسة هربوا من حكومة الروسيا طلباً للاحتماء بالدولة . وانتهز عملاء الروسيا فرصة هذه الهجرات الإسلامية ، التى تمت تحت إشراف السلطات العثمانية ، فأدخلوا فى روع البلغاريين أن الدولة تبغى إقطاع أراضيهم لهؤلاء الشراكسة واستبعاد المسيحيين أصحاب البلاد الأصليين .

إنشاء الإكساركية البلغارية :

وفوق هذا كله كان هناك سبب هام جداً شجع البلغاريين على القيام بثورتهم ؛ فقد ازدادوا عتواً وجبروتاً واعتزازاً بقوميتهم وبأنفسهم بعد أن أصدر السلطان عبدالعزيز فرماناً مؤرخاً فى اليوم الحادى عشر من شهر مارس - آذار - عام ١٨٧٠ بإنشاء كنيسة خاصة بهم مستقلة عن الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية - اليونانية - فى إستانبول ، وبذلك تحرر البلغاريون الأرثوذكس من نفوذ البطريرك اليونانى فى إستانبول ، والذي كانت له زعامة دينية على جميع الصقالية المسيحيين فى بلاد البلقان مثل البلغاريين والصرب . ونص هذا فرمان على أن يكون بطريرك الكنيسة الجديدة من أهل بلغاريا ، وأن تصدر براءه أى أمر سلطاني بتعيينه فى منصبه . وكان يطلق على شاغل هذا المنصب الدينى الرياسى لقب إكسارك Exarch ومن هذه اللفظة اشتقت عبارة «الإكساركية البلغارية» ، The Bulgarian Exarchate ، ومعناها الكنيسة السلافية ذات البطريرك البلغارى .

وقد نضافر عاملان على إنشاء الكنيسة البلغارية ، كان أولهما : أن الدولة العثمانية كانت تنقم على اليونانيين اشتراكهم فى الثورات التى قام بها سكان جزيرة كريت المسيحيون

ضد الحكم العثماني ، وشد أزرهم وإمدادهم بالأسلحة والذخائر والمتطوعين ، وإسهامهم إسهاماً فعلياً في المذابح الوحشية التي ارتكبتها الكريستيون المسيحيون ضد مسلمي الجزيرة . وكان من رأي فولاد باشا ، أنه يجب عزل اليونانيين عن المسيحيين الآخرين قدر الاستطاعة ، وإبعاد البلغاريين عن سيطرة الكنيسة اليونانية ، . وكان غالي باشا يشاطره هذا الرأي . واستطاع الاثنان أن يقنعا السلطان عبدالعزيز بالأخذ برأيهما . أما العامل الثاني فكان الضغط الشديد الذي مارسه الروسيا على السلطان لإنشاء هذه الكنيسة تأسيساً على أن البلغاريين يشكلون قومية متميزة ، ويجب أن تكون لهم كنيسة مستقلة عن الكنيسة اليونانية وتضم شملهم . وكان الهدف الحقيقي للروسيا هو دعم حركة الجامعة الصقلبية Panславism التي تنادت إليها ، واستهدفت منها ضم جميع الصقلابة الأرثوذكس في أوروبا تحت جناحها ، أملاً في قضائها على الوجود العثماني في أوروبا . وكان من أكبر دعاة هذه الحركة هو إيجانتييف Ignatiev سفير الروسيا في إستانبول . وكان هدفه الأساسي العمل على انهيار الدولة العثمانية أو وقوعها تحت السيطرة الروسية (١) .

واستجاب السلطان عبدالعزيز لطلب الروسيا ، لأنه اعتقد أن إنشاء الإكساركية البلغارية يتماشى مع سياسة «فرق واحكم» *divide et timpera* إذ كانت سياسة الدولة تنجه إلى تعميق الانقسام بين العناصر المسيحية في البلقان مثل اليونانيين والبلغاريين والصرب وغيرهم ؛ نظراً للصعاب التي كانت تواجهها الدولة في دعم نفوذها بين هذه العناصر . ومما هو جدير بالذكر أن صدور براءة ، تعيين أول إكسارك تنفيذاً لفرمان ١١ مارس - آذار - ١٨٧٠ قد تأخر سنتين بسبب معارضة البطريرك اليوناني في إستانبول ، فلم تصدر هذه «البراءة» إلا في سنة ١٨٧٢ ، بعد أن حاول البطريرك اليوناني إقناع السلطان عبدالعزيز بإلغاء الفرمان ، الذي أصدره عام ١٨٧٠ بإنشاء الإكساركية البلغارية . ولكن باءت محاولاته بالإخفاق ، ولم ينجح إلا في تأخير تعيين البطريرك البلغاري سنتين . فلما صدرت براءة تعيينه أصدر البطريرك اليوناني قرار الحرمان ex-communication ضد الإكسارك ورجال الدين التابعين له وأتباع الكنيسة البلغارية . وقد أوجد إنشاء هذه الكنيسة الجديدة صراعاً دينياً حاداً في البلقان بين اليونانيين أو البطريركيين Patriarchists وبين البلغاريين أو الإكساركيين Exarchists وسارع الفريقان إلى تكوين عصابات من قطاع الطرق مستخدمين شتى الأسلحة ، وأخذ كل فريق يثبت صحة مذهبه بالضربات القاتلة . ويعد إنشاء الإكساركية البلغارية نقطة بارزة في تاريخ الدراسات البلقانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وبالتالي في تاريخ الدولة العثمانية (٢) .

(١) الدكتور محمد مصطفى صفوت : مؤتمري برلين ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨ .

(٢) عن الإكساركية البلغارية ، انظر كلاً من :

Miller W., op. cit., pp. 344-346.

Grant A., and Temperley, op. cit., pp. 297-298.

Ensor R.C.K., op. cit., p. 41.

ويتعيّن الإكسارك البلغاري ازداد الطابع الديني رسوخاً إلى جانب الطابع القومي للثورة البلغارية على الحكم الإسلامي العثماني .

وبدأ الثوار عملياتهم في كافة أرجاء بلغاريا في أول مايو - آيار - عام ١٨٧٦ بإجراء مذابح عامة بين المسلمين ، الذين كانوا مجردين من السلاح ، فكانت خسائرهم فادحة . وعجز الباشي بوزوق عساكرى ، وهم القوات العثمانية غير النظامية ، عن مواجهة الموقف المتعدد الجبهات . واستنجد الوالى العثماني بإستانبول لترسل له نجدات عسكرية من القوات النظامية . ولجأ - كإجراء مؤقت - إلى توزيع ما لديه من أسلحة على السكان المسلمين . وفي فترة غضبهم رد المسلمون على البلغاريين بالمثّل . ولكن كفة المسيحيين كانت راجحة على كفة المسلمين في هذه المذابح ، فيما عدا قرية باتاق Batak وتقع شمالي جبل رودوب Rhodope وكان أهلها قد انضموا إلى الثوار فهاجمتها قوة من الباشي بوزوق بقيادة عصمت أغا وزميله محمد أغا . وأعمل أفراد القوة القتل في سكان القرية ، ولم يفرقوا بين ذكر وأنثى أو بين شاب ورجل طاعن في السن . ويقول بارنج أحد رجال السفارة البريطانية في إستانبول بعد زيارته للقرية إن مذبحه باتاق تعد أشنع جريمة وحشية لطخت تاريخ القرن التاسع عشر ، وإن عدد سكان القرية كان سبعة آلاف شخص لم ينج منهم إلا ألفان فقط . وسنلتقى بهذه الشخصية البريطانية بعد قليل ، وكان من أكبر المتحاملين على الدولة العثمانية في مذابح البلغاريين ، على النقيض من رئيسه سير هنرى إليوت Sir Henry Elliot السفير البريطاني في إستانبول .

هياج الرأي العام الإسلامي :

المطالبة بمعاملة المسيحيين بالمثّل :

وقد ثار الرأي العام الإسلامي في الدولة على المذابح ، التي تعرض لها المسلمون في بلغاريا . وقام طلبة المدارس الدينية في العاصمة وكذلك أتباع الطرق الصوفية بمظاهرات صاخبة ضد السلطان عبدالعزیز ، واعتبره المتظاهرون مسؤولاً عن هذه المذابح وعن الارتباكات المالية التي عانت منها الدولة ، واتهموا المصدر الأعظم بأنه ذو ميول أو اتجاهات روسية Russophi ، واستقر رأى معظم الوزراء ومن إليهم من كبار المسؤولين على ضرورة عزل السلطان عبدالعزیز . واستصدروا فتوى من حسن خير الله أفندي شيخ الإسلام تجيز عزله تأسيساً على أنه «مختل الشعور ، وليست له دراية بالمسائل السياسية ، ولتبذيره في إنفاق أموال الدولة ، وإخلاله بالمسائل الدينية والدنيوية ، وتسببه في خراب الدولة ، وفساد الأمة الإسلامية» . وتم عزل السلطان عبد العزيز في الثلاثين من شهر مايو - آيار - عام ١٨٧٦ ، وعين مكانه السلطان مراد الخامس . ولم تمض إلا أيام ذات عدد حتى جاز السلطان عبدالعزیز إلى ربه في ظروف غامضة . أما السلطان الجديد مراد الخامس ، فقد خلع

هو الآخر بعد ثلاثة شهور من تعيينه . وصدرت فتوى من شيخ الإسلام تجيز خلع بناء على إصابته بخبل في قواه العقلية^(١). وعين مكانه أخوه عبد الحميد الثاني في اليوم الحادى والثلاثين من شهر أغسطس - آب - عام ١٨٧٦ ، واستغل الثوار البلغاريون هذه الهزات العنيفة المتلاحقة التى تعرض لها العرش العثمانى فى هذا الوقت العصيب ، ووسعوا نطاق عمليات مذابح المسلمين بحيث شملت النساء والأطفال . ولما وصلت القوات النظامية من الجيش العثمانى إلى بلغاريا ، استطاعت السيطرة على الموقف ، واستخدمت العنف فى إخماد الثورة . وإزاء هذه النكسة التى أصابت ثورة بلغاريا ، أذاع المرجفون فى أوروبا طرولاً وعرضاً أنباء مبالغاً فيها عن المذابح التى تعرض لها البلغاريون ، وذهبوا إلى أن الدولة العثمانية بإقدامها على هذه المذابح قد ارتكبت وحشية لم ير لها القرن التاسع عشر من قبل مثيلاً .

خطف فتاة مسيحية اعتنقت الإسلام :

وفى هذا الوقت العصيب وقع حادث مؤسف أدى إلى تصعيد الموقف المتأزم بين الدولة العثمانية وبعض الدول الأوروبية الكبرى ، التى اتهمت الدولة بأنها ممعة فى ممارسة تعصبيها الدينى ضد المسيحيين ، على النقيض من الدول الأوروبية التى تضع فى اعتبارها الأول سياسة التسامح الدينى مع رعاياها دون تمييز بينهم فى الدين أو المذهب . وأرادت أن تتخذ من هذا الحادث ذريعة للتدخل فى شئوننا وتمزيق أوصالها .

ويتلخص هذا الحادث طبقاً لرواية ميلر Miller فى أن فتاة مسيحية بلغارية اعتنقت الإسلام حديثاً ، تعرض لها بعض اليونانيين فى اليوم الخامس من شهر مايو - آيار - عام ١٨٧٦ فى أثناء وجودها فى محطة السكة الحديدية فى مدينة سالونيك ، ومزقوا غطاء وجهها - اليشمك Yashmak - وخطفوها وأخفوها فى دار قنصل الولايات المتحدة الأمريكية فى هذه المدينة . وانتشر الخبر بين المسلمين ، وتزعهم عدد كبير من غوغائهم ، صبوا جام غضبهم وتعصبيهم الدينى على قنصل فرنسا وقنصل ألمانيا . وكان القنصل الأخير من رعايا بريطانيا ، وقع عليه اختيار حكومة برلين ليمثل المصالح الألمانية فى مدينة سالونيك . واستطاع هؤلاء المسلمون القبض على القنصلين وساقوهما إلى أحد مساجد المدينة حيث تم قتلها فى اليوم السادس من الشهر ذاته . وألقت السلطات العثمانية القبض على ستة من رعاى المسلمين الذين تزعموا الحركة وأمرت بشنقهم فوراً^(٢) ، ولعل السلطات العثمانية أرادت أن تنفى عن نفسها شبهة الاشتراك فى تدبير قتل القنصلين . ولكن هذا التصرف من جانب السلطات العثمانية لم يكن كافياً فى نظر الحكومات الأوروبية ، التى اتهمت الدولة بالترأخى فى حماية القنصلين ، ونظرت إلى قتلها على أنه أشد خطراً وأكثر أهمية من مذابح البلغاريين . ومن ثم لجأت إلى

(١) نشر الأستاذ محمد فريد بك النصين الكاملين لنهايتى الفترتين فى كتابه ص ٢٧٦ ، ص ٢٨٤ على التوالى .

(2) Miller W.; op. cit., p. 367.

تدبير سياسية وعسكرية ، مستشير إليها بعد حين .

أما محمد فريد بك فيذكر هذا الحادث في صورة أدنى إلى الحقيقة ، وتتماشى مع المنطق ومع تسلسل الأحداث ، فيقول : إن هذه الفتاة قد وصلت في الخامس من شهر مايو - آيار - ١٨٧٦ إلى سالونيك لتتخذ الإجراءات الشرعية لإشهار إسلامها أمام قاضي المدينة . وكانت في حراسة بعض الجنود العثمانيين ، وفي طريقها إلى دار المحكمة تعرض لها بعض رعايا اليونانيين واعتمدوا على كثرتهم العددية ، وانهالوا ضرباً على الجنود العثمانيين حتى استطاعوا خطف الفتاة وأخفوها في دار فصل الولايات المتحدة الأمريكية ، ثم نقلوها إلى دار أحد كبارائه . وانتشر الخبر سريعاً في أوساط المسلمين فثار ثائرتهم ، واحتشدوا أمام دار والي العثماني وطلبوا منه البحث عن الفتاة ، ووعدهم والي باتخاذ الإجراءات الكفيلة بإنقاذ الفتاة ، ولم تثر جهود والي في هذا الصدد . وفي اليوم التالي اجتمعت حشود كاثرة من المسلمين في أحد المساجد واتهموا والي بالتقاعص عن إنقاذ الفتاة ، وانتشرت الشائعات بأن الفتاة محتجزة سراً في دار فصل ألمانيا ، وفي أثناء هذا الهياج حضر قنصل فرنسا وألمانيا . ويقال إنهما دخلا الجامع . ولتواتر الإشاعة بأن البنت في بيت قنصل ألمانيا ازداد الهياج . وفي أقل من القليل بلغت للجنة منتهاهما من المجتمعين ، وتعدوا على القنصلين بالقتل^(١) .

عقد مؤتمر دولي في برلين لبحث حماية رعايا الدولة المسيحيين :

تطابرت الأنباء عن هذا الحادث إلى العواصم الأوروبية ، واجتمع في برلين في اليوم الحادي عشر من شهر مايو - آيار - عام ١٨٧٦ ، أي بعد مضي أربعة أيام على مقتل القنصلين - مؤتمر ثلاثي ضم بسمارك المستشار الألماني ، وأندراسي وزير خارجية النمسا والمجر ، وغوريتشاكوف إسكندر^(٢) Gortchakov Alex. المستشار الروسي . ويلاحظ أن الدول الثلاث التي اشتركت في هذا المؤتمر كانت ، تشكل ماعرف في تاريخ أوروبا الحديث «باتحاد القياصرة الثلاثة Dreikaiserbund الذي تكون في سنة ١٨٧٢ ، واستمرت اجتماعات المؤتمر ثلاثة أيام أصدر في نهايتها لائحة برلين أو مذكرة برلين Berlin Memorandum ، وهي مذكرة شديدة اللهجة طالبت الباب العالي باتخاذ إجراءات رادعة لحماية الرعايا المسيحيين الخاضعين للدولة وتحسين أوضاعهم ، وأن يوافق الباب العالي على تشكيل لجنة دولية لمراقبة تنفيذ ما جاء في المذكرة ، وأن تبرم هدنة مع الثوار لمدة شهرين أو سنة أسابيع للوصول إلى إتفاق مرض الثوار.

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩٩ .

وانظر رواية مصطفى كامل باشا عن هذه الحادثة في كتابه :

المسألة الشرقية ، ج ١ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٠٩ ، ص ص ٢١٥-٢١٧ .

(٢) توجد شخصيتان تحملان الاسم ذاته : الأولى الأمير إسكندر غوريتشاكوف ، والثانية الأمير ميخائيل غوريتشاكوف .

فإنذا لم يصل الباب العالي إلى عقد مثل هذا الاتفاق .. فإن الدول ستلجأ إلى استخدام القوة لتنفيذ ما جاء في مذكرة برلين^(١) .

وعرض المؤتمر على بريطانيا وفرنسا وإيطاليا الاشتراك في التوقيع على هذه المذكرة ، فرفضت بريطانيا متذعرة بأنها لم توجه إليها الدعوة للاشتراك في المؤتمر الثلاثي . وكان دزرائيلي - لورد بيكونزفيلد Beaconsfield ، فيما بعد - رئيس الوزارة البريطانية يرمى إلى عدم تدخل روسيا في مسائل الدولة العثمانية ، وأن من الأفضل ترك العثمانيين يفصلون فيها بما يرون . وأصدرت الوزارة البريطانية في اليوم الرابع والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨٧٦ الأوامر إلى وحدات من الأسطول البريطاني بالتحرك إلى خليج بيسكا Besika ليكون على أهبة التوجه إلى البوسفور ، إذا أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية وحاولت احتلال إسطنبول . أما فرنسا وإيطاليا فقد وافقتا على الاشتراك في مذكرة برلين ، ويلاحظ أن فرنسا كان قد تأثر مركزها الدولي عقب هزيمتها في الحرب السبعينية ، وإن كانت ذائبة السعي لاستعادة مركزها السابق . أما إيطاليا التي كان يطلق عليها صغرى الدول الكبرى فكانت تريد أن تشبع غرورها بمواكبة الدول الكبرى . أما الباب العالي فوقف موقفاً سلبياً من مذكرة برلين لعلمه تعذر اتفاق الدول الكبرى فيما بينها لتباين أطماعها وأهدافها ولعدم موافقة بريطانيا على المذكرة . وانصرف الباب العالي للتصدي للثورات المسيحية التي اندلعت في أنحاء شتى في شبه جزيرة البلقان ، ولمواجهة المؤامرات التي كانت تحيكها روسيا ضد الدولة العثمانية ، وكان الموقف يتدهور وينذر بأن الحرب آتية لا ريب فيها . وكان تقدير الدولة للموقف السياسي والحربي سلبياً ، فقد تطورت الأحداث تطوراً أدى إلى إعلان روسيا للحرب في اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٧٧ على الدولة ، وانضمت إلى روسيا كل من رومانيا والصرب والجبل الأسود .

تشهير جلاستون بالدولة العثمانية :

تطاولت الأنباء المبالغ فيها عن مذابح البلقاريين المسيحيين إلى جلاستون زعيم حزب الأحرار في إنجلترا ، فخرج من عزلته حيث كان عاكفاً على التعمق في دراسة اللاهوت . وكان هذا الزعيم السياسي إنجليزياً يفيض تعصباً دينياً ، وكان يمقت الدولة العثمانية مقتاً شديداً بصفتها دولة إسلامية تحكم شعوباً أوروبية مسيحية ، فلما قامت الثورة البلغارية وما اقترنت به من مذابح لم ينظر إليها نظرة موضوعية تتناول جميع جوانبها ، ولكنه نظر إليها نظرة دينية

(١) يلاحظ أن مذكرة برلين المؤرخة في ١٢ من مايو - آيار - عام ١٨٧٦ تضمنت الخطوط الرئيسية التي جاءت في المذكرة التي وضعها أندراسي في الثلاثين من ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٧٥ ، وكانت تشمل الإصلاحات التي يجدر في نظر الدول أن يتبناها الباب العالي لإصلاح حال رعاية الدولة المسيحيين ، وتكليف لجنة دولية للإشراف على تنفيذ الإصلاحات المقترحة .

ضيفة على أنها ثورة شعب مسيحي يلن من مظالم حاكم مسلم ، فقام - مدفوعاً بشعوره الديني المتأجج ومناوئته لحزب المحافظين الذي كان وقتذاك في الحكم - بجولات في المدن الإنجليزية يلقي أمام الجماهير خطباً حماسية مستغلاً بلاغته ومقدرته الخطابية . وتناول المذابح البلغارية ، وهاجم الدولة العثمانية ، ونعتها بأنها نقمة على الحضارة والإنسانية ، وطالب بطرد العثمانيين نهائياً من أوروبا ، هم وما ملكت أيديهم Bag and Luggage ، كما طالب بإنقاذ الشعوب المسيحية الخاضعة لهم ، ونشر في عام ١٨٧٦ كتاباً صغيراً عنوانه

Bulgarian Horrors and the Question of the East.

أى ، الأهوال البلغارية والمساءلة الشرقية . وكان مما جاء في هذا الكتيب .

“Let the Turks now carry away their abuses in the only possible manner, namely, by carrying off themselves. Their Zaptielis and their Mudirs, their Binbashis and their Yuzbachis, their Kaimakams and their Pashas, one and all, bag and baggage, shall, I hope, clear out from the province they have desolated and profaned”. (١)

«فليحمل الأتراك الآن مساوئهم بعيداً ، وبالطريقة الوحيدة الممكنة ، أى يرحلوا بأنفسهم . ومعهم الضبطية (٢) والمدبرون ، والبنباشية (٣) ، واليوزباشية (٤) ، والقائمقامية (٥) ، والباشوات ، جميعاً ، هم وما ملكت أيديهم . ولنى لأمل أن يرحلوا عن الولاية (٦) التى نشروا فيها الخراب وندسوها .

(١) Miller W., op. cit., p. 366.

(٢) معناها رجال الشرطة .

(٣) البنباشية ، ويكتب أحياناً بمباشية ، وأحياناً أخرى بكباشية ومعناها الضباط من رتبة بمباشى ، بنباشى ، بكباشى ، أى مقدم .

(٤) يوزباشية ، مفردها يوزباشى ، أى الضابط من رتبة يوزباشى ، ومعناها فى المصطلح العسكرية الحديث نقيب .

(٥) القائمقامية مفردها قائمقام ، أى الضابط الذى يحمل هذه الرتبة . وتعادل فى المصطلح العسكرية الحديث عقيد .

(٦) يقصد جلاستون من هذه العبارة بلغاريا . ويستند معظم المؤرخين الإنجليز إلى هذه العبارة ، وكانوا فى مجموعهم متعاطفين مع جلاستون ، ويقررون أنه لم يطالب بطرد العثمانيين من جميع ممتلكاتهم فى أوروبا . ولكن الحقيقة أنه طالب فى موطن آخر فى كتيبه (ص ٥٤) بضرورة طرد العثمانيين من البوسنة والهرسك . ويستشف الدارس المحايد من كتابة جلاستون أن هدفه النهائى كان طرد العثمانيين من جميع ممتلكاتهم فى أوروبا ، وإنقاذ الشعوب المسيحية الخاضعة لهم من سيطرتهم .

ويذكر أحد المؤرخين الإنجليز أنه بيع من هذا الكتيب في خلال ثلاثة أو أربعة أيام عدد ضخم بلغ أربعين ألف نسخة ^(١) . ومن المحتمل - إن لم يكن من المؤكد - أن هذا الرقم مبالغ فيه إلى حد كبير . ولكن المهم أن الخطب التي ألقاها جلاستون والكتيب الذي نشره ^(٢) كانا أول وأشهر وأخطر حملة إعلامية سياسية ضد الدولة العثمانية، قام بها زعيم سياسي في تاريخ السياسة البريطانية . وقد وضع جلاستون كتيباً ثانياً باسم Lesson in Massacre أى «دروس في المذابح» . ولكن لم يكن لهذا الكتيب الثاني الشعبية العريضة أو الأثر القوي الذي ظفر به الكتيب الأول ، ويقول جلاستون إنه منذ المذابح التي تعرض لها البلغاريون جعل من المسألة الشرقية شاغله الأول . ولم تكن تسوية المسألة الشرقية في نظره سوى عقد مؤتمر دولي لتصفية الدولة العثمانية بتطبيع أوصالها، وتخليص الشعوب المسيحية الخاضعة لها من السيطرة العثمانية ومنحها الاستقلال ، أو تحويلها إلى مناطق نفوذ للدول الأوروبية الكبرى أو احتلالها عسكرياً أو ضمها إليها .

تحليل موقف جلاستون :

ولنا عدة ملاحظات على حملات التشهير ، التي قام بها جلاستون على المذابح البلغارية:

أولاً : أنه أفاض في الكلام عن المذابح التي تعرض لها البلغاريون ، ولم يتعرض للمذابح التي ذهب ضحيتها المسلمون ، وهي ظاهرة عامة في كافة المذابح التي لاقتها ألسنة المؤرخين والباحثين الأوروبيين في تاريخ الدولة العثمانية ، كما سبق أن ذكرنا .

ثانياً : أنه لم يذكر أن البلغاريين هم الذين أخذوا زمام المبادأة بذبح المسلمين . وأن المذابح التي قام بها المسلمون جاءت متأخرة وكانت دفاعاً عن أنفسهم ، وأن البلغاريين لم تكن لديهم الشجاعة ، مع توافر الأسلحة لديهم والتي تدفقت عليهم من عملاء الروسيا ، للوقوف في مواجهة عسكرية ضد القوات العثمانية ، وإنما اختاروا المدنيين المسلمين هدفاً عسكرياً لهم . وكانت كل جريرتهم في نظر البلغاريين أنهم عثمانيون أصلاً أو بلغاريون اعتنقوا الإسلام ، وهم في كلتا الحالتين سوائهم أهل للبلغاريين المسيحيين ذبحهم واستصلاهم .

ثالثاً : تناسى جلاستون حرب الأفقيون الأولى (١٨٣٩-١٨٤٢) ، وحرب الأفقيون الثانية

(١) Ensor R.C.K., op. cit., p. 45.

(٢) يذكر إنسور أن جلاستون نشر كتيبه أولاً ، ثم قام بجولته في المدن الإنجليزية مهاجماً الدولة العثمانية، ناعياً عليها ارتكابها المذابح البلغارية . وهذه مسألة شكلية ، ولكننا أثرتنا الإشارة إليها تماشياً مع المبدأ القانوني ، وهو «الأخذ بالأحوط» .

(١٨٥٦-١٨٥٧) اللتين شنتهما بريطانيا على شعب الصين لإجباره على الاتجار في الأفيون كسلعة تجارية وعلى تعاطيها . وتناهى أن بريطانيا قد استخدمت أحدث الأسلحة البرية والبحرية ، وقصفت بالمدافع والقنابل الجيش والشعب والعصاف ، ونشرت المذابح والحرائق والخراب في الصين^(١) .

(١) لم تكن الصين تعرف الأفيون إلا بعد أن تسلسل التجار البرتغاليون والهولنديون ، ونزلوا في مدينة كانتون Canton في جنوبي الصين في القرن السابع عشر ، فأخذت هذه السلعة تظهر في البلاد بالتدريج وفي نطاق محدود جداً إلى أن دخل رجال من بريطانيا الميكان ، وأخذوا ينقلون الأفيون كسلعة تجارية من الهند إلى الصين بمقايير متزايدة عاماً بعد عام .

وبلاحظ أن الهند كانت أكثر الدول إنتاجاً للأفيون . وكان حكام الهند - سواء على عهد شركة الهند الشرقية البريطانية أو على عهد تبعيةها المباشرة للحكومة البريطانية (وزارة الهند) - حريصين على التوسع في إنتاج الأفيون وعلى إيجاد أسواق ضخمة لاستهلاكه . ورأت بريطانيا أن الصين بلاد مترامية الأطراف كثيفة السكان تعد خير سوق للاتجار فيه ، وقد اضطرت حكومة بكين إلى إصدار أول مرسوم سنة ١٧٢٩ بمنع الاتجار في الأفيون واستهلاكه . وتوالت المراسيم في هذا الصدد . ولم تعبأ بها شركة الهند الشرقية البريطانية التي اشتركت في هذه التجارة بعد أن كانت مقصورة على أفراد وجماعات من التجار ، وتظاهرت أنها لا تقرر هذه التجارة ، ولكنها ما لبثت أن كشفت عن وجهها القبيح ، فزادت من مساحة الأراضي الهندية لزراعة الأفيون . وبمضت في تصدير معظم محصول الأفيون إلى الصين في سفن مجهزة بالمدافع حتى إذا اقتربت من شواطئ الصين ، انطلقت منها زوارق سرية تحمل صناديق الأفيون في حماية رجال مسلحين . ولما اعترضت حكومة بكين لدى بريطانيا على إصرارها على تصدير هذه السلعة ، شنت بريطانيا حرباً على الصين عام ١٨٣٩ من أجل حرية الاتجار في الأفيون ، واستطاعت هذه الحرب ، التي تسمى حرب الأفيون الأولى ، إلى عام ١٨٤٢ . وكانت عبارة عن مذابح ارتكبتها القوات البريطانية مدججة بأحدث الأسلحة وأشدّها فتكاً ، وتساقط الصينيون تل . وانتهت هذه الحرب بهزيمة ساحقة لجيش الصين الذي لم يكن لديه أسلحة ذات خطر ، وأبرمت معاهدة نانكين Nankin ، وتقرر بمقتضاها أن تستولى بريطانيا على جزيرة هونغ كونج Hong-kong ، وهي ذات موقع إستراتيجي هام ، وأن تدفع حكومة الصين غرامة حربية ضخمة لبريطانيا ، وتعويضات مالية للتجار الذين أضرّبوها في تجارة الأفيون بسبب العمليات الحربية . كما تضمنت المعاهدة نصاً يقرر أن تهريب الأفيون خروج على القانون . ويكشف هذا النص عن نفاق السياسة البريطانية تجاه الشعوب الشرقية غير المسيحية ؛ لأنه على الرغم من إدراج هذا النص في المعاهدة ، مضت الحكومة البريطانية تضغط على حكومة الصين كي توافق لورد بالمستون Palmerston المنسوب البريطاني في الصين يطلب منه السعي لعقد إتفاقية مع الصين تسمح بدخول الأفيون إلى البلاد كسلعة تجارية ، وأن تقرض حكومة بكين رسوماً جمركية عالية على الأفيون المستورد حتى تزداد حصيلة الرسوم الجمركية ، وبالتالي تتضاعف موارد الحكومة . ولكن رفض إمبراطور الصين هذا الاقتراح بشقيه قائلاً قد أكون عاجزاً عن منع هذه السموم أن تدخل بلادى على كره مني ، لأن بعض الناس تدفعهم شهواتهم وحبيهم للمال الحرام إلى عصيان أمرى . ولكن ليس في العالم قوة تستطيع أن تغريني على أن أستخدم لدولة إيرادات من تسميم شعبي ونشر الرذيلة فيه .

وأصرّت الحكومة البريطانية على موقفها ، وأعدت مستعمرة هونغ كونج لإيلاء التجار والمهريين وحصنتها تحصيناً قوياً . وأعدت فيها مستودعات لتخزين صناديق الأفيون ، ريشاً تنقلها زوارق التهريب=

رابعاً : لم يعمد جلاستون - وهو زعيم حزب الأحرار - إلى التشهير بفرنسا حين أقدمت على إجراء مذابح عامة بين أهل الجزائر عقب احتلالها هذا البلد حين أقدمت على إجراء مذابح عامة بين أهل الجزائر عقب احتلالها هذا البلد عام ١٨٣٠ ، والسبب معروف ، وهو أن الجزائريين شعب عربي مسلم . وفي قاموس الاستعمار الأوروبي بعامة والإنجليزى بخاصة أنه لا تترتب على دولة أوروبية مسيحية إذا غزت بلداً إسلامياً أو بلداً عربياً إسلامياً واستعمرته واستذلت أهله واستغلتهم . ومما يذكر في هذا الصدد أن مصر وقعت قريبة الاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢ على عهد وزارة الأحرار الثانية وكان رئيسها جلاستون ، وكان وزير خارجيتها لورد جرانفيل George Granville وقد شكلت في أبريل - نيسان - عام ١٨٨٠ ، وتلاعبت هذه الوزارة بالألفاظ فوصفت الاحتلال البريطاني لمصر بأنه احتلال مؤقت ، ومع ذلك استطال ثلاثة وسبعين عاماً . كما حدث على عهد هذه الوزارة استيلاء فرنسا على تونس عام ١٨٨١ ، وكانت قد ظفرت عام ١٨٧٨ بموافقة بريطانيا على استيلائها على هذا البلد العربى الإسلامى بعد مفاوضات متعطرة مع لورد سالزبورى Salisbury وزير الخارجية البريطانية^(١) وكان

= وهى زيارى مسلحة تمنعها السلطات البريطانية فى هونج كونج ترخيصاً رسمياً لمزاولة عمليات التهريب فى حماية العلم البريطانى .

واقطعت بريطانيا حادثاً لإشغال حرب ثانية . ابتغاء إكراه حكومة الصين على إباحة تجارة الأفيون . وهذه هى حرب الأفيون الثانية (١٨٥٦-١٨٥٧) . وأغارت القوات البريطانية على بلاد الصين . وأطمرت سكانها بالقنابل ودمرت المدن والقرى . ولم يكن فى مقنور الجيش الصينى أن يقاوم القوات البريطانية ، وأسفرت هذه الحرب عن هزيمة الصين ، وكان من أهم نتائجها اتساع مستعمرة هونج كونج ، بحيث لم تعد مقصورة على الجزيرة المواجهة للساحل ، بل على قسم كبير من الإقليم الساحلى المجاور لها . وبذلك أصبحت المستعمرة البريطانية متصلة اتصالاً مباشراً ببلاد الصين لاتحول بينهما مياه البحر الضيق كما كانت الحال من قبل . واضطرت حكومة بكين فى عام ١٨٥٨ إلى إصدار أمر ببيع استيراد الأفيون ويفرض ضريبة على المستورد منه .

ويعلق كاتب إنجليزى على إشغال بريطانيا حربى الأفيون بقوله «ليس فى التاريخ التجارى الإنجليزى صفحة تلحق ببلادنا غاراً أشنع مما ألحقته بنا وبتجارنا وساستنا قصة الإتجار فى الأفيون مع الصين ، إذا سربناها ببساطة تامة من غير تهويل . فقد شنت إنجلترا أكثر من حرب واحدة على الشعب الصينى الأعزل المسكين ، من أجل الفوائد التى يجنيها المتجرون فى هذه السموم . وقد استولت إنجلترا عنوة على أرض صينية اغتصببتها اغتصاباً ، لكى تجعل منها مرفأً يعتصم به المهربون الذين لم يلبثوا أن اتسعت تجارتهم وتزايد نشاطهم رغم أنف السلطات الصينية . وحصب أى رجل إنجليزى أن يطالع هذه القصة لكى يدرك السبب فى أن الأجانب يحكمون على هذه البلاد بأنهم ، مع إدعائهم التمسك بالإنصاف السامية ، لاتسمح للاعتبارات الإنسانية أن تحول بينها وبين مطامعها» .

انظر : دكتور محمد عوض محمد - الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٦ ، ص ص ٨٦-١٠١ .

(١) كان لورد سالزبورى يشغل منصب وزير الهند فى وزارة المحافظين الأولى ، وكان يرأسها بنيامين دزرائيلى اليهودى - وقد شكلها فى فبراير - شباط - ١٨٧٤ ، ثم نقل فى التعديل الوزارى الذى تم فى إبريل - نيسان - ١٨٧٨ وزيراً للخارجية خلفاً للورد دزرى ، الذى أقصى من منصبه .

== ١٤٢ == صور من حملات التشهير بالدولة (٤) السلطان العثماني رجل أوروبا المريض ==

هدفه هو استرضاء فرنسا والتخفيف من ثورتها ، عندما ترامت إليها أنباء الاتفاقية السرية التي فرضتها بريطانيا في الرابع من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٧٨ على الدولة العثمانية تحت سلاح التهديد ، واحتلت بمقتضاها جزيرة قبرص ونصت الاتفاقية: على أن احتلال بريطانيا لقبرص هو احتلال مؤقت . ومع ذلك استطل إلى الحرب العالمية الأولى ، حيث أعلنت ضم قبرص إليها، وفي سنة ١٩٢٥ طبقت نظام المستعمرات عليها .

ونخلص من هذه الملاحظات إلى أن موقف جلاستون من مذابح البلغاريين كان ينسم بالتحيز الصارخ للمسيحيين ، على الرغم من أنه ينتمى إلى ديانة سحة كريمة هي المسيحية . وقد دفعه هذا التحيز إلى تناقض في موقفه بالنسبة إلى سلبيته في حالات ، أكثر سوءاً وقعت في التاريخ القريب له .

وجدير بالذكر أن حزب الأحرار كان مؤيداً لرئيسه في حملات التشهير التي قام بها . وكان لورد جرانفيل ، وهو من أقطاب الحزب^(١) على رأس المناصرين له في موقفه . كما حصل جلاستون على وعد بتأييد الصحف البريطانية الكبرى ، وعلى رأسها جريدة التايمز The Times لحملات التشهير بالدولة العثمانية ، وكذلك على عدد من كبار الناشرين وكبار المؤرخين الإنجليز^(٢) ومن إليهم من أعلام الفكر في إنجلترا^(٣) .

مذكرة بريطانيا للدولة العثمانية :

عرض وتحليل ونقد

أرسل لورد دربي وزير خارجية بريطانيا مذكرة مؤرخة ، في الثامن عشر من شهر

(١) كان جرانفيل وزيراً للمستعمرات في وزارة حزب الأحرار الأولى التي شكلها جلاستون في ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٦٨ ثم عينه وزيراً للخارجية في ذات الوزارة عام ١٨٧٠ عقب وفاة لورد كلارندون وزير الخارجية في الوزارة ذاتها عام ١٨٧٠ عقب وفاة لورد كلارندون وزير الخارجية . وفي وزارة جلاستون الثانية التي ألفها في أبريل - نيسان - عام ١٨٨٠ ، كان جرانفيل وزيراً للخارجية . وفي وزارة جلاستون الثالثة التي شكلها في فبراير - شباط - عام ١٨٨٦ ، كان جرانفيل وزيراً للمستعمرات . وفي وزارة جلاستون الرابعة التي ألفها في أغسطس - آب - ١٨٩٢ ، لم يظهر جرانفيل في التشكيل الوزاري ، لأنه كان قد توفي في العام السابق (١٨٩١) .

(٢) كان منهم كارليل Carlyle ، وفريد Froude ، وستين Stubbs ، وأكتون ، وجرين Green R. ، وفريمان Freeman .

(٣) نذكر من بينهم : تينيسون Tennyson ، روسكين Ruskin ، وبيرون جونز Burne-Jones ، وداروين Darwin .

ونخلص من ذكر هذه الأسماء الالعة إلى أن أعلام الفكر في إنجلترا ، كانوا من زمرة المهاجمين أو المعارضين للدولة العثمانية .

سبتمبر - أيلول - عام ١٨٧٦ إلى سير هنرى اليوت السفير البريطانى فى إستانبول ، اشتملت على خلاصة تقرير صاف عن مذابح البلغاريين المسيحيين ، تلقاه من بارنج Baring سكرتير السفارة البريطانية فى إستانبول .

وكان الوزير قد عهد إليه بتقصى الحقائق عما نسب إلى العثمانيين من إجراء مذابح عامة فى بلغاريا بين سكانها المسيحيين . وقد جاء تقرير بارنج ، يتشع بالتحيز الصارخ ضد العثمانيين والمبالغة الشديدة فى وصف المذابح والأهوال التى تعرض لها البلغاريون . ولم يبد بارنج أدنى اهتمام فى تقريره بمذابح المسلمين على أيدي البلغاريين ، ولم يذكر أن البلغاريين هم الذين بدأوا عمليات الذبح الجماعى للمسلمين ، ثم ذكر أرقاماً غير مؤكدة عن عدد ضحايا المسيحيين .

ثم طلب وزير الخارجية فى مذكرته أن يوجه السفير اللوم إلى الحكومة العثمانية على ارتكاب تلك المذابح ، وأن يطلب باسم الملكة فيكتوريا من السلطان عبدالحميد الثانى شخصياً - ولم يكن قد استكمل ثلاثة أسابيع على ارتقائه العرش - أن تدفع الحكومة العثمانية تعويضات مالية للذوار ، وأن تعيد على نفقتها بناء مآتهم من كنائسهم ومنازلهم ، وأن تقدم مساعدات للأهالى المسيحيين ، الذين بقوا على قيد الحياة وشردوا من بيوتهم وفقدوا مصادر رزقهم ، وأن تدبر على وجه السرعة وسائل إعاشتهم وتأمين مستقبلهم ، وأن تأمر بإعادة المنهريات والمسروقات إلى ذوبها المسيحيين ، وأن تعيد السيدات المخطوفات إلى بعولتهن ، وأن توقع عقوبات رادعة على الموظفين للعثمانيين ، الذين أمروا بإجراء تلك المذابح ، أو الذين اشتركوا فى تنفيذها أو الذين أظهروا تراخياً فى منعها ، وأن يحكم بلغاريا حاكم قدير بشرط أن يكون مسيحياً .

وإذا أرادت الدولة أن يكون الحاكم مسلماً ، فلا بد من تعيين مستشارين له من المسيحيين حتى يستطيع السكان المسيحيون فى بلغاريا الاعتماد عليهم والاطمئنان عليهم . وأضاف وزير الخارجية إلى هذه المطالب قوله إن الحكومة البريطانية قد استحوذت عليها الدهشة حين تزامت إلى مسامعها أن الباب العالى قد أمر بترقية الذين شاركوا فى ذبح المسيحيين بمنحهم أوسمة .

وقدر وزير الخارجية أن الباب العالى قد أخفيت عليه حقائق الموقف الرهيب فى بلغاريا ، وإلا ما أخذت تلك المذابح هذا الحجم الكبير وهذا العنف البالغ وهذه الوحشية التى تقشع منها الأبدان . وضرب لورد دربي مثلاً بمقتلة قرية باتاق . وقال إنها بدأت فى اليوم التاسع من شهر مايو - آيار - عام ١٨٧٦ ، واستمرت حتى اليوم الحادى والعشرين من شهر يوليو - تموز - من السنة ذاتها . واستطرد فقال إنه لم تكن لمذابح البلغاريين أصداء واسعة وأليمة فى بريطانيا فحسب ، بل امتدت هذه الأصداء إلى كافة أرجاء أوروبا . وأكد أن الدول

الموقعة على معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ لن تقف مكتوفة الأيدي أمام المذابح، التي ارتكبتها الدولة ضد البلغاربيين المسيحيين. وفي ختام المذكرة طلب وزير الخارجية من السفير البريطاني أن يقابل المصدر الأعظم ويترك له نسخة من هذه المذكرة لتنفيذ ما جاء بها .

على هذا النحو جاءت مذكرة وزير الخارجية البريطانية ترديداً لحملات تشهير جلاستون بالدولة العثمانية ، وقد سمحت الحكومة البريطانية لنفسها بالتدخل في صميم الشؤون الداخلية للدولة العثمانية بتقديم مطالب جائرة ، تمس سيادة الدولة على أحد أقاليمها وتآليب الدول الأوروبية عليها ، وهي الدول الأطراف في معاهدة باريس (٣٠ من شهر مارس - آذار - عام ١٨٥٦) ، والتي نصت على منع أي دولة من التدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية . كما أن ثلاثاً من الدول الأطراف في هذه المعاهدة ، وهي بريطانيا وفرنسا والنمسا ، قد وقعت في ١٥ من أبريل - نيسان - عام ١٨٥٦ على معاهدة عرفت باسم معاهدة ضمان استقلال الإمبراطورية العثمانية ، وتماسك أقاليمها ، تعهدت فيها الدول الثلاث بأن تضمن مجتمعة ومنفردة استقلال الدولة وسلامة ممتلكاتها كما تعهدت بعدم التدخل ، مجتمعة ومنفردة أيضاً ، بين السلطان ورعاياه ولا في الإدارة الداخلية للدولة العثمانية . وإذا قامت صعوبات أو استجدت مشكلات بين الدولة العثمانية وغيرها من الدول الأطراف في المعاهدة ، فقبل اللجوء إلى استخدام القوة يجب الاحتكام إلى الدول الأخرى الموقعة على هذه المعاهدة ، وألحقت هذه المعاهدة الثلاثية بمعاهدة باريس وغدت جزءاً منها^(١) . والحق أن معاهدة باريس ، كانت أول معاهدة وقعتها الدولة العثمانية^(٢) لا يكون فيها أي انتقاص لممتلكات السلطان أو إضعاف لقوته... وجعلت أمر استقلال الدولة العثمانية في أمورها الداخلية جزءاً من القانون الدولي والدبلوماسية الأوروبية^(٣) .

ويلاحظ أيضاً أن مذكرة وزارة الخارجية البريطانية أغفلت عدة حقائق في موضوع المذابح .. فلم تتعرض للمذابح التي تعرض لها المعلمون ، ولم تذكر أن البلغاربيين هم الذين بدأوا بذبح المسلمين . ومن المؤسف حقاً أن الحكومة البريطانية عمدت إلى نشر هذه المذكرة في مجموعة وثائق الكتاب الأزرق لسنة ١٨٧٦ ، وهنا مكن الخطورة ، لأن المؤرخين والباحثين في الأجيال التالية استقوا مادتهم العلمية عن المذابح من هذه الوثيقة وغيرها . وفيها طمس للحقائق وقلب للأوضاع وإزهاق للحق وإحقاق للباطل .

(1) Great Britain, Parliamentary Papers, 1856, Vol. 61, pp. 444-445.

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة الثلاثية في باريس في ٢٩ من أبريل - نيسان - عام ١٨٥٦ .

(٢) كان يمثل الدولة العثمانية في مؤتمر باريس كل من غالي باشا وفؤاد باشا .

(٣) الدكتور محمد مصطفى صفوت : المسألة الشرقية ومؤتمر باريس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٢-٥٣ .

نتائج حملات جلادستون التمهيدية بالدولة العثمانية :

كان لحملات التمهيد التي اندفع إليها جلادستون ضد الدولة العثمانية أصداء بعيدة في كافة أنحاء أوروبا ، كما ترتبت على هذه الحملات نتائج خطيرة في السياسة الدولية ، انعكست آثارها على مركز الدولة العثمانية وولاياتها المسيحية البلقانية وموقف الدول الأوروبية الكبرى . وكان من بين هذه النتائج :

أولاً : ساد الاعتقاد في أوروبا - سواء في الدوائر الرسمية أو على الصعيد الجماهيري - أن العثمانيين كانوا هم الجناة في مذابح البلغاريين ، وأن الآخرين هم المجنى عليهم ، ثم جاءت الوثائق الرسمية تؤيد هذه الحقيقة الزائفة في أذهان الأجيال المتعاقبة .

ثانياً : فقدت الدولة العثمانية عطف وتقدير قطاعات كبيرة من الرأي العام في إنجلترا وفرنسا وغيرها .

ثالثاً : ازداد اعتقاد الحكومات الأوروبية أن الدولة العثمانية لم تعد صالحة للبقاء كدولة متماسكة قوية قادرة على تطوير نظمها وتحسين معاملتها رعاياها المسيحيين ، وأن وجودها أصبح يهدد السلام العالمي للخطر ، وأن الحل الأمثل هو استبعادها من الخريطة السياسية لشرقي أوروبا كخطوة أولى ، ثم تقسيم ممتلكاتها ذات الأهمية الإستراتيجية في آسيا ، وإفريقية بين الدول الأوروبية الكبرى .

رابعاً : أما النتيجة الرابعة فتنبثق عن النتيجة السابقة ، وهي أن حملات جلادستون التمهيدية قد وضعت حداً للسياسة التقليدية التي سارت عليها بريطانيا ، وهي المحافظة على سلامة الدولة العثمانية وتماسك ممتلكاتها ، بصفتها دولة كبرى محايدة وحاجزة A Great Neutral Buffer State تحول دون استيلاء روسيا على إسطنبول والمضائق ، والتسليم منها إلى المياه الدفينة ، وتكفل لبريطانيا في الوقت ذاته الاطمئنان إلى مصالحها في حوض البحر المتوسط ومنطقة الشرق الأوسط وسلامة مواصلاتها مع الهند . فلم يكن في مقدور حكومة المحافظين ورئيسها دزرائيلي أن تعلن التمسك بهذه السياسة التقليدية القديمة ، وبالتالي لا تستطيع التدخل للدفاع عن العثمانيين . وأعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية في اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٧٧ ، وكانت هذه رابع وآخر حرب اشتعلت بين هاتين الدولتين في القرن التاسع عشر^(١) . وقد خاضتها روسيا تحقيقاً لأطماعها التوسعية في الدولة العثمانية ، وانتصاراً لحركة الجامعة الصقلية ومساندة للشعوب المسيحية البلقانية . وانضمت كل من رومانيا والصرب والجبل الأسود إلى جانب روسيا . وعبرت القوات الروسية نهر

(1) Miller W.; op. cit., p. 373 .

الدانوب وانسابت مع حليفاتها في اتجاه الجنوب ودخلت بلغاريا، واحتلت أدرنة واقتربت من مشارف الأستانة في شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٨٧. أما في الشرق.. فقد استولت روسيا على معظم أرمينيا. وطلب السلطان عبدالحميد الثاني الصلح. فحددت هدنة في اليوم الحادي والثلاثين من شهر يناير - كانون ثان - تلتها معاهدة سان ستيفانو San Stefano وقد فرضتها روسيا على الدولة العثمانية، في اليوم الثالث من شهر مارس - آذار- وكانت معاهدة ثنائية غير متكافئة، وستكلم عنها في موطن قادم في هذه الدراسة.

جاءت الهزائم العسكرية المتلاحقة التي تعرضت لها الدولة العثمانية في هذه الحرب تأكيداً عملياً ومجسداً لرأى وزارة المحافظين البريطانية في أن سياستها التقليدية تجاه الدولة العثمانية، إنما هي سياسة عقيمة، وأنها مضيعة للأرواح والأموال والوقت والجهود^(١). وكان بنيامين دزرائيلي زعيم حزب المحافظين ورئيس الوزارة وقتذاك ولورد سالزبوري وزير الخارجية يدينان بالرأى القائل إن الدولة العثمانية لم تستفد من الفرصة التي أتاحها لها صلح باريس عام ١٨٥٦ لتنظيم شئونها وتوطيد دعائم ملكها، بل تدهورت أوضاعها المالية والعسكرية وازدادت إمبراطوريتها تزعزاعاً وفشلت في حكم ولاياتها، وعجزت عن دفع فوائد ديونها والوفاء بسائر التزاماتها^(٢).



(1) Seton-Watson R.W.; Disraeli; Gladstone and the Eastin Question. A Study in Diplomacy and Party Politics, London, 1935, P. 423.

(٢) على الرغم من التغيير الجذري الذي طرأ على السياسة التقليدية لبريطانيا تجاه الدولة العثمانية منذ عام ١٨٧٧ أو ١٨٧٨ من الناحية العملية أو التطبيقية، لم تغير بريطانيا موقفها من أطماع روسيا، إذ ظلت حريصة على وقف التوسع الروسي نحو البحر المتوسط، وعلى منع الروس من السيطرة على المضائق، وعلى الحيلولة دون تصلبهم من أرمينيا إلى العراق والشام وغيرها.

انظر: دكتور محمد مصطفى صفوت - مؤتمر برلين إنغ، مرجع سبق ذكره، ص ١٧-١٩.

خدمات الدولة العثمانية للإسلام والعروبة (١)

أولاً : حماية الأماكن المقدسة الإسلامية

من مخططات الصليبية البرتغالية

حماية المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى :

كانت أعظم خدمة أسدتها الدولة العثمانية للإسلام أنها وقفت في وجه الزحف الصليبي الاستعماري البرتغالي للبحر الأحمر والأماكن المقدسة الإسلامية في أوائل القرن السادس عشر الميلادي . فعلى الرغم من أن الدولة أخفقت في طرد الاستعمار البرتغالي من مراكزه في المحيط الهندي ومنطقة الخليج العربي .. إلا أنها نجحت في منع تغلظه إلى الحجاز ، حيث كان البرتغاليون يعتزمون تنفيذ مخطط صليبي مسرف في وحشيقه ، وهو دخول البحر الأحمر واجتياح إقليم الحجاز باحتلال ميناء جدة ، ثم الزحف على مكة المكرمة واقتحام المسجد الحرام وهدم الكعبة المشرفة ، ثم موالاة الزحف منها على المدينة المنورة لنش قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ثم استئناف الزحف على تبوك ، ومنها إلى بيت المقدس والاستيلاء على المسجد الأقصى ، وبذلك تقع هذه المساجد الثلاثة في أيدي البرتغاليين . وكان الأسطول البرتغالي قد نجح في دخول البحر الأحمر وقام بمحاولتين لاحتلال ميناء جدة : كانت الأولى في عام ١٥١٧ والثانية في سنة ١٥٢٠ ولكنه أخفق في محاولتيه ، فأرسل البرتغاليون حملة كبرى إلى ميناء السويس ، باعتبارها قاعدة الأسطول العثماني في البحر الأحمر ، واستهدفوا تدمير هذه القاعدة . ولما بلغوا الطور علموا أن الأسطول العثماني يقف في حالة تأهب ، فارتدوا على أعقابهم دون أن يلتحموا به (١) .

وقررت الدولة اتخاذ اليمن قاعدة حربية للدفاع عن البحر الأحمر ومنع السفن البرتغالية من دخوله كما سبق أن ذكرنا ، ثم عممت هذا المنع على جميع السفن المسيحية بحيث كان على هذه السفن أن تفرغ شحناتها في ثغر المخا في اليمن وتعود أدراجها إلى المحيط الهندي . وكانت شحنات هذه السفن يعاد نقلها على سفن إسلامية ، يعمل عليها بحارة مسلمون ، وترتفعاً

(١) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : المراحل الأولى للوجود البرتغالي إلخ . بحث سبقت الإشارة إليه.

إلى ثغور البحر الأحمر . وكانت حجة الدولة العثمانية في هذا المنع هي أن الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز تطل على مياه البحر الأحمر ، ويجب ألا تدنس مياهه بوجود سفن مسيحية تمخر عباب هذا البحر ، وقد ظل هذا الحظر معمولاً به حتى القرن الثامن عشر .

وجدير بالذكر أن المشروع البرتغالي الصليبي لم يكن الأول من نوعه . فقد حدث في أثناء الحروب الصليبية في الشرق العربي أن تجرأ أحد أمراء الصليبيين واسمه أرناط في المصادر العربية ، وريثه شاتيو في المصادر الأوروبية ، وكان صاحب حصن الكرك ، وقام بمشروع خطير سنة ١١٨٢ لغزو الحرمين الشريفين .. فبنى عدة سفن حملت أجزائها مفككة على ظهور الجمال حتى إبله (إيلات) على خليج العقبة ، وأعيد تركيبها ثم قامت بهجوم على ساحل الحوراء^(١) قرب ينبع ، وأغار الصليبيون على القوافل وأصبحوا على مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة ، واعتزموا الزحف عليها ونبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وإخراج جسده الطاهر ونقله إلى بلادهم . غير أن العالم الإسلامي في الشرق وقتذاك كان تضمه وحدة سياسية قوية على رأسها صلاح الدين الأيوبي . ووقع على مصر واجب حماية الأماكن المقدسة في الحجاز . فما كادت تصل إليه وهو في الشام هذه الأخبار حتى عهد إلى نائبه في مصر العادل سيف الدين بتجهيز قائد الأسطول الأمير حسام الدين لؤلؤ ، ويتعقب هؤلاء الصليبيين في الحجاز ويأبدهم أو أسرهم ، وأمر صلاح الدين بقتل الأسرى ليكونوا عبرة لكل من يتجرأ على الاعتداء على وحرم الله وحرم رسوله^(٢) .

(١) بفتح الحاء وسكون الواو .

(٢) انظر تفصيلات وافية عن هذا الموضوع في بحث عنوانه ، بحر الحجاز في العصور الوسطى - للدكتور حسنين ربيع ، وقد سبق الإشارة إلى هذا البحث في هذه الدراسة .

ثانياً : الدولة حافظ على إسلام وعروبة شمالى إفريقية

الدولة تبسط سيادتها على ثلاثة أقاليم فى شمالى إفريقية :

من الخدمات الجليلة التى أسدتها الدولة العثمانية للإسلام والعروبة ، بل لعل من أعظم خدماتها أنها حافظت على إسلام وعروبة سكان شمالى إفريقية من أخطار الغزو الصليبي الاستعماري الأوروبي ، الذى حملت لواءه البرتغال وإسبانيا والمنظمة الصليبية التى اشتهرت باسم فرسان القديس يوحنا ، وكانت قد اتخذت لها فى نهاية المطاف من جزيرة مالطة مستقراً ومقاماً ، وكان من أهداف هذا الغزو أيضاً إنشاء ممالك مسيحية تنتشر على الساحل الشمال لإفريقية كمرحلة ثالثة ، وبذلك يغزو البحر المتوسط فى المدى البعيد بحيرة مسيحية أوروبية ، ويعقب ذلك فى مرحلة أخرى تغفل صليبي أوروبى جنوباً فى داخل القارة الإفريقية . ولكن تصدت الدولة العثمانية لهذه المشروعات الصليبية الاستعمارية .. فأصبحت أحلاماً وغدت هباءً منبثاً .

بسطت الدولة العثمانية سيادتها على ثلاثة أقاليم فى شمالى إفريقية فى القرن السادس عشر ، وكانت حسب ترتيب دخولها تحت السيادة العثمانية : الجزائر وطرابلس ، وتونس . ولم تعد الدولة نفوذها إلى مراكش - المملكة المغربية حالياً - لأسباب سنعرض لها فى موطن قادم فى هذا الفصل . كان سكان تلك الأقاليم - وبخاصة الجزائر وطرابلس - قد استجدوا بالدولة العثمانية ، على أساس أنها أكبر وأقوى دولة إسلامية اكتسحت دولاً أوروبية عديدة ، وفتحت مصر والشرق العربى الآسيوى . وطالب سكان شمالى إفريقية بإنقاذهم من الزحف الصليبي الاستعماري الأوروبى ، الذى كان خطره يتفاقم يوماً بعد يوم ، واستجابت الدولة لاستغاثاتهم . ولذلك لم يكن دخول العثمانيين إلى شمالى إفريقية نتيجة معارك حربية خاضتها القوات المسلحة العثمانية ضد أمالى البلاد ، أو تدخل مباشر من حكومة إستانبول على غرار ماحدث فى الشام أو مصر أو العراق ، ولكنهم فتحوها منقذين للسكان من أخطار القضاء على دينهم وطمس عروبتهم ، وتحويل بلادهم إلى جزء من العالم المسمى . أما تونس فكان الوضع فيها يختلف اختلافاً جزيئياً عن الوضع فى الجزائر وطرابلس ، أشدت الصراع عليها بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الرومانية المقدسة وكان على رأسها الإمبراطور شارل الخامس .

تبادلت الدولتان الهزيمة والانتصار أكثر من مرة ، وفى إحدى المرات التى انتصر فيها الإمبراطور أقامت البابارية فى روما احتفالات رائعة ابتهاجاً بانتزاع تونس من المسلمين . ونجح الإمبراطور فى أن يصطنع أحد الأمراء ، وهو مولاي الحسن الحفصى ، ليكون عميلاً للاستعمار

وقبل أن يحكم تونس باسم الإمبراطور وتحت حمايته . ولما انتزعت الدولة العثمانية تونس عام ١٥٦٩ وأعادتها إلى رحاب الكتلة الإسلامية دفعت الدولة العثمانية ثمناً باهظاً .. فقد تكون تحالف دولى صليبي ضدها ، أوقع بها هزيمة بحرية فادحة فى معركة لپانت البحرية عام ١٥٧١ ، وشجعت هذه الهزيمة إسبانيا على إعادة غزو تونس وإعادة حكم الحفصيين إليها . ولكنهم لم يحتفظوا بمركزهم سوى عام واحد ، وعاد إليها العثمانيون سنة ١٥٧٤ ليستقر حكمهم فيها وليؤسسوا النيابة الثالثة والأخيرة فى شمالى إفريقيا .

كان من الطبيعى أن يقوم الأسطول العثمانى بدور رئيسى فى هذا الصراع ، الذى احتدم بين الجانبين الصليبي والإسلامى فى شمالى إفريقيا ؛ فالقوات الصليبية كانت تأتى من أوروبا عبر البحر المتوسط إلى الأقاليم الشمالية للقارة الإفريقية . وكانت الأساطيل الإسبانية وقوات فرسان القديس يوحنا فى رودس أولاً ، ثم فى مالطة ثانياً وغيرها من القوى البحرية تتردد على القواعد العسكرية التى أنشأها الصليبيون ، وتتناثر على طول الساحل الشمالى لإفريقية من مراكش حتى طرابلس . وكان الأسطول العثمانى فى القرن السادس عشر يعمل متعاوناً مع القوات البحرية ، التى كان يقودها قادة محليون نشأوا فى خدمة الأسطول العثمانى .

ولاستطاع إدراك أهمية وحجم الدور الرائع الذى قامت به الدولة من أجل الحفاظ على إسلام وعروبى سكان شمالى إفريقيا من الغزو الصليبي الأوروبى إلا بعرض سريع أولاً لنشأة الأسطول العثمانى وتنظيماته وتطوره ، فى مواجهة الصراع ، الذى خاضه ضد الدول الأوروبية فى حوض البحر المتوسط .

نشأة الأسطول العثماني

الفتوحات العثمانية الأولى كانت برية :

من المعروف أن الدولة العثمانية نشأت دولة برية في الأناضول . ولما عبرت جيوشها البحر إلى غاليبولي عام ١٣٥٦ ، تبعتها حركة تهجير واستيطان^(١) في السهل الساحلي الأوروبي المطل على بحر مرمرة حتى رودستو . ومضت الدولة معتمدة على جيوشها في محاربة الدول الأوروبية مثل الصرب ، التي كانت تعتمد هي الأخرى على قواتها البرية . ولذلك كان في مقدور الدولة العثمانية أن تقضي على إمبراطورية الصرب ، دون اللجوء إلى قوات بحرية . ونهج العثمانيون النهج نفسه عندما فتحوا إقليم الأقالق والبغدان وبلاد المجر ، وغيرها من الدول والكيانات السياسية التي كانت تعتمد على القوات البرية وحدها . أما بلاد اليونان فقد فتحها العثمانيون من الداخل وكانت ذات سواحل قليلة نسبياً ، ومن هنا كان العثمانيون يختلفون عن البيزنطيين الذين كان لهم أسطول ؛ إذ كانت ممتلكاتهم تمتد على سواحل بحرية ، كما كانوا يمتلكون عدداً كبيراً من الجزر . وكان العثمانيون يختلفون أيضاً عن البنادقة والجنوبيين الذين كانت قواتهم الرئيسية الضاربة تعتمد على السلاح البحري . ومعنى الوقت شعر العثمانيون بالحاجة الماسة إلى إنشاء أسطول لتأمين فتوحاتهم في البلقان ، وللاستيلاء على الجزر المحيطة بهذا الإقليم وفي بحر إيجة والبحر الأيوني ، وللقضاء على البقية الباقية من ممتلكات البيزنطيين ، ولطرده البنادقة والجنوبيين من المناطق المتعددة ، التي كانوا قد تغلغلوا فيها وامتلكوها منذ أن أتاحت لهم الحروب الصليبية عديد الفرص لتنمية تجارتهم .

(١) انظر ملابسات حركة تهجير واستيطان مسلمي الأناضول ، وكانت حركة حكومية وشعبية كمقدمة للتوسع العثماني الإقليمي في أوروبا .
دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع الخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ٥٩٧-٥٩٩ .

(2) Gibb Hamilton & Bowen Harold, op. cit., Vol. I, Part I, p. 89.

والواقع أن البنادقة خرجوا بنصيب الأسد من غنيمة توزيع أشلاء الدولة البيزنطية . إذ أخذوا المي البنفي في القسطنطينية يباشرون فيه نشاطهم التجاري ، واستولوا على معظم الجزائر القريبة لبحر مرمرة والبردينيل ، بالإضافة إلى بعض المراكز الساحلية في شبه جزيرة الحورة ، وروقة واسعة من الأرض شمالي خليج كورنث Corinth ، ثم ضم البنادقة إلى هذه الممتلكات جزيرة كريت التي اشتروها من بونيفيس دي مونفيرات .

انظر :

دكتور سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٩٣٧ .

كان إنشاء الأسطول ضرورة حربية للعثمانيين :

غير أن نشأة الأسطول العثماني كانت ترجع أساساً إلى رغبة الدولة العثمانية في القضاء على أسطول جمهورية البندقية ، وإذا رجعنا قليلاً إلى الوراء ، نجد أن هذه الجمهورية كانت قد استحوذت على أكثر من ربع ممتلكات الدولة البيزنطية ^(١) في مقابل الخدمات ، التي أدتها البندقية للحملة الصليبية الرابعة التي غيرت وجهتها ، وهي مصر إلى القسطنطينية ^(٢) ، وأطاحت بحكم الدولة البيزنطية ، التي استقرت مؤقتاً في رابيزون على الساحل الجنوبي للبحر الأسود ومناطق أخرى ^(٣) . وإذا كانت بعض الجزر والأماكن في شبه جزيرة البلقان كانت لا تزال في أيدي الدولة البيزنطية والدولة اللاتينية التي أسسها صليبيو الحملة الصليبية الرابعة ، لم يكن في مقدور هاتين الدولتين المتداعيتين إنشاء وسائل دفاع قوية أمام الهجمات العثمانية . كما لم يكن في مكنة الدولة العثمانية قهرها ، دون أن يكون لديها سلاح بحري ^(٤) . وفي الوقت ذاته ، كان احتلال الممتلكات البيزنطية واللاتينية أمراً ضرورياً لسلامة الممتلكات العثمانية ، ثم كان هناك عامل هام جداً حمل العثمانيين على إنشاء الأسطول . وتمثل هذا العامل في أن جمهورية البندقية كانت هي الدولة ، التي تستطيع بقواتها البحرية الضخمة والمنظمة أحسن تنظيم الوقوف أمام العثمانيين . ونجم عن هذا الوضع أن جمهورية البندقية كانت العقبة الرئيسية في تأمين الفتوحات العثمانية على الأرض الأوروبية وفي الجزائر القريبة منها ثم ، في التوسع في الحوض الشرقي للبحر المتوسط على الأقل في المراحل الأولى لنشأة الأسطول . ولذلك كان إنشاء الأسطول العثماني ضرورة قومية عثمانية للتغلب على أسطول جمهورية البندقية .

البندقية تنشئ إمبراطورية استعمارية في الليقانت :

والحق أن جمهورية البندقية - وهي قوة غربية وافدة من وسط أوروبا - تسالت إلى عدة مناطق في الحوض الشرقي للبحر المتوسط - كان لها مراكز ومحطات بحرية على سواحل

(١) روبرت كلاري : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ، ترجمة دكتور حسن حبشي ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١٠٩-١٥٤ .

(٢) في الواقع لم يستسلم البيزنطيون للغزو الكاثوليكي الغربي ، ولم يؤسّموا حكماً لهم في رابيزون فقط ، وإنما أقاموا عدة ملكيات وإمارات اتسمت بالطابع القومي البيزنطي ، وذلك في إقليم ألبانيا ، وإبيروس Epirus ، وثراقيا Thrace ، والمورة . وقد سقطت الدولة اللاتينية التي أقامها صليبيو الحملة الرابعة بعد زهاء سبع وخمسين سنة (١٢٠٤-١٢٦١) أنظر :

دكتور سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٩٢٨ .

(٣) عن النشاط البحري العربي للدولة العثمانية على عهد السلطان مراد الثاني ، انظر :

دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع الخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص

بلاد المورة ويحرر الأرخبيل وفي مقدونيا وفي الدردنيل (أبيدوس) ويحرر مرمرة (رودستو) وهرقلية . والجزر الأيونية والجزر الواقعة في جنوب الأناضول وغريه . وكان لها مراكز على ساحل دلماشيا في البحر الأدرياتي وبعض الأقاليم في شبه الجزيرة الإيطالية واستولت على جزيرتي كريت وقبرص . وكانت تريد الاحتفاظ بما استحوذت عليه من قواعد ومابلقه من نفوذ وقوة وهيبة . وقد أطلق الأستاذ شارل ديول Charles Diehl ، أستاذ التاريخ البيزنطي بجامعة باريس على تلك الممتلكات «إمبراطورية البندقية الاستعمارية»^(١) وكان الاسم الرسمي لها هو «جمهورية القديس مرقس» وهي ذات نظام جمهورية أوليجاركي^(٢) . وتجاوزت كثير من ممتلكات هذه الإمبراطورية مع ممتلكات العثمانيين ، كما أصبحت البندقية تتحكم في الطرق البحرية التي تصل بينها وبين القسطنطينية وموانئ الأناضول والشام ومصر . ولهذه الأسباب وغيرها ، تضاربت مصالح الدولة العثمانية مع مصالح جمهورية البندقية ، مما أدى إلى قيام صراع حربي بينهما . وكان هذا الصراع يدور فوق الماء ويعتمد على الأساطيل في المكان الأول ، ولما كانت جمهورية البندقية أسبق من الدولة العثمانية في الاعتماد على الأساطيل الحربية ، بل والأساطيل التجارية التي كانت تتحول عند الحاجة إلى أساطيل حربية .. كان على الدولة العثمانية أن تبذل عناية بالغة بإنشاء أساطيل تنادى أساطيل البندقية ، إن لم تتفوق عليها في صراع زاده عنفاً وتأججاً مطابع عليه الغريقان المتصارعان من طموح واعتزاز بالنفس وشجاعة فائقة وعزيمة لا تنى أمام الأخطار . وكان من عادة البحارة البنادقة أنهم عند التحامهم مع العدو ، تنطلق حناجرهم بصيحات جماعية مدوية ماركو ماركو ! Marco Marco ، استحلاباً لبركات هذا القديس ، واعتقاداً منهم أن التوسل به يحقق لهم نصراً عزيزاً في المعركة .

ويلاحظ أن جمهورية البندقية أقامت مجدها على التجارة الخارجية ، وأثرت منها ثراء عريضاً معتمدة على أسطولها . وكما كانت التجارة الخارجية مصدر قوتها ، كانت هي العامل الموجه لحكومة الجمهورية في علاقاتها الدولية . ولذلك كانت سياستها الخارجية متقلبة بل وخالية من المبادئ ، فهي حيناً ترحب بالإسهام في حملة صليبية موجهة ضد العثمانيين ، إذا رأت أن في هذا الاشتراك ما يكتفل لها المحافظة على ممتلكاتها ومصالحها التجارية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، كما حدث حين وضعت أسطولها ومواردها المالية في خدمة حملة نيقوبوليس الصليبية عام ١٣٩٦ ضد السلطان أبي يزيد الأول . وكانت هذه الحملة تجسد أكبر التكتلات الصليبية التي واجهتها الدولة في القرن الرابع عشر من حيث عدد الدول ، التي

(١) شارل ديول : البندقية جمهورية أرستقراطية ، تعريب الدكتور أحمد عزت عبدالكريم والأستاذ توفيق إسكندر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ص ٣٩ .

(٢) حكومة تكون فيها السلطة مركزة في يد قلة من الأفراد أو العائلات . ويوصف هذا الطراز من الحكومات بأنه حكم القلة أو حكم الخاصة ، والكلمة مأخوذة من Oligarchie الفرنسية .

اشتركت فيها بالسلاح والعناد والأموال والقوات البرية والبحرية^(١). وكانت حيناً آخر تهادن العثمانيين ، بل وتقبل شروطاً مهينة لها إذا لقيت هزيمة من الأسطول العثماني ، ورأت أن هذه المهانة وقبول الشروط المذلة ؛ مما يسمح لها باستئناف نشاطها التجاري في أسواق الحوض الشرقي للبحر المتوسط .

وإذا كانت جمهورية البندقية قد أضررت نتيجة تحول طريقى التجارة الشرقية من البحر المتوسط إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، فإن هذا الإضرار لم يقع فجأة ولم يكن شاملاً ، فظلت تمارس نشاطها التجاري مع دول غربي أوروبا وشمالها ، وظلت جمهورية البندقية إحدى دول حوض البحر المتوسط قوة تحسب لها الدول حساباً ، وظلت تبني في دار الصناعات البحرية في ثغر البندقية أحدث وأقوى أنواع السفن الحربية ، وظلت الدبلوماسية التي تميزت بها حكومتها تقوم بدور هام في سياسة البحر المتوسط وسياسة القارة الأوروبية ، واشترك سفراؤها في المؤتمرات الدولية الهامة وبرزوا فيها مثل مؤتمر وستغاليا (١٦٤٨) ومؤتمر أوترخت (١٧١٣) حتى انتهت حياة هذه الجمهورية في أواخر القرن الثامن عشر .

انساق العثمانيون لحروب البحار للأسباب التي بسطانها ولأسباب أخرى ، طرأت فيما بعد على السياسة الدولية ، مثل : مواجهة الغزو البرتغالي للصليبي للبحار الشرقية ، والنشاط المعادي الذي مارسته روسيا في البحر الأسود . ومن ثم انصرف العثمانيون يعدون عدتهم لإنشاء أسطول حربي يستكملون به قواتهم المسلحة البرية . ولم يلبث أن نما هذا الأسطول وقفز إلى مصاف أساطيل الدول الأوروبية الكبرى في حوض البحر المتوسط ، وتعددت قواعده البحرية في حوض البحر المتوسط والبحر الأسود والبحر الأحمر ومنطقة الخليج العربي . وأثبتت الدولة أنها تملك كثيراً من مقومات الدول البحرية ، ووضعت له تنظيمات ، نوجزها فيما يلي :

القائد العام للأسطول :

إذا كان السلطان هو القائد الأعلى للقوات العثمانية المسلحة بما فيها الأسطول ، فإن القائد العام للأسطول كان يطلق عليه قبودان باشى ، ومعناها رئيس قباطنة السفن الحربية ، وهي مشتقة من كلمة إيطالية^(٢) ، ثم حرفت إلى كلمة قبطان . وكان القبودان باشى يجمع خلال القرون الأولى لنشأة الأسطول بين منصبين : القائد العام للأسطول وحاكم ولاية ، وكان يحمل طوخين ، ويطلق عليه بصفته الأخيرة بكاريكى أو بكاريك^(٣) . وكان له ديوان على غرار ديوان

(١) انظر تفصيلات وافية عن هذه التكتلات الصليبية فى :

دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى ، أوروبا فى مطلع القرن الخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ،

ص ٦١٢-٦٢٠ .

(٢) ، (٣) انظر ثبت المصطلحات التركية فى نهاية هذه الدراسة .

حكام الولايات ، وكان يعقد جلساته في مقر ديوان البحرية ، وكان له معظم اختصاصات الوالي ، فكان مسئولاً عن الأمن العام في المناطق التي نيظت به (١) .

كانت غاليبولي إلى عام ١٥١٦ مقر قيادة الأسطول .. فكان قبودان باشي يحكم صنجقية غاليبولي ، وذلك أطلق عليه أيضاً بكريكي غاليبولي . وألحقت الدولة بهذه الصنجقية كلاً من قضاء جالاطه وإزميد Izmid في نيقوميديا في الأناضول؛ لأن الغالبية العظمى من سكان جالاطه - وهي إحدى ضواحي إسطنبول - من أهل جنوة . وقد أسهموا بجهودهم وخبراتهم البحرية والملاحية في تطوير ودعم الأسطول العثماني ، بعد أن فتح السلطان محمد أبو الفتح القسطنطينية . أما إزميد .. فكانت تعد من المصادر الرئيسية لتزويد ترسانة البحرية بالأخشاب اللازمة لبناء الأسطول . ولما نقلت قواعد الأسطول إلى إسطنبول على عهد سليم الأول ألحقت بسلطة القبودان باشي جميع السواحل تقريباً لشبه جزيرة البلقان والجزر القريبة منها ، ومناطق ساحلية أخرى في حوض البحر المتوسط . وتكونت من هذه المناطق والجزر «إيالت بحر سفيد، وترجمتها الحرفية ولاية بحر إيجة ، ولكنها كانت تشمل أقاليم ساحلية في حوض البحر المتوسط بعمامة . وقد قسمت هذه الإيالة إلى صناجق ، يحكم كل منها «دريا بكلي، Derya Bcyleri أي بك البحر ، وقد شمل سلطانه أربعة عشر صنجقاً» (٢) .

ومما يذكر أن بعض الثغور في ولايات الدولة كانت تتبع مباشرة القبودان باشي . وعلى سبيل المثال كانت الإسكندرية خارجة عن سلطة الباشا العثماني في القاهرة ، وكانت تتبع القبودان باشي مباشرة . وظل هذا الثغر على هذا الوضع الإداري حتى تم جلاء الحملة ، البريطانية عن مصر عام ١٨٠٧ في مستهل حكم محمد علي .. ولذلك يقرر أحد المؤرخين أن محمد علي كان هو المستفيد الوحيد من هذه الحملة ، بعد أن أخفقت في تحقيق الأغراض التي توختها بريطانيا منها . ونجح محمد علي في حمل الباب العالي الموافقة على إلغاء تبعية هذا الثغر لقبودان باشا ، وجعل الإسكندرية تابعة لحكومة القاهرة . وكان الإنجليز يخشون أن يردّها محمد علي القائد عام الأسطول العثماني (٣) . وكان حكام كل من رشيد ودمياط والسويس يطلق عليهم قبودان . وقد عادت هذه الثغور الثلاثة إلى الحكم الأم : حكومة القاهرة .

(١) وعلى سبيل المثال ، كان يتولى المحافظة على الأمن العام في جالاطه وقاسم باشا ، بينما كان يتولى هذه المسئولية في سائر أحياء إسطنبول كل من أغا الإنكشارية ، والبوستانجي باشي ، والجيبي باشي ، والطوبجي باشي . وكان قائد الأسطول يلجأ إلى النظام الذي يتبعه هؤلاء في المحافظة على الأمن العام في مناطقهم . وكانت توجد في مناطق قائد الأسطول مراكز حراسة تخرج منها دوريات من البحارة تجوب أنحاء المناطق التي يعهد بها إليهم . وكان يرأس هؤلاء البحارة ضباط بحريين .

(٢) بريكلمان كارل ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٩١ .

(3) Douin George et Mme Fawtier-Jones E.C., L'Angleterre et L'Egypte, etc., op. cit., p. LXX.

وكان أول من صابغ بشغل منصب قبودان باشى هو بلطه أر غلر سليمان ، وقد عينه السلطان محمد أبو الفتح فى هذا المنصب؛ تقديراً لجهوده فى أثناء حصار القسطنطينية عام ١٤٥٣ . وأصدر السلطان سليمان المشرع فرماناً بترقية خير الدين بربروس إلى منصب قائد عام للأسطول العثمانى مكافأة له على خدماته الحربية للإسلام فى الجزائر وتونس . وسنرجىء الكلام عن هذه الشخصية لحين تعرضنا لهذين الإقليمين الإسلاميين العربيين . وحسبنا أن نذكر هنا أنه منذ تعيينه فى منصب قبودان باشى رفعت هذه الوظيفة إلى مرتبة وزير ، ومنح شاغلها ثلاثة أطوار ورتبة الباشوية وأصبح يطلق عليه قبودان باشا . وكانت له أسبقية على جميع الوزراء الآخرين ، وكان ترتيبه يأتى مباشرة بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام . وعين عضواً فى الديوان الهمايونى (الإمبراطورى) . ومنذ تعيين خير الدين بربروس فى الديوان ، أصبح من التقاليد المرعية أن شاغل هذا المنصب يكون عضواً فيه بحكم منصبه - ex-officio . وكان يحضر جلساته كلما كان موجوداً فى العاصمة .

تنظيمات البحرية :

كان يقوم مقام قبودان باشا فى إدارة البحرية مسئول كبير ، يشرف على بناء السفن وإصلاحها وتسليحها ، وكان يطلق عليه ترسانة إمينى Tersana Emini أى أمين الترسانة . أما المخازن البحرية فيتولى مسئوليتها اثنان ، أحدهما بقلب أمين ويسمى «انبارلر إمينى» Enbarlar Emini والآخر بقلب ناظر ويطلق عليه «انبارلر ناظرى» Enbarlar Naziri وكان هذان المسئولان الأخيران يقلان مرتبة عن مرتبة «ترسانة إمينى» . أما رئيس الميناء فكان يطلق عليه «ليمان ريسى» Liman Reisi ويمنح رتبة البكوية ، وكان للبحرية أيضاً مفتش يتولى قيادة حرسها ويسمى «ترسانة كخياسى» Tersana Kahyasi . ومن تنظيمات البحرية أيضاً وجود عدد من الوظائف الإدارية ، مثل : كاتب للسفن يطلق عليه «قايونلار كاتبى» Kaylyonlar Katibi ، وصراف يطلق عليه «سركى إمينى» (١) Sergi Emini .

وحدات الأسطول :

كانت سفن الأسطول تتكون فى القرن السادس عشر - شأن كل الأساطيل المقاتلة فى البحر المتوسط وقتذاك - من السفن المزودة بأشرعة قليلة ومجاديف ، ويطلق عليها فى اللغة التركية جكديرى ، أو جكديرية ، وكانت الأشرعة تستخدم حين لا يكون العدو على مرمى البصر . أما المجاديف .. فلانستخدم إلا فى وقت الاشتباك فى المعركة ، ويجلس المجدفون فى أماكن معدة لهذا الغرض ، ويوجهون السفينة إلى الالتحام بسفن العدو ومهاجمتها طبقاً لأوامر قائد السفينة . وكانت مرتبة السفينة تتحدد بعدد الأماكن المخصصة للمجدفين فيها ، ولذلك

(1) D'Ohsson Ignatius Mouradges; op. cit., t. VII, p. 435.

كان عدد الملاحين فيها قليلاً، في حين كان عدد المجدفين والمقاتلين كبيراً . وعلى سبيل المثال كان طاقم السفينة المقاتلة من النوع المتوسط ذات المجاديف ، يطلق عليها في اللغة التركية «قادرغة» ، على النحو التالي :

١٩٦	مجدفون
١٠٠	مقاتلون (رجال مسلحون)
٣٠	بحارة
٣٠	ضباط

أما السفينة المقاتلة من النوع الكبير الحجم ذات المجاديف ، يطلق عليها في اللغة التركية «ماثونة» ، فكان عدد العاملين عليها كالآتي :

٣٥٧	مجدفون
١٧٥	مقاتلون
٥٥	بحارة
٦	ضباط

أما سفينة القيادة وتسمى «باشتردة Bastarda» ، القبطان ، وهي مأخوذة من كلمة إيطالية ، فكان طاقمها موزعاً وفق النظام التالي :

٤٩٧	مجدفون
٢٥٠	مقاتلون
٧٦	بحارة
٨٠	ضباط

وكان من الرجال المسلحين في السفن ذات المجاديف على اختلاف أحجامها : الطوبجية أى الذين يطلقون قذائف مدافعهم على سفن الأعداء ، ومنهم من كانوا مزودين بالسيف الباترة لاستخدامها ، إذا اقتضى الأمر ونجحوا في التسلل إلى سفن الأعداء ، واشتبكوا في معارك على ظهورها . أما البحارة .. فكانوا على الرغم من قلة عددهم النسبي ذوى اختصاصات متباينة ، وكان منهم من يسهر على صيانة أسلحة السفينة ويطلق على الواحد منهم آلتجر ، ومنهم من يعمل في تسيير السفينة ، ويطلق عليه الدومنجى ، ومنهم غلمان السفينة ، ويسمون يلكنجى ، ومنهم النجارون والمقلطون .

وكان القائمون بهذه الأعمال رجالاً تخصصوا في الشئون البحرية ، أو درجوا على ركوب البحار في المقام الأول وعلى شئون القتال ، ويطلق عليهم في اللغة التركية «لوند» ، ومعناها بحارة مقاتلون متمرسون ، وهي مأخوذة من مصطلح إيطالي^(١) . ولكن أعفى اللوند من أعمال التجديف والقتال في سفن الأسطول منذ القرن السادس عشر ؛ إذ كان عملهم شاقاً وخطيراً وكانوا يقبلون القيام به على مضض . وخشى القبودان باشا أن تؤثر حالتهم النفسية على كفايتهم القتالية ، فعهد بهذه العمليات إلى رجال يمكن إجبارهم عليها . وكان هؤلاء الرجال من أسرى الحرب البالغين ، والذين كانوا يصبحون عبيداً بمجرد وقوعهم في الأسر ومن المجرمين المعتاة ، الذين صدرت عليهم أحكام بالعمل كعبيد في السفن ذات المجاديف عتوية لهم .

تطوير الأسطول العثماني :

وقد أدخلت الدولة العثمانية تطويراً هاماً في نوعية سفن أسطولها ؛ إذ أقيمت في منتصف القرن السابع عشر على بناء سفن شراعية كبرى مزودة بمدافع ، كان يتراوح عددها بين أربعين وخمسين مدفعاً في كل سفينة . وكان هذا التطوير قد سبقتها إليه الدول الأوروبية الكبرى ، التي تبحر سفنها في المحيطين الأطلنطي والهندي ، بعد أن اتضح لهذه الدول أنه لا قيمة للسفن ذات المجاديف في المعارك الحربية .

ورأت الدولة العثمانية ألا تظل متخلفة في هذا الميدان ، وكانت قد مرت بتجربة مريرة في حملاتها على جزيرة كريت ، التي أرادت انتزاعها من جمهورية البندقية لأسباب سياسية وعسكرية ودينية وعائلية^(٢) ، وخاضت الدولة صراعاً دامياً استطال أمده خمسة وعشرين عاماً (١٦٤٤-١٦٦٩) ، وتعرضت لهزائم كثيرة ، اعتبرت إحداها - وقد حدثت عام ١٦٥٦ - أنها لا تقل كثيراً من حيث نتائجها السيفة عن معركة لپانت ، وكان القبودان باشا المسؤول هو كنعان باشا ، وقد عزله السلطان محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧) وألقي به في السجن^(٣) .

والواقع أن الدولة العثمانية في حملة كريت واجهت تفوقاً بحرياً من جمهورية البندقية ، التي كانت أسبق منها في تطوير نوعية سفن أسطولها وخاضت المعركة ، وهي تملك مجموعة قوية من السفن الشراعية الكبرى بالإضافة إلى السفن ذات المجاديف . وكانت وحدات الأسطول

(١) انظر ثبت المصطلحات التركية في نهاية هذه الدراسة ، الجزء الرابع .

(٢) انظر عرضاً لأسباب حملة كريت وأحداثها ونتائجها في :

دكتور عبد العزيز محمد الضناوي ، أوروبا في مطلع إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ٨٠-٨١ .

(3) Gibb Hamilton & Bowen Harold, op. cit., Vol. I, Part I, pp. 96-97.

العثماني مقصورة على السلاح التقليدي وهو السفن ذات المجاديف ، ويفضل السلاح المطور استطاعت جمهورية البندقية في بداية الحرب فرض الحصار على الدردنيل ، وقطع الطريق بين القوات العثمانية في كريت والاتصال المباشر ببحر إاستانبول^(١) . وإزاء تدهور الموقف الحربي .. ركزت الدولة العثمانية ، والحرب مشتعل أوارها ، جهودها على بناء سفن شرعية كبرى مزودة بالمدافع ، واستمر هذا التركيز حتى المراحل الأخيرة من الحرب . وكان من نتائج هذا التطوير أن خفت وطأة حصار البندقية للدردنيل ، وتوجت الحملة بانزاع جزيرة كريت من جمهورية البندقية وتوقيع اتفاقية التسليم في اليوم السابع والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٦٦٩ ، وقعها أحمد كوبريللي باشا الصدر الأعظم والقائد فرانمسكو موروسيني Francesco Morosini قائد قوات جمهورية البندقية .

وكان من بين السفن الشرعية الكبرى التي بنّتها الدولة العثمانية ثلاث سفن رئيسية ، عرفت باسم سفن القيادة «صنچاق كميليري» ، وهي من حيث الأهمية قبودانه Kapidana ، باطرونه Patrona ، ورياله Riyala وهذه الأسماء الثلاثة مشتقة من كلمات إيطالية ، وكان قادة هذه السفن الثلاث يحملون البكوية ، فكان يقال بك قبودانه ، وبك باطرونه ، وبك رياله .

وعلى عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠) بنت الدولة من السفن الشرعية الكبرى من ذوات الأسطح الثلاثة Three-deckers ، وعدداً من السفن الصغيرة السريعة والخفيفة . وجزت عادة العثمانيين على إطلاق أسماء من نسج الخيال على السفن الحربية ، مثل: «تحفة الملوك» و«فاتح بحري» أي فاتح البحر ، و«بريدى ظافر» أي بريد الظفر . وقد استخدمت السفن الشرعية الكبرى في غارات حربية على سواحل إسبانيا وفي الهجوم على مالطة . ويعلق أحد المؤرخين الإنجليز على تعزيز الأسطول العثماني في ذلك الوقت بأنه كان بحثاً لذكريات مجد قديم^(٢) .

وكان من المعتاد أن ترجع السفن الكبيرة المخصصة للخدمة في البحر المتوسط إلى قواعدها في الخريف قبيل اليوم السادس والعشرين من شهر أكتوبر - تشرين أول - كل عام ، وألا تخرج من هذه القواعد إلا في أواخر الربيع في اليوم الثالث والعشرين من شهر أبريل - نيسان ؛ إذ يخرج الأسطول في رحلات تفتيشية . فكان هذان التاريخان - عند العثمانيين - يشيران إلى الوقت الذي يفصل بين الصيف والشتاء .

وقبل حلول اليوم الثالث والعشرين من شهر أبريل - نيسان - كان قبودان باشا يرسل سفيراً إلى النيابات الثلاث في شمالي إفريقيا ، وهي طرابلس وتونس والجزائر ، عدداً من

(1) Loc. Cit.

(2) Gibb Hamilton & Bowen Harold, op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 98.

ضباط الأسطول يجمعون المتطوعين للخدمة في الأسطول، ويعطون أجر ستة أشهر مقدماً لتدبير معيشة عائلاتهم . وكان يطلق على هؤلاء المتطوعين «بايراق عسكرى» أى قوة البيارق ، وقد عرفوا بهذا الاسم ؛ لأن كل ضابط يختص بجمع هؤلاء المتطوعين ، إنما كان يجمعهم تحت لواء - بيرق - ينم عن وظيفة^(١) . أما السفن الحربية المخصصة للخدمة في البحر الأسود فلم تكن تخضع لهذا التنظيم الزمنى ، وبالتالي لم تكن تتمتع بفترة استرخاء عسكرى خشية أن تتعرض لهجوم غادر من الأسطول الروسى . أما أسطول البحر الأحمر .. فكان يخضع فى تحركاته ونشاطه لمقتضيات الظروف .

مصطلحات الأسطول العثمانى ذات أصول إيطالية :

وجدير بالذكر أن أسماء أنواع السفن فى الأسطول العثمانى ووظائفه وألقاب شاغليها مأخوذة من مصطلحات إيطالية تقابلها فى المعنى لعدة أسباب ، منها : تغلغل بحارة البندقية وچنوة فى الشرق . وكان رجال الأسطول العثمانى فى نشأته قد تتلمذوا على هؤلاء البنادقة والجنوبيين ، وقد تعمق هذا التأثير الإيطالى نتيجة سياسة السلطان محمد الفاتح . كان الإمبراطور ميخائيل السابع باليولوج Michael VII Palaeologue أراد أن يكافئ أعضاء جالية چنوة فى القسطنطينية على مساعدتهم له فى العودة إلى العرش سنة ١٢٦١ ، وإعادة قيام حكم يونانى فى القسطنطينية .. فسمح لهم بأن يحكموا ضاحية جالاطه من ضواحي العاصمة بمثابة مستعمرة ذات استقلال ذاتى . ولما فتح السلطان محمد أبو الفتح القسطنطينية ، وأطلق عليها إستانبول .. عهد إليهم بمساعدته على تدعيم الأسطول العثمانى ؛ لأن العثمانيين كانوا حديثى عهد بصناعة بناء السفن وعلوم الملاحة البحرية فى أعالي البحار ، ولأن أهل چنوة كانوا بحارة ممتازين . هذه الكثرة الملحوظة فى المصطلحات الإيطالية التى أدخلها العثمانيون على أسطولهم ، والتى مرت بنا أمثلة كثيرة عليها ، جعلت أحد كبار المؤرخين الإنجليز المتخصصين فى تاريخ الدولة العثمانية ونظمها يذهب رأياً إلى أنه كان من المتوقع أن يأخذ الأسطول العثمانى ، حين خرج إلى حيز الوجود ، طابعاً تركياً (عثمانياً) بوجه خاص أو طابعاً إسلامياً على الأقل ، ولكن لم يحدث شيء من هذا .. فعلى العكس كان صورة طبق الأصل من أساطيل إيطاليا .

It might be expected that the Ottoman navy, when it came into being, would have a peculiarly Turkish, or at least Moslem, character. This was not so, however, It was, on the contrary, a faithful copy of the navies of Italy^(٢)

(1) Loc. Cit., p. 100.

(2) Gibb Hamilton & Bowen Harold, op. cit., Vol. 1, Part. 1, p. 91.

ثم أكد في موطن نال من كتابه هذا الرأي بصورة أخرى ولسبب آخر فقال : «وطبقاً لجميع الآراء ، تظهر على الأقل حقيقة واحدة واضحة ، هي أن كل من كان يسميهم الأوروبيون المعاصرون «أتراك» ، بمعنى المسلمين الذين يتكلمون اللغة التركية ، لم يتألقوا كبحارة ، وإن الأسطول كان يعتمد بشكل مثير في جانبه الخاص بركوب البحر - تمييزاً له عن مظهره الحربي - على اليونانيين من أهل جزر وسواحل بحر إيجة وعلى المسلمين ، الذين يتكلمون العربية من سكان نيابات شمالي إفريقية . ومن هذا الحكم تسطع الحقيقة البارزة ، وهي أن الأسطول العثماني لم يكن نتاجاً عثمانياً أصيلاً إذا أُجيز استخدام هذا التعبير .

“From all accounts one point at least emerges clearly: that what contemporary Europeans called (Turks), that is, Turkish-speaking Moslems, did not shine as sailors : the navy being very strikingly dependent, in its sea faring as opposed to its military aspect, on Greeks from the islands and coasts of the Aegean and Arabic-speaking Moslems from the North African Regencies. And in this judgment the fact is evidently that the Ottoman navy, was not, if such an expression may be used, an indigenous Ottoman product” (١)

وهذا الرأي قابل للمناقشة ، لأن العبرة ليست في المظهر وإنما في المخبر . فالأسطول العثماني حمل راية الجهاد البحري الديني الإسلامي ضد تكتلات بحرية صليبية أوروبية عاتية ، سواء في حوض البحر المتوسط أو البحر الأسود أو المحيط الهندي أو منطقة الخليج العربي ، ودافع عن الإسلام وأمن الحدود الجنوبية والشرقية للولايات العربية في آسيا من الغزو الصليبي البرتغالي بوجه خاص . وقد اعترف كبار المؤرخين الأوروبيين بأن المعارك التي خاضها الأسطول العثماني كانت معارك صليبية (٢) Croisades chrétiennes ، وطبقاً لرأى مؤرخ إنجليزي عاش في عصر سابق لعصر جب ويون ، كان الأتراك العثمانيون ينادون اليونانيين في الملاحة البحرية علماً وفقاً وممارسة (٣) .

ولا يندح في قيمة السلاح البحري العثماني أن الدولة اعتمدت . أول الأمر على عدد من المهندسين والعمال المدربين الإيطاليين في بناء وحدات الأسطول ، أو أن دور بناء السفن كانت تضم عمالاً يونانيين وإيطاليين . ومن المعروف أن خدمتهم في دور الصناعات البحرية لم تكن تنسم بطابع الاستمرار ، فهي تتأثر بأحكام الحاجة ومقتضيات الظروف . ولكن الحقيقة التي

(1) Loc. Cit., p. 106.

(2) Lavissee et Rambaud, op. cit., t. V, p. 859.

(3) Thornton Thos., The Present State of Turkey, 2 vols., London, 2nd ed., 1807, vol. 1, pp. 77-78.

لامراء فيها أن الأسطول العثماني قد ضم أخلاطاً من الأتراك العثمانيين والعرب من سكان شمالي إفريقية ، ومن العناصر البلقانية التي اعتنقت الإسلام ، وتدريبوا جميعاً في ظل الأسطول العثماني . وإلى جانب هؤلاء وأولئك كان الأسطول ينتظر عدداً من البحارة اليونانيين المسيحيين ، وعدداً أقل من بحارة شبه الجزيرة الإيطالية اجتذبهم المغنم الوفيرة ، التي كانوا يظفرون بها في خدمة الأسطول العثماني ، فجاءوا زرافات إلى قاعدة الأسطول في إستانبول ينشدون العمل (١) .

لقد كان يعوز الأسطول العثماني العامود الفقري الذي مكن للأساطيل الأوروبية المعادية له وأمدّها بقوة فائقة ، وتعني به القوة البحرية التجارية القوية . ولكن كان مما عوض هذا النصف الإمكانات المعادية للعثمانيين .. كانوا يحصلون على الأخشاب بكميات وفيرة من بعض جهات الأناضول ؛ خاصة من الغابات القائمة على سواحل البحر الأسود . وكانت مناجم ولايتي الأفلاق والبغدان - رومانيا حالياً - تقدم المعادن الضرورية لصناعة السلاح والأسلحة وكانت أشربة الفن تستورد من فرنسا (٢) ، ثم كانت السرعة والمرونة اللتان كانت عمليات بناء السفن تتم بهما .

ومع ذلك .. فإن الدولة كانت تعتمد بصورة أو بأخرى على السفن العثمانية التجارية ، التي كانت تتردد على الموانئ العثمانية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، إذ كان القبودان باشا يلجأ إلى إجراء استثنائي لسد النقص في عدد بحارة الأسطول الحربي . فكان يتفق مع قباطنة السفن التجارية على وضع سفنهم في خدمة الأسطول زمن الحرب ، في مقابل إعفائهم من دفع الرسوم الجمركية على البضائع ، التي تحملها سفنهم في أوقات السلم وبهذا الإجراء استطاع قبودان باشا أن يحصل على خدمات مايزيد على ألفي بحار مدرب ، يعملون في خدمة الأسطول في وقت الحرب .

وبقى هذا الإجراء الاستثنائي معمولاً به حتى عهد السلطان محمود الأول (١٧٣٠-١٧٥٤) ، فقد اعترض كمرك أمينى - مدير الجمارك - على الإعفاء الجمركي لشحنات السفن التجارية ، وأصر على أن يؤدي أصحاب البضائع الرسوم الجمركية المقررة عليها . وكان يهدف من هذا الاعتراض إلى استنباط موارد مالية لخزانة الحكومة واستطاع أن يحقق هدفه (٣) . وأصبح لزاماً على قبودان باشا أن يعتمد اعتماداً كلياً على السفن الحربية دون سواها ؛ مما جعل الأسطول العثماني يواجه موقفاً صعباً إبان الحرب التي اشتعلت عام ١٧٣٦

(١) بريكلمان كارل ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٨٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٨-٨٩ .

(3) Gibb Hamilton & Bowen Harold; op. cit., vol. 1, Part 1, p. 105.

بين الدولة العثمانية والروسيا ؛ إذ استطاعت الأخيرة أن تحتل ميناء آزوف وغيره من الثغور البحرية في البحر الأسود ، وأن تتقدم في نهر الدانوب وتحتل ولاية البنغان وتدخل مدينة ياسي عاصمتها^(١) ، واضطرت الدولة إلى تخصيص جزء لا يستهان به من الأسطول العثماني للعمل في البحر الأسود لمواجهة احتمالات خطر التقدم الروسى في هذا البحر ، وإلى إبقاء عدد من السفن الصغيرة في نهر الدانوب للدفاع عن ولايتى الأفلق والبغدان .

الأسطول العثماني عبر تاريخ الدولة :

كان حكم السلطان مراد الأول (٣٦٠-١٣٨٨) هو البداية الحقيقية لنشأة الأسطول العثماني .. فإلى جانب سياسته في التوسع الإقليمي في البلقان ، ونقله عاصمة الدولة إلى أدرنة في أوروبا ، بنى هذا السلطان عدداً من السفن ، ونظم قوة عسكرية من البحارة ، وأقام داراً للصناعات البحرية في كل من أزمير وكميليك ، وأنشأ ثكنات عسكرية للبحارة في غاليبولى . وقد انتهج ابنه أبو يزيد الأول (٣٨٨-١٤٠٣) سياسة أبيه ، واهتم بتعزيز الأسطول وتوسيع ميناء غاليبولى ؛ حتى أصبح يتسع لسبعين سفينة . وكان قد وضع في برنامجه الحربى فتح القسطنطينية وفرض عليها حصاراً محكماً ، وكانت أوروبا تتوقع سقوطها بين يوم وليلة . ولكن تعرضت الدولة لكارثة الغزو المغولى بقيادة تيمور الأعرج (تيمور لك) ، وواجهتها هزيمة أليمة في معركة أنقرة في اليوم العشرين من شهر يوليو - ١٤٠٢ ، ووقع السلطان أسيراً ورفاقه في الأسر في السنة التالية ، وتعرضت الدولة لكارثة أخرى هي الحرب الأهلية بين أمراء الأسرة العثمانية كان كل منهم يتبى إلى العرش سبيلاً .

وقد استطالت هذه الحرب الأهلية عشر سنوات (١٤٠٣-١٤١٣) ، وانتهت بتولى العرش محمد الأول^(٢) ابن أبى يزيد (١٤٣١-١٤٤١) ، وكان لهاتين الكارثتين أثرهما على الأسطول شأن سائر أجهزة ومرافق الدولة . ولكن هذا السلطان أسدى إلى الدولة خدمة جليلة ؛ إذ أزال آثار كارثة المغول ومحنة الحرب الأهلية ، وعمل على إعادة تنظيم الدولة بحيث مهد الطريق أمام خلفائه السلاطين ؛ ليتابعوا سياسة تعزيز القوات المسلحة العثمانية بما فيها الأسطول ،

(١) انتهت هذه الحرب بعقد معاهدة بلجراد في الثامن عشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٧٢٩ ، وكان من بين ما جاء فيها التزام روسيا بهدم قلعة ميناء آزوف وعدم تجديدها مستقبلاً ، وأن يسمح للروسيا بأن تقيم قلعة جديدة على مقربة من الجزيرة الواقعة في نهر دون Don ، الذى يصب في الساحل الشمالى للبحر الأسود . كما قررت المعاهدة عدم السماح للروسيا ببناء أو إبقاء سفن حربية أو تجارية في البحر الأسود أو بحر آزوف ، وأن يمارس رعايا روسيا نشاطهم التجارى في البحر الأسود على سفن عثمانية . انظر:

Hurewitz J.C., op. cit., vol. 1, pp. 47-51.

محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥-١٥٥ .

(٢) كان السلطان محمد الأول يطلق عليه أيضاً محمد شلبى ، وتكتب بالجمع المعطشة جالبى .

وليمضوا قديماً في برنامجهم الحرى الهادف إلى التوسع . فقد بنى السلطان مراد الثانى (١٤٢١-١٤٥١) ، عدداً من السفن مكنت العثمانيين من انتزاع سالونيك من جمهورية البندقية .

نشاط مكثف للأسطول على عهد أبى الفتوح بعد فتح القسطنطينية :

وبعد حكم السلطان محمد أبى الفتوح (١٤٥١-١٤٨١) بداية مرحلة هامة فى تاريخ الأسطول العثمانى ؛ لأن مشروعه الرئيسى الذى نفذه فى مستهل حكمه الطويل ، وهو فتح القسطنطينية تطلب بناء عدد كبير من السفن ، يذهب بعض المؤرخين اليونانيين إلى أنها بلغت أربعائة وعشرين سفينة بين كبيرة ومتوسطة وصغيرة .

لم يقف نشاط الأسطول العثمانى بعد فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، بل ازدادت ميادين العمل أمامه على عهد السلطان محمد أبى الفتوح . وكانت هذه الأعباء الجديدة أمراً طبيعياً بعد أن أصبح الأسطول يسيطر على ضفاف البوسفور الأوروبية والآسيوية وأصبح الطريق أمامه مفتوحاً إلى البحر الأسود للقضاء على مملكة طرابزون وممتلكات جمهورية جنوة فيه وفى بحر إيجه وموانئ شبه جزيرة المورة ، ثم فوق ذلك كله الصراع البحرى ، الذى خاضه الأسطول ضد جمهورية البندقية .

استولى السلطان محمد أبو الفتوح بفضل الأسطول سنة ١٤٥٩ على عدد من الموانئ الهامة فى بلاد المورة ^(١) ، ثم تفرغ السلطان للقضاء على مملكة طرابزون ، وهى كما ذكرنا دولة مسيحية يونانية قامت على أنقاض الدولة البيزنطية بعد سقوطها المؤقت عام ١٢٠٤ . وهاجم عاصمتها طرابزون على البحر الأسود براً وبحراً ، واستولى عليها عام ١٤٦١ ووقع آخر ملوكها وهو دافيد كومنين David Comnène أسيراً ، وظل فى الأسر بضعة سنين ، ثم صدر الأمر سنة ١٤٧٠ بذبحه مع جميع رفاقه . وكان لجمهورية جنوة ممتلكات ومحطات تجارية فى البحر الأسود وبحر إيجه ، وكان من البرنامج الحرى للسلطان محمد أبى الفتوح طرد الجنوبيين من هذه الأقاليم ، وقد بدأ بطردهم من مدينة إينوس ^(٢) Enos والجزر القريبة منها . وفى سنة ١٤٦١ انتزع السلطان منهم موقعاً هاماً فى شمالى الأناضول هو أماستريس Amastria ثم استولى فى عام ١٤٧٥ على ثغر كافه Caffè ويقع فى شبه جزيرة القرم على البحر الأسود ، ثم انتزع منهم أرزوف على ذات البحر ، ووضع يده على كل المحطات التجارية التابعة لجمهورية جنوة فى منطقة البحر الأسود ، واعترف بتار خانية القرم وملحقاتها بالسيادة

(١) كان من الموانئ التى انتزعتها السلطان :

كورنث Corinth أڤارينو Avarino - نڤاران Navarin أركاديا Arkadia - مونيمفاسيا Monemvasia .

(٢) تقع مدينة إينوس على دلتا نهر ماريتزا Maritza وخليج إينوس .

العثمانية ، وأصبح البحر الأسود بحيرة عثمانية .

وكانت الحرب التي اندلعت بين السلطان محمد أبى الفتوح وجمهورية البندقية أطول أمداً وأشد عنفاً وأكثر تعقيداً من الحرب ، التي خاضها ضد جمهورية جنوة ؛ إذ استطاع أمد حرب البندقية مايقرب من سبعة عشر عاماً (١٤٦٣-١٤٧٩) ، وامتد نشاط الأسطول العثماني إلى أجزاء شتى من الحوض الشرقى للبحر المتوسط سواء حول الجزر المتناثرة فى بحر إيجه أو على سواحل الشمالية وشملت صراعاً صليبياً أوروبياً ضارياً دعا إليه البابا سكست الرابع Sixte (١٤٧١-١٤٨٤) . ففى بلاد المورة هاجم الأسطول العثماني سنة ١٤٦٧ الجزر الهامة فى IV جزر بحر الأرخبيل الخاضعة للبندقية ، وكان من أهمها جزيرة أطلق عليها الملاحون الإيطاليون فى العصور الوسطى اسم نجرپون Negrepon أى الجسر الأسود^(١) ، واستولى العثمانيون عليها وانتقموا من الحامية والسكان المدنيين انتقاماً ذريعاً ، فقطعوا تقطيعاً أجسام بعض جنود القلعة بواسطة المناشير ، ووضعو البعض الآخر منهم على الخوازيق ليموتوا موتاً بطيئاً ، ومثلوا بجثة نائب البندقية فيها أبشع تمثيل ، ونجحت جمهورية البندقية فى العام التالى (١٤٦٨) فى تكوين تحالف صليبي ضد الدولة العثمانية .

وقد ضم هذا التحالف بالإضافة إلى جمهورية البندقية - البابا سكست الرابع وكان نابولى والمجر وترنسلانيا وفرسان القديس يوحنا فى جزيرة رودس . وبسبب هذا الحلف الصليبي .. انتقلت العمليات الحربية إلى سواحل آسيا الصغرى ، واستولت القوات المتحالفة على أزمير ، وحالت دون استيلاء الأسطول العثماني على ثغر ليانت وكان تابعاً لجمهورية البندقية . وفى الجبهة الأوروبية اجتاحت الأسطول العثماني ساحل دلماشيا ، وكانت تتناثر عليه عدة موانئ ومراكز تابعة لجمهورية البندقية ، التي خشيت أن تتساقط تباعاً بقية ممتلكاتها فطلبت الصلح . ولكن رفض السلطان محمد أبو الفتوح وقف إطلاق النار حتى لايعطيها فرصة لتسترد نفاسها واقترب الأسطول العثماني من البندقية ذاتها حين أغار على إقليم فريول Frioul ، ودك المنطقة الواقعة بين البندقية وثغر تريستا وكان سكان الثغرين يشاهدون أسنة النيران وأعمدة الدخان تتصاعد من القرى ، التي أحرقتها مدفعية الأسطول .

وأخذ الموقف بالنسبة لجمهورية البندقية يتدهور من سوء إلى أسوأ ، وانفصمت عرى التحالف الصليبي سنة ١٤٨٧ بخروج مملكتى نابولى والمجر منه وتبعهما سائر الأعضاء . ووقفت جمهورية البندقية وحيدة أمام العثمانيين ، واضطرت إلى قبول معاهدة سنة ١٤٧٩ وكانت معاهدة مهينة لها تقرر فيها أن تدفع مبلغاً باهظاً باسم تعويضات الحرب ، فضلاً عن جزية سنوية ، وأن تتنازل الدولة عن عدة مدن وجزر^(٢) ، وأن تسحب قواتها من الأماكن التي

(١) تسمى الآن جزيرة إيوبيه Eubée ، وكانت لها قلعة تسمى إجرىپوس Egrippos .

(٢) تنازلت جمهورية البندقية للدولة العثمانية عن :

أرجوس ، نجرپون ، ولنوس ، وماين Magne .

بقيت لها في ألبانيا . وسمحت الدولة العثمانية لجمهورية البندقية في مقابل فداحة هذه التنازلات بأن يمارس البنادقة التجارة الحرة في الأراضي العثمانية ، وبأن تعين حكومة الجمهورية ممثلاً تجارياً في جالاطه في إستانبول؛ ليشرّف على مصالحها كمظهر من مظاهر تطبيع العلاقات بين الدولتين .

وهكذا قام الأسطول العثماني بدور رئيسي في بسط سيطرة الدولة على الساحل الشرقي للبحر الأدرياتي . وفي السنة التالية (١٤٨٠) هاجم الأسطول ثغر أوترانت Otrante في مملكة نابولي، ونجح السلطان في إنزال قواته في الثغر وذبح قائد الحامية وأسر اثني عشر ألفاً من جنودها وسكانها . واعتزم أن يتخذ من أوترانت قاعدة للزحف على شبه جزيرة إيطاليا من الجيوب إلى الشمال حتى يصل إلى روما مقر البابوية ، ولكنه جاز إلى ريه في اليوم الثاني من شهر مايو - آيار - عام ٤٨١ عن اثنين وخمسين عاماً ، وانسحب العثمانيون من أوترانت . ويقرر أحد المؤرخين أن أوروبا تنفست الصعداء حين تطايرت الأنباء بوفاته ، واعتقدت أنها أنقذت من خطر شديد ، وأمر البابا سكمت الرابع أن تقام صلاة الشكر ثلاثة أيام سواً^(١) . وعلى عهد السلطان أبي يزيد الثاني (١٤٨١-١٥١٢) ، فرضت ضريبة خاصة على إستانبول ومدن أخرى للإئناق على بناء السفن^(٢) . ولما تولى العرش ابنه سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) نقل في عام ١٥١٦ المراكز البحرية الرئيسية للأسطول من قاعدتها الأصلية في غاليبولي إلى إستانبول؛ حيث أنشأ داراً لصناعة السفن «ترسانة» في ضاحية جالاطه على القرن الذهبي ، ويطلق عليها في اللغة التركية «ترسانة بوغازي» أي بوغاز البحرية^(٣) . وقد أمر بهذا النقل قبل أن يخوض صراعاً حريماً ضد دولة المماليك الشراكسة في الشام ومصر ، وقد بنى سليم في هذه الترسانة سفناً أكبر حجماً من أي سفينة استعملت حتى ذلك الوقت . وكان يعد العدة لفتح جزيرة رودس منذ أن عاد إلى إستانبول عقب انتهاء العمليات الحربية في الجبهتين الآسيوية والإفريقية . ولكن فاجأه الموت وهو في الطريق من إستانبول إلى أدرنة في اليوم الثاني والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥٢٠ عن أربعة وخمسين عاماً، وبعد حكم قصير دام زهاء ثمانى سنوات . وارتقى العرش من بعده ابنه سليمان ، وعلى عهده كان للأسطول نشاط لم تشهد له الدولة العثمانية من قبل مثيلاً.

ومما يذكر أن السلطان سليم بعد أن أقام في القاهرة بضعة أشهر غادرها في اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٥١٧ إلى الإسكندرية؛ ليقوم بالتفتيش على الأسطول

(1) Lavallée, Histoire de la Turquie, t. 1, p. 275.

(2) Gibb Hamilton & Harold Bowen, op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 105, fn. 2.

(٣) لم تكن جالاطه Galata حتى بداية القرن السادس عشر تمتاز عن بيرأ Pera إذ كانت لقطة جالاطه تطلق على كل المنطقة .

العثماني ، وكان بقيادة بيري باشي Piri وسافر إليها بطريق النيل من بولاق إلى رشيد ومنها امتطى صهوة جواده وسار ، في حراسة ألف فارس من سلاح الفرسان ، ^(١) على طول الشريط الساحلي إلى الإسكندرية ؛ حيث يلغها في اليوم الثاني من شهر يونيو - حزيران - وأقام في قلعة المدينة ، ثم استعرض الأسطول وكان يتكون من مائتي سفينة . ثم زار المدينة واستقبل فيها مشايخ العريان الذين قدموا له «التقادم» أي هدايا القُدوم . وكانت عبارة عن خيول وجمال وأغنام وأبقار وغير ذلك ، وغادر الإسكندرية في اليوم السادس من شهر يونيو - حزيران - عائداً إلى القاهرة . من الطريق نفسها فبلغها في اليوم الثاني عشر من ذات الشهر بعد غيبة استمرت أسبوعين ^(٢) ، وتدل ملابسات هذه الزيارة على أن الهدف الرئيسي منها كان التفتيش على الأسطول وبالتالي على مدى اهتمامه به وضخامة عدد وحداته .

الأسطول على عهد السلطان سليمان المشرع :

مذ أن استولى السلطان سليمان المشرع على العرش (١٥٢٠-١٥٦٦) ظفر الأسطول بعناية بالغة منه . فأنشأ له - إلى جانب قاعدته الرئيسية في إسطنبول - قواعد بحرية في جزر بحر الأرخبيل وفي أقاليمنا على ساحل ألبانيا وفي غيرها ، كما أنشئت قاعدة بحرية وترسنة في ميناء السويس يرتكز إليها أسطول البحر الأحمر والبحار الشرقية ^(٣) .

وقد استهل سليمان حكمه بعد أن فرغ من فتح بلغراد عام ١٥٢١ بانتزاع جزيرة رودس ، من فرسان القديس يوحنا في أواخر عام ١٩٢٢ ، وكانت قوة الأسطول العثماني المهاجم تتكون من ثلاثمائة سفينة بين سفن حربية وسفن نقل الجنود . وبدأت بنقل طلائع الحملة وكان عدد أفراد هذه الطلائع عشرة آلاف مقاتل ، ثم جاءت بالقوات الرئيسية وقوامها مائة ألف جندي كانوا تحت قيادة السلطان ^(٤) .

(١) كانت الأوامر قد صدرت إلى يونس باشا بأن يتحرك بقواته من تروجه لمقابلة سليم في رشيد والتوجه معه إلى الإسكندرية . وقد صدر أمر السلطان بعد عودته إلى القاهرة بتعيين يونس باشا نائباً للسلطان في حكم مصر ثم عزله في شهر شعبان ٩٢٣ (١٩ من أغسطس - آب - إلى ١٦ من سبتمبر - أيلول - عام ١٥١٧) بولي مكانه خاير بك ثم أمر في الشهر ذاته بقتل يونس باشا وفصل رأسه عن جثثاته .

(٢) ابن إياس ، مصدر سبق ذكره ، نشر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى ، ج ٥ ، ص ١٨٤-١٨٧ ، وانظر أيضاً Combe Etienne, op. cit., p. 14 .

(٣) عن نشاط الأسطول العثماني على عهد السلطان سليمان المشرع في البحر الأحمر والبحار الشرقية . انظر : دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : المراحل الأولى للوجود البرتغالي إلخ ، بحث سبقت الإشارة إليه .

(٤) انظر أسباب فتح السلطان سليمان المشرع لجزيرة رودس ووقائع الفتح في : دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ٦٩٠-٦٩٣ .

وبفضل استيلاء السلطان سليمان على جزيرة رودس ، زادت سيطرة الأسطول العثماني على الحوض الشرقي للبحر المتوسط . فقد كانت له من قبل سيطرة على سواحل الأناضول والبلقان والشام ومصر ، وقد استغل السلطان سليمان استيلاءه على جزيرة رودس استفلا حريباً واسع النطاق . فقام الأسطول العثماني بتطهير بحر إيجه من الجزر والمحطات البحرية ، التي كان ينفذها البنادقة وغيرهم جيوباً عسكرية لهم ، وما لبث أن نقل الأسطول عملياته الحربية إلى البحر الأيوني ثم البحر الأدرياتي .

النشاط الحربي للأسطول العثماني في بحر إيجه عام ١٥٣٧ :

بينما كانت الحرب تدور في ضراوة بالغة بين قوات فرنسا وقوات الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي زحفت على فرنسا من ناحية الجنوب الشرقي ، وتكبدت فيها الدولتان خسائر فادحة .. استجاب السلطان سليمان في مايو - آيار - ١٥٣٧ لنداء فرنسوا الأول ملك فرنسا ، وأنفذ حملة لتخفيف الضغط على القوات الفرنسية ، ولكي يضطر الإمبراطور شارل الخامس إلى حجز جزء من قوات الإمبراطورية في الجبهة الشرقية ^(١) . وقد استولى الأسطول العثماني على أفلونا Avlona وهو ميناء يقع على البحر الأيوني . ومن هذا الميناء اتجه الأسطول إلى جزيرة كورفو Corfu ، وفرض عليها حصاراً ، وتصدى للعثمانيين الأسطول الإسباني بقيادة أندريه دوريا André Dorea أحد مشاهير القادة البحريين الإسبانين . وانتصر على الأسطول العثماني في المراحل الأولى ، ولكن سرعان ما تفوق عليه خير الدين بربروس باشا وحول الهزيمة إلى نصر ، ثم اضطر إلى رفع الحصار عن كورفو ، وعوض هذا الانسحاب بفتح جزر بحر إيجه ^(٢) بما تضمه من جزر الدوديكانيز Dodékanése ، ولما رأى حاكم جزيرة ناكسوس Naxos ^(٣) وهي كبرى جزر الأرخبيل اليوناني ^(٤) ماحل بسائر الجزر سارع إلى إعلان خضوعه للسلطان العثماني ، وعقد معاهدة تعهد فيها بدفع جزية قدرها خمسة آلاف دوكة سنوياً وأن يكون تابعاً للسلطان .

(١) انظر تقصيمات عن الموقف الدولي في أوروبا عقب سلم السيدات أو صلح كنبراي

La Paix des Dames ou la Paix de Cambrai.

وازياد خطر العثمانيين سواء في القارة الأوروبية أو في حوض البحر المتوسط ، في دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع إلخ - مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ٢٥٩-٣٦٢ .

(٢) كان من بين الجزر التي استولى عليها الأسطول العثماني :

Syra-Guira(Gyatos) - Pathmos - Stampalia - EGINE.

(٣) كان اسم هذا الحاكم كريسبو Crispo .

(٤) تسمى جزر بحر الأرخبيل اليوناني سيكلاديس Cyclades . وهذه اللفظة مشتقة من الكلمة اليونانية Kuklos ومعناها دائرة ، لأن جزر بحر الأرخبيل في مجموعها تكون دائرة حول ديلوس Délos وهي أصغر جزر الأرخبيل .

نشاط الأسطول على سواحل دلماشيا في البحر الأدرياتي سنة ١٥٣٨ :

وعلى الرغم من عقد هدنة نيس في اليوم الثامن عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٥٣٨ بين الإمبراطور شارل الخامس وفرنسا الأول ملك فرنسا^(١) ، وفيها تقرر وقف العمليات الحربية بينهما لمدة عشر سنوات .. أثبتت الأحداث أن هذه الهدنة لم تكن إلا قصاصة ورق لا قيمة لها . فقد استمرت الحرب مستعر أوارها بين المعاهلين في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وتدعم مركز الإمبراطور بانضمام جمهورية البندقية والبابا پول الثالث وفريديناند ملك النمسا إليه ، وظهر التحالف الفرنسي العثماني قوياً في هذا الوقت العصيب . فواصل خير الدين بربروس باشا - قيودان باشا - عملياته الحربية ومضى يستكمل الاستيلاء على بقية جزر بحر الأرخبيل^(٢) ، ثم قام بهجوم على جزيرة كريت ، وتصدى له أندريه دوريا القائد البحرى الإسباني . ولكن كان النصر لحليف خير الدين بربروس الذى أشعل الديران في مدينتين بقذائف مدفعية الأسطول ، كما أحرق عدداً كبيراً من القرى الساحلية في الجزيرة^(٣) .

انتصار بحرئى ساحق للأسطول في معركة بريفيزا :

هاجم الأسطول العثماني السواحل الجنوبية لشبه جزيرة إيطاليا ، وأنزل قوات عثمانية على مقربة من المدينة البحرية أوترانت Otrante وانتشرت الشائعات في أرجاء أوروبا بأن السلطان سليمان المشرع يبتغي الزحف منها على روما مقر البابوية والكنيسة الكاثوليكية ، وأنه سوف بها مافعله السلطان محمد أبو الفتوح حين دخل القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، وحول كاتدرائية القديسة صوفيا إلى مسجد . وارتفعت الأصوات في أوروبا تطالب بضم الصفوف لمواجهة هذا الخطر الإسلامى العثمانى الداهم ، الذى تتعرض له الكنيسة الكاثوليكية . وعقد في عام ١٥٣٨ حلف صليبي دولي ، كان قوامه الإمبراطورية الرومانية المقدسة وجمهورية البندقية والبابوية . وتلاقت أساطيل هذا الحلف تجاه ميناء بريفيزا Prévéza جنوبى جزيرة كورفو . ولجأ خير الدين بربروس إلى الحيلة كي يصرف قادة السفن عن القتال . ونظاھر برغبته في الدخول في مفاوضات للصلح ، وقدم لهم مقترحات في هذا الصدد . وبينما كانت الاتصالات دائرة ، وبينما كان البحارة في حالة استرخاء عسكرى .. اشتبك معهم في معركة

(١) عن هدنة نيس ، انظر :

دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : أوروبا في مطلع إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ٢٦٧-٢٦٨ .

(٢) كان من بين الجزر التى استولى عليها الأسطول العثماني .

Skiathos - Skyros - Karpathos (Skarpantos).

انظر :

Lavisse et Rambaud, op. cit., t. IV, p. 732.

(3) Loc. Cit.

وردهم على أعقابهم خاسرين ، واسترد الأسطول العثماني سمعته بعد أن نال منها انتصار الإمبراطور شارل الخامس ، الذي كان قد استولى على تونس عام ١٥٣٥ . ومما يذكر أن وحدات الأسطول الفرنسي بقيادة سان بلانكار Saint-Blancart كانت موجودة في مياه المعركة ، ولكنها لم تشترك على الإطلاق في العمليات الحربية ، وهذه حقيقة يقرها أحد كبار المؤرخين الفرنسيين :

La flotte française, commandée par Saint-Blancart, avait paru dans les eaux de Prévéza, mais sans prendre part à aucune action. (١)

أما التحالف الصليبي الدولي .. فقد تروح بعد هذه الهزيمة البحرية ، وبذل فرنسوا الأول ملك فرنسا جهوده الدبلوماسية لإخراج جمهورية البندقية من هذا التحالف . وعهد بهذه المهمة إلى مبعوثيه الدبلوماسيين وهما رنسون Rincon ، وسيزار كانتلمو Cesar Cantelmo ونجحا في هذه المهمة ، وعقد صلح في عام ١٥٣٩ بين الدولة العثمانية وجمهورية البندقية (٢) .

امتداد نشاط الأسطول إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط :

ظل نفوذ الأسطول العثماني بعيداً عن الحوض الغربي للبحر المتوسط حتى الثلاثينيات من القرن السادس عشر ، ثم ظهر قوة ضاربة عملاقة شامخة في أنحاء شتى من هذا الحوض ، شملت جنوبى إيطاليا وأجزاء من جزيرة صقلية والساحل الجنوبي لفرنسا وسواحل إسبانيا ، فضلاً عن ثلاثة أقاليم إسلامية عربية ، هي : الجزائر وتونس وطرابلس . وجاء نشاط الأسطول العثماني في مياه تلك الجهات نتيجة عدة عوامل ، كان من بينها :

أولاً : اشتداد الصراع الديني بين الإسلام والمسيحية في منطقة شمالى إفريقية ، وهو الصراع الذى وصل إلى حد الاشتباك المسلح بين البرتغال وإسبانيا من ناحية ، والقوى الإسلامية فى شمالى إفريقية من ناحية أخرى ، وقد أضفى عليه البرتغاليون والإسبانيون الطابع الصليبي العنيف ؛ مما دعا القوى الإسلامية إلى الاستجداد بالدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية .

ثانياً : سياسة التوسع الإقليمى البحرى التى انتهجتها الدولة العثمانية باستيلائها تباعاً على ممتلكات جمهورية البندقية .

ثالثاً : التحالف بين الدولة العثمانية وفرنسا ضد عدوهما المشترك شارل الخامس ، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

(1) Laviset et Rambaud, op. cit., t. IV, p. 732.

(2) Loc. Cit.

وكان امتداد نشاط الأسطول العثماني إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط بمثابة فتح جبهة حربية ثانية ضد الإمبراطور شارل الخامس، وسياسة عليا للدولة على عهد السلطان سليمان، استهدفت منها مزيداً من التعاون بين الدولة العثمانية وفرنسا؛ إذ أصبح الاتصال العسكري والتعاون الحربي بين الدولتين - بفضل الأسطول العثماني - مباشراً وأكثر سهولة وأشد فاعلية، فإن الحروب البرية التي خاضتها الدولة ضد المجر وضد النمسا لم تنح الفرصة أمام فرنسا لتنسيق التعاون المنشود.

أما وقد فحمت الدولة العثمانية جبهة حربية في هذا الحوض الغربي، الذي تطل فرنسا على سواحله الشمالية.. فقد أصبح في مقدور الدولتين تنسيق وتعزيز التعاون الحربي بينهما، واستطاع الأسطول العثماني أن يتغفل في أنحاء الحوض الغربي، وأن يتخذ من الموانئ الفرنسية قواعد له يحتمي بها، وأن يقوم بمهاجمة ممتلكات الإمبراطور شارل الخامس، في إيطاليا وإسبانيا؛ كي يخفف الضغط على القوات الفرنسية في حربها ضد هذا الإمبراطور.

ولم تكن الانتصارات التي حققها الأسطول العثماني تقل من حيث أهميتها عن الانتصارات التي سجلتها الجيوش العثمانية على أرض القارة الأوروبية في بلغراد وفي موهاكز، بل كانت انتصارات الأسطول العثماني أبقى أثراً من فتوحات المجر والنمسا؛ لأنه نجم عن انتصاراته في الحوض الغربي للبحر المتوسط إنقاذ شمالي إفريقيا من الغزو الصليبي الأوروبي، ودخول ثلاثة أقاليم إسلامية عربية تحت السيادة العثمانية، وتراوحت فترة هذه السيادة بين قرنين وثلاثة قرون.

وسنرجع الكلام عن الجبهة الإفريقية في الحوض الغربي للبحر المتوسط عند تعرضنا لموضوع الجزائر وطرابلس وتونس.

هجوم الأسطولين العثماني والفرنسي على ثغر نيس :

لم يتأخر السلطان سليمان المشرع عن تقديم المساعدات الحربية، التي طلبها فرنسوا الأول في أثناء الحرب التي اشتعلت من جديد بين هذا الأخير والإمبراطور شارل الخامس حول دوقية ميلان Milan في شمالي إيطاليا عقب هدنة نيس. وقد أبحر خير الدين بربروس من إستانبول في شهر مايو - أيار - عام ١٥٤٣، على رأس قوة بحرية كبيرة إلى جنوب فرنسا لمساعدة الفرنسيين على تخليص ميناء نيس من قوات شارل الخامس. وكان في رفقته يولان Paulin القائد البحري الفرنسي، وإستولي خير الدين في يونيو - حزيران - عام ١٥٤٣ على ثغر رجيو Reggio في جزيرة صقلية ويطل على بوغاز ميسينا، ثم مضى يطهر المنطقة الواقعة في منتصف حوض البحر المتوسط من سفن الإسبانيين حتى بلغ مارسيليا في يوليو - تموز - عام ١٥٤٣ وهناك انضم إليه أميرال فرنسي هو الدوق إنجهين Enghein، الذي كان تحت

إمرته أربعون سفينة مختلفة الأنواع والأحجام .

وتعاون الاثنان فى الاستيلاء على نجر نيس فى اليوم العشرين من شهر أغسطس - آب - عام ١٥٤٣ ، ولكن تعذر على العثمانيين والفرنسيين الاستيلاء على حصن المدينة ؛ إذ أنقذه من السقوط ووصل أسطول إسباني يقوده أندريه دوريا ، ووصول جيش إمبراطورى من دوقية ميلان . ولما استعصت القلعة على المهاجمين عمد العثمانيون إلى الانتقام الذريع من سكان نيس ، فنهبوا المدينة وقتلوا السكان وأعملوا النار فى منشأتها (١) ، ومما هو جدير بالذكر أنه حدث نزاع بين القائدتين المتحالفين ، إذ هدد خير الدين بربروس زميله الأميرال الفرنسى بوضع الأغلال فى يديه ؛ لأن هذا الأخير اهتم بشحن كميات هائلة من النبيذ من مارسيليا ، ولم يهتم بتزويد سفنه بمقادير كافية من الذخائر (٢) .

الأسطول العثماني يتخذ من طولون قاعدة حربية له :

وفى سبتمبر - أيلول - عام ١٥٤٣ ، وقع حادث من الحوادث الفريدة فى التاريخ التى لاتحدث إلا لماماً أو لاتحدث على الإطلاق .. فبان طولون - وهو الميناء الحبرى لفرنسا فى حوض البحر المتوسط - قد تحول إلى قاعدة حربية إسلامية عثمانية برضاء وموافقة السلطات الفرنسية . كان الأسطول العثماني فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، يهاجم فى غير هودة الأهداف العسكرية الإسبانية ، وكان فى حاجة إلى قاعدة حربية يستند إليها فى عملياته العسكرية . وفى صراوة القتال المستعربين فرانسوا الأول والإمبراطور شارل الخامس ، وقع اختيار ملك فرنسا على نجر طولون ليكون قاعدة للأسطول العثماني ، وأصدرت الحكومة الفرنسية فى اليوم الثامن من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥٤٣ بإخلاء الفجر من جميع سكان . وطلبت منهم أن يأخذوا معهم جميع أمتعتهم وأموالهم . وهددت كل شخص تسول له نفسه مخالفة هذه الأوامر بأقصى العقوبات واعتبار رفض الهجرة من المدينة عصياناً للحكومة الملكية فى باريس ، وأصبحت طولون مدينة إسلامية عثمانية وقاعدة عسكرية للأسطول العثماني . وعادت السلطات الفرنسية ، فخشيت أن يعمد البحارة العثمانيون إلى ارتكاب أعمال التخريب فى طولون ، على النحو الذى فعلوه فى نيس ، فأصدرت تعليمات لاحقة قصرت فيها الهجرة من المدينة على الأطفال والنساء اللاتى يردن مغادرة طولون ، وقد قضى خير الدين بربروس شتاء ١٥٥١-٤٤٥١ فى طولون .

وتشيد الوثائق الرسمية بحسن سلوك العثمانيين فى أثناء مرابطتهم بميناء طولون ، وقد خرجوا منها بحصيلة آدمية بلغت أربعة عشر ألف أسير من قوات شارل الخامس (٣) . وقد بلغ

(1) Lavis et Rambaud, op. cit., t. IV, p. 735.

(2) Loc. Cit.

(3) Loc. Cit., pp. 120-121.

السخط العام في أوروبا أقصى مداه على الملك فرنسوا الأول ، الذي دعم تحالفه مع أكبر دولة إسلامية إلى الحد ، الذي جعله يسمح بتحويل ميناء حبرى فرنسى إلى قاعدة حربية إسلامية عثمانية ، وجعل هذا الميناء فى خدمة الأسطول العثماني . ولذلك لم يكن أمراً عجباً أن أطلق الرأى العام الأوروبى على التحالف بين فرنسوا الأول ملك فرنسا والسلطان سليمان المشرع هذه العبارة «الاتحاد المذنب بين فرنسوا والهلال و L'Union Sacrilege du Lis et du Croissant» (١) . وقد أساء هذا التعاون الوثيق إلى مركز الملك فرنسوا الأول فى نظر الرأى العام الأوروبى ، وقرب بين الكاثوليك والبروتستانت ؛ إذ وعد الأمراء الألمان بأن يفقوا إلى جانب الإمبراطور شارل الخامس ضد الدولة العثمانية وضد فرنسا (٢) .

وكان ذلك العمل العسكرى فى طولون آخر عمل حبرى ، قام به خير الدين بريروس باشا، إذ اعتزل حياة البحر وعاش فى إستانبول حتى جاز إلى ربه عام ٦٤٥١ ، بعد أن سطر فى تاريخ البحرية العثمانية أروع الصفحات فى البطولة والفدائية والنزاهة والإخلاص للإسلام وللدولة العثمانية ، وردع القوى الصليبية الباغية .

والحق أن خير الدين بريروس يعد بطل للتاريخ البحرى العثماني ، ومن أبرز القادة البحريين الذين ظهروا فى العالم فى القرن السادس عشر . وكان طرازاً فريداً بين القادة العثمانيين البحريين ؛ إذ كان يجمع بين المهارة الحربية والثقافة السياسية العميقة ، ملماً بأدق تفاصيل السياسة الدولية ؛ مما جعله عوناً للدولة فى مواجهة المشكلات الخارجية للدولة ، وأكسبه احتراماً وتقديراً عميقين فى الدوائر العليا سواء فى الباب العالى أو فى فرنسا . ويعزو بعض المؤرخين عقد التحالف بين الدولة العثمانية وفرنسا إلى النفوذ العظيم ، الذى كان يتمتع به خير الدين فى الدولة ، والتقدير العميق الذى ظفر به من المسئولين فى فرنسا ، وكانوا ينظرون إليه على أنه صديق لفرنسا . كما يقرر المؤرخون أن معاهدة الامتيازات الأجنبية التى أبرمت بين

(١) لفظة Lis بالفارسية اسم لزهرة ناصعة البياض على شكل حربة ، ويقرب شكلها الجانبى من رسم الصليب . كانت تتخذ قديماً شعاراً لفرنسا ثم أطلقت من باب الاستعارة على فرنسا فيقال :

فرنسا Les Lis.

مملكة فرنسا Le Royaume des Lis.

عرش فرنسا Le Trône des Lis.

(٢) اشتعلت الحرب من جديد بين فرنسوا الأول والإمبراطور شارل الخامس ، وانتصر فيها ملك فرنسا فى معركة سيريزول Cerisoles فى ١٤ من أبريل - نيسان - عام ١٥٤٤ ، وكانت آخر حرب يخوضها فرنسوا الأول قبل أن تتركه الوفاة فى ٣١ من مارس - آذار - فى عام ١٥٤٧ ، وكانت هذه الحرب قد انتهت بمقد معاهدة كريسبى Crespi (١٨ من سبتمبر - أيلول - عام ١٥٤٤) .

انظر دكتور عبدالعزيز الشناوى ، أوروبا فى مطلع إلخ ، مرجع سبق ذكره الطبعة الأولى ، ص ٣٦٥-٣١٥ .

الدولتين عام ١٥٥١، إنما كانت ثمرة من ثمار جهوده في التقريب بين هاتين الدولتين العملاقتين .

وتوالت انتصارات الأسطول العثماني على عهد السلطان سليمان المشرع ، منذ أن عين بيالة Piale في منصب قيودان باشا عام ١٥٥١ ، وهو من ألمع القادة الذين جاءوا بعد خير الدين بربروس ، فقد هاجم الساحل المحيط بنابولي سنة ١٥٥٥ ، واستولى على رجيو Reggio وأسر سكانها ، وأحرز انتصارات بحرية متعاقبة : احتل عام ١٥٥٦ ميناء بنزرت في تونس . وفي العام التالي كان يقود مائة وخمسين سفينة دمر بها ميورقة ، وأحرق سورنتر Sorento بالقرب من نابولي . وفي عام ١٥٥٨ ظل رابضاً بأسطوله المكون من تسعين سفينة أمام ولونة Valona على ساحل ألبانيا ، يراقب أساطيل الأعداء الذين كانوا يتأهبون لمهاجمة جربة وطرابلس ، ثم أحرز في ٣١ من شهر يوليو - تموز - عام ١٥٦٠ أعظم انتصاره البحري وهي احتلال جربة ، وكانت قد سقطت قبل ذلك في أيدي الإسبانين . وكان أسطوله يتكون وقتذاك من مائة وعشرين سفينة . وقاد حملة موفقة على جزيرة خيوس Chios (ساقز Sakiz) وكانت آخر جزيرة في بحر إيجة ، استعصت على العثمانيين ، فسقطت الجزيرة ومينائها في يوم واحد هو عيد الفصح عام ١٥٦٥ (١) .

هزائم الأسطول العثماني :

وإذا كان للأسطول العثماني انتصاره الباهرة .. فقد كانت له أيضاً هزائمه الأليمة شأن أساطيل كل الدول دون استثناء . وحسبنا أن نذكر منها إخفاقه في فتح جزيرة مالطة سنة ١٥٦٥ على عهد السلطان سليمان المشرع وتعرضه لخسائر فادحة في الأرواح والسفن ، ثم هزيمته في معركة لبنان سنة ١٥٧١ على عهد السلطان سليم الثاني . وقد وصلت هذه الهزيمة إلى حد الكارثة .. فقد تحطمت غالبية وحدات الأسطول ، بحيث لم ينج منها إلا القليل ، كما قتل أو غرق عدد من كبار القادة البحريين والبحارة المدربين . وإذا كانت الدولة قد استطاعت بناء عدد كبير من السفن خلال العام التالي إلا أن خسارتها البشرية في الضباط والبحارة المتمرسين في شئون الملاحة والقتال البحري كانت فادحة ؛ لأنها لم تستطع تعويضهم بالسرعة نفسها ، التي تم بها بناء سفن جديدة .

ومن هنا يمكن القول إن بناء الإنسان أصعب بكثير من بناء السفن . وكان هذا هو سبب ضعف الأسطول العثماني بعد معركة ليبانت ، فلم يخض معركة بحرية ذات شأن إلا في منتصف القرن التالي ، حين أرسلت الدولة حملة بحرية لانتزاع جزيرة كريت من جمهورية البندقية ، وقد استغرق فتحها خمسة وعشرين عاماً (١٦٤٤-١٦٦٩) ، وقد كشف طول أمد هذه

(١) انظر عرضاً لانتصارات بيالة باشا في :

الحرب عن أن الأسطول لم يستعد أمجاده الأولى . ومما هو جدير بالذكر أن الدولة العثمانية لم تحاول إخفاء حجم هزيمة لپانت عن الجماهير . فلم تطلق عليها نكسة أو أوصافاً أخرى ابتغاء التميويه على أفراد الشعب أو الاستخفاف بعقولهم ، بل أطلقت عليها «صنفين دونما سفرى، أى معركة الأسطول الذى غرق» ، وتعرف هذه المعركة فى تاريخ الدولة العثمانية باسم «إينة بختى»^(١) Ine Bahti ، وفى القرن التاسع عشر تحطم الأسطول العثماني فى معركة نفارين البحرية (١٨٢٧) .

ويلاحظ أن هذه الهزائم الثلاث الأليمة التى تكبدها الأسطول العثماني قد وقعت ؛ لأنه كان يواجه فيها قوات بحرية تتبع عدة دول بحرية تحالفت ضده . فى حملة مالطة انضمت إسبانيا فى الدفاع عن الجزيرة إلى جانب أصحابها فى ذلك الوقت ، وهم فرسان القديس يوحنا . وفى معركة لپانت ، واجه الأسطول العثماني تحالفاً رهيباً هو العصبة المقدسة - La Sainte Ligue التى تتنادى إليها البابا بيوس الخامس . وقد تم تكوين العصبة فى ٥٢ من مايو - آيار - عام ١٥٧١ من البابوية ، وإسبانيا ، والبنديقية ، وتوسكانيا ، وجنوة ، وفلورانس ، وسافوى ، ومانتو ، وپارما ، وفرسان القديس يوحنا بجزيرة مالطة .

وقد تضمن ميثاق العصبة نصوصاً حددت عدد السفن والبحارة والجنود والأموال التى يقدمها الأطراف المتعاقدين فى هذه العصبة . وتدخل البابا بيوس الخامس ؛ للقضاء على التنافس الذى ثار بين أعضاء العصبة حول منصب القائد العام . واستطاع أن يقتضيه بقبول تعيين قائد بحرى ، سبق له خوض معارك ضد مسلمي شمالي إفريقيا ، وهو دون جوان النمساوى Don Juan d'Autriche ، وهو ابن غير شرعى للإمبراطور شارل الخامس . وقد تسلم القيادة العامة للأساطيل المتحالفة فى ٢٢ من أغسطس - آب - عام ١٥٧١ ، واحتشدت هذه الأساطيل فى ميناء مسينا بجزيرة صقلية فى ١٥ من سبتمبر - أيلول . وكانت تضم خيرة القواد البحريين فى الدول المتحالفة . وبعثت الأسرآت المالكة فى أوروبا والإمارات الإيطالية بعدد كبير من أمرائها إلى قيادة الأساطيل الصليبية ؛ إظهاراً لعواطفها نحو الحملة الصليبية ورمزاً لتضامنها .

ومما يذكر أن دون جوان القائد العام رأى أن سفن جمهورية البندقية يعوزها العدد الكافي من البحارة المدربين ، فأمر بوضع خمسمائة بحار إسباني على كل سفينة من سفن البنادقة . وكانت كل سفينة صليبية بمثابة قلعة طافية على سطح الماء تحمل مدفعية ثقيلة

(١) يطلق على هذه المعركة فى المراجع الفرنسية Lépante وفى المراجع الإنجليزية Lepant وفى المراجع الإيطالية Lepanto . وقد دارت المعركة فى المنطقة الواقعة بين خليج لپانت وخليج باتراس patras ولهذا يرى بعض المؤرخين بأنه خليق بأن يطلق على هذه المعركة البحرية اسم معركة باتراس وليس معركة لپانت.

وخمسائة بحار عدا طاقم السفين . وقابل العالم المسيحي أنباء هزيمة الأسطول العثماني في المعركة بابتهاج شديد . وأقيمت في جميع أنحاء العالم المسيحي صلاة شكر te Deum ، ونظمت الاحتفالات ، وأقيمت الزينات في روما والبندقية وغيرها . وسارت المواكب وسط قرع الطبول إلى الكابيتول ، حيث سعد إليه القائد كولونا الذي اشترك في المعركة ممثلاً للبابوية .

وفي معركة نغارين^(١) البحرية واجه الأسطول العثماني أساطيل ثلاث دول أوروبية كبرى هي بريطانيا وفرنسا والروسيا . وكان الأسطول العثماني يضم الأسطول المصري وأسطول نيابنتي تونس والجزائر ؛ مما أضفى على المعركة صورة أسطول مسيحي يفتك بأسطول إسلامي ، مما دعا السلطان محمود الثاني إلى إعلان الجهاد الدني ضد المسيحيين ؛ خاصة الروس ، على أساس أن روسيا هي العدو اللدود رقم ١ للدولة العثمانية .

مسلمو الأندلس يستجدون بالدولة العثمانية :

كان من الطبيعي أن يتجه سكان الأندلس قبل سقوط الحكم الإسلامي فيها ، ويعد انتهاء هذا الحكم ، وكذلك أهالي شمالي إفريقية ، إلى الدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية ينشدون مساعدتها عسكرياً في الصراع ، الذي احتدم بين الإسلام والمسيحية في تلك الأقاليم ، وهو صراع اتخذ الطابع الصليبي العنيف . كانت الكيانات المسيحية في الأندلس تضغط ضغطاً لا هوادة فيه على ماتبقى للمسلمين من معاقل ومراكز . ولما طويت صفحة الحكم الإسلامي في الأندلس بعقد معاهدة غرناطة في اليوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٤١ ، أثبتت الأحداث أن هذه المعاهدة لم تكن إلا ستاراً للغدر والخيانة^(٢) ؛ إذ عمدت السلطات المسيحية الحاكمة في إسبانيا إلى تصفية الوجود الإسلامي الشيعي في شتى أنحاء البلاد ، واتخذت إجراءات تصفية ضد المسلمين الذين أثروا الحفاظ على دينهم . وقدمت أعداد كثيفة منهم إلى ديوان التحقيق - محاكم التفتيش - وصدرت عليهم أحكام جائرة بالإعدام أو السجن مدى الحياة مع مصادرة أملاكهم . ومضت في اضطهاد البقية الباقية منهم ، فمنعتهم من التحدث باللغة العربية ، ومن ارتداء ملابسهم الوطنية ، ومن التردد على الحمامات العامة ، ومن حمل السلاح ، وقرضت عليهم وضع شارة زرقاء على قبعاتهم ، وخصصت لهم في كل مدينة منطقة معينة أو حياً من أحيائها يسكنون فيه ، وحولت جميع المساجد إلى كنائس ، وأمرت المسلمين بأن يخروا للأذقان سجداً في الشوارع ، إذا مر بهم كبير الأبحار^(٣) .

(١) بجانب معركة نغارين ، وقعت معارك بحرية تحطم فيها الأسطول العثماني ، نذكر منها على سبيل المثال معركة سينوب في البحر الأسود ، حيث استطاع الأسطول الروسي القضاء على الأسطول العثماني ، في أواخر شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٥٢ .

(٢) محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٤-٢٥٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٥٤ .

أهداف البرتغاليين والإسبانيين من نقل الحرب الصليبية إلى شمالي إفريقيا :

كان البرتغاليون والإسبانيون يشنون حرباً متصلة على أقاليم شمالي إفريقية ، باعتبارها بلداً إسلامية ، تحوى رصيذاً بشرياً إسلامياً هائلاً يشد أزر مسلمي الأندلس في جهادهم الديني . فكان هدفهم العاجل احتلال شمالي إفريقية للفصل بين المغاربة المتمركزين على الساحل الشمالي للقارة الإفريقية وبين المسلمين في الأندلس . أما أهدافهم الصليبية التالية ، فكان من بينها تحويل المغاربة إلى المسيحية وطمس عروبتهم ، وقد دل هذا الهدف المزدوج على أن أحلام البقطة كانت تراود البرتغاليين والإسبانيين ؛ لأن تنصير مسلمي شمالي إفريقية وطمس عروبتهم ، كانا أمرين في حكم الاستحالة تنفيذهما .

كان دخول الإسلام وانتشاره في شمالي إفريقية عاملين هامين في تعريب الجماعات التي تقطن هذه الأرجاء الشاسعة ، وكان انتشار الإسلام فيها قد بدأ مبكراً . ولم تلبث القيروان أن أصبحت منذ أواخر القرن الأول الهجري أي القرن السابع الميلادي مركزاً هاماً للثقافة الإسلامية العربية ، يتلقى فيه الدارسون مبادئ الشريعة الإسلامية ، ويدرسون اللغة العربية والأدب العربي ، ثم يخرجون إلى جماعات البربر فيعلمونهم أصول الدين ويقرءونهم القرآن الكريم ، وينشرون بينهم اللغة العربية . واقتربت تلك الأهداف الصليبية بهدف اقتصادي هو انتزاع التجارة الإفريقية من أيدي المسلمين والاستيلاء على موارد الثروة الطبيعية في البلاد والتوغل جنوباً في الداخل .

وكانت كفة البرتغاليين راجحة في هذا الصراع الصليبي ؛ إذ احتلوا عام ١٤١٥ مدينة سبته Ceuta في أقصى الساحل الشمالي لإفريقية من ناحية الغرب في مواجهة بوغاز جبل طارق ، وكان احتلالهم لهذا الموقع الإستراتيجي الهام أمراً بالغ الخطورة ، لأن احتلال البرتغاليين لهذه المدينة كان من بين الأسباب التي أعاققت سكان شمالي إفريقية عن تعزيز القوات الإسلامية في الأندلس عن طريق بوغاز جبل طارق . ولذلك حرص البرتغاليون والإسبانيون من بعدهم على الاحتفاظ بهذا الموقع ، ثم احتل البرتغاليون سنة ١٤٢٨ مدينة طنجة في غربي سبته لإحكام الحصار حول المعبر الجنوبي لشبه جزيرة أيبيريا عن طريق بوغاز جبل طارق ، وأقام البرتغاليون مؤسسة تجارية لهم في وهران (١٤٨٣-١٤٨٧) .

تفاقم الخطر الصليبي الإسباني على شمالي إفريقية :

وعلى الرغم من هذا التوفيق ، الذي لازم البرتغاليين في صراعهم الصليبي ضد مسلمي شمالي إفريقية ، كان خطرهم أقل من خطر الإسبانيين ؛ لأن البرتغاليين اتجهوا بعد

فترة نحو الساحل الغربي لإفريقية حيث ركزوا نشاطهم وأنشأوا لهم قواعد عسكرية ، وهو الاتجاه الذى أسفر فى النهاية عن وصولهم بحراً إلى رأس العواصف - رأس الرجاء الصالح - وانتهى بهم إلى الوصول بحراً إلى الهند ، وخاضوا صراعاً صليبيّاً ضارياً ضد الكيانات الإسلامية على ساحل ملبار ومنطقة الخليج العربى وجنوبى شبه الجزيرة العربية وغيرها .

إما الإسبانىون فكانوا ينفذون وصية الملكة إيزابلا الأولى ، التى كتبتها قبل وفاتها عام ١٥٠٤ ، وكان مما جاء فيها : «إنى أرجو من الأميرة ابنتى والأمير زوجها ، وأمرهما بطاعة وصايا الكنيسة أمنا المقدسة . فعليهما أن يبقوا بحمايتها ، وألا يكفا عن المضى فى فتح إفريقية ومحاربة الكفار ، وكانت تقصد المسلمين واليهود بكلمة الكفار ، وكانت هذه الملكة لشدة تعصبها للمذهب الكاثوليكى قد عرفت فى التاريخ باسم الملكة إيزابلا الأولى الكاثوليكية» La Reine Isabelle lère La Catholique ، وكان زوجها على شاكلتها ، وعرف باسم فرناندو الخامس الكاثوليكى . وقد توفى عام ١٥١٦ . وقد أطلق الإسبانىون على الحرب بينهم وبين مسلمى شمالى إفريقية حرب الاسترداد ^(١) Reconquista ، وهى تسمية تنطوى على التحدى والمغالطة ؛ لأنه لم يسبق لهم الاستيلاء على أقاليم شمالى إفريقية .

احتل الإسبانىون عام ١٥٠٥ المرسى الكبير فى غربى الجزائر ، وقتلوا أربعة آلاف مسلم وأسروا ثمانية آلاف مسلم ، واحتلوا مليلة ومدينة الجزائر ^(٢) ، وفى عام ١٥٠٨ احتلوا حجر باديس . وفى العام التالى استولوا على بجاية ، وفى سنة ١٥١١ احتلوا ميناء طرابلس وقاموا بتدمير منشآت المدينة ، كما استولوا على وهران وغيرها من المدن الساحلية ^(٣) . وعلى هذا النحو .. تناثرت على طول الساحل الشمالى لإفريقية ابتداء من طرابلس إلى المغرب الأقصى محطات عسكرية ، اتخذها الإسبانىون ، ومن قبلهم البرتغاليون جيواً صليبية .

(١) دكتور محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثمانى إلى الاحتلال الفرنسى .. الطبعة الأولى ، ١٩٦٩ ، ص ١٣ .

(٢) كانت مدينة الجزائر فى أول نشأتها عبارة عن جزيرة صغيرة لاتبع عن الساحل الشمالى لإفريقية إلا بمسافة لاتتجاوز ثلاثمائة متراً . وأقام عليها الإسبانىون قلعة اتخذوها قاعدة عسكرية يضربون منها الساحل بالقبائل ، ثم ربطها خير الدين بربروس بقرية ساحلية مواجهة لها . ونشأت من الجزيرة والقرية مدينة الجزائر ، وهى الطريقة ذاتها التى كان الإسكندر المقدونى قد اتبعها فى تأسيس مدينة الإسكندرية .

(٣) دكتور جلال يحيى : المغرب الكبير وهجوم الاستعمار ، مرجع سبق ذكره ، الجزء الثالث ، ص ١٥ .

مسلمو الأندلس وشمالى إفريقيا يستغيثون بالدولة العثمانية :

وفى ذلك الوقت - قبل سقوط الحكم الإسلامى فى الأندلس ، وفى أثناء الحروب الصليبية المضارية التى أشعلها البرتغاليون والإسبانين ، فى شمالى إفريقيا - ترامت إلى مسامع المسلمين فى هذه الأقطار الانتصارات الباهرة ، التى أحرزتها الدولة العثمانية إلى ذلك الوقت فى أوروبا وآسيا ، وما تخلصها من نجاح السلطان محمد أبى الفتوح أو السلطان الفاتح محمد الثانى فى فتح القسطنطينية فاشربأت الأعناق إليه وإلى خلفائه ، ودارت اتصالات بين الجانبين ، ناشد فيها مسلمو الأندلس وشمالى إفريقيا سلاطين الدولة تقديم معونات عسكرية لهم فى نضالهم ضد الصليبية الأيبيرية ، واتجهوا أيضاً إلى دولة المماليك الشراكسة فى مصر ، وإلى مراکش من أجل هذا الهدف .

(أ) أهل غرناطة يستجدون بالسلطان محمد أبى الفتوح :

أرسل أهل غرناطة فى منتصف عام ٧٧٤١ - أى قبل سقوطها بإحدى عشرة سنة كآخر معقل إسلامى فى الأندلس - سفارة إلى إستانبول ، وجهوا فيها نظر السلطان محمد أبى الفتوح إلى تدهور أحوال المسلمين فى الأندلس وناشدوه التدخل لإنقاذهم ^(١) . ولكن كان فى حكم الاستحالة أن يستجيب السلطان محمد أبو الفتوح لهذه الاستغاثة ؛ لأنه كان هو الآخر كما سبق أن ذكرنا منصرفاً إلى مواجهة تحالف صليبي يهدد دولته بأفدح الأخطار . وقد ضم هذا التحالف البابا سكست الرابع Sixte (١٤٧١-١٤٨٤) ، وجمهورية البندقية ، وحكام نابولى ، والمجر ، وبرانسلانيا ، وفرسان القديس يوحنا فى جزيرة رودس ، وعدداً من الزعماء الألبانيين الذين كانوا لايزالون يضمرون عداً شديداً للدولة العثمانية . واستولت القوات المتحالفة على أزمير ، وحالت دون استيلاء العثمانيين على ليانت ، وكان تابعاً لجمهورية البندقية ، ولم تضع الحرب أوزارها إلا سنة ١٤٧٩ ^(٢) . وشرع السلطان محمد أبو الفتوح يعد مشروعاً لفتح روما عاصمة البابوية الكاثوليكية ، وأتجه بقواته إلى أوترنت فى مملكة نابولى عام ١٤٨٠ ليتخذ منها قاعدة للزحف على روما ، ولكنه جاز إلى ربه فى اليوم الثانى من شهر مايو - أيار - عام ١٤٨٠ ^(٣) .

(١) دكتور عبد الجليل التميمي . بحث عنوانه «من مسلمى غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني» . سنة ١٤٥١ منشور فى المجلة التاريخية المغربية . تونس ، العدد الثالث ، شهر يناير - كانون ثان - عام ١٩٧٥ ، ص ٣٧-٤٦ . انظر مقدمة البحث .

(٢) انظر مرضاً للملابسات تكوين هذا التحالف الصليبي ، وأدوار الحرب التى خاضتها الدولة العثمانية ضد الدول الأعضاء فى التحالف فى :

دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى ، أوروبا فى مطلع . إلخ . الطبعة الأولى ، ص ٦٦-٦٦٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٦٦-٦٦٧ .

واتجه مسلمو غرناطة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي إلى السلطان الملك الأشرف قايتباي (١٤٦٨-١٤٩٦) ؛ سلطان دولة المماليك الشراكسة يرجون تدخله لإنقاذهم من الملوك المسيحيين . وقد أرسل الأشرف قايتباي وقوداً إلى البابا وإلى ملوك الدول الأوروبية ، يذكرهم بأن المسيحيين في أرجاء دولته يتمتعون بكافة الحريات ، في حين أن إخوانه في الدين في مدن إسبانيا يتعرضون لألوان شتى من الظلم . وهدد على لسان مبعوثيه بأنه سوف يتبع سياسة المعاملة بالمثل ، وهي التكتيل بالمسيحيين إذا لم يكف حكام قشتالة وأراجون وغرناطة عن هذه السياسة الحمقاء ، وعن طرد المسلمين من أراضيهم ، وطالب بعدم التعرض لهم ورد ما أخذ من أراضيهم^(١) . ولكن لم يكن لهذا التهديد أو الوعيد أى أثر في تغيير الموقف العام للإسبانيين والبرتغاليين تجاه المسلمين ، سواء في الأندلس أو في شمالي إفريقيا .

(ب) أهل الأندلس يستجدون بالسلطان أبى يزيد الثاني :

واستجد مسلمو الأندلس مرة أخرى ، بعد وفاة السلطان محمد أبى الفتح بابنه السلطان أبى يزيد الثاني (١٤٨٠-١٥١١) ، ولكن تزامنت على السلطان الجديد الأزمات الداخلية والخارجية مثل مشكلة نزاعه على العرش مع أخيه الأمير جم ، وما أثاره هذا النزاع من مشكلات مع البابوية في روما وبعض الدول الأوروبية ، ثم هجوم البولنديين على مولدافيا - جزء من رومانيا حالياً - والحروب في ترانسلفانيا والمجر وجمهورية البندقية ، وتكوين تحالف صليبي آخر ضد الدولة من البابا جيل Jules الثاني وجمهورية البندقية والمجر وفرنسا ، وما أسفر عنه هذا التحالف من حرب تنازلت الدولة في نهايتها عن بعض ممتلكاتها ، وانتهى حكم السلطان أبى يزيد بصراع مع أبنائه أسفر عن خلع وقتله مسموماً^(٢) .

وتوالفت نداءات أهل الأندلس لملوك المغرب ، غير أن الأوضاع الداخلية التي كان عليها المغرب وخضوع ابن وطاس لإسبانيا وعقد معاهدة سنة ١٥٣٨ معها وإزدياد النفوذ الإسباني البرتغالي على السواحل المغربية .. كل ذلك جعل من المستحيل القيام بإجراء حازم وفعال لنصرة أهل الأندلس ، وإنقاذهم من المأساة التي تعرضوا لها ، فسقطت غرناطة عام ١٤٩١ ، وطويت صفحة الحكم الإسلامي في شبه جزيرة أيبيريا .

نخلص من هاتين الاستغاثتين المتلاحقتين للسلطان محمد أبى الفتح والسلطان أبى يزيد الثاني إلى أن الدولة العثمانية لم تستطع - لظروفها الداخلية والقوات الصليبية التي

(١) دكتور عبد الجليل التميمي : بحثه السابق الذكر . المجلة التاريخية المغربية ، العدد الثالث لعام ١٩٧٥ .

(٢) انظر عرضاً لهذه الأزمات الداخلية والأخطار الخارجية التي واجهها السلطان أبى يزيد الثاني في : دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ٦٦٩ - ٦٧٩ .

واجبتها أن تمد يد المساعدة لمسلمي الأندلس لإنقاذهم من الوقوع في براثن الصليبية الإسبانية، وبقي مسلمو شمالي إفريقيا يواجهون ضراوة الصليبية الإسبانية بالذات .

سكان شمالي إفريقيا مجاهدون إسلاميون ، وليسوا قراصنة :
مناقشة قرية ألصقت بهم :

اجتذب هذا الصراع الصليبي عدداً كبيراً من البحارة المسلمين من أقاليم شمالي إفريقيا، وكانوا قد نشأوا في مطلع حياتهم في خدمة الأسطول العثماني ، ثم كونوا سفناً كانت بمثابة أساطيل صغيرة تعمل لحسابهم في عمليات النقل البحري ، وتجاهد في الوقت ذاته ضد البرتغاليين والإسبانيين ، وأطلق عليها «مراكب الجهاد» ، وكان من قادة هؤلاء المجاهدين المغامرين : عروج ، وأخوه خير الدين بربروس ، وحسن باشا ، وصالح ريس ، ودراجوت باشا^(١) ، وغيرهم .

ويصر المؤرخون والباحثون الأوروبيون إصراراً شديداً على أن الفضل في نجاح هؤلاء الرؤساء البحريين المسلمين إنما يرجع إلى أصولهم المسيحية الأولى ، فقد كانوا يونانيين أو إيطاليين أو ألبانيين قبل أن يعتنقوا الإسلام . واستهدف هذا الفريق من المؤرخين والباحثين تصوير القادة البحريين المسلمين المغاربة بأنهم أجانب عن الدولة ، وأنهم قوم قلب ، ومجردون من المبادئ الخلقية ، وأن هدفهم الأسمى هو خوض المعارك جرياً وراء مغنم يظفرون بها، وأرغل هؤلاء المؤرخون في الدهم عليهم والسخرية بهم ليوضحوا ، في زعمهم ، وضاعة أصلهم . فقالوا عن بيالة باشا إنه ابن إسكافي ، وقالوا عن الطنج علي إن والده كان صائد سمك، وهكذا لم يغادروا صغيرة ولا كبيرة تسعى إلى قادة الأسطول العثمانيين المسلمين إلا أحصوها ، مع أن هؤلاء القادة كانوا مثلاً أعلى في الفدائية والبطولة في المعارك التي خاضوها ضد تكتلات صليبية دولية ، كما كانوا على جانبي كبير من التقوى حرصوا على إنشاء مساجد في إسطنبول وأقروا فيها أماكن لتكون مئوى لهم بعد وفاتهم .

وقد خلص أولئك المؤرخون رأياً إلى إطلاق صفة «القراصنة» على قادة الأسطول العثماني ، وكانوا يحرسون على ذكر اسم كل قائد مقروناً بهاتين الصفتين وبهذين الترتيبين قرصان ، وأمير بحر تركي . وهذا الرأي وماسبقه من تبريرات يعد نوعاً من التحامل على الدولة العثمانية ، لا يقدح في قدرها أو في كفاية هؤلاء القادة المسلمين ؛ فالدولة هي التي تعهدتهم بالتدريب في أسطولها وخرجوا قادة أذناً استطاعوا أن يشقوا طريقهم في حياة البحر ، وأن يخوضوا بنجاح ، دفاعاً عن دينهم ، صراعاً صليبياً ضارياً ضد دولتين بحريتين هما

(١) يرد هذا الاسم في بعض المراجع طور غود ، وفي المراجع الفرنسية Dragut ، وفي المراجع الإنجليزية Turgud .

البرتغال وإسبانيا ، كانتا تتمتعان في ذلك الوقت بمصادر مالية وحربية رهيبة ، وأسهمت كلتاهما بأكبر نصيب في حركة الكشف الجغرافية فيما وراء البحار سواء في الأمريكيتين أو في إفريقية وآسيا بعد الوصول ببحراً إلى الهند ، ويعد عبور المحيط الأطلنطي . فالوصف العلمي الذي يلحق بهؤلاء القادة ورجالهم هو أنهم مجاهدون إسلاميون خاضوا صراعاً صليوبياً ضد برتغاليين وإسبانيين ، أرادوا الاستيلاء على بلادهم ، وتحويل سكانها إلى المسيحية وطمس عروبتهم . أما وصفهم قراصنة فقول بجانب الحق والواقع ، وكان مبعثه شعور الأوروبيين بالمتى والضغينة بسبب ما أنزله المجاهدون من خسائر بالأوروبيين ويفرسان القديس يوحنا . ومن المؤسف حقاً أن نفرأ من المؤرخين والباحثين العرب قد سايروا مسابقة عمياء المؤرخين الأوروبيين في هذا الرأي الخاطيء ، وقد سبق أن تعرضنا لموقف أولئك العرب من هذه التسمية الخاطلة والظلمة معاً^(١) .

الدولة العثمانية ومجاهدو شمالي إفريقية :

برز من بين صفوف المجاهدين في شمالي إفريقية بابا عروج^(٢) ، وكان ذا شخصية قوية ودراية واسعة بأساليب مهاجمة الإسبانين^(٣) ، وذاع اسمه في كل مكان على أثر انتصاراته عليهم . طلب إليه رجال القبائل في الجزائر أن يساعدهم على استرداد ميناء بجاية من الإسبانين ، وكانت بجاية تعتبر أكبر ميناء في المنطقة الشرقية من المغرب المتوسط في ذلك الوقت . وحقق بابا عروج الآمال المعقودة عليه ، فكانت بجاية أول ميناء استطاع المسلمون تحريره من حكم الإسبانين ، ونقل قاعدة عملياته من جزيرة جربة إلى ميناء جيجل في شرقي الجزائر ، ثم طلب مواطنو بلدة الجزائر إلى عروج مساعدتهم على الصمود في وجه الإسبانين ، الذين كانوا قد أقاموا قلعة منيعية تسمى بينون Pénon على الجزيرة المواجهة للساحل والبلدة ، ويلاحظ أن بينو مصطلح يطلق على الجزر الساحلية والرءوس الداخلة في البحر .

واعتماد الإسبانين أن يقيموا عليها قلاعاً حصينة كي تهدد سكان الساحل ، وتمنع في الوقت ذاته وصول سفن المسلمين إليهم . فسار بابا عروج بطريق البر على رأس ثمانمائة جندي نظامي وخمسة آلاف متطوع جزائري ، في الوقت الذي أرسل فيه سفناً محملة بالمجاهدين ومسلحة بالمدفعية لتهديد حصن بينو ، ونجح في صد هجوم إسباني عن هذه البلدة عام ١٥١٦ ، وتمكن من إقامة حكمه على الساحل المواجه للجزيرة الخاضعة للإسبانين . وساعده هذا النجاح على أن يؤسس ، بصفته قائد تحرير ، حكومة عسكرية تحت قيادته انضم إليها عدد كبير

(١) انظر في هذه الدراسة ص ٦٧٤ حاشية رقم ٢ ، ص ٦٧٤-٦٧٥ .

(٢) يرد اسمه في بعض المراجع العربية أوردج ، وفي المراجع الفرنسية Aroudj ، وفي المراجع الإنجليزية Aruc .

(٣) بدأ بابا عروج نشاطه في الجهاد الديني البحري سنة ١٥١٠ ، وكان يمتلك في ذلك الوقت نحو عشر سفن .

من القبائل وسكان المدن ، واستولى على أقاليم المغرب الأوسط الولحد بعد الآخر ^(١) . وعهد بابا عروج إلى أخيه خير الدين بإدارة كل شرقي البلاد واتخذ دلس مقراً لإقامته وعاصمة للششرق ^(٢) . وكان لنجاح بابا عروج أصداء واسعة في تلمسان عاصمة بني زيان في غربي الجزائر ؛ إذ ظهر فيها اتجاه نحو توحيد الجهود مع هذه السلطة البحرية المجاهدة ؛ خاصة وأن بني زيان هادنوا الإيبانيين الذين كانوا يحتلون في ذلك الوقت وهران والمرسى الكبير .

وتخرج موقف المسلمين حين استتجد آخر حكام بني زيان بالإيبانيين ، الذين رحبوا بهذا التقارب ، وكانوا يخشون هجوم بابا عروج على وهران فأرسلت إسبانيا حملة قوية بلغت خمسة عشر ألف مقاتل ، تمكنت من الفوغل في أرض الجزائر وحصار مدينة تلمسان ، ووقع بابا عروج في أيديهم أسيراً وقتلوه عام ١٥١٨م ^(٣) ، وكان يبلغ من العمر وقتذاك أربعة وأربعين عاماً . ومما يذكر أنه كانت له لحية حمراء فأطلق عليه عروج بربروس ^(٤) Barberousse أى صاحب اللحية الحمراء ، وقد لحق هذا اللقب بعد وفاته باسم أخيه خير الدين ^(٥) ، الذى كان يسمى خزر ريس ^(٦) Hizir Reis وفاقت شهرته به شهرة عروج بهذا اللقب الذى أصبح لصيقاً بخير الدين ، وبهمننا أن نذكر أن عروج كان قد نجح في ضم معظم صفوف اشعب الجزائري وقرب بينه وبين سائر مسلمي شمالي إفريقيا في كفاحهم ضد العدو المشترك ، وخلفه أخوه خير الدين بربروس في قيادة عمليات الجهاد في بلاد المغرب الكبير ^(٧) .

الدولة العثمانية وخير الدين :

كان موقف خير الدين حرجاً بعد مقتل أخيه ، وقد أدرك في الحال ضعف موقفه السياسى ومركزه الحزبى . فقد كان يحيط به الأعداء ، وهم بقية بني زيان فى تلمسان وأنصارهم ، وبنو حفص ، والإيبانيون ، وكانوا اجميعاً يترصبون به الدوائر ويعملون على الإطاحة به . ولم يكن يتمتع أول الأمر بشعبية واسعة عريضة كشعبية أخيه . ولم تكن له

(١) استولى بابا عروج على مليانة ، ومدينة ، وتتناس وأقام فيها حاميات ، وقد أدى نجاحه إلى اضمحلال معظم القبايات الأهلية القديمة ، أمام نمو هذه السلطة الجديدة .

(٢) دكتور عبد الرحمن التميمي ، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة ١٥١٦ ، المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد السادس ، شهر يوليو - تموز - عام ١٩٧٦ ، ص ١١٧ .

(٣) دكتور محمد خير فارس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦-٢٧ .

(٤) كانت هذه الكلمة اختصاراً أو إدماجاً لعبارة *la barbe rousse* .

(٥) Lavissee et Rambaud, op. cit., t. IV, p. 805.

(٦) دكتور أرجمند كوران : أحمد باي قسنطينة المدافع عن الجزائر . بحث تقدم به إلى المؤتمر التاريخي الخامس الذى عقد في أنقرة في الفترة من ١٢ إلى ١٧ من شهر أبريل - نيسان - عام ١٩٥٦ ، وقد نشره دكتور عبد الجليل التميمي كملحق لرسالة دكتور كوران التي عريها . ص ٧٨-٨٥ .

(٧) دكتور جلال يحيى : الغرب الكبير إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢-٢٣ .

صدقات برؤساء القبائل ، فضلاً عن أنه كان يواجه نقصاً في السلاح والعتاد ؛ فكل هذه العوامل جعلت خير الدين يستنجد بالدولة العثمانية ، وكانت قد نجحت في إنزال ضربة أليمة بالدولة الصفوية في فارس (١٥١٤) ، ونجحت في ضم بر الشام (١٥١٦) ومصر والحجاز والمناطق الساحلية في اليمن إليها (١٥١٧) .

سكان مدينة الجزائر يرسلون رسالة استغاثة للسلطان سليم الأول :

وقد نشر الأستاذ الدكتور عبدالجليل التميمي ترجمة عربية لوثيقة تركية ^(١) محفوظة في دار المحفوظات التاريخية بإستانبول - طوب قابي سراي - تحت رقم ٦٤٥٦ ، وهذه الوثيقة عبارة عن رسالة موجهة من سكان بلدة الجزائر ، على اختلاف مستوياتهم ومؤرخة في أوائل شهر ذي القعدة عام ٩٢٥ ، في الفترة من ٢٦ من شهر أكتوبر - تشرين أول - إلى ٣ من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٥١٩ ، وكتبت بإيحاء وتوجيه من خير الدين بربروس إلى السلطان سليم الأول عقب عودة الأخير من مصر والشام إلى إستانبول ^(٢) ، واستهدف منها خير الدين ربط مصير قضية الجزائر بالدولة العثمانية .

وجاء في الرسالة أن خير الدين كان شديد الرغبة في أن يذهب بنفسه إلى إستانبول ليعرض على السلطان سليم الأول شخصياً أبعاد قضية الجزائر ، ولكن زعماء مدينة الجزائر توسلوا إليه أن يبقى فيها كي يستطيع مواجهة الموقف إذا تحرك الأعداء ، وأشاروا عليه بأن يوفد إلى السلطان بعثة أو سفارة تقوم بهذه المهمة نيابة عنه . والرسالة التي حملتها البعثة موجهة باسم القاضى والخطيب والفقهاء والأئمة والتجار والأعيان وكافة سكان مدينة الجزائر العامرة ، وهى تفيض بالولاء العميق للدولة العثمانية والتقدير العظيم للسلطان والرغبة الأكيدة لسكان الجزائر فى الاعتماد على الدولة ، وأنهم عبيد لها . وقد وقع اختيار خير الدين بربروس على مبعوث شخصى له يرأس البعثة ، وهو الفقيه العالم الأستاذ أبو العباس أحمد بن قاضى .

ويستدل من تاريخ حياة هذا الفقيه أنه كان أكبر علماء الشريعة الإسلامية ، وكان يجمع بين التبحر فى العلوم الدينية والإمام بالمسائل العسكرية .. فكان إلى جانب بابا عروج فى حصار قلعة بجاية ، وحصر حصار الإسبانيين لمدينة تلمسان ، واستطاع أن ينجو من الأسر وأن يلجأ إلى مدينة الجزائر ، كما أنه عايش الأحداث السياسية للبلاد ، فكان فى مقدوره أن يصور تضريراً دقيقاً للسلطان العثمانى أوضاع المسلمين المتردية تجاه الأخطار المحدقة بهم فى

(١) يقرر الدكتور التميمي أن الوثيقة كتبت باللغة العربية ، ثم ترجمت إلى اللغة التركية . ويقام هو بدوره بترجمتها إلى اللغة العربية . انظر بحثاً له بعنوان «أول رسالة من أهالى مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة ١٥١٩» نشره فى المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد السادس ، يوليو - تموز ١٩٧٦ .

(٢) المرجع السابق .

المغرب . فكل هذه العوامل جعلت خير الدين يختار هذا القاضى لرياسة البعثة ؛ إذ أراد أن يكون مبعوثه شخصية دينية لها وزنها العلمى الكبير فى دراسات الفقه الإسلامى وذات دراية بشئون الحرب ، وأراد أن يدلل عن طريق هذه الشخصية أن سكان الجزائر متعلقون بالدولة العثمانية ، وراغبون فى ربط مستقبلهم السياسى ومصير بلادهم بالدولة العثمانية (١) .

وتقول الرسالة إن أهل مدينة الجزائر - وهم عبيد السلطان العثمانى - ليس لهم ملاذ سواه يفرعون إليه فى موقفهم الحرج ، وأشادوا بأفضال بابا عروج فى مدافعة الكفار ؛ لأنه كان «ناصر الدين وحامى المسلمين المجاهد فى سبيل الله» إلى أن وقع شهيداً فى حصار الإسبانيين لمدينة تلمسان ، وخلفه أخوه «المجاهد فى سبيل الله أبو التقي خير الدين ، وكان له خير خلف . فقد دافع عنا ، ولم نعرف منه إلا العدل والإنصاف وإتباع الشرع النبوى الشريف ، وهو ينظر إلى مقامكم العالى بالتعظيم والإجلال ، ويكرس نفسه وماله للجهاد لرضاء رب العباد وإعلاء كلمة الله ، ومناط آماله سلطنتكم العالية مظهراً لإجلاله وتعظيمها . على أن محبتنا له خالصة ونحن معه ثابتون ونحن وأميرنا خدام أعتابكم العالية ، وأهالى إقليم بجاية والغرب والشرق خدمة مقامكم العالى . وإن المذكور حامل الرسالة المكتوبة سوف يعرض على جلالكم مايجزى فى هذه البلاد من الحوادث . والسلام .

دراسة تحليلية للموثيقة :

تكشف الدراسة التحليلية للرسالة التى بعث بها أهالى مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول عن آراء واتجاهات خير الدين بربروس تجاه الدولة العثمانية ، وكان من بينها :

أولاً : أن خير الدين يمثل الحاكم المسلم الأمثل فى شمالى إفريقيا ، فهو يحترم وينفذ مبادئ الشريعة الإسلامية ، ويتخذ من العدل شرعة ومنهاجاً له فى الحكم .

ثانياً : أن نشاطه يتركز فى قيادة عمليات الجهاد الديلى الإسلامى .

ثالثاً : أنه يكن للسلطان كل تقدير ، وللدولة العثمانية ولاء دون حدود .

رابعاً : أنه شديد الرغبة فى الحصول على مساعدات عسكرية فى المقام الأول من الدولة العثمانية .

خامساً : سلامة وتمسك الجبهة الداخلية مع وضوح وحدة الهدف أمام المواطنين .

(١) أثبتت الأحداث أن هذا القاضى لم يكن أهلاً للثقة التى وضعها خير الدين فيه . إذ تحالف مع أعداء خير الدين ، وهجم على مدينة الجزائر ، واحتلها وحكمها خمس سنوات واضطر خير الدين إلى اللجوء إلى جيجل ، حتى استطاع استرداد مدينة الجزائر بعد خمس سنوات وقبض على القاضى وأعدمه .

استجابة سليم الأول لاستغاثة أهل مدينة الجزائر :

نجحت البعثة الجزائرية في تحقيق أهدافها .. فقد سارع السلطان سليم الأول إلى منح رتبة بكار بك إلى خير الدين بربروس ، وهي رتبة تخول صاحبها اختصاصات إدارية واسعة ومتشعبة ، كما تجعله قائداً أعلى للقوات المسلحة في إقليمه مثلاً للسلطان . وكان من مدلولات منح هذه الرتبة الرفيعة^(١) أن بلاد الجزائر أو المنطقة التي كان يحكمها خير الدين في ذلك الوقت -والتي قد يمتد إليها نفوذ ونفوذ خلفائه في قابل الأيام- تصبح تحت السيادة العثمانية وأن أي اعتداء خارجي على أراضيها يعتبر اعتداءً على الدولة العثمانية . ودعم السلطان سليم هذا القرار بقرارات تنفيذية ؛ إذ أرسل إلى خير الدين قوة من سلاح المدفعية العثمانية ، وكان هذا السلاح من أقوى أسلحة الجيش العثماني ، كفل له الانتصار على جيش دولة المماليك الشراكسة في معركة مرج دابق (١٥١٦) ، كما أرسل ألفين من الجنود الإنكشارية . وكانت الفيلاق الإنكشارية ، كما مر بنا - تعد من خيرة الجنود البيادة - العشاء - في القوات المسلحة العثمانية .

ومنذ ذلك الوقت (١٥١٩) بدأ الإنكشارية يظهرون في الحياة السياسية والعسكرية في الأقاليم العثمانية في شمالي إفريقيا ؛ بحيث أصبحوا عنصرًا بارزاً ومؤثراً في سير الأحداث ، بعد أن كثر إرسالهم إلى تلك الأقاليم عندما استبان للسلطين بوادر تمردهم وأنهم غدوا مركزاً خطيراً من مراكز القوى في الدولة . وأذن السلطان سليم أيضاً في الوقت ذاته لمن يشاء من رعاياه المسلمين في السفر إلى الجزائر والانخراط في صفوف المجاهدين ، وقرر منح المتطوعين الذين يذهبون إلى الجزائر الاميازات المقررة للفيلاق الإنكشارية^(٢) تشجيعاً لهم على الانضمام إلى كتائب المجاهدين .

وقد أقبل سكان الأناضول على السفر إلى الجزائر والتطوع في عمليات الجهاد ، وسواء أكان الدافع لهم هو الذرعة الدينية الجياشة والمتأصلة في نفوسهم انتصاراً لدينهم أم الرغبة في الحصول على نصيبهم من مقام ومغانم وفيرة .. فقد ترتبت على القرارات التي اتخذها السلطان سليم الأول عدة نتائج هامة ، كان من بينها :

أولاً : دخول الجزائر رسمياً تحت السيادة العثمانية اعتباراً من عام ١٥١٩ ، ودعى للسلطان سليم على المنابر في المساجد وضربت العملة باسمه^(٣) .

ثانياً : إن إرسال القوات العثمانية جاء نتيجة استغاثة أهل بلدة الجزائر بالدولة العثمانية واستجابة لرغبتهم .. فلم يكن دخول القوات العثمانية غزواً أو فتحاً عسكرياً ضد رغبة أهل البلدة .

(١) لم يكن في الدولة العثمانية كلها أول الأمر سوى اثنين يحمل كل منهما رتبة بكار بك . ويشمل نفوذ أحدهما الممتلكات العثمانية في أوروبا ، ويطلق عليه «بكار بك الروم إيلي» ، ويشمل نفوذ الآخر ولايات الأناضول ويسمى «بكار بك أناضولي» ، وكان الأول يحمل ثلاثة أطراخ ، بينما كان الثاني يحمل طوخين .

(٢) دكتور أرجمند كوران السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر (ص ١١) .

(٣) دكتور محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠ .

ثالثاً : إن إقليم الجزائر كان أول إقليم من أقاليم شمالي إفريقيا يدخل تحت السيادة العثمانية ، وأصبحت الجزائر ركيزة حرية للدولة العثمانية لتمد نفوذها بعد ذلك إلى إقليمين آخرين ، هما : طرابلس وتونس إنقاداً لأقاليم إسلامية عربية ، تعرضت لغزو صليبي منظم وعنيف من سكان شبه جزيرة أيبيريا .

على هذا النحو شهد حكم السلطان سليم الأول بداية متواضعة نسبياً لمد النفوذ العثماني إلى أحد أقاليم شمالي إفريقيا وهو الجزائر من أجل الحفاظ على إسلام وعروية السكان هناك ، لأن السلطان سليم لم يطل به الأجل ؛ إذ قضى نحبه في اليوم الثاني والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥٢٠ ، تاركاً لابنه السلطان سليمان المشرع مهمة توطيد السيادة العثمانية على إقليم الجزائر ، ومد هذه السيادة إلى إقليمين آخرين ، هما : طرابلس وتونس .

صعوبة موقف خير الدين :

كان أمام خير الدين بربروس في وضعه السياسي والعسكري الجديد أن يحارب في جبهتين : أولاً : الجبهة الإسبانية لطرد الإسبان من الجيوب التي أقاموها على ساحل الجزائر . وقد أصاب في هذه الجبهة نجاحاً كبيراً ، فضم إليه عنابة وقالة في شرقي الجزائر ، ثم حقق انتصاراً باهراً على الإسبان ، حين استولى عام ١٥٢٩ على حصن بيلرن الإسباني المقام على الجزيرة المواجهة لبلدة الجزائر ، وكان قد استمر يقصف الحصن بقذائف مدافعه طوال عشرين يوماً حتى تداعت جوانبه ، ثم اقتحم الحصن مع قوات كثيفة العدد ، كانت تعملها خمس وأربعون سفينة جاءت من الساحل . وأسر قائد الحصن مارتين دي فرج Martin de Verge مع كبار منباطه واقتيدوا إلى قصر خير الدين حيث تعرضوا لمهانة ؛ إذ أمر بضربهم بالعصى ضرباً مبرحاً^(١) ، ثم أقام خير الدين حاجز أمواج يصل أطلال الحصن والجزيرة بالساحل ويستخدم من ناحيته الداخلية كرصيف للسفن ، وبذلك أوجد ميناء حصيناً وأمناً ترفأ إليه السفن . وإذا كانت سنة ١٥١٩ تعد بداية وصول النفوذ العثماني رسمياً إلى شمالي إفريقيا .. فإن استيلاء خير الدين على البينون سنة ١٥٢٩ ، يعد بداية تأسيس ماعرف باسم نيابة الجزائر ، فمنذ ذلك التاريخ تحول ميناء الجزائر إلى عاصمة كبرى للمغرب الأوسط بل وكل شمالي إفريقيا العثمانية ببنائاتها الثلاث . وبدأ استخدام مصطلح الجزائر للدلالة على إقليم المغرب الأوسط^(٢) ، ولكن وهران ظلت قاعدة إسبانية تهدد الجزائر ، حتى نهاية القرن الثامن عشر (١٧٩٢) .

(1) Lavis et Rambaud, op. cit., t. IV, pp. 808-809.

(٢) دكتور صلاح العقاد : المغرب العربي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢ .

ثانياً : الجبهة الداخلية وكانت تتمثل في محاولة توحيد المغرب الأوسط . وقد تعرض كما ذكرنا لمؤامرات بني زيان والحفصيين ومن بعض القبائل الصغيرة ، ولكنه استطاع مد منطقة نفوذه باسم الدولة العثمانية . ورأت الإمارات العربية في دخولها تحت السيادة العثمانية سباجاً يحميها من تعرضها للأطماع الصليبية الإسبانية ، ومن قهرها على اعتناق المسيحية .. ولهذا أعلنت تبعيتها للدولة العثمانية ، وما لبث أن مد خير الدين النفوذ العثماني إلى بعض المدن الداخلية الهامة مثل قسنطينة Constatine .

خير الدين يجعل الجزائر قاعدة عثمانية لصد الهجوم الإسباني :

وقد نجح خير الدين بربروس نجاحاً بعيداً في إنشاء هيكل دولة قوية في الجزائر بفضل المساعدات العسكرية ، التي كان يتلقاها من السلطان سليمان المشرع ، واستطاع أن يوجه ضربات قوية للسواحل الإسبانية . وكانت جهوده مثمرة في حركة إنقاذ آلاف المسلمين في إسبانيا - المورييسكيين - من الإفلات من قبضة الحكومة الإسبانية واللجوء إلى شمالي إفريقيا ، فقام في سنة ١٥٢٩ بتوجيه ست وثلاثين سفينة خلال سبع رحلات إلى السواحل الإسبانية لنقل سبعين ألف مسلم^(١) ؛ مما جعل مسلمي غرناطة وبلنسية وغيرهما يستجدون بخير الدين لإنقاذهم^(٢) ، واستطاع أن يجعل الجزائر قاعدة عثمانية لصد الهجوم الإسباني . ولما كان خير الدين يتوجس خيفة من ازدياد مطامع الفياق الإنكشارية وتطلعهم إلى الاستئثار بالنفوذ ، استقدم إلى الجزائر ثمانية آلاف جندي ألباني ليوازن بهم قوة الإنكشارية ، وكون لنفسه حرساً خاصاً من المهاجرين المسلمين الأندلسيين^(٣) . وغدا خير الدين بربروس الحارس الأمامي للدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وكانت تسانده قوات هذه الدولة ومواردها في صراعه ضد شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وكانت تضم وقتذاك إسبانيا وبلجيكا وهولندا وألمانيا والنمسا وإيطاليا .

وكانت هناك عدة عوامل بالغة الأهمية ، أملت على السلطان سليمان المشرع الاهتمام بمد نفوذ الدولة إلى تونس في الصراع ، الذي احتدم بينه وبين الإمبراطور شارل الخامس . وسنرجىء الكلام عن هذه العوامل إلى مطلع الفصل التالي .

* * *

(١) دكتور عبد الجليل التميمي : رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان سنة ١٥٤١ ، بحث سبقت الإشارة إليه .

(٢) المرجع السابق .

الفصل السادس

خدمات الدولة العثمانية للإسلام والعروبة (٢)

ثانياً : الدولة تحافظ على إسلام وعروبة شمالي إفريقية (تتمة) (٢)

الدولة تعيد تونس إلى رحاب الكتلة الإسلامية

تتداخل بل تتربط أحداث دخول الجزائر وتونس تحت السيادة العثمانية بحيث يصعب الفصل بينها ، على عكس الأحداث الخاصة بطرابلس . وحرصاً على تسلسل الأحداث السياسية ، المحلية والدولية - فيما يتصل بالجزائر وتونس في ذهن القارئ - ، كان من المناسب عدم الإلتزام بالترتيب التاريخي لدخول هذه الأقاليم الثلاثة تحت السيادة العثمانية ، وهو الترتيب الذي سبق أن ذكرناه : الجزائر ، ثم طرابلس ، ثم تونس ، ونرجي دراستنا عن طرابلس إلى مابعد الانتهاء من تونس .

السلطان سليمان يعهد إلى خير الدين بفتح تونس :

استدعى السلطان سليمان المشرع إليه في إستانبول خير الدين بربروس عام ١٥٣٣ فذهب إليه مع بعض وحدات من الأسطول . وعهد إليه السلطان بإعادة تنظيم الأسطول وبالإشراف على بناء عدد من السفن في الترسانة ، ثم طلب منه أن يستولى على تونس وإعلانها ولاية تابعة للدولة العثمانية ، قبل أن يسبقه الإمبراطور شارل الخامس في الاستيلاء عليها . وفضلاً عن ذلك كانت هناك عدة عوامل أملت على السلطان سليمان الاهتمام بعد النفوذ العثماني إلى تونس . كان من بينها : موقعها الجغرافي في منتصف الساحل الشمالي لإفريقية تقريباً ، وتوسطها بين الجزائر وطرابلس ، وقربها من إيطاليا التي كانت أحد جناحي الإمبراطورية الرومانية المقدسة وقتذاك (وكان الجناح الآخر إسبانيا) ، ومجاورتها لجزيرة مالطة مقر فرسان القديس يوحنا الحلفاء الطبيعيين للإمبراطور شارل الخامس وأشد الطوائف المسيحية لعداء الإسلام والمسلمين ، ثم الإمكانات الهائلة التي تتيحها موانئ تونس في التحكم في المواصلات البحرية في البحر المتوسط . وهكذا .. تصافرت عدة عوامل على إضفاء أهمية عسكرية على تونس في هذا الصراع الحربي ، بين السلطان سليمان والإمبراطور شارل الخامس .

غادر خير الدين بربروس إستانبول على رأس قوات ، تتكون من ثمانين سفينة عثمانية

آلاف جندي ، واتجه رأساً إلى تونس وظهر أمام ميناء تونس في شهر أغسطس - آب - عام ١٥٣٤ واستولى عليها ، وأعلن تبعيةها للدولة العثمانية ، وإنهاء الحكم الحفصي فيها^(١) ، كما سقطت في يديه المدن الساحلية ، وتوغلت قواته جنوباً في الداخل ، وأعلنت القبائل ولاءها للدولة العثمانية .

استيلاء شارل الخامس على تونس :

كان لنجاح خير الدين في احتلال تونس أصداً بعيدة في أوروبا .. ذلك أن الإمبراطور شارل الخامس كان يدرك الأهمية العسكرية لموقع إقليم تونس في السيطرة على الملاحة في حوض البحر المتوسط ، ونظر إلى هذه النجاح الإسلامي العثماني على أنه تهديد مباشر للمواصلات البحرية بين إسبانيا وإيطاليا ، جناحي الدولة الرومانية المقدسة في ذلك الوقت . ونظر إليه أيضاً على أنه انتصار للإسلام وهزيمة للمسيحية ، وتشجيع لمجاهدي شمالي إفريقيا على مواصلة الهجوم على السواحل الإسبانية وإنقاذ الموريسكيين .

لهذه الأسباب .. قرر شارل الخامس غزو تونس ، وأعد حملة جرارة^(٢) خرجت من برشلونة في أوائل يونيو - حزيران - عام ١٥٣٥ ، وكانت هذه الحملة هي الحملة الأولى له على شمالي إفريقيا . وتمكن من الاستيلاء على تونس في السنة^(٣) ذاتها بسبب التفوق العددي ، والخيانة العربية التي حمل لواءها مولاي الحسن الحفصي وأتباعه ، وبسبب سوء الأوضاع الداخلية في تونس ووجود عدة آلاف من الأسرى المسيحيين في مدينة تونس قاموا بحركة تمرد ، حين شعروا أن قوات الإمبراطور تقترب من المدينة فحطموا أبواب السجون وانتشروا في شوارع المدينة يرتكبون أعمالاً تخريبية ، ويمهدون السبيل أمام القوات الإمبراطورية لدخول العاصمة . وأقامت البابوية في روما احتفالات كبرى ابتهاجاً بسقوط تونس في يد الإمبراطور شارل الخامس ، عاهل العالم المسيحي ، Le Chef de la Chrétienté .

كان ضياع تونس صدمة للدولة العثمانية ولمجاهدي شمالي إفريقيا . وافق مولاي الحسن الأمير الحفصي على أن يحكم تونس باسم شارل الخامس وتحت حمايته ، كما تنازل له عن ميناء حلق الوادي حيث أقام الإسبانيون قاعدة بحرية صليبية عسكرية . ورد خير الدين على انتصار شارل الخامس بغارة مفاجئة على جزر البليار ، واستولى منها على ستة آلاف أسير مسيحي وعاد بهم إلى قاعدته في الجزائر^(٤) . ووصلت أنباء هذه الغارة وحصيلاتها

(١) دكتور محمد خير فارس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤ .

(٢) كانت الحملة تضم خمساً وستين سفينة حربية يعمل عليها سبعة آلاف بحار ، وتحصن السفن مجموعة من ناقلات الجنود بلغ عددها أربعمئة وإحدى وخمسين سفينة ، كانت تحمل تسعة وعشرين ألف مقاتل .

(٣) دكتور محمد خير فارس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٤-٣٥ .

الآدمية الدسمة من الأسرى المسيحيين إلى روما ، وسط احتفالات البابوية بانتزاع تونس من المسلمين .

وكان السلطان سليمان المشرع قد أراد مكافأة خير الدين بربروس على خدماته ، التي أداها للإسلام فعينه قبودان باشا أى قائداً عاماً للأسطول العثماني ، وعين في منصبه في الجزائر ابنه حسن باشا وشهرته حسن أغا^(١) . وركز خير الدين نشاطه في الحوض الشرقي للبحر المتوسط أولاً ثم في الحوض الغربي ، بينما واصل حسن أغا جهوده والده في الجزائر ، فلم تنقطع جهوده عن مهاجمة الإسمانيين في الحوض الغربي للبحر المتوسط .

هزيمة منكرة للإمبراطور :

ظهرت الأهداف البعيدة من استيلاء الإمبراطور شارل الخامس على تونس .. فقد أعد حملة جريئة لغزو الجزائر ، وكان من أهداف هذه الحملة لاحتثاث النفوذ العثماني من البحر المتوسط ، وعزل فرنسا بمنع اللجذات العسكرية عنها عن طريق حليفها الدولة العثمانية ، وهو التحالف الذي أطلق عليه في أوروبا في ذلك الوقت كما ذكرنا «التحالف المقدس» لأنه يقوم على تحالف الصليب مع الهلال . وكان شارل الخامس يعتقد أنه لولا الوجود العثماني في شمالي إفريقيا ، لاستطاع إنشاء مملكة مسيحية هناك لإسبانيا . وكان هذا الإمبراطور يتوجس خيفة من احتمال قيام الدولة العثمانية بحملة على إسبانيا ، وقد نوقش هذا الاحتمال في بلاط مدريد^(٢) .

وقد أذاع شارل الخامس على جميع الدول المسيحية في أوروبا أن عزمته قد استقرت: على الانتصار للمسيحية ، والثأر من غارة المسلمين على جزر البليار . وجمع أسطولاً كان من أقوى التجمعات البحرية للمقاتلة ، التي ظهرت في القرن السادس عشر^(٣) ، وكان يتكون من خمسمائة وست عشرة سفينة من السفن الحربية وناقلات للجنود . وعهد بقيادة هذا الأسطول إلى عدد من كبار القادة البحريين ، كان من بينهم أندريه دوريا André Doria وفرناند كورتيز Fernand Cortez . وكانت الحملة تضم ٣٦,٢٥٠ من الجنود الألمان والإيطاليين والإسبانيين

(١) يقع المؤرخ ماسكيراي Masqueray E. في خطأ ؛ إذ يذكر أن حسن أغا معناها حسن الخصي Hassan Eunuque ولعله يجهل أن لفظة أغا في اللغة التركية تعني الرجل الذي أجريت له عملية الخصاء ، وتعني أيضاً رتبة عسكرية في القوات العثمانية المسلحة . وكانت هذه اللفظة بمعناها الأخير ، ويوجه عام تطلق على العسكريين تمييزاً لهم عن المدنيين ، الذين كان تطلق عليهم لفظة أفندي . وفي اللغة العربية تطلق على الأباين أرباب السيف وعلى الآخرين أرباب القلم .

(٢) دكتور عبد الجليل التميمي : رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان سنة ١٥٤١ ، بحث لم يثبت الإشارة إليه .

(٣) المرجع السابق .

وقرسان القديس يوحنا من مالطة والقوات البابوية ، وجعل من نفسه القائد الأعلى للحملة . واختار لإنزال حملته مدينة الجزائر ؛ بصفتها مقر القوة الإسلامية العثمانية في المغرب .

وتمكن الحملة من النزول بسهولة إلى البر في جهة مجاورة لميناء الجزائر في اليوم الثالث والعشرين من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٥٤١ .

كان شارل الخامس يعتقد أن الله سبحانه وتعالى سيؤيده بنصر من عنده ، طالما كان القسيسون والرهبان ومن إليهم من رجال الدين المسيحي في إسبانيا يدعون الله أن ينصره نصراً عزيزاً على المسلمين^(١) . والحق أن من فضائل هذا الإمبراطور إيمانه العميق بالله جل علاه ، وشدة تدينه ، وإن كان من مساوئه في ذات الوقت اللد في عداة الإسلام ، وأنه كان يحمل كراهية وبغضاء لآحد لهما للمسلمين . لم يضع هذا الإمبراطور في تقديره للموقف الحربي التغييرات العنيفة في الجو في فصل الخريف في بلاد الجزائر .. كان الجو صحواً حين هبط بقواته إلى أرض الجزائر ، وما أن تمت عمليات الإنزال بسلام حتى اكفر الجو وهطلت السماء هطلاً^(٢) متتابعاً ، وهبت ريح عاصف استمرت عدة أيام واقتلعت خيام جنود الحملة ، وارتطمت السفن بعضها ببعض ؛ مما أدى إلى غرق كثير منها ، وقذفت الأمواج الصاخبة ببعض السفن إلى الشاطئ ، وهجم عليها المدافعون المسلمون واستولوا على أدواتها وذخائرها .. أما الأمطار فقد أفسدت مفعول البارود .

وفي وسط هذه الكوارث ، حاول الإمبراطور مهاجمة مدينة الجزائر ، إلا أن كل محاولاته باءت بالفشل . وكان الجزائريون قد خرجوا لملاقاة قوات الغزو مسغلين تلك الكوارث الطبيعية التي حلت بها ، فأفنوا جزءاً كبيراً منها . واضطر الإمبراطور إلى الانسحاب مع بقية جنوده على ماتبقى لهم من سفن ، واتجه بهم إلى إيطاليا بدلاً من إسبانيا^(٣) . وكان من العوامل التي ساعدت على إلحاق هذه الهزيمة بالإمبراطور التفاف الجزائريين حول حسن أغا باشا ، وأهم من ذلك النجدة العسكرية التي بعث بها السلطان سليمان المشرع إلى حسن أغا والتي نظر إليها أهل الجزائر ومسلمو إسبانيا على السواء باعتبارها تعزيراً لشوكة المسلمين^(٤) . وكانت الهزيمة التي منى بها الإمبراطور أكبر هزيمة بحرية حاقت به في حياته . وقد شبه أهل الجزائر هذه الهزيمة بهزيمة أصحاب الفيل ، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، فقالوا في

(١) Lavis et Rambaud, op. cit., t. IV, p. 811.

(٢) يفتح كل من الماء والماء واللام . ويقال أيضاً تهطلاً يفتح التاء وسكون الهاء وفتح الطاء . ويقال مطر هطل (يفتح الهاء وكسر الطاء) كثير الهطلان .

(٣) دكتور محمد خير فارس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨-٣٩ .

(٤) دكتور عبد الجليل التميمي : رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان سنة ١٥٤١ ، بحث سبقت الإشارة إليه .

رسالة وجهوها إلى السلطان سليمان المشرع إن الله سبحانه وتعالى عاقب شارل الخامس وجنوده ، بعقاب أصحاب الغيل ، وجعل كيديهم في تضليل ، وأرسل عليهم ريحاً عاصفاً وموجاً قاصفاً ؛ فجعلهم بسواحل البحر مابين أسير وقتيل ، ولا نجا منهم من الغرق قليل^(١) .

أهل الجزائر يبعثون برسالة إلى السلطان عقب هزيمة الإمبراطور ، يحددون فيها مطالبهم :

ومما يذكر في هذا الصدد أن سكان الجزائر - سواء أهل الإقليم الأصليين أو مسلمي الأندلس الذين فروا بدينهم إلى الجزائر - بعثوا برسالة في الشهر التالي لهزيمة شارل الخامس إلى السلطان سليمان المشرع ، مؤرخة في أوائل شهر شعبان عام ٩٤٨ - أواخر شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٥٤١ ، وقد أوضحت هذه الرسالة الأحوال المؤلمة والمفجعة التي تحيط بالمسلمين الذين احتفظوا بدينهم في إسبانيا ، بعد أن طويت صفحة الحكم الإسلامي في الأندلس وتعرضهم لاضطهاد السلطات المسيحية ولمحاكمات ديوان التحقيق - محاكم التفتيش - وإحراقهم .

ووصفتهم الرسالة بأنهم «عبيدك الفقراء المساكين المنقطعون بجزيرة الأندلس ، وجملة عدتهم ثلاثمائة ألف وأربعة وستون ألفاً وأنهم يشكون إلى السلطان سليمان «مايلاقون من بلواهم باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان ، دام عزه ونصره ، لما أصابهم من أعداء الدين وطفاة المشركين ، وماهم فيه من مكابدة الكفار . وأشادت الرسالة بالخدمات الجليلة التي أداها خير الدين باشا «المجاهد في سبيل الله ، وناصر الدين ، وسيف الله على الكافرين» للإسلام . ومضت الرسالة تقول إن أهل الأندلس قد سبق لهم أن استغاثوا به فأغااثهم ، وكان سبباً في خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين ونقلهم إلى أرض الإسلام ، وأصبحوا من رعايا الدولة العثمانية المخلصين .

وحددت الرسالة مطلبين أساسيين :

أولاً : إرسال نجدات عسكرية «لنصرة الجزائر ، لأنها سباج أهل الإسلام ، وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان ، وهي موسومة باسمكم الشريف ، وتحت إيالة مقامكم المنيف ، وقد أصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة ، والرعية المختلفة بها مؤتلفة أليفة» .

ثانياً : إعادة خير الدين باشا إلى منصبه السابق - بكار بكى الجزائر - «فهو الممثل لأوامر مولانا ، لأنه أحيا هذا الوطن ، وأرعب قلوب الكفار وخرب ديار المردة والفجار ، ... وإنه لهذا الوطن نعم ناصر ، وجميع أهل الشرك منه خائف وحائر»^(٢) .

(١) المرجع السابق .

(٢) دكتور عبد الجليل التميمي : رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٤١ ، بحث سبقت الإشارة إليه .

وقد وصفت الرسالة السلطان سليمان بألقاب عديدة ، لها دلالاتها السياسية والدينية والحرية العميقة (١) .

الإسبانيون ينقلون نشاطهم الحرى إلى تونس :

بعد الهزيمة الفادحة التى نزلت بالإمبراطور شارل الخامس أمام مدينة الجزائر فى أواخر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٥٤١ ، كف الإسبانيون عن مهاجمة الجزائر ، ولكنهم نقلوا الصراع بينهم وبين القوى الإسلامية العثمانية والمغربية إلى تونس .. فقد استطاع أندريه دورياً القائد البحرى الإسبانى الاستيلاء على عدة مدن فى إقليم تونس ، مثل : صفاقس ، وسوسة ، ومناستير ، مما أثار سخط السكان على بنى حفص لتخاذلهم أمام القوى الصليبية . واندلعت ثورات داخلية ضدهم فى بقاع شتى ، واضطر مولاي الحسن إلى الرحيل إلى أوروبا التماساً لمساعدتها .

وفى هذه الأثناء ظهر قائد بحرى من العثمانيين هو دراجوت باشا ، ليملاً الفراغ السياسى والحرى فى تونس ، على نحو ما فعل الأخوان عروج وخير الدين ، وغدا منافساً خطيراً لأندريه دورياً فى البحر المتوسط . واستطاع دراجوت باشا أن يتخذ من طرابلس ، التى أصبحت نيابة عثمانية ، قاعدة عسكرية من قواعد الجهاد الدينى البحرى فى شمال إفريقيا ، واحتل ميناء قفصة فى عام ١٥٥٦ ، وتوغل فى الداخل حتى بلغ القيروان ، واحتلها وأقام فيها حامية عام ١٥٥٨ .

ولكن ظل الإسبانيون يسيطرون على سواحل تونس بمعاونة عملائهم بنى حفص ، ورأى السلطان سليمان المشرع أن يستولى على جزيرة مالطة نظراً لأهميتها فى الصراع الحرى والدينى ، الذى ازداد احتداماً بين الدولة العثمانية وإسبانيا حول تونس ، فأرسل أسطولاً ضخماً بلغ عدد قطعة مائة وخمسة وتسعين وحدة مختلفة الأنواع والأحجام ، تحمل ثلاثين ألف جندى تحت قيادة مصطفى باشا . وبدأ الأسطول حصاره للجزيرة فى ١٩ من مايو - آيار - عام ١٥٦٥ ، واستمر الحصار أربعة أشهر ، وتكبد العثمانيون خسائر فادحة فى الرجال والسفن ، وبلغ عدد القتلى والفرقى والمفقودين عشرين ألفاً . وكان من بينهم دراجوت باشا الذى قتل فى إحدى العمليات الحربية فى ١٦ من يوليو - تموز - عام ١٥٦٥ ، واستعصت الجزيرة على

(١) من هذه الألقاب :

السلطان ابن السلطان ابن السلطان - سلطان الإسلام والمسلمين - صاحب الخلافة العلية - حائز الفضيلة السنية من خدمة المساجد الثلاثة - الفائز بشرف الدين والنيا من الجهاد فى سبيل الله والسقاية فى المسجد الحرام والعمارة - مهدي طريق الحج والعمرة والزياره - قاضي الملحين وقاطع دابر الطغاة والبغاة - سلطان البرين والبحرين - له ملك مصر وإنهارها ، والشام وديارها ، والحجاز وشرف مقدارها .

العثمانيين فانسحبوا منها في ١١ من سبتمبر - أيلول عام ١٥٦٥^(١) وظلت جزيرة مالطة معقلاً لفرسان القديس يوحنا أكثر من قرنين ، إلى أن أطاح بحكمهم بونابرت ، حين استولى على مالطة في شهر يونيو - حزيران - عام ١٧٩٨ والحملة الفرنسية بقيادته في طريقها إلى مصر .

العلج علي ومحاولة إعادة الحكم الإسلامي إلى إسبانيا :

وإذا كان دراجوت باشا قد قضى نحبه شهيداً في معركة جزيرة مالطة ، قبل أن يحرر تونس تماماً من الصليبية الأوروبية والاستعمار الأوروبي ومن العملاء العرب بنى حفص .. فإن هذا العبء وقع على عاتق نيابة الجزائر . ولمعت أسماء عدد من القادة البحريين ، ممن تولوا نيابة الجزائر بعد خير الدين بربروس ، مثل ابنه حسن باشا ، وصالح ريس ، والعلج علي^(٢) . وقد اتخذ العلج علي خطوات عملية سنة ١٥٦٩ ، لتنفيذ مشروع خطر للغاية ، هو إعادة الحكم الإسلامي في إسبانيا^(٣) .

وتصر المراجع الأوروبية على أن العلج علي كان في مطلع حياته مسيحياً ومن مواليد إقليم كالابريا في جنوبي إيطاليا ، ثم وقع أسيراً في إحدى الغارات العثمانية على العواتي الإيطالية ، وأجبر على العمل بإحدى السفن الحربية ذات المجاديف التابعة للأسطول العثماني ، ثم تحول إلى الإسلام .. بينما تقرر المراجع التركية أنه كان عثمانياً إسلامي المولد ، ولم يكن قط مسيحياً ولا إيطالياً ، والتحق بخدمة الأسطول وتدرج في مناصبه ، واشترك مع دراجوت باشا في صد حملة الإمبراطور شارل الخامس على جزيرة جربة في تونس ، وقد أخفق

(١) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، ص ٧٢٣-٧٢٤ .

(٢) يرد اسمه في المراجع العربية العلج علي (يكسر العين وسكون اللام) ، وعلوج علي ، وأولوج علي ، وعلج علي . ولكن الاسم الأكثر استخداماً وشيوعاً هو العلج علي . ويرجع كرامرز أن كلمة علج أطلقت عليه في شمالي إفريقية ، وأنها كلمة عربية جمعها علوج (بضم العين واللام) للدلالة على أصله الأجنبي ، ولكن مدلولات كلمة علج في اللغة العربية متعددة ومتباينة ، منها حمار الوحش الغليظ ، ورجل علج أي شديد ، والعلج هو الرجل الضخم من كفار العجم . ويطلق بعض العرب الغليظ على الكافر مطلقاً ، واستعمل الرجل إذا نبتت لحيته ، وكل ذي لحية علج . ولذلك لا يقال علج للأمرء الذي لم تنبت لحيته . وجمع علج علوج وأعلاج مثل حمل وحمول وأحمال . وإذا أخذنا بتفسير كرامرز .. فإن المعنى الثاني هو المقصود ، وهو رأى ضعيف . ويعترف هذا المؤرخ بأن هناك أقوالاً متناقضة في هذا الصدد .

انظر :

كرامرز J. H. Kramers في دائرة المعارف الإسلامية ، مادة أولوج علي ، ويرد اسم العلج علي في المراجع الفرنسية Buldj-Ali ، وفي المراجع الإنجليزية Uluc Ali ، وتجمع المراجع الإيطالية الاسمين في كلمة واحدة على هذا النحو Ochiai .

(٣) دكتور جلال يحيى : المغرب الكبير إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨ .
دكتور صلاح العقاد : المغرب العربي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧ .

الإمبراطور في احتلال الجزيرة ، ثم رقى إلى منصب بكاريكي طرابلس ثم بكار بكلي الجزائر . واشترك في معركة لبانت البحرية حيث كان قائداً للجناح الأيسر للأسطول العثماني .

ورقى بعد هذه المعركة إلى منصب قبودان باشا تقديراً لبطولته في المعركة ، لأنه استطاع أسر سفينة القيادة الخاصة برئيس فرسان القديس يوحنا ، كما نجح في الخلاص بجزء من الأسطول وإعادته سالماً إلى إستانبول ، بعد أن حلت الهزيمة بالأسطول العثماني . وقد ظل يشغل منصب قبودان باشا طيلة خمسة عشر عاماً حتى توفي فجأة في اليوم الحادي والعشرين من شهر يونيو - حزيران - عام ١٩٨٧ في مسجده الخاص ، طوب خانة ، الذي أقامه في جالاطه في صولحي إستانبول ، وأبدى نشاطاً كبيراً في حركة إعادة بناء الأسطول العثماني بعد كارثة لبانت . واشترك في استرداد تونس وحلق الوادي سنة ١٥٧٤ ، وكان إذا أقبل فصل الربيع خرج مع رجاله في سفن حربية كبيرة إلى أعالي البحار ، ويتعرض للسفن الإسبانية في رحلاتها في حوض البحر المتوسط ، ويعرقل خطوط المواصلات البحرية بين إسبانيا والدولة الخارجية ، ويعرض التجارة الإسبانية للخسائر الجسيمة . كما كان يهبط في سفن خفيفة وسريعة على مواقع معينة على السواحل الإسبانية ، مسترشداً بإشارات ضوئية يبعث بها إليه مسلمو إسبانيا ، أو بناء على معلومات مسبقة يتلقاها منهم ، وكان يقوم بتدمير المنشآت في هذه الأماكن ويأسر سكانها . ولذلك كان الإسبان يرون أهل السواحل ينتقلون إلى الداخل مسافة ، تتراوح بين خمسة وستة فراسخ إذا أقبل الربيع ، تجنباً لكارثت يتعرضون لها .

ومن المؤكد أن العلاج على - قبل أن يقدم على مشروع إعادة الحكم الإسلامي في إسبانيا - كان على علم تام بالجهود الجبارة التي بذلتها الدولة العثمانية ، إبان وجود خير الدين بربروس في الجزائر للقضاء على الزحف الصليبي الاستعماري على شمالي إفريقيا ، كما كان يعلم تماماً مدى النجاح الذي حققه خير الدين في طرد الإسبان من بعض قواعدهم وتحطيم حصن بينون وفي تشجيعه ، بل وفي إسهامه في حركة إنقاذ آلاف المسلمين في إسبانيا من الإفلات من قبضة الحكومة الإسبانية واللجوء إلى شمالي إفريقيا . فهذه الحقائق لاتخفى على شخصية حاكمة في نيابة الجزائر ونعني بها شخصية العلاج على . بقى سؤال يفرض نفسه في هذا الموطن : هل كان مشروع إعادة الحكم الإسلامي في إسبانيا بتوجيه من السلطان العثماني سليم الثاني ، الذي كان يتبوأ عرش الدولة في ذلك الوقت ؟ أم كان هذا المشروع يوحى من العاطفة الدينية لدى العلاج على أو من تفكيره السياسي ؟

من المستبعد تماماً الأخذ بالسبب الأول ، لأن الحياة الخاصة للسلطان سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤) كانت تشح بالقاذورات . أدام تناول الخمر حتى أطلق عليه السكر ، وأسرف في إرتكاب أفذر أنواع الموبقات الجنسية ، وكان ينتمي إلى مجموعة السلاطين

المعروفين في تاريخ الدولة باسم السلاطين القنابلة^(١) Les Sultans Fainéants ، وأهم من ذلك كله ، وفوق ذلك كله ، أنه في السنة ذاتها التي اتخذ فيها العلاج على الخطوات الأولى لتنفيذ مشروع إعادة الحكم الإسلامي إلى إسبانيا كانت الدولة مشغولة بالحملة التي أرسلتها بقيادة سنان باشا لإعادة السيطرة العثمانية على اليمن ، ثم انصرفت في العام التالي إلى فتح جزيرة قبرص وانفrazعها من جمهورية البندقية (١٥٧٠-١٥٧١) ؛ وكان محمد صوقلو باشا الصدر الأعظم قد اقترح على السلطان سليم الثاني أن توجه الدولة حملة قبرص إلى إسبانيا لمحاربة ملكها فيليب الثاني (١٥٥٦-١٥٩٨) إذ كانت المتاعب تحيط بهذا الملك من يمين ويسار ، وهو في وضعه المحفوف بالأخطار ، لا يستطيع للقوات العثمانية المسلحة دفعاً . ولكن لم يأخذ السلطان باقتراح الصدر الأعظم لأنه كان متأثراً برأى صديق يهودي من البرتغال، اسمه جوزيف نانسي Joseph Nansi ؛ اتخذ السلطان صفياً له^(٢) . تصانف إلى هذه الحقائق حقيقة أخرى ، هي أن الدولة تعرضت لكارثة كبرى ، حين تحطم أسطولها في معركة لپانب البحرية في السابع من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٥٧١ ؛ فلم يكن في مكتة السلطان سليم الثاني - سواء قبل عام ١٥٦٩ أو بعده - أن يفكر في مشروع خطير مثل إعادة الحكم الإسلامي إلى إسبانيا ، ولم يبق إلا السبب الثاني وهو أدنى إلى الحقيقة .

كان العلاج على يفكر في مشروعين : طرد الإسبانيين من تونس ، وإعادة الحكم الإسلامي إلى إسبانيا ، وفي تقديره للموقف الحربي رأى أن يجعل الأسبقية في التنفيذ للمشروع الثاني ، على أساس أن نجاحه في تحقيقه يؤدي إلى إنكماش الوجود المسيحي في إسبانيا ، وبذلك يضع حداً للتهديد الصليبي الإسباني المستمر لشمالي إفريقية ، ويسهل عليه طرد الإسبانيين والبرتغاليين نهائياً من المراكز ، التي كانت لاتزال في أيديهم في شمالي إفريقية .

وتنفذاً لهذا البرنامج الحربي ، عقد العلاج على اتفاقاً سرياً في مطلع سنة ١٥٦٩ مع الزوار المسلمين ، الذين اعتصموا بجبال الأندلس ، تم الاتفاق بمقتضاه على أن يقوموا بثورة هادرة في الوقت ، الذي تصل فيه القوات الإسلامية من الجزائر إلى مراكز معينة على الساحل

(١) انظر في هذه الدراسة الفصل الحادي والعشرون ، الجزء الأول .

(٢) كان يسمى هذا اليهودي في مطلع حياته دون ميجه Don Miguez ، قام بدور بارز في سياسة الدولة العثمانية . وفي ظل شتى أنواع الانحراف الظلّي الذي تردى فيه السلطان سليم الثاني . تمتع هذا اليهودي البرتغالي بنفوذ كبير لديه ، وزين له فتح جزيرة ناكسوس Naxos ، وتم استيلاء العثمانيين عليها عام ١٥٦٧ وخلعوا حاكمها الدوق الحادي والعشرين من الأسرة الحاكمة وهي كريسي Crispi ، وبلغ من خطورة هذا اليهودي البرتغالي لدى السلطان أن الأخير أعطى صفيه جزيرة ناكسوس إقطاعاً له . ولم تمض سنوات ذات عند حتى تجرأ اليهودي ، وأعلن نفسه دوقاً عليها «بفضل الله» . ولم تقف أطماعه عند هذا الحد ، فقد زين للسلطان فتح جزيرة قبرص على أمل أن يأخذها إقطاعاً له . وكان من بين الأسانيد التي ساقها اليهودي للسلطان أن نبذ قبرص لايضارعه نبذ آخر في العالم ، وفي نشوة الخمر واللذة قال سليم لليهودي «ستكون ملكاً على قبرص» .

الإسباني . ونجح العلاج على في إنزال الأسلحة والعناد والمتطوعين على الساحل الإسباني في عام ١٥٦٩ . وفي هذا الوقت تزامت إليهم الأنباء عن استعداد دون جوان أمير النمسا لغزو الجزائر ، فعزل عن مشروعه مؤقتاً ، ورأى أن يبدأ بالتخلص من المراكز الإسبانية في تونس ، ومع ذلك .. فإن مشروع فتح إسبانيا لإعادة الحكم الإسلامي فيها ظل حياً في أذهان الحكام الذين تعاقبوا على نيابة الجزائر في الفترة الباقية من القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، وكانت هذه المشروعات تقوم على التعاون الوثيق بين نيابة الجزائر ومسلمي إسبانيا . وقد ذكر الأستاذ محمد عبدالله عنان طرقة منها (١) .

تونس تعود إلى رحاب الكتلة الإسلامية العثمانية :

كان إخفاق العثمانيين في فتح جزيرة مالطة وتحطيم الأسطول العثماني في معركة لپانت دافعين قويين للإسبانيين على معاودة الهجوم على تونس .. فقد هاجمها دون جوان النمساوي بقوات بلغ عددها ٢٧,٠٠٠ مقاتل ، واحتل تونس سنة ١٥٧٣ . وقد رد العلاج على رداً سريعاً على الصليبيين ، فهاجم تونس على رأس قوات قفز تعدادها إلى ستين ألف مقاتل ، وكان معه قوجه سنان باشا (٢) ، وأباد الحاميات الإسبانية عن بكرة أبيها ودخل تونس عام ١٥٧٤ ، ومعنى هذا الانتصار أن الطنج على وسان باشا استطاعا بعد ثلاث سنوات من كازنة لپانت أن ينتزعا تونس من أيدي الإسبانيين . وكان الأوروبيون المعاصرون ينظرون إلى استيلاء الإسبانيين على تونس على أنه من أبهى الصفحات في تاريخ الإمبراطور شارل الخامس ومفخرة من مفاخر حكمه ، ولكن عادت تونس إلى رحاب الكتلة الإسلامية العثمانية ، واستقرت النيابة الثالثة والأخيرة في شمال إفريقية .

أهل طرابلس يستغيثون بالدولة العثمانية من فرسان القديس يوحنا :

طرابلس تدخل في رحاب الدولة العثمانية :

استولت إسبانيا على مدينة طرابلس عام ١٥١٥ ، على عهد الإمبراطور شارل الخامس لتتخذها جيلاً صليبياً بجانب الجيوب الصليبية التي أقامتها ، وتناثرت على طوال الساحل الشمالي لإفريقية . وظلت طرابلس تحت الحكم الإسباني المباشر زهاء عشرين عاماً ، ثم أراد هذا الإمبراطور أن يلقي عبء مكافحة الإسلام في طرابلس على عاتق فرسان القديس يوحنا . وكانوا قد نقلوا مقر قيادتهم ومركز نشاطهم الصليبي إلى جزيرة رودس بعد طردهم من بلاد الشام مع قلول الصليبيين سنة ١٢٩١ على عهد دولة المماليك البحرية ، فلما استولى السلطان سليمان المشرع على جزيرة رودس في أواخر عام ١٥٢٢ ، انتقلوا إلى جزيرة مالطة ، وأسهموا

(١) محمد عبدالله عنان : نهاية الاندلس إلخ . مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨٢-٣٩٠ .

(٢) قوجه معناتما العظيم أو الكبير .

إسهاماً حريياً ومباشراً في المحالفات الصليبية التي تكونت من البابوية في روما ومن دول أوروبية ضد الدولة العثمانية .

وكانوا يمثلون عدداً من السفن تجوب البحر المتوسط ؛ بحثاً عن سفن المسلمين في أعالي البحار يستولون على شحنتها ، ويأسرون رعاياها ويزوجون بهم في غيايات السجون إلى أن يدركهم الموت .. فعهد الإمبراطور شارل الخامس إلى هؤلاء الصليبيين العناء بحكم طرابلس عام ١٥٣٥^(١) ؛ كي يتفرغ لمواصلة الحرب الصليبية ضد سكان الجزائر وتونس ، وليتفرغ لمواجهة المشكلات المتصاعدة بينه وبين السلطان سليمان المشرع الذي لم يكن يعترف به إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة ، بل كان يرى أنه ملك إسبانيا فقط كما كان في مطلع حياته^(٢) . وأراد الإمبراطور أيضاً أن يكرس جزءاً من وقته لمواجهة تفاقم حركة مارتن لوثر في ألمانيا بعد صلح كانبراى أو صلح السيدات ١٥٢٩ des La paix de Cambria ou La Paix, Dames وكيف زج فرنسوا الأول ملك فرنسا في هذا النزاع لمساعدة البروتستانت على الرغم من أنه كاثوليكي نكاية في الإمبراطور^(٣) .

ويهما هنا أن نذكر أن فرسان القديس يوحنا أخذوا ميناء ومدينة طرابلس غديمة باردة ، وجعلوا من ميناء طرابلس جيباً صليبياً ينطلقون منه لاصطياد السفن الإسلامية على نحو ما كانوا يفعلون . وأقاموا حكومة مسيحية دينية مسرفة في تعصبها استهدفت تغيير الوجه الإسلامي العربي لهذا الإقليم ، ولكنهم اصطدموا بالشعور الديني الإسلامي المتأجج في نفوس السكان . وكان الإسبانويون قد نجحوا في احتكار التجارة لأنفسهم ، بعد أن حرموها على الوطنيين والأجانب ، فتحولت تجارة جمهورية البندقية وتجارة السودان إلى مصراته^(٤) .

عمد أهالي طرابلس إلى مقاومة الاحتلال الصليبي - سواء على عهد الإسبانويين أو على عهد فرسان القديس يوحنا - ردأبوا على مهاجمتهم إبتغاء استرجاع مدينة طرابلس ومينائها ، ولكن جهودهم في هذا السبيل أخفقت لأن إمكاناتهم الحربية والبشرية ومواردهم المالية كانت ضعيفة ، فرأوا أن يهجموا نهج أهل الجزائر ، فاستنجدوا بالدولة العثمانية وكانت قد بلغت ، إبان حكم السلطان سليمان المشرع ، الأوج في ازدياد قوتها وتساعد نفوذها واتساع رقعتها في أوروبا وآسيا وإفريقية^(٥) .

(١) دكتور نقولا زيادة ، ليبيا في العصور الحديثة ، من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ص ٢٤ .

(٢) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع إلخ ، الطبعة الأولى ، ص ٧٠٣-٧١٢ .

(٣) أنظر تقصيلات وإقية عن هذا الموضوع في المرجع السابق ، ص ٢٥٩-٣٦٣ .

(٤) دكتور نقولا زيادة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٣ .

(٥) أنظر مظاهر القوة والنفوذ والتوسع الإقليمي للدولة على عهد السلطان سليمان المشرع في : دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع إلخ ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى : ص ٦٨٣-٧٢٤ .

وقد أرسل أهل تاجوراء وفداً إلى السلطان سليمان المشرع ، يلتمسون تدخله حريماً لتحرير بلادهم من الحكم الصليبي ، ويعلمون ولاهم له ودخول بلادهم تحت السيادة العثمانية ، واستجاب السلطان سليمان لطليهم ، وأرسل مراد أغا مع قوة صغيرة إلى مدينة طرابلس ، ولكنه لم يتمكن من احتلالها .. فاستقرت هذه القوة العثمانية في تاجوراء ، وانصرفت إلى إقامة تحصينات عسكرية حول هذا الموقع وإنشاء طريق يبدأ من تاجوراء ويتجه نحو مدينة طرابلس .

ثم طلب مراد أغا إلى الباب العالي إرسال قوات برية وبحرية لتعزيز القوة التي تحت قيادته ابتغاء إنهاء الحكم الصليبي في طرابلس ؛ فأصدر السلطان سليمان إرادة ، إلى فوج سنان باشا الصدر الأعظم بالتوجه إلى طرابلس على رأس الأسطول . واستطاع ضرب منشآت الميناء ودخل المدينة عام ١٥٥١ ، وكان دارجوت باشا ممن أعاد سنان باشا في عملياته الحربية^(١) . وصدر فرمان من السلطان بتعيين مراد أغا والياً على طرابلس في العام ذاته فكان أول الولاة العثمانيين عليها ، ثم خلفه دارجوت باشا الذي استطاع أن يقضى على فلول فرسان القديس يوحنا من إقليم طرابلس ومد النفوذ العثماني ؛ بحيث شمل السواحل الليبية كلها تقريباً . وهكذا زال حكم فرسان القديس يوحنا في طرابلس بعد فترة ست عشرة سنة ، وأصبحت طرابلس منذ سنة ١٥٥١ ولاية عربية تحت السيادة العثمانية . وقد نجح دارجوت باشا في الحصول على موافقة الباب العالي على إرسال فيالق إنكشارية لتعزيز الحامية العثمانية ؛ لمنع أي اعتداء صليبي ، قد يقع عليها سواء من جانب الإسبانيين أو من جانب فرسان القديس يوحنا . وهذا التحذر يفسر حقيقة هامة هي أن اهتمام السلطات العثمانية ، كان معظمه موجهاً إلى سواحل طرابلس والنواحي العسكرية أكثر من النواحي المدنية ؛ فانصرفت هذه السلطات إلى تحصين المدن الساحلية في ولاية طرابلس .. أما أفراد فيالق الإنكشارية .. فقد تزوجوا بالنساء العربيات في الولاية ، واهتموا بامتلاك الأراضي الزراعية وأشجار النخيل .

وكانت حصيلة هذه التزيجات المختلطة نشأة طوائف عرفت باسم القولوغاية^(٢) ، وتطورت الأحداث في هذه الولاية حين قام أحد الإنكشارية ، ويسمى أحمد القرماني^(٣) بإعلان نفسه حاكماً عليها سنة ١٧١١ ، منتهزاً فرصة غياب خليل باشا والي طرابلس ، الذي كان قد هرب إلى مصر لاجئاً سياسياً^(٤) ، عقب ثورة قام بها أهل الولاية بسبب ضياع سفينتين

(١) دكتور نقولا زيادة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤ .

(٢) يكتب هذا المصطلح أحياناً قولوغلان ، ومفرده قولوغلي . وكان القولوغلي يتركزون في حي المنشية ، وعلى ساحل مدينة طرابلس وفي محاربه ، والزاوية .

(٣) نسبة إلى مدينة قرمان في الأناضول ، وأرتحل مصطفى ، وهو الجد الأكبر لأحمد القرماني ، إلى طرابلس . وكان بحاراً صغيراً وأمتلك بعض المزارع والنخل في حي المنشية . واندمج أبناؤه وحفدته مع أهالي البلاد وصاهروهم .

(٤) انتهى أمره بمقتله في شهر أغسطس - آب - عام ١٧١١ أمام مدينة زواو في غربي مدينة طرابلس . =

فى جنوبى البحر الأدرياتي نصدت لهما سفن تابعة لفرسان القديس يوحنا وأضرمت فيهما النار.

واستطاع أربعائة رجل من السبعمائة الذين كانوا فيهما النجاة من النيران ، واقتيدوا أسرى إلى جزيرة مالطة ، وفشلت جهود الدولة فى زحزحة أحمد القرمانيلى عن منصبه . وأخيراً أصدر السلطان أحمد الثالث فرماناً سنة ١٧١١ بتعيينه والياً على طرابلس على أن يكون حكمه فيها وراثياً فى أسرته ومنحه لقب الباشوية (١) . وأرسل إليه سفينتين حربييتين بكامل طاقميهما ومعدتيهما . وكانت الأولى تحمل ثلاثين مدفعاً أخذت من فرسان مالطة ، والثانية تحمل أربعين مدفعاً أخذت من البندقية . ووصلت هاتان السفينتان فى الوقت المناسب لأن القوات البحرية التى كانت تحت تصرف أحمد باشا القرمانيلى تضاءلت إلى حد بعيد ؛ بسبب سوء حالة السفن وعدم كفاية استعداداتها (٢) . وقد استطال حكم أسرة القرمانيلى مائة وأربعة وعشرين عاماً (من أواخر يوليو - تموز - عام ١٧١١ حتى أوائل يونيو - حزيران - عام ١٨٣٥) (٣) ثم عادت طرابلس إلى الحكم العثمانى المباشر حتى عام ١٩١١ حين وقعت فريسة للاحتلال الإيطالى . . فكانت أخر ولاية أو نيابة من نيابات شمالى إفريقيا تزول عنها السيادة العثمانية ، بعد عزل السلطان عبدالحميد الثانى بسنتين .

هبوط حدة الصراع بين الدولة العثمانية وإسبانيا :

تراخى اهتمام إسبانيا بشمالى إفريقيا منذ أواخر القرن السادس عشر ، وقبلت الأوضاع السياسية التى نجمت عن تدخل الدولة العثمانية وإنشاء النيابات الثلاث ؛ لعدة أسباب ، منها :

أولاً : المصاعب الداخلية التى واجهها فيليب الثانى ملك إسبانيا .

ثانياً : تركيز هذا الملك اهتمامه على المستعمرات الإسبانية ، التى تأسست عقب حركة الاكتشاف الجغرافية فى المكسيك وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية ، مثل : جواتيمالا ، وسلفادور ، وهندوراس ، ونيكاراجوا ، وبيرو ، وما نجم عن هذه الاكتشاف والمستعمرات من تدفق الفضة على الموانئ الإسبانية . وانتهى الأمر فى أيام فيليب الثانى إلى أن أصبحت

= وجدير بالذكر أن مصر وقوس كانتا تقبلان عن طيب خاطر رؤساء القبائل ومن إليهم فى طرابلس ويزقة كلما نزل بهم ضيم .

(١) كان أحمد القرمانيلى يحمل أول الأمر لقب بك ، ثم ميرميران أى كبير الأمراء ، ويكرىك . ولا صدر فرمان تعيينه من السلطان سليمان ، حمل لقب الباشوية .

(٢) رود لفوميكاكى : طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانيلى . تعريب الأستاذ طه فوزى ، ومراجعة الأستاذين حسن محمود وكمال الدين عبدالعزيز الخربوطلى ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٩ .

(٣) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : العلاقات المصرية الليبية فى العصور الحديثة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠ .

إسبانيا ،القناة، التي تجرى منها الفضة إلى بقية أوروبا ، وفي ذلك الوقت بدأ عصر الفضة في أوروبا ، وظلت الفضة خلال الخمسين سنة التالية تسيطر على تطور الحياة السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية في أوروبا (١) .

ثالثاً : الأعباء المالية المتزايدة التي كانت تتحملها خزانة حكومة مدريد في تمويل الحاميات الإسبانية المرابطة في المدن الساحلية في شمالي إفريقيا ؛ لأن الأهالي فيها امتنعوا عن التعاون مع قادة هذه الحاميات .. فكانت الحكومة الإسبانية ترسل مواد التموين وغيرها عبر البحر المتوسط إليها ، وقد أدى هذا الوضع إلى إنقاص حجم الحاميات الإسبانية .

رابعاً : قيام منازعات مستمرة بين العسكريين والمدنيين في إدارة هذه الجيوب العسكرية .

أما الدولة العثمانية .. فقد فتر اهتمامها هي الأخرى بشمالي إفريقية بعد أن أسست النيابات الثلاث ، وبعد أن اطمأنت إلى إبعاد أخطار الزحف الصليبي الاستعماري عن تلك الأقاليم إلى حد بعيد ، ولأن الدولة كانت قد بدأت تدخل في دور الانحلال منذ حكم السلطان سليم الثاني السكير ، وتعاقب سلاطين ضعاف من بعده على العرش ، ورؤساء شغلوا منصب الصدارة العظمى لم يكونوا على مستوى المسؤولية ، وظهور مراكز قوى في الدولة على النحو الذي بسطناه من قبل .

وقد طلب فيليب الثاني ملك إسباني توقيع هدنة مع الدولة سنة ١٥٨١ على عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٦) ، واستجاب الباب العالي لهذا الطلب الذي كان معناه أن إسبانيا قد قبلت الأوضاع السياسية ، التي نجمت عن تدخل الدولة العثمانية في شمالي إفريقية وإنشاء النيابات الثلاث تحت السيادة العثمانية . ولكن النزاع كان يتجدد بين إسبانيا ونيابة الجزائر طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر ؛ بسبب استمرار احتلال الأسبانيين مدينة وهران ، وقد تم جلاء الإسبانين عنها عام ، وأصر حسان باشا داي الجزائر على تسليم مفتاح المدينة إلى الباب .

إخفاق الدولة العثمانية في بسط سيادتها على مراكش :

قد يتساءل البعض عن الأسباب التي جعلت الدولة العثمانية تمد نفوذها إلى ثلاثة أقاليم في شمالي إفريقية ، وهي : الجزائر وطرابلس وتونس وتدخلها تحت السيادة العثمانية . ولم تنتهج هذه السياسة فيما يتعلق بالإقليم الشقيق الرابع المتبقى وهو مراكش ؛ خاصة وأن هذا

(1) Lavissee et Rambaud; op. cit., t. V., pp 932-933 et 935-937.

وانظر أيضاً :

دكتور محمد فؤاد شكرى وبكتور محمد أنيس : أوروبا في العصور الحديثة ، الجزء الأول ، من النهضة الإيطالية حتى الثورة الفرنسية . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦١ ، ص ٨٢-٩٢ .

الإقليم كان يعاني كزملائه من الوجود الصليبي الاستعماري المتمثل في البرتغال وإسبانيا . والواقع أن الدولة العثمانية لم تغفل عن هذا الموضوع .

وبرز هذا الاهتمام على عهد السلطان سليمان المشرع بالذات .. فقد كان هذا السلطان يدرك أهمية وحدة الصف الإسلامي في الصراع المحتدم بين القوى الإسلامية والقوى الصليبية في شمالي إفريقيا ، بعد أن وحدت وحدة الهدف بين الأغلبية العظمى والساحقة بين جماهير مسلمي شمالي إفريقيا وانضمام الدولة العثمانية إلى صفوفهم . وكان هذا السلطان يدرك أيضاً الأهمية البالغة لموقع مراكش من الناحية العسكرية ، فهي دولة متوسطية ومحيطية في الوقت ذاته ؛ بمعنى أن سواحلها تطل على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي ، كما أنها تقترب جداً من إسبانيا من جهة بوغاز جبل طارق ، وكان في استطاعة السلطان سليمان - لو قدر له أن يسيطر السيادة العثمانية عليها - أن يتخذ من الموانئ المراكشية قواعد عسكرية لضرب السواحل الإسبانية . وكانت تابعة للإمبراطور شارل الخامس مما يعطيه ثقلاً حربياً إسلامياً ومزيداً من الفرص والقوة في صراعه الضاري مع هذا الإمبراطور ، وكان أحدهما عاقل العالم الإسلامي ، والآخر عاقل العالم المسيحي . كما كان هذا السلطان يرى أن دخول مراكش تحت السيادة العثمانية يساعده على المضي بخطى مريضة في تصفية الوجود الصليبي في شمالي إفريقيا .

استطاع محمد المهدي السعدي أن يؤسس في مراكش دولة الأشراف السعدية ، وأن يحكم البلاد بدلاً من أسرة بنى وطاس ، التي فشلت في الدفاع عن مراكش حتى سقطت جميع ثغورها في أيدي البرتغاليين والإسبانيين . وكان محمد الوطاس قد تقدم يعرض إلى محمد المهدي السعدي ، يحكم الأخير بمقتضاه مدينة مراكش عاصمة الجنوب باسم الأسرة الوطاسية . ولكنه رفض هذا العرض ؛ لأنه كان يتطلع إلى توحيد جميع أنحاء مراكش تحت سلطته ، وشتت شمل الأسرة للوطاسية ودخل مدينة فاس عام ١٥٤٩ واتجه إلى تحرير بعض الموانئ الشمالية ، كما فعل في الجنوب من قبل ، واسترد أصيلة والقصر الصغير (١٥٤٩-١٥٥٠) ، ولم يبق للبرتغاليين سوى سبتة وطلنجة ومزغان .

وحدث أن هرب أحد أفراد أسرة بنى وطاس ، وهو أبو حمسون على الوطاسي ، من مراكش وذهب يلتصق بمساعدة حكام البرتغال وإسبانيا لإعادة أسرته إلى الحكم ، ولكن لم تسفر مساعيها عن نتيجة عملية ، فولى وجهه شطر إستانبول حيث قابل السلطان سليمان المشرع ، الذي أصدر أمراً إلى صالح ريس بكلر بكى الجزائر بإعداد حملة لفتح مراكش بالتعاون مع أبي حمسون الوطاسي ، وتعيينه سلطاناً تحت السيادة العثمانية . واستطاع صالح ريس دخول فاس سنة ١٥٥٤ وغداً أبو وطاس حاكماً ، وبذلك امتد نفوذ الدولة العثمانية إلى مراكش ، ولكن لم يطل أمده سوى بضعة أشهر ؛ لأن محمد المهدي السعدي استطاع أن يسترد فاس من العثمانيين والوطاسيين ، وأن يبعد عنها النفوذ العثماني والجزائري .

كان من المتوقع أن يحدث نوع من التضامن أو التعاون بين الدولة العثمانية والدولة السعدية ، بعد أن استقرت لها الأوضاع في مراكش نظراً لوحدة الهدف بينهما ، فالدولة السعدية قامت أساساً لتصفية الجيوب البرتغالية في مراكش . وكان السلطان سليمان المشرع يفكر في تكوين اتحاد إسلامي ومجاهد ، يواجه أخطار الزحف الصليبي الاستعماري الإسباني والبرتغالي على أقاليم شمالي إفريقية ، بل كان يطمح في دخول الدولة السعدية في تبعية الدولة العثمانية طوعاً على غرار جاراتها الشقيقات . وقد أرسل السلطان سليمان سفارة إلى محمد المهدي السعدي للوصول إلى إتفاق يحقق وحدة الصف الإسلامي بعد أن تحققت وحدة الهدف ، ولكن رفض محمد المهدي الفكرة من حيث المبدأ رفضاً باتاً ، ورفض الاعتراف بالسلطان العثماني كأكبر قائد في حركة المجاهدين المسلمين في شمالي إفريقية وحوض البحر المتوسط ، ورفض الاعتراف بالخلافة الإسلامية العثمانية ، على أساس أن العثمانيين ليسوا عرباً ، وإنما هم أعاجم .

وكان محمد المهدي يعز نفسه إلى أسرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فهو ينحدر من سلالة علي بن أبي طالب ، وكان لفكرة الشرافة في مراكش أهمية كبيرة في حياتها السياسية والدينية والاجتماعية .

وتعمقت هذه الأهمية ، منذ أن وصل إدريس بن عبد الله وبني مدينة فاس^(١) ، وكان سكان مراكش يعتزون بحكامهم بصفتهم حفدة وذري الرابطة النبوية الشريف . وتبوأ هؤلاء الحكام مكاناً علياً في قلوب أهل البلاد ، وأصبحت أضرحتهم أماكن زيارة وتبجيل . وكان هذا الانتماء إلى آل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسباب نفوذ الأسرة السعدية على القيادات المنافسة الأخرى ؛ ومما ساعد على ترسيخ هذه الفكرة في أذهان أهل مراكش انتشار الطرق الصوفية ، ولاسيما الطريقة الشاذلية التي تفرع عنها كثير من الطرق الصوفية في شمالي إفريقية . وأصبحت مراكش الإقليم الوحيد من أقاليم المغرب الكبير الذي اعتز بحسب ونسب قيادته السعدية ، واحتفظ لنفسه بشخصية قائمة بذاتها ، ورفض دخوله تحت السيادة العثمانية ، على الرغم من استمرار الصلات والروابط وتشابه المصالح بين شعوب شمالي إفريقية ، وأطلق عليه شخصه لقب «أمير المؤمنين» . ولما أدرك السلطان سليمان إصراره على موقفه ، عهد إلى صالح ريس بإعداد حملة أخرى لفتح مراكش . وبينما كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق توفي صالح ريس ، .. أمر السلطان خلفه حسن باشا خير الدين الذي أعيد تعيينه في منصب بكار بكى الجزائر بأن يمضي في مشروع فتح مراكش ، ولكن لم تصادف الحملة توفيقاً . ثم جاءت مشكلة تلمسان ، فأصافت عنصراً جديداً من عناصر النزاع بين العثمانيين والسعديين^(٢) .

(١) دكتور السيد عبدالعزيز سالم : المغرب الكبير ، العصر الإسلامي ، الناشر دار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٤٨٧-٥٠١ .

(٢) انظر عرضاً لهذه المشكلة في :

دكتور جلال يحيى ، المغرب الكبير إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٧-٣٩ .

ثالثاً : إيجاد وحدة على الطبيعة

بين الولايات العربية

ومن الخدمات التي أدتها الدولة العثمانية للعالم العربي أنها أوجدت بين الولايات العربية التي دخلت تحت سيادتها - من منطقة الخليج العربي إلى الحدود الغربية للجزائر في شمالي إفريقيا- وحدة على الطبيعة من نوع خاص ؛ فاحتفظت هذه الولايات بمقوماتها الأساسية : الدين الإسلامي ، واللغة العربية ، والثقافة العربية الإسلامية ، والتقاليد والعادات الموروثة عبر الأعصر والأدهار . وكان سكانها تجمعهم دولة إسلامية واحدة هي الدولة العثمانية ، وينتمون لجنسية واحدة هي الجنسية العثمانية بالتعبير الحديث ، وتضمهم رعية واحدة بصفتهم رعايا عثمانيين ، ويشتركون في تبعيتهم لحاكم واحد هو السلطان العثماني . ولم تلجأ الدولة العثمانية إلى إقامة حدود مغلقة بين الولايات العربية أو حواجز مصطنعة بين سكانها ، فكانت حرية الانتقال والسفر أمامهم مكفولة ومحترمة في جميع الأوقات . وكانت فرص العمل متاحة لهم في كل الأوقات .

وكان في مقدور العربي في دمشق مثلاً أن ينتقل إلى بغداد أو مكة المكرمة أو المدينة المنورة أو القاهرة أو القيروان أو غيرها من مدن الولايات العربية ، ويعيش فيها ويمارس ألوأناً من النشاط الاقتصادي أو الثقافي ، دون أن يحصل على إذن بالخروج أو الإقامة .

وكانت هذه الوحدة هي أول وحدة تتحقق للعالم العربي إبان الحكم العثماني بعد تفتت وحدته بسقوط الدولة العباسية في حوالي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، عقب غزو المغول وتخريب مدينة بغداد وانسيابهم في وادي الرافدين ثم شمالي بلاد الشام إلى جنوبي فلسطين . ولذلك يرى جمهور من المؤرخين والباحثين أن الوحدة التي تمت على أيدي العثمانيين هي نقطة البداية في تاريخ العرب الحديث ^(١) . فضلاً عن تلك التبعية السياسية كانت وشيجة الدين تربط سكان الولايات العربية بالسلطان العثماني باستثناء أهل الذمة . وكانوا قلة عديدة يعيشون على هامش المجتمعات الإسلامية في الولايات العربية ماعدا بعض الجهات

(١) يتبادر إلى ذهن بعض المثقفين ربط بداية تاريخ العرب الحديث ببداية تاريخ أوروبا الحديث على أساس أنهما وقعا في وقت واحد تقريباً هو عصر النهضة الأوروبية . ولكن كان هذان الحائنان - الوحدة في ظل الحكم العثماني والنهضة الأوروبية - مختلفين بعضهما عن بعض في نشأتها ومعالما وتطورهما وسير الأحداث في العالم العربي وفي أوروبا .

في بلاد الشام^(١) . وكانت وشيجة الدين من أقوى الوشائج التي ربطت الجماهير العربية بالدولة العثمانية ، فأخلصوا لها واشتركوا في حروبها ضد التكتلات الصليبية التي واجهتها ، وكان ولاؤهم لها والتصاقهم بها يزداد إذا تعرضت الدولة لهزيمة عسكرية من دولة أوروبية . وكان الدين يعمل في تلك العصور عمل القومية في الوقت الحاضر ، في تقرير الأوضاع السياسية والحربية لشعوب الولايات العربية^(٢) . وكانت تفسيرات علماء الدين للأحداث الكبرى وللعلاقات والروابط الاجتماعية هي التفسيرات التي تتقبلها الجماهير عن طيب خاطر . ولعل خير مثال للترابط الديني بين سكان الولايات العربية إبان الحكم العثماني ماحدث في مصر عند ما هبطت الحملة الفرنسية أرضها عام ١٧٩٨ بقيادة بوناپرت .

وكانت هذه الحملة أول غزو عسكري مسيحي أوروبي لولاية عربية من ولايات الدولة العثمانية في الشرق الإسلامي في التاريخ الحديث . أعلن السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) الجهاد الديني ضد الفرنسيين . والجهاد الديني في الفقه الإسلامي هو فرض عين على كل مسلم بالغ قادر على حمل السلاح ، واستجاب لدعوة الجهاد الديني العرب في الحجاز والشام وشمالي إفريقيا .. فمن الحجاز خرجت جموع من العرب بقيادة رجل ثري يسمى محمد الكيلاني . ويقول الجبرتي في حوادث شهر شعبان عام ١٢١٣ (٨ من يناير - كانون ثان- إلى

(١) يرى الأستاذ أنيس صايغ أن العلاقات بين الأكثرية المسلمة السنية في الولايات العربية والأقليات المذهبية والنصرانية فيها قد خلقت مشكلة شائكة ومزمنة فيها بشكل عام وفي كل بقعة في الولايات العربية بأشكال خاصة . وقال إن عوامل خارجية وداخلية وسياسية ونفسية متعددة قامت بدور بارز في قيام هذه المشكلة واستفحالها ، وإن فرنسا وبريطانيا قد أسهمتاً بنصيب وافر في توسيع الشقة بين الأكثرية والأقلية وأينتا أفراد الأقليات بالأموال والأسلحة والتشجيع وحرصاتهم ضد الاختلاط مع الأكثرية أولاً ثم ضد الاندماج في الفكرة القومية بعد ذلك ، وأكد أن مشكلة العلاقات بين الأكثرية والأقلية تخضع لمؤثرات كثيرة غير عربية أكثر مما تخضع له من مؤثرات عربية . ويخلص إلى أن هذه الحقائق لاتحجب حقيقة الأوضاع ، وهي أن أفراد الأكثرية والأقليات كانوا مسئولين معاً مسئولية مباشرة عن ضعف العلاقات . فنتج عن ذلك أن انكمشت على نفسها الأقليات وهي أقيات لها تراثها وديورها وحقها في الحياة العربية وعزلت نفسها عن حركتي الوحدة والاستقلال بعد ذلك وطالبت بدلاً منهما بهدفين متناقضين لهما : الارتباط مع بولة أخرى من خارج المنطقة العربية ارتباطاً مشبوهاً يهدد الاستقلال ، والانفصال عن الوحدة الشاملة وتفتيت الدولة الواحدة إلى عدة كيانات سياسية مبعثرة .

انظر : أنيس صايغ : الهاشميون والثورة العربية الكبرى . بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ١٦٤-١٦٥ . وهذه الآراء صحيحة إلى حد بعيد ، وهي تتناول فترتين : الفترة الأولى الخاصة بالحكم العثماني للولايات العربية ، والفترة الثانية وتنصب على الفترة التالية بعد سقوط الدولة العثمانية عقب الحرب العالمية الأولى . وتغلغل الزحف الاستعماري الأوروبي في الشرق العربي الأسبوي وتزاحمه عليه . والفترة الأولى هي التي تخص هذه الدراسة وتحتاج إلى إضافة بعض الحقائق لتكون الصورة أكثر وضوحاً . وسنرجع بحثنا عنها إلى كتابنا القادم بإذن الله وهو دور الدولة العثمانية في نشر الإسلام في أوروبا وموقفها من أهل الألة في الدولة » .

(٢) أنيس صايغ ، الهاشميون والثورة العربية الكبرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥ .

٥ من فبراير - شباط - عام ١٧٩٩) ولما وردت أخبار الفرنسيين إلى الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية ، انزعج أهل الحجاز لذلك وضحوا بالحرم ... وإن هذا الشيخ (الكيلاني) صار يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد ، ويحرضهم على نصرته الحق والدين ، وقرأ بالحرم كتاباً مؤلفاً في معنى ذلك . فاتعظ جملة من الناس ، ويدلوا أموالهم وأنفسهم واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين^(١) . وركبوا البحر إلى القصير مع ما انضم إليهم من أهل ينبع وخلافة^(٢) .

وكان عرب الحجاز خصوصاً أشداء للجنرال ديزيه Désaix ، الذي عهد إليه بونابرت بغزو الصعيد والقضاء على قوات مراد بك . وقد صمموا على الظفر بإحدى الحسينيين : الاستشهاد أو الانتصار ، واتخذوا شعاراً لهم الآية القرآنية الكريمة «انفروا خفافاً وثقلاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون»^(٣) . وتطلق عليهم المراجع الفرنسية المكاويين Les Mecquois أى أهل مكة ، وهذه التسمية تنطوي على خطأ واضح ، لأن أفراد القوة التي جاءت من الحجاز لم يكونوا جميعاً من سكان مكة المكرمة ، بل انضمت إليهم أفواج من المدينة - المنورة والطائف وجدة ونييع وغيرها^(٤) . وتكونت منهم في الصعيد ومن مسلمي أقاليم الوجه القبلي وبخاصة عرب الهوارة وأهالي الدوية وقوات مراد بك بجهة حربية إسلامية ، في مواجهة بجهة حربية مسيحية ، كانت تتألف من القوات الفرنسية ، النهرية والبرية ، والفيالق القبطية بقيادة للمعلم^(٥) يعقوب حنا في الجيش الفرنسي^(٦) .

(١) يذكر نقولا ترك أن عددهم كان ثمانية آلاف مجاهد ، وهو رقم مبالغ فيه .

انظر :

مذكرات نقولا ترك : نشر وترجمة وتعليق جاستون فييت Gaston Wiet . القاهرة ، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، ١٩٥٠ ، ص ٤٨ النص الفرنسي .

(٢) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٤١ .

(٣) الآية رقم ٤١ ، سورة التوبة .

(٤) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : الوحدة العربية في التاريخ الحديث والمعاصر . مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨ .

(٥) «المعلم» لقب لشخص وجيه مثقف مستمد من الإنجيل ، لأن السيد المسيح عليه السلام كان يتخذ لنفسه لقب «المعلم» وكان يناييه الناس بالمعلم ورفض أى لقب آخر .

(٦) أسرفت بعض الطوائف غير الإسلامية في مصر في تشييد الفرنسيين إسرافاً وصل إلى حد تكوين فرق عسكرية من أبناء هذه الطوائف . وقام الضباط والجنود الفرنسيون بتدريبهم على النظم العسكرية الأوروبية وتزويدهم بالأسلحة الحديثة ، ثم ألحقت هذه الفرق بجيش الاحتلال الفرنسي لصد النقص في عدده ، نتيجة المعارك التي خاضها في مصر والشام ، ولخضاد الثورات الشعبية ، وفك الطاعون وغيره من الأمراض الوبائية بالجنود الفرنسيين ، وعجز حكومة باريس عن إرسال تعزيزات عسكرية إلى الحملة . وقد نظر الشعب المصري إلى هذه الفرق على أنها أدوات لدعم الاحتلال الفرنسي لمصر ، وأنه لولا هذا لما أنفتحت السلطات الفرنسية في إنشائها وتدريبها وتسليحها . وتزعم هذه الحركة المعلم يعقوب=

كذلك جاء إلى مصر رجل من مدينة درنة بطرابلس الغرب لقب نفسه بالمهدى ، ودعا إلى قتال الفرنسيين ؛ فأقبل عليه الناس أفواجاً ومنهم إليه رجال القبائل من أولاد على والهندي

= هنا ، إذ كون فرقاً عسكرية من شباب الأقباط . وكانوا يرتدون زياً مشابهاً لزي الجنود الفرنسيين . وقده كبير قيادة هذه الفرق ومنحه رتبة أنفا ثم رقى على عهد ميثو إلى رتبة لواء Général ومنحه رسماً لقب «القائد العام للقبائل القبطية بالجيش الفرنسي» . وقد أنشأ للفرنسيين في حملة الصعيد نظاماً بريدياً دقيقاً على الهجن ارتبطت بفضلها فصائل الجيش الفرنسي المتناثرة على طول نهر النيل ما بين القاهرة وأسوان . واتخذ من أسبوط مركزه هو والقادة الأقباط لوقوعها في منتصف المسافة تقريباً بين القاهرة وأسوان ، ولأن أهالي أسبوط كانوا يعرفونه جيداً إذ كان وكيلاً عاماً على إقليم أسبوط لسيطان بك أحد أمراء على بك الكبير . وكان المعلم يعقوب الساعد الأمين للقائد ديزيه في حملة الصعيد ضد الجبهة الحربية الإسلامية . ورفض أن تكون مهمته مقصورة على تدبير المال والإشراف على شئون تموين الجيش الفرنسي ، بل اشترك اشتراكاً فعلياً في الحرب إلى جانب الفرنسيين . وكان يدلهم على بعض المراكز الحربية . ولما انتصر يعقوب في واقعة «عين القوصية» قلده الجنرال ديزيه في مساء يوم الانتصار في حفل أقامه له سيفاً كتب على وصله اسم الواقعة .

ولما ثارت القاهرة ثورتها الثانية (٢٠ من مارس آذار - إلى ٢١ من أبريل - نيسان - عام ١٨٠٠) على عهد كبير كان كبار الأقباط وعلى رأسهم المعلم جرجس جوهري ، وفقائس ، وملطي ، يمدون الثوار المصريين بالأموال والنخائر . ولكن كان المعلم يعقوب ومن سار على شاكلته من الأقباط يصلون الثوار ثاراً حامية . وفي هذا يقول الجبرتي (ج٣ ، ص٩٦) إن المعلم يعقوب كركن (أي عسكر أو رابط) في داره بالقرب الواسع جهة الرومي ، واستعد استعداداً كبيراً بالعسكر والسلاح ، وتحصن بقلعته التي كان شديداً بعد الواقعة الأولى (أي ثورة القاهرة الأولى على عهد بونابرت) فكان معظم حرب حسين بك الجداوي معه . ولما أسرف كبير في استخدام العنف بعد قضائه على الثورة الثانية ، فرض على أهالي القاهرة غرامة حرية كبيرة . وعهد كبير إلى المعلم يعقوب أن «يفعل في المسلمين مايشاء» . ومما ذكر أن بطريك الأقباط لم يقر يعقوب على تصرفاته . وكثيراً ما بذل له النصيح بالعدل عن خطئه ، ولكن يعقوب كان يغلظ له القول . وكان يدخل الكنيسة راكباً جواده ورافعاً سلاحه . ولم يزد إلا إمعاناً في تأييده للفرنسيين . ولما لقي الجنرال ديزيه مصرعه في موقعة مارنجو في ذات اليوم الذي اغتيل فيه الجنرال كبير في القاهرة وهو يوم ١٤ من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٠٠ ، اتجهت الفكرة إلى إقامة تمثال له في باريس . وكتب يعقوب خطاباً مؤثراً أملاه عليه وجدانه وأبدى فيه حزنه العميق على فقد «عزيزه» ديزيه الذي حارب بجانبه لإخضاع أرض «طيبة» . وتبرع بثلاث قيمة التمثال . ويقول الجبرتي إن يعقوب كان «صاحب مال لأنه لم ينس أن يجمع لنفسه عندما جمع للفرنسيين» .

ولما تقرر جلاء الفرنسيين عن مصر صمم على الرحيل معهم وحاول أن يصطحب معه عدداً كبيراً من شباب الأقباط الذين كانوا تحت قيادته فرفضوا ولم يخرج معه إلا بعض أقاربه وهم زوجته مريم نعمة الله ، وابنته منة ، وأخوه حنين وابنا أخته ولقبها سيداروس واستقل الجميع سفينة إنجليزية تسمى بالاس Pallas وبينما كانت السفينة تشق طريقها أصيب يعقوب بمرض لم يمهله طويلاً فمات في عرض البحر . واستجاب إدmondن ريان السفينة لرجاء أهله فلم يلق بجثته في البحر بل وضعها في برميل ملئ بالبنية حفظها حتى بلغت السفينة ماسيليا حيث دفنت .

ويطو لبعض الباحثين أن يقرروا أن المعلم يعقوب قد سافر إلى فرنسا مع الفرنسيين لتحقيق مشروع وطني خطير ، هو السعي لدى الحكومات الأوروبية لتحقيق استقلال مصر . والمعلم يعقوب لم تكن له زعامة سياسية في مصر حتى يتصدى لمثل هذه المهمة . ولم تكن علاقاته طيبة مع كبار الأقباط=

وغيرهم . كما انضم إليه سكان القرى التي مر بها . وسار بهذه الجموع المسلحة حتى بلغ دمنهور في أبريل - نيسان - عام ١٧٩٩ ، وكانت تعسكر بها حامية فرنسية ، أبادها المهدي

= فضلاً عن المسلمين الذين نظروا إليه على أنه أحد الخونة المارقين الذين يظهرين في فترات الحكم الأجنبي ويكونون خلالها حرياً على مواطنيهم . وهو لم يبرز في الميدان السياسي إلا على عهد الحملة الفرنسية عندما تقافى في خدمة الفرنسيين . وكان نشاطه قبل الاحتلال الفرنسي مقصوراً على الميدان الاقتصادي . وأين هو الوفد الذي رافقه من أجل السعي لتحقيق استقلال مصر ؟ هل هو أهله وعشيرته؟ وماهي أنباء هذا الوفد حين نزل في مارسيليا ؟ إن الثابت أنه لم يكن لديه تفويض من شيخ الأزهر أو علمائه أو كبار الأقباط . وإنما التفويض الوحيد الذي كان يحمله يعقوب كان من بعض كبار الأقباط لمطالبة الحكومة الفرنسية برد قروض مالية قدموها للجنرال ميتو في أواخر عهد الحملة الفرنسية حين نصبت مواردها المالية . ولكن الحكومة الفرنسية ساطلت أول الأمر في الدفع ثم رفضت أن تعترف بالدين . وسافر روت أولئك الأقباط إلى باريس على عهد نابليون الثالث يبتلون جهودهم لديه لاسترداد تلك القروض ولم تغير الحكومة الفرنسية موقفها وظلت على رفضها الاعتراف بهذه القروض . ومجمل القول إنه لم يفوض أحد في مصر المعلم يعقوب في التكلم في مستقبل مصر السياسي . والحق أن المعلم يعقوب كان من أعيان الاستعمار الفرنسي في مصر . فلما حمل الاستعمار عصاه ورحل عن البلاد ، كان على هذا الفرع أن يتبع الأصل ويرحل معه . ومن ثم كان هروب يعقوب مع فلول الحملة الفرنسية الفاشلة . ومن حسن حظ مصر أن حركة يعقوب لم تعش طويلاً ولم تجد تأييداً من كبار الأقباط وعقلائهم فإن هذه الحركة لو قدر لها أن تعمر طويلاً لقضت على الوحدة القوية الرائعة بين المسلمين والأقباط ولغرست بذور الانقسام والشقاق في مصر ولأوجدت هوة سحيقة بين هذين العنصرين وهو أمر جد خطير . وكان الجبرتي يشيد في أكثر من موطن بوحدة المسلمين والأقباط في مقاومة الحملة الفرنسية . (ج ٢ ص ١٥ على سبيل المثال) .

ويصف الأستاذ محمد شفيق غريال الجيش الذي جمعه يعقوب من شباب أقباط مصر أنه أول جيش تكون من أبناء البلاد بعد زوال الفراعنة . وقد تناسى أو لعله فاته أن المهمة الأولى والرئيسية للجيش إنما هي الدفاع عن الوطن . وليست دعم احتلال أجنبي صامراً كالاحتلال الفرنسي لمصر (١٧٩٨-١٨٠١) . ولعل مما يشفع له في هذه الكبوة أنه وضع بحثه عن المعلم يعقوب عام ١٩٢٢ ولم يكن قد وصل إلى منصب الاستاذية في كلية الآداب بالجامعة المصرية - جامعة القاهرة حالياً - ولم يكن قد اكتمل نضجه العلمي بعد .

عن المعلم يعقوب ، انظر كلاً من :

الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٥ ، ٩٦ ، ١٠٨ ، ١١٥ ، ١٢٩ ، ١٦٢ ، ١٧٨ ، ١٨٦ ، ١٩٢ ، ٢٦٥-٢٦٦ .

نقولا ترك منكرات النص الفرنسي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٦ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢٤ .

أحمد حافظ عوض ، فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت في مصر ، القاهرة ، ١٩٢٥ ص ٢٠ .
محمد شفيق غريال : الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١ ، مطبعة المعارف شارع الجفالة مصر ، ١٩٢٢ ، ص ٢٠ .
يعقوب نخلة : تاريخ الأمة القبطية ص ٢٨٩-٢٩١ .

Gaston Homsy, Le Général Jacob et L'Expédition de Bonaparte en Egypte. Marseille, 1921; p. 17, 30-32, 101-102, 115, 120-121, 130-131-133, 134-145.=

عن بكرة أبيها . وكان لانتصار المهدي صدى كبير في أنحاء البلاد ، فهرع إليه الناس من كل حذب وصوب . ولما علم الجفرال مارمون حاكم الإسكندرية العسكرى نبأ الكارثة التي حلت بالهامية الفرنسية في دمنهور ، أرسل نجدة مزودة بالمدفعية لتعقب المهدي ولكنها هزمت ، فأرسل قوات أخرى من رشيد ودارت معركة سنهور ، وكانت من أشد المعارك هولاً ومن أعنف الوقائع التي واجهها الفرنسيون في مصر ، إذ كانت أشبه بمجزرة بشرية . وكان عدد رجال المهدي خمسة عشر ألف مقاتل من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان . واستمر القتال سبع ساعات . وانتهى بغزو المهدي وارتداد الفرنسيين إلى الرحمانية (١) .

واعترف بوناپرت بأهمية العازل الديني بين الفرنسيين والشعب الإسلامى العربى فى مصر ، وخلص رأياً إلى أن الحرب ضد المسلمين سكان مصر تطلبت توضيحات جسيمة واعتبرها حرب استنزاف للفرنسيين ولم يمكن التغلب عليها (٢) ، وأخفقت سياسته الإسلامية فى مصر التى يطلق عليها الفرنسيون (٣) La Politique Musulmane de Bonaparte إخفاقاً ذريعاً ، كما أكد نقولا ترك - وهو من مؤارنة لبنان وعاصر أحداث الحلة ، أهمية العازل الدينى فى عبارات صريحة ، فقال إن المصريين وصفوا بوناپرت بأنه نصرانى ابن نصرانى (٤) ، ومعنى ذلك أن المصريين لم يصفوا بوناپرت بأنه أوروبى ابن أوروبى ، ولم يقولوا عنه إنه فرنسى ابن فرنسى ، بل اتخذوا الدين معياراً لتقييم بوناپرت . وكانت المظاهرات تطوف فى شوارع القاهرة تطلق هتافات مسجعة ، وتعلن عن ولائها للسلطان .

الله ينصر السلطان ويهلك فرط الومان (٥)

Douin George; L'Egypte Indépendante, Projet de 1801.=

Documents Inédits. Publication de la Société (Royale) de Géographie d'Egypte, Le Caire, 1924, pp. I-XVI.

ويلاحظ أن نوا متعاطف مع حركة المعلم يعقوب ، ويحاول أن يسوق مبررات النشاط وتصرفات يعقوب.

(١) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٥٨ .

دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى ، الوحدة العربية الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨ .

عبدالرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٥٦-٦٠ .

(٢) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : صور من دير الأزهر الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٢-٦٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٣-٦٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٦٤-٦٦ .

(٥) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٨٨ ، ص ٩٢ .

فرط الومان هو اسم أطلقته الجعافير على رجل يونانى فظ شرس اسمه يرتلى Barthélemy ويرد ذكره فى بعض المراجع الفرنسية باسمه القاهرى Grain de Grenade أى فسطح الومان . عينه الفرنسيون عقب دخولهم القاهرة فى منصب «كتخدا مستحفظان» أى وكيل محافظة القاهرة . وأصبح

كما صرح كبار علماء الأزهر للجنرال كليبر عقب إخماد ثورة القاهرة الثانية بأن السلطان العثماني «هو سلطاننا وسلطان المسلمين»^(١). ولم تكن ثورة القاهرة والمقاومة الشعبية التي انتشرت في الأقاليم تهدف إلى استقلال مصر ، ولكنها كانت في لحمتها وسداها تستهدف غرضين مزدوجين أو غرضاً واحداً ذا شقين ، هما : إنهاء الحكم الفرنسي المسيحي من مصر ، وإعادة البلاد إلى حكم السلطان المسلم وخليفة المسلمين . يقول الأستاذ غريال «ثار أهل القاهرة ثورتين عنيفتين ، وقام الفلاحون في الأقاليم كلما أُنحت لهم الفرصة ... والتاريخ الصحيح لا يجد في الفتن الشعبية بالقاهرة والأقاليم إلا باعثاً إيجابياً واحداً ، هو الرغبة في العودة لما ألفه الناس . ولا يمكن تسمية ما ألفوه استقلالاً ، إنما اسمه الوحيد حكم المماليك تحت السيادة العثمانية»^(٢) ، ويزيد الرابطة الدينية وضوحاً ما ذكره الأستاذ الأمريكي كرسوفر هيرولد Christopher Herold أن العثمانيين والمماليك كانوا مسلمين . والواقع أن الكوارث العسكرية التي نزلت بالمماليك على يد الفرنسيين قد قربت بين المماليك والشعب المصري ، وعلى الرغم من أن المماليك كانوا قد اعتصروا أرزاق الشعب واستنزفوا موارده المالية .. إلا أنهم كانوا أولاً وقبل كل شيء إخوة له في الدين . ولما تدخل علماء الأزهر فأطلق بونايرت سراج أسرى المماليك ، دخل كثير منهم إلى الجامع الأزهر وهم في أسوأ حال ، وعليهم الثياب الزرق الممزقة فمكثوا به يأكلون من صدقات المجاورين والمارين . وإن هذا التصرف من القادرين نحو المماليك خلق يدهه الإسلام جديراً بالإعجاب العظيم : وهو أن يطعم المظلومون ظالمهم المقهورين ، بدافع الشعور بالأخوة أكثر من الرحمة»^(٣).

على هذا النحو لم ينظر سكان الولايات العربية إلى السلطان العثماني على أنه سلطان المسلمين فحسب ، بل نظروا إليه أيضاً على أنه خليفة المسلمين يستظلون بظل خلافته . وكان يطلق عليه «الخليفة الأعظم» ، وخليفة المسلمين ، وحامي الحرمين الشريفين ، ومالك البرين

= من علامتهم العتاة . وكان هذا الرجل معروفاً لأهل القاهرة بقسوته وكراهيته العميقة لهم . وكانت تهوى نفسه إلى المشاجرات والقتل . ولما شغل هذا المنصب برزت هوايته وهي القتل الجماعي للمماليك والمصريين على السواء . وكان يطوف بشوارع القاهرة والسيوف مسلول في يده ، وحوله قوة تبلغ المائة من اليونانيين من أفراد الفيلق اليونانية التي كرتها بونايرت وألحقها بالجيش الفرنسي . انظر : دكتور عبدالعزيز محمد الشناوى : صور من دور الأزهر إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٦-٩١ .

(١) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٠٧ .

(٢) محمد شفيق غريال : الجنرال يعقوب الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥ .

(٣) كرسوفر هيرولد : بونايرت في مصر ، ترجمة فؤاد أندراوس . الناشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ١٩٥ .

والبحرين ، والسلطان الغازى ^(١) ، والسلطان ابن السلطان ^(٢) ، إلى غير ذلك من الألقاب .

وكان السلطان بحكم موقعه كرئيس للدولة يعتبر رئيساً لشيخ الإسلام ، ورئيساً للصدر الأعظم ، وقائداً أعلى للقوات المسلحة العثمانية ، فكان السلطان يجمع بين يديه سلطات الهيئات الدينية والمدنية والعسكرية فى الدولة . وتأسيساً على هذه السلطات الواسعة المخولة له ، كان يرسل إلى كل ولاية عربية حاكماً عربياً عاماً مسلماً ، يطلق عليه الباشا العثمانى أو والى العثمانى . وجرت العادة أيضاً على أن يصدر السلطان فرمانات بتعيين كبار الموظفين فى المناصب الكبرى أو القيادية فى الولاية ، مثل : قاضى القضاة ، والدفتردار ، وقادة الفرق العسكرية التى ترابط فى الولاية . ويشكلون مع الباشا وكبار علماء الدين الإسلامى ونقيب الأشراف ديواناً عاماً ، يساعد الباشا فى شئون الحكم والإدارة . ويكون هذا الديوان فى الوقت ذاته رقيباً على تصرفاته ، وكان السلطان يحرص على الاعتراف له بالسيادة على الولاية ، وعلى أن ترسل له جزية سنوية فيما عدا إقليم الحجاز ، وعلى أن يذكر اسمه مقروناً بالدعاء له على منابر المساجد فى خطب أيام الجمعة والعيدى ، وعلى أن تضرب العملة باسمه ، وعلى أن ترابط فى الولاية بعض فرق عسكرية من القوات العثمانية ، يطلق عليها «الأوجاقات» تدافع عن الولاية من أخطار الغزو الخارجى وتحافظ على الأمن الداخلى .

ولم يطلق سكان الولايات العربية على هذه الفرق العثمانية المرابطة فى بلادهم اسم جيش الاحتلال ، بل أطلقوا عليها الحاميات العثمانية أى التى تحمى الذمار ، وهى جملة معبرة تنبثق عن العاطفة الدينية ، التى كانت جياشة فى شتى فئات المجتمعات العربية ؛ إذ كانت السمة البارزة فى تاريخ الولايات العربية وقتذاك أنها كانت مجتمعات دينية إسلامية بكل ماتحمله هذه السمة من معانٍ . ولم ينظر العرب للدولة العثمانية على أنها دولة أجنبية ، ولم ينظروا إلى الحكم العثمانى على أنه استعمار . وظلت هذه الفكرة السياسية الدينية مسيطرة على أذهان الغالبية العظمى من الجماهير العربية إلى أوائل القرن العشرين ، حين انفجرت بشكل على عندما أغارت إيطاليا على ولايتى برقة وطرابلس سنة ١٩١١م ^(٣) . ولم تتدخل الدولة فى

(١) الغازى كلمة تركية مأخوذة من اللغة العربية غزا ، يغزو ، غزواً فهو غاز . ومعناها فى اللغة التركية المجاهد فى سبيل الله .

(٢) كان لقب السلطان ابن السلطان له دلالة ، بمعنى أن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يتميزون بأنهم سلالة أسرة عريقة كريمة المحدث ذات جذور عميقة فى التاريخ توارثت الحكم عبر قرون متعاقبة .

(٣) اعتبر المصريون أن مصر فى حالة حرب ضد إيطاليا ، لأن مصر كانت لاتزال تحت السيادة العثمانية ملبقة للقانون الدولى العام . وتعترف الدول وفى مقدمتها بريطانيا بهذه السيادة . وبفضلاً عن ذلك اعتقد المصريون أن تقديم العين المادى فى شتى صورته وأشكاله إلى الدولة العثمانية والمجاهدين الليبيين أمر واجب بحكم الرابطة الدينية والعروبة والجوار والمصالح المشتركة . وفى مستهل الحرب تحدث وفد من كبار المصريين إلى هيربرت كيتشنر المقيم البريطانى فى مصر بشأن إرسال قوات من الجيش =

شئون الحكم إلا في نطاق ضيق ويقدر يسير، واعتبرت نفسها مسئولة عن حماية الولايات العربية، وتوفير الأمن العام فيها، وإقامة الشعائر الدينية، والحفاظ على مبادئ الشريعة الإسلامية، وتنظيم وحماية قوافل الحج، سواء قافلة الحج الشامي أو المصري أو العراقي أو اليمني، إلى إقليم الحجاز، والإشراف على مرفق القضاء، وجمع الضرائب عن طريق غير مباشر بواسطة شيوخ الطوائف في المدن والملازمين في الأرياف. فكان تدخل الدولة مقصوراً - في الأعم الأغلب - على هذه المجالات في الولايات العربية، وتركزت سكانها يعيشون على النحو الذي كانوا يألفون.

إن الوحدة التي هي من نوع خاص وذات طبيعة خاصة، والتي قامت بين الولايات العربية بإبان الحكم العثماني، تبدو أكثر إشراقاً إذا قورنت بالتفتيت السياسي الذي اصططعته الدول الأوروبية الاستعمارية، عقب استحواذها على معظم هذه الولايات تحت اسم الاحتلال أو

= المصري إلى ليبيا لمساعدة الدولة العثمانية والمجاهدين الليبيين. ولكنه اعترض عن عدم قبول هذا الرأي بحجة أنه إذا أرسلت مصر بقوات من جيشها إلى ليبيا، فإن هذه القوات تترك فراغاً في الجيش يصعب سده، وأنه سيضطر في هذه الحالة إلى أن يطلب من لندن أن ترسل جنوداً بريطانيين حتى تكون في مصر قوات عسكرية كافية لمواجهة أي عنوان خارجي قد تتعرض له البلاد. ثم طلب عدد كبير من ضباط الجيش المصري السماح لهم بالتطوع في الحرب فأبدى لورد كتشنر استعداده للموافقة على طلب الضباط بشرط أن تشغل وظائفهم بغيرهم، بمعنى إذا عاد الضباط بعد انتهاء العمليات الحربية إلى مصر وجدوا أنهم قد فقدوا وظائفهم. وطلب زعماء البدو من قبيلة أولاد علي الصحراء القريبة أن يجهزوا الحدود المصرية إلى برقة للاشتراك في الحرب. ووافق كتشنر على طلبهم، ولكنه أبلغهم أنه سيدخل تعديلاً في قانون التجنيد من شأنه إلغاء الإعفاء المقرر لهم من الخدمة العسكرية في ظل القانون المعمول به وقتذاك. وإذا كان نفوذ المعتمد البريطاني طامعاً على الحكومة المصرية لجأ المصريون إلى الجهود الذاتية فتألفت في ١٤ من أكتوبر - كانون أول - عام ١٩١١ لجنة عليا برئاسة الأمير عمر طوسن لجمع التبرعات المالية والعينية وإرسالها إلى القوات الإسلامية في ليبيا. وتقرعت من هذه اللجنة لجان فرعية طافت بأرجاء البلاد لجمع التبرعات. وأقبل الشعب المصري بجميع طوائفه على البذل والسخاء. وفي إحدى المرات سافر إلى مدينة المنصورة الأمير عمر طوسن مع بعض أعضاء اللجنة العليا وجمع في أقل من نصف ساعة مائة ألف وستة آلاف جنيه. وفي السنة ذاتها، تأسست جمعية الهلال الأحمر المصري بمناسبة اندلاع الحرب الطرابلسية. وكانت مستشفيات ميدان وأرسلت بعثة طبية لمعاونة جرحى الحرب. وتوالى إرسال البعثات الطبية إلى ليبيا في شهر يناير - كانون ثان - عام ١٩١٢. وأقيمت في حديقة الأزبكية في ٦ من يناير - كانون ثان - سوق خيرية خصص لإيرادها لجمع التبرعات. وبعد الشعب المصري إلى مقاطعة البضائع الإيطالية ووقف التعامل مع البنك الإيطالي. واضطر التجار الإيطاليون إلى مغادرة البلاد بسبب توقف نشاطهم التجاري .. إلى غير ذلك.

انظر :

دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي : العلاقات بين مصر وليبيا إلخ مرجع سبق ذكره ، الفصل الثامن : الحرب الإيطالية الطرابلسية ، ص ٤٢-٧٠ .

الانتداب من قبل عصابة الأمم ، أو مناطق النفوذ ، وذلك بعد سقوط الدولة العثمانية عقب الحرب العالمية الأولى . وحسبنا أن نشير إلى مثالين صارخين في هذا السبيل .. فقد أقامت فرنسا من نفسها دولة مندوبة على سوريا ولبنان ، فأنشأت عام ١٩٢١ دولة مستقلة في مقاطعة الحوريين حول اللاذقية ، ثم أعلنت استقلال جبل الدروز في أبريل - نيسان - عام ١٩٢٢ ، وقسمت سوريا إلى دولتين : دولة دمشق ، ودولة حلب . ومنحت صليق إسكندرون^(١) - داخل دولة حلب - كياناً خاصاً تمتع بقدر كبير من الاستقلال الذاتي ، واعترفت باللغة التركية لغة رسمية طبقاً للمعاهدة الفرنسية التركية المعروفة باتفاقية فرانكلن بويو Franklin-Boullion الموقعة في أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٢١^(٢) . أما المثال الثاني فكان إنشاء بريطانيا إمارة شرقى الأردن في عام ١٩٢١ بعد عام النكبة^(٣) ؛ تنفيذاً لأحد قرارات مؤتمر القاهرة البريطاني الذي بدأ جلساته في اليوم الثاني عشر من شهر مارس - آذار - عام ١٩٢١^(٤) . وكان إنشاء هذه

(١) أطلق على الإسكندرون منذ شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٩٣٨ اسم هاتاي كإجراء تمهيدى لتنازل فرنسا عنها لتركيا . وقد تم التنازل رسمياً في إتفاقية وقعت في اليوم الحادى والعشرين من شهر يونيو - حزيران - عام ١٩٣٩ وكان هذا التنازل يتعارض أشد التعارض مع صك انتداب فرنسا على سوريا ولبنان ، إذ نصت مادته الرابعة على أن الدولة صاحبة الانتداب سوف تكون مسؤولة عن التنازل ، أو تأجيل ، أى جزء من أراضي سوريا ولبنان ، أو وضعه بأي شكل تحت إشراف دولة أجنبية . ولكن كان ثمن هذا التنازل هو إبعاد تركيا عن الانضمام إلى الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية ، ولذلك وقعت بعد ثمان وأربعين ساعة من الاتفاقية الأخيرة اتفاقية جديدة في اليوم الثالث والعشرين من شهر يونيو - حزيران - تحت اسم دبلوماسي هو اتفاقية تبادل المعونة والمساعدة .

انظر :

سيتون وإيمز م. ف. بريطانيا والول العربية . عرض للعلامات الإنجليزية العربية (١٩٢٠-١٩٤٨) ترجمة دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ١٠٢-١٠٤ .

(٢) تكتك هذه الأحكام في بروتوكول المعاهدة الفرنسية التركية لحصن الجوار المنعقدة في ٢٠ مايو - أيار - ١٩٢٦ .

(٣) أطلق العرب على سنة ١٩٢٠ عام النكبة ، ففيه عقد مؤتمر سان ريمو الذي قرر إعلان الانتداب البريطاني على فلسطين والعراق ، والانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان ، وفيه اشتعلت ثورة عارمة في العراق تحولت إلى حرب دينية مقدسة بعد أن انضم إليها الشيعة . وفيه وزع على أمالي فلسطين بيان رسمي ، صادر باسم جريج الخامس ملك بريطانيا ، مكتوب بثلاث لغات هي العربية والإنجليزية والعبرية جاء فيه أن الحكومة البريطانية ويطد عزمها على إنشاء الوطن القومي لليهود في فلسطين على مراحل . وفيه وقعت معركة ميسلون في ٢٤ من شهر يوليو - تموز - واستشهد فيها يوسف العظمة وزير الدفاع . وبخلت الحكومة الفرنسية دمشق في اليوم التالي ، وأطاحت بحكومة فيصل العربية في سوريا ، وغادر فيصل دمشق في ٢٨ من الشهر ذاته ، وسقطت الملكية التي أنشأها فيصل في دمشق بعد أربعة أشهر من قيامها . وبدأ عهد الانتداب الفرنسي ، إلى غير ذلك من أحداث دامية في لبنان وسوريا .

(٤) وافقت الحكومة البريطانية على اقتراح ونستون تشرشل وزير المستعمرات على عقد مؤتمر بريطاني في القاهرة للبحث في الموقف المضطرب في الشرق العربي الآسيوي . وكانت عضوية المؤتمر مقصورة =

الإمارة ووضعها تحت النفوذ البريطاني أكبر دليل على سوء نية بريطانيا نحو العرب في تفريق شملهم وتفتيت صفهم ؛ فالإقليم الذي قامت عليه إمارة شرقى الأردن لم يكن له أى كيان مستقل بحدوده الخاصة قبل سنة ١٩٢١ ، فى أى عهد من عهود التاريخ العربى القديم ، وكان يتبع غيره من المناطق المجاورة أو يشكل مع غيره من المناطق المجاورة دولة واحدة أو إقليماً واحداً فى دولة أوسع . كان إقليم شرقى الأردن يتبع الحجاز حيناً ، وباشوية دمشق حيناً آخر ، ويطلق عليه «متصرفية الكرك» ، ثم أدخلته بريطانيا فى المنطقة التى عهدت إلى فيصل بحكمها من دمشق تحت إشراف الحاكم العسكرى العام ، لورد ألبانى ، الذى استغل ضعف الإدارة الفيصلية ، وأدخل إلى شرقى الأردن عدداً من ضباط المخابرات البريطانية للإشراف على الإقليم إشرافاً مباشراً ، ولم يترك لفيصل نفوذاً فعلياً . ولما سقطت حكومة فيصل فى شهر يوليو - تموز - عام ١٩٢٠ ، أصبح شرقى الأردن فى فراغ سياسى وقانونى ، وانتهز سببر هريرت صمويل المندوب السامى البريطانى فى فلسطين الفرصة ، وذهب إلى شرقى الأردن وجعل أولئك الضباط البريطانيين خاضعين لإدارته مباشرة ، ووزعهم على عدد من الألوية ، وأسس لكل منهم حكومة فى اللواء الذى هو فيه . وكانت كل حكومة منفصلة عن الحكومات الأخرى المزيفة تمام الانفصال . وكان عددها عشر حكومات (١) .

وقبيل انعقاد مؤتمر القاهرة البريطانى كان الأمير عبدالله ، وهو الابن الثانى للحسين بن على ملك الحجاز ، قد وصل من المدينة المنورة على رأس قوة صغيرة إلى معان فى الجزء الجنوبي من شرقى الأردن ، وكان يصبر على أن هذا الإقليم يتبع الحجاز . وأعلن أنه يعتزم الزحف على دمشق لطرد الفرنسيين منها والثأر لأخيه فيصل (٢) ، ثم ارتحل شمالاً من معان إلى عمان ليؤكد إصراره على تنفيذ وعيده . وأدرك أعضاء مؤتمر القاهرة خطورة الموقف ، إذا التحم عبدالله فى قتال مع الفرنسيين ؛ فإنه سيلقى هزيمة منكرة لاشك فيها ؛ خاصة وأنهم استعدوا حربياً فحشدوا قوات كبيرة فى درعا وعلى امتداد حدود حوران وأنشأوا الخنادق . وتوقع

=على كبار العسكريين والمدنيين الإنجليز . وجاء تشرشل من لندن إلى القاهرة ليحضر جلسات المؤتمر ، كما جاء من العراق سير برسي كوكس المندوب السامى البريطانى فى بغداد ، ومن القدس جاء سير هيربرت صمويل المندوب السامى البريطانى فى فلسطين . كما حضره عربى واحد ويهودى واحد ، أما العربى فهو جعفر العسكرى أحد عملاء بريطانيا وكبير المناصرين لفيصل ، أما اليهودى فكان سامون حزقيال .

(١) كانت هذه الحكومات العشر هى : عجلون ، البلقاء ، الكرك ، الطفيلة ، جرش ، إربد ، الكورة ، مؤاب ، السلط ، عمان .

(٢) أذاع عبدالله منشورات وجهها إلى أهالى سوريا ، قال فيها إنه جاء إلى معان لمحاربة الفرنسيين من أجلهم وأنه لن يترك الميدان إلا بعد أن يسترجع سوريا ، وأعلن نفسه نائباً لملك البلاد أى والده ، ثم أخذ يلقب نفسه فى منشورات باسم صاحب الجلالة منقذ سوريا ومحررها . وأسس فى معان جريدة تدعى له اسماً «الحق يطوع» وأرسل دعائه إلى رؤساء العشائر للانضمام إليه فى حربه المقدسة .

الإنجليز أن الأمر سينتهي باحتلال فرنسا لشرقي الأردن وضمه إلى سوريا مما يؤدي إلى قيام أزمة خطيرة بين بريطانيا وفرنسا ، لأن بريطانيا كانت قد قررت أن يكون إقليم شرقي الأردن منطقة نفوذ بريطاني يشرف عليها المندوب السامي في فلسطين . ورأى الإنجليز ضرورة صرف عبد الله عن مشروعه ، وأن يعرضوا عليه تعيينه أميراً على إقليم شرقي الأردن . وسافر تشرشل إلى القدس في أواخر مارس - آذار - عام ١٩٢١ وكان قد سبقه إليها عبد الله من عمان بيوم واحد ، وتم الاتفاق بينهما . على أساس تبادل المنافع ، فعيين عبد الله أميراً على إقليم شرقي الأردن في مقابل امتيازات هائلة ، ظفرت بها بريطانيا وخدمت أهدافها السياسية والعسكرية في المنطقة^(١) .

(١) تقرر أن يتنازل عبدالله عن مطالبه الخاصة بسوريا والعراق وعن عرشيهما ، وأن يعترف بأخيه فيصل ملكاً على العراق ، وبالانتداب البريطاني على فلسطين والعراق ، وبالانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان ، وبهريرت صمويل مندوباً سامياً على فلسطين وشرقي الأردن ، وأن يسترشد عبدالله بالأراء التي يقدمها له موظف بريطاني كبير يقيم في عمان ، التي اختيرت عاصمة للإمارة ويكون لقبه «المقيم البريطاني» The British Resident ، وأن ترسل بريطانيا للإمارة خبراء إنجليز يعرفون اللغة العربية ويعملون في مجالات الدفاع والشرطة والقضاء والميزانية ، وإنشاء قواعد عسكرية بريطانية ، وفتح الجسور بين الأردن وفلسطين ، وعدم الأخذ بنظام التجنيد الإجباري ، وعدم نزع السلاح من الأهالي على أن يمنع نقله إلى فلسطين . وتعهدت بريطانيا بتقديم معونة مالية سنوية بدأت بمائة وثمانين ألف جنيه ، تضاعفت اثنتين وسبعين مرة في خلال ثلث قرن ، كما تعهدت بالسعى لتحسين العلاقات بين عبدالله والفرنسيين . وهكذا دخلت شرقي الأردن رسمياً واعتراف أسرة الملك الحسين بن علي تحت الحماية البريطانية ، وألحقت بالمندوب السامي البريطاني في فلسطين ، وأصبحت الرابطة بين شرقي الأردن وفلسطين رابطة رمزية تتمثل في شخص المندوب السامي البريطاني .

وهما هو جدير بالذكر أن بريطانيا كانت قد أدعت شرقي الأردن في فلسطين ، وذلك في حك الانتداب الذي قدمته إلى عصبة الأمم ، ووافق عليه مجلس العصبة في ٢٤ من يوليو - تموز - عام ١٩٢٢ فشل الانتداب البريطاني لإقليم شرقي الأردن . ولما كان حك الانتداب ينص على جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود طبقاً لتصريح بالفور ، أرسلت الحكومة البريطانية في ١٦ من سبتمبر - أيلول - عام ١٩٢٢ مذكرة رسمية إلى عصبة الأمم ، باستثناء إقليم شرقي الأردن من هذا الوعد . وحددت الحكومة البريطانية تحديداً دقيقاً حدود هذا الإقليم ، فجعلته يشمل جميع المقاطعات الواقعة إلى شرق خط ممتد من نقطة واقعة على خليج العقبة على بعد ميلين إلى غرب مدينة العقبة ماراً بمنتصف وادي عربة والبحر الميت ونهر الأردن حتى المنطقة التي يلتقي بها هذا النهر بنهر اليرموك ، فمنتصف هذا النهر حتى الحدود السورية . وقد استجابت عصبة الأمم لتلك المذكرة .

انظر بخصوص نشأة شرقي الأردن كلاً من :

أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٦-١٧ .

أنيس صايغ : الهاشميون والثورة العربية الكبرى ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٢١٥-٢٣١ .

أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٩٣-٩٤ .

خير الدين الزركلي : ما رأيت وما سمعت ، القاهرة ، ١٩٢٣ ، ص ٢٥ .

وكان إنشاء إمارة شرقى الأردن تفتيحاً جديداً للوطن الواحد ؛ إذ لم يكن إنشاءها نتيجة حركة شعبية أو وعى قومى . وكان هذا الكيان السياسى الجديد أضعف الأقاليم العربية اقتصادياً وكانت عاصمته عمان قرية صغيرة ، ومما هو جدير بالذكر أن المقيم البريطانى لم يجد فيها داراً واحدة تصلح لسكناه مؤقتاً . وأمام هذه الخيمة ألقى سير هيربرت صمويل المندوب السامى البريطانى فى فلسطين وشرقى الأردن خطبة سياسية ، عند أول زيارة رسمية ، قام بها لعمان فى ١٨ من أبريل - نيسان - عام ١٩٢١ .

وهكذا عملت بريطانيا على تفرقة شعوب الأمة العربية فى الشرق العربى الآسيوى ، وللهاء هذه الشعوب عن مقاومة الاستعمار الأوروبى خلافاً لما وعدت به فى مباحثات الحسين ابن على فى سنتى ١٩١٥-١٩١٦ ، مقابل إعلان الثورة العربية على الدولة العثمانية . وفى خلال سنة واحدة فصلت بريطانيا شرقى الأردن عن فلسطين ، وفصلت شرقى الأردن وفلسطين عن سوريا ، وفترقت بين سوريا والعراق ، واعترفت بعبد العزيز آل سعود سلطاناً مستقلاً على نجد ، وبيحيى إماماً مستقلاً على اليمن .. فلا غرو إذا نهجت فرنسا نهجها فى تفتيت سوريا ولبنان كما سبق أن ذكرنا . أما مصر وأقاليم شمالى إفريقيا .. فقد أبقي الاستعمار على التفتيت السياسى ، الذى كان قائماً بينها قبل الحرب العالمية الأولى تحت الاستعمار البريطانى والإيطالى والفرنسى والإسبانى . وظهرت الأحقاد والمطامع الشخصية بين معظم الملوك والرؤساء العرب منذ ذلك الوقت ؛ مما عرقل مسيرة الاستقلال والوحدة العربية . فكانت الصراعات من أبرز سمات تاريخ الحقب السياسية التى مرت بالعالم العربى فى تاريخه الحديث والمعاصر .

رابعاً : أبعاد الزحف الاستعماري على الوطن العربي

طوال فترة تراوحت بين ثلاثة وأربعة قرون

ظلت الولايات العربية زهاء فترة تراوحت بين ثلاثة وأربعة قرون ، من القرن السادس عشر إلى أوائل القرن العشرين ، بمعنى عن الزحف الأوروبي الاستعماري عليها ما بقيت الدولة العثمانية قوية مهيبه الجانب . فلما دخلت الدولة في دور الاضمحلال ، ووضح للدول الأوروبية أن القوات العثمانية المسلحة لا تستطيع الصمود بنجاح للهجوم الاستعماري .. بدأ العالم العربي يتعرض للغزو الأوروبي المسيحي الاستعماري ، كما تعرضت لهذا الغزو أقاليم أخرى إسلامية وغير إسلامية ، خارج عن نطاق الدولة العثمانية في إفريقية وآسيا والإقانيوسية وغيرها . وكانت فرنسا من أسبق الدول الأوروبية في الزحف والسيطرة على الأقاليم العربية ؛ فنجحت في احتلال نيابة الجزائر عام ١٨٣٠ ، وإن كانت قد احتلت من قبل مصر وجنوبي بلاد الشام سنة ١٧٩٨ .. إلا أن الاستعمار الفرنسي العسكري لمصر لم يطل أمده أكثر من ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ^(١) ، بينما استطاع الاحتلال الفرنسي للجزائر زهاء مائة وإحدى وثلاثين سنة .

(١) سبق أن احتلت فرنسا أيضاً بيروت في أغسطس - آب - عام ١٨٦٠ ، ورابطت الحملة الفرنسية بقيادة الجنرال دي بوفور دوتويل Général de Beaufort d'Hautpoul في جهات متعددة في لبنان ، وذلك على أثر الفتنة الدينية التي اندلعت بين الموازنة والدرز ، ثم تطورت إلى فتنة عامة بين المسيحيين والمسلمين . وكان بروتوكول باريس الموقع ه من أغسطس - آب - عام ١٨٦٠ قد قرر أن تقوم الدول الخمس الموقعة على معاهدة باريس عام ١٨٥٦ - عدا سربينيا - بإرسال قوة حربية قوامها ١٢ ألف رجل إلى الشام ، وحددت مدة وجود القوات الأوروبية فيها بستة أشهر . ولما كانت فرنسا تعطف على الموازنة وتلقبهم «فرنسيو لبنان» Les Français du Liban ، فقد وافقت على أن ترسل فوراً نصف هذه القوة ، وأن تتقدم إلى أماكن الاضطرابات دون إبطاء ، وأن ترسل الدول الأخرى فيما بعد - إذا تطلب الموقف ذلك - نصف القوة على أن يتم الاتفاق عليها وقتئذ . وحدث أن ماظلت فرنسا في الجلاء عن لبنان بعد انقضاء الفترة المحددة . وخشيت بريطانيا أن يكون مرد تسوية فرنسا إلى ازدياد التفاهم بين روسيا وفرنسا بخصوص المسألة الشرقية ، فتفاوضت روسيا عن الاحتلال الفرنسي للبنان في مقابل تسخّل روسيا في بلغاريا . وأمام الضغط البريطاني اضطرت فرنسا إلى الجلاء عن لبنان في ٥ من يونيو - حزيران - عام ١٨٦١ ، بعد احتلال استمر تسعة أشهر .

انظر كلاً من :

Hanotaux Gabriel; Histoire de La Nation Française., t. VIII. Histoire Militaire et Navale. 2ème volume. Du Directoire à la Guerre de 1914, par le Maréchal Franchet d'Esperey, Paris, 1937, pp. 383-384.

Poujoulat Baptism; La Vérité sur la Styrie et l'Expédition Francaise. Paris, 1861, pp. 16-21.=

ولاشك أن من أهم العوامل التي شجعت فرنسا على احتلال الجزائر ، أن الدولة العثمانية كانت قد فقدت أسطولها قبل ذلك بأقل من ثلاث سنوات في معركة تقارين البحرية (٢٠ من أكتوبر - تشرين أول - ١٨٢٧) . ولما كان اقتطاع فرنسا للجزائر بصفة الأخيرة إقليماً إسلامياً عربياً من أقاليم الدولة العثمانية سابقة خطيرة ، قد تحتذيها دولة استعمارية أخرى تجاه الوطن العربي .. لم تستلم الدولة العثمانية لانتزاع للجزائر منها . وحاولت بالطرق الدبلوماسية أولاً استردادها ، وبذلت مساع مكثفة لدى بريطانيا والنمسا والروسيا ولدى فرنسا أيضاً تؤكد حقها في بقاء هذا الإقليم في رحاب الدولة ، تأسيساً على أن السيادة العثمانية عليه معترف بها من المجموعة الدولية وأن الجزائريين هم رعايا السلطان . ولم تجد الدولة العثمانية تأييداً من بريطانيا في موقفها بسبب التغيير الأساسي ، الذي حدث في السياسة الدولية في أوروبا في ذلك الوقت . فقد وقع انقلاب يوليو (تموز) - أغسطس (آب) عام ١٨٣٠ في فرنسا ، وأطاح بملكية شارل العاشر ملك فرنسا (١٨٢٤-١٨٣٠) ، وهربه إلى إنجلترا في ١٦ من أغسطس - آب - في السنة ذاته ، وانتخاب لوى فيليب ملكاً على فرنسا ونظرت الدول الأوروبية الكبرى إلى هذا الانقلاب على أنه نقض للتسمية الأوروبية العامة ، التي تمت سنة ١٨١٥ عقب إسقاط حكم نابليون الأول وإعادة الحقوق إلى ذويها كما زعم المتحالفون^(١) ، ثم التقارب الذي حدث بين الملكيات ذات الحكم المطلق وهي روسيا وبروسيا ، والنمسا ، بعضها من بعض ضد خطر الانقلابات رقيت بريطانيا وحيدة .. فاعترفت بالنظام الجديد في فرنسا . ولما أكثرت الدولة العثمانية من اتصالاتها الدبلوماسية المكثفة مع بريطانيا التماساً لتأييدها في موقفها من احتلال فرنسا

Hansard's Parliamentary Debates: =

Vol. 159, pp. 1648, 1652-1654.

Vol. 160, pp. 617-618, 627, 641, 696-697, 1816.

Vol. 161, pp. 1540-1541, 2154.

Miller W.; op. cit., pp. 300-303.

محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ٢ ، ص ٨٢-٩٢.

(١) كان منشأ قضية بلجيكا قيام حركة وطنية قوية ، تبتغي الاستقلال عن هولندا ، ومساعدتها الدائبة للحصول على السلاح من مصادر أوروبية شتى . ولم تلبث أن نشبت الثورة في بروكسل في ٥ من أغسطس - آب - عام ١٨٣٠ ، وبتبعتها بقية المقاطعات وأحرزت قوات بلجيكا انتصارات متلاحقة وأعلنت لجنة الدفاع الوطني أن بلجيكا تعتبر نفسها مستقلة منذ ٤ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٣٠ . ووقع صراع سياسي متشعب بين الدول الأوروبية حول الاعتراف باستقلال بلجيكا .

أما مسألة البرتغال فكان مردها إلى تصارع أخوين على عرشها ، أحدهما من المحافظين والآخر من الأحرار ، وهما : دون بيدرو Don Pedro الذي تنازل عن العرش لابنته ماريا ، دون مجويل Miguel ، وأقررت هذا التصارع بنزاع دستوري وتدخل بريطانيا وفرنسا في شؤون البرتغال للاستئثار بالنفوذ فيها . وأصبحت بريطانيا وفرنسا في صراع سياسي ، انتهى بجل وسط هو جلوس ماريا على العرش بوصاية دون مجويل .

للجزائر، أجابت الحكومة البريطانية أنها لا تستطيع مفاتحة الحكومة الفرنسية في القضية الجزائرية دون تسوية مسألتى بلجيكا والبرتغال^(١) ، والواقع أن بريطانيا كانت في شغل شاغل بالانقلاب النيابي الذي وقع فيها في ذلك الوقت . وكانت النمسا منصرفة إلى إخماد الثورة التي اندلعت عام ١٨٣٠ في شبه جزيرة إيطاليا^(٢) ، وكانت روسيا وروسيا مشغولتين بالثورة التي اشتعلت في بولندا في أواخر السنة ذاتها .

(١) مرجع سبق ذكره .

(٢) قامت الثورة في الولايات البابوية وفي البوقيات الشمالية : حيث أقامت جمعية الكاريناري مركزها العام .

الحرب الباردة بين الدولة العثمانية وفرنسا لاسترداد الجزائر

لما أخفقت الدولة العثمانية في اتصالاتها الدبلوماسية مع الدول الأوروبية ، حاولت التظاهر برغبتها في استخدام القوة لاسترداد الجزائر من فرنسا . وكان مما شجعها على التلويح بالالتجاء إلى الحرب أن فرنسا لم تكن قد وطلدت نفوذها في الجزء الشرقي من الجزائر ، وفي الأقاليم الداخلية مثل قسنطينة ، وأن الدولة كانت قد فرغت من تسوية مشكلاتها مع محمد علي والي مصر في سنة ١٨٣٢ ، عقب حرب الشام الأولى بعقد صلح كوتاهية (٨ من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٣٣) . ولكن فرنسا كانت تعلم تماماً أنه ليس في مقدور الأسطول العثماني أو الجيش العثماني خوض معارك ضد قواتها المسلحة . وفي هذه الحرب الباردة بين الدولتين نجحت الدولة العثمانية في إنهاء حكم أسرة القرماني في طرابلس عام ١٨٣٥ ، وإعادة هذه النيابة إلى الحكم العثماني المباشر . واستغلت الدولة هذا الوضع الجديد في نيابة طرابلس فتنظّهرت ، في عملية جس نبض لفرنسا ، بعزمها على إرسال قوات برية من الأناضول إلى طرابلس تزحف في الداخل عبر الأراضي التونسية إلى الجزائر ؛ للاشتراك في الدفاع عن قسنطينة ، التي كان يدافع عنها الحاج أحمد باي قسنطينة .

وبات معروفاً للجميع أن الدولة لا تستطيع إرسال أسطولها إلى ساحل الجزائر لضرب مراكز الفرنسيين ، أو إنزال قوات برية في الجزائر للتوغل في الداخل . وإمعاناً من الدولة في الحرب الباردة ، طلبت الدولة من باي تونس تسهيل مرور القوات العثمانية البرية عبر أراضيها من طرابلس إلى الجزائر . كما أراد الباب العالي منح رتبة الباشوية لأحمد باي قسنطينة لتوطيد مركزه تجاه الفرنسيين وليزداد أهل الجزائر التفافاً حوله .. فتلقى الباب العالي مذكرة من الحكومة الفرنسية ، جاء فيها أن منح الحاج أحمد هذا اللقب سيؤدي إلى عواقب وخيمة ، وطلبت أن يكف الباب العالي فوراً عن تدخله في موضوع قسنطينة ، وكان الجيش الفرنسي قد رد الحاج أحمد مدحوراً عن أسوار هذه المدينة في أواخر شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٣٦ ، كما أبلغت فرنسا الحكومة العثمانية أن باريس لن تغض الطرف عن تعيين والي معاد لها في تونس ، وإذا أرسلت الحكومة العثمانية قوات عسكرية إلى باي قسنطينة ، فإن فرنسا تعتبر نفسها في حالة حرب مع الدولة العثمانية .

وعلى الرغم من هذه التهديدات الفرنسية المتلاحقة ، دخلت الدولة في تجربة جديدة ومحدودة ، فأرسلت بعض وحدات من أسطولها بقيادة فوزي باشا إلى ميناء طرابلس في أواخر شهر يوليو - تموز - عام ١٨٣٧ ، ثم يواصل زيارته إلى ميناء تونس ؛ وردت الحكومة الفرنسية

بتوجيه أسطولها في سبتمبر - أيلول - إلى ميناء تونس ؛ بحجة حماية مصالحها في حوض البحر المتوسط ، وكان من المقرر أن يجرى فوزى باشا اتصالات مع مصطفى باشا باي تونس . ولكن تهرب الأخير من مقابلة مندوبيه ، وخشى السلطان محمود الثاني أن يتحرض الأسطول الفرنسي بالأسطول العثماني ، على الرغم من أن الأسطول العثماني ظل رابضاً في مياه طرابلس وتجذب الاقتراب من المياه التونسية ؛ ولذلك لم تطل مدة مكث الأسطول العثماني في مياه طرابلس ، فزار مالطة ثم أفلح في سبتمبر - أيلول - عام ١٨٣٧ إلى إستانبول ، وظل الأسطول الفرنسي يقتفي أثره حتى مضيق الدردنيل .

ولم يكف أحمد باي قسنطينة طوال هذه الأحداث عن مطالبة الباب العالي بإرسال نجدات عسكرية ؛ ليستمر في الدفاع عن المدينة أمام القوات الفرنسية ، التي كانت تتدفق على أسوارها . ولكنه لم يظفر من إستانبول إلا بخطابات تشجيع وتقدير لموقفه ، وقنعت الدولة بإبداء تمدياتها الطبية له في التوفيق في دفاعه ؛ لأنها كانت أعجز من إرسال تعزيزات عسكرية له ، وقنعت بهذه الحرب الباردة . أما أحمد باي قسنطينة .. فقد ضرب أروع الأمثال في البطولة والقداية والولاء للدولة العثمانية ، وكان يحارب كممثل للحكومة العثمانية قوات فرنسية جرارة تفوق قواته عدداً وعدة . ويعد في نظر بعض المؤرخين المعاصرين أنه أكبر وأبرز الشخصيات المغربية التي ظهرت في العقد الرابع من القرن التاسع عشر^(١) . وفي إحدى المرات أجاب عن اقتراح القائد العام الفرنسي في الجزائر ، بأن يعترف به حاكماً للجزائر وأن يدفع جزية سنوية ، بأنه يحكم البلاد باسم السلطان العثماني فقط . وفي ١٣ من شهر أكتوبر - تشرين أول - ١٨٣٧ سقطت قسنطينة في أيدي جحافل الفرنسيين ، وانسحب أحمد باي إلى جبال الأوراس في الجنوب^(٢) .

ويعد الاحتلال الفرنسي للجزائر الذي بدأ في عام ١٨٣٠ ، توقف الزحف الأوروبي

(١) دكتور عبد الجليل التميمي في تطبيقه على بحث دكتور أرجمند كوران ، الذي قدمه إلى المؤتمر التاريخي الخامس ، الذي عقد في أنقرة في الفترة من ١٢ إلى ١٧ من شهر أبريل - نيسان - ١٩٥٦ ، وكان عنوان هذا البحث «أحمد باي قسنطينة المدافع عن الجزائر» . وقد نشر الدكتور التميمي هذا البحث معرباً في نهاية رسالة دكتور كوران من ص ٧٨-٨٥ . وانظر أيضاً :

دكتور عبد الجليل التميمي : الحاج أحمد باي قسنطينة بتاريخ ولاية الجزائر الشرقية من ١٨٣٠ إلى ١٨٤٧ ، رسالة أجيّزت لدرجة الدكتوراة الدولة في التاريخ الحديث .
(٢) استقينا المادة العلمية لموضوع محاولات الدولة العثمانية لاسترداد الجزائر من الرسالة التي حصل بها الأستاذ أرجمند كوران على درجة الدكتوراة في التاريخ الحديث من كلية الآداب بجامعة إستانبول عام ١٩٥٣ . وقد اعتمد فيها على محفوظات الصدارة العظمى ووزارة الخارجية في إستانبول . وهو يشغل حالياً منصب عميد كلية العلوم الاجتماعية والإدارية بجامعة حجتبة في أنقرة ، وقد ترجمه إلى العربية دكتور عبد الجليل التميمي ، وسبق أن أشرنا إليها في مواطن سابقة في حواشي هذه الدراسة .

الاستعماري على الولايات العربية مدة ناهزت الخمسين عاماً ؛ بسبب اشتداد حدة التنافس بين الدول الأوروبية على تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية وتوزيعها أسلأباً فيما بينها ، وما صاحب هذا التنافس من حروب ومؤتمرات ومعاهدات ، لزدحم بها تاريخ الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . وانتهجت هذه الدول سياسة التعويض Compensation Policy وسياسة المصالحة Conciliation Policy على حساب الدولة العثمانية في مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ ، ويسطت فرنسا حمايتها على تونس عام ١٨٨١ ، واحتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢ . وكان قد سبق فرض الحماية والاحتلال على هذين البلدين العربيين الإسلاميين انتهاج سياسة التغلغل السلمي Pacific Penetration ، وكان من مظاهر هذه السياسة التدخل في الشؤون المالية لحكومتى تونس والقاهرة ، وتقديم قروض أوروبية ضخمة ومتعاقبة لها بحيث عجزتها عن سداد القروض وفوائدها ، ثم تدخلت الدولتان سياسياً ، وأعقب هذا التدخل الغزو العسكري لكل من تونس ومصر في سنتين متعاقبتين .

ولما طالبت الحكومة البريطانية سنة ١٨٩٦ من الحكومة المصرية استرداد السودان (١) اشتركت بقوات رمزية ، واتخذت من هذا الاشتراك الحربي الرمزي في حملة السودان ذريعة لإقامة حكم ثنائي Condominium بريطاني مصري في السودان عام ١٨٩٩ ، وكان هذا الحكم الثنائي في لحمته وسداه فصلاً فعلياً بين شطرى الوادى واستثنأراً من بريطانيا بالانفراد في حكم السودان (٢) ، وما لبثت أن عصفت بالمظهر الشكلي لهذا الحكم الثنائي .. ثم احتلت بريطانيا طرابلس وبرقة في عام ١٩١١ . وفي مطلع الحرب العالمية الأولى ، احتلت القوات البريطانية العراق ؛ إذ أبحرت أول فرقة بريطانية من بمباى في اليوم التاسع عشر من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١٤ بقيادة الجنرال دلمان Delmain W.S. ، وأطلق على هذه الفرقة التي هي قسم من جيش الهند رمز D ، وهو أول حرف من اسم هذا القائد .

وفي يوم ٢٣ وصلت إلى البحرين ، وفي اليوم الثاني من نوفمبر - تشرين ثان -

(١) عن الأسباب التي جعلت الحكومة البريطانية تطلب من الحكومة المصرية استرداد دنقلة أولاً ثم بقية السودان ، انظر :

دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان تاريخ وحدة وادى النيل السياسية في القرن التاسع عشر (١٨٢٠-١٨٩٩) . دار المعارف بمصر ، ١٩٥٨ ، ص ٤٧٣-٥١٨ .

(٢) انظر تليلاً علمياً لاتفاق الحكم الثنائي المنعقد في ١٩ من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٩٩ بين مصر وبريطانيا في المرجع السابق ، ص ٥٧٤-٥٩٣ .

وانظر النص الرسمي لهذا الاتفاق ، الذى أطلق عليه لفظ «الوفاق» في مجموعة الوثائق الرسمية التي نشرتها رئاسة مجلس الوزراء المصرى تحت عنوان :

السودان من ١٢ فبراير - شباط - سنة ١٨٤١ إلى ١٢ فبراير - شباط - سنة ١٩٥٣ ، الطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ٥-٩ .

وصلت إلى بندر بوشهر - الميناء البحرى الرئيسى لفارس على الساحل الشرقى من الخليج - وفى اليوم الثالث منه صارت أمام شط العرب . وفى ساعة متأخرة من اليوم السادس أطلقت مدافع الباخرة أودين Odin قنابلها على حصن الفار الواقع على ضفاف شط العرب ثم تلاها نزول جماعة من الجيش بقيادة الضابط روشر Rocher .. فكانت أول قدم إنجليزية تهبط أرض العراق غازية معادية ، طامعة فى بسط السيطرة البريطانية العسكرية والسياسية والاقتصادية على هذا الإقليم العربى من أقاليم الدولة العثمانية (١) ، ثم دخلت القوات البريطانية بغداد فى اليوم الحادى عشر من شهر مارس - آذار - عام ١٩١٧ وتقدمت شمالاً وغرباً واحتلت الموصل ، وأتمت احتلال العراق كله ، بعد أن تكبدت فى العمليات الحربية خسائر فادحة فى الأنفس والأموال ، تقدر بمائة ألف بين قتل ومفقود وجريح ومائتى مليون من الجنهات الإسترلينية^(٢) ، ونجحت بريطانيا فى استقطاب الشريف الحسين بن على أمير مكة المكرمة .. فانضم ضد الدولة العثمانية ، وكان هذا الشريف تلقه غفلة الصالحين ، فانساق وراء بريطانيا معتمداً على وعودها . وما أن انتهت الحرب العالمية الأولى بسقوط الدولة العثمانية حتى تقاسمت الدول الأوروبية ما تبقى من أقاليم عربية - عدا اليمن والحجاز ونجد - ويعد أن كانت أقاليم العربية تشكل كتلة عربية بصورة غير رسمية فى نطاق الدولة العثمانية .. أصبحت أقاليم تحت الانتداب ، أو تحت الاحتلال ، أو تحت الحماية ، وغدت هذه الأقاليم العربية توكب السياسة الأوروبية فى خدمة مصالحها العسكرية والسياسية والاقتصادية ، وتحكم بقرارات تصدر من عواصم أوروبا ، مثل : لندن ، وباريس ، وروما .

(١) الدكتور محمد بدیع الشریف : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة (بالاشتراك مع زميله) ، مرجع

سبق ذكره ، ٢٦٩-٢٧٥ .

(٢) المرجع السابق .

خامساً : الدولة تضيضي الهدوء والاستقرار على الولايات العربية

أضفت الدولة العثمانية على ولاياتها العربية نوعاً من الهدوء والاستقرار السياسي . كانت بلاد العراق والشام في حالة إعياء ، وتعانيان كثيراً من الفوضى والاضطراب والتخريب من آثار غزوات المغول المدمرة ، والتي نجحت مصر في صدّها عندما أوقعت بالمغول هزيمة حاسمة في معركة عين جالوت ، شنتت شملهم ، وأنقذت أقاليم الشرق والمغرب العربي من شرورهم .

أخذ السكان في الولايات العربية إلى السلبية والخضوع للعثمانيين .. فقد كان العثمانيون مسلمين مثلهم ، وكانوا يعتنقون المذهب السني مثلهم ، ويحرصون على تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية ، ويحافظون على الشعائر الدينية مثل الاحتفال برؤية هلال رمضان واحترام صياحه وغير ذلك ، وتنظيم قافلة الحج وحراستها وهي في طريقها إلى الحجاز ، وما إلى ذلك من أعمال استهوت أفئدة جماهير ، كانت تعيش في مجتمعات دينية إسلامية متزمنة .

وكان الحكم العثماني حكماً غير مباشر ، ولم تضيق السلطات العثمانية الخلفاء على الجماهير ، بل تركتهم لشيوخ طوائفهم التي ينتمون إليها ، ولم تتدخل السلطات العثمانية - كما ذكرنا - إلا في نطاق ضيق ومحدود للغاية ، لم يتجاوز مجالات معينة هي توفير الأمن وجمع الضرائب والإشراف على القضاء . وتركت للجماهير شئون التعليم والصحة والمواصلات وغير ذلك من المرافق ، التي تعتبر في الوقت الحاضر من صميم واجبات الحكومات . وعلى سبيل المثال ظلت معاهد التعليم ومراكز الثقافة العليا ، الدينية والعربية - سواء في العراق أو الحجاز أو اليمن أو الشام أو مصر أو شمالي إفريقيا - تمارس نشاطها على النحو ، الذي كان سائداً قبل دخول الولايات العربية تحت السيادة العثمانية . وكان كبار العلماء - إلى جانب نشاطهم العلمي المتعدد الجوانب - يمارسون زعامة شعبية على الجماهير ، لم تحالو السلطات العثمانية أن تنال منها ، بل كانت توقرها بل وتخشاها وتعمل على الإفادة منها عند وقوع انتفاضة شعبية أو أزمة طارئة .

ومجمل القول إن السلطات العثمانية تركت الجماهير العربية تحيا على النحو ، الذي ألفته من قبل دون تغيير جوهري يمس حياتهم . ولذلك يرى فريق من المؤرخين والباحثين أن الحكم العثماني في مصر والشام كان امتداداً لحكم دولة المماليك ، أما في العراق .. فقد اقترن بالحكم العثماني بالهدوء والاستقرار وهدوء الصراع المذهبي بين الشيعة والسنيين ، فيما عدا

الحروب التي كانت تنشب بين الدولة العثمانية وفارس ، ولكن لم تتعرض الجماهير العراقية لمذابح أو عمليات تخريبية . وفي الحجاز أبقي العثمانيون على حكم الأشراف الذي ينسبون إلى الدوحة النبوية الكريمة ، وأبقوا على الامتيازات الخاصة بأهل الحجاز مثل الإعفاء من التجنيد والجزية . وكانت الدولة تحرص حرصاً شديداً على إرسال حصيلة الأوقاف والاعتمادات المالية المرسودة على الأشراف وفقراء الأماكن المقدسة وإصلاح الحرمين الشريفين ، كما كانت تتدخل لإصلاح ذات البين بين الأشراف .

أما في اليمن .. فلم يكن الحكم العثماني مستقراً لفترات طويلة بسبب اختلاف المذهب الديني ، فقد كان أهل اليمن شديدي التمسك بأن يكون حكامهم من أتباع مذهب الإمامية الزيدية ، وانتهى الأمر باتفاق بتعيين حاكم منهم يعترف بالسيادة العثمانية على اليمن وما تستتبعه هذه السيادة من التزامات . وفي منطقة الخليج العربي كان الحكم العثماني وإمناً شاحباً .. تركت الدولة سكان المناطق التي امتد إليها الحكم العثماني يزاولون نشاطهم التقليدي دون تدخل منها ، وكان فيهم السنيون وفيهم الشيعة . أما في الولايات الثلاث في شمالي إفريقيا فكانت السيادة العثمانية عليها سيادة إسمية . وكان للدايات والبايات والولاة (١) يرسلون الجزية إلى الباب العالي أحياناً ويمتعونها أحياناً أخرى ، ولكن الجهاد الديني البحري الإسلامي الذي مارسه سكان شمالي إفريقيا مع حكامهم ضد القوى المسيحية الأوروبية كان يشدهم شداً إلى الدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية ، وأن سلطانها هو خليفة المسلمين .

ومع ذلك تعرضت بعض الولايات العربية لهزات سياسية وسط الهدوء ، الذي كانت تعيش في ظلاله الوارفة ؛ إذ كان يجتاح الولايات العربية من وقت إلى آخر نوعان من الاضطرابات .

أولاً : انتفاضات شعبية . ومن الخطأ وصفها ثورات . وكان يقوم بها سكان مدينة أو حي من أحيائها ضد الحكام المحليين عندما يتجاوزون المدى في ظلمهم للمحكومين ، ولكن لم تكن هذه الانتفاضات موجهة ضد السلطان العثماني لأن الولاء له أمر مسلم به ، لا تتطرق الثورة عليه إلى أذهان مجتمعات دينية إسلامية . وكان القائمون بهذه الانتفاضات يتهددون حاكميهم ، برفع الأمر إلى السلطان في إسطنبول .

ثانياً : حركات سياسية عسكرية يقوم بها أفراد طموحون ذوو عصبية في الولايات العربية . ولم تكن هذه الحركات تبغى الانفصال عن الدولة ، ولكن كان القائمون بها يبغيون الانفراد بحكم الولاية أو يقسم منها داخل نطاق الدولة العثمانية ، مع الاعتراف بالسيادة

(١) الدايات جمع داي ، لقب يطلق على حاكم الجزائر . البايات جمع باي ، لقب يطلق على حاكم تونس . وكان حكام طرابلس ويرقة يطلق عليهم ولاة .

العثمانية ، ومايتبعها من سك العملة باسم السلطان العثماني الحاكم والدعاء له على منابر مساجد في صلاة الجمعة والعيدين ، ومع ذلك لم تظفر قيادات هذه الحركات باستجابة من الجماهير ولم تتعاون معها ، بل لم يحدث لقاء فكري بينها وبين زعماء هذه الحركات . ومن الأمثلة على هذا النوع : حركة على بك الكبير في مصر ، وحركة الشيخ ظاهر العمر في فلسطين .

سادساً : الدولة تمنع انتشار المذهب الشيعي إلى ولاياتها العربية

إن هذا الموضوع ذو حساسية لأهل الشيعة ، ولذلك فإننا نمسه بحذر وبقدر؛ احتراماً منا لمشاعرهم ^(١) . من المعروف أن المذهب الرسمي للدولة العثمانية ، كان المذهب السني واعتبرت نفسها حامية لهذا المذهب . وتأسيساً على هذه الحقيقة .. فإنها منعت انتشار المذهب الشيعي إلى ولاياتها العربية في آسيا وإفريقية ، ويشذ العراق عن هذه القاعدة العامة ؛ لأن الدولة العثمانية لما فتحت هذا الإقليم العربي .. وجدت أن الدولة الصفوية في فارس كانت قد سبقتها إلى نشر المذهب الشيعي في أرجائه ؛ حيث لجأ الشاه إسماعيل الصفوي إلى أساليب العنف بل والإرهاب في نشر المذهب الشيعي ، وقام بقتل أئمة السنة ، على الرغم من أن المذهب الشيعي كانت له جذور عميقة في قطاعات مهمة وكبيرة في المجتمع العراقي ؛ نظراً لوجود العتبات المقدسة في النجف وكربلاء وسامراء وغيرها من الأماكن التي توجد فيها مقابر أئمة الشيعة ؛ بحيث أصبح أهل الشيعة وأهل السنة قوتين متوازيتين تقريباً من حيث تعدادهم . وقد أبقت الدولة العثمانية على هذا الوضع ، وذهبت إلى أبعد من ذلك فأحترمت مشاعر أهل الشيعة واهتمت بتعمير مناطق العتبات المقدسة ويسرت زيارتها أمام شيعة العراق وفارس والهند وأفغانستان وغيرها على النحو الذي يسطناه من قبل . وقد وجدت للدولة العثمانية أقطيات شيعية في أجزاء من بعض الولايات العربية ، فأبقت عليها مثل طائفة العلويين والدروز في لبنان . وكان أهل اليمن يعتقدون مذهباً شيعياً هو الإمامية الزيدية ، ووصلت إلى إتفاق بينهم يجمع بين الاعتراف بمذهبهم ومقتضيات السيادة العثمانية ، على أنها أسدت خدمة جليلة بحصر المذهب الشيعي في فارس ؛ بحيث لم تسمح بتسريه إلى الأقاليم العربية التي دخلت تحت السيادة العثمانية . ولا تزال إيران إلى اليوم هي للمعقل الأول للشيعة في العالم الإسلامي .

(١) لا ينطبق هذا الموضوع على عنوان الفصل الحالي وهو خدمات الدولة العثمانية للإسلام والعروبة لأن أهل الشيعة مسلمون . وإذا كانت الدولة نجحت في منع انتشار المذهب الشيعي إلى ولاياتها العربية بصورة عامة ، فقد جات هذه السياسة - فيما جات به - في مصلحة أهل السنة وأضررت بأهل الشيعة ؛ ولذلك كان لزاماً علينا أن نبرز هذه الحقيقة وهي أن أتباع المذاهبين مسلمون . وكانت الحق في الصياغة اللفظية لعنوان هذا الموضوع تقتضي أن يكون خدمات الدولة لأهل السنة ولكن لما كان هذا الموضوع مقصوراً على هذه الناحية فقد أدرجناه تحت العنوان العام وأرجأناه إلى نهاية الفصل مع التمهيد له بهذه الماشية الضرورية .

خدمات الدولة العثمانية للإسلام والعروبة (٣)

سابعاً : الدولة تمنع اليهود من استيطان سيناء

لما فتح السلطان سليم الأول مصر عام ١٥١٧ ، أصدر فرماناً بمنع اليهود من الهجرة إلى سيناء . ووضح من صدور هذا فرمان أن اليهود كانوا ييغون الهجرة إلى هذا الإقليم المصري واستيطانه ، على أساس أنه يضم الوادى المقدس طوى ، الذى كلم الله سبحانه وتعالى فيه موسى عليه السلام تكليماً . ومن ثم أصدر السلطان سليم الأول فرمان ، الذى سد الطريق فى وجوه اليهود . ولما تولى ابنه سليمان المشرع عرش الدولة عام ١٥٢٠ أصدر فرماناً لاخضاع أكد فيه ما جاء فى فرمان السابق^(١) ؛ مما يدل على أن الخطر اليهودى كان لايزال مائلاً من حيث رغبتهم فى استيطان سيناء أو بمعنى آخر استعمارهم لها ؛ الأمر الذى كان يقلق الدولة العثمانية .

واستطال حكم سليمان زهاء ستة وأربعين عاماً (١٥٢٠-١٥٦٦) ، ولم يجرؤ اليهود على تنفيذ ماكانوا يبيتون . فلما جاز إلى ربه جاء بعده ابنه السلطان سليم الثانى السكير ، وكان منحرفاً خلقياً (١٥٦٦-١٥٧٤) ، ومنذ حكمه بدأت النذر الأولى لاضمحلال الدولة ، وخلفه سلاطين على شاكلته وكان أولهم مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٦) .

وتنفس اليهود الصعداء وأدركوا أن الفرصة سانحة لهم لتحقيق حلم روادهم طويل ، فنزحوا فى هجرات متقطعة ، وعلى فترات متقاربة إلى سيناء لاستيطانها ، وكانت خطتهم تقوم فى المراحل الأولى على تركيز إقامتهم فى مدينة الطور . وكان اختيارهم لهذه المدينة اختياراً هادفاً ؛ فهذه المدينة - وهى تقع على الساحل الشرقى لخليج السويس - لها ميناء يصلح لرسو السفن التجارية . وكانت تقصده سفن قادمة من ينبع وجدة وسواكن والعقبة والقازم والسويس . كما كانت المدينة ترتبط برياً بخطوط قوافل مع القاهرة والفرما^(٢) . وبذلك كان يسهل على

(١) دكتور عبداللطيف إبراهيم : من وثائق التاريخ العربى . بحث منشور فى مجلة جامعة القاهرة لدرع الخرطوم . العدد الثانى عام ١٩٧١ ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٧٢ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية . مادة : الطور .

وبما يذكر أن مدينة الطور جعلت عاصمة لمحافظة جنوبى سيناء بعد تحريرها من الاحتلال الاسرائيلى . وكانت مدينة سدر عاصمة مؤقتة لها ، ثم انتقلت إلى مدينة الطور ، اعتباراً من يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٧٩ .

اليهود إيجاد اتصالات خارجية ، فلا يصحبون في عزلة عن العالم ، بل تستطيع السفن أن ترسو في ميناء الطور تحمل أفواجاً من اليهود الجدد قد يقدمون من بلاد مجاورة .

وقد تزعم حركة التهجير رجل يهودى تطلق عليه وثائق ذلك العصر إبراهيم اليهودى ، استوطن الطور مع أولاده وسائر أفراد أسرته . وكان من المحتمل أن تمر سنوات ذات عدد ، دون أن تدرى السلطات العثمانية سواء في القاهرة أو في إستانبول عن هذه التحركات اليهودية المريبة شيئاً ، لولا أن اليهود لما استقر بهم المقام في سيناء تعرضوا بالأذى لرهبان دير سانت كاترين ؛ مما حمل الأخيرين على إرسال شكاوى مكتوبة تارة ، أو الذهاب إلى القاهرة والمثول أمام ديوان البابا في قلعة الجبل تارة ثانية ، أو التحدث إلى المسؤولين في مقابلات خاصة يشكون من إيذاء اليهود لهم تارة ثالثة .

وكانت شكايات الرهبان تقوم على الأسانيد الآتية :

أولاً : إن دير سانت كاترين هو مكان مقدس ، يجب ألا يتعرض رهبان منقطعون فيه للعبادة إلى الإيذاء من اليهود أو من غيرهم . ومن الأمور الجديرة بالتسجيل هنا أن الدولة العثمانية كانت تهتم برعاية أهل الذمة ، كما أن طلب رهبان دير سانت كاترين كان يتماشى مع منطوق الآية القرآنية الكريمة ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ، (١) .

ثانياً : ليس لليهود حق في أن يسكنوا مدينة الطور على الإطلاق .

ثالثاً : إن رهبان دير سانت كاترين يحتفظون فيه بفرمان شريف وأمر خنكارى (٢) ، يؤكدان منع اليهود من استيطان سيناء ومن الإقامة في الطور ومن التعرض للدير ، ومن إيذاء رهبانه .

رابعاً : إن اليهود ينزحون إلى منطقة سيناء بما فيها مدينة الطور في جماعات كبيرة بقصد إيقاع الفتن .

خامساً : إن اليهود أصبحوا يتوطنون مدينة الطور بنسائهم وأولادهم ، ويحصل منهم غاية الضرر .

سادساً : دأب اليهود على مخالفة الشرع والتقاليد والعادات القديمة المتبعة ، ومنها إذا كانت لهم حاجة ضرورية .. فيتوجه منهم شخص أو شخصان لقضاء هذه الحاجة والعودة فوراً .

(١) سورة المائدة ، الجزء الأخير من الآية رقم ٨٢ .

(٢) أمر خنكارى أى أمر سلطانى . ولقطة خنكارى مشتقة من خنكار ، وهو لقب من ألقاب سلاطين الدولة العثمانية .

وقد اهتمت السلطات العثمانية في القاهرة ، على أثر تلقيها شكايات رهبان دير سانت كاترين ، اهتماماً زائداً بمنع هجرة اليهود إلى سيناء ومنع استيطانهم بها ، وصدرت في هذا الصدد ثلاثة فرمانات ديوانية ^(١) ، وكان صدورها كلها إبان حكم السلطان مراد الثالث : أصدر حسن باشا الخادم الوالي العثماني في مصر ^(٢) فرمانين متلاحقين في خلال سنتين ، يحمل أولهما رقم ١٤٩ ، وتاريخه أوائل جمادى الأول عام ٩٨٩ (أوائل شهر يونيو - حزيران - ١٥٨١) ويحمل ثانيهما الرقم ١٥١ ، ومؤرخ في اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر عام ٩٩١ (الثالث والعشرين من شهر فبراير - شباط - عام ١٥٨٣) ، أما فرمان الثالث فقد أصدره سنان باشا (الثاني) الوالي العثماني في مصر ^(٣) في اليوم العشرين من شهر ذى الحجة ٩٩٢ (الثالث عشر من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٥٨٥) ويحمل رقم ١٦٠ .

وتتفق هذه فرمانات الثلاثة في أنها موجهة إلى «فخر الناب ، ومجرى الحق بالصواب ، نايب الشرع بالطور» ^(٤) ، والأقران الشادية ^(٥) ، والدلدارية ^(٦) ، والحكام ، وأصحاب الإدراك ، وولاة الأمور بالطور عامة ، وتضمن كل فرمان من هذه فرمانات الثلاثة موضوع الشكوى التي تقدم بها رهبان دير سانت كاترين . وصدرت فيها أوامر السلطات العثمانية بالقاهرة مشددة بإخراج إبراهيم اليهودي وزوجته وأولاده ، وسائر اليهود من سيناء ، ومنعهم في قابل الأيام منعاً باتاً من العودة إليها بما فيها مدينة الطور والإقامة فيها أو السكنى فيها . ونبهت فرمانات الثلاثة على أرباب الوظائف الذين ورد ذكرهم والذين وجهت إليهم هذه فرمانات بضرورة تنفيذ الأوامر تنفيذاً فورياً «وإلا يتأخروا يوماً واحداً» ، كما نبهت عليهم بالوقوف على الأمر الشريف السلطاني السابق صدوره للرهبان في هذا الصدد ، واعتماد مضمونه والعمل به وعدم العدول عنه ، وفي نهاية كل فرمان جاءت هذه العبارة «امتثلوا

(١) فرمانات الديوانية هي التي تصدر عن ديوان الباشا العثماني ، الذي يحكم الولاية ، ويكون نائباً عن السلطان في حكمها ويرأس حكومتها . وفي الحالة التي نتكلم عنها يقصد بالفرمان الديواني فرمان الذي يصدر عن ديوان الباشا في قلعة الجبل بالقاهرة . أما فرمانات السلطنة فيعدها الصدر الأعظم بعد عرضها على الديوان الإمبراطوري (الهامايوني) ، ثم يعرضها على السلطان فإذا وافق عليها وضع الصدر الأعظم عليها خاتم السلطان ، والفرمانات السلطانية منها ما هو خاص بولاية معينة : ومنها ما هو عام يطبق في جميع ولايات الدولة .

(٢) تولى حكم مصر من جمادى الأولى ٩٨٨ حتى ربيع آخر ٩٩١ (يونيو - حزيران - عام ١٥٨٠ حتى أبريل - نيسان - عام ١٥٨٢) .

(٣) تولى حكم مصر من شوال ٩٩٢ حتى جمادى الآخرة ٩٩٥ (سبتمبر - أيلول - عام ١٥٨٥ حتى مايو - آيار - عام ١٥٨٧) .

(٤) نايب الشرع أى نائب الشريعة المطبق أحكامها . وهو القاضي .

(٥) الشادية مصطلح تاريخي ، مفردة شاد ، بمعنى مفتش فيقال شاد الدواوين أى الذى يفتش على الدواوين .

(٦) الدلدارية مصطلح تاريخي ، مفردة دلدار ، وهو أحد العسكريين الذين يرأسون قوة عسكرية في إحدى القلاع .

بالأوامر العالية وقابلوها بالسمع والطاعة .

وكان كل فرمان يحمل الخاتم الخاص باسم والي العثماني الذي أصدره .

ويدل صدور هذه الفرمانات الثلاثة ومحتوياتها على عدة حقائق ، نذكر من بينها :

أولاً : حرص الدولة العثمانية حرصاً بالغاً على منع اليهود من استيطان شبه جزيرة سيناء بما فيها مدينة الطور ، وتخوفها من تجمعاتهم فيها .

ثانياً : إن أطماع اليهود في سيناء كانت أطماعاً قديمة . وإن أرض مصر لم تكن في يوم من الأيام خارجة عن نطاق التفكير اليهودي ، وإن تفكيرهم اتجه في زمن مبكر إلى سيناء وهي متاخمة لفلسطين . ووقفت الدولة العثمانية في وجه أطماع اليهود في سيناء ، منذ بداية الحكم العثماني ، ولم تحد عن سياستها طوال هذا الحكم ، سواء الحكم المباشر أو غير المباشر تحت حكم محمد علي وخلفائه إلى الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ .

ثالثاً : رغبة الدولة العثمانية في إشعار اليهود بقوتها ويقظتها لأغراضهم من استيطانهم سيناء .

رابعاً : العلاقات الطيبة والوطيدة بين السلطات العثمانية وربهان دير سانت كاترين ، عندما لقي الأخيرون مولفة فورية لطلباتهم .

خامساً : إن استيطان اليهود سيناء كان يقلق رهبان الدير . وكانت السلطات العثمانية حريصة على توفير أسباب الراحة لهم وتأمينهم على أرواحهم وأملأهم وأوقافهم (١) .

ومما هو جدير بالذكر أنه لما احتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ ، وتحولت السيادة العثمانية إلى سيادة اسمية واهية إلى أبعد الحدود ، وأصبحت الكلمة العليا في الحكومة المصرية لسلطات الاحتلال .. عاودت اليهود أطماعهم في سيناء ، بعد أن رفض السلطان عبد الحميد الثاني فتح أبواب الهجرة أمامهم إلى فلسطين . وكان تيودور هرتزل قد أطلق على سيناء اسماً معبراً هو فلسطين المصرية ؛ ليتخذ منها في قابل الأيام نقطة وثوب إلى فلسطين الآسيوية أو فلسطين بمعناها المتعارف عليه . ورأى هرتزل أن يبدأ أنصاره الصهيونيون استيطان منطقة العريش أي في شمالي سيناء بدلاً من جنوبيها ؛ أي على عكس ما فعل اليهود عام ١٥٨١ ، عندما حاولوا استيطان منطقة الطور ودير سانت كاترين . ولذلك دخل هرتزل في مفاوضات سنة ١٨٩٨ مع بعض أعضاء الوزارة البريطانية ؛ خاصة جوزيف تشمبرلين Joseph Chamberlain وزير المستعمرات ، ولورد لانزدون Lansdowne وزير الخارجية من أجل توطين اليهود في سيناء على أساس إقامة دولة يهودية فيها ، تتمتع بالحكم العثماني في نطاق الإمبراطورية . ووافق الوزيران (٢) على الاقتراح من حيث المبدأ نظراً للمكاسب التي تعود على

(١) دكتور عبد اللطيف إبراهيم ، مرجع سبق ذكره .

(٢) كان هذان الوزيران عضوين في وزارة لورد سالزبوري الثالثة ، التي تكونت في عام ١٨٩٥ وشغلا المنصبين نفسيهما في الوزارة التالية ، وهي وزارة بالفور التي تشكلت في عام ١٩٠٢ .

بريطانيا . وكان من بين هذه المكاسب ضمان حماية الضفة الشرقية لقناة السويس ، وعزل مصر عن الولايات العربية في غربي آسيا ، وإضعاف الدولة العثمانية ، ورد عملي على التقارب الذي حدث بين برلين وإستانبول ، وإقامة دولة في وسط العالم العربي تسير في ركاب الاستعمار البريطاني^(١) .

ويعد مفاوضات مصطنعة وصناعية ، تكونت في سنة ١٩٠٢ لجنة قوامها ثمانية أعضاء تقول دائرة المعارف اليهودية إنهم يمثلون الحكومة المصرية^(٢) ، ولكن ليس من بين أسماء أعضائها مصري واحد ، بل كانوا جميعاً أجانب بحيث يصعب تحديد الأسماء اليهودية والأسماء الإنجليزية من غير اليهود . وكانت أهداف اللجنة دراسة المشروع على الطبيعة ، وإنشاء إدارة يهودية في العريش ، وتكوين مجالس بلدية يهودية في أنحاء سيناء لاستغلال الأراضي وتنظيم توطيّن اليهود وغير ذلك من مسائل . وغادرت اللجنة القاهرة في أول سنة ١٩٠٣ وعادت في آخر مارس - آذار - وانتهت رأياً إلى أن سيناء تصلح لاستيطان اليهود ، وأوصت بأن تكون العريش هي المرحلة الأولى لتنفيذ المشروع على أسس علمية وتخطيط مسبق ، يوضع بعناية باستقدام خبراء زراعة ومهندسين ومن إليهم من الفنيين لتمهيد الطرق ورمد الخطوط الحديدية وإنشاء الموانئ وتقسيم الأراضي واستصلاحها وزرع السكان اليهود فيها . واشترطت اللجنة شرطين : ألا تكون الدولة المقترحة تحت حكم مصر وإنما تحت حكم بريطانيا ، وأن يسمح لها بجلب ماء نهر النيل إلى سيناء .

ويطّلق الأستاذ الدكتور محمد عوض محمد على هذا الحادث بقوله إن حكومة مصر ، بلغ بها النماهل إلى حد السماح لبعثة صهيونية أن ترتاد شبه جزيرة سيناء ، وأن تبحث وتنقب في العريش^(٣) . والواقع أنه لم يكن في استطاعة الوزراء أن يعترضوا على قرارات سلطات الاحتلال ، التي ابتدعت تعبيراً دبلوماسياً مهذباً هو سياسة النصائح البريطانية ؛ بمعنى أن الأوامر البريطانية تأخذ شكل نصائح ، فإذا لم يقبل رئيس الوزراء المصري أو أحد من الوزراء المصريين تنفيذها كان يعد متحدياً من منصبه^(٤) .

وعلى كل حال جاء الرفض من جانب لورد كرومر الممثل البريطاني في مصر ؛ لأنه

(١) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢ .

(2) The Jewish Encyclopedia. Vol. 12, p. 678.

(٣) دكتور محمد عوض محمد : الاستعمار والمذاهب الاستعمارية . الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ١٢٢ .

(٤) كانت الوزارة القائمة بالحكم في ذلك الوقت هي وزارة مصطفى فهمي باشا ، المشهور بولائه العميق للاحتلال البريطاني . وقد بقيت وزارته في الحكم ثلاث عشرة عاماً (نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٩٥ حتى نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٠٨) ، كانت كلها خضوعاً للإنجليز واستسلاماً لطلباتهم .

رأى أن المشروع يتطلب تحويل مقادير هائلة من مياه النيل إلى سيناء مما يؤثر على كميات المياه اللازمة للزراعة المصرية ، وأن تنفيذ المشروع الصهيوني يزيد من متاعب الإنجليز في حكم مصر ، وأن الإنجليز يواجهون المشكلات وليس من الحكمة إضافة جديد إليها . يضاف إلى ذلك أن الرأي العام في مصر كان يعارض المشروع معارضة شديدة ، كما اعترض السلطان عبدالحميد الثاني على هذا المشروع . وأثار الباب العالي آراء فقهية تقول إن فرمانات الصادرة من السلطان إلى ولاية مصر من أسرة محمد على لا تخول لهم الحق في المرافقة على توطين جماعات من السكان أغراب عن البلاد ، ومنحهم الحكم الذاتي في المنطقة التي ينزحون إليها ويقيمون فيها . وقد أرسلت وزارة الخارجية البريطانية مذكرة مؤرخة في اليوم التاسع عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٩٠٣ إلى هرتزل ، قررت فيها أنه يتعذر عليها أن تمضى في بحث مشروع توطين اليهود في سيناء ، ثم أريدت هذه المذكرة بمذكرة أخرى مؤرخة في اليوم السادس عشر من شهر يوليو - تموز - عام ١٩٠٣ ، قالت فيها إنها قررت بصفة نهائية ترك مشروع سيناء ووضعه على الرف (١) .

(1) Stein Leonard, The Balfour Declaration. London, 1961, p. 26 & f. no. 93.

ثامناً : الدولة تحم من هجرة اليهود إلى فلسطين

الدولة العثمانية تعاصر مولد ونشأة الحركة الصهيونية :

تطلع اليهود -على مر العصور التاريخية- إلى فلسطين كإقليم ، يجمع شنائهم وينشولون فيه دولة ، متذرعين بادعاءات دينية وتاريخية ليست هذه الدراسة موطناً لعرضها . وكانت أصواتهم تملو حيناً وتخفت حيناً آخر تبعاً للملابسات التي أحاطت بهم ، وتبعاً لظروف الدولة التي كانت تمارس سيادة فعلية على فلسطين . ولكن لوحظ أن أصواتهم ازدادت ارتفاعاً بل ضجيجاً ، وعلى فترات متقاربة منذ الثمانينيات في القرن التاسع عشر . وتنادوا إلى تهجير اليهود المشتكين في أنحاء العالم إلى فلسطين ، وإنقاذهم من الاضطهاد الذي يتعرضون له في المجتمعات التي يعيشون فيها ، وطالبوا بإنشاء دولة يهودية في فلسطين ، وأطلقوا على المشارف الجنوبية لمدينة القدس القديمة ؛ تأكيداً لإصرارهم على إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين .

وشقت هذه الحركة طريقها بما توفر لها من قيادات سياسية على أعلى المستويات العلمية ، ووسائل الدعاية والإعلام ، والتنظيم الدقيق ، والتمويل الرتيب ، وما إلى ذلك من عناصر القوة . وأنشأت الحركة منظمات أو أجهزة صهيونية ، تتولى اتخاذ الخطوات التي تؤدي في النهاية إلى تحقيق هدفها المنشود ، ونجحت في استقطاب الدول الكبرى إليها عطفاً وتأيداً وبذلاً . ولئن كانت فلسطين تعتبر في نظر اليهود أرض الميعاد تشهد دينياً إليها ، فقد أصبحت أيضاً أرض الخلاص ، تجذبهم سياسياً إليها ، يقيمون فيها دولة يتفكرون في ظلها الأمن بعيداً عن الاضطهادات الدينية ، وتعيد إليهم مجداً سياسياً تآلق في فترة قصيرة مرغلة في القدم ، ثم ذوى أعصرها وأدهاراً وعاشوا على ذكرياته ليكون ويتباكون .

وكان على الدولة صاحبة السيادة وقتذاك على فلسطين -وهي الدولة العثمانية- أن تخوض دفاعاً عن فلسطين صراعاً سياسياً مريراً ضد القوى الصهيونية والدول الأوروبية المناصرة لها ، ونجح الصهيونيون في توقيت حركتهم نجاحاً باهراً ، فاخترتوا فترة عصيبة من فترات الاضمحلال التي كانت تمر بها الدولة العثمانية . واتضح للمراقبين السياسيين في ذلك الوقت مدى التدهور الذي أصابها في مواجهة الزحف الاستعماري الأوروبي على ممتلكاتها بحيث أصبح سقوطها وشيكاً ، فلم يعد للدولة الوزن السياسي أو القل العسكري الذي كانت تتمتع به على عهد سلاطين الفترة الأولى ، ولذلك فلم يكن في مقدورها أن تخوض بنجاح صراعاً سياسياً رهيباً ضد الصهيونية والدول الأوروبية ، فعملت في حدود إمكانياتها على الحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

الدولة ترفض طلب يهود الروسيا الهجرة إلى فلسطين :

تعرض اليهود في الروسيا لموجة من المذابح وغيرها من صور الاضطهادات ، على أثر اتهامهم بالاشتراك في تدبير مؤامرة اغتيال إسكندر الثاني قيصر الروسيا سنة ١٨٨١ ، وأثرت أعداد كبيرة منهم الهجرة إلى فلسطين . ويلاحظ أن يهود الروسيا كانوا أكثر يهود العالم ميلاً إلى الهجرة إلى فلسطين بالذات ، وتفصيلها على أى إقليم آخر يستقرون فيه . فبالإضافة إلى الاعتبارات الدينية والتاريخية التي كانت تشدهم في زعمهم إلى فلسطين - وهي اعتبارات يشترك فيها كافة اليهود - كانوا يعتقدون كيهود شرقيين أن المعيشة في فلسطين كإقليم في الشرق أكثر ملاءمة لهم من الحياة في دول غربي أوروبا أو في الولايات المتحدة . وكان بطء حركة تحرير يهود الروسيا من الاضطهاد من ناحية ، وتعرضهم في كل حين وأن لاضطهاد منظم من السلطات الحاكمة الروسية من ناحية ثانية ، قد جعلاً يهود الروسيا أشد رغبة في الهجرة لينشروا الخلاص من الاضطهاد في مهجر جديد .

وقد طلبت بعض الشخصيات اليهودية وأعضاء حركة محبي صهيون^(١) Lovers of Zion من القنصل العثماني العام في ثغر أودسا منح هؤلاء اليهود تصريحاً لدخول فلسطين والاستقرار فيها . وتلقى القنصل العثماني رداً من حكومته في اليوم الثامن والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٨٢ ، علق نسخة منه خارج دار القنصلية ،

(١) هي هيئة تكونت في أودسا باسم Chibbath Zion ، أي محبي صهيون . ومن أودسا انتشرت فروع لها في معظم المدن الروسية ، وفي دول شرقي أوروبا مثل رومانيا وبلغاريا ، ثم في غربي وشمال أوروبا مثل فرنسا وإنجلترا ولتوانيا . واستهدفت هذه الهيئة تشجيع الهجرة إلى فلسطين ، وإنشاء مستعمرات زراعية فيها ، تكون في الوقت ذاته مراكز للإشعاع الثقافي اليهودي عن طريق تعلم اللغة العبرية وجعلها لغة حياة ، ونشر التاريخ اليهودي والأب اليهودي . وكان أعضاء هذه الهيئة يجتمعون برئاسة شخصيات متمسكة قوية من بين رجال العلم والزعماء الاشتراكيين والخامات . وكان من بين هذه الشخصيات ليون ينسكرك Leon Pinsker وأحد هاعام Achad Ha-am . وقد نجحت جماعة محبي صهيون في إنشاء المستعمرات الصهيونية الأولى في فلسطين ، ومهدت الطريق أمام الحركة الصهيونية لتواصل السير في الاتجاه نفسه . وإذا كانت حركة محبي صهيون قد أفسحت الطريق للحركة الصهيونية بعد مؤتمر بال الأول ، فلم يكن هناك تعارض بين الحركتين ، لأن أهداف حركة محبي صهيون كانت أهدافاً إقليمية ، تتعلق بالوطن غير الرسمي في فلسطين وأهدافاً ثقافية لجعل فلسطين مركزاً ثقافياً لليهود ، وأهدافاً اقتصادية بإنشاء مستعمرات زراعية في فلسطين . وهذه الأهداف تقترب إلى حد كبير من الأهداف الصهيونية وتعتبر مقدمة لها .

انظر كلاً من :

Stein Leonard, op. cit., p. 13 & 62.

Weizmann Chaim, Trial and Error, London, 1950, p. 28, 38 & 42.

دكتور محمد حافظ غانم : المشكلة الفلسطينية على ضوء أحكام القانون الدولي . القاهرة ، ١٩٦٥ ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، ص ٢٠-٢٢ .

جاء فيه أن الحكومة العثمانية تبلغ جميع اليهود الراغبين في الهجرة إلى فلسطين أنه من غير المسموح لهم الاستقرار فيها . ولكنهم يستطيعون الانتقال إلى أقاليم أخرى في الدولة العثمانية بشرط أن يكونوا في أعداد قليلة ، وبشرط أن يتجنسوا بالجنسية العثمانية ؛ أي يشترط أن يصبحوا من رعايا الدولة ، أو أن يقبلوا الالتزام بتنفيذ قوانينها واحترام تقاليدها وعاداتها .

كان هذا القرار صدمة أليمة لليهود ، ولكن لم يتطرق اليأس إلى نفوسهم ، فانتجبت وفود منهم إلى إستانبول في مايو - آيار - ويونيو - حزيران - عام ١٨٨٢ للتأكد من أن هذا الإعلان هو صورة حقيقة لرد الباب العالي ، وأنه يتماشى مع سياسة الدولة إزاء هجرة اليهود إلى فلسطين ، فإذا كان الأمر كذلك - فإن هذه الوفود تلتصم من الباب العالي أن يأذن لليهود في الاستقرار في فلسطين ، نظراً للملابسات التي تحيط بهم في روسيا ، وقد انضم وفدان من رومانيا وبلغاريا لهذه الوفود . ويمساعي لويس والاس Lewis Wallace السفير الأمريكي في إستانبول ، وتدخل بعض الشخصيات اليهودية في العاصمة استطاعت هذه الوفود مقابلة وزيرى الحرية والدخالية . وقد أكدا لأعضاء هذه الوفود أن الإعلان الذى علقه القنصل العثمانى خارج دار القنصلية في أودسا صحيح فى مضمونه ، وأنه يتماشى نصاً وروحاً مع السياسة العليا للدولة العثمانية ، وهى منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وقد تحدث والاس السفير الأمريكى فى اليوم التالى مع سعيد باشا وزير الخارجية فتلقي منه الإجابة ذاتها .

اليهود ينتهجون سياسة التحدى للباب العالي :

وعلى الرغم من الموقف الواضح والمعلن ، الذى اتخذته الحكومة العثمانية بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين .. فإنهم رأوا جرياً على سياستهم أن ينتهجوا سياسة التحدى ، ووضع الباب العالي أمام الأمر الواقع . فأبجر بعض اليهود المتحمسين والمتجمعين في إستانبول إلى يافا فى اليوم التاسع والعشرين من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٨٢ ، وإزاء هذا التصرف أبرق الباب العالي فى اليوم ذاته إلى حاكم القدس يأمره بالآ يسمح لأى يهودى قادم من روسيا أو رومانيا أو بلغاريا بأن يهبط أرض فلسطين ، كما اتخذ إجراءات المنع ذاتها فى حيفا ويبروت واللاذقية وغيرها من موانئ الساحل الشامى ^(١) .

وبعد حوالى ستة أشهر ، أرسل الباب العالي مذكرة رسمية فى الحادى والعشرين من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٨٣ إلى رؤساء البعثات الدبلوماسية فى إستانبول بنص قرار مجلس الوزراء العثمانى بمنع استيطان اليهود الروس فى فلسطين . وأمام ضغط الدول الأوروبية

(١) دكتور محمود صالح منسى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٢ .

أصدر الباب العالي سنة ١٨٨٤ تعليمات جديدة بالإذن لليهود في دخول فلسطين ؛ من أجل زيارة الأماكن المقدسة ، بشرط ألا تطول إقامتهم عن ثلاثين يوماً .

مؤتمر كاتوويتز :

عقد أعضاء جماعة محبي صهيون مؤتمر كاتوويتز Kattowitz في مدينة يسنك ، في نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٨٤ حضره أربعة وثلاثون عضواً ورأسه ليون بنسكر ، وكان افتتاح المؤتمر في العيد الملوي لسير موسى مونتيفيور^(١) Sir Moses Montefiore وقصر المؤتمر إنشاء اتحاد مونتيفيور لترقية الزراعة بين اليهود ؛ خاصة لمعاونة المستعمرات اليهودية في فلسطين . وأعلن رئيس المؤتمر أن الأرض للوحيدة التي تصلح لهدف اليهود وتحقيق آمالهم هي فلسطين .. واتفق على مساعدة المستعمرات بالأموال ، وعلى إيفاد مدربين إلى إسطنبول لأخذ تصاريح بالعمل في المستعمرات اليهودية ، دون أن تقام في وجه سكانها عقبات من السلطات الحاكمة في فلسطين ، وانتخب بنسكر رئيساً للاتحاد الجديد ، وأنشئ المركز الرئيسي في أودسا حيث كان بنسكر رئيساً لجماعة محبي صهيون المحلية أيضاً .

ويلاحظ أن أعضاء المؤتمر لم يطالبوا بإنشاء دولة يهودية في فلسطين ، وكانت مناقشاتهم تدور حول تيسير الهجرة إلى فلسطين وإنشاء المستعمرات فيها والمسائل الثقافية . وهي أهداف كانت تمهد في نهاية المطاف إلى إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين ؛ لذلك يرى زعماء الصهيونية أن مؤتمر كاتوويتز يعتبر من الناحية التاريخية البداية المنظمة للحركة الصهيونية^(٢) .

الدولة العثمانية تطويل مدة إقامة اليهود في فلسطين إلى ثلاثة أشهر :

ظلت العواصم الأوروبية المتعاطفة مع اليهود تضغط على الباب العالي ضغطاً لا هوادة فيه للتخفيف من ذلك الشرط الزمني لإقامة اليهود في فلسطين ، ورأى الباب العالي في سنة ١٨٨٧ إطالة المدة المسموح بها للحجاج اليهود إلى ثلاثة شهور بدلاً من شهر واحد . ومعنى هذا القرار الجديد أن الحكومة العثمانية كانت لاتزال عند رأيها ، وهو منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، أو على أسوأ الفروض الحد من تدفق اليهود عليها ومنع استقرارهم فيها تحت ذريعة الأغراض الدينية ، ثم اتخذت في السنة ذاتها قراراً هاماً يعتبر مكملاً للقرار الأول ، وهو تغيير الوضع الإداري لبית المقدس .

(١) هو إحدى الشخصيات الإنجليزية ، التي اهتمت اهتماماً بالغاً بتوطيد اليهود في فلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر . وزار فلسطين سبع مرات في الفترة من سنة ١٨٢٧ ، إلى سنة ١٨٧٤ . وكان في هذه السنة في التسعين من عمره . وقد قدم مبالغ كبيرة متتابعة للنهوض باليهود اجتماعياً واقتصادياً في فلسطين .

(2) Weizmann Chaim, op. cit., p. 38.

الوضع الإداري لبית المقدس قبل السلطان عبدالحميد الثاني :

كان العثمانيون بعد أن فتحوا بلاد الشام عام ١٥١٦ ، جعلوا بيت المقدس صندقية تتبع باشا دمشق الذي كان يطلق عليه أيضاً باشا الشام . وأظهر العثمانيون في هذا الوقت المبكر تقديرهم خاصة لأهمية بيت المقدس ، فكان يحكمها أحياناً حاكم بلقب ميرمران أى أمير الأمراء وهو باشا بطوخين . ويقولى حكمها أحياناً أخرى أحد الوزراء وهو باشا بثلاثة أطواخ ، وكانت الدولة تكتفى أحياناً ثالثة بحاكم بلقب مقسلم يرسله باشا الشام . وكان عليه أن يرسل مالا معيناً إلى الباشا في دمشق ، مما يجمعه من ضريبة الأرض أو «الميرى» ومن الجزية على أهل الذمة ومن العوائد المختلفة . وكانت تتبع صندقية بيت المقدس ثلاث مدن ، هي : أريحا ونقع إلى الشمال الشرقى ، ثم بيت لحم والخليل ونقعان في الجنوب . أما مدن نابلس ، وعجلون ، وغزة ، فكانت كل منها صندقية قائمة بذاتها تتبع باشا دمشق ، وكانت يافا تتبع غزة - ميناء بيت المقدس^(١) .

عبدالحميد يدخل تعديلاً على الوضع الإداري لبית المقدس :

رأى السلطان عبدالحميد الثاني أن أبصار اليهود في أنحاء العالم قد ازدادت شخوصاً نحو بيت المقدس بفعل الحركة الصهيونية ، التي كانت تغذى هذا التركيز على بيت المقدس ، بل إن لفظة صهيونية مشتقة من «صهيون» ، وهو جبل يقع على المشارف الجنوبية لمدينة القدس القديمة ، والحركة الصهيونية بمعناها العام هي عودة اليهود المشتتين في أنحاء العالم إلى بيت المقدس وتأسيس دولة يهودية في فلسطين .. فقرر عبدالحميد إدخال تغيير جذري على الوضع الإداري لبית المقدس فجعلها سنة ١٨٨٧ «متصرفية» خاصة تتبع الباب العالي رأساً^(٢) .

(١) دكتور أحمد عزت عبدالكريم : التقسيم الإداري لسورية في العهد العثماني . الباشاوات العثمانية والعصبيات القطاعية ، بحث منشور في حوايات كلية الآداب ، جامعة إبراهيم باشا الكبير (عين شمس حالياً) ، المجلد الأول ، سنة ١٩٥٠ ، ص ١٤٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٢ .

ويقرر دكتور محمد محمود الديب أن متصرفية القدس كانت في سنوات الحكم العثماني الأخيرة كانت متصرفية مستقلة ، وتضم أربعة أفضية هي : بئر السبع ، والخليل ، وغزة ، بالإضافة إلى بيت لحم وأريحا اللتين كانتا ناحيتين ، أما شمال فلسطين فكان يتبع لواحين :

(أ) لواء نابلس . ومن أعماله طولكرم ، وجنين ، وطوباس ، وبيسان .

(ب) لواء عكا . ومن أعماله صفد ، وطيرة ، والناصرية ، وحيفا .

انظر : دكتور محمد محمود الديب : حدود فلسطين . دراسة تحليلية لوثائق الانتخاب . من مطبوعات

- معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٨ .

وقد استقى دكتور الديب هذه المادة العلمية من :

وزارة الدفاع الوطني - الجيش اللبناني ، الأركان العامة ، الشعبة الخاصة ، مؤسسة الدراسات =

والمتصرفية في التنظيم الإداري العثماني عبارة عن منطقة تلى الولاية ، تريد أن تقرر لها الدولة وضعاً متميزاً أو كياناً خاصاً فتجعلها قسماً إدارياً قائماً بذاته تابعة للباب العالي رأساً ، أسوة بالولاية ، وإن كانت المتصرفية أقل مساحة من الولاية . ومن الأمثلة على المتصرفيات التي من هذا النوع المتميز : متصرفية لبنان ، ومتصرفية القدس الشريف . ومتصرفية دير الزور على نهر الفرات^(١) . وكان هدف السلطان عبدالحميد الثاني من رفع الوضع الإداري لبيت المقدس من صنفية إلى متصرفية مستقلة وجعلها تابعة رأساً للباب العالي في إسطنبول ، هو إحكام مراقبة الدوائر العليا في حكومة إسطنبول على الحد من حركة الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

وأصدر السلطان عبدالحميد الثاني فرماناً بتعيين محمد شريف رءوف باشا متصرفاً على بيت المقدس ، وكان حازماً نزيهاً يسارع إلى طرد الحجاج اليهود من فلسطين بمجرد انقضاء الثلاثة شهور المسموح بها لهم ، كما كان يمنع قدر استطاعته بيع الأراضي لليهود . وقد ظل في منصبه حتى عام ١٨٨٩ ، ثم ضعفت رقابة الدولة على تنفيذ هجرة اليهود بضع سنين ، وهال عرب فلسطين تفاقم التسال اليهودي إلى بلادهم . وأرسل أعيان بيت المقدس في اليوم الحادي والعشرين من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٩١ شكوى إلى الباب العالي ، يطلبون فيها اتخاذ إجراءات فعالة وفورية لمنع دخول اليهود الأجانب وشرائهم الأراضي . وكانت جماعة بنى موسى^(٢) قد أنشأت عام ١٨٩١ مستعمرة ديشوقوت ، كما قامت بنشاط واسع في الحقل التعليمي ، فأنشأت أول مدرسة عبرية للبنات في يافا ، ثم مدارس عبرية في القرى الزراعية . وقد استجاب الباب العالي لهذا النداء ، وجدد القيود المفروضة على هجرة اليهود إلى فلسطين في السادس عشر من شهر يوليو - تموز - عام ١٨٩١ ، ثم أصدر في آخر العام التالي (اليوم الثلاثين من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٩٢) قانوناً يحرم بيع

= الفلسطينية ، القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٤٥-٤٧ . هذا وطبقاً للكادر الإداري في الدولة العثمانية ، كانت الولاية يرأسها وال ، والولاية مقسمة إلى أودية ، على كل منها لواء أو متصرف ، واللواء مقسم إلى أقضية وعلى كل منها قائمقام ، والقضاء إلى نواح ، والناحية تنتظم عدداً من القرى .

(١) يلاحظ أن بعض الولايات من ناحية أخرى كانت تتبعها عدة متصرفيات : كولاية حلب التي كانت تتبعها متصرفيات : أرها ، ومرعش ، ودير الزور في بعض الأوقات ، ثم أصبح يطلق على بعض المتصرفيات اسم «اللواء» ، ودير اللواء «متصرف» .

(٢) أنشأ جماعة بنى موسى أحد هاعام . وكان عدد كبير من أعضاء هذه الجماعة من قادة حركة محبي صهيون . وزار أحد هاعام فلسطين مرتين . وقد تمت أول زيارة له في سنة ١٨٩١ نيابة عن لجنة أوبسا ، ثم زارها مرة أخرى في سنة ١٨٩٣ . وكان من أشد المتحمسين لشراء أراضٍ عربية في فلسطين ، وتوطين اليهود فيها ، كما نادى بالتركيز على الأعمال الثقافية . ولم تعش جماعة بنى موسى طويلاً : إذ حلت سنة ١٨٩٦ بسبب تضارب الآراء والنزاع بين شخصياتها .

أراضى الحكومة إلى اليهود بكافة جنسياتهم ، حتى ولو كانوا رعايا عثمانيين ^(١) .
المستعمرات الصهيونية الأولى :

على الرغم من الحظر الذى فرضه السلطان عبدالحميد الثانى على هجرة اليهود إلى فلسطين ، استطاع عشرون شاباً من يهود روسيا الوصول إليها عام ١٨٨٢ ، كانوا رواداً فى ميدان التوطن والاستغلال . وكانت أول مستعمرة تدعى «ريشون لوزيون» Richon Le Zion أى الأولى فى صهيون ، ثم تعاقب إنشاء مستعمرات مشابهة بجوار يافا ، ثم قام يهود روسيون آخرون بإقامة مستعمرة «بتاح تكفا» أى باب الأمل فى ذات المنطقة ^(٢) ، وفى الوقت ذاته أسس يهود من رومانيا مستعمرين زراعيين إحداهما فى «ريش بتاح» (الحجر الأساسى) بالقرب من صفد ، والأخرى فى سامارين على طريق حيفا ، وقام بعض يهود من بولندا بإنشاء مستعمرة بيسود حملاه (أساس الصعود) بالقرب من الحولة . وعلى هذا النحو استقر اليهود فى وقت قصير فى أربع مناطق : يهودا ، والسامرة ^(٣) ، وشمال الجليل وجنوبه حيث تجمعت فيها أغلب المستعمرات اليهودية ، ولم يكن أمراً سهلاً إنشاء هذه المستعمرات ويقاؤها لأن هؤلاء اليهود وغالبيتهم من دول أوروبية لم يعتادوا الجهد البدنى ، الذى تتطلبه فلاحه الأرض وموالة العناية بها ، كما كان الجو الحار نسبياً عائقاً لهم ، وكانوا يتعرضون لهجمات العرب من وقت لآخر كإجراء مضاد للنشاط اليهودى .

التمويل العالى الأوروبى للمستعمرات :

كان من المحتمل أن يفشل مشروع المستعمرات اليهودية فى فلسطين فى أواخر القرن التاسع عشر ، لأنها -بجانب هذه العوامل المعوقة - كان المشروع فى حاجة ماسة إلى جهات مالية تقوم بتمويله . وقد وجد أولئك اليهود مساعدات مالية من ثرى يهودى فرنسى هو البارون إدموند دى روتشيلد (١٨٤٥-١٩٣٤) ، الذى ظل يوالى هذه المستعمرات بتقديم منح سخية طيلة خمسين عاماً ، كما أسس مستعمرة تدعى عكرون فى الضفة الغربية لنهر الأردن ، أسكن فيها بعضاً من اليهود الذين تسللوا من جنوبى روسيا . وقد أظهر هؤلاء اليهود وفاءهم لكرم هذا الثرى فغيروا اسم مستعمرتهم إلى زكرون يعقوب تخليداً لذكرى والد البارون إدموند . وفى الوقت ذاته ، قام تسعة من أعضاء ريشون لوزيون بإنشاء مستعمرة جديدة ،

(١) دكتور محمود صالح منسى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٤ .

(٢) كان يهود القدس قد أسسوا هذه المستعمرة قبل ذلك بعدة سنوات ، ولكنهم غادروها لظهور الملايا بها ، ثم عانوا إليها بعد ذلك .

(٣) يهودا مصطلح عبرى معناه الجزء الجنوبى من فلسطين ، وسامرا مصطلح عبرى أيضاً معناه الجزء الشمالى منها . ويورد هذان المصطلحان فى بعض المراجع : يهودية وسامرية .

سميت قطرة Katra أو جدارة Gederah في يهودا ، وجعلوها ذات اكتفاء ذاتي (١) .

ومضى البارون إدموند دي روتشيلد في تمويل عمليات التمسك اليهودي إلى فلسطين؛ ابتغاء توطين اليهود فيها ، على الرغم من الحظر الذي أقامه الباب العالي على دخول اليهود إلى فلسطين . وفي الفترة من ١٨٩٠ إلى ١٨٩٥ تم إنشاء خمس مستعمرات أخرى ، وكانت مستعمرة حديدية هي أهم هذه المستعمرات ، وكانت المنطقة التي أنشئت فيها في السامرة مليئة بالمستنقعات ومات كثيرون من اليهود بسبب الملاريا . وقام المهاجرون بتخفيف المستنقعات وغرسوا فيها عدداً كبيراً من شجر الكافور ، وأصبحت صالحة للزراعة واستغلّت الأراضي في زراعة القمح وأنتجت محاصيل وفيرة منه ، كما زرع عنب النبيذ الفرنسي بإشراف خبراء .

وفي الجليل زرعت البساتين وأشجار توت دودة القز وأقيمت عدة مخاضى كثيرة للنبيذ لتعتيقه في مستعمرة ريشون لوزيون ، وكان البارون إدموند دي روتشيلد يشتري في معظم الأحوال النبيذ كله لحسابه ، وأنشأت جماعة من محبي صهيون شركة نبيذ الكرمل سنة ١٨٩٦ ونجحت نجاحاً بعيداً في تسويقها في أوروبا وأمريكا وبلاد الشرق . والواقع أن معظم المستعمرات كانت تركز نشاطها الزراعي في إنتاج الكروم ، ولم تكن المعونات المالية التي كان يقدمها البارون إدموند دي روتشيلد مقصورة على الإسكان ، بل شملت أيضاً بناء المعابد والمدارس والمستشفيات والملاجئ للطاعنين في السن (٢) .

تفسير قيام المستعمرات الصهيونية الأولى :

وكان مما ألهم قلوب اليهود حماساً لقضيتهم وتصميماً على الهجرة إلى فلسطين نداء بعنوان «التحرر الذاتي Auto-Emancipation» ، وجهه سنة ١٨٨٢ ليون بنسكر Leon Pinsker ، وهو طبيب روسي من أودسا صور فيه الإذلال والبؤس واليأس ، الذي تعرض له يهود روسيا عقب مقتل إسكندر الثاني قيصر روسيا عام ١٨٨١ ، وقال في ندائه إن حالة الانحطاط التي تدهور إليها اليهود ، إنما ترجع إلى أن الشعب اليهودي لم يعد شعباً حياً ، بل أصبح اليهود أجانب أينما حلوا ، مشفقين في كل مكان حتى أنهم غدوا محقرين . ورأى أن العلاج الصحيح الوحيد هو إنشاء قومية يهودية في أرضها الخاصة بها . وهذا هو التحرر الذاتي لليهود ، تحررهم كافة بين الأمم بتجميع اليهود في دولة خاصة بهم ، واشترط - لكي يظلوا في دولتهم الجديدة أبد الأبد - حتى لا يضطروا إلى الانتقال من مهجر إلى مهجر - أن تكون الدولة المرتجاة من الاتساع وتعدد الموارد الطبيعية والاقتصادية فيها بحيث تكفي جموع اليهود . وفي هذه الدولة يتعارن رجال العلم والمال والسياسة على النهوض بها قدماً ، وكان

(١) دكتور حسن صبرى الخولي ، رسالة دكتوراة تحت إشرافنا ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٢٩-٣٠ .

(2) Cohen Israel, A Short History of Zionism, London, 1951, p. 28.

ينسكرو مشدوداً بعقله وعاطفته إلى فلسطين كي تكون الدولة القومية المنشودة ، واقترح تكوين شركة يهودية تجمع بين أعضاء مجلس الإدارة وأثرياء اليهود ، تشتري مساحات شاسعة من الأراضي في فلسطين ، ثم تقسم قطعاً صغيرة وتباع بثمن أعلى من ثمنها الأصلي بقدر قليل تشجيعاً لليهود على شرائها وتقديم تسهيلات لهم ، وتستخدم المبالغ المتحصلة من بيع الأرض مضافاً إليها التبرعات المالية التي يقدمها أثرياء اليهود ، ويتكمن من حصيلة هذه وتلك صندوق لإسكان المهاجرين الفقراء .

وبجانب هذه الوسائل العملية .. اتجه التفكير السياسي لدى ينسكرو إلى إيجاد نوع من الحصانة السياسية للدولة اليهودية ، المرتجاة عن طريق موافقة الحكومات الأوروبية وغير الأوروبية على إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين ، ثم قيام هذه الحكومات بتقديم المساعدات في شتى صورها وأشكالها إلى الدولة اليهودية في فلسطين^(١) . وكان هذا النداء بما تضمنه من حلول عملية وآراء سياسية خطة عمل لزعماء الصهيونية وحافزاً لليهود العالم على تركيز الهجرة اليهودية إلى فلسطين على الرغم من وقوف السلطان عبدالحميد الثاني في وجهها ، كما أن هذا النداء يفسر قيام المستعمرات الصهيونية الأولى في فلسطين بما عرف عن اليهود من تعدد الوسائل والحيل والموارد والأنصار والتحايل على القانون لتحقيق أهدافهم .

المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧ :

على هذا النحو عاصرت الدولة العثمانية مولد ثم نشأة الحركة الصهيونية . وقد اشدت ساعد هذه الحركة بعقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال بسويسرا الذي تنادى إلى عقده تيودور هرتزل Theodor Herzl الصحفي النمساوي اليهودي .

واستمرت جلسات المؤتمر ثلاثة أيام هي ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ من شهر أغسطس - آب - عام ١٨٩٧ ، وحضره ما يقرب من مائة وخمسين مندوباً من اليهود جاءوا من مختلف أنحاء العالم . واتخذ المؤتمر عدة قرارات هامة يطلق عليها برنامج بال ، ويتضمن إنشاء دولة يهودية في فلسطين تجمع شتات اليهود من أنحاء العالم ، وإنشاء المنظمة الصهيونية العالمية ونفوية الروح القومية اليهودية ، والاهتمام بتدريس ونشر اللغة العبرية بين جميع يهود العالم ، وإنشاء معهد عال للدراسات العبرية في بيت المقدس أو يافا يهتم بدراسة الأدب العبري والتاريخ العبري .

وفي هذا المؤتمر ، وضع شعار العلم الرسمي للدولة اليهودية المرتجاة ونشيد قومي لها ، كما تقرر أن يدفع كل يهودي يعتقد مبادئ الحركة الصهيونية مبلغاً زهيداً كل سنة ، حددت قيمته بشكل واحد^(٢) . ويعد عقد المؤتمر الصهيوني الأول توالى عقد المؤتمرات الصهيونية

(١) دكتور حسن صبري الخولي ، رسالة دكتوراه تحت إشرافنا ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٢٦-٢٨ .

(٢) الشيكل Shekel عملة يهودية كانت تعادل شائنين وستة بنسات . وتستخدم هذه اللفظة أيضاً للتعبير عن وحدة في الموازين في المجتمع اليهودي ، وهي تعادل نصف رطل ، والكلمة مشتقة من اللفظة العبرية «شكال» .

بصفة رتيبة سنوياً أول الأمر ثم مرة كل سنتين . وسرعان ما اتسع نطاق الحركة الصهيونية واشتد ساعدها ، ودخل زعمائها وأقطابها في اتصالات مختلفة الصور والأشكال مع الحكومات الأوروبية لمساندتها في تنفيذ برنامج بال ، وهكذا تطورت أطماع اليهود : فبعد أن كانوا يتطلعون إلى الإقامة في فلسطين والاستقرار تحت الحكم العثماني .. قفزت أطماعهم إلى الاستيلاء على فلسطين وإقامة دولة عنصرى فيها ، وجاء مؤتمر بال الأول فرفع آخر حجاب عن وجه اليهود^(١) .

السلطان عبد الحميد يواجه زعيماً صهيونياً خطيراً :

كان من نتائج المؤتمر الصهيونى الأول أن وجد هرتزل نفسه يتزعم قولاً وعملاً حركة سياسية عنصرية هى الحركة الصهيونية ، وقد نصبه هذا المؤتمر رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية^(٢) . وكان على السلطان عبد الحميد أن يواجه فى خلال الثلاث عشرة سنة التى تبقت له فى الحكم منذ عقد مؤتمر بال الأول ، حتى تم عزله (١٨٩٧-١٩٠٩) المؤامرات الصهيونية والمنظمات الصهيونية لتهويد فلسطين كخطوة أولى لإقامة الدولة اليهودية فيها . ولذلك .. فإن دراسة موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية تتصل اتصالاً وثيقاً بتاريخ هذا السلطان ، الذى تصدى لها بكل ما أوتى من عزيمة ودبلوماسية ؛ مما أضاف إلى أعبائه فى الحكم وفى مواجهة الزحف الاستعماري الأوروبى على ممتلكات الدولة أعباء ثقلاً جديدة فى مواجهة الصهيونية العالمية .

كان هرتزل من أخطر زعماء الصهيونية فى العالم .. تميز تفكيره السياسى بالمرونة والحصافة ، وتعدد الجوانب فضلاً عن حذقه التضيلى والخداع والنفاق . كان إذا سد فى وجهه طريق سلك طريقاً آخر ، وإذا تخلت عنه دولة أوروبية كبرى كان يعلق عليها آمالاً كباراً فى مساعدة الحركة الصهيونية اتجه إلى دولة أخرى من الدول العظمى . وكان يسعى سعياً حثيثاً لحشد أكبر عدد ممكن من الدول لمناصرة حركته أو العطف عليها أو عدم الوقوف منها موقفاً سلبياً ، وفوق هذا كله وضع فى مخططة الاتصال بالسلطان عبد الحميد الثانى . وكان يظهر فى تفكيره السياسى أخلاق اليهودى القبح .. فهو يتخذ من المال وسيلة لإغراء السلطان على الإذن فى إنشاء الدولة اليهودية المرتجاة فى فلسطين ، زاعماً له أن الحركة الصهيونية هى دعوة إنسانية سلمية لا تنطوى على أى أخطار تهدد الدولة العثمانية . وأكد له كذباً وزوراً أن الصهيونيين يكونون ولاء للدولة العثمانية ولسطانها ، وأن المنظمة الصهيونية اعترضت على كل تسلسل يهودى مهم كان ضئيل الحجم إلى فلسطين دون موافقة السلطة صاحبة السيادة على البلاد وهى الدولة العثمانية . وأكد له أن فوائد جمة ستجنبها الدولة العثمانية ، إذا أذنت لليهود فى إقامة دولة ذات حكم ذاتى فى فلسطين ؛ لأن اليهود عنصر نشيط دعوب على العمل يحترم

(١) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢ .

(٢) تستخدم هذه الحروف الثلاثة من قبيل الاختصار بديلاً لهذه العبارة

القانون ، له خبرات واسعة وعميقة في شتى ميادين العلم ومجالات العمل . كما أن أثرياء اليهود على استعداد لسحب رؤوس أموالهم من البلاد ، التي يقيمون فيها ونقلها إلى فلسطين لاستخدامها في استغلال موارد البلاد الاقتصادية . وفي ثانياً الحديث ، عرض على السلطان تقديم معونات مالية ضخمة ، تساعد على تدعيم المركز المالي للحكومة العثمانية ، في وقت كانت موازنة الدولة تعاني عجزاً يعكس أزمت مالية عنيفة تهدد بانهايار الاقتصاد العثماني .

اتساع نطاق الحركة الصهيونية :

اتسع نطاق الحركة الصهيونية في خلال سنة واحدة - وهي الفترة التي انقضت منذ عقد مؤتمر بال الأول إلى اجتماع مؤتمر بال الثاني : أغسطس - آب ١٨٩٧ وأغسطس ١٨٩٨ - وكانت سكرتارية المؤتمر الأول قد نشرت كتيبات باللغات الأوروبية توضح أهداف الحركة الصهيونية ، كما نشرت نسخاً منها باللغات العربية والعبرية والفرنسية لتوزيعها على يهود الشرق . وسرعان ما أسست في هذه الفترة جمعيات صهيونية جديدة ، بلغ عددها سبعمائة وثمان وثلاثين جمعية في الدول الأوروبية ، وأسس يهود مصر جمعيتين ويهود أمريكا خمسين جمعية . وكان يهود روسيا أكثر يهود أوروبا تقبلاً للحركة الصهيونية ، وكان يليهم يهود النمسا ثم يهود رومانيا .. أما في أمريكا فكانت نيويورك معقلاً للحركة الصهيونية منذ هذا الوقت المبكر؛ إذ تأسست في هذه المدينة وحدها ست وعشرون جمعية صهيونية ، كما تكونت في شيكاغو ثماني جمعيات ، وتوزعت يقية الجمعيات على سائر المدن الأمريكية .

ومن أهم المؤتمرات الصهيونية (١)، المؤتمر الصهيوني الخامس في مدينة بال، وقد عقد في الفترة من ٢٦ إلى ٣٠ ديسمبر - كانون أول - عام ١٩٠١ ، وتم فيه إقرار قانون النظام الأساسي للمنظمة الصهيونية . وبمقتضى هذا القانون أصبح عقد المؤتمرات الصهيونية يتم مرة كل سنتين بدلاً من اجتماعها السنوي ، على أن تستمر اجتماعات اللجان المنبثقة عن المؤتمرات الصهيونية ، كما تقرر جواز إنشاء جمعيات صهيونية في أى منطقة؛ إذا طلب ذلك خمسة آلاف صهيوني ممن يدفع كل منهم شيئاً واحداً وهو الاشتراك السنوي .. وقرر هذا المؤتمر تقديم إعانة مالية لدار الكتب القومية اليهودية في بيت المقدس .

وقد زخرت هذه المكتبة بعدد من المصادر والمراجع والدوريات ، وأصبحت فيما بعد نواة المكتبة العامة للجامعة العبرية في بيت المقدس والتي شيد لها مبنى خاص عند إنشاء مباني الجامعة . كما قرر المؤتمر الشروع في وضع دائرة معارف يهودية وإنشاء مكتب لشئون الإحصاء ، وقرر أيضاً أن تعليم الشعب اليهودي على أسس قومية هو أحد العناصر الرئيسية في البرنامج للصهيوني . وأهاب المؤتمر بجميع الصهيونيين أن يعمل كل منهم في دائرته ؛ لتحقيق هذه الغاية .

(١) دكتور حسن صبرى الخولى ، رسالة دكتوراه تحت إشرافنا . مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٧٥ .

تجديد فرض القيود على هجرة اليهود إلى فلسطين عام ١٩٠٠ :

وصل إلى علم السلطان عبدالحميد أن أفواجاً من اليهود لا تزال تتعاقب على فلسطين ؛ إذ كان فتاवल بعض الدول الأوروبية فى فلسطين يتدخلون لصالح اليهود ، مستغلين قيام نظام الامتيازات الأجنبية ، ولأن اليهود كانوا يصطنعون بعض الوسائل للتحايل على القانون . ورأى السلطان منع هذا التدفق اليهودى على فلسطين ؛ فأصدر فى نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٠٠ ، فرماناً يحدد إقامة الزائرين اليهود لفلسطين بمدة لا تتجاوز ثلاثة شهر . وعلى الرغم من أن السلطان كان قد أصدر فرماناً على غرار ه سنة ١٨٨٧ ، ثارت ثائرة اليهود على فرمان عام ١٩٠٠ ودفعوا بعض الحكومات الأوروبية وغيرها إلى الاحتجاج عليه لدى السلطان . فأبلغت الحكومة الإيطالية الباب العالى أنها لا تميز بين رعاياها المسيحيين ورعاياها اليهود ، ومن ثم فهي تحتج على صدور هذا فرمان . وتلاها السفير الأمريكى الذى قدم فى اليوم الثامن عشر والعشرين من شهر فبراير - شباط - عام ١٩٠١ احتجاجاً مماثلاً باسم حكومته ، وكذلك نهجت الحكومة البريطانية هذا النهج . وكان رد الباب العالى أن فرمان سنة ١٩٠٠ ليس أمراً جديداً فهو تجديد للفرمان سابق مماثل .

ورأى السلطان عبدالحميد كى يخفف من حدة هذه الاحتجاجات ، أن يقابل فى قصره هرتزل زعيم الحركة الصهيونية . وتمت المقابلة فى اليوم السابع عشر من شهر مايو - أيار - عام ١٩٠١ ، وكان معه اثنان من أقطاب الحركة الصهيونية ثم قابله السلطان مرتين أخريين ، وعرض هرتزل على السلطان مشروعاً صهيونياً خطيراً . ويلاحظ أنه كان يتلاعب بالألفاظ ليخفى حقيقة أغراضه .. اتبع السياسة المرننة فكان يتكلم تارة عن الدولة اليهودية فى فلسطين ، وتارة أخرى عن الوطن القومى اليهودى فى فلسطين ، وتارة ثالثة يتكلم عن الكيان اليهودى فى فلسطين ؛ مما يدل على أنه كان كاذباً مخادعاً منافقاً يتبع الازدواجية فى أسلوب العمل .

مشروع صهيونى يعرضه هرتزل على السلطان :

وصلت المباحثات بين السلطان عبدالحميد الثانى وهرتزل إلى جوهر الموضوع . فعرض الأخير أن يصدر السلطان فرماناً بالسماح لليهود الأجانب بالهجرة إلى فلسطين والوطن فيها ومنحهم قسماً وافراً من الحكم الذاتى ، وأن يدفع اليهود - عند صدور فرمان - مبلغاً كبيراً من المال قدر بثلاثة ملايين من الجنيهات ، وقدرته بعض المراجع بمليونى جنيه . ثم يقومون بعد ذلك بدفع جزيرة سنوية للدولة . وكان المشروع الصهيونى يقوم فى خطوطه الأساسية وفق النظام المعمول به فى جزيرة ساموس^(١) ، وهى جزيرة يونانية من جزر إيجة كان قد أسهم عدد

(١) بلغ عدد سكان هذه الجزيرة فى الحرب العالمية الأولى ٤٨,٦٠٠ نسمة .

دكتور حسن صبرى الشولى ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٧٤ .

كبير من سكانها فى الكفاح المسلح ، الذى خاصه اليونانيون من أجل استقلال بلادهم عن الدولة العثمانية فى العشرينيات من القرن التاسع عشر . ولما قررت بريطانيا وفرنسا والروسيا فى سبتمبر - أيلول - عام ١٨٣١ منح اليونان الاستقلال التام ، وأن تمتد حدود المملكة اليونانية من خليج آرثا Arta إلى فوليا Vola ، ظلت جزيرة ساموس خارجة عن نطاق المملكة اليونانية المستقلة الوليدة . وبناء على تدخل بريطانيا وفرنسا والروسيا أصدر السلطان محمود الثانى فرماناً فى اليوم الحادى عشر من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٣٢ ، قرر فيه منح سكان جزيرة ساموس الحكم الذاتى ، ونص الفرمان على أن يتولى حكمها أمير مسيحي له جيشه الخاص وعلمه الخاص ومجالس الإدارة المحلية ، على أن يدفع هذا الحاكم اليونانى للدولة العثمانية جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف قرش (١) .

كان السلطان عبدالحميد الثانى أدهى من أن يستجيب لهرتزل ، وكان فى خلال مقابلاته مع هرتزل مستمعاً أكثر منه متكلماً . وكان يرخى لهرتزل فى حبال الكلام ليحمله يصرح بكل مافى جميعته من آراء ومشروعات ومطالب ، ويتظاهر العاهل العثمانى بمسايرته مما جعل هرتزل يعتقد أنه على وشك النجاح فى مهمته ، ثم يتبين له فى نهاية الأمر أنه فى جهوده مع السلطان عبدالحميد يسير فى طريق مسدود . سلك مرة جمال الدين الأفغانى عن رأيه فى هذا السلطان وكان يجالسه كثيراً ، فقال : إن السلطان عبدالحميد لو وزن بأربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم : ذكاء ودهاء وسياسة ، خصوصاً فى تسخير جلوسه ... ولاعجب إذا رأيناه يذلل مابقاء فى ملكه من الصعاب من دول الغرب ، ويخرج المناوى له من حضرته راضياً عنه وعن سيرته مقتنعاً بحجته ، سواء فى ذلك الملك والأمير والوزير والسفير ... (٢) .

ويعد أن استقبل السلطان هرتزل ثلاث مرات رفض أن يقابله بعد ذلك وأنعم عليه بالنيشان المجيدى ، ويعترف هرتزل بأنه هو الذى التمس من السلطان أن يمنحه وساماً من رتبة رفيعة . وكان هدفه من هذا الانعاس هو خداع الذين يتصلون به ، فقال فى يومياته : إذا رفض السلطان أن يستقبلنى فليعطنى على الأقل دليلاً مرئياً على أنه بعد أن استمع إلى اقتراحى ورفضه ، فإنه لا يزال يريد أن يبقى على نوع من العلاقة بيننا : مثلاً وساماً من رتبة عالية يبرهن على هذا ... إنى لم أهتم يوماً بالأوسمة ، ولا أهتم بها الآن . ولكنى أريد شاهداً أمام من

(١) يذكر ثيولير بيرر أن هرتزل عرض على السلطان تقديم مبلغ كبير من المال ، فى مقابل أن يصدر السلطان فرماناً لشركة أراض يهودية للاستيطان فى فلسطين وتطوير الزراعة فيها تمهيداً لإقامة جمهورية أرستقراطية على غرار جمهورية البندقية السابقة ، انظر :

Nevil Barbour, Nisi Dominus, A Survey of the Palestine Controversy, London, 1946, pp. 45-48.

(٢) أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، الطبعة الثالثة القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ١٢٥ .

اتعامل معهم في لندن على أنني حزت قبولا لدى السلطان،^(١) .

ومع ذلك فإن للصبر حدوداً . وضاق السلطان عبد الحميد ذرعاً بالضغط المتواصل الذي مارسه هرتزل على الحكومة العثمانية ؛ من أجل فتح أبواب فلسطين للهجرة لليهودية . وكان هرتزل قد عهد إلى أحد عملائه واسمه نفلنسكي Newlinsky بأن يعرض على السلطان رشوة بمبلغ مليوني جنيه مقابل الحصول على فلسطين^(٢) ، فأراد السلطان أن يحسم الموقف بصفة قطعية .. فأدلى إلى هذا الوسيط بتصريح كان من القوة والصد والخطورة ما جعل هرتزل يدونه في مذكراته ، وكان مما جاء على لسان السلطان : انصحوا هرتزل بالابتعاد عن خطوات جدية في هذا الموضوع . إنني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض . فهي ليست ملك يميني ، بل ملك شعبي ، لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض ، ورواها بدمه ، فليحتفظ لليهود بملايينهم . وإذا مزقت إمبراطوريتي يوماً فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلائهم ، أما وأنا حي فإن عمل المبعض في بدني لأهون علي من أن أرى فلسطين قد بترت من إمبراطوريتي .. وهذا أمر لا يكون ، إنني لأستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة^(٣) .

لقد كان في حكم الاستحالة أن يستجيب السلطان عبد الحميد لإغراءات الصهيونيين المالية ؛ لأن مثل هذه الاستجابة تتعارض تعارضاً جذرياً مع سياسة الجامعة الإسلامية ، التي تنادى إليها واحتضنها وغدت تشكل ركناً أساسياً في سياسته الإسلامية واستهدف منها استقطاب العالم الإسلامي؛ للوقوف إلى جانبه في وجه الزحف الاستعماري الأوروبي على الدولة .. فإن خضوعه للإغراءات المالية التي يلوح بها الصهيونيون له كان يعد انتحاراً سياسياً لعبد الحميد وتناقضاً صارخاً لسياسة الجامعة الإسلامية .

عقد أول مؤتمر صهيوني في فلسطين سنة ١٩٠١ :

ومن أخطر المجالات التي امتد إليها النشاط الصهيوني في عام ١٩٠١ اجتماع أول مؤتمر صهيوني في فلسطين ، وكان الهدف منه أن يكون صورة أخرى من صور مؤتمر بال . وقد أعد له مناجم أوسسكين Ussikkin Menachem Mendel (١٨٣٣-١٩٤١) ، وهو أحد أقطاب الصهيونيين روسي المولد والنشأة ، وأقام بعض الوقت في ثغر أودسا ، وكان هذا الثغر مقراً لنشاط صهيوني مكثف .

(١) دكتور أحمد طربين : فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار (١٨٩٧-١٩٢٢) من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٥٦-٥٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٣) صالح مسعود أبو بصير : جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن . رسالة ماجستير في التاريخ الحديث تحت إشرافنا ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٣١ .

اجتمع المؤتمر في مستعمرة «زخرون يعقوب» ، واستهدف تنظيم وتوحيد صفوف يهود فلسطين، بعد أن لوحظ أن الانقسام بين أفراد الطائفة اليهودية كان حاداً وعنيفاً . وقد وضع المؤتمر تنظيمًا يضم جميع يهود فلسطين ممن بلغ كل واحد منهم الثامنة عشر عاماً ، وأن يدفع كل عضو اشتراكاً سنوياً حدد بفرنك واحد ، وأن يجتمع المؤتمر مرة كل سنة ، وأن يتم اختيار أعضاء المؤتمر بالانتخاب ، فتقوم كل مجموعة من السكان قوامها خمسون يهودياً بانتخاب مندوب عنها يمثلها في المؤتمر ، وقسمت فلسطين إلى ستة أقسام ^(١) ، وتقرر تشكيل عدة لجان تنبثق عن المؤتمر وتعمل طوال العام بصفة رتيبة .

الدولة تمنع عقد مؤتمرات صهيونية في فلسطين :

كان عقد هذا المؤتمر الصهيوني في فلسطين بمثابة عملية جس نبض ، قام بها الصهيونيون ليتبنوا موقف الدولة العثمانية من فكرة عقد مؤتمرات صهيونية في فلسطين بدلاً من العواصم الأوروبية . ولاشك أن عقد هذه المؤتمرات داخل فلسطين كان يعد كسباً معزياً للحركة الصهيونية ، وشداً لليهود قاطبة إلى فلسطين بصفتها أرض الميعاد التي تجذبهم دينياً ، وبصفتها أرض الخلاص التي تستقطبهم سياسياً لإقامة دولة فيها تقيم شرور الاضطهاد ، وفيها أيضاً قضاء على ما يسمى «البديل الإقليمي» ، Territorial Alternative ؛ أى طالما كانت الدولة العثمانية تضع العراقيل أمام هجرة اليهود إلى فلسطين .. فلا مناص من اختيار إقليم بديل يكون موطناً للدولة اليهودية المرتجاة ، وكان من بين الأقاليم البديلة : سينا ، أو قبرص ، أو المحمية البريطانية في شرقي إفريقيا ، أو الأرجنتين ، أو إكوادور ، أو بيرو ، أو أستراليا ، أو غينيا الجديدة ، أو جزيرة مدغشقر .

تنبه الباب العالي إلى أنه أمام امتحان سياسي خطير ؛ فالصهيونيون يمدون نشاطهم في عقد المؤتمرات إلى داخل فلسطين ، وكان عقد مؤتمرهم الأول فيها سنة ١٩٠١ سابقة بدرجة على في السنوات التالية . ولذلك قرر الباب العالي وقف هذا النشاط الصهيوني السياسي الدولي في فلسطين ، فلم ينعقد المؤتمر بعد ذلك في فلسطين ولم تجتمع لجانها ، وإن ظل الصهيونيون يواصلون عقد مؤتمراتهم في عواصم أوروبا .

(١) كانت هذه الأقسام الستة على النحو التالي :

(أ) بيت المقدس ، والخليل ، ومثقة ، وعرطوف .

(ب) المستعمرات حول الرملة .

(ج) يافا ، بتاح تكفاء .

(د) الناصرة ، بطبرية . والمستعمرات القائمة في هذه المنطقة .

(هـ) الحضير ، وزخرون يعقوب ، وحيفا .

(و) صفد ، ومستعمرات الجليل .

مشروعات صهيونية لغزو فلسطين مالياً وبشرياً :

على الرغم من جهود السلطان عبدالحميد للحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، مضت الحركة الصهيونية ، تمارس وضع خططها في أوروبا لتنفيذها في أرجاء فلسطين بإنشاء أجهزة ، تتولى عمليات شراء الأراضي العربية وتمويل عمليات الشراء وتوزيع الأراضي على فقراء المهاجرين ابتغاء زيادة كثافة السكان اليهود . ولم تعبأ بقيود السلطان عبدالحميد ؛ إذ كانت تعلم علماً يقينياً بالمشكلات التي تكثيرها في وجهه للدول الأوروبية والشعوب المسيحية الخاضعة للدولة ، وكان هذه الدول والشعوب كانت على اتفاق وموعد مع أقطاب الحركة الصهيونية لتصعيد الأزمات أمام السلطان ، حتى تمتطع الحركة الصهيونية التسلل بأجهزتها ومشروعاتها إلى فلسطين في غفلة عن السلطان . وكان من بين الأجهزة الصهيونية التي تسربت لوانا إلى فلسطين : منظمة الاستعمار اليهودي في فلسطين ، وقد أنشأها المليونير اليهودي إدmond روتشيلد سنة ١٨٨٢ ، ولكنها لم تعلن رسمياً إلا في عام ١٩٠٠ ، وكانت تقدم الأموال لليهود الراغبين في الهجرة إلى فلسطين ، وتشتري لهم الأراضي وتنشئ المستعمرات ، وقد أنشأت اثنتين وأربعين مستعمرة هي أقدم المستعمرات اليهودية في فلسطين .

وأنشئ في عام ١٩٠١ الصندوق القومي اليهودي - كيرن كايمت - Keren Hayesod ، ويتكون رأس ماله من التبرعات والإعانات والصدقات ، ووزعت صناديق التبرعات بكثرة ملحوظة في معابد اليهود وأنديتهم ومدارسهم ومكاتبهم في جميع أنحاء العالم . وتأسس سنة ١٩٠٢ بنك أنجلو - فلسطين في لندن ، وأنشئ أول فرع له في القدس سنة ١٩٠٣ ، ثم امتدت فروعه إلى أكثر مدن فلسطين . وعلى الرغم من أنه بنك صهيوني ، لم يكشف عن طابعه الصهيوني مما ساعده على القيام بدور هام لخدمة الصهيونية ، وكان يمد المستعمرات والشركات والمؤسسات الصهيونية بالأموال والقروض ، ويتلاعب باقتصاديات العرب ، وهو اليوم البنك الرئيسي لإسرائيل (١) .

عبدالحميد يرفض إنشاء جامعة عبرية في فلسطين :

وقف السلطان عبدالحميد الثاني في وجه مشروع صهيوني ميساسي ، أضفت عليه الصهيونية ثوباً ثقافياً هو إنشاء جامعة عبرية في بيت المقدس ، استهدفت منه استقطاب عدد كبير من الأساتذة اليهود في جامعات العالم والباحثين اليهود إلى فلسطين لتكون هذه الجامعة دعامة علمية للدولة اليهودية المرتجاة في فلسطين ، ووسيلة للتسلل الثقافي الصهيوني على أعلى المستويات إلى فلسطين .

(١) دكتور حسن صبرى الخولي ، رسالة دكتوراه تحت إشرافنا ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٠٢-١٠٤ .

كان تيودور هرتزل قد تقدم إلى السلطان عبدالحميد الثاني بمذكرة مؤرخة في اليوم الثالث من شهر مايو - أيار - عام ١٩٠٢ ، طلب فيها أن يأذن له في إنشاء جامعة عبرية في بيت المقدس ، تفتح أبوابها للطلبة العثمانيين ، بدلاً من إيفادهم في بعثات علمية إلى الجامعات الأوروبية ، وصور للسلطان دافعين شريفيين يكمنان وراء هذا المشروع .. كان أحدهما دافعاً سياسياً وكان الآخر دافعاً إسلامياً . أما الدافع الأول فكان حرص هرتزل الصهيوني على عدم تعريض الطلاب العثمانيين في أوروبا لأخطار الغوايات السياسية ، فيعتقدون آراء ثورية قد يطالبون بتطبيقها في الدولة بعد عودتهم من أوروبا ، وتكون الدولة أمام أحد أمرين : إما تعريض الطلبة العثمانيين لأخطار هذه الاتجاهات السياسية الثورية وإما أن تحول بينهم وبين مناهل العلم في أوروبا .

أما الدافع الثاني .. فإن الطلبة العثمانيين قد يبتعدون عن التقاليد الإسلامية ؛ بمعنى أن الحياة الخلقية المأجنة التي تسود مدن أوروبا قد تفتتهم ، ومضى هرتزل يقول في مذكرته : إننا معشر اليهود نلعب دوراً هاماً في الحياة الجامعية في جميع أنحاء العالم ، والأساتذة اليهود يملأون جامعات البلدان ، كما أن هناك عدداً كبيراً من العلماء والمتخصصين في جميع الحقول التعليمية . لهذا فإننا نستطيع أن نقيم جامعة يهودية في إمبراطوريتكم ، ولكن في القدس مثلاً ، وعندئذ لن يضطر الطلاب العثمانيون إلى الذهاب إلى الخارج ، بل يبقون في بلادهم ويتلقون فيها أفضل التدريب ، وهم خاضعون لقوانين بلادهم وتقاليدها . والجامعة اليهودية تقوم بتقديم أفضل ما تقدمه أحسن الجامعات ومدارس التدريب المهني ومدارس الزراعة ، ولن تقدم مثل هذه المؤسسة إلا ما هو الأفضل ، وبذلك تقوم بدورها في خدمة العلم والطلاب والبلاد ، (١) .

والواقع أن هرتزل لم يكن يهدف إلى فتح آفاق جديدة للتعليم الجامعي والمهني أمام الشباب العثمانيين ، بقدر ما كان يطمح في استدراج السلطان عبدالحميد ؛ كي يأذن في إنشاء جامعة عبرية تصفى عليها الدولة العثمانية صبغة شرعية ، وتغذيها الحركة الصهيونية بأساتذة صهيونيين وأموال صهيونية كي تغدو مركز إشعاع سياسي ثقافي صهيوني في فلسطين . ولهذا رفض السلطان عبدالحميد المشروع الصهيوني جملة وتفصيلاً ؛ لأنه رأى فيه تمكيناً للحركة الصهيونية في فلسطين .

وإذا كان هرتزل قد توفي في اليوم الثالث من شهر يوليو - تموز - عام ١٩٠٤ ، فقد ظلت فكرة إنشاء جامعة عبرية في بيت المقدس حية في نفوس أقطاب الحركة الصهيونية من بعده .. فاستطاعوا أن يضعوا الحجر الأساسي لمباني هذه الجامعة ، قبل أن تنتهي الحرب العالمية الأولى حين وفدت إلى فلسطين البعثة الصهيونية في شهر أبريل - نيسان - عام

(١) انظر نص هذه المذكرة في : وزارة الإرشاد القومي ، الهيئة العامة للاستعلامات ، ملف وثائق فلسطين .
جزءان ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ج١ ، وثيقة رقم ٥١ ، ص ١٣٩ .

١٩١٨ لاتخاذ الخطوات العملية لإنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين ؛ تنفيذاً لتصريح آرثر جيمس بالفور Arthur James Balfour بتشجيع الهجرة اليهودية ، وإنشاء الجامعة العبرية ، وإقامة مستعمرات جديدة لتوطين المهجرين اليهود وغير ذلك من خطوات تهويد فلسطين . وكان بالفور قد أدلى ، بصفته وزيراً للخارجية بتصريح خطير في مجلس العموم البريطاني بجلسة ١٩ من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩١٧ جاء فيه «ترجو حكومة حضرة صاحب الجلالة أن يكون إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين من بين نتائج الحرب الحالية (الحرب العالمية الأولى)» .

"His Majesty's Government hope that the establishment in Palestine of National Home for the Jewish people will result from the present War (١) .

وقد نجح حاييم ويزمان Haim Weizman رئيس البعثة الصهيونية في الحصول على موافقة بالفور على أن تضع البعثة حجر الأساس لمباني الجامعة العبرية ، على أرض شاسعة تقع على جبل سكوبس Mount Scopus ، واشترط وزير الخارجية أن تحصل البعثة على تصريح من السلطات العسكرية البريطانية في فلسطين بإقامة مباني الجامعة في هذا المكان . ولما فاتح رئيس البعثة في شهر مايو - أيار - عام ١٩١٨ الجنرال اللنبي Allenby القائد العام للقوات البريطانية في هذا الموضوع .. لم يجده متحمساً لهذا الموضوع ، أو بتعبير أدق لهذا التوقيت على أساس أن الحرب كانت تجتاز فترة حرجة بالنسبة لبريطانيا وحليفاتها . وكان الألمان قد أحرزوا انتصارات عسكرية واقتربوا من باريس ، ولم تنجح محاولات حاييم ويزمان في زحزحة القائد العام عن موقفه المعارض .. إلا بعد أن أبرق الأخير إلى لندن يطلب تعليماتها ، وأبرقت له بالموافقة .

وأقيم في اليوم الرابع والعشرين من شهر يوليو - تموز - عام ١٩١٨ الاحتفال بإرساء الحجر الأساسي في مباني الجامعة . وقد وضعت أساساتها من اثني عشر حجراً بعدد أسباط بني إسرائيل ، وافتتحت الجامعة رسمياً في أول أبريل - نيسان - عام ١٩٢٥ في حفل عالمي رأسه بالفور صاحب التصريح المشهور ، وأنشئت بها نباعاً مدرسة الدراسات الشرقية ومعهد للميكروبات ومعهد للكيمياء الحيوية وأصبح المعهدان الأخيران نواة لكلية العلوم . وأنشئ أيضاً معهد للدراسات اليهودية .. وحول مستشفى روتشيلد الكبير في بيت المقدس إلى معهد للبحوث الطبية ، ثم تحول إلى كلية للطب ، وكانت هناك محطة للتجارب الزراعية يعمل فيها عدد من الاختصاصيين .. فجعلت هذه المحطة التجريبية كلية للزراعة ، وتتابع إنشاء الكليات والمعاهد وسائر مرافق الجامعة ، وتدفقت عليها التبرعات المالية والعينية مثل الأجهزة العلمية والمراجع والكتب والدوريات .

(1) Hansard's Parliamentary Debates, Vol. 99, 1917, House of Commons, Session of Nov. 19th, 1917, p. 383.

وتناولت آمال اليهود واعتقدوا أن الجامعة العربية ستصبح عما قليل نداءً لأكبر جامعات الغرب مثل كمبرج ولندن وباريس وهارفارد في أمريكا ، وقد ظفرت هذه الجامعة بالحرية التامة والتأييد المطلق من سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين ، بعد أن توارت الدولة العثمانية التي حالت بكل ثقلها دون تنفيذ هذا المشروع الصهيوني ، الذي يشد من أزر الحركة الصهيونية في الوقت الذي حاربت سلطات الانتداب إنشاء جامعة عربية في القدس ، وكان إنشاؤها حلمًا رواد الشعب العربي في فلسطين ، وناقضته المؤتمرات العربية التي عقدت تباعاً في القدس وحيفا ونابلس وغيرها من المدن الفلسطينية . وكان من أهمها المؤتمر الإسلامي الذي عقد في القدس ليلة الإسرائ (٢٦ من رجب عام ١٣٥٠ أي في شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٩٣١) ، ورأى ضرورة إنشاء جامعة عربية يطلق عليها جامعة المسجد الأقصى تقف بجانب الجامعة العبرية . وتكونت لجنة لجمع التبرعات ، كان من بين أعضائها وزير مصري سابق هو الأستاذ محمد علي علوية باشا، ويذكر أن اللجنة جاست خلال البلاد العربية ثم استقلت الباخرة من ميناء البصرة إلى كراتشي في الهند .. فبلغتها في اليوم الخامس عشر من شهر مايو - أيار - عام ١٩٣٣ ، وتألقت لجان من معلمى الهند تتولى جمع التبرعات وإرسالها إلى بنك في فلسطين ، ووعد الأمراء والوزراء بتأييد هذا العمل ودعيت اللجنة إلى مآدب رسمية أقامها نائب الملك في الهند وحكام الأقاليم الإنجليز . ثم لاحظت اللجنة بعد إقامة استطلاات خمسة أشهر في فصل الصيف شديد القبط أنه لم يتم شيء من الوعود التي بذلت . ويقول الأستاذ علوية إن مسئولاً كبيراً أطلعه على خطاب رسمي سرى من الحكومة البريطانية إلى المسؤولين في الهند، جاء فيه إن رجال الوفد الفلسطيني من علوية القوم ، وأنه يجب حسن استقبالهم والحنافرة بهم ، ولكن جمع المال لمشروعهم يتعارض وسياسة الحكومة البريطانية في فلسطين^(١) . ومعنى ذلك أن إنشاء جامعة عربية في فلسطين - وهو مشروع حضارى إنسانى - كانت بريطانيا تراه معارضاً لسياسة انتدابها على فلسطين ، وكان موقفها هذا مظهر آخر لتحيزها الصارخ لليهود ورغبتها في وأد أو خنق أى مشروع يدعم الكيان العربى والقومية العربية في فلسطين .

تلك هى معالم سريعة لبعض مظاهر النشاط الصهيونى الذى واجهته الدولة العثمانية، وكان هذا النشاط يتجه أساساً إلى فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية إليها واستيطانها والسيطرة على اقتصادياتها بشراء أراض زراعية وإقامة مشروعات صناعية وتجارية ، فضلاً عما يتطلبه هذا الاستعمار الاستيطاني اليهودى من إنشاء أجهزة للحكم المحلى والإدارة المحلية ، وقيام مؤسسات تعليمية وثقافية ؛ حتى يتم صبغ فلسطين بضبعة يهودية وصولاً إلى تأسيس الدولة

(١) محمد علي علوية : فلسطين والضمير الإنسانى . القاهرة ، ١٩٦٤ ، من ص ١١٩-١٢٠ .

اليهودية فيها .

وقد وفقت الدولة العثمانية في وجه الهجرة اليهودية ما وسعتها المقدرة على مقاومة هذه الهجرة . ولكنها لم تنجح تماماً في منع هذه الهجرة أمام ضغط بعض الدول الأوروبية الكبرى التي ألححت مصالحها الاستعمارية مع مصالح الصهيونية ؛ ولأن الدولة العثمانية لم تكن على درجة من القوة المادية والأدبية في المجال الدولي بحيث يتسنى لها وقف الهجرة وقفاً تاماً ، ولكنها كانت هجرة محدودة نسبياً . وكان هذا العرض التاريخي المجلد حريصاً على بيان مدى نجاح الدولة ومدى إخفاقها فيما يتصل بالحد من الهجرة اليهودية ، فقد نجح اليهود في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في إنشاء مستعمرات ، ولاحظ أن هؤلاء اليهود وفدوا من دول أوروبية مثل روسيا ورومانيا وبولندا وغيرها . وقامت بتنظيم هجراتهم ومساندتهم وتمويلها هيئات صهيونية عالمية ذات نفوذ واسع في الدول الأوروبية الكبرى ، كما أن بعض هذه الهجرات كانت غير مشروعة أي غير قانونية ، إما بتهريب نفر من المهاجرين عبر الحدود واجتباب نقط الحراسة أو رشوة الرقباء ، وإما عن طريق النزول ببواخر نزولاً غير قانوني ، وإما بدخول البلاد دخولاً قانونياً ثم البقاء فيها بعد المدة المؤقتة المسموح لهم بالكث فيها ، وإما عن طريق الزواج بيهوديات فلسطينيات أو يهوديات مقيمات إقامة دائمة ولسن بفلسطينيات .

نقطة الضعف في سياسة عبدالحميد تجاه المسألة الفلسطينية :

إن نقطة الضعف التي تسجلها هذه الدراسة على السلطان عبدالحميد الثاني ، تجاه المسألة الفلسطينية ، أنه أصدر فرمانات جزئية لصالح بعض اليهود ، وأذن لهم بمقتضاها في شراء بعض مساحات محدودة من الأرض الفلسطينية . وقد استغل اليهود على عاداتهم هذه فرمانات فأقاموا عدة مستعمرات ، أشرفت عليها أجهزتهم المالية والفنية لتمويل الهجرة اليهودية إليها وتأسيس المستعمرات فيها واستصلاح أراضيها واستغلالها اقتصادياً^(١) . وليس في مكنة المؤرخ أو الباحث المحايد أن يجد تفسيراً أو تبريراً لمواقفة السلطان على إصدار هذه فرمانات الجزئية بالقرول بأن السلطان تعرض لضغوط دول أوروبية كبرى لم يقو على الوقوف في وجهها ؛ فإن هذه فرمانات كانت سنداً قوياً في يد الصهيونية للتوسع في شراء مزيد من الأراضي الفلسطينية سواء بطرق مشروعة أو غير مشروعة .

كما لا يمكن القول بأن عبدالحميد لم يكن يتوقع أن موافقته على بيع أراض محدودة في فلسطين لليهود تكون بداية لتهويد فلسطين ، فإن مثل هذا التفسير يعد تجريداً للسلطان من صفات السياسي الحصيف المحدث بعيد النظر . وقد أجمع جمهرة المؤرخين على أنه كان على

(١) أنيس صايغ : الهاشميين وقضية فلسطين ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢ .

حظ موفق من هذه السجاياء ، وعلى الرغم من هذه «السفطة» التي وقع فيها عبدالحميد.. فإنه نجح في الحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين . ويتضح هذا النجاح في أنه لما احتلت بريطانيا والجيش العربي بقيادة فيصل فلسطين في سبتمبر - أيلول - عام ١٩١٨ ، وأخضعتها للحكم العسكري البريطاني^(١) ، ثم طبقت عليها نظام الانتداب البريطاني كان اليهود يشكلون أقلية عددية بالنسبة لسكانها العرب ؛ إذ كان عدد الأولين خمسين ألفاً ، بينما كان عدد العرب ستمائة وخمسين ألفاً^(٢) . ومعنى ذلك أن يهود فلسطين كانوا يمثلون أقل من ١٠ ٪ من سكانها العرب ، وكانت هذه النسبة العددية الضئيلة لليهود ثمرة من ثمار سياسة السلطان عبدالحميد .

وفي عهد الحكم البريطاني حدثت الزيادة الرهيبة للهجرة الجماعية المضخمة إلى فلسطين حيث تكاثفت بريطانيا والصهيونية على إغراق فلسطين باليهود ، دون أن تقيم هاتان القوتان العاتيتان وزناً لمبدأ الاستيعاد الاقتصادي الذي يجعل حجم الهجرة اليهودية مرتبطاً بقدرة البلاد الاقتصادية على استيعاب مهاجرين جدد ، وكانت القنصليات البريطانية في أنحاء العالم تمنح اليهود تأشيرة دخول إلى فلسطين . وأصدرت السلطات البريطانية في فلسطين قانوناً لتيسير تدفق المهاجرين اليهود على فلسطين ، وبدأت في تنفيذه سنة ١٩٢٠ ، قبل أن تصدر

(١) فاجأت بريطانيا العالم العربي بوضع فلسطين كلها تحت إدارة عسكرية بريطانية ، أطلق عليها O. E. T. South . وهذه الأحرف اختصار لعبارة Occupied Enemy Territory Administration South . الإدارة الجنوبية لبلاد العدو المحتلة ، يحكمها مدير عام ، مقره في بيت المقدس ، ويخضع للورد اللتبي القائد العام لقوات بريطانيا وحليفاتها في الشرق . وكانت هذه الإدارة تحكم المنطقة الممتدة من الحدود المصرية جنوباً حتى خط الناقورة غرباً ، فنهر الأردن شرقاً . وتضم لواء القدس ، ولواء نابلس ، ولواء عكا . ثم أنشئت «الإدارة الشرقية لبلاد العدو المحتلة» O.E.T.A. East ، وتضم داخل سوريا من معان جنوباً حتى حدود تركيا الجنوبية شمالاً مع أفضية أدلب ، وجسر الشفور والباب غرباً والقرات شرقاً . وتركت بريطانيا إدارة هذه المنطقة في أيدي رجال الثورة العربية ، وعلى رأسهم الأمير فيصل بن الحسين.

ولم يدع الفرنسيون الفرصة تفوتهم ، فطالبوا الإنجليز بتسليمهم من أخذ تصديقهم في أقاليم الشرق العربي الآسيوي . ودارت اتصالات سياسية متمتعة ، لم يشترك فيها العرب ، ولم يؤخذ فيها رأيهم ، وانتهت باتفاق ٣٠ من سبتمبر - أيلول - عام ١٩١٨ بتقرير إنشاء «الإدارة الغربية لبلاد العدو المحتلة» O.E.T.A. West . وتشمل : جبل لبنان ، ولواء طرابلس ، ولواء اللاذقية ، وقضاء أنطاكية ، وقضاء إسكندرية . وهذاان القضاءان من ولاية حلب . ووضعت هذه المنطقة بأكملها تحت نفوذ فرنسا مباشرة . انظر كلاً من :

أمين سعيد ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٢ .

جورج أنطونيوس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨٧-٢٩٠ .

(٢) أكرم زعيتر : القضية الفلسطينية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٤٧ .

عصبة الأمم صك الانتداب ، ثم أصدرت تلك السلطات لصالح اليهود قوانين معدلة لقانون الهجرة في سنوات ١٩٢١ ، ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ ، ١٩٢٨ ، ١٩٣٣^(١) . وأقامت الصهيونية من جانبها معسكرات لإعداد المهاجرين إعداداً عقائدياً ونفسياً وعسكرياً . وعرفت هذه المعسكرات باسم الهاخسراه ، وأقيمت في إيطاليا وفرنسا وألمانيا والنمسا وبولندا ودول أوروبا الشرقية ، وكان من يتم تدريبه ينضم إلى فرق الحالوتسيم ؛ أي الطلائع الذين قام الوطن القومي اليهودي في فلسطين ثم دولة إسرائيل على سواعدهم .

وقد نشرت حكومة الانتداب في فلسطين إحصائية في يناير - فبراير (كانون ثان - شباط) عام ١٩٤٨ عن عدد السكان منذ عام ١٩٢٢ حتى ٣١ من مارس - آذار - عام ١٩٣٧^(٢) ، وقد شملت هذه الإحصائية تعداد السكان المسلمين والمسيحيين واليهود وزيادة الكثافة السكانية في فلسطين على النحو التالي :

السنة	عدد السكان المسلمين والمسيحيين	عدد السكان اليهود
١٩٢٢	٥٥٧,٣٤١	٨٣,٧٩٠
١٩٣١	٧٨٢,٠٥٤	١٧٤,٦٠٦
١٩٣٥	٨٧٥,٣٧١	٣٥٥,١٥٧
١٩٤٠	١,٠٠١,٨٨٠	٤٦٣,٥٣٥
١٩٤٦	١,٢٢١,٨٤٠	٦٠٨,٢٣٠
مارس-آذار-١٩٤٧	١,٢٣٧,٠٣٢	٦١٤,٢٣٩

وتكشف هذه الإحصائية عن حقيقة مهمة ، هي أنه في الوقت الذي تضاعف فيه عدد المسلمين والمسيحيين مرة واحدة نتيجة الزيادة الطبيعية في عدد السكان بالتوالد ، تضاعف عدد اليهود إلى حوالي ثمانية أمثال . ولم تكن هذه الزيادة عن طريق التوالد ، ولكن عن طريق الهجرة إلى فلسطين كنتيجة مباشرة لسياسة الحكومة البريطانية في فتح أبواب فلسطين على مصاريعها أمام اليهود .

(١) صالح مسعود أبو بصير ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٢-١٢٥ .

وملحق رقم ٧ ص ٥٩٢-٥٩٣ .

وملحق رقم ٧ ص ٥٩٤-٥٩٧ في المرجع ذاته .

(٢) صلاح عابدين : فلسطين بين الصهيونية واليهودية ، طبع وزارة الخارجية ، الجمهورية العربية المتحدة ،

د ت ، ج ١ ، ص ٤٩ .

على هذا النحو ، جاءت الخطورة على فلسطين بعد زوال الدولة العثمانية ، وبالأذات بعد عزل السلطان عبدالحميد الثاني عام ١٩٠٩ ؛ لأن بعض اليهود نجحوا في التسلل إلى بعض المراكز في مجالس جمعية الاتحاد والترقي ، التي سيطرت على تقاليد الحكم في الدولة بعد غياب السلطان عبدالحميد . وقد لمس السفير البريطاني في إسطنبول نفوذ مركز اليهود في دوائر الحكومة العثمانية ، وذكر هذه الحقيقة في صراحة تامة في مذكرة بعث بها في شهر أغسطس - آب - عام ١٩١٠ إلى وزارة الخارجية البريطانية ، وكان مما جاء فيها «إن لجنة الاتحاد والترقي تبدو في تشكيلها الداخلي تحالفاً يهودياً تركياً مزدوجاً ؛ فالأتراك يمدونها بالمادة العسكرية الفاخرة ، ويمدها اليهود بالعقل المدبر ، وبالمال ، وبالتفوذ الصحفى القوي في أوروبا... إن اليهود الآن في موقف الملهم والمسيطر على الجهاز الداخلي للدولة» (١) . وقد نجم عن وجود اليهود في بعض مراكز القوى في العهد الجديد ، أن تراخت رقابة الدولة على الحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، بالنسبة إلى ماكان عليه الحال أيام السلطان عبدالحميد . ومع ذلك .. لم يطل أمد حكم رجال الاتحاد والترقي إلا سنين عددا ؛ إذ ما لبثت أن قامت الحرب العالمية الأولى ، وكان من نتائجها أن تمت تصفية الدولة على أيدي الاتحاديين ، وانفصح المجال أمام بريطانيا والصهيونية لتهويد فلسطين .

ومجمل القول إن الدولة العثمانية بمحاولاتها المكررة منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين قد افتتحت هذه المشكلة ، ولكنها لم تستطع عبورها ، ونجحت فقط في الحد منها ، ونجحت في الحفاظ على عروبة فلسطين وعلى وحدة الصف العربى بين مسلميها ومسيحييها ، ولكنها أخفقت في منع التسلل اليهودى إلى فلسطين .

آراء محايدة

في حكم السلطان عبدالحميد الثاني (١)

إسفاف في الصاق التهم بعبدالحميد :

حكم السلطان عبدالحميد الثاني زهاء أربعة وثلاثين عاماً (١٨٣٦-١٩٠٩)، فكان من أطول سلاطين الدولة العثمانية حكماً ، وكان في زمانه ولا يزال ملء الأسماع . ولكنه تعرض لحملة إعلامية شرسة من خصومه السياسيين تناولوا فيها حياته العامة والخاصة بكل نقیصة؛ فهو السلطان السفاح ، والسلطان الأحمر ، والسلطان الديكتاتور ، والسلطان المنافق الذي كان يتظاهر بالتقوى والصلاح والزهّد والتّقشف أمام رعاياه ، ويحرص حرصاً بالغاً على التظاهر بأداء الشعائر الدينية ، ويحيط نفسه بعلماء الدين ويستخدمهم في توزيع الصدقات من قبيل الدعاية له ، وهو في الوقت ذاته السلطان المفسرف في شهواته النسائية ، وقد جمع حوله من نسائه وجواريه مائتين وخمسين سيدة ، كن آيات في جمال الوجه وامتناق القوام والرقّة البالغة وما إلى ذلك من عناصر الأنوثة الطاغية . ثم أضاف خصومه إلى كل هذه المثلّاب أنه نشر في أنحاء الدولة شبكة من الجاسوسية ، بلغ عدد أفرادها ثلاثين ألف شخص ، على غرار شبكة الجاسوسية الروسية للقيصرية المعاصرة له .. إلى غير ذلك من أساليب التّهم عليه .

وتلقف الحاقدين على الدولة وعليه عناصر هذه الحملات وانطلقوا يعطون صوراً مشوّهة عنه وعن حكمه . وفي غمرة هذه الحملات الإعلامية فسر الخصوم والحاقدون ، ومنهم عرب ، كل مشروع إصلاحی تعهده عبدالحميد تفسيراً تعمقياً . ففى رأيهم كان هدفه الخفى والأرحد من بعض هذه المشروعات ، هو أن تشد قبضته على الولايات العثمانية ليحكمها بيد من حديد إرضاء لنزعته الاستبدادية . وأن هدفه من بعض المشروعات الأخرى كان إحاطة نفسه بهالة من القدسية ، تجعله بمنأى عن كل نقد يوجه إليه من رعاياه . وليس الهدف من الفصول الأربعة التي وضعاها عن السلطان عبدالحميد ، هو وضع تاريخ شامل لحكمه ، فإن هذا التاريخ يتطلب وضع أضعاف مضاعفة من هذا العدد ، وإنما الهدف منها هو توضيح الملابسات ، التي أحاطت به عند تولية العرش وإبراز بعض المعالم الرئيسية في حكمه ؛ ليسترشد بها الباحثون عن الحقائق المجردة .

الانقلاب الدستوري :

وقد نجحت هذه الحملات الإعلامية ونجحت الجمعيات العلنية والسرية ، التي كانت تعمل لتفويض حكم عبدالحميد ، وياشرت نشاطها المعادي في أقاليم تابعة للدولة حيناً ولكنها بعيدة عن العاصمة ، وفي دول أوروبية حيناً آخر . وبلغ نجاحها القمة حين قامت ، عثمانلى اتحاد وترقى جمعيتى، أى ،جمعية الاتحاد والترقى العثمانية، بثورة عسكرية في شهر يوليو - تموز - عام ١٩٠٨ ، وأصدر عبدالحميد على أثرها في اليوم الرابع والعشرين من الشهر ذاته قراراً بإعادة العمل بالمشروطية (١) أى الدستور - وهو الدستور الذى سبق أن أصدره في الثالث والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - سنة ١٨٧٦ ، وأطلق على هذه الثورة العسكرية تعبير مذهب هو الانقلاب الدستوري . واستأثرت الجمعية بالنفوذ وغدا السلطان عبدالحميد في الظل . وكانت جمعية الاتحاد والترقى منظمة سرية أنشأها بعض أعضاء جمعية تركيا الفتاة (٢) ، واستقر بها المطاف في النهاية في مدينة سالونيك ، وصنمت أخلاطاً شتى من

(١) تكتب في اللغة التركية مشروطيت .

(٢) جمعية تركيا الفتاة جمعية سرية أنشأها الأتراك العثمانيون سنة ١٨٦٥ وحضر أول اجتماع لها عقد في شهر يونيو - حزيران - من السنة ذاتها ستة من الأحرار ، كان من بينهم نامق كمال ، وآية الله بك . وقد أحضر الأخير معه في الاجتماع كتابين أحدهما عن جمعية الكاربوناري Carbonari ، والآخر عن جمعية سريرية في بولندا . وكانت جمعية الكاربوناري جمعية إيطالية تأسست في نابولي عام ١٨٠٧ من المشتغلين بحرق الأخشاب . وكان هدفها طرد الفرنسيين والنمساويين من شبه جزيرة إيطاليا وتوحيدها وتأسيس حكومة دستورية بها . وانضم إلى جمعية تركيا الفتاة في وقت مبكر الأمير مصطفى فاضل وهو أخ الخديو إسماعيل من أبيه . وأصبح من أقطاب الجمعية . وكان من بين بواقعه حقه على السلطان عبدالعزيز الذى أصدر فرماناً في اليوم السابع والعشرين من شهر مايو - أيار - عام ١٨٦٦ يجعل وراثته الحكم في مصر تقوّل إلى أكبر أبناء الوالى الحاكم ومن هذا إلى أكبر أبنائه وهكذا . ونجم عن هذا فرمان إقضاء الأمير مصطفى فاضل عن حكم مصر وكان ولياً للعهد حتى سنة ١٨٦٦ ، ثم فقد الأمل في تعيينه صبراً أعظم كتعويض عن حرمانه من وراثته الحكم . وقد صغى مصطفى فاضل أملاكه في مصر وغابرها للإقامة في فرنسا ، حيث لحق به فريق من أعضاء الجمعية ، واتجه فريق آخر إلى لندن وعاشوا جميعاً منفين . وقد بذل الأمير مصطفى فاضل نفوذه وشطراً كبيراً من أمواله في دعم الجمعية . وأرسل من باريس خطاباً مفتوحاً إلى السلطان عبدالعزيز باللغة الفرنسية شرح فيه التدهور الذى انحدرت إليه الدولة العثمانية ، واقترح للنهوض بها إدخال عدة إصلاحات ، وكان من بينها إصلاحات دستورية . وقد ترجم هذا الخطاب إلى اللغة التركية بمعرفة ثلاثة من الأحرار كان من بينهم نامق كمال وطلبعوه ونشروه في نطاق واسع ، فكانت له أصداء واسعة . وفي فبراير - شباط - عام ١٨٦٧ نشرت جريدة بلجيكية اسمها Le Nord في الشمال ، أنباء تقول إن الأمير مصطفى فاضل قد أنشأ مؤسسة مصرفية في الدولة العثمانية ، فأرسل الأمير إلى الجريدة توكيماً لهذا النبأ وأشار إلى أنه من مؤيدي جمعية تركيا الفتاة La Jeune Turquie ، وقد أعادت نشر هذا التكنيك جريدة Courrier d'Orient التي تصدر في بيرا ، وهي إحدى ضواحي إستانبول - وكان رئيس تحريرها على علاقة طيبة بأحرار الدولة . وقد ترجم هذا الخطاب إلى اللغة التركية ، وجاء اسم الجمعية في الترجمة التركية على هذا النحو=

عناصر ذات جنسيات مختلفة وديانات متعددة . ولكن كانت الكثرة الغالبة فيها من الأتراك العثمانيين يليهم اليهود ثم بعض العرب ، وكان معظمهم من ضباط الجيش . ولكن كان العسكريون العثمانيون الذين من أصل تركي هم العناصر البارزة في مجالس الجمعية . وكان هدفهم القضاء على حكم السلطان عبدالحميد .

الانقلاب العسكري :

ولم يقنع هؤلاء العسكريون من رجال الاتحاد والترقي بالانقلاب الدستوري ، فقاموا في العام التالي (١٩٠٩) بانقلاب عسكري متذرعين بقيام حركة مضادة بدأت في ليلة ١٢-١٣ من شهر أبريل - نيسان - من السنة ذاتها ، وتزعّمها الدراويش وأئمة المساجد و فريق من علماء الدين الإسلامي وطلبة المعاهد الدينية وضباط الجيش «الآلالية» ، وهم الضباط الذين نشأوا وتقدموا من بين صفوف الجند بناء على خدمتهم الطويلة وخبراتهم العملية . ولقيت هذه الحركة استجابة من جماهير العامة ، ورتادوا إلى إلغاء الدستور بحجة أن مبادئ الشريعة الإسلامية باتت في خطر . وطافت المظاهرات في شوارع إسطنبول تهتف «باشا سون شريعة محمدية، أي فلتعش الشريعة المحمدية»^(١) .

وفي غمرة هذه الهتافات نادى الضباط الآلالية بتسريح ضباط الجيش خريجي الكليات والمعاهد العسكرية ، وكان يطلق عليهم الضباط «المكتبية» . وامتدت الحركة بسرعة من

= «يكي عثمانلي لر» ومعناها «العثمانيون الجدد أو الشباب» . ومنذ سنة ١٨٦٧ حين انتقل مركز نشاط الجمعية السياسية إلى أوروبا بسبب إبعادهم أو نفيهم ، حرص الأوروبيون على إطلاق اسم La Jeune Turquie أي تركيا الفتاة عليها . وفي اللغة التركية لا يرد الاسم إلا في صيغته الفرنسية المستعارة «جون ترك» . وقد نمت الجمعية بسرعة وأصبح عدد أعضائها في وقت من الأوقات ٢٤٥ عضواً . وتمثل حركة تركيا الفتاة حركة قومية علمانية ، تستند أساساً على قطاع المثقفين . وكانت تستهدف تحقيق أربعة مبادئ ، هي : الحرية الفردية ، قيام النظام الدستوري ، والقضاء على الإقطاع ، والتحرير من السيطرة الأجنبية . وبذلك ارتبطت الحركة القومية في مبدأ نشأتها بحركة تركيا الفتاة . واتخذت الحياة الثقافية والأدبية أول الأمر طريقاً للتعبير عن اتجاهاتها . وكان قيام الجمعية دليلاً على أن الطبقة المثقفة التركية الأصل قد صحت عزيمتها على إيجاد قوة من العناصر الوطنية ، تقترض الإصلاح على السلاطين فرضاً ، كما كانت تعنى بداية إحساس الطبقة المثقفة بقوتها الذاتية وحاجتها إلى التعبير عن نفسها .

وكان لهذه الجمعية اليد الطولى في عزل السلطان عبدالعزيز ، وتولية السلطان مراد الخامس ، ثم عزله وتعيين عبدالحميد الثاني مكانه وقام صحت باشا بدور بارز في إصدار دستور عام ١٩٧٦ .
انظر كلاً من :

Lewis Bernard; op. cit., pp. 152-174.

(١)

في جزء من فصل عنوانه The Seeds of Revolution بدور الثورة .

(ب) دائرة المعارف الإسلامية بحث بعنوان جمعية «الإمبراطورية العثمانية» بقلم Rustow D.A.

(٢) انظر في هذه الدراسة الفصل الرابع ، الجزء الأول .

إستانبول إلى أنحاء الأناضول خاصة في إقليم أضنة حيث قام متعصبو المسلمين بذبح الأرمن . وكان قد أرسل منشور بتاريخ ١٥ من أبريل - نيسان - عام ١٩٠٩ إلى جميع الحكام العثمانيين يطلب منهم المحافظة على مبادئ الشريعة الإسلامية . ويبدو أن متعصبى المسلمين في أضنة ففسروا هذا المنشور بذبح الأرمن ، وأسرع رجال الاتحاد والترقى إلى تجريد قوات عسكرية أطلق عليها بعض المؤرخين الأوروبيين «جيش الإنقاذ»^(١) ، وأطلق عليه في اللغة التركية «حركت أوردسو» أى «جيش الحركة» ، وقد زحفت هذه القوات من سالونيك على إستانبول واحتلتها في اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٩٠٩ بعد قتال مرير . ونجح رجال الاتحاد والترقى في خلع السلطان عبدالحميد ، وإخراجه من العاصمة في صورة غير كريمة منفياً في سالونيك . وأقاموا بدلاً منه أخاه الأمير رشاد ، الذى تسمى باسم محمد الخامس . وكان في الرابعة والسنتين من العمر ، يستجيب لما يؤمر به . وخلا الجو لرجال الاتحاد والترقى ، وحولوا جميعتهم من منظمة سرية إلى حزب سياسى علنى في شهر أبريل - نيسان - عام ١٩٠٩ ، في بيان أذاعته الجمعية في الصحف ، وانفردوا بالحكم إذ سمح لهم السلطان العجوز أن يحكموه وأن يحكموا باسمه^(٢) . وقد أطلق عليه أحد المؤرخين «السلطان الأبله»^(٣) ، وهى تسمية ظالمة لأنه لم يكن له من الأمر شيء . وقد ارتضى هذا الوضع حفاظاً على السلطنة العثمانية وعلى الخلافة الإسلامية إلى أن جاز إلى ربه عام ١٩١٨ في السنة ذاتها، التى لقي فيها السلطان المعزول عبدالحميد الثانى ربه . وأصبحت لرجال الاتحاد والترقى السيطرة المطلقة على أعنة الحكم منذ عزله حتى تصفية الدولة ماعدا فترة قصيرة الأمد .

وسائل الإرهاب التى لجأ إليها عبدالحميد :

من البديهيات أن لكل حاكم - أياً كان لقبه إمبراطوراً أو سلطاناً أو ملكاً أو أميراً - مزايا وعيوباً . وقد انطوى حكم هذا السلطان على مثالب ، وهذه حقيقة لامراء فيها مثل مذابح الأرمن ، وسنتكلم عنها في فصل قادم ، وتعطيل أحكام الدستور فترة طويلة بلغت إحدى وثلاثين سنة ، على الرغم من أن بعض الباحثين ساقوا تفسيرات شتى لهذه الفترة الزمنية الطويلة . ولكن من الثابت أيضاً أن حكم هذا السلطان قد حفل من نواح أخرى بمزايا ، بل وبمفاخر لا سبيل إلى التشكك فيها أو التقليل من أهميتها .

لجأ عبدالحميد إلى إعدام أو إبعاد أو اعتقال بعض خصومه السياسيين ولكن ليس معنى

(1) Lewis B.; op. cit., p. 216.

Loc. Cit.

وانظر أيضاً : ساطع الحصرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٢ .

(٢) أنطونيوس جورج ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٠ .

(٣) دكتور فيليب حتى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٢٥٠ .

هذه الإجراءات أنه خصب أرض الدولة بدماء هؤلاء الخصوم ، أو أنه ملأ السجون بالمعتقلين ، أو أنه جند جيشاً من الجواسيس ، بلغ تعداده حداً خرافياً هو ٣٠,٠٠٠ شخص . ومن المبادئ المقررة في كل دولة وفي جميع العصور أن كل حكومة تنتظم أجهزة للحفاظ على أمن الدولة الداخلي والخارجي مثل المباحث العامة والمخابرات الحربية - الاستخبارات - وما إليها من أجهزة أمن الدولة العليا . كان عبدالحميد يعلم علماً يقينياً أنه توجد جمعيات سياسية مدنية وعسكرية ، تعمل في السر للتخلص منه أو للتآمر على الدولة .

حادث قصر چراغان :

وقد ظلت ماثلة في ذهن السلطان عبدالحميد الأحداث التي وقعت في اليوم العشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨٧٨ ، والأيام التالية ، ولم يكن قد مضى عامان على ارتقائه العرش ، فقد اقتحمت في صباح ذلك اليوم جموع المتآمرين قصر چراغان ، وهو قصر يقع على الساحل الأوروبي للبوستور بين بشكطاش وهي إحدى ضواحي إستانبول وقرية أورناكدي^(١) ، وكان محتجزاً فيه السلطان المخلوع مراد الخامس ، في محاولة للمناداة به سلطاناً بدلاً من عبدالحميد الثاني ، أخيه الأصغر .

استأجر أو أغرى خصوم السلطان شخصاً حاقداً عليه ، اسمه علي سعاوي أفندي . كان قد وفد من بخاري إلى إستانبول طلباً للعلم ، وأصاب نجاحاً بعيداً في دراسة اللغة العربية فأصبح متمكناً منها وخطيباً مفوهاً . ولكنه كان يميل بطبيعته إلى بث الدسائس وإثارة الفتن ، ففاه السلطان عبدالعزيز عام ١٨٦٧ خارج الدولة ، ومكث تسع سنوات في منفاه ، ثم عاد إلى إستانبول بمساعي مدحت باشا على عهد السلطان عبدالحميد ، الذي عينه ناظراً على المكتب السلطاني الذي يتعلم فيه أنجال عبدالحميد . ولكن ما لبث أن عزله لعدم تغير طبعه ولتدخله في الشؤون السياسية .

واستغل خصوم السلطان انشغاله ببحث الموقف الناجم عن عقد معاهدة سان ستفانو ، التي فرضتها روسيا على الدولة في ٣ مارس - آذار - عام ١٨٧٨ ، ووجود زهاء مائة وخمسين ألف مسلم في إستانبول ، هاجروا إليها من البلاد التي احتلتها القوات الروسية بخيولها في الحرب . وكان من بين هؤلاء المهاجرين المسلمين أعداداً ساخطة على الأوضاع القاسية التي تروا فيها نتيجة هزيمة الدولة أمام روسيا ، فدبر خصوم السلطان مؤامرة لخلعه عن العرش . وقد بدأت خيوط المؤامرة بإعلان ظهر في جريدة «بصيرت» أي البصيرة في عددها الصادر في ١٩ من مايو - آيار - عام ١٨٧٨ ، وكان هذا الإعلان باسم علي سعاوي أفندي ،

(١) انظر معاني كلمة چراغان وبعض معلومات عن هذا القصر ، في ثبث المصطلحات التركية ، في نهاية هذه الدراسة ، الجزء الرابع ، تحت لفظة چراغان .

قال فيه إنه ستظهر له مقالة في الجريدة ذاتها في اليوم التالي عن أسباب ضعف الدولة ووسائل إصلاحها . واتضح أن هذا الإعلان كان بمثابة تحدى ساعة الصفر لتنفيذ المؤامرة بخلع السلطان عبدالحميد والمنادة بمراد الخامس سلطاناً على الدولة . ففي الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي احتشد زهاء خمسمائة من المتأمرين أمام قصر چراغان . وكان معظمهم من المهاجرين وإن كانوا جميعاً قد تزيوا بزى المهاجرين ، وكان يقودهم على سعاوى أفندى . وانقسموا فريقين : هاجم فريق القصر من ناحية البر بقيادة على سعاوى أفندى ، وهاجم فريق آخر القصر من ناحية البحر بقيادة صالح بك . واقتحم الفريقان القصر وقتلوا أفراد الحرس وانطلقوا في أرجاء القصر ، بحثاً عن السلطان المخلوع إلى أن عثروا عليه منزوياً في حجرته وسلموه «طبنجة» . وقد أسرعت قوات الحرس السلطاني من قصر يلدز حيث كان يقيم السلطان عبدالحميد ، وحاصرت القصر برأ وبحراً وقتل في هذا الحادث عشرون من المتأمرين ، كان من بينهم على سعاوى أفندى وجرح ثلاثون . وقدمت الحكومة المتهمين للمحاكمة أمام محكمة عسكرية أصدرت حكماً واحداً بإعدام أحد المتهمين ، ولكن استبدل السلطان عبدالحميد السجن مدى الحياة بالإعدام ، كما أصدرت المحكمة على المتهمين الآخرين أحكاماً بالنفى . وكانت هذه هي أول مؤامرة أو محاولة خلع السلطان عبدالحميد من العرش ، وقد باءت بالإخفاق . وقد أضر فيها السلطان المخلوع مراد الخامس ؛ إذ صدرت الأوامر بنقله إلى سرداب مظلم في جناح مالطة بقصر يلدز حيث كان يقيم عبدالحميد (١) .

إحراق الباب العالي :

لم تمر أيام ذات عدد على حادث قصر چراغان حتى قام فريق جديد من المتأمرين بإحراق الباب العالي في اليوم الثالث والعشرين من ذات الشهر . وأتت اللنيرات على دار الأحكام العدلية ووزارة الداخلية ودائرة شورى الدولة ودار التشريقات وغيرها من مبان ، والتهمت جميع ماكان بها من أثاث ومفروشات وأوراق رسمية .

من ذيول حادث قصر چراغان :

استطاع مراد الخامس من سجنه في جناح مالطة تهريب رسالة إلى أحد معارفه ، وهو رجل يوناني يقيم في إستانبول يسمى كليانتي سكاليري Cleanthi Scalieri كان رئيس أحد المحافل الماسونية . وعن هذا الطريق كانت المعرفة بينهما ، وجاء في خطاب مراد إلى سكاليري «إذ لم تتقدنى من هذا المكان فإن جناح مالطة سيكون مقبرتى» .

وكان مركز هذا اليوناني كرئيس لمحفل ماسوني قد أتاح له عديد الفرص لإيجاد صلات مع كبار الماسونيين الأوروبيين في إستانبول . وما كاد يتلقى سكاليري خطاب مراد

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤١-٤٤٢ .

الخامس حتى تحرك لإنقاذه ، فكتب خطاباً مفتوحاً باللغة الإنجليزية إلى السلطان عبدالحميد ويحث به إلى جريدة إنجليزية تصدر في إستانبول اسمها Eastern Express ، وأرفقه بطلب لنشره في الجريدة وقد انطوى خطابه على تهديد لرئيس التحرير . فأحال الأخير الخطاب المفتوح والطلب إلى سعيد باشا مستشار قصر بلذر .. فما كان منه إلا أن هز كتفيه وقال : انشره إذا شئت . وكان لنشره وقع سيء في نفس عبدالحميد الذي اتخذ إجراءات صارمة مع الجريدة ورئيس تحريرها وسعيد باشا . ولكن جاء هذا الخطاب بنتيجة واحدة بالنسبة لمراد الخامس ؛ إذ صدرت الأوامر بإخراجه من سجنه في جناح مالطة وإعادته إلى قصر چراغان^(١) .

محاولة أخرى للقيام بانقلاب :

لم يترك سكاليري وأصدقاؤه الماسونيون الموضوع يقف عند هذا الحد .. فقد علم عبدالحميد من تقرير عرض عليه أنهم بذلوا محاولة لدى المحفلين الماسونيين البريطانيين والألماني ، وكان يرأسهما ولي عهد بريطانيا وإمبراطور ألمانيا ، كي يتدخل السفيران البريطاني والألماني في إستانبول لدى عبدالحميد ، ويبدو أن الحكومتين البريطانية والألمانية قد أحجمتا عن التدخل في هذا الموضوع ، وانضم سكاليري إلى خصوم عبدالحميد وكونوا لجنة عرفت باسم لجنة سكاليري - عزيز بك . وكان الأخير أحد كبار موظفي الأوقاف . وضمت هذه اللجنة عدداً من خصوم السلطان عبدالحميد . وكان هدفها عزل عبدالحميد وإعادة مراد الخامس إلى العرش . وأقسم أعضاء اللجنة على ألا يدخروا جهداً لتدبير انقلاب Coup d'Etat لتحقيق هدفهم ، ولما وقف عبدالحميد الثاني على تفاصيل هذه المؤامرة الجديدة أمر بمحاصرة مقر اللجنة وهو دار عزيز بك وقبضت قوات الشرطة على الحاضرين . واستطاع بعض الأعضاء ومنهم سكاليري الإفلات من قبضة السلطات العثمانية وسافروا إلى الخارج ، أما الباقون فقد قدموا للمحاكمة أمام محكمة عسكرية ، أصدرت عليهم أحكاماً تتراوح بين السجن مدداً مختلفة والنفي في إحدى القلاع النائية^(٢) . وهكذا فشلت هذه المحاولة الجديدة التي خططت لها لجنة سكاليري وعزيز بك لخلع السلطان عبدالحميد كما أخفقت من قبل محاولة على سعاوى أفندي ، ولم يكن لهاتين المحاولتين من نتيجة سوى أنهما جعلتا السلطان عبدالحميد يتخذ احتياطات أمن للحذر من خصومه . وجدير بالذكر أن هاتين المحاولتين وعملية إحراق الباب العالي قد تعاقبت ، وكان الجيش الروسي لا يزال يحاصر إستانبول معسكراً في ضواحيها يهدد باقتحامها .

وكان عبدالحميد يعلم كذلك أن للدول الأوروبية عملاء من جنسيات شتى منتشرين في إستانبول وأمهات المدن في طول البلاد وعرضها ، لأن هذه الدول لم تقع بما حصلت عليه في

(1) Lewis B.; op. cit., p. 176.

(2) Lewis B.; op. cit., p. 176-177.

مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ ويعدده من مكاسب إقليمية هائلة ، وإنما كانت تتطلع إلى مزيد من الأقاليم والامتيازات ، وهدرت المؤامرات لتحقيق أهدافها . وفى سنة ١٨٨٥ نجحت بلغاريا فى ضم روم إلى شرق - ولاية الرومى الشرقية - إليها بموافقة بريطانيا والنمسا والمجر خلافاً لما نصت عليه معاهدة برلين لعام ١٨٧٨ بتقسيم بلغاريا الكبرى . وردت روسيا فى العام التالى بتحويل باطوم إلى ميناء حرى ، أقامت فيه تحصينات عسكرية بدلاً من جعله ميناء حراً كما نصت معاهدة برلين ، ونشبت حرب بين الدولة العثمانية ومملكة اليونان التى ضمت إليها أقاليم عثمانية .

وفى عام ١٩٠٣ تفجر صراع دموى رهيب بين سكان مقدونيا المسيحيين . وتكونت جمعيات إرهابية مسيحية من البلغاريين والصرب والرومانيين واليونانيين ، وظفروا بالمساعدات المالية والأسلحة والعتاد والحماية من قناصل بعض الدول . وسنشير إلى هذه المنظمات الإرهابية عند كلامنا عن مثيلاتها الأرمنية فى الجزء الثالث من هذه الدراسة . وفرضت الدول رقابة إدارية مخطلطة على سالونيك ، وقوصوه ، ومناصر . وأنشئت شرطة دولية . واستغلت النمسا الفرصة لدعم نفوذها على كل الأراضى التى تصلها ببحر الأرخبيل ، وحصلت على امتياز سكة حديدية تمر بنو فى بازار (١) Noyibazar . وردت روسيا عليها بمشروع مضاد (٢) ، وعلى هذا النحو كانت الأخطار الخارجية الجسيمة تحيط بالدولة من يمين وشمالى : اقتطاع ممتلكاتها رقابة دولية رسمية على شلوها المالية والإدارية ، تصاعد نفوذ سياسى أوروبى ، تغلغل اقتصادى متخذاً أشكالاً شتى ؛ فضلاً عن أخطار داخلية كان من بينها مؤامرات لإنهاء حكم السلطان عبدالحميد .

ولايعاب على حاكم أن يحتاط لنفسه ، وأن يحافظ على الدولة والعرش معاً من أن يتعرضا لهزات عنيفة تنشأ عن اعتقاله أو عزله . وقد أثبتت الأحداث التى تعاقبت على الدولة بعد عزله عام ١٩٠٩ رأيه الثاقب وحصافته السياسية ، وكان لكل قضية سياسية من قضايا

(١) أعلن أمرنتال Achrenthal ، وزير خارجية النمسا الجديد سنة ١٩٠٨ ، عن مشروع ترمع النمسا إنشاء... يقوم على مد خط حديدى ويمر بصنجدق نوفا بازار Novi Bazar ، ويتصل بنهاية الخطوط العثمانية عند متروفيكا Mitrovica ، وبهذا تتصل فيينا مباشرة بشفر سالونيك على بحر إيجه ، كما يزداد الجبل الأسود انخفاصاً عن الصرب . ويلاحظ أن الروح العدائية ضد روسيا كانت كامنة وراء هذا المشروع النمساوى.

(٢) وضع هذا المشروع إزفولاسكى Izvolsky وزير خارجية روسيا الجديد ، ويقوم على إنشاء خط حديدى ، يستمد من الصدود الشرقية للصرب على نهر الدانوب إلى سان چيوفانى دى ميوا San Giovanni di Medua فى ألبانيا . ومن شأن هذا المشروع أن يكون هناك اتصال حديدى من الصرب إلى ألبانيا على البحر الألبانى المؤدى إلى البحر المتوسط . ويواجه فى الوقت ذاته المشروع النمساوى الذى ينتهى بشفر سالونيك على بحر إيجه المؤدى إلى البحر المتوسط .

خصومه ظروفها وملابساتها .. أما تعميم الحكم على جميع القضايا فليس من العدالة في شيء . وهنا سؤال يفرض نفسه فرضاً على الباحث المحايد إذا أنحى جانباً هذا التعداد الخيالي لعدد الجواسيس وهو ٣٠,٠٠٠ لماذا هذا الإصرار على تسميتهم «جواسيس» بدلاً من رجال المباحث أو المخابرات أو الاستخبارات أو غير ذلك من المسميات ؟ الجواب عن هذا التساؤل معروف ، فكلمة جواسيس تنفر منها النفس وتوحى إلى الذهن بالجو الرهيب الذي كانت تحياه الدولة على عهده . فتكون الصورة عن حكم عبدالحميد في الذهن والنفس معاً أشد ظلاماً وأعرق إيلاماً وأكثر بشاعة . لقد لجأ السلطان عبدالحميد إلى إعدام بعض خصومه أو إبعادهم خارج الدولة إلى أوروبا أو اعتقالهم ولجأ أيضاً إلى مراقبة خصومه . ولكن لم تكن هذه الوسائل بالحجم الرهيب الذي صورته حملات التشهير بهذا السلطان .

مناقشة أسر الشريف الحسين وعائلته في إستانبول :

والى جانب وسائل الإعدام والإبعاد والاعتقال ، كان عبدالحميد إذا شعر بخطر من أحد كبار خصومه السياسيين استعماله إلى المعجىء إلى إستانبول ليكون على مقربة منه ويأمن شره .. فكان يوجه إلى دعوة رفيقة لاستضافته في العاصمة وينزله في قصر رحيب تحيط به الحدائق الوارفة الظلال . ويسبغ على ضيفه مظاهر التكريم ، ويقوم على خدمته حشد من الأتباع والخدم ، ويتيح له أسباب الحياة الرغدة . وكان من هؤلاء «الضيوف» الشريف الحسين ابن على أمير مكة المكرمة فيما بعد^(١) .. تلقى دعوة رفيقة من عبدالحميد ليذهب مع أسرته إلى إستانبول ، ويقم فيها بعض الوقت ، فوصلها عام ١٨٩٣ وكان في نهاية العقد الرابع من عمره ، ومعه زوجته وأولاده الثلاثة الذين كانوا قد بلغوا سن الالتحاق بالمدارس وهم على (ملك الحجاز فيما بعد) ، وعبدالله (ملك المملكة الأردنية الهاشمية فيما بعد) ، وفيصل (ملك العراق باسم فيصل الأول فيما بعد) .

وكان من مظاهر تكريم السلطان للشريف الحسين أنه خصص له ولأسرته داراً ساحلية تطل على البوسفور ، وعينه عضواً في مجلس شورى الدولة وفي عدد من المجالس الفخرية . وقد ظلت هذه الأسرة في إستانبول معززة مكرمة زهاء خمسة عشر عاماً أمضتها في حياة هادئة ، موظف أفرادها بإندامات سلطانية كثيرة . ووطد الشريف الحسين وابنه عبدالله علاقتهما بالسفير البريطاني في إستانبول ؛ مما يدحض قول عبدالله فيما بعد إن الأسرة كانت في حالة أسر وإبعاد ونفى^(٢) .

يقول الأستاذ أنيس صايغ إن نقل الحسين من مكة المكرمة إلى إستانبول كان تقليداً

(١) عين في هذا المنصب في سبتمبر - أيلول - عام ١٩٠٨ .

(٢) عبدالله بن الحسين (الملك) : مذكرات الملك عبدالله . نشر أمين أبي الشعر ، عمان ، ١٩٦٥ ، ص

مألوفاً ، سار عليه السلاطين وطبقوه على أمراء مكة منذ قرون ، حاولوا بواسطته أن يأمنوا جانب الأمراء الذين كانوا يصرفون وقتهم وجهودهم على المشاغبة ضد بعضهم بعضاً . ولم يمر يوم واحد في قرون الحكم العثماني لم يكن نصف الأمراء المتنازعين في مكة ، على الأقل ، في ضيافة السلطان في العاصمة . كان الحسين مكرماً في الآستانة ومقرباً من السلطان .. كان وعائلته ضيوف شرف على الخليفة ، وقد حصلوا على إنعامات سلطانية كثيرة . وعين عميد العائلة عضواً في عدد من المجالس الاستشارية والفخرية ، وعين ابنه فيصل سكرتيراً للسلطان^(١) .

والواقع أن السلطان عبدالحميد كان يتوجس خيفة من الشريف الحسين ابن علي ، ويرى فيه رجلاً ذا أطماع سياسية واسعة ، وأنه إذا ظفر بمنصب أمير مكة المكرمة .. فإنه لن يقع بهذا المركز الرفيع ، بل إنه سيتطلع في قابل الأيام إلى حكم العرب أجمعين ثم إلى منصب للخلافة الإسلامية . كانت هناك منافسة حادة على منصب أمير مكة بين الشريف الحسين وعمه الشريف عون الرفيق الذي ظفر بالإمارة في عام ١٨٨٢ ، وامتلأ قلب الحسين حقداً وحسداً وتوالت شكائاته إلى السلطان عن المظالم التي ينزلها عمه بالحجاج وابتزاز أموالهم وتقاعسه عن الضرب على أيدي العربان الذين كانوا يقتلون الصحة^(٢) ، ولكن عبدالحميد التزم جادة الحق والحكمة السياسية فأرسل بعثة برياسة أحمد رايت باشا لتقصي الحقائق ، وجاء تقريرها في مصلحة الشريف عون الرفيق ، وألقت تبعه ماحداث من فتن واختلال الأمن على والي الحجاز حسين جميل باشا ، فأصدر السلطان فرامناً بعزله وتعيين رايت باشا مكانه . وظل عون الرفيق أميراً على مكة المكرمة . واستدعى السلطان إلى إسطنبول الشريف الحسين مع أسرته . ولما جاز عون الرفيق إلى ربه الشريف سنة ١٩٠٥ ، رفض السلطان تعيين الشريف الحسين أميراً على مكة ، وعين في هذا المنصب ابن أخ الشريف المتوفى ، وهو علي بن عبدالله بن محمد بنو عون الذي كان من أصدقاء السلطان عبدالحميد .

ولم تكد تمر ثلاث سنوات حتى وقع حادث لم يكن في الحسبان ، وهو حدوث الانقلاب الدستوري سنة ١٩٠٨ ونجاح رجال الاتحاد والترقي في حمل السلطان على إصدار التشريعية ، الدستور ، وفيه حددت اختصاصات السلطان . وكان الشريف علي بن عبدالله أمير مكة من خصوم رجال الاتحاد والترقي بحكم صلاته الوثيقة بالسلطان ، فخشى أن ينتقموا منه فغادر

(١) أنيس صايغ : الهاشميون والثورة العربية الكبرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧-٢٨ .

(٢) دكتور فائق بكر الصواف : العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز في الفترة ما بين ١٢٩٣-١٣٣٤ هـ

(١٨٧٦-١٩١٦ م) ، مطابع سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٧٨ رسالة دكتوراه تحت إشرافنا . ص

ص ٨٦-٩٤ .

الحجاز مسرعاً إلى مصر لاجئاً سياسياً . وانتهاز رجال الاتحاد والترقي هذه الفرصة وعزله من منصبه وعينوا مكانه الشريف عبدالإله وكان طاعناً في السن مات بعد يومين من تعيينه . ويقال إنه مات من شدة الفرح بتعيينه في هذا المنصب^(١) .

ونجحت الجهود المكثفة التي بذلها الشريف للحسين وابنه عبدالله لدى السفارة البريطانية في إسطنبول ولدى رجال الاتحاد والترقي ، الذين كان لهم النفوذ الأعلى في الدولة لاستصدار فرمان سلطاني بتعيين الحسين بن علي أميراً على مكة^(٢) . ولما وقع السلطان عبدالحميد الثاني على هذا فرمان ، عبر عن مخاوفه من أطماع الحسين قائلاً : «لقد خرجت الحجاز من يدنا ، واستقل العرب ، وتشقت ملك آل عثمان بتعيين الشريف الحسين أميراً على مكة المكرمة . وياليتني ينقذ بإمارة مكة المكرمة وباستقلال العرب فقط ، ولكن سيعمل بدهائه إلى أن ينال مقام الخلافة لنفسه»^(٣) .

وقد تحققت مخاوف السلطان عبدالحميد وصحت نبوءاته . فقد أعلن الشريف الحسين بن علي الثورة في الخامس من شهر يونيو - حزيران - عام ١٩١٦ على الدولة العثمانية منضمّاً إلى بريطانيا ، ونادى به أعيان الحجاز في الثاني من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩١٦ «ملكاً على البلاد العربية» . ولكن اعترفت به بريطانيا وفرنسا في الثالث من يناير - كانون ثان - عام ١٩١٧ «ملكاً على الحجاز» ، وترجع أولاده الثلاثة على ثلاثة عروش عربية ، صدرت بشأنها قرارات من مقررياسة الوزارة البريطانية - ١٠ داوننج ستريت في لندن - ثم كانت خاتمة نشاطه السياسي ، حين أعلن نفسه خليفة على العالم الإسلامي في عمان حيث كان في زيارة ابنه عبدالله أمير شرقي الأردن في ذلك الوقت ، منتهزاً فرصة إقدام الجمهورية التركية على إلغاء الخلافة في الثالث من شهر مارس - آذار - عام ١٩٢٤^(٤) .

(١) أنيس صايغ : الهاشميون والثورة العربية الكبرى . مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦-٣٧ .

(٢) محمد طاهر العمري الموصلي : تاريخ مقبرات العراق السياسية ، ٢ مجلدات ، بغداد ، ١٣٤٢-١٩٢٥م ، المجلد الأول ، ص ١٧٧ .

(٣) مرت مساعي الحسين للظفر بالخلافة الإسلامية بمرحلتين رئيسيتين : كانت المرحلة الأولى حين طلب بصفته شريف مكة وأميرها من بريطانيا في اليوم الرابع عشر من شهر يوليو - تموز - عام ١٩١٥ أن توافق على إعلانه خليفة على المسلمين ، ضمن طلبات أخرى في مقابل تحريك ثورة عربية ضد الدولة العثمانية إبان الحرب العالمية الأولى . وجاء الرد المؤرخ في اليوم الثلاثين من شهر أغسطس - آب - عام ١٩١٥ من سير آرثر ماكماهون Sir Arthur Me Mahon ، المندوب السامي البريطاني في القاهرة ، يقول «ولننا نصرح هنا مرة أخرى أن جلالة ملك بريطانيا العظمى يرحب باسترداد الخلافة إلى بيت عربي صميم من فروع تلك الديعة النبوية المباركة» . وعلق عليها «الشريف» الحسين في رده على المندوب السامي بقوله «أما الخلافة فإن الله يرضى عنها ، ويصر الناس بها» .

أما المرحلة الثانية فكانت في أثناء وجود «الملك» الحسين في عمان التي كان قد وصلها في اليوم الثامن من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٩٢٤ قادماً من مكة المكرمة للتفاوض مع زعماء فلسطين في=

ويتحقق نبوءات السلطان عبدالحميد الثاني ، دل هذا السلطان على أنه كان سياسياً محكناً من الطراز الأول بعيد النظر ، ذا حصافة سياسية ، حريصاً على المحافظة على استقلال الدولة وعلى تماسك ممتلكاتها . ولكن الملاحظات السياسية والقوى الأوروبية كانت أقوى من الدولة لتقف في وجهها وهي تقترب من فترة الاحتضار ، أو بعبارة أكثر دقة ، وهي تجتاز فترة الاضمحلال وبخاصة بعد عزله عام ١٩٠٩ .

أهداف حملات التشهير بالسلطان عبدالحميد :

والرأي الراجح أن التشهير العنيف والواسع النطاق الذي اقترن بسيرة السلطان عبدالحميد الثاني ، يستهدف بعد عزله تحقيق أربعة أغراض . كان الغرض الأول هو الدفاع عن أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، حين أقدموا على خلع عبدالحميد عام ١٩٠٩ ، فأرادوا تبرير تصرفهم بأنهم - وهم في زعمهم حماة الدولة - لم يكن أمامهم سوى طريق واحد هو إنهاء حكمه كي تستعيد الدولة مكانتها وتسترد ولاياتها السلبية ، التي انتزعتها منها الدول الأوروبية على عهده .

وكان الغرض الثاني هو تغطية فشلهم الذريع في حكم الدولة ، سواء في شؤنها الداخلية أو الخارجية كي يعتقد الرأي العام في الدولة وفي خارجها أن حكمهم لم يكن أسوأ من حكم عبدالحميد ، الذي لم يكن فيه الفر يتمتع بحريته أو يأمن على حياته ، وأن البلاد في ظل هذا السلطان كانت محرومة من الحياة الدستورية خاضعة تماماً للسيطرة الأجنبية .

ومن الثابت تاريخياً أن رجال الاتحاد والترقي حين استأثروا بالنفوذ ، ثم انفردوا بالحكم انقلبوا حكاماً طغاة مستبدين من الطراز الأول ، أو كما يسميهم الأستاذ محمد شفيق غريال «رجال الطغيان العسكري»^(١) ؛ فقد لجأوا إلى أساليب استفزازية دلت على حماقة والجهالة

= مستقبل بلادهم ، كما أجرى مفاوضات مع وفد صهيوني أنتكبت اللجنة التنفيذية الصهيونية . وفي أثناء إقامته في عمان جاءت الأنباء بأن الجمهورية التركية قد ألغت الخلافة . فاغتنم هذه الفرصة واتفق مع ابنه عبدالله ، أمير شرقي الأردن ، على اتخاذ القريتيات لإجراءبيعة الملك الحسين بالخلافة . وتم لهما ما أرادا . وجرت البيعة في اليوم الثاني عشر من شهر مارس - آذار - عام ١٩٢٤ في عمان ، ونون الرجوع إلى ملوك وريثاء وقادة الفكر في العالم العربي والإسلامي ؛ مما أسخط عليه الجميع وعدوه مستغلا نهازاً للفرص ، يعمل لتحقيق مصالحه الشخصية . وقد غادر الخليفة والملك الحسين عمان في اليوم العشرين من شهر مارس - آذار - عام ١٩٢٤ ، يحمل لقباً جديداً هو الخلافة في وقت كان عرشه يهتز اهتزازاً عنيفاً أمام هجوم قوات «السلطان» عبدالعزيز آل سعود . واضطر إلى التنازل عن العرش لابنه على في اليوم الرابع من شهر أكتوبر - تشرين أول - من العام ذاته . وسرعان ما انهارت الدولة الهاشمية وغادر الملك على المجاز ونودي في اليوم الثامن من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٩٢٦ بالسلطان عبدالعزيز سعود ملكاً على البلاد الحجازية ، انظر :

أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، مرجع سبق ذكره ، المجلد الثالث ، ص ١٧٤-٢٢٠ .

جامعة الدول العربية : الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢-١٣ .

(١) بحث مزيد وضعه الأستاذ محمد شفيق غريال لاستيفاء المادة العلمية عن الأتراك العثمانيين ، في دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، الطبعة الثانية ، مادة «الأتراك» .

بأصول الحكم ، وأثاروا مزيداً من الفِرقة بين العناصر التركية الأصل والعناصر المسيحية والإسلامية غير التركية ، فكانت هذه العناصر طرائق قددا اشتعلت بينها العدواة والبغضاء .

وكان «التنسيق» من أبسط وأولى هذه الوسائل الاستفزازية ، والتنسيق يقابل في شكله الظاهري التطهير في بعض الدول العربية في التاريخ المعاصر .. فقد عمد رجال الاتحاد والترقي بعد أن استتب لهم الأمر إلى طرد عدة آلاف من الموظفين العرب والألبانيين والأكراد من مناصبهم الحكومية ، بحجة أنهم وصلوا إليها إبان الحكم الحميدي عن غير طريق الكفاءة والاستحقاق^(١) . وللتقريب على رجال الاتحاد والترقي ، إذا قاموا بحركة التنسيق مستهدين الصالح العام وتأمين حركتهم وحكمهم ، ولكن اتضح بما لا يدع مجالاً للشك أن حركة التنسيق كانت في لحمتها وسداها حركة عنصرية ؛ لأنهم عينوا موظفين طورانيين أى من الأتراك العثمانيين في جميع المناصب ، التي خلت بطرد شاغلها سواء كانوا عرباً أو ألبانيين أو أكراداً .

ولكى يضفى رجال الاتحاد والترقي طابعاً قانونياً على حركة التنسيق ، ألغوا في عاصمة كل ولاية لجنة خاصة على أن تتبع هذه اللجان لجنة عليا في وزارة الداخلية ، ووضعوا لها قواعد تهتدى بها ذراً للرماد في الأعين . وكانت الدولة إبان حكمهم الذي استمر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى تفقد كل عام أقاليم هامة في أوروبا وإفريقية وآسيا ، وكانت الصعوبات الداخلية والأخطار الخارجية التي واجهتهم بعد عزل عبد الحميد جعلتهم يزدادون تمسكاً بمقاييد الأمور بحيث أصبح بقاؤهم على كراسي الحكم هو عندهم غاية الغايات . ولضمان هذا الهدف الأسمى في نظرهم قبضوا على البلاد بيد من حديد واعتمدوا على سياسة «الحزب الواحد» وهو حزب الاتحاد والترقي ، وهي سياسة ثبت فشلها الذريع في التاريخ المعاصر سواء في بعض الدول العربية أو الأوروبية ؛ حيث ساد الكبت والرهبة والتمزق والحكم الاستبدادي العنيف وفرض الرقابة على الصحف وحل الجماعات وتشريد القادة وإنشاء المحاكم العسكرية تصدر أحكاماً قاسية متفقاً عليها من قبل ، وتوزيع المناصب على الأنصار ومن إليهم من أهل الثقة وما إلى ذلك من عيوب نظام «الحزب الواحد» .. فلما قامت هذه الحرب عام ١٩١٤ لم يتبق للدولة من ممتلكاتها في أوروبا سوى جزء صغير هو ترافيا الشرقية .

وروجد رجال الاتحاد والترقي في نشوب هذه الحرب «مغامرة قد يكسبونها» ، فإذا تم لهم ذلك نسي مواطنهم إخفاق حكامهم في كل ما حاولوه منذ أن استولوا على مناصب الحكم ، وكان هذا الإخفاق ظاهراً شاملاً . فالحكم الدستوري كان اسمياً ، والوحدة العثمانية التي تجلت مظاهرها إبان الانقلاب الدستوري (١٩٠٨) تلاشت سريعاً وحلت محلها خطة عصبية تركية ، أخذت الشعوب غير التركية بالحديد والنار . وكان رجل الدولة ينعون على السلطان عبد الحميد

(١) أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٤ .

انفراط عقد الدولة في أيامه وتفريطه في صيانة ولايات الدولة ، وهامهم أنفسهم لم يقرؤا - وقد حلوا محلّه - على منع ما فقدته الدولة في حروبه ... (١) فزج أولئك العسكريون بالدولة في أتون الحرب في مستهل شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩١٤ إلى جانب دولتي الوسط - ألمانيا ، والنمسا والمجر - وانتهت الحرب بهزيمة الدول الثلاث وحليفاتها الأخريات . وتمت على أيدي رجال الاتحاد والترقي تصفية الدولة العثمانية ، أما الدولتان الأخريان .. فقد تم تفتيتهما إلى دول من الصف الثاني أو الصف الثالث .

أما الغرض الثالث من حملات التشهير بالسلطان عبدالحميد الثاني فكان إبراز صورة وضيفة ناصعة البياض لعهد مصطفى كمال - كمال أتاتورك (٢) ومشايخه ، إذا قرّرت حكمهم بحكم السلاطين العثمانيين بعامّة والسلطان عبدالحميد بخاصة ؛ إذ كان أقربهم إلى أذهان الجماهير التركية لقرب عهدهم به ، ولأنّه كان من أشهر السلاطين ، وإن كانت شهرته قد لوثتها الدعاية ضده ، وكانت دعاية موجهة . كما كان من أهداف كمال أتاتورك وأنصاره - على غرار أهداف رجال الاتحاد والترقي - تبرير تصرفاتهم حين ألغوا نظام السلطنة العثمانية (أول نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٢٢) ، ثم أنشأوا النظام الجمهوري وأعلنوا قيام الجمهورية التركية (٢٩ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٢٣) ، ثم ألغوا الخلافة الإسلامية (٣ من مارس - آذار - عام ١٩٢٤) ومضوا في سياستهم فأنكروا الصفة الإسلامية والصفة الشرقية للجمهورية التركية ، ولم يهتموا إلا بالطابع التركي المتمزّت والطابع غير الديني المتحرر ، وجعلوا قوانينهم كلها مدنية صرفة منقولة عن القانون السويسري مما كان له أفدح النتائج؛ فألغوا نظام تعدد الزوجات ، كما أصبح من حق التركية أن تتزوج رجلاً مسيحياً أو يهودياً ، وقرروا الأخذ بنظام الزواج المدني وتقرير حقوق متساوية للزوج والزوجة ، وتخويل كل شخص بالغ الحق في تغيير عقيدته الدينية حسب رغبته . وفرضوا أجهزة مدنية كافية لمواجهة مهمة تسجيل الزواج بعد أن أصبح مدنياً ؛ كي يصبح زواجا قانونياً لاتعرف الدولة بسواه ، وتعترف الدولة بنتائج من ثبوت حقوق الإرث وما إلى ذلك ، وشهروا حرباً على الحجاب بالنسبة للسيدات ، وعلى الأزياء القديمة بالنسبة للرجال الذين كان عليهم أن يرتدوا الملابس الأوروبية والقبعات (٣) ، ومنعوا أئمة المساجد ، من ارتداء العباءة خارج المساجد ، وحولوا عدداً كبيراً من

(١) الأستاذ محمد شفيق غريال . بحث سبق ذكره .

(٢) أسقط من اسمه الكلمة العربية الصحيحة مصطفى ، وهي من أسماء النبي صلوات الله وسلامه عليه ، واكتفى بالاسمين كمال وأتاتورك . ومعنى الاسم الأخير : والد الأتراك . واشتهر بالاسم الأخير فقط .

(٣) صدر في شهر مارس - آذار - عام ١٩٢٦ بيان عن «رياسة الشؤون الدينية الإسلامية في المملكة المصرية ينشد بعمل الأتراك المسلمين على ارتداء القبعات» . وقد وقع على هذا البيان شيخ الجامع الأزهر ومفتي الديار المصرية .

انظر :

المساجد الكبرى والصغرى عن أغراضها الدينية إلى أغراض مدنية .

من الأمثلة الصارخة التى تساق فى هذا الصدد المسجد الذى كان فى أول أمره كاتدرائية القديسة صوفيا فى القسطنطينية ، ثم حولها السلطان محمد الفاتح أو أبو الفتح عقب فتح هذه المدينة مباشرة إلى مسجد ليكون المسجد الجامع الرئيسى فى العاصمة الجديدة ، التى أطلق عليها اسماً إسلامياً هو إستانبول أى دار الإسلام ، كما سبق أن ذكرنا ، ثم جاء الكماليون فحولوا هذا المسجد إلى متحف وطنى . ولم يشيد الكماليون أى مسجد جديد فى أنقرة عاصمة الجمهورية . وجعلوا الأجازة الأسبوعية الرسمية فى وزارات الحكومة ومصالحها يوم الأحد بدلاً من يوم الجمعة ، وأصبحت الأجازة تبدأ من الساعة الأولى من بعد ظهر يوم السبت إلى صباح يوم الإثنين ، وأبطلوا كتابة اللغة التركية بالحروف العربية واتخذوا لها حروفاً لاتينية ليسهل نطقها باللغة التركية ، وتيسيراً للقراءة والكتابة على المتعلمين وتوثيقاً للاتصال باللغات الأوروبية مفاتيح العلوم الحديثة ... هذه هى الذرائع التى ذكرها غريال^(١) . أما المؤرخ الإنجليزي برنارد لويس . فقد قرر أن الكماليين استندوا إلى أن الاتحاد السوفيتى قد اتخذ قراراً مماثلاً فى الأقاليم السوفيتية التى يتكلم سكانها لغات تركمانية .. فكان هذا القرار مثلاً يحتذى ودافعاً لحكومة الجمهورية للتركية على إصدار قرار على غرار^(٢) ، وأهم من هذه الإجراءات كلها ، وفوق هذه الإجراءات كلها ألغى الكماليون منصب شيخ الإسلام ووزارة الأوقاف والمؤسسات الخيرية ، وأنشأوا إدارتين جديدتين إحداهما للشئون الدينية ألحقت بمكتب رئيس الوزارة فى أنقرة ، والأخرى للمؤسسات الخيرية^(٣) ، وألغوا أيضاً التعليم الدينى فى جميع مراحل التعليم . وكانت جميع هذه الإجراءات تنبثق من نظرة الكماليين إلى الإسلام ، وهى نظرة تمثلت فى أنه عقيدة دينية فقط ، فلم يكن الإسلام فى نظرهم نظاماً سياسياً أو اجتماعياً ، وتأسيساً على هذه النظرة .. جردوا الجمهورية التركية من صفاتها الدينية ، ومن ثم اتخذوا هذه الإجراءات التى وصفها الأستاذ غريال بأنها كانت عملية «هدم عنيف» .

وفى الوقت ذاته ، عمل الكماليون على تنريك العبادة Turkicization of Worship ، فأذان الصلاة يجب أن يكون باللغة التركية من مآذن المساجد ، وأن ينلى القرآن الكريم باللغة التركية وأمروا بترجمته إلى اللغة التركية ترجمة رسمية معتمدة من الحكومة وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة واعتمدوا مبالغ كبيرة لهذا الغرض . وأن تكون الصلاة باللغة التركية ، وأن يرتدى أئمة المساجد قبة من نوع الطاقية (Un Beret) حتى يكون فى مكنة الأئمة السجود ، ولكن منعوهم من ارتداء العباءة خارج المساجد . وكان ارتداؤها مقصوراً على الأئمة ونفر من علماء الدين .

(١) الأستاذ محمد شفيق غريال ، البحث السابق .

(2) Lewis Bernard; op. cit., p. 277.

(٣) انظر فى هذه الدراسة الفصل الرابع عشر ، الجزء الأول .

هذه الإشارة السريعة والعابرة لبعض الإجراءات ، التي اتخذها الكماليون تبدو على طرف نقيض من تصرفات السلاطين السابقين .. فبينما ولت الجمهورية التركية وجهها شطر أوروبا نعتبت منها العلوم والثقافة ونظم التعليم والقوانين المدنية والجنائية والتجارية والبحرية ونظم الحكم والإدارة وما إلى ذلك بعيداً عن مبادئ الشريعة الإسلامية والقاعدة الإسلامية والشرقية ، التي أقام عليها أجدادهم السابقون دولة مترامية الأطراف اكتسحت جيوشها لأول مرة في التاريخ أقاليم في شرقي ووسط أوروبا ، نجد أن السلاطين - محمود الثاني ، وعبدالمجيد الأول ، وعبدالعزیز ، وعبدالحميد الثاني^(١) .. كان لهم تحفظات في كل ما اقتبسوه من الحضارة الغربية ، وقد حروا على هذه التحفظات حتى لاتفقد الدولة طابعها الإسلامي البارز وطابعها الشرقي . وعلى سبيل المثال احتاطوا في النقل عن القوانين الأوروبية ، فاحتفظوا بحياة الأسرة ؛ أي لكيان الأمة الاجتماعي ، بأساسها الشرعي الإسلامي^(٢) ، وفي التزوي بالآزياء الأوروبية أنكروا القبعة ، بينما اعتبر الكماليون عدم استخدام القبعة والإصرار على لبس الطربوش جريمة يعاقب عليها القانون .

أما الغرض الرابع والأخير من حملات التشهير بالسلطان عبدالحميد الثاني .. فكان رغبة القائمين على الحركة الصهيونية في تدمير سيرته ، انتقاماً منه لسياسته المعادية لأهدافهم في فلسطين . وقد عرضنا بعض معالم هذه السياسة في الفصل السابق ، ونضيف هنا حقيقتين تتصلان بالأيام الأخيرة بل وبالساعات الأخيرة من حكم هذا العاهل المسلم العثماني .

الحقيقة الأولى :

أسهم الصهيونيون - بتعاون قليل أو كثير مع بريطانيا- في تأليب أعضاء جمعية الاتحاد والترقي الناقمين على حكم السلطان عبدالحميد ، وقد تلاقت دوافع الفريقين .. فالصهيونيون يحقدون على السلطان لسياسته الرامية إلى الحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، ويحقدون عليه لأنه اتخذ من بعض كبار العرب مستشارين له في حاشيته مثل عزت العابد وأبي الهدى الصيادي وغيرهما ، وكانوا قد بلغوا شأواً بعيداً في النفوذ ، وشجعوا السلطان على المضي في معارضته للحركة الصهيونية .

أما بريطانيا فكانت تحقد على السلطان ، لأنه ولي وجهه شطر برلين واتخذ من الإمبراطور الألماني ولهم الثاني سنداً له في السياسة الأوروبية ، واستقدم إلى إستانبول عدداً

(١) كانت سنوات حكم هؤلاء السلاطين على التوالي : ١٨٠٨-١٨٣٩ ، ١٨٣٩ - ١٨٦١ ، ١٨٦١ - ١٨٧٦ ، ١٨٧٦-١٩٠٩ .

(٢) غريال ، بحث سبق ذكره .

(٣) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢-٢٣ .

كبيراً من الخبراء الألمان العسكريين والمدنيين من رجال المال والهندسة ، وقاموا بتنفيذ مشروعات شتى فى أنحاء الدولة ، بعد أن تبين للسلطان أن بريطانيا وفرنسا تتسابقان على اقتطاع ممتلكات الدولة . وكما تلاقى دوافع الصهيونية وبريطانيا التحمت أيضاً أهدافهما فى التخلص من حكم السلطان عبدالحميد .. أراد الصهيوينيون حاكماً من طراز آخر يبعد المستشارين العرب من ناحية ، ويخج عديد الفرص أمام الصهيوينيين لتحقيق أهدافهم فى فلسطين من ناحية أخرى ، وأرادت بريطانيا حاكماً جديداً يعيد إليها مكانتها ، التى كانت لها فى إستانبول قبل أن تتبوأ ألمانيا مكان الصدارة على سائر الدول فى العاصمة العثمانية .

ولهذه الأهداف وتلك الدوافع ، رحب الصهيوينيون بالانقلاب الدستورى عام ١٩٠٨ ثم بالانقلاب العسكرى عام ١٩٠٩ ، وحدث ماكانوا يشتبهون . فقد تغفل الصهيوينيون فى مجالس جمعية الاتحاد والترقى التى تولت الحكم ، وكانوا من حيث النفوذ يجلسون فى الجمعية بعد الأتراك العثمانيين . وبرز منهم عدد ليس بالقليل فى الدوائر العليا فى حكومة إستانبول ، ونذكر منهم على سبيل المثال طلعت باشا والذى شغل منصب وزير الداخلية ، وهو يهودى اعتنق الإسلام ^(١) ، ويطلق عليه وعلى أمثاله فى التاريخ العثمانى الدومة .

وقد استطاع الصهيوينيون فى السنة ذاتها التى تم فيها الانقلاب الدستورى تأسيس وكالة صهيوينية A Zionist Agency فى إستانبول ، وعينوا رئيساً لها فيكتور جاكوبسن Victor Jacobson (١٨٨٩-١٩٣٤) وهو يهودى ، روسى المولد ، تعلم فى ألمانيا واكتسب الجنسية العثمانية . وكان نشاط الوكالة الصهيونية ، وتقصى أنباء نشاط العرب فى العاصمة العثمانية وموافاة الهيئة التنفيذية الصهيونية بالاتجاهات العربية نحو الهجرة اليهودية إلى فلسطين وتمليك اليهود لأراضيها ، كما كان عليها الإسهام فى التمويل المالى لصحيفة Le Jeune Ture - التركى الشاب - وكانت تصدر فى العاصمة العثمانية وتساند سياسة رجال الاتحاد والترقى فى الحكم ^(٢) .

واستطاع فيكتور جاكوبسن أن يتصل ببعض رجال السياسة العرب والصحفيين العرب فى محاولات مكررة ؛ لإقناعهم بأنه من الخير للقومية العربية أن يكف العرب عن معارضتهم للنشاط الصهيونى فى فلسطين لأنه فى استطاعة الصهيوينيين ، إذا أفلح العرب عن معارضتهم ، أن يساعدهم على تحقيق آمانيهم القومية ^(٣) . واستمرت هذه الاتصالات قائمة حتى شهر يوليو - تموز - عام ١٩١٤ ، ولكنها لم تسفر عن نتيجة إيجابية ، ويقول شتاين إنه

(١) المرجع السابق .

(2) Stein Leonard; op. cit., p. 36, 92, 93 & 206-207.

(3) Loc. Cit.

لما حوكم بعض زعماء العرب في سنة ١٩١٥ أمام «دواوين عرفية»^(١) في بيروت ودمشق بتهمة الخيانة العظمى وجدت السلطات العثمانية في أوراق بعض المتهمين ما يثبت قيام اتصالات بينهم وبين رجال الوكالة الصهيونية في إسطنبول ، وإن هذه الأوراق قد أثبتت أن الزعماء العرب لم يستمعوا لعروض الصهيونيين ، وأن هؤلاء الزعماء قد خلصوا رأياً إلى أنه ليس في مقدور الصهيونيين مساعدة القضية العربية على حساب ولائهم للدولة العثمانية^(٢) .

وقد أسهم مع فيكتور جاكوبس في نشاطه بين العرب لفيف من الشبان الصهيونيين أصبحوا فيما بعد من زعماء الحركة الصهيونية ، كان من بينهم ديفيد جرين (بن جوريون) ، وين زفي ، وموسى شرتوك (شريت) . وقد ذاع خبر هذا النشاط الصهيوني في صفوف العرب وناقشته جمعياتهم في استفاضة وعمق ووقفت ضده وحذرت الجماهير العربية منه . وقد نجحت هذه الجمعيات بفضل تيقظ أعضائها في إحباط محاولة ، قام بها جاكوبس لشراء أراض عربية في فلسطين بمبلغ ثلاثة ملايين جنيه^(٣) ، وأسس الصهيونيون أيضاً في كبرى مدن بعض الولايات العربية بعد عزل السلطان عبدالحميد ما عرف باسم «المكتب الفلسطيني للمنظمة الصهيونية The Palestine Office of the Zionist Organization» ، وكان يشرف على هذه المكاتب الدكتور آرثر رويين Dr. Arthur Ruppين كبير الخبراء الصهيونيين في الشؤون العثمانية . وكانت مهمته إيجاد جو من الثقة بين العرب نحو اليهود ، وتبديد مخاوف العرب من أن اليهود سيفتلون حقوقهم إذا استوطنوا فلسطين .

الحقيقة الثانية :

وجد الصهيونيون في القرار الذي أصدره مجلسا الأعيان - الشيوخ ، والمبعوثان - النواب - في اليوم الثامن والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٩٠٩ بعزل عبدالحميد عن العرش فرصة لاجود الزمان يمثلها ، فأرادوا التشفى من هذا السلطان . وقد حمل قرار العزل إلى السلطان وقد قوامه ثلاثة أعضاء^(٤) كان أحدهم يهودياً اسمه قره صو أفندي كان يكنى العداوة والبغضاء للسلطان ، لأن الأخير كان قد طرده من قصره حين حاول التأثير عليه لقبول

(١) دواوين عرفية . جمع ديوان عرفي . وهو محكمة عسكرية عليا ، من اختصاصاتها محاكمة المتهمين بتهمة الخيانة العظمى ، وإصدار أحكام الإعدام عليهم ، ويصدق وزير الحربية على أحكامها . ويتكون الديوان العرفي من هيئتين : هيئة تحقيق وهيئة قضاء ، ويرأس كل هيئة ضابط ، وجميع أعضاء الهيئتين من الضباط .

(2) Stein Leonard.; op. cit., pp. 93-94.

(٣) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤ .

(٤) يذكر الأستاذ برنارد لويس أن عدد أعضاء الوفد ، الذي حمل قرار البرلمان إلى السلطان كان يتكون من أربعة أعضاء : اثنين عن مجلس الأعيان ، واثنين عن مجلس المبعوثان .

Lewis B.; op. cit., p. 217, fn. 28.

تهجير اليهود إلى فلسطين وتوطينهم فيها . ويعلق أحد الباحثين العرب على ما أسماه موقف الشماتة فيقول «وإنه لمنظر ملئ بالشماتة والحد ، أن يخلع سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين ، وأن يحمل له بلاغ الطرد أحد أبناء اليهود الذين حرم عليهم فلسطين...»^(١) . فلم يكن أمراً عجاباً أن أسهمت الحركة الصهيونية بأجهزتها الإعلامية والسياسية في حملات التشهير بالسلطان عبدالحميد ، الذي لم تكن له قناة أمام المخططات والمؤامرات الصهيونية لتهويد فلسطين .

(١) صالح مسعود أبو بصير ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢-٣٢ .

الفصل التاسع

آراء محايدة

في حكم السلطان عبدالحميد الثانى (٢)

حقيقتان هامتان :

ولدراسة تاريخ السلطان عبدالحميد الثانى دراسة موضوعية محايدة ، يجب أن توضع في الاعتبار حقيقتان هامتان :

الحقيقة الأولى :

عاصر حكم السلطان عبدالحميد الزحف الاستعماري الأوروبي في أعنف مراحل على ماتبقى من أقاليم ، لم يكن قد وصل إليها الاستعمار بعد في آسيا وإفريقية والإقباتوسية . كان لدى الدول الأوروبية فائض سكاني كنتيجة من نتائج الانقلاب الصناعي في أوروبا ، وعملت أوروبا على تصدير هذا الفائض إلى أراض جديدة تستعمرها . فأصبح الزحف على تملك المستعمرات ظاهرة بارزة في السياسة الدولية في الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر ، وزاد عدد المستوطنين الأوروبيين في شتى المستعمرات وسارت في ركابهم البعثات للتصيرية . وكان مما ساعد على اتساع نطاق حركة الزحف الاستعماري شق قناة السويس (١٨٦٩) والتقدم المذهل في وسائل المواصلات ، مثل : بناء السفن الحديدية التي تسير بالبخار والتوسع في مد الخطوط الحديدية ، وعلى سبيل المثال الخط الحديدى الذى أقامته روسيا عبر سيبيريا في محاولة للتوسع على حساب الصين ، وأطلق عليه الخط الحديدى عبر سيبيريا Trans Siberian Railway ويبلغ طوله ٦,٦٠٠ كيلو متراً ، وينتهى عند فلاديفستوك ، وهو الميناء الحبرى الذى أقامته روسيا على المحيط الهادى ، واستغرق مد هذا الخط الحديدى السنوات من ١٨٩١ إلى ١٩٠١ .

نظريتان استعماريتان في السياسة الدولية :

وجدير بالذكر أن نظريتين استعماريتين أصبحتا في ذلك الوقت قاعدة أساسية ركنت إليهما السياسة الدولية ؛ فظهرت النظرية البيولوجية السياسية . وكان من مبادئها أن للدول الكبرى حقاً في التهام الدول الصغرى ، وأن الشعوب الصغيرة يجب أن تموت أو أن تفتنى أمام الدول الكبرى ، وقد لقيت هذه النظرية تأييداً وانتشاراً واسعين في القرن التاسع عشر ؛ تبريراً لضراوة الزحف الاستعماري الأوروبي على أقاليم شتى في أنحاء العالم .

وأصبحت هذه النظرية البيولوجية السياسية نظرية استعمارية أخرى ، أطلق عليها Res Nullius أى الأرض التى لا صاحب لها ويترجمها بعض الباحثين ترجمة حرة غير حرفية على هذا النحو : الملك المباح ، وقد تنادى إليها غلاة المستعمرين . ومن مبادئها إياحة استعمار الأقاليم التى تسكنها شعوب مختلفة أو قبائل منعزلة عن ركب الحياة وغير مسيحية وخارج القارة الأوروبية .. فإن هذه الأقاليم التى تسكنها أمثال هذه الشعوب أو القبائل تعتبر فى حكم المناطق المهجورة التى لا يعرف لها صاحب ، وتصبح هذه المناطق ممتلكات شرعية لأول دولة تستطيع بقواتها المسلحة أو ببعض أفراد منها أن ترفع علمها فوق ربوعها . وقد وضع مؤتمر برلين الأفريقي (١٨٨٤-١٨٨٥) عدة شروط لهذا الاستيلاء ؛ حتى يحدث جميع آثاره القانونية فى المجال الدولى^(١) .

الروسيا تتبعل معظم آسيا الوسطى ومعظم القوقاز :

كانت الروسيا فى خلال عشرين سنة بعد حرب القرم قد نجحت فى ابتلاع معظم آسيا الوسطى ومعظم القوقاز .. فمئذ سنة ١٨٦٤ ، كان التوسع الروسى الإقليمى مستمراً فى تركستان^(٢) . وفيما بين سنتي ١٨٦٥ ، ١٨٦٨ استولت الروسيا على تركستان الشرقية بما فيها طشقند وسمرقند ، وهى المدينة الشهيرة التى كان يحكم منها جنكيزخان وتيمورلنك إمبراطوريتها الشاسعة ، وأصبحت بخارى إمارة تابعة لسان بطرسبرج ، وتوغلت فى تركستان الغربية سنة ١٨٨٠ . وفى هذه السنة التقت الإمبراطوريات الثلاث : البريطانية والروسية والصينية عملياً فى مكان واحد ؛ لأن البريطانيين اندفعوا فى آسيا غرباً بقدر سرعة الروس فى الاندفاع شرقاً ، ولم يكن هناك حاجز بين أراضي كل منها إلا جبال أفغانستان وصحراء فارس .

(١) كان من أهم هذه الشروط :

(أ) شرط الحيافة . (ب) شرط الإدارة .

أما شرط الحيافة فهو العنصر المادى ، إذا ما وضعت الدولة يدها فعلاً على الإقليم سواء برقع أعلامها عليه ، أو بإصدار إعلان يحمل هذا المعنى ، بشرط أن تترك الدولة على الإقليم مايكفل لها العمل على احترام سلطة العلم أو تنفيذ الإعلان . وللاضروية للإتفاق مع سكان الإقليم الأصليين على هذا الأمر ؛ إذ إن هذا الأمر - حتى فى حالة انعقاده - لا يترتب أثراً قانونياً .

أما الشرط الثانى - وهو شرط الإدارة - فلا بد أن يتوفر فيه أمران : أولهما ثبوت النية على أن الدولة تعزم إدخال الإقليم فى ولايتها . وثانيهما هو إقامة إدارة - فى صورة ما - على الإقليم لإظهار أن الدولة التى تحوز الإقليم تعزم إدارة هذا الإقليم الذى أدخلته فى ولايتها . وقد أضيف هذا الشرط الأخير لتفادى النتائج التى قد تترتب على الحيافة الرمزية .

انظر :

لنكتور حامد سلطان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٧٠٨-٧١٦ .

(٢) التركستان بوجه عام هى البلاد الواقعة إلى الجنوب من الروسيا الأوروبية وسيبيريا ، وإلى الشمال والغرب من فارس (إيران) وأفغانستان .

وأصبح تهديد روسيا للهند تهديداً مباشراً ، بعد أن كان في حرب القرم تهديداً غير مباشر بتهديد المواصلات البريطانية إلى الهند .

الروسيا تحتل بعض الأراضي الأفغانية :

وأعدت روسيا خطة لغزو الهند براً ، وكانت أفغانستان دولة حاجزة Un Etat Tampon تعتمد على بريطانيا . وفي عام ١٨٨٥ احتلت القوات الروسية بعض الأراضي الأفغانية على الحدود ، وفزع جلاندستون رئيس الوزارة البريطانية من هذا التحرك العسكري الروسي . وطلب من البرلمان فتح اعتماد مالي إضافي قدره أحد عشر مليون جنيه ، واتهم روسيا بالعدوان على دولة صغيرة دون استفزاز منها ، وكانت الحرب تندلع بين بريطانيا والروسيا .. لولا أن استبان على الطبيعة استحالة مرور الوقت المسلحة في ممرات جبال الهمالايا . فولى قيصر روسيا وجهه شطر الصين ، وهي إمبراطورية شاسعة كان قد دب الوهن والانحلال في أوصالها ، وكان يطلق على إمبراطورها «ابن السماء» . ولكن أدت محاولته إلى هزيمة ساحقة لقيتها روسيا على يد دولة فنية هي اليابان عام ١٩٠٥ ، واعتقرت في معاهدة بورث سموث Portsmouth المنعقدة في اليوم الخامس من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٩٠٥ بتنازلها لليابان عن بورت آرثر Port Arthur ، ومنشوريا ، وكوريا والنصف الجنوبي من جزيرة سخالين Sakhaline .

تقسيم فارس إلى منطقتي نفوذ روسي وبريطاني :

وقام صراع حاد بين روسيا وبريطانيا حول فارس .. أرادت كل منهما الانفراد حيناً والاستئثار بأكبر قسط من النفوذ فيها حيناً آخر ، وكان النفوذ الروسي قد تسال إلى فارس وتفاقم فيها نتيجة حالة الفساد والانحلال والفوضى التي اندحرت إليها فارس . واستطاعت روسيا أن تدخل في حرس الشاه ضابطاً من الروس إلى جانب ضباط وجنود القوزاق ، وأن تنشئ طرقاً وتمد خطوطاً حديدية ، ويقول إنزور Ensor إنه لو لم تكن بريطانيا دولة عظمى لاستطاع قيصر روسيا ضم فارس إلى إمبراطوريته ، والوصول عن طريق الخليج العربي إلى المياه الدافئة^(١) . ويلاحظ أنه كانت لبريطانيا مصالح تجارية في الخليج ولكن مصالحها الرئيسية كانت مصالح عسكرية ، وفي ٣١ من أغسطس - آب - عام ١٩٠٧ عقدت اتفاقية بين روسيا وبريطانيا تناولت ثلاث مشكلات رئيسية ، هي : فارس ، وأفغانستان ، والتبت . وتم بمقتضاها تقسيم فارس إلى منطقتي نفوذ : إحداهما في الشمال للروسيا ، والأخرى في الجنوب لبريطانيا ، وبينهما منطقة وسطى محايدة تركت لفارس ، مع اعتراف الدولتين بسيادة الشاه على

(1) Ensor R.C.K.; op. cit., pp. 402-403.

المنطقتين الروسية والبريطانية^(١) .

وبخصوص أفغانستان تعهدت روسيا بالأ تقيم معها علاقات سياسية إلا عن طريق بريطانيا ، فى مقابل تعهد بريطانيا بعدم إحداث أى تغيير فى الوضع السياسى لأفغانستان أو اتخاذ أى إجراء ينطوى على تهديد للروسيا . أما بخصوص التبت .. فتعهدت الدولتان بعدم التدخل فى شئون هذا الإقليم والأ تبعثا بممثلين لهما إلى لاسا Lhasa عاصمة التبت ، والأ تدخلها فيها فى مفاوضات إلا عن طريق إمبراطور الصين صاحب السيادة على التبت .

محاولة روسيا إنشاء مستعمرة لها فى شرقى إفريقيا :

وامتدت الأطماع الاستعمارية للروسيا فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر إلى إنشاء محطة للفحم لسفنها على ساحل إفريقية الشرقى ؛ أى على خطوط المواصلات البحرية إلى منطقة الخليج العربى والهند والشرق الأقصى ؛ على أمل أن تطور هذه المحطة فيما بعد إلى قاعدة بحرية روسية للتتهوى بإنشاء مستعمرة لها على غرار المستعمرات ، التى أنشأتها بريطانيا وفرنسا وإيطاليا فى شرقى إفريقية . وتكلمت الصحف الروسية عن مشروع «أول مستعمرة روسية فى إفريقية»^(٢) ، وارتبط هذا المشروع فى أذهان الدوائر العليا فى روسيا بفرض نوع من الحماية الدينية على مسيحيى الحبشة .. فكان هذا المشروع الروسى الاستعمارى مزيجاً من أهداف متشعبة عسكرية وسياسية ودينية واقتصادية .

واتخذت روسيا خطوات تمهيدية لتنفيذ مشروعها . ففى اليوم العاشر من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٨٨ أبحر أنتشينوفا Atchinoff ، وهو كاهن قوقازى ، ومعه وفد يتكون من مائتين من الرهبان والعسكريين والصناع والنساء والأطفال الروس من ميناء أودسا على ظهر إحدى السفن الروسية وسط شعور فياض من الحماس متجهاً إلى البحر الأحمر عبر قناة السويس ، ولما بلغت السفينة مصوع رفضت السلطات الإيطالية السماح لأفراد الوفد بالنزول ، فواصلت السفينة رحلتها جنوباً إلى ميناء تاجورة فى يناير - كانون ثان - عام ١٨٨٩ ونزل جماعة من الوفد فى ساجالو Sagallo ، وهو ميناء مهجور يتبع مستعمرة أوبوك الفرنسية ، وقام أعضاء الجماعة على الفور برفع راية البحرية الروسية على الميناء .. مما دل على أن أنتشينوفا أراد اتخاذ هذا الميناء قاعدة لعملياته سواء فى ذلك الوقت أو فى الزمن الآجل ؛ مما أزعج

(١) تعرضت المواد الخاصة بفارس لنقد شديد فى كل من روسيا وبريطانيا ؛ ففى روسيا هاجمها الكونت ويت Witte الذى تولى رئاسة الوزارة فيما بعد ، قائلاً إن الاتفاقية تنف عبقة فى سبيل تقدم روسيا جنوباً فى فارس . بينما هاجمها لورد كرزون Curzon نائب الملك فى الهند ، على أساس أن منطقة النفوذ التى أعطيت للروسيا تضم إحدى عشرة مدينة من اثنتى عشرة مدينة ، من أمهات المدن الفارسية.

(٢) الدكتور السيد محمد رجب حراز : التوسع الإيطالى فى شرقى إفريقية ، وتأسيس مستعمرتى إريتريا والصومال ، مطبعة جامعة القاهرة ، عام ١٩٦٠ ، ص ٢٩٨ .

السلطات الفرنسية في أوبوك وأمرت في اليوم السابع عشر من شهر فبراير - شباط - عام ١٨٨٩ إحدى السفن الفرنسية بإطلاق مدافعها على ساجالو بحجة أن وفد أتشينوفا غير مكثف رسمياً من الحكومة الروسية بالنزول في هذا الميناء . وقد اضطر أتشينوفا إلى طلب التسليم بعد أن قتل من الوفد الروس عشرة رجال . وعندئذ سمحت السلطات الفرنسية للرهبان الروس من جماعة أتشينوفا بالسفر إلى داخل الحبشة ، وأعادت أتشينوفا والأعضاء العسكريين الروس إلى السويس حيث استقلوا سفينة روسية عادت بهم إلى بلادهم^(١) .

وعلى الرغم من هذا الإخفاق مضت الحكومة الروسية في مشروعها ، فانتهزت فرصة اعتلاء النجاشي منليك الثاني العرش في نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٨٩ عقب موت النجاشي يوحنا لكي تحصل من المعاهد الحبشي الجدي على موقع في شرقي إفريقيا . وتأسست في روسيا عام ١٨٨٩ جمعية تهدف إلى تأسيس مستعمرة روسية على ساحل الحبشة تكون بمثابة محطة بحرية للفتح على الساحل الشرقي لإفريقية . وأرسلت الحكومة الروسية في ذات السنة الضابط ماشكوف Machkoff في سفارة خاصة إلى الحبشة للدعاية الروسية وإظهارها بمظهر الدولة المتعاطفة معها والحانية على رعاياها المسيحيين والوقوف على جانبهم ضد الأطماع الإيطالية الرامية إلى تحويل هؤلاء الرعايا من المذهب الأرثوذكسي إلى المذهب الكاثوليكي . وظفر هذا المبعوث الروسى باستقبال طيب من النجاشي منليك الثاني الذي كان يطمح في الحصول على تأييد روسيا للحبشة في نضالها ضد إيطاليا . وعلى ذلك كانت الحكومة الروسية متفقة مع حكومة النجاشي في ذلك الوقت على هدم النفوذ الإيطالي في الحبشة . ثم رأت الحكومة الفرنسية في أوائل العقد التاسع من القرن التاسع عشر أن تنسق سياستها مع روسيا والحبشة من أجل مصالحها الاستعمارية في تقويض التسلل الإيطالي إلى الحبشة حتى تستطيع تحطيم الحصار الذي فرضته إيطاليا على المستعمرة الفرنسية أوبوك^(٢) فتصل إلى أعالي النيل والسودان عن طريق شرقي إفريقيا وتنافس بريطانيا في السيطرة على وسط إفريقيا . ولكن كان تشجيع بريطانيا للوجود الإيطالي في شرق إفريقيا كفيلاً بتبديد آمال روسيا وفرنسا والحبشة معاً .

خصائص استعمار إفريقية :

والحق أنه في استعمار إفريقية تبدو ثلاث خصائص ، هي : البداية المتأخرة ، والزحف

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩٨-٢٩٩ .

(٢) انتقلت السلطات الفرنسية عام ١٨٩٠ من مقرها في أوبوك إلى جيبوتي ، وهي ميناء أسسته على رأس جيبوتي ؛ نظراً لأن الموقع الجديد يسيطر على طرق القوافل من هرر والحبشة . وأصبحت جيبوتي عاصمة المستعمرة ، وهجر التجار الفرنسيون أوبوك واتجهوا بقوافلهم إلى العاصمة الجديدة .

الكاسح ، والاستعمار قصير الأمد نسبياً^(١) . ففي آسيا بدأ الاستعمار في مناطقها المدارية بصورة فعلية في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، بينما تأخر الاستعمار الفعلي الحقيقي في إفريقيا حتى القرن التاسع عشر أى بنحو قرنين من الزمان .

وقد مر استعمار إفريقية بمرحلتين أساسيتين : مرحلة أولى طويلة الأمد استطلت نحو ثلاثة قرون من القرن ١٥-١٦ حتى القرن ١٩ ، وهى مرحلة الاستعمار الساحلى .. مرحلة مواطىء الأقدام ، ظلت القوى الاستعمارية فيها تتأرجح طويلاً أمام السواحل ، دون أن تتمكن من التغلغل إلى الداخل وذلك بسبب الجغرافية الطبيعية للقارة - الكتلة، لوجود الأنهار الحبيسة والصحارى الشاسعة والغابات الكثيفة . ولهذا السبب كان الاستغلال الاستعماري مقصوراً على أخف وأغلى السلع الساحلية وهى تجارة الرقيق ؛ ولهذا كان استعمار إفريقية فى المرحلة الأولى استعماراً ديموجرافياً . وكان نزيفاً بشرياً رهيباً أصاب إفريقية بفقر الدم والضمور ، وانتزع عشرات الملايين من أبنائها ، منهم من نقل حياً ، ومنهم من مات فى الطريق .

أما منذ القرن التاسع عشر وخاصة بعد مؤتمر برلين الإفريقى (١٨٨٤-١٨٨٥) .. فقد توغل الاستعمار فى قلب إفريقية واستعمر الأرض لا الإنسان فحسب ، وحل الاستعمار الجغرافى محل الاستعمار الديموجرافى . وكما كان الاستعمار الديموجرافى نزيفاً بشرياً كان الاستعمار الجغرافى نزيفاً اقتصادياً رهيباً ، وهكذا لم يبدأ الاستعمار الجغرافى فى إفريقية إلا فى القرن التاسع عشر على الرغم من أن إفريقية كانت أقرب إلى أوروبا من آسيا ، وعلى الرغم من أن المستوى الحضارى والمادى والتنظيم السياسى لآسيا المدارية .. كان أعلى وأشد قوة منه فى إفريقية البدائية نسبياً .

أما الخصيصة الثانية للزحف الاستعماري على إفريقية ، وهى أنه كان كاسحاً ، فمردها إلى أن سيطرة أوروبا لم تحدث تدريجياً أو على فترة طويلة ، بل تمت فى شكل موجة فجائية سريعة انتظمت كل القارة واكتسحتها فى بضعة عقود من أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حيث كانت القوى الاستعمارية الأوروبية قد وصلت إلى أقصى درجات النمو ووسائل الحرب الحديثة المدمرة ، واستطاعت أن تفتصب لنفسها ما استطاعت أن تستولى عليه تحت ستار الملك المباح تارة ، والمجال الحيوى lebensrum تارة أخرى .

أما الخصيصة الثالثة ، وهى قصر مدة الاستعمار الإفريقى ، فنرجع إلى أن تحرير معظم أقطار إفريقية بدأ فى القرن العشرين فى الوقت ذاته تقريباً الذى بدأ فيه تحرر آسيا ؛ فتحريز القارتين يكادان يتعاصران على الرغم من الحقيقة التى سبق أن أشرنا إليها ، وهى أن

(١) دكتور جمال حمدان : إفريقيا الجديدة ، دراسة فى الجغرافية السياسية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٢٩-٢١ .

الاستعمار في آسيا كان أسبق منه في إفريقية . ولكن بدأ تحرر معظم أجزاء القارتين عقب الحرب العالمية الثانية ؛ لأن روح العصر كانت روحاً تحررية ، ولأن قوى سياسية كبرى جديدة كسرت احتكار الدول الاستعمارية الكبرى القديمة . ونخلص من هذا العرض إلى أن السلطان عبدالحميد الثاني عاصر حركة للتدافع الاستعماري الأوروبي الجنوبي على إفريقية ، فانتزعت من الدولة ولايات عربية إفريقية على عهده .

الاستعمار البريطاني :

حركة الجامعة البريطانية في إفريقية :

ظهرت حركة للجامعة البريطانية (١٨٨٤-١٩٠٢) ، وهي مشروع استعماري استهدف إنشاء إمبراطورية إفريقية بريطانية ، تمتد من رأس الرجاء الصالح ويخترق القارة الإفريقية من جنوبها إلى شمالها ، والعمل على «تلوين معظم خريطة القارة الإفريقية باللون الأحمر البريطاني» ، ونفزع عن هذا المشروع مد خط حديدي يصل بين مدينتي الكاب والقاهرة .

وقد تنادى إلى حركة الجامعة البريطانية في إفريقية سيسيل رودس Cecil Rhodes (١٨٥٣-١٩٠٢) ، وهو أحد رواد الاستعمار البريطاني ، ومن أنشط رجال المال والسياسة الإنجليز .. قضى شطراً طويلاً من حياته في جنوب إفريقية ، وترك بصماته قوية في ميداني السياسة والمال . أسس سنة ١٨٩٠ شركة إفريقية الجنوبية على غرار شركة الهند الشرقية القديمة ، فأيدتها الحكومة البريطانية في غزو الأقاليم الغنية في حوض نهر زمبيزي ، وإنشاء مستعمرة روديسيا عام ١٨٩٠ . والواقع أن بريطانيا كانت قد اندفعت كالأخطبوط في مستعمرة الرأس شمالاً وشرقاً وغرباً ، وكان مكان مستعمرة الرأس فلاحين هولنديين عرفوا باسم البوير^(١) Boers ، وقد ضاقوا ذرعاً بالحكم الاستعماري البريطاني وأساليبه فنزحوا في جماعات كثيفة العدد شمالاً إلى نهر فال Vaal ، وأسسوا في شماليه وجنوبيه جمهوريتي الترنسفال وأورانج الحرة . وحدث أن ازدادت أهمية هاتين الجمهوريتين في نظر بريطانيا عقب اكتشاف الذهب عام ١٨٨٥ في الترنسفال والماس في الأورانج ، وتدفق عليهما جمهور من البريطانيين في

(١) البوير تعني الفلاحين الهولنديين الذين استوطنوا جنوبي إفريقية ، واشتغلوا أساساً بالزراعة . وكان الهولنديون قد نزحوا إلى جنوبي إفريقية في القرن السابع عشر . وكانت هولندا صاحبة السيادة على مستعمرة الرأس إلى أن تخلت عنها لإنجلترا ، أثناء حروب نابليون ، لقاء ستة ملايين من الجنيهاات كتعويض لها .

وكلمة بوير مشتقة من اللغة الهولندية ومعناها الفلاح الذي يعمل في فلاحه الأرض ، وأصبحت كمصطلح تاريخي تعني المستوطنين الهولنديين في جنوبي إفريقية . أما في معناها العام ، فأصبح الإنجليز يطلقونها على الشخص الشرس اللفظ الغليظ القلب ، وهي تكتب في اللغة الإنجليزية Boer تارة Boor تارة أخرى .

طلب الثروة وأنشأوا الخطوط الحديدية ، وقامت في وسط المناطق التعدينية في الترنسفال مدينة جوهانزبرج Johannesburg الغنية الرحيبية ، والتي غدت أعظم مركز لاستخراج الذهب في العالم . وخاف البوير أن يطنى عليهم سيل المهاجرين المغامرين ، الذين ازدادوا عنواً بعد أن يسط سبسيل رونس السيطرة البريطانية على روديسيا . وأرسل حملة بريطانية بقيادة جيمسن Jameson في ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٩٥ ؛ لضم جمهورية الترنسفال إلى المستعمرات البريطانية لوكنها منيت بهزيمة منكرة في يناير - كانون ثان - عام ١٨٩٦ أمام كروجج Kruger الزعيم والقائد الجمهوري البويري ، واكفهر الجو بين البريطانيين والبوير . ومما زاد الموقف اشتعالاً أن ولهمل الثاني إمبراطور ألمانيا أرسل في اليوم الثالث من الشهر ذاته ، عشية هزيمة الحملة البريطانية برقية تهللة إلى كروجج ، جاء فيها «أهنتكم بإخلاص أنتم وشعبكم على نشاطكم الذي قمتم به ، دون طلب المساعدة من الدول الصديقة ضد الجموع الرحل المسلحين المعكرين للسلام الذين اقتحموا بلادكم ، وأهنتكم على نجاحكم في إعادة الأمن والمحافظة على استقلال بلادكم من هجوم خارجي» (١) .

وكان لهذه البرقية أصداء بعيدة في الرأي العام البريطاني ، أثارت فيه مشاعر الحق والأسى ، وفسرها بأنها نوع من الشماتة والتدخل الألماني المنطوي على الشر ودليل على النوايا الخطيرة لألمانيا تجاه بريطانيا . ودارت اتصالات سياسية على جانب كبير من الخطورة بين ألمانيا وفرنسا والروسيا لتتسوق خططها الرامية إلى الاستفادة من متاعب بريطانيا في حرب البوير (٢) ، وظفر البوير بعطف الشعوب الأوروبية التي نظرت إلى هذه الحرب على أنها صراع محتدم بين الحرية والاستعمار . وكان كل نصر يحرزه البوير يستقبل في أوروبا بحماس هادر ، وكل هزيمة تحل بهم تقابل بالحزن (٣) ، واستعد البريطانيون والبوير لجولة حربية أخرى لحسم الموقف .

ونشب الحرب بعد قرابة ثلاث سنوات ، في أكتوبر - تشرين أول - عام ٢٨٩٩ ، وزحف إليها المتطوعون من كل فج عميق من فجاج الإمبراطورية للوقوف إلى جانب بريطانيا الأم .. وانتصر البوير في المراحل الأولى للحرب وأظهروا صلابة في محاربة قوات بريطانية مدربة كثيفة العدد ، ولكن نجح القائدان الإنجليزيان روبرتس Roberts Frederick وكتشنر Kitchener Herbert في استرداد ماكان البريطانيون .. فقد خسروه في أول الحرب وأخذوا

(1) Ensor R.C.K.; op. cit., p. 232.

(2) Taylor A.J.P.; op. cit., pp. 387-389.

(3) Fisher H.; op. cit., p. 1068.

عاصمة الترنسفال^(١) وعاصمة أورنج الحرة^(٢) ، واستخدم البريطانيون في محاربة البوير «طرقاً متبريرة» على حد تعبير كامبل بانرمان^(٣) ؛ إذ عمدوا إلى إحراق بيوت البوير وحشّشوا النساء والأطفال في نقاط عسكرية كانوا يموتون فيها من الجوع والبرد والأمراض وأوهنوا مقاومتهم . وانتهت الحرب بعد معاهدة فيرينينج Vereeniging (٣١ من شهر مايو - أيار - عام ١٩٠٢) وبمقتضاها ضمت بلاد البوير إلى الممتلكات البريطانية وجعلت اللغة الإنجليزية لغة رسمية وأُجيز استخدام اللغة الهولندية في المحاكم وكذلك في المدارس إذا أراد آباء التلاميذ ذلك .. وهكذا أسدل الستار على حرب البوير ، وكانت حرياً استعمارية ضارية عاصرت حكم السلطان عبدالحميد الثاني ، واستنفدت كثيراً من موارد الإمبراطورية البريطانية ، وتحملت بسببها خسائر فادحة في الأرواح والأموال^(٤) .

ومن أجل تحقيق فكرة حركة الجامعة البريطانية في إفريقيا ، استولت بريطانيا على مديرية خط الاستواء ، بعد أن طردت منها أمين باشا^(٥) مدير المديرية في أوائل سنة ١٨٨٩ . وكانت هذه المديرية هي المنطقة الوحيدة التي لم يستطع المهدي وخلفاؤه أن يسيطروا نفوذهم عليها^(٦) ، واستولت بريطانيا أيضاً على أقاليم شتى في غربي وشرقي إفريقيا . ففي غربي القارة استعمرت نيجيريا ، وساحل الذهب ، وسيراليون ، ومصب نهر غمبيا . وفي شرقي القارة استعمرت أوغندا وكينيا^(٧) والصومال ، واحتلت مصر عام ١٨٨٢ ، ثم رحلت عنها بمقتضى إتفاقية ١٩ يناير - كانون ثان - عام ١٨٩٩ .

والحق أن حكم الملكة فيكتوريا شهد نشاطاً واسعاً في ميادين الاستعمار والتمسك . واستطال حكمها أكثر من ثلاثة وستين عاماً (١٨٣٧-١٩٠١) ، وأطلق عليه العصر الفيكتوري

(١) بريتوريا Pretoria .

(٢) بلويمفونتين Bloemfontein .

(٣) Methods of Barbarism وكان هنري كامبل بانرمان Sir Henry Campell-Bannerman من أسلام حزب الأحرار في مجلس العموم ، ألف وزارته الأولى والوحيدة في ديسمبر - كانون أول - عام ١٩٠٥ وقلت في الحكم إلى أن قضى نحبه في ٢٢ من أبريل - نيسان - عام ١٩٠٨ ، وخلفته في الشهر ذاته وزارة أسكويث Asquith الأولى . ومما يذكّر أن كامبل بانرمان أعطى - وهو رئيس وزارة - حكومة مسئولة للترنسفال وأورنج الحرة سنة ١٩٠٨ .

(٤) بلغت خسائر بريطانيا في حرب البوير ٥٠٧٧٤ قتيلًا ، ٢٢٠٨٢٩ جريحاً ، وأكثر من ١٦٠٠٠٠ ماتوا بالحمى ، وتكبّت ٢٢٢ مليون جنيه .

(٥) هو طبيب ألماني عمل حيناً في خدمة الدولة العثمانية ، ثم اعتنق الإسلام ، واختار لنفسه اسم محمد أمين الحكيم .

(٦) عبدالرحمن الراقصي : مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال (تاريخ مصر القومي منذ سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢) ، الطبعة الثانية ، ١٩٤٨ ، القاهرة ، الناشر مكتبة النهضة المصرية ، ص ١٤٥-١٥٢ .

(٧) اغتصبت بريطانيا من أملاك مصر الجنوبية أوغندا ، وأوغيرو ، ومنطقة البحيرات ، والجزء الجنوبي من مديرية خط الاستواء القديمة .

The Victorian Age ، وأضيف في عام ١٨٧٦ إلى ألقابها لقب جديد هو «إمبراطورة الهند» على عهد وزارة دزرائيلي الثانية رغبة في إيجاد مزيد من علائق التبعية بين شبه القارة الهندية ، ودولة تقع في جزيرة كبيرة نائية في أقصى الطرف الشمالي الغربي من أوروبا (١) . وكان للعصر الفيكتوري خصائصه في الاستعمار البريطاني المتعدد القارات ، والسياسة الخارجية المحسوبة بحساب دقيق ، والإصلاحات الداخلية المتعددة ، كما ازدان مجموعة من أعلام الفكر، تركوا بصماتهم قوية في مسيرة الحضارة الإنسانية .

الاستعمار الفرنسي :

انطلقت فرنسا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، تؤسس لها مستعمرات واسعة وعديدة في إفريقية وآسيا ، بالإضافة إلى المستعمرات التي كانت لها قبل ذلك التاريخ (٢) ، ولنا عدة ملاحظات على حركة التوسع الاستعماري الفرنسي ، نذكر منها :

أولاً : إن كارثة سيدان (٢ من سبتمبر - أيلول - عام ١٨٧٠) التي تعرضت لها فرنسا في الحرب السبعينية لم تؤثر على سياستها التوسعية الاستعمارية ، بل على النقيض ازدادت هذه السياسة نشاطاً ابتغاء دعم مركز الجمهورية الثالثة في نظر الرأي العام الفرنسي ؛ حتى لايتهمها بأنها استكانت للهزيمة العسكرية وأصبحت تؤثر العلامة والانكماش الإقليمي . وكانت حكومة الجمهورية تجد تشجيعاً من ألمانيا على توجيه طاقاتها العسكرية نحو الاستعمار ، بدلاً من توجيهها إلى استعادة الأتزان والالورين من ألمانيا . وكان في انطلاق فرنسا إلى ميادين الاستعمار خارج أوروبا ؛ إرضاء لكبريائها ووسيلة للتسعيد مكانتها كدولة كبرى في السياسة الدولية .. ولذلك كان من المعالم الهامة في تاريخ السياسة الاستعمارية لفرنسا أن الغالبية الساحقة من مستعمراتها الكبرى قد تأسست بعد كارثة سنة ١٨٧٠ ، وكان الشعار الذي تردد على ألسنة الجماهير الفرنسية هو "La France se renaîtra" ؛ أي ستولد فرنسا من جديد .

ثانياً : إن اختيار فرنسا قد وقع على إفريقية لتكون الميدان الأساسي للاستعمار الفرنسي ، وقد بدأت غزوها من الشمال وتوغلت في جوف القارة ، وامتدت إلى شرقها وغربها .

ثالثاً : إن نهمها الاستعماري امتد إلى ممتلكات الدولة العثمانية . قبل منتصف القرن التاسع

(١) انظر أسانيد دزرائيلي رئيس الوزارة البريطانية في مواجهة المعارضة العنيفة ، في مجلس العموم والوردات ، عند النظر في قانون إضافة لقب إمبراطورة الهند إلى القاب ملكة إنجلترا .

Ensor R.C.K., op. cit., pp. 38-39.

(٢) كانت فرنسا قد فقدت معظم مستعمراتها في القرن الثامن عشر ، خصوصاً في الهند وأمريكا ، وأصبحت لاتملك في سنة ١٨١٥ إلا بعض بقايا المستعمرات القديمة ، وسهينجال ، وجزيرة ريونيون ، وجويان ، وجويلوب ، ومارتيك ، ومدائن الهند الخمس .

عشر، ثم يعده إيان حكم السلطان عبدالحميد الثاني (الجزائر ١٨٣٠ ، وتونس ١٨٨١) .

رابعاً : وكما أن بريطانيا تنادت إلى حركة الجامعة البريطانية، في إفريقية - كما مر بنا - وماتفرع عن هذه الحركة من محاولات لمد خط حديدي يخترق القارة الإفريقية اختراقاً طويلاً من مدينة الكاب إلى مدينة القاهرة .. سعت فرنسا منذ أوائل العقد التاسع من القرن التاسع عشر لتنفيذ مشروع استعماري على شاكلته، أطلق عليه مشروع البحر الأحمر - المحيط الأطلنطي، ، ويقوم على مد خط حديدي يخترق القارة الإفريقية اختراقاً عرضياً من الساحل الغربي للبحر الأحمر إلى ساحل إفريقية المطل على المحيط الأطلنطي، بالزحف من الشرق والغرب معاً صوب حوض النيل الأعلى . وكان لفرنسا مستعمرات على سواحل خليج تاجورة المطل على خليج عدن - مستعمرة الصومال الفرنسي - وكانت تمتلك أيضاً مستعمرات واسعة في إفريقية الغربية . وكانت أهداف فرنسا من هذا التوسع الاستعماري في جوف إفريقية هو الوصول إلى منابع النيل من الحبشة ، عن طريق نشر النفوذ الفرنسي فيها على أنقاض النفوذ الإيطالي^(١) من ناحية، وإرسال حملات عسكرية من الممتلكات الفرنسية الإفريقية إلى حوض النيل ابتغاء الاستيلاء على إقليم بحر الغزال على وجه الخصوص ؛ استناداً إلى أن هذا الإقليم تطبيق عليه نظرية «الملك المباح» ، منذ أن أخلى المصريون السودان والاستيلاء على فاشودة، ورفع العلم الفرنسي عليها من ناحية أخرى^(٢) .

خامساً : أن زحفها الاستعماري على إفريقية واستغلال مستعمراتها اقتصادياً وعسكرياً وإنشاء خطوط للمواصلات البحرية للأسطول الفرنسي ومحطات أمنه له .. كل ذلك وكتب زحفها على آسيا لذات الأغراض ، وقد نجحت في كلتا القارتين نجاحاً بعيداً^(٣) .

(١) كان النفوذ الإيطالي في الحبشة قد تعرض للكارثة : نتيجة الهزيمة الساحقة التي نزلت بالقوات الإيطالية على يد الأحباش في واقعة عدوة في أول مارس - آذار - عام ١٨٩٦ ، وبلغ عدد القتلى الإيطاليين أربعة آلاف وعدد الأسرى ألفين . ونتج عن هذه المعركة استقلال الحبشة استقلالاً كاملاً ووسعت الحدود بين إريتريا والحبشة عند الخط النهرى «مارب - بيليسا - مونا» Mareb - Belesa - Mona .

(٢) انظر تفصيلات وافية عن هذا الموضوع في كل من :

دكتور محمد فؤاد شكرى مصر والسودان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤٤-٤٤٥ يكتور السيد محمد رجب حراز ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٩-١٥٨ ، ١٦٥-٢٢٢ .

دكتور محمد رياض وبكتورة كوثر عبدالرسول : إفريقيا : دراسة لمقومات القارة ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٢٨-٣٦ .

(٣) أنشأت فرنسا مستعمرة فرنسية واسعة في وادي الكونغو - الكونغو الفرنسية - (١٨٧٦-١٨٨٥) بجانب دولة الكونغو الحرة وسميت هذه المستعمرة (إفريقية الاستوائية الفرنسية) . وبسبب حمايتها بعد سنة ١٨٨٠ على أراضي واسعة في حوض النيجر ، وامتد نفوذها حتى بحيرة تشاد . وسميت المنطقة الجديدة السودان الفرنسي (١٨٩٠-١٨٩٨) . واحتلت في سنة ١٨٩٢ تومبوكتو - وهي من المدن الإسلامية =

سادساً : اتخذت فرنسا من بعض جزرها النائية في الإقيانوسية ، مثل : كالدونيا الجديدة Nouvelle Caledonie ، وإيريد الجديدة Nouvelles Hebrides منفى لزعماء الجزائر الوطنيين ، ومثوى لأرباب السوابق الفرنسيين لتطهير المجتمع الفرنسي من شرور الأخيرين .

نزول ألمانيا وإيطاليا وبلجيكا ميادين الاستعمار : أولاً : الاستعمار الألماني :

وفي أثناء حكم السلطان عبدالحميد ، نزلت ألمانيا وإيطاليا وبلجيكا ميادين الاستعمار . كان بسمارك المستشار الألماني يصرح طوال السنوات الأولى عقب قيام الاتحاد الألماني أنه لا يطلع إلى الاستعمار ، وأنه ينظر إلى المستعمرات على أنها من قبيل الكماليات بالنسبة لدولة ناشئة مثل ألمانيا ، وأن الجهود يجب أن تتضافر لتنظيم البناء الداخلي والذي شيد به بالحديد والنار . ومن أقواله في هذا الصدد «إني لست رجلاً استعمارياً ، ولست في حاجة إلى مستعمرات على الإطلاق ؛ لأنها تثير القلاقل والمشكلات .. إن مثل المستعمرات لنا نحن الألمان ، كمثل الملابس الحريرية التي يرتديها الشريف البولندي وليس تحتها ملابس داخلية يستر بها عورته» . ولكنه تراجع عن هذه السياسة أمام ضغط الرأي العام الألماني ، فانتهج سياسة استعمارية نشيطة معللاً إياها بقوله «إن للضرورة أحكاماً» . ففي سنتي ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ غدت ألمانيا تملك مستعمرات بلغت مساحتها في إفريقية وحدها بضعة ملايين من الأميال المربعة من الأرض؛ فضلاً عن قواعد في آسيا وجزر في الإقيانوسية ، اتخذتها محطات لها (١) .

= الشهيرة بتجارتها وبموقعها على رأس خط قوافل شمالي إفريقية - وسيطرت فرنسا على جزء كبير من الصحراء ، التي تفصل الجزائر عن السنغال وسائر الممتلكات الفرنسية على خليج غينيا . وأعلنت حمايتها سنة ١٨٩٣ على داهومي وساحل العاج وغانة . وأنشأت في عام ١٨٩٥ ماعرف باسم إفريقية الغربية الفرنسية . وربطت السلطات الفرنسية ساحل العاج وداهومي بالنيجر والسودان الفرنسي ، وربطت ممتلكاتها في شمالي إفريقية بممتلكاتها في إفريقية الغربية عن طريق الصحراء وموريتانيا (١٩٠٠-١٩١٠) . واستولت سنة ١٨٨٢ على الصومال الفرنسي ، عند باب المندب وأخذت تتوغل في إقليم بحر القزال واستولت على جزيرة مدغشقر عام ١٨٩٥ . أما في شمالي إفريقية ، فكانت قد احتلت الجزائر عام ١٨٣٠ ثم بسطت حمايتها على تونس عام ١٨٨١ واقتسمت بعد عزل السلطان عبدالحميد مراكش مع إسبانيا ، عقب منافسة حادة للغاية بينها وبين ألمانيا على هذا الإقليم الوحيد ، الذي بقي مستقلاً في شمالي إفريقية حتى عام ١٩١١ . أما في آسيا فكانت قد بسطت حمايتها على كمبوديا سنة ١٨٦٢ ، واحتلت كوشن صين سنة ١٨٦٧ ثم دخلت في حرب ضد الصين التي تنازلت لها في سنة ١٨٨٢ عن منطقة تونكان . واعترفت بحمايتها على ولاية أنام Annam (فيتنام) .

(١) أعلنت ألمانيا في شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٨٤ الحماية على كل جنوبي غرب إفريقية ، فيما عدا خليج والفش Walfisch Bay ؛ أي من حدود أنجولا البرتغالية حتى الحدود الشمالية لمستعمرة الرأس . وفي شهر يوليو - تموز - من السنة ذاتها ، ضمت الخط الساحلي في الكرون فضلاً عن توجولاند . وبد-

ولكن يلاحظ من ناحية أخرى أن المكاسب التي عادت على ألمانيا من مستعمراتها كانت ضئيلة نسبياً على الرغم من تعدد هذه المستعمرات ومساحاتها الشاسعة . فقد كانت مستعمراتها ، باستثناء إفريقية الشرقية الألمانية ، فقيرة نسبياً في المواد الخام وغير منتجة المواد الغذائية ، كما فشلت الحكومة الألمانية في توطين المستعمرين الألمان في مستعمراتها ، فضلاً عن أن المستعمرات الألمانية كانت بعيدة عن ألمانيا؛ مما كان يعرضها لأخطار جسيمة في حالة نشوب حرب ؛ إذ كان في مكتة بريطانيا أن تعزلها تماماً عن ألمانيا^(١) .

ثانياً : الاستعمار الإيطالي :

مكافحة الإجرام من أسباب الاستعمار الإيطالي :

أما إيطاليا فإن انتشار موجات الإجرام في جنوبي البلاد ؛ خصوصاً بعد إتمام الوحدة الإيطالية ، كان بداية التفكير في انتهاج سياسة نشيطة للاستعمار فيما وراء البحار لإنشاء مستعمرات إيطالية تعمل فيها الحكومة على استعلاء Sublimation طاقات المجرمين من قطاع الطرق والقتلة واللصوص ، ومن إليهم من محترفي الإجرام ، واستبدال Substitution العمل الشريف بعملهم الإجرامي ، ولهذا رأت الحكومة الإيطالية نبذ سياسة العزلة من المحيط الدولي بما تحمله من معاني الاستكانة داخل حدود الوطن الإيطالي Stay-at-hom policy كي تنطلق إلى حياة أفضل ، وفي مجالات رحبة فيصح في ميادين الاستعمار .

= التنافس بين ألمانيا وبريطانيا على شرقي إفريقية ، وأسس الألمان في عام ١٨٨٥ «شركة إفريقية الشرقية الألمانية» Deutsche Ost Afrike Kompagnie ورد الإنجليز عليهم بتأسيس «شركة إفريقية الشرقية البريطانية» British East African Association ، وعقدت الحكومتان الألمانية والبريطانية في ٢٩ من أكتوبر - أول نوفمبر (تشرين أول وتشرين ثان على التوالي) عام ١٨٨٦ أول معاهدة بينهما لتحديد مناطق نفوذهما في شرقي إفريقية ، على حساب سلطنة زنجبار ، التي انكمشت حدودها إلى شريط ساحلي ضيق ، بعد أن استأجرت الشركتان الأراضي اللازمة لهما من زنجبار . وسعت الأقاليم التي استولت عليها ألمانيا في شرقي إفريقية وإفريقية الشرقية الألمانية ، وكانت تحدها من الشمال إفريقية الشرقية البريطانية ، ومن الجنوب إفريقية الشرقية البرتغالية ، ومن الغرب دولة الكونغو الحرة ، ومن الجنوب الغربي روديسيا .

وفي آسيا انتهزت ألمانيا فرصة قتل اثنين من المنصرين الألمان في الصين ، فاحتلت خليج وميناء كياو Kiao - Shaw في نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٩٧ ، ثم توغلت في شانتونغ Shantung . وفي الإقيانوسية أسست ألمانيا عام ١٨٨٤ شركة غينيا الجديدة الألمانية ، وبعد نزاع طويل مع بريطانيا قسمت غينيا الجديدة إلى قسمين : الشمالي لألمانيا ، والجنوبي لبريطانيا ، كما استولت على عدد من الجزر الأخرى في الإقيانوسية .

(١) دكتور محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤-١٩١٤) ، القاهرة ، د. د. ، ص ٢٠٠ .

عوامل أخرى دفعت إيطاليا إلى الاستعمار :

كما واجهت الحكومة الإيطالية مشكلات داخلية أخرى ، دفعتها إلى الاتجاه إلى الاستعمار ، كان من بينها : الأزمات المالية المتلاحقة ، وتدهور مستوى معيشة السكان ، وهبوط قيمة العملة ، وارتفاع الأسعار ، وكثرة تخيير الوزارات ، وازدياد عدد السكان تزايداً رهيباً ، ثم كانت هناك الأحلام التاريخية ، التي كانت تداعب خيال الإيطاليين بإنشاء إمبراطورية شاسعة الأطراف ، على غرار الإمبراطورية الرومانية القديمة وكانت عاصمتها روما ، وذهبت أحلام الإيطاليين إلى محاولة جعل البحر المتوسط ، أو حوضه الشرقي على الأقل ، بحيرة إيطالية^(١) . وظهرت أطماع إيطاليا في الدولة العثمانية ، بعد أن استقامت الوحدة السياسية في سنة ١٨٧٠ لهذه الدولة الوليدة ، التي كان يطلق عليها ، كبرى الدول الصغرى ، حيناً وصغرى الدول الكبرى ، حيناً آخر^(٢) . وحدث تسابق بينها وبين فرنسا على امتلاك تونس ، وبذلت إيطاليا محاولتين لانتزاع تونس من الدولة العثمانية .

وكانت المحاولة الأولى سنة ١٨٧٠ عقب انهيار فرنسا نتيجة الكارثة ، التي نكبت بها بهزيمتها في معركة سيدان في اليوم الثاني من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٨٧٠ أمام بروسيا وانفجار الثورة في باريس وإعلان الجمهورية الثالثة في اليوم الرابع من ذات الشهر ، وجاءت المحاولة الثانية في أعقاب مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ ، وازدياد نفوذ النمسا والمجر في البحر الأدرياتي والبلقان ، بعد أن احتلت هذه الإمبراطورية الثنائية الولايتين العثمانيتين البوسنة والهرسك في غربي البلقان .

ولكن ساندت بريطانيا دبلوماسياً فرنسا لمسط حمايتها على تونس ، ولم تكن إيطاليا تملك القوة أو النفوذ لمنع فرنسا من بسط حمايتها على تونس عام ١٨٨١ ، ثم وقع حادث هام أدى إلى نشاط محموم في حركة الاستعمار الأوروبي وهياً إيطاليا ميداناً رحيباً للتوسع الاستعماري ، وأتاح في الوقت ذاته فرصة أمام بريطانيا لإرضاء المطامع الإيطالية في الاستعمار والكيد لفرنسا . كانت بريطانيا قد احتلت مصر عام ١٨٨٢ ، ثم ضغطت على الحكومة المصرية سنة ١٨٨٤ لإخلاء السودان وسحب الجيش المصري من أرجائه . ووجدت بريطانيا عميلاً من عملائها يقبل هذا الأمر أو النصيحة ، وهو نوبار باشا بعد أن رفض شريف باشا رئيس الوزارة الاستجابة لرغبة بريطانيا ، وألف نوبار وزارته الثانية في ١٠ من يناير - كانون ثان - عام ١٨٨٤^(٣) على أساس إخلاء السودان . وحدث تسابق بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا والحبشة بل

(١) انظر عرضاً رائعاً لمشكلات إيطاليا الداخلية بعد الوحدة في رسالة بكتواره السيد محمد رجب حراز ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥-٢٥ .

(٢) دكتور محمد مصطفى صوفت : الاحتلال الإنجليزي لمصر إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٤ .

(٣) ألف نوبار باشا وزارته الأولى على عهد الخديو إسماعيل في ٢٨ من أغسطس - آب - عام ١٨٨٨ ، وظلت في الحكم حتى ١٩ من فبراير - شباط - عام ١٨٧٩ .

وبلجيكا على الاستيلاء على الممتلكات المصرية التي أصبحت في نظر هذه الدول وطبقاً للنظرية الاستعمارية ملكاً مباحاً؛ فأنشأت بريطانيا مستعمرة الصومال البريطاني وتطل على خليج عدن، وأسست في الداخل على أنقاض مديرية خط الاستواء محمية أوغنده. وأنشأت فرنسا مستعمرة الصومال الفرنسي عند باب المندب وأخذت تنوغل في إقليم بحر الغزال، واستولت الحبشة على هرر، واستطاع ليوبولد الثاني ملك بلجيكا تعديل حدود «دولة الكونغو الحرة»، على حساب قسم من أملاك مصر في مديرية خط الاستواء^(١).

أما إيطاليا، وقد كان لها نشاط تجاري ملحوظ في البحر الأحمر، فقد تطلعت إلى تأسيس مستعمرات لها على أنقاض أملاك مصر^(٢)، ولقيت تشجيعاً من بريطانيا في هذه السياسة الاستعمارية، لسببين: أولهما، أن فرنسا كانت تعارض بريطانيا منذ أن احتلت الأخيرة مصر وبذلت قصار جهدها لإنهاء الاحتلال البريطاني لمصر بينما كانت إيطاليا تريد بريطانيا قلباً وقالباً، فأرادت أن تكافئ إيطاليا على موقفها الودي. وثانيهما اشتداد التنافس بين بريطانيا وفرنسا على استعمار إفريقية، فأرادت بريطانيا أن تتخذ من الوجود الإيطالي في شرقي إفريقية سداً منيعاً في وجه فرنسا، ومشروعاتها التوسعية للوصول من مستعمرة الصومال الفرنسي إلى منابع النيل وأصقاع شتى من إفريقية الوسطى. وهكذا كانت بريطانيا تصانع إيطاليا وتتخذ منها كما قيل «كلب الجاني»، أي الكلب الذي يحرس لمسيرته بريطانيا أملاكها. وقد رحبت بهذا التشجيع البريطاني الوزارة الإيطالية التي كان يرأسها دبريتيس Agostino Depretis، وكان وزير الخارجية فيها مانسيني Pasquale Stanislao Mancini الذي ينسب إليه القول المشهور «إن مفاتيح البحر المتوسط توجد في البحر الأحمر»^(٣)، وقد استطاعت إيطاليا أن تؤسس عدداً لا بأس به من المستعمرات، كان معظمها على حساب الممتلكات المصرية في إفريقية، وعلى حساب الدولة العثمانية في طرابلس الغرب ولاية برقة^(٤).

(١) بخصوص توسع بلجيكا صوب حوض النيل، انظر تحت عنوان حاجز لادو Lado Enclave كتاب دكتور

محمد فؤاد شكرى، مصر والسودان إلخ، مرجع سبق ذكره، ص ٤٦٠-٤٦٤.

(2) El-Sayed Ragab Harraz; Italy and the Beginnings of Her Colonial Empire in East Africa. Cairo. 1959, pp. 33-51.

(3) دكتور محمد صبرى: الإمبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر، القاهرة، ١٩٤٨، ص ١٦٤-١٦٥.

(4) دكتور السيد محمد رجب حراز، مرجع سبق ذكره، ص ٤٤-٤٥.

(5) استولت إيطاليا في عام ١٨٨٢ على عصب، الواقعة على الساحل الإفريقي البحر الأحمر، عند خليج عصب عن طريق امتلاك أراض واسعة، كانت قد اشترتها شركة روياطينو Rubattineo الإيطالية للملاحة من زعماء ومشايخ هذه المنطقة سنة ١٨٨٠ لاستخدامها في الأغراض التجارية، ثم استطاع منصر إيطالي اسمه سابيتو Sabitto أن يعقد في عام ١٨٨٠ اتفاقيات باسم الشركة الإيطالية مع مشايخ المنطقة، تعهد فيها نيابة عن الشركة بأن تقوم الحكومة الإيطالية بحماية ومساعدة هؤلاء الحكام =

ثالثاً : الاستعمار البلجيكي :

مؤتمر برلين الإفريقي (١٨٨٤-١٨٨٥) :

كان من مظاهر النهب الاستعماري وتنظيمه بإرضاء الطابع القانوني والطابع الدولي عليه اجتماع مؤتمر برلين الإفريقي ، خلال الفترة من شهر أكتوبر تشرين أول - عام ١٨٨٤

= وظفانهم من بعدهم ، مقابل تعهدهم بعدم التنازل عن شيء من أراضي بلادهم لولا غير إيطاليا . ثم عقدت الحكومة الإيطالية مع شركة رويالينو اتفاقاً في مارس - آذار - عام ١٨٨٢ ، تنازلت فيه للحكومة الإيطالية عن حقوقها في خليج عصب مقابل ٤١٧,٠٠٠ ليرة إيطالية ، تدفعها الحكومة على ثلاثة أقساط . ووافق مجلس النواب الإيطالي في ٥ يوليو - تموز - عام ١٨٨٢ على هذا الاتفاق ، وانتقلت ملكية إقليم عصب من هذه الشركة إلى الحكومة الإيطالية ، وأصدر مجلس الوزراء قانوناً في اليوم ذاته بتحويل عصب إلى مستعمرة أطلق عليها مستعمرة عصب Colonia di Assab .

واحتلت إيطاليا في ٢٥ من يناير - كانون ثان - عام ١٨٨٥ ثغر بيول ، الواقع شمالي عصب ، ثم احتلت في ٥ من فبراير - شباط - عام ١٨٨٥ ثغر مصوع ، وأعلنت في ٢٥ من يوليو - تموز - عام ١٨٨٨ سيادتها عليه بحجة أن الحكومة المصرية قامت بإخلاء السودان ، وسحبت القوات المصرية من أرجائه مما جعل مصوع ملكاً مباحاً . ثم زحفت القوات الإيطالية بعد أسابيع قليلة من احتلالها مصوع على بعض المواقع الداخلية فاستولت على مونكولو Monkullo وأوتوملو Otumlo ، وفي ١١ أبريل - نيسان - عام ١٨٨٥ احتلت إيطاليا أرافالي Arafali الواقعة على خليج أنسلي وأركيلو ، وزولا ، وميدر Meder ، وإيد Edd ، وجزر حوافيل Hawakil . وعلى هذا النحو مدت إيطاليا نفوذها الاستعماري على ساحل البحر الأحمر الإفريقي من رأس قنار - جنوبي سواكن - شمالاً إلى حدود مستعمرة أويوك الفرنسية جنوباً . وأصدر ملك إيطاليا مرسوماً في أول يناير - كانون ثان - عام ١٨٩٠ بتوحيد الملكات الإيطالية على الساحل الإفريقي ، المطل على البحر الأحمر تحت اسم مستعمرة إريتريا Eritrea ، وهذا الاسم مشتق من التسمية اللاتينية التي كان يطلقها الجغرافيون الرومان على البحر الأحمر ، وهي البحر الإريتري Mare Erythraeum .

ووجهت إيطاليا أنظارها أيضاً إلى الساحل الإفريقي المطل ، على المحيط الهندي من رأس غردافوي شمالاً حتى مصب نهر جوبا جنوباً . وبدأت بإنشاء علاقات صداقة مهدت لعلاقات تجارية أول الأمر مع الزعماء المحليين ، الذين يطلق عليهم «سلاطين» ، ثم أخضعت سلطنة أوبيا Obbia للحماية الإيطالية عام ١٨٨٩ ، وتعهد سلطان أوبيا بعدم إبرام أي معاهدة مع أي حكومة أخرى إلا بموافقة الحكومة الإيطالية ، ثم خطت خطوة توسعية أخرى فمقدت في ٧ من أبريل - نيسان - عام ١٨٨٩ معاهدة مع سلطان ميجورتين Migertin ، وافق فيها على بسط الحماية الإيطالية على كل بلاده وممتلكاته . وتضمنت المعاهدة النص التقليدي بتعهد السلطان بالامتناع من إبرام أي معاهدة مع أي حكومة أخرى . وكانت تعمل من ناحية أخرى على بسط نفوذها على الحبشة ، ونجحت في عقد معاهدة لوتشالي في ٢ من مايو - أيار - عام ١٨٨٩ ، ثم تلقت إلى فرض الحماية الإيطالية على ساحل الصومال الجنوبي ، ويطلق عليه ساحل بنادر - وهو يقع جنوبي سلطنتي أوبيا ، وميجورتين ، لأن ساحل بنادر يضم عدداً من الموانئ تمد الحبشة بمنافذ هامة على المحيط الهندي . ولجأت الحكومة الإيطالية إلى الحكومة البريطانية: لسانعتها على امتلاك ساحل بنادر ، وكان من ممتلكات سلطان زنجبار ، لأن بريطانيا كانت صاحبة الكلمة العليا في شئون سلطنة زنجبار ، لأن بريطانيا كانت صاحبة الكلمة العليا في شئون سلطنة زنجبار ، بعد أن أصبحت هذه السلطنة منذ سنة ١٨٩٠ تحت الحماية البريطانية . ونجحت الحكومة البريطانية في ١٢ من=

إلى شهر فبراير - شباط - عام ١٨٨٥ ، وقد اشتركت في عضويته ثلاث عشرة دولة أوروبية^(١) . وكان هدفه تنظيم الزحف الاستعماري على إفريقيا Scramble for Africa . وكان من أهم الموضوعات التي بحثها المؤتمر تطوير مؤسسة الكونغو (١٨٧٨-١٨٨٤) التي أنشأها ليوبولد الثاني ملك بلجيكا .. فقد أثار تطورها مخاوف فرنسا والبرتغال بشكل عنيف ، مما أدى إلى عقد هذا المؤتمر . وكانت اتفاقية برلين التي وقعتها الدول الأوروبية عام ١٨٨٥ تقضى بتسليم حوض نهر الكونغو الشاسع إلى منظمة جديدة ، أطلق عليها دولة الكونغو الحرة Congo Free State أو دولة الكونغو المستقلة Independent State of Congo ، ويحكم الملك ليوبولد الثاني بنفسه شخصياً بمقتضى هذه الاتفاقية دولة تتراعى أطرافها إلى مليون ميل مربع . ومنعاً للنزاع ، الذي قد ينشأ عن تنافس الدول على إفريقيا الوسطى ، أعلن المؤتمر أنه لايجوز لدولة أن تبسط حمايتها على إقليم من الأقاليم ، قبل أن تبلغ هذا النبا إلى حكومات الدول الأخرى . وقرر المؤتمر أيضاً ألا تفرض حكومة حمايتها على إقليم إلا إذا كان رعايا هذه الحكومة قد استوطنوه فعلياً ورفعوا عليه أعلام دولتهم . ونجح الملك ليوبولد الثاني في تحويل الرقابة الدولية عليها إلى رقابة بلجيكية ، واستطاع أن يمنع أي دولة كبيرة أو صغيرة من الاعتداء على حدود هذه الممتلكات الشاسعة التي حصل عليها . وفي النهاية أورثها لبلاده^(٢) .

وإلى جانب النشاط الاستعماري المكثف في الساحة الدولية للروسيا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وبلجيكا وهولندة ، كان للبرتغال وجود استعماري في إفريقيا . فإلى جانب مستعمرتها الشاسعة في غربي إفريقيا وهي أنجولا ، كانت لها مستعمرة كبيرة تتمثل في إفريقية الشرقية البرتغالية تجاه جزيرة مدغشقر ، وكانت لها أيضاً مستعمرة غينيا البرتغالية التي أسستها عام ١٨٨٥ ، وأنشأت إسبانيا في العام ذاته مستعمرة ريودي أورو Rio d'Oro على الساحل الإفريقي المطل على المحيط الأطلسي شمال غربي مستعمرة إفريقيا الغربية الفرنسية . وكان لها أيضاً غينيا الإسبانية .

≈ أغسطس - آب - عام ١٨٩٢ في الحصول على تنازل من سلطان زنجبار للحكومة الإيطالية عن مدن وموانئ ساحل بنادر وهي براوة ، وميركا ، ومقديشو ، وأرشيخ ، وعلى الأراضي الجارية لهذه الموانئ إلى مسافة عشرة أميال بحرية إلى الداخل بالنسبة للموانئ الثلاثة الأولى ، وخمسة أميال بالنسبة للميناء الرابع . وهكذا أصبحت إيطاليا حمايتها على ساحل الصومال الجنوبي ، المطل على المحيط الهندي ممكناً . ففعلت في ساحل الصومال الشمالي ، مستعينة بالوسائل الدبلوماسية وبالتفاه مع بريطانيا وتحريضها . أنظر كلاً من :

دكتور سيد محمد رجب هراز ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٩٠-٥٠٢ ، ص ٥١٠-٥١٩ .

دكتور رياض وبكتورة كوثر ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٩-٥٢ .

(١) هي بريطانيا ، وفرنسا ، وألمانيا ، والنمسا - المجر ، والروسيا ، والدولة العثمانية ، وبلجيكا ، وإسبانيا ، والبرتغال ، وهولندا ، والدانمرك ، والسويد ، والنرويج .

(2) Grant A.J. & Temperley H.; op. cit., pp. 320-321.

التنافس الاستعماري على منطقة الخليج العربي :

كانت منطقة الخليج العربي بساحليها العربي والفارسي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مسرحاً لتنافس استعماري دولي حاد ، نشبت بسببه أزمات دبلوماسية عنيفة بين بريطانيا من ناحية ، وكل من روسيا وفرنسا وألمانيا والدولة العثمانية من ناحية أخرى^(١). أرادت روسيا إنشاء ميناء حربي في منطقة الخليج ، وأرادت فرنسا إنشاء قاعدة بحرية لها في ميناء مسقط وفرض الحماية عليه تحت ستار إنشاء محطة للفحم في هذا الميناء؛ لتكون في خدمة السفن الفرنسية التي ترفأ إلى موانئ الخليج . وأرادت ألمانيا مد نفوذها الاقتصادي والسياسي إلى منطقة الخليج بتنفيذ مشروع ب. ب. ب ، وهو الخط الحديدي الذي يبدأ من برلين ويمر ببينزنطة - إستانبول - وينتهي في بغداد ، كمقدمة لها مابعدا من أهداف عسكرية بعيدة بمد هذه الخط الحديدي بعد ذلك إلى البصرة ثم إلى الفلوات ثم إلى الكويت . وكانت الدولة العثمانية تقف وراء هذا المشروع ، وقد منح السلطان عبدالحميد الثاني امتياز هذا الخط لألمانيا عقب زيارة ولهم الثاني إمبراطور ألمانيا له عام ١٨٩٩ . وكان العراق من ولايات الدولة العثمانية . وكان لهذه الدولة نفوذ في الأحساء وشط العرب والكويت وقطر والبحرين والقصيم وغيرها ، ولكن هذا النفوذ كان ضعيفاً لم تأبه به بريطانيا كثيراً أول الأمر ، ووقفت بريطانيا بكل عنف في وجه تلك المحاولات الروسية والفرنسية والألمانية والعثمانية .

كانت بريطانيا تنظر إلى منطقة الخليج على أنه البوابة الكبرى إلى الهند من ناحية ، وإلى العراق وفارس من ناحية أخرى . وكانت لا تطيق أن يكون البريطاني والقوات البريطانية . وبعبارة أخرى كانت تريد السيادة السياسية والسيطرة العسكرية على منطقة الخليج ، دون غيرها من الدول ، وعلى ما يحفظ تلك السيادة وهذه السيطرة من البر .. حتى تستطيع أن تتصرف وفق مصالحها .

ولتحقيق هذا الغرض المزدوج ، عقدت بريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر - كما مر بنا - سلسلة من الإتفاقيات مع مشايخ الإمارات العربية في منطقة الخليج ، تعهدوا فيها بالآ يتخلوا أو يوجروا أو يرهقوا بأي شكل من الأشكال ولأى سبب من الأسباب قسماً من أراضيهم إلا بإذن بريطانيا ، التي تعهدت في مقابل ذلك بحماية إمارات الخليج ومشيجاته . واشتهرت هذه الإتفاقيات باسم المعاهدات للامانة Exclusive Treaties ، وكانت من أولى الإتفاقيات باسم المعاهدات التي عقدتها بريطانيا في هذا ، الصدد اتفاقية سنة ١٨٨٠ مع الشيخ عيسى بن علي آل خليفة حاكم البحرين (١٨٧٠-١٩٢٤) ، تعهد فيها بالآ يتفاوض أو يعقد اتفاقيات مع دول

(١) عن النشاط الدولي المعادي لبريطانيا في منطقة الخليج ، انظر : لوييمر ج. وج . مرجع سبق ذكره القسم التاريخي ج ١ ، ص ٦٢٤-٦٢٦ ، ج ٢ : ص ٨٢٩-٨٤٥ ، ج ٣ : ص ٨٥٨-٨٦٠ .

أجنبية أخرى دون إذن الحكومة البريطانية ، وألا يسمح بإقامة مستودع في أراضيها دون الرجوع إليها والحصول على موافقتها ، ثم عقدت معه اتفاقية لاحقة في سنة ١٨٩٢ ، تعهد فيها حاكم البحرين بعدم التنازل أو رهن أو تأجير جزء من أراضيها إلا بإذن الحكومة البريطانية ، وبعدم اعتماد تعيين ممثلين للدول الأجنبية في بلاده^(١) .

وفي السنة السابقة - أي سنة ١٨٩١ - عقدت بريطانيا مع حاكم مسقط ، وهو فيصل ابن علي ، اتفاقية تعهد فيها بعدم تأجير أو رهن جزء من أراضيها إلا بعد الرجوع إلى الحكومة البريطانية ، ثم أبرمت في سنة ١٨٩٢ مع مشيخات الخليج اتفاقيات مماثلة^(٢) .

ونورد هنا نموذجاً لإحدى هذه الاتفاقيات ، وهي المعقودة مع الشيخ زايد بن خليفة حاكم أبوظبي .

(١) إنى لا أدخل أبداً في قرار ما ولا محاورة مع أحد من الدول سوى الدولة البهية الإنكليزية .

(٢) بغير رضا الدولة البهية الإنكليزية لأقبل أن يسكن في حوزة ملكي وكيل من دولة غير الدولة البهية الإنكليزية .

(٣) أبداً لأسلم ولا أبيع ولا أرهن ولا أعطي للتصرف شيئاً من ممالك لأحد إلا للدولة البهية الإنكليزية .

وعلى الرغم من أن هذه الاتفاقيات غير محددة المدة التي تسرى خلالها أحكامها فإن بريطانيا اعتبرتها معاهدات أبدية^(٣) External Treaties ، ونظرت بريطانيا إلى منطقة الخليج العربي على أنه بحيرة بريطانية^(٤) . وشاءت الدبلوماسية البريطانية ، تماشياً مع خطتها في انتحال مسميات تخفي وراءها أرضاعها الاستعمارية ، أن تطلق على نفوذها في الخليج المصطلح اللاتيني Pax Britanica أي السلم البريطاني . ولم يكن هذا السلم سوى رغبتها في الإبقاء على التفكك السياسي بين مشيخات الخليج ، ولتستمر منطقة الخليج حلقة من حلقات المواصلات البريطانية إلى الهند وجنوبي شرق آسيا والإقيانوسية ، وقواعد لأسطولها في أرجائه ولتقيم من نفسها وصية على إماراته ووسطاً بين هذه الإمارات في علاقاتها الخارجية بدول العالم .

(١) Aitchison C.U.; A Collection of Treaties, Engagements and Sanads relating to India and Neighbouring Countries, 12 Vols., Calcutra, 1892, vol. XI, pp. 335-337.

(٢) عن الاتفاقيات المانعة ، انظر لوريمر ج. ج مرجع سبق ذكره ؛ القسم التاريخي ، ج ٢ ، ص ٩٦٢ ، ١١٩٢ .

(٣) دكتور جمال زكريا قاسم : الخليج العربي . دراسة تاريخ الإمارات العربية (١٨٤٠-١٩١٤) رسالة دكتوراه

في التاريخ الحديث من كلية الآداب بجامعة عين شمس . مطبعة جامعة عين شمس ، ١٩٦٦ ، ص ٧٠ .

(٤) دكتور صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي . د.ت. القاهرة ، ص ١٨٢ .

وتأكيداً لهذه المعاني التي تضمنتها تلك الاتفاقيات ، أدلى لورد لاندون Lansdowne وزير الخارجية البريطاني في وزارة آرثر جيمس بالقور بتصريح في ١٥ من مايو - آيار - عام ١٩٠٣ جاء فيه ، ويجب علينا أن ننظر إلى إنشاء قاعدة بحرية أو ميناء محصن في الخليج بواسطة أي دولة أخرى على أنه تهديد خطير جداً للمصالح البريطانية . ويجب علينا بكل تأكيد أن نقاومه بجميع الوسائل التي تحت أيدينا ،

"We should regard the establishment of a naval base or a fortified port in the Gulf by any other Power as a very grave menace to British interests, and we should certainly resist it by all the means at our disposal".^(١)

وقام لورد كيرزون Curzon George N. نائب الملك في الهند بزيارة رسمية إلى منطقة الخليج في نوفمبر - تشرين ثان - من السنة ذاتها. وزار مسقط ، والشارقة ، وبندر عباس ، وهرمز ، وقشم ، والبحرين ، والكويت ، وبوشهر ، وغيرها ، وكانت ترافق سفينته مجموعة من وحدات الأسطول البريطاني في الهند في مظاهرة بحرية . وعقد اجتماعات حضرها مشايخ وأمرء الخليج^(٢) واستهدفت بريطانيا من هذه التصرفات تأكيد النفوذ الانفرادي ، الذي تدعيه لنفسها في منطقة الخليج وعزمها الأكيد على الدفاع عن هذا المركز . وسطر كيرزون في كتابه رأيهُ قائلاً : إن وجود ميناء روسي في الخليج (الفارسي) ، وهو ذلك اللحم الجميل الذي يداعب أفئدة الوطنيين الروس من نيفا إلى القولجا سيكون حتى في أيام السلم عنصر قلق في حياة الخليج يزعزع التوازن الدقيق ، الذي أسننه بعد جهد جهيد . وإذا ما وافقت أية دولة على إعطاء الروس ميناء في الخليج (الفارسي) ، فإنني اعتبر ذلك إهانة مقصودة لبريطانيا العظمى ، وخرقاً واضحاً للحالة الراهنة واستفزازاً مقصوداً للحرب . وإني لأتهم الوزير البريطاني الذي يذنب فيوافق على مثل هذا الاستسلام ، واعتبره خائناً لوطنه ،^(٣)

وكما استهدفت بريطانيا معارضة روسيا في إيجاد ميناء حربي لها في منطقة الخليج ، استهدفت أيضاً معارضة فرنسا في إنشاء محطة للفحم في مسقط . أما المشروع الألماني وهو خط ب. ب. ب. ، ومساندة الدولة العثمانية له فقد عارضته بكل عنف بعد أن تبينت أهدافه . حرصت شيوخ القبائل في منطقة شط العرب على الدولة العثمانية ، وعينت ممثلين لها في مناطق شط العرب والخليج كانوا أو معظمهم ضباطاً من جيش الهند يعينون من قبل حكومة الهند ولكنهم يتبعون وزارة الخارجية البريطانية . وكان على رأس هؤلاء للممثلين «مقيم عام

(1) Ensor R.C.K.; op. cit.; p. 382.

(٢) انظر تفصيلات وافية عن هذه المرحلة والاحتفالات والمهرجانات ، التي أقيمت خلالها والخطب السياسية التي أُلقيت فيها ، في لوريير ج.ج. مرجع سبق ذكره ، القسم التاريخي ؛ ج ٧ ، ص ٢٨٢٢-٢٨٠٤ .

(3) Curzon George N.; Persia and the Persian Question, Vol. 2, P. 465.

مقره بخندر بوشهر على الساحل الفارسي في منطقة الخليج، كان يعتبر ملك الخليج غير المتوج^(١). وصرح لورد كيرزون بأن نفوذ ألمانيا يجب أن يقف عند حده بل ويختفي . وقال إن لألمانيا مآرب سياسية واقتصادية وعسكرية في هذا المشروع ، وذهبت الدوائر البريطانية إلى أبعد من ذلك .. فطالبت بأن يكون العراق ملكاً لبريطانيا ومنفذاً طبيعياً إلى الهند . ولم يلبث لورد كيرزون أن ردد هذا الرأي علناً في خطبة ، القاها في ١٥ من شهر أبريل - نيسان - عام ١٩١٥ قائلاً : إن الأرض الواقعة شمال الخليج (الفارسي) ليست ملكاً للأتراك .. إنهم دخلاء عليها . وإن من واجب السياسة البريطانية أن تحرر هذه الأرض منهم ، وأن تعود تلك العلاقة الطيبة بين هذه البلاد وبين بريطانيا نتيجة لسياستنا التي اشتغلنا فيها منذ خمسين سنة . وإن نفوذ الألمان يجب أن يأخذ حده ويختفي ، وإن خط حديد برلين - بغداد لن يكون له نفع مالم يكن تحت رقابتنا .

بوابر تسلل استعماري أمريكي :

وكان للولايات المتحدة الأمريكية نشاط عسكري وسياسي واقتصادي في المحيطين الهادي والأطلسي في أواخر القرن التاسع عشر .. فقد احتلت سنة ١٨٩٣ جزر هاواي وهي ذات مركز حربي هام في المحيط الهادي ، وجعلت منها قاعدة بحرية منيعة في بيرل هاربر Pearl Harbour . ولم تمض سنوات ذات عدد حتى نشبت الحرب بينها وبين إسبانيا سنة ١٨٩٨ ودمرت الأسطول الإسباني تدميراً ، واضطرت إسبانيا في معاهدة باريس في اليوم العاشر من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٩٨ إلى التخلي للولايات المتحدة عن بورنيكو في المحيط الأطلسي ، والفلبين في المحيط الهادي ، ومنحت كوبا استقلالها . ولكن الولايات المتحدة وضعت يدها عليها ، فهي ذات موقع حربي هام ؛ إذ تقع عدد مضيق فلوريدا ومدخل خليج المكسيك ، وبذلك تمت لها السيطرة على خليج المكسيك والبحر الكاريبي ، أما في آسيا فقد استطاعت بسبب امتلاك الفلبين ، أن توجد لها منطقة نفوذ بين اليابان والصين والهند الصينية . ومنذ ذلك الوقت بدأت تعمل على بسط سيادتها في أرجاء المحيط الهادي .

ثم رأت الولايات المتحدة أن تقوم بنفسها بحفر قناة بناما ، واستغلالها بصفة أبدية^(٢) ؛ إدراكاً منها لأهمية هذه القناة من الناحيتين التجارية والعسكرية ، إذ تختصر المسافة بين الشرق

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٩-٣٦٨ .

(٢) كانت حكومة كولومبيا - التي تقع في أراضيها قناة بناما - قد منحت شركة فرنسية يرأسها فريديناند دي لسيبس ونائبه ابنه شارل دي لسيبس امتيازاً في ١٨ من مايو - أيار - عام ١٨٧٨ لإنشاء قناة بناما . وتعثرت الشركة في أعمالها ، ولجأ أصحاب الأسهم إلى القضاء الفرنسي . وأصدرت محكمة السين في باريس حكماً في ٥ من فبراير - شباط - عام ١٨٨٩ بتصفية الشركة ، وأحيل فريديناند دي لسيبس وابنه شارل ، وغيرهما من أعضاء مجلس إدارة الشركة إلى محكمة الجنايات بتهمة تبديد أموال مساهمي=

الأقصى وأمريكا ، وتفتح الطريق أمام الأسطول الأمريكي بين المحيطين الهادى والأطلنطى . وتداعت إلى أذهانها ذكريات الحرب الأهلية ، التى نشبت بين ولاياتها الشمالية وولاياتها الجنوبية (١٨٦١-١٨٦٥) ، فازدادت إدراكاً لأهمية القناة المقترحة . وبعد اتصالات مكثفة ولكن غير مثمرة بين الولايات المتحدة وبريطانيا ^(١) ، خلصت الحكومة الأمريكية رأياً إلى أن تنفيذ واستغلال القناة يجب أن يكونا بعيدين عن الدول الأجنبية . وكانت أحداث الحرب للتربية التى اندلعت بين الولايات المتحدة وإسبانيا عام ١٨٩٨ ، جعلت الدوائر العليا الأمريكية ترى ضرورة وضع للقناة المستقبلية تحت إشراف الولايات المتحدة وصبغها بصبغة أمريكية بحتة ؛ فالقناة يجب أن تكون فى تقديرها قناة أمريكية على أرض أمريكية مملوكة للأمة الأمريكية ^(٢) . وانتهى بها المطاف إلى عقد معاهدة مع حكومة بناما ^(٣) فى ١٨ من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٠٣ ، عرفت باسم معاهدة هاى بونو ^(٤) Hay-Bunau ، وبمقتضى هذه المعاهدة خولت جمهورية بناما الحق للولايات المتحدة فى إنشاء القناة واستغلالها بصفة أبدية ، واستخدام واحتلال منطقة عرضها عشرة أميال فى اليابسة بين المحيطين الأطلنطى والهادى ، وتمتد فى مياهها لمسافة ثلاثة أميال بحرية ، وكذلك على الجزر الواقعة فى تخوم هذه المنطقة وأربع جزر صغيرة فى خليج بناما ، واحتكار إنشاء كل وسائل المواصلات فى هذه المنطقة والاحتفاظ بها . وخولت المعاهدة للولايات المتحدة أيضاً

= الشركة ، وصدرت عليهم فى ١٨ من يونيو - حزيران - عام ١٨٩٣ أحكاماً بالسجن والحبس مدداً متفاوتة وغرامات مالية ، وتأسست شركة أخرى تحت اسم الشركة الجديدة لقناة بناما ، ثم حلت حكومة الولايات المتحدة محلها ، وبفقت لها أربعين مليوناً من الدولارات كتعويض .
انظر :

دكتور مصطفى الصفناوى : قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة . ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٤٩٩-٥٠١ .

(١) استهدفت هذه الاتصالات عقد معاهدات بين الدولتين بخصوص القناة المقترحة ، وكان من بينها معاهدة كلايتون - بلور Clayton-Bulwer فى ١٩ من أبريل - نيسان - عام ١٨٥٠ ، ومعاهدة هاى - بونسفوت Haye-Pauncefote فى ٥ من فبراير - شباط - عام ١٩٠٠ ، ثم معاهدة أخرى تحمل الاسم نفسه فى ١٨ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٠١ ، وهى خاصة بعدة موضوعات مثل حيدة القناة وعدم فرض الحظر البحرى عليها أو مباشرة أى حق من حقوق المتحاربين ، وفرض رسوم على السفن على قدم المساواة إلى غير ذلك .

(2) Siegfried André : Suez and Panama, Translated from the French by H.H. Hemming and Doris Hemming, Oxford, 1940, p. 228.

(٣) قامت فى بناما حركة انفصالية عن كولومبيا ، ونجحت الحركة فى ٢ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٠٣ ، وأعلنت بناما نفسها جمهورية مستقلة فتلقفت حكومة واشنطن هذه الفرصة ، وسارت إلى الاعتراف بها فى ١٢ من الشهر ذاته .

(٤) كان هاى وزير أمريكا . وكان بونو فاريلو Bunau Varilla هو ممثل جمهورية بناما .

الحق في الدفاع عن القناة بكافة الوسائل ، وأن تشتري أو تستأجر من أراضي جمهورية بناما ما يلزم لإنشاء محطات بحرية ؛ للتمكن من تنفيذ التزامات هذه المعاهدة على أفضل وجه وحماية القناة بشكل فعال وتأمين حيدتها، والتزمت الولايات المتحدة ، في مقابل كل هذه الامتيازات وغيرها أن تضمن استقلال جمهورية بناما مع دفع تعويض مالي ودخل سنوي^(١).

وقد افتتحت القناة في اليوم الخامس عشر من شهر أغسطس - آب - عام ١٩١٥ .

والأمر الجدير بالتسجيل في هذا المقام أن جمهورية بناما كانت تملك اسماً الملكية والسيادة على قناة بناما ، على الرغم من أنها صاحبة الإقليم الذي تمر منه القناة . بينما كانت سلطات الولايات المتحدة طاغية على القناة ، لأن جمهورية بناما أعطتها حق الاستيلاء على منطقة القناة واحتلالها وإدارتها والدفاع عنها وإقامة المنشآت العسكرية وغير العسكرية بالشكل الذي تراه لعدة غير محدودة .

وغدت الولايات المتحدة تباشراً فعلاً على هذه المنطقة كل ماتمارسه الدول من حقوق على أقاليمها ، بحيث أصبحت إدارة قناة بناما في الحقيقة حكومة مصغرة داخل نطاق حكومة الولايات المتحدة^(٢) . ولم يعد لجمهورية بناما غير مبلغ تنقاضه سنوياً .

وقع الزحف الاستعماري البالغ العنف والضرارة على شتى أرجاء الساحة الدولية في وقت كانت الدولة العثمانية تعاني كثيراً من أسباب الاضمحلال ، وهو اضمحلال كانت أعراضه ومظاهره قد ظهرت قبل تولي عبدالحميد الحكم بأكثر من مائة وخمسين سنة حين عقدت على عهد السلطان مصطفى الثاني (١٦٩٥-١٧٠٣) معاهدة كارلوفتز Karlovitz في اليوم السادس والعشرين من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٦٩٩ ، والقرن السابع عشر يقترب من نهايته .. فكانت هذه المعاهدة استهلاً سبلاً للقرن الثامن عشر بالنسبة للدولة العثمانية ، كما كانت أول معاهدة تعقدها مع النمسا ، والروسيا ، وبولندا ، وجمهورية البندقية ، وتتنازل فيها ، كدولة منهزمة ، عن المجر وترنسلفانيا^(٣) .. أما المجر فكانت تعد الولاية العثمانية الأولى في الدولة

(١) دكتور عبدالله رشوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٩-٢١٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٥-٢٥٦ .

(٣) أطلق سكان النمسا هذا الاسم على هذا الإقليم ومعناه البلاد الواقعة فيما وراء الغابات ، لوجود غابات كثيفة تفصلها عن النمسا ، وهي من أهم أقاليم النمسا ، ويتميز بكثرة المعادن تحت أرضها ويزيد تعدادها من ثلاثة ملايين نسمة .

وكانت ناليها مصر ، كما وافقت على تنازلات إقليمية أخرى هامة للروسيا ،^(١) وبولندا،^(٢) وجمهورية البندقية^(٣) ، ولذلك يرى فريق من المؤرخين أن معاهدة كارلوفتز تعد أول تقطيع لأوصال الدولة العثمانية^(٤) The First Dismemberment of the Ottoman Empire . لأن هذا العمل الذي بدأ في كارلوفتز قد عملت معظم الدول الأوروبية على استكمالها في غالبية المعاهدات التي فرضتها على الدولة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وكان من نوعية هذه المعاهدات على سبيل المثال معاهدة باساروفتز Passarovitz kucuk Kaynarca (٢١ من يوليو - تموز - عام ١٧١٨) ، ومعاهدة كنتشك كينارجي Kucuk Kaynarca (٢١ من يوليو -

(١) تنازلات الدولة العثمانية للروسيا عن مدينة أزوف ببلاد الترم وفرضتها على البحر الأسود . وكانت قبائل القوزاق تحول بين الروس والبحر الأسود ، وتطلع بطرس الأكبر إلى الاستيلاء عليها لتكون نافذة بلاده على هذا البحر ، وفعلا استولى عليها ثم اضطر إلى رفع الحصار عنها في أكتوبر - تشرين أول - عام ١٦٩٥ ، ولكنها أعيدت إلى روسيا بمقتضى معاهدة كارلوفتز . وأزوف تقع عند مصب نهر الدون ، وكان يمكن الوصول إليها مائتاً من موسكو ، وكان العثمانيون قد أقاموا حصناً عظيماً في أزوف ، وأصبح تجاور روسيا مع الدولة العثمانية مصدر أخطار ومتاعب الدولة الأخيرة .

(٢) تنازلات الدولة لبولندا عن كل بوبوليا Podolia وأوكرانيا Ukraine ، ويلاحظ أن إقليم بوبوليا عبارة عن مساحة شاسعة من الأراضي على امتداد خط تقسيم مياه نهر الديمستر Demester ، ونهر بوج Bug الذي يصب في البحر الأسود .

(٣) تنازلات الدولة لجمهورية البندقية عن بلاد المورة وساحل الماشيا . وكان البنادقة بتشجيع البابوية في روما وبمساعدة جنود مرتزقة من هانوفر وبغيرهم من الألمان ، قد استعابوا لماشيا وجربوا العثمانيين من المورة وفي معاهدة كارلوفتز ، نص على أن يحتفظ البنادقة بما حصلوا عليه من أسلاب . ولكنهم لم يستملعوا الاحتفاظ بها أكثر من تسعة عشر عاماً (١٦٩٩-١٧١٨) ؛ إذ نجح العثمانيون في استعادتها منهم . وساعدت العثمانيين على ذلك الكراهية الشديدة التي كان يكنها اليونانيون للبنادقة ، واختلاف المذهب الديني ، فاليونانيون يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، والبنادقة يتبعون الكنيسة الكاثوليكية في روما . وكانت سياسة الاحتكار التي فرضتها جمهورية البندقية في خلال التسعة عشر عاماً على التجار اليونانيين في جزر بحر إيجه ، قد أضرت بمصالحهم وأثارت سخطهم . فكان هذا السخط وذلك الإضرار عاملين ساعدا على طرد البنادقة من بلاد المورة ، وكان اليونانيون يفضلون الحكم العثماني على الحكم البندقي .

انظر : Fisher H.A.L.; op. cit., pp. 733-734.

ومما يعد مفخرة للعثمانيين روصمة عار في تاريخ جمهورية البندقية ، أن البنادقة في أثناء هجومهم على أثينا أطلقوا مدفيعتهم على الأثر التاريخي الإغريقي «البارثون» Parthenon ، وأحدثوا به أضراراً بالغة لم يمكن إصلاحها . وكان العثمانيون في زحفهم على بلاد المورة قد تجنبوا الإضرار بهذا الأثر التاريخي ، ومع ذلك لاتخلو كتابات معظم الأوروبيين من إصاق التهم والصفات غير الكريمة بالعثمانيين، ونعتهم بأنهم مسلمون متبريرون وتقمع على الحضارة وما إلى ذلك .

(٤) يرى فريق آخر من المؤرخين أن ارتداد الجيش العثماني عن أسوار فينا للمرة الثانية عام ١٦٨٣ يؤرخ البداية الفعلية لانحلال الدولة العثمانية ، وكان قره مصطفى أي مصطفى الأسود يقود الجيش في هذا الهجوم ، ومن المعروف أن القوات العثمانية سبق لها أن ارتدت عن أسوار فينا للمرة الأولى عام ١٥٢٩ في عهد السلطان سليمان المشرع ، وكان هو الذي قاد قواته .

تموز - عام ١٧٧٤) ، ثم في القرن التاسع عشر معاهدة أدرنه (١٤ من سبتمبر - أيلول - ١٨٢٩) ، ومعاهدة سان ستفانو (٣ من مارس - آذار - ١٨٧٨) ، ومعاهدة برلين (١٣ من يوليو - تموز - ١٨٧٨) .

تسابق الدول الأوروبية على امتلاك الولايات العثمانية :

لم تكن نزعة التسلط الأوروبي على الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر بأقل في ضرورتها من مثيلتها في سائر أنحاء العالم .. فقد تسابقت روسيا ، والنمسا والمجر ، وفرنسا ، وبريطانيا ، وإيطاليا ، على اقتسام الولايات العثمانية في أوروبا وآسيا وإفريقية ، فكان على الدولة أن تواجه خمس دول أوروبية كبرى وقتت موقفاً عدائياً لها .

وكانت روسيا والنمسا من أسبق الدول في انتهاج سياسة عدوانية تجاه الدولة العثمانية .

أما روسيا فكان من أعز أمانيتها استيلاؤها على إستانبول ، وفتح مضيق البوسفور والدردينل^(١) لسفنها الحربية والتجارية دون قيد أو شرط في زمن السلم أو وقت الحرب للخروج من البحر الأسود إلى المياه الدافئة في البحر المتوسط وعند عودة هذه السفن إلى البحر الأسود ، وظلت إستانبول منذ زمن مبكر حتى القرن العشرين حلماً جميلاً يداعب أفئدة قياصرة الروس والشعب الروسي ، ومما يذكر في هذا الصدد أن كاترين الثانية قيصرة روسيا قامت عام ١٧٨٧ برحلة إلى الأقاليم الجنوبية للروسيا بما فيها بلاد القرم ، وفي الإقليم الأخير أقام لها القائد الروسي زينات وأقواس نصر كتبت عليها عبارة «طريق إستانبول»^(٢) .

وفي القرن التاسع عشر كانت روسيا تعمل بوحى من حركة الجامعة الصقلبية Panславism ، وهي حركة روسية قومية كان من أهدافها جمع صقالبة البلقان الأرثوذكس ونخليصهم من السيطرة العثمانية ؛ ومن هنا كان خطر حركة الجامعة الصقلبية على الدولة العثمانية ، لأن هدفها النهائي كان القضاء على الوجود العثماني في أوروبا . أما النمسا فكانت نظرية الأمن الخارجى لديها تقوم على منع أى دولة من تهديدها أو غزوها عن طريق نهر الدانوب من ناحية مصبه في البحر الأسود ، ولذلك كانت تعمل على مقاومة الدولة العثمانية ، التي كانت ولاياتها في شمالي نهر الدانوب (الأفلاق والبغدان) وفي جنوبيه (بلغاريا والصرب والبوسنة) ، فلما سارت هذه الدولة في طريق الانضمحلل تلاشى الخطر العثماني .. ولكن خشيت النمسا من الدولة التي يمكن أن تحل محل الدولة العثمانية في شبه جزيرة البلقان وهي روسيا . وكانت الأخيرة تملك من الأسباب ما يجعل كفتها راجحة في البلقان . فيقصر روسيا

(١) يطلق عليها في اللغة التركية «آق دكيز بوغازى» ، وقلعة سلطانية بوغازى» ، و«جناق قلعة بوغازى» . انظر ثبت المصطلحات التركية في نهاية هذه الدراسة .

(٢) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٤ .

هو الرئيس الرسمي وحامي الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية .

وكانت روسيا هي الدولة الصقلبية الكبرى ، وكان أكثر سكان البلقان من الصقالية يتحدثون بلغات صقلبية حتى سكان بلغاريا ، الذين لم يكونوا صقالية تماماً كانوا قد اصطنعوا لأنفسهم لغة صقلبية . وكانت للروسيا مبررات أو ذرائع دينية للتدخل لصالح أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ؛ ولذلك تطلعت النمسا إلى كسب توسعات إقليمية في البلقان على حساب الدولة العثمانية . وازدادت مطامع النمسا في الممتلكات العثمانية البلقانية لتعويض خسائرها الإقليمية ، عقب هزيمتها من بروسيا في موقعة سادوا Sadwa في الثاني من شهر يوليو من شهر يوليو- تموز - عام ١٨٦٦ وإبرام معاهدة براغ في الثاني من شهر أغسطس - آب - في ذات السنة .

ولولا أصالة الدولة وعراقها وشموخها ، لأصبحت هباءً منبثاً وطويت صفحاتها في القرن الثامن عشر أو القرن التاسع عشر ، ولكنها ظلت تقاوم عوادي الزمن وتكتلات أوروبية أكثر من قرنين من الزمان . وبهذا أن نذكر هنا أنه نتيجة لها الزحف الاستعماري الضاري ، ونتيجة للضعف الشديد الذي انتاب الدولة ، وهو ضعف لم يكن عبدالحميد مسئلاً عنه لأنه ورث العرش كما ورث هذا المرض ، غدت ممتلكات الدولة نهياً بين الدول الأوروبية الكبرى، تستولى على ما يروقه منها أو ما تستطيع أن تحصل عليه منها وتجعل توزيع هذه الممتلكات أساساً لتسوية الخلافات بين تلك الدول .. وسرى أن الزحف الاستعماري على الأقاليم العثمانية قد اتخذ طابع الصراع الديني بين أوروبا المسيحية والدولة العثمانية الإسلامية ، وأن الروح الصليبية ظلت متأججة في نفوس الأوروبيين وإن اتخذت مسميات أخرى . ولم يهدأ بال الدول الأوروبية المسيحية إلا بعد أن نجحت في الإجهاز على الدولة العثمانية في أوائل القرن العشرين ، عقب الحرب العالمية الأولى .

يتضح من هذا العرض لبعض معالم حركة التناقص الاستعماري بين الدول إبان حكم السلطان عبدالحميد الثاني عدة حقائق بارزة ، كان من بينها :

أولاً : عدم دقة الرأي الشائع وهو أن الدول الاستعمارية الكبرى كانت قد وصلت إلى درجة التثبع من عمليات النهب والسلب والتسلط في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وأن جذوة الاستعمار لديها أخذت تخبو في القرن التاسع عشر حتى إذا اقترب هذا القرن من نهايته كانت شهوة الاستعمار لديها قد خمدت . والواقع أن نزعة الاستعمار ظلت مشتعلة في الدول الاستعمارية الكبرى في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، تبغى مزيداً من المستعمرات بالضراوة نفسها التي عرفت بها من قبل . وظلت أيضاً بعد الحرب العالمية الأولى تحت اسم الانتداب من قبل عصبة الأمم حياً ،

وتحت اسم الاستعمار أو الاحتلال السافر أو مناطق النفوذ حيناً ثانياً ، أو تحت نظام الوصاية من قبل هيئة الأمم المتحدة حيناً ثالثاً .

ويذكر الأستاذان جرانت ، و تيمبرلي ، هذه الحقيقة في صورة أخرى بقولهما إنه في الثلاثة الأرباع الأولى من القرن التاسع عشر (١٨٠١-١٨٧٥) لم تكن الدول الثلاث الكبرى الاستعمارية ^(١) ، وهي روسيا وفرنسا وبريطانيا ، قد استنفدت كل فضاء الأرض ^(٢) . وأنه بعد سنة ١٨٨٠ دخلت ألمانيا وإيطاليا ميدان الاستعمار ، وأدى هذا الموقف إلى تصاعد الأزمات في كل مكان ؛ فنب النزاع بين بريطانيا وفرنسا من أجل مصر ، وبين فرنسا وإيطاليا من أجل تونس . واستغلت ألمانيا هذا النزاع لتحصل لنفسها على مستعمرات شاسعة ، ودفع يأس إيطاليا من الحصول على نصيبها في المستعمرات إلى انضمام إيطاليا إلى التحالف الثلاثي ^(٣) . وظهر مزيد من الخطورة البالغة في السياسة الدولية في التسعينيات من القرن التاسع عشر ؛ إذ كانت كل الأرض الفضاء قد توزعتها الدول الاستعمارية فيما بينها . وكانت مراكز (المملكة المغربية حالياً) هي المملكة المستقلة الوحيدة في شمالي إفريقية . وكان من الطبيعي أن تهفو إليها أفئدة المستعمرين الفرنسيين والألمان ، وتخلت فرنسا عن إدعاءاتها في مصر لتضمن تأييد بريطانيا لها في مراكز . وعلى هذا النحو تأثرت أصول الاتفاق الودي بين فرنسا وبريطانيا سنة ١٩٠٤ وتطوره فيما بعد بالتطورات الاستعمارية في شمالي إفريقية تأثراً عميقاً . أما في آسيا فإن روسيا بعد اقترابها من أفغانستان والهند ، تحولت إلى الصين في سنة ١٨٩٢ وبذلك أجلت ، ولكنها لم تتجنب ، النزاع مع بريطانيا في آسيا . ولما وجدت بريطانيا أن ألمانيا غير راغبة في مساعدتها على وقف التقدم الروسي في الصين ، قبلت التحالف مع اليابان في سنة ١٩٠٢ من أجل هذا الهدف ، وأعلنت اليابان الحرب على روسيا بعد عامين من هذا التاريخ . وهكذا أدى التوسع الاستعماري في آسيا إلى تحالف كما أدى إلى حرب ، وأدى التوسع في إفريقية إلى الاتفاق الودي وربما إلى الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٤ ^(٤) .

ثانياً : لجأت الدول الاستعمارية إلى أساليب شتى في سبيل بسط سيطرتها ، وكان من بين هذه الأساليب : القوة الحربية ، مزيج من استخدام القوة والشراء ، كما حدث عندما استولت

(١) تجنب المؤرخان الإنجليزيان وصف الدول الاستعمارية بهذا الاسم الحقيقي ، بل قالوا عنها : الدول المتوسعة . The three great expanding powers .

(٢) يقصد هذان المؤرخان بعبارة فضاء الأرض نظرية الملك المباح ، التي شرحناها في هذا الفصل .

(٣) تكون تحالف ثنائي من ألمانيا ، والنمسا والمجر ، في سنة ١٨٧٩ ، ثم تحول إلى تحالف ثلاثي بانضمام إيطاليا إليه سنة ١٨٨٢ .

(4) Grant A.J. & Temperley H.; op. cit., pp. 321-322.

الولايات المتحدة الأمريكية على جزر الفيليبين ، رضاء مغتصب من الدولة صاحبة الإقليم كما حدث عندما احتلت بريطانيا جزيرة قبرص ، بحجة تعهدها بالدفاع عن ممتلكات الدولة العثمانية في آسيا ضد القوات الروسية ، الاستعمار المقنع غير السافر بحيث يكون للدولة نفوذ سياسي شامل ، تنفرد به دون سائر الدول ويقد حرية البلاد التي تبسط عليها هذا النفوذ مثل مشيخات منطقة الخليج العربي واستنثار بريطانيا بالنفوذ الأرحد ، وإنشاء مناطق نفوذ مثل تقسيم فارس إلى منطقتي نفوذ بريطانية وروسية ، أسلوب الشركات وهو الأسلوب ذاته ، الذي جرى عليه الاستعمار في مطلع العصور الحديثة ، ويقوم على تكوين شركات اقتصادية تقوم بأعمال استعمارية مثل شراء الأراضي من أصحابها وتوزيعها على المستوطنين المستعمرين وجمع الضرائب والاستيلاء على الإيرادات والإشراف على المرافق العامة .

وفي ظل هذا النظام كانت الدول الاستعمارية تترك شركاتها تتركب مآثاء من الفظائع وضروب الوحشية ، فإذا حققت الشركة أهدافها .. تصدر الدولة قراراً بحل الشركة وتتولى الحكومة إدارتها أى حكم الإقليم بعد أن تمنح الشركة تعويضاً سخياً . وهكذا نجى الدولة الاستعمارية في صورة المنقذ للشعوب الشرقية من آثام الشركة ، التي أننت هي في إنشائها وبذلت لها المعونة والإرشاد . ومن الأمثلة التي تساق في هذا الصدد : شركة الهند الشرقية (الإنجليزية) ، والشركة الفرنسية ، والشركة الهولندية ، وشركة إفريقية الشرقية الألمانية ، وشركة روباينو الإيطالية . وعلى ذلك .. فالاستعمار لم يكن يتم دائماً بواسطة قوات مسلحة تابعة لدولة استعمارية ، وإنما كان يتم أيضاً على أيدي جماعات منظمة من الأفراد في صورة شركات اقتصادية تبسط النفوذ الاقتصادي أولاً ثم السياسي .

ثالثاً : تم تخلي الطريق للدولة لدعم وجودها حربياً ، بعد أن تنقاضي الشركة مكافآت وتعويضات سخية .

ويلاحظ أيضاً أن السيطرة كانت تقع أحياناً على السكان دون الأرض .. فكانت الدول الاستعمارية تترك الأرض ومرافقها لسكانها الأصليين فلا تغصبها منهم ، ولا تطلب منهم الجلاء عنها . وكانت السيطرة تقع أحياناً أخرى على الأرض والسكان معاً ، وأوضح مثال لهذين النوعين من الاستعمار ماحدث في شرقي إفريقية وغربيها . كانت أراضي شرقي إفريقية مرتفعة عن سطح البحر ، وتصلح لسكنى الأوروبيين فتسلطت بريطانيا في مستعمرة كينيا على الأرض والسكان معاً . أما أراضي غربي إفريقية .. فهي منخفضة وشديدة الحرارة لاتصلح لسكنى الأوروبيين ، الذين أطلقوا عليها مقبرة الرجل الأبيض The White Man's Grave ، وقد شهد حكم السلطان عبدالحميد هذين النوعين معاً من أنواع الاستعمار .

الفصل العاشر

آراء محايدة

في حكم السلطان عبدالحميد الثاني (٣)

الحقيقة الثانية :

تولى عبدالحميد العرش في ظروف متناهية في ظلامها وقسوتها . ولم يخرج المؤرخ البريطاني وليم ميلر - وهو من المؤرخين المتحاملين على الدولة وعلى السلطان عبدالحميد بالذات - من القول بأنه ندر أن تولى سلطان من سلاطين آل عثمان الحكم وسط صعاب أكثر خطورة على مركزه من الأخطار ، التي تعرض لها عبدالحميد الثاني من يمين ويسار ، وهو السياسى الداهية ^(١) . The Astute Diplomatist .

لقد ارتقى عبدالحميد العرش بعد هزات عنيفة ، تعرض لها هذا العرش بخلع السلطان عبدالعزيز في الثلاثين من شهر مايو - آيار - عام ١٨٧٦ بناء على فتوى صدرت في اليوم السابق من شيخ الإسلام ، تجيز عزله تأسيساً على تبذيره عجزه عن حكم الدولة . وأعلن الصدر الأعظم والوزراء تعيين ابن أخيه سلطاناً اسم مراد الخامس . ولم تكد نمضي أربعة أيام على توليه العرش حتى أعلنت وفاة السلطان عبدالعزيز ؛ مما قضى على كل أمل في إعادته للعرش . وعلى الرغم من رحيل عمه ، لم يستمر مراد الخامس في الحكم إلا ثلاثة أشهر وثلاثة أيام ، ثم عزل بدوره بناء على فتوى من شيخ الإسلام تجيز عزله ، بناء على أنه مصاب باختلال في قواه العقلية ، وبالتالي فهو لا يستطيع تصريف شئون الدولة في وقت عصيب تحيط بها أخطار جسيمة من كل جانب . وفي اليوم الحادى والثلاثين من شهر أغسطس - آب - عام ١٨٧٦ ارتقى العرش أخوه الأصغر باسم عبدالحميد الثاني ^(٢) ، وقبل أن يباشر سلطانه ذهب إلى جامع أبى أيوب الأنصارى حيث تسلم السيف على ماجرت به العادة . وفي أثناء عودته زار مقبرة والده عبدالحميد ومقابر السلاطين محمد أبى القروح ومحمود الثاني ، وعبدالعزيز .

ومنذ اليوم الأول الذى ارتقى فيه عبدالحميد العرش ، وجد أن الثورة هادرة جامحة نعم إقليمي البوصة والهرسك ، يبغي سكانهما الانفصال عن الدولة أو على الأقل الحصول على مزيد من الامتيازات تكفل لهم حكماً ذاتياً مسيحياً خالصاً . ووجد أن الثورة لاتزال مشتعلة في

(1) Miller W.; op. cit., p. 368.

(٢) انظر في هذه الدراسة فتاوى عزل السلاطين ، ص ٤١٢-٤١٤ .

بلغاريا، ووجد أيضاً أن الصرب والجبل الأسود يحاربان الدولة انتصاراً للثوار بتحريض من الروسية التي أسهمت في هذه الحرب إسهاماً غير مباشر، فأمدت أعداء الدولة بالأسلحة والذخائر والقادة العسكريين، ورفعت أسماءهم من سجلات الجيش الروسي مؤقتاً للاشتراك في العمليات الحربية. وكانت الهزات العنيفة التي تعرض لها عرش الدولة أشهراً معدودات مما ساعد على تصعيد الثورات والحروب معاً.

وفي هذا الوقت العصيب أرسل لورد دربي Derby وزير خارجية بريطانيا رسالة مؤرخة في اليوم الثامن عشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٨٧٦ - بعد ارتقاء عبدالحميد العرش بثمانية عشر يوماً - إلى سير هنري إليوت Sir Henry Elliot السفير البريطاني في إسطنبول، يطلب منه مقابلة السلطان عبدالحميد شخصياً ويوجه إليه اللوم على ما أسماه المذابح البلقانية، وتصوير الدولة في إقرار النظام وتوقيع عقوبات رادعة على المسؤولين العثمانيين في بلغاريا، وتخصير الدولة في إقرار النظام وتوقيع عقوبات رادعة على المسؤولين العثمانيين في بلغاريا وتعيين حاكم مسيحي على بلغاريا، وأما إذا كان مسلماً فلا بد أن يكون له مستشارون مسيحيون، يركن إليهم السكان البلغاريون المسيحيون إلى آخر الطلبات التي سبق أن أشرنا إليها في الجزء الخاص من هذه الدراسة عن المذابح البلقانية.

وهكذا واجه عبدالحميد في أيامه الأولى موقفاً دقيقاً؛ إذ أصبحت البلقان منطقة ساخنة بلغت فيها ضراوة القتال الذروة، فاعتدى المسيحيون على المسلمين قتلاً وسلباً وهناك للأعراض وتخريباً لبيوتهم. وانطلقت أبواق الدعاية في أوروبا تدّعي أن الدولة العثمانية دولة متبريرة تقتل المسيحيين وتخرب كنائسهم وتهدم بيوتهم وما إلى ذلك من ضروب الزيف. وساعد على رواج هذا التباكي على ما سمي سوء أحوال رعايا الدولة المسيحيين، أن الجيوش العثمانية كانت في ذلك الوقت قد اكتسحت جنوبى الصرب، وأصبح الطريق أمامها مفتوحاً إلى بلغراد عاصمة الصرب.

أما في الجبل الأسود، فكانت الحرب سجالاً لأن طبيعة هذا الإقليم لا تسمح لجيوش نظامية أن تخوض معركة فاصلة. وفي اليوم الخامس من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٧٦، طالبت الدول عقد هدنة وإجراء مفاوضات لعقد صلح. ووافق السلطان عبدالحميد الثاني على عقد هدنة؛ بشرط منع إرسال أسلحة أو ذخائر أو قوات عسكرية إلى ثوار البوسنة والهرسك والصرب والجبل الأسود في أثناء الهدنة، ورفضت الدول هذا الشرط. وعندئذ تدخلت روسيا بمفردها وأرسلت في اليوم الخامس عشر من شهر أكتوبر - تشرين أول - إنذاراً إلى الباب العالي بضرورة عقد هدنة دون قيد أو شرط من جانب السلطان، وأن تمنح الدولة استقلالاً إدارياً لبعض الولايات البلقانية، وأن تضمن الدول الأوروبية حقوق سكانها المسيحيين.

وأمام تهديد روسيا وافق السلطان على عقد هدنة في أول نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٧٦ لمدة شهرين ، مدت بعد ذلك إلى أول مارس - آذار - عام ١٨٧٧ . وكان الباعث للسلطان عبدالحميد الثاني على قبول الهدنة بهذين الشرطين وغيرهما هو رغبته في كسب الوقت ؛ حتى يستكمل استعداداته الحربية وتصل إليه الإمدادات العسكرية التي طلبها من الولايات العريية ، وحاولت بريطانيا التخفيف من حدة الأزمة خشية قيام حرب بين الدولة العثمانية وروسيا ، التي كانت مصممة على منازلة العثمانيين لتحقيق أطماعها التوسعية في الدولة العثمانية ، تحت سدار الانصار للشعوب المسيحية في البلقان . وكان أخشى ماتخشاها بريطانيا امتداد العمليات الحربية إلى مصر بما فيها قناة السويس ، التي كانت تعتبرها الطريق الرئيسي إلى الهند وغيرها من الممتلكات البريطانية فيما وراء البحار ، فاقترحت عقد مؤتمر في الآستانة^(١) ، يحضره وزراء خارجية الدول الموقعة على معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ .

دبلوماسية عبدالحميد لإحباط مؤتمر الآستانة ٧٦-١٨٧٧ :

وفي اليوم الخامس من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٧٦ ، وجه لورد دربي Derby في وزارة لورد بيكونزفيلد الثانية دعوة لعقد مؤتمر دولي في الآستانة للبحث في تحسين أحوال الرعايا المسيحيين في الدولة العثمانية ، وتجنباً لنشوب الحرب بين هذه الدولة وروسيا التي جعلت من نفسها حامية للرعايا المسيحيين للعثمانيين . وكانت قد اتخذت من هذه الرغبة «الإنسانية» ستاراً لتغطية غرضها الحقيقي ، وهو خوض حرب جديدة كانت قد استكملت لها استعداداتها العسكرية والسياسية على أوسع نطاق ، ابتغاء إنزال هزيمة تصل إلى حد الكارثة توقيعها بالدولة العثمانية .

وقابلت الدول هذه الدعوة أول الأمر بالفنور ، ولكنها ما لبثت أن أدركت أن الحرب أصبحت وشيكة الاندلاع ، بعد أن ألقى القيصر خطاباً مثيراً في اليوم الثاني عشر من شهر نوفمبر - تشرين ثان - ١٨٧٦ ، أثنى فيه على استيصال أهل الصرب والجبل الأسود في حربهم ضد القوات العثمانية ، ويعد أن وصلها منشور بتاريخ اليوم الثالث عشر من ذات الشهر من الحكومة الروسية ، تبلغ فيه الدول أنها أمرت بتعبئة جزئية للقوات الروسية على الحدود لحماية مسيحيي الدولة العثمانية ، قبل أن تستكمل الأخيرة إجراءات حشد قواتها من ولاياتها في آسيا وإفريقية ، ومن ثم عادت الدول الأوروبية فوافقت على عقد المؤتمر الذي اجتمع في اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٨٧٦ في سراي البحرية برئاسة صفوت باشا وزير الخارجية العثمانية بصفته ممثلاً للدولة المضيفة كما تقضى قواعد القانون

(١) الآستانة كلمة فارسية الأصل معناها العتبة العالية ، وقد ظهرت في بعض الفرمانات السلطانية في القرن

الدولي العام ، وحضر معه أدهم باشا الآلجي^(١) العثماني في برلين ، كما حضر المؤتمر ممثلون عن فرنسا ، وألمانيا ، والنمسا ، والمجر ، والروسيا ، وبريطانيا ، وإيطاليا .

وقد سبقت عقد المؤتمر بصفة رسمية اجتماعات تمهيدية في دار السفارة الروسية من اليوم الحادى عشر إلى اليوم السابع عشر من شهر ديسمبر - كانون أول - دون دعوة الوفد العثماني لحضورها . واتضح أنه تم في هذه الاجتماعات التمهيدية وضع عدة مطالب أو «اقتراحات» قبل عرضها على المؤتمر بصفة رسمية ؛ مما يدل على تحيز أعضاء المؤتمر للروسيا . وفسر صفوت باشا مسلك الوفد بأن المؤتمر لم يدع إلى الانعقاد إلا لعرض طلبات متفق عليها من قبل ولطلب التصديق عليها من المؤتمر^(٢) ، وكانت هذه الطلبات في صالح بلغاريا والصرب والجبل الأسود والبوسنة والهرسك . كما تضمنت المطالبة بتشكيل لجنة دولية تراقب لمدة عام تنفيذ ما أسمته وفود المؤتمر «الإصلاحات» .

وشاءت دبلوماسية السلطان عبدالحميد الثاني أن يعلن في اليوم الأول لانعقاد المؤتمر صدور المشروطة - الدستور^(٣) - وتقررت فيه المساواة التامة بين جميع رعايا الدولة أمام القانون ، ونص فيه على أن الدولة جسم واحد لا يمكن تجزئته ، وعلى تجريم مصادرة الأموال ، والتعذيب في التحقيق والسخرة ، كما نص على إنشاء مجلسين نيابيين يطلق على أولهما «مجلس المبعوثان» ويضم مائة وعشرين مبعوثاً أى نائباً منتخبين يمثلون الولايات العثمانية . ويطلق على الثانى «مجلس الأعيان» ويضم خمسة وعشرين عضواً تعينهم الحكومة . ونص أيضاً في الدستور على وضع موازنة عامة سنوية للدولة ، تعرض على مجلسى المبعوثان والأعيان والقرام الحكومة بتنفيذها ، وتأمين القضاة في مناصبهم بحيث لا يجوز عزلهم إلا بسبب شرعى ، وأباح حرية التعليم والمطبوعات .. وأهم من ذلك حرص الدستور على الإبقاء على الطابع الإسلامى للدولة فقرر أن دينها الرسمى هو الإسلام ، واحتفظ بطابعها القومى فقرر أن اللغة التركية هى اللغة الرسمية ، وأن رعاياها عثمانيون دون تفرقة بين عثماني تركى الأصل والأرومة أو عربى أو كردى أو غيره ، وبين مسلم أو مسيحى أو يهودى . وغير ذلك من مبادئ أساسية وحיוية وهامة^(٤) .

(١) انظر ثبت المصطلحات التركية ومعانيها في نهاية هذه الدراسة .

(٢) انظر منشور صفوت باشا إلى السفراء العثمانيين لدى الدول الكبرى في ٢٥ من يناير - كانون ثان - عام ١٨٧٧ .

محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤١٤ .

(٣) كان السلطان قد أرسل إلى مدحت باشا بعد تعيينه صندراً أعظم بأربعة أيام كتاباً أرفق به الدستور وأمره بنشره ، ثم رأى توقيت إعلانه يوم افتتاح مؤتمر الاستانة .

(٤) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨٨ .

وشاءت دبلوماسية السلطان ثانياً أن يذاع هذا القرار بصورة عملية وعلمية لأعضاء وفود الدول فضلاً عن جماهير الشعب ، فأمر بأن تطلق كل قلعة ، وكل سفينة حربية إحدى وعشرين طلقة . وفوجيء أعضاء المؤتمر وهم مشغولون بمناقشتهم بسماع طلقات المدفعية . ولما استفسروا عن هذا الأمر كانت إجابة مندوبى الحكومة سريعة ومعدة من قبل : إنها طلقات المدفعية العثمانية ابتهاجاً بصدر الدستور^(١) .

وشاءت دبلوماسية السلطان ثالثاً أن يقبث لوفود الدول المشتركة فى المؤتمر أنه يستشير كبار رجال الفكر السياسى وعلماء الدين فى جميع أمور الدولة ، فدعا إلى اجتماع عقد فى اليوم الثامن عشر من شهر يناير-كانون ثان - عام ١٨٧٧ حضره زهاء مائتين من أعيان الدولة ورؤساء الديانات وعرضت عليهم مطالب الدول ، فأجمع الجميع على رفضها . وكان من بينهم وكيل بطريك الأرمن وحاخام اليهود ، وكانا أكثر الأعضاء تحمساً لرفضها .

وقد أثبتت الأحداث التى تعاقبت بعد ذلك أن تأييد الأرمن - على الأقل - كان من قبيل الخداع والتضليل بالدولة ، لأنه لما نشبت الحرب بين الدولة والروسيا بعد ذلك بحوالى شهرين .. قدم الأرمن معاونة صادقة للروس فى حريهم فى آسيا ضد الدولة العثمانية . ومع ذلك فإن روسيا ابتلعت شرائح إقليمية من بلادهم سواء أرمينية العثمانية أو أرمينية الروسية ، دون أن تعمل على تحريرهم^(٢) . وأحاط صفوت باشا أعضاء المؤتمر علماً فى جلسة العشرين من الشهر ذاته بأن أعضاء الاجتماع العام من كبار رجال الدولة رفضوا مطالب المؤتمر بالإجماع . وأن السلطان قد رفضها ، عملاً برأى كهراء الأمة . ورؤساء المذاهب والديانات ، وحفظاً لكرامة الدولة وصيانة لشرفها ،^(٣) وأبلغهم صفوت باشا فى الوقت ذاته أن الحكومة مستعدة للنظر فى بعض طلبات المؤتمر ، ولكنها غير مستعدة على الإطلاق للتنازل عن أى جزء من أراضيها سواء للصرب أو الجبل الأسود أو غيرها . وفى مساء اليوم التالى ٢١ من الشهر ذاته أنهى المؤتمر أعماله ، وغادر الأعضاء الآستانة دون أن يقابلوا السلطان ومعهم مفراء دولهم علامة على قطع العلاقات السياسية مع الدولة . ولم يتخلف منهم إلا السفير الروسى ، بحجة أن حالة الجو والبحر الأسود لاتسمح لسفينة العذر بالبقاء فى الآستانة ليضع مزيداً من الخطط والمؤامرات لتدمير الدولة العثمانية .

بهذه الصور المتعددة الأشكال من دبلوماسية عبد الحميد ، نجح هذا السلطان فى أن يفوت الفرصة على أعضاء مؤتمر الآستانة ، فغادروا العاصمة غير مأسوف على رحيلهم .

(1) Miller W.; op. cit., p. 371.

(2) Ensor R.C.K.; op. cit., p. 50.

(٣) مصطفى كامل باشا : المسألة الشرقية ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٢٣١ .

عبدالحميد يتلقى إنذاراً من الدول :

وعلى الرغم من أن الدولة عقدت صلحاً مع الصرب ، استمرت المسألة الشرقية مشتعلة ، دون أن تسوى تسوية سلمية بسبب أطماع الدول الأوروبية الكبرى في اقتطاع ولايات عثمانية لحسابها ، وبسبب إصرار روسيا على خلق أزمات وتصعيدها مستهدفة خوض الحرب حين تستكمل استعداداتها الحربية النهائية . وفي الوقت ذاته ، بذلت هذه الدولة جهوداً دبلوماسية مكثفة لتضمن حيده الدول الأوروبية الكبرى في الحرب المقبلة ، وأوفدت لهذا الغرض إجناتيف إلى العواصم الأوروبية فزارها عاصمة بعد أخرى ولقى فيها ترحيباً ، وحصل على تأكيدات من حكوماتها بعدم معارضة روسيا في شيء . وفي لندن توج جهوده باتفاقه مع رئيس الوزارة البريطانية على عقد مؤتمر دولي في العاصمة البريطانية ، يحضره سفراء الدول الموقعة على معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ ، ولم تشترك فيه الدولة العثمانية بطبيعة الحال . وصدر عن هذا المؤتمر ما عرف باسم «بروتوكول لندن»^(١) في اليوم الحادي والثلاثين من شهر مارس - آذار - عام ١٨٧٧ ، وهو عبارة عن إنذار جماعي من الدول إلى الباب العالي ، طالبت فيه بعقد معاهدة صلح مع الجبل الأسود على أساس منح هذا الإقليم إضافات إقليمية كان يطالب بها ، وإنقاص عدد الجيش العثماني ، وتحسين أوضاع الرعايا المسيحيين في الدولة ، وإذا لم يستجب الباب العالي لهذه المطالبات في أقرب فرصة ، فإن الدول الأوروبية تتخذ الإجراءات الفعالة ضد الدولة .

وعرض السلطان عبدالحميد هذا الإنذار على مجلس المبعوثان ، فرفضه المجلس في اليوم التاسع من شهر أبريل - نيسان - وأبلغ الباب العالي في مذكرة ضافية في اليوم الحادي عشر الدول الموقعة على بروتوكول لندن رفضه هذه المطالبات وأسباب رفضها^(٢) ، وأصبحت الحرب وشيكة الوقوع بين يوم وآخر . وأكملت روسيا استعداداتها الحربية ، وعقدت في اليوم الرابع والعشرين من ذات الشهر اتفاقاً حريباً سرياً مع رومانيا ، يسمح بمرور القوات الروسية

(١) البروتوكول Le Protocole مصطلح في القانون الدولي العام يطلق على اتفاقيات دولية ، إذا كان الموقف الدولي في تقدير الدول الأطراف في هذه الاتفاقيات لا يتحمل تأخيراً ، وكان وضع الاتفاقيات أو المعاهدات يتطلب إجراءات يستغرق إتمامها وقتاً طويلاً ، مثل بروتوكول باريس في ٥ من أغسطس - آب - عام ١٨٦٠ ، بخصوص تدخل أوروبا عسكرياً لإخماد فتنة بلاد الشام إبان الحكم العثماني .
ويستخدم هذا المصطلح أيضاً كوسيلة تكميلية لتسجيل توافق إرادات الدول ، على مسائل تبعية لما سبق الاتفاق عليه في المعاهدة المنعقدة بينهما . والأمثلة على ذلك كثيرة منها بروتوكول السودان ، وبروتوكول الجلاء في مشروع معاهدة صدقي - بيغن . كما يطلق هذا المصطلح على مختلف الاتفاقات الدبلوماسية .

انظر : الدكتور حامد سلطان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٧ ، حاشية رقم ١ .

(٢) نشر محمد فريد بك الترجمة العربية الكاملة لمذكرة الباب العالي نقلاً عن مجموعة الجوانب .

انظر : محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤١٧-٤٢١ .

عبر الأراضي الرومانية في زحفها على الدولة العثمانية ، مع أن رومانيا كانت لاتزال تحت السيادة العثمانية^(١).

الروسيا تعلن الحرب رسمياً على الدولة :

أرسل الأمير غورتشاكوف في اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٧٧ إلى تروفيق بك المكلف برعاية المصالح العثمانية في سان بطرسبرج كتاباً ، جاء فيه أن سيده قيصر روسيا رأى نفسه مضطراً بكل أسف إلى اللجوء إلى الحرب لتنفيذ مطلبه وهو نصرة المسيحيين من رعايا السلطان ، وأن روسيا تعتبر نفسها في حالة حرب مع الدولة من هذا التاريخ . وفي اليوم ذاته عبرت القوات الروسية الحدود الأوروبية والحدود الشرقية للدولة ، وبذلك بدأت الحرب بين الدولة العثمانية والروسيا ، وكانت الحرب الرابعة والأخيرة التي نشبت بين الدولتين في القرن التاسع عشر^(٢) . واتخذت روسيا في القرم والبحر الأسود خطة الدفاع

(١) كانت رومانيا تتكون من ولايتي الألاق والبغدان أو مودافيا وولاشيا ، وقد دخلتا تحت السيادة العثمانية في أواخر القرن الخامس عشر . وكانت هاتان الولايتان مسرحاً لسانس اللول الأجنبية وبخاصة الروسية ، واستطاعت من هاتين الولايتين إقليم بيكوفينا عام ١٧٧٥ وإقليم بسارابيا عام ١٨١٢ . وأعيت السيادة العثمانية إلى الولايتين بشروط معينة في معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ (المواد من ٢٦ إلى ٢٧) ، غير أن الامتيازات العديدة التي ظفرت بها هاتان الولايتان من الدولة العثمانية بتأييد روسيا وانبعثت الروح القومية في الولايتين ، كما انبعثت في سائر الولايات البلقانية قد أوجدت تياراً قوياً نحو اتحادهما واستقلالهما . وقد أبيت الاتجاه الجندوي الروسي وفرنسا ، بينما عارضته كل من الدولة العثمانية وبريطانيا والنمسا . وتصاعدت المشكلة بحيث غدت من أكبر المشكلات التي واجهتها أوروبا بعد عقد معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ . ولحل هذه المشكلة عقد اتفاق باريس في اليوم التاسع عشر من شهر أغسطس - آب - عام ١٨٥٨ ، وتقرر فيه إطلاق اسم موحد على الولايتين هو «ولاية مودافيا وولاشيا المحدثتين» The United Principalities of Moldavia and Wallachia على أن تكون الولايتان تحت السيادة العثمانية وأن تدفعا جزية سنوية للسلطان حددت بمليون ونصف مليون قرش بالنسبة لمودافيا ومليونين ونصف مليون قرش بالنسبة لولاشيا . وأن يكون لكل ولاية مجلس نيابي ، ولكل منهما حاكم ينتخبه الشعب ويوافق عليه السلطان ، ويكون للولايتين معاً لجنة مركزية ، تتكون من ستة عشر عضواً نصفهم من مودافيا ونصفهم من الالاشيا . ومن اختصاصات اللجنة وضع القوانين التي تمس المصالح العام ومحكمة الاستئناف الفيدرالية (الاتحادية) ، وتقرر أن يخضع جيشا الولايتين لتنظيم واحد ، وأن يتحدوا في وقت الحاجة ، ويكون له قائد واحد ينتخبه أميرا الولايتين بالتناوب ، وأن يكون لكل ولاية عليها الخاص وغير ذلك من تنظيمات . ويعتبر هذا الاتفاق حلاً وسطاً بين الاتحاد والانفصال . وفي الانتخابات التي جرت في اليوم السابع عشر من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٥٩ في ولاية مودافيا ، وفي اليوم الخامس من شهر فبراير - شباط - أجمع الناخبون على شخص واحد ، هو إسكندر كوزا Couza وهو من ولاية مودافيا ، ودرس القانون وخدم في الجيش ، فكان انتخابه الخطوة الأولى في سبيل الاتحاد . واتخذ لنفسه اسم إسكندر جون الأول . وفي عام ١٨٦١ استبدل في إستانبول ، وسميت الإمارة الجديدة رومانيا وعاصمتها بخارست ، مع تأكيد بقاء حق السلطان في الجزية والسيادة .

نظراً لتفوق الأسطول العثماني^(١) ، ومع ذلك لم يستطع العثمانيون استغلال تفوقهم البحري على الأسطول الروسي ، وعجزوا عن تدميره أو إصابته بهزيمة قاصمة . وجعلت خطتها الهجومية في جبهة القوقاز وحوض نهر الدانوب وجنوبى البلقان ؛ أى اتخذت من الحرب البرية وسيلتها الرئيسية ، كما أقامت خطتها على الحرب الخاطفة بعبور الجيوش الروسية نهر الدانوب ثم اختراق جبال البلقان وممراته الجبلية ، فإذا تم لها ذلك انسابت سراعاً نحو إستانبول . وبذا تضع نهاية للمسألة الشرقية في الجزء الأوروبي من أملاك الدولة العثمانية ، وفي اليوم الخامس والعشرين من الشهر ذاته ، أرسل الباب العالي منشوراً بطريق البرق إلى السفراء العثمانيين لدى الدول الأوروبية الموقعة على معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ ، يبلغهم أن للروسيا أعلنت الحرب على الدولة خلافاً لما نصت عليه هذه المعاهدة في مادتها الثامنة من ضرورة الأخذ بمبدأ تحكم الدول ، في حالة وقوع نزاع بين الدولة العثمانية وإحدى الدول الأطراف في المعاهدة قبل اللجوء إلى الحرب .

الأحداث السياسية والدينية في أثناء الحرب :

ولن نخوض في وقائع الحرب لأنها خارجة عن نطاق هذه الدراسة . ولكن حسبنا أن نشير إلى أهم أحداثها السياسية والدينية والأخطاء التي وقع فيها السلطان عبدالحميد الثاني . دخلت الجيوش الروسية أراضي رومانيا في طريقها إلى نهر الدانوب لعبوره ، ابتغاء اكتساح الأراضي العثمانية . ورأت الدولة العثمانية أن في هذا التصرف من جانب رومانيا خروجاً على السيادة العثمانية ؛ فأمرت أسطولها النهري في الدانوب بقذف شواطئ رومانيا بالقنابل . وردت رومانيا على هذا القصف بإعلان استقلالها في اليوم الرابع عشر من شهر مايو - آيار - ١٨٧٧ ، وباشتراكها إلى جانب روسيا في الحرب ، وبذلك انضم جيشها البالغ ستين ألف جندي ضد الدولة العثمانية ، ونجم عن هذا الوضع العسكري الجديد أن استطاع الجيش الروسى بجميع فرقته عبور نهر الدانوب في اليوم السابع والعشرين من شهر يونيو - حزيران - ودخلت تغلبت روسيا على العقبة الطبيعية الأولى أمامها ، وهى نهر الدانوب ، وبقيت أمامها العقبة الثانية والأخيرة ، وهى اجتياز هضبة البلقان وممراته الجبلية . ولكن شد أزرها انضمام الجبل الأسود إليها منذ الأيام الأولى للحرب؛ مما اضطر الدولة العثمانية إلى تحويل جزء من قواتها لمحاربة سكان هذا الإقليم بدلاً من توجيه هذه القوات لمحاربة الروسيا في جبهات البلقان .. ثم دخلت الصرب الحرب إلى جانب الروسيا في المراحل الأخيرة للحرب .

(١) كان السلطان عبدالعزيز لولعه بالسلاح البحري قد زاد من عدد وحداته وعتاده ورجاله زيادة ، لم تكن تتفق مع الموقف المالى المتدهور للحكومة العثمانية .

انظر : دكتور محمد مصطفى صفوت ، مؤتمر برلين إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠ .

وهكذا وقفت الدولة العثمانية وحيدة تواجه تكتلاً دولياً مسيحياً من روسيا ورومانيا والجيل الأسود والصرب جهاراً ومن رعايا الدولة المسيحيين فى باقى جهات البلقان سراً . وقد اتخذ هذا الصراع منذ يومه الأول طابع الصراع الصليبي بين المسيحية والإسلام ؛ إذ ركز الحلفاء اهتمامهم على نفس الأحياء الإسلامية فى المدن ، التى اقتحموها وقتلوا سكانها وسلبوا أموالهم وهتكوا أعراسهم وخربوا مساجدهم . واستصدر السلطان من شيخ الإسلام فى إستانبول فتويين مؤرختين فى اليوم الحادى والعشرين من شهر مايو - آيار - كانت الأول بفرض القتال على كل مسلم بالغ قادر عاقل ، وأن هذا الواجب هو فرض عين^(١) ، وكانت الفتوى الثانية خاصة بإضافة لقب غازى لاسم السلطان عبدالحميد الثانى فى الأوامر السلطانية وعلى المنابر ؛ بناء على مجاء فى الحديث الشريف «من جهز غازياً فى سبيل الله فقد غزا» . ولكى يضعن السلطان سلامة الجبهة الداخلية ويأمن شر الدسائس الأجنبية ، أعلن الأحكام العرفية فى اليوم الرابع والعشرين من شهر مايو - آيار - ولاتثريب عليه فى هذا الإجراء ؛ لأن الدول تلجأ إليه فى حالة الحرب .

تقهقرت الجيوش العثمانية أمام الأعداء الذين استطاعوا احتلال عديد من المدن الهامة فى جبهة البلقان وجبهة القوقاز ؛ مما أدى إلى انتشار الذعر فى إستانبول .

من أخطاء السلطان عبدالحميد :

أذاع المرجفون فى العاصمة أن تقهقر القوات العثمانية أمام الجيوش الروسية إنما مرده إلى إهمال أو تقصير أو عدم كفاءة كبار المعسكرين ، ومنهم رديف باشا ناظر الحربية ، وعبدالكريم باشا القائد العام للجيش . ووشوا بهما إلى السلطان فعزلهما فى اليوم الثانى والعشرين من شهر يوليو - تموز - وأصدر فرماناً بتعيين محمد على باشا قائداً عاماً للجيش ، وكان تعيينه فى هذا المنصب الخطير من الأخطاء التى وقع فيها السلطان ؛ لأن محمد على باشا كان روسى الأصل مسيحى الديانة اسمه الروسى شارل دفروا ، ثم اعتلق الإسلام وانخرط فى سلك الجيش العثمانى ، وتدرج فى مناصبه ووصل إلى رتبة فريق . ولما نشبت الحرب فى أبريل - نيسان - ١٨٧٧ رقى إلى رتبة مشير وأرسل إلى الروملى ، ولم تكن تصرفات هذا القائد فوق مستوى الشبهات^(٢) . ومن أخطاء عبدالحميد ثانياً أنه عين صهره محمود باشا داماد ناظراً للحربية . وكان يجدر بالسلطان أن يبتعد عن سياسة تعيين الأدانى والأفاصى من أفراد الأسرة

(١) تميز الشريعة الإسلامية الفراء بين فرض الكفاية وفرض العين . أما فرض الكفاية فتعلق بمجموع الأمة فى البلد ، بحيث إذا قام به البعض سقط الفرض عن الباقي ، مثل صلاة الجنازة فهى فرض كفاية يكفى فى أدائها بعض المسلمين . أما فرض العين فتعلق بجميع الأفراد فرداً فرداً ، وعلى طريق المصير والشمول ، مثل الصلوات الخمس .

(٢) انظر ماكتبه عنه مصطفى كامل باشا فى كتابه ، ج ١ ، ص ٢٤١ و ٢٤٢ ص ٤ .

السلطانية في المناصب الحساسة ، في وقت كانت الدولة منصرفة بكافة طاقاتها إلى خوض حرب مصيرية . ولا يمكن القول بأن السلطان كان يخشى الخيانة من أهل الخبرة وأطمأن إلى إخلاص أهل الثقة .

وقد دلت الأحداث قديماً وحديثاً في كافة الدول أن سياسة تقديم أهل الثقة وإقصاء أهل الخبرة إنما هي سياسة حمقاء ، أسفرت عن أoxم العواقب ووقوع الكوارث والتمزق . ومن أخطاء عبدالحميد ثالثاً أنه أمر بمحاكمة بعض كبار الضباط ممن نسب إليهم التقصير في أداء واجباتهم ؛ مما سهل على الجيوش الروسية عبور نهر الدانوب واجتياز جبال البلقان . وصدرت عليهم أحكام بالسجن والنفي إلى جهات مختلفة . وكان من الحكمة الاكتفاء بعزلهم مؤقتاً وإرجاء محاكمتهم حتى تضع الحرب أوزارها .

نجاح الدبلوماسية الروسية في أثناء الحرب :

من المبادئ المقررة أن الحرب قتال ودبلوماسية معاً ، وهما سلاحان فعالان متوازيان لاغناء عنهما ، بل إنهما مرتبطان ببعضهما ببعض بعروة وثقى ، يكمل أحدهما الآخر . فإذا استخدمت الدولة المتحاربة هذين السلاحين بمهارة ، استطاعت تحقيق أهدافها العسكرية والسياسية في يسر وسرعة ، ووضعت المجتمع الدول أمام الأمر الواقع *Le fait accompli* . وقد استطاعت روسيا أن تبأشر عملياتها الحربية بنجاح ملحوظ . واستخدمت الدبلوماسية بتفوق قبيل الحرب وفي أثناءها .. فقد استطاعت أن تجعل السلطان عبدالحميد يقف بمفرده في الحرب وأن تعزل حلفاء التقليديين عنه ، وهم الذين آزروه في حرب القرم على سبيل المثال . واستطاعت روسيا - كما رأينا - أن تضم إلى جانبها رومانيا والجبل الأسود وبلغاريا والصرب ، وأن تضمن حيدة دولة كبرى مثل النمسا والمجر في مقابل وعدها لها بتسهيل احتلالها الولاياتين العثمانيتين البوسنة والهرسك في غربي البلقان ، وأن ترضى دولتين كبيرتين مثل بريطانيا وفرنسا ، حين أكدت لهما أن مصالحهما لن تتعرض للأخطار .

كان أخشى ماتخشاه الحكومة البريطانية أن تمتد العمليات الحربية الروسية من البلقان إلى مصر بما فيها قناة السويس . وكانت قد راجت شائعات تقول إن روسيا تعتزم إدخال مصر ، باعتبارها ولاية عثمانية ، في نطاق الحرب ، وأنها تتوى فرض الحصار على قناة السويس والسواحل المصرية ، وأنها تبغى الاستيلاء على أرمينية العثمانية .. فأرسل لورد دربي وزير الخارجية البريطانية مذكرة إلى شوفالوف *Peter Shuvalov* ، السفير الروسى في لندن ، ولم يكن من أنصار حركة الجامعة السلافية ^(١) *Pan Slavism* . يستوضحه فيها حقيقة موقف روسيا ، وكان مما جاء في المذكرة البريطانية أن بريطانيا سوف تضطر إلى الدفاع عن

(1) Taylor A.J.P.; op. cit., p. 229-231 & 243.

مصلحتها ، إذا تعرضت حرية الملاحة في قناة السويس للخطر أو إذا قامت روسيا بهجوم على مصر ، وأن روسيا إذا أقدمت على هذا الإجراء .. فإن بريطانيا تعتبره عملاً عدوانياً ضدها . وقد ردت الحكومة الروسية على هذه المذكرة رداً مطمئناً جاء فيه : «فيما بالنسبة لقناة السويس ومصر ، فنحن أن نمسها ، فليست لدينا المصلحة ولا الرغبة ولا الوسائل للقيام بمثل هذا العمل... ونحن على استعداد للاتفاق مع حكومة لندن على كل المسائل ، وليست لنا مصلحة في مناوئة بريطانيا في ممتلكاتها في الهند أو في مواصلاتها .. فالحرب الحالية لا تتطلب ذلك»^(١) .

وأرسل ديكايزه Decazes وزير خارجية فرنسا إلى لافلو La Flo السفير الفرنسي في سان بطرسبرج يطلب منه الاستفسار من الحكومة الروسية عن موقفها من قناة السويس ، وعما إذا كانت منطقة القناة تعتبر من الأهداف العسكرية في الحرب التي تخوضها ضد الدولة العثمانية ، كما طلب من السفير أن يوافيه بنوايا الحكومة الروسية إزاء إسطنبول ، وعما إذا كانت تعزم الاستيلاء عليها . فجاء رد هذه الحكومة عن طريق السفير الفرنسي في العاصمة الروسية . وكان مما جاء في هذا الرد «إن الوزارة الإمبراطورية لا ترغب في فرض الحصار أو تعطيل أو تهديد الملاحة في قناة السويس ، ولن تدخل مصر في نطاق العمليات الحربية . أما عن إسطنبول .. فإن الوزارة الإمبراطورية دون أن تحكم مسبقاً على سير أو نتيجة الحرب تكرر أن الاستيلاء على هذه العاصمة أمر خارج عن نظر الإمبراطور (القيصر) .

“Le Cabinet Impérial ne veut ni bloquer, ni interrompre, ni menacer la navigation du Canal de Suez et il ne fera entrer l’Egypte dans le rayon des opérations militaires.

“Pour Constantinople, sans pouvoir préjuger la marche ni l’issue de la guerre, le Cabinet Impérial répète qu’une acquisition de cette capitale est exclue de vues de l’Empereur”^(٢)

أجماد عسكرية حلفتها القوات العثمانية :

ولكن لم تكن الحرب كلها هزائم للقوات العثمانية وانتصارات للجيش الروسي ، فقد تبادل الطرفان فيها الأجماد العسكرية والنكسات الحربية . وأثبتت الحرب أن الجنود العثمانيين كانوا ليوناً كاسرة ، وسطرت الحرب بطولة مثالية لعدد من الغادة العثمانيين ، نذكر منهم :

(1) Seton-watson R.W., op. cit., p. 172.

(2) Documents Diplomatiques Français, Première Série, tome 2.

Decazes au Général La Flo en date du 21 mai, 1877.

General La Flo au Decazes en date du 9 Juin, 1877.

عثمان باشا ، ومختار باشا ، وإسماعيل حقي باشا وسليمان باشا وغيرهم . وقد وقع على عاتق عثمان باشا عبء الدفاع عن مدينة بلقنا Plevna ، وهي ذات موقع حربي هام للغاية لأنها على ملتقى الطرق الرئيسية الموصلة بين نهر الدانوب وبلغاريا الغربية وممرات جبال البلقان . وأقام عثمان باشا تحصينات منيعة ، حاول الخلفاء مراراً اقتحامها .. فكانوا ينقلبون في كل مرة على أعقابهم خاسرين . وفي إحدى المرات هاجموا المدينة بقوات جرارة من أسلحة المدفعية والفرسان والمشاة ، وكانت قواتهم تبلغ ثلاثة أضعاف القوة العثمانية ، ولكنهم ارتدوا على أعقابهم بعد أن خضبوا أرض المعركة بدماء قتلاهم وملأوا الوديان بجثثهم . ولما بلغت عبدالحميد أنباء هذه البطولة أرسل إلى عثمان باشا برقية ، أشاد فيها ببسالته وحسن قيادته وببطولة وشجاعة رجاله . وحضر قيصر روسيا وولي عهده وأمير رومانيا لبث روح الثبات في الجنود وتشجيعهم على الاستبسال ، ولما أعيت الخصوم الحيل في اقتحام حصون المدينة ومعاقلة فرصوا عليها حصاراً محكماً عززته الفرق العسكرية ، التي كان يتوالى إرسالها إلى المدينة ونفذت الذخائر والأقوات من القوات العثمانية ، واضطرت إلى التسليم بعد حصار استطال زهاء ستة أشهر من ٢٠ يوليو - تموز - حتى ١٠ من ديسمبر - كانون أول عام ١٨٧٧ ، وقد أشاد ببطولة عثمان باشا قيصر روسيا الذي قابله في مدينة بلقنا وأظهر له تقديره وإعجابه كما أشاد الخصوم قبل الأصدقاء والمؤرخون الأوروبيون قبل المؤرخين الشرقيين ببطولة عثمان باشا ورجاله . وقد فقد الجيش الروسي في محاصرة بلقنا ٢٨,٠٨٠ رجلاً ، وفقدت القوات العثمانية ١٥,٣٠٠ رجلاً .

عبدالحميد يطلب وساطة الدول لدى قيصر روسيا لوقف إطلاق النار :

بعد سقوط مدينة بلقنا بيومين طلب السلطان عبدالحميد من الدول الموقعة على معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ التوسط لدى القيصر لوقف إطلاق النار تمهيداً لعقد صلح حقناً للدماء ^(١) . ولكن الدول تباطأت ولم تبعث بجواب شاف . ولطها ارتاحت لسير الحرب لمصلحة روسيا . ولم تحسب حساباً لعواقب سقوط مدينة بلقنا .. تأكدت الصرب أن الانتصار سيكون في جانب الروسية ، بعد أن تدهور موقف القوات العثمانية في القوقاز باستيلاء الروس على قارص في اليوم الثامن عشر من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٧٧ ^(٢) ، فلما سقطت بلقنا في الشهر التالي أعلنت الصرب الحرب على الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليها ، وذلك في اليوم ذاته الذي طلب فيه السلطان وساطة الدول . وأرسل أمير الصرب جيشه للانضمام إلى الجيوش الروسية وكان قد تقابل مع قيصر روسيا ، واتفق معه على المكاسب التي سيظفر بها بعد الحرب نتيجة خيانتها للدولة العثمانية . وكان كل ما فعله السلطان عبدالحميد أنه أصدر فرماناً

(1) Miller W.; op. cit., p. 376.

(٢) استولت الجيوش الروسية من قبل على أردمان وياطوم .

فى اليوم العشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - بعزل أمير الصرب ، واسمه الأمير ميلان Milan ، كما أرسل منشوراً موجهأ إلى أهل الصرب ، أظهر لهم غدر أميرهم وخيائنه للعهد بعد أن عفت عنه الدولة أكثر من مرة ، وقال السلطان فى منشوره إن أميرهم يسوقهم إلى الدمار والخراب ، وأنه عزله من منصبه .

وكان من عواقب سقوط بلغيا أيضاً أن وجهت الروسيا جميع جيوشها إلى مارراء جبال البلقان للإغرة على بلغاريا والروملى الشرقية . واحتلت بمساعدة الجيشين الصربى والرومانى الممرات الجبلية الهامة مثل ممر شيپكا Shipka ، واستطاع ثوار الجبل الأسود الاستيلاء على أنتيفارى Antivari على البحر الأدرياتى ، وتساقطت كأوراق الخريف المدن الهامة تباعاً مثل صوفيا وأدرنة واندفعت الجيوش الروسية فى طريقها إلى إستانبول .. دون أن تجد مقاومة تذكر حتى بلغت ضواحي العاصمة .

مشكلة اللاجئين المسلمين :

ازدادت المتاعب فى هذا الوقت الحرج أمام السلطان عبدالحميد ؛ إذ لم تكد تنتشر أنباء اقتراب الروس من إستانبول حتى قام رعايا الدولة المسيحيون بالانتقام من الدولة فى أشخاص رعاياها المسلمين من قتل ونهب فى الأقاليم التى اكتسحتها الجيوش الروسية . ولذلك هاجر كثير من المسلمين إلى إستانبول هرباً مما كانوا ينتظرونه ووقع فيه فريق منهم ، وتركوا ديارهم وأمتعتهم وقصدوا إستانبول أفواجاً ، وغصت بهم شوارع العاصمة وبلغ عددهم زهاء مائة وخمسين ألف مهاجر .

وأعيت الحيل الحكومة فى تقديم الغوث لهم من ملابس ومأكل ووقود لحمايتهم من زمهرير الشتاء فضلاً عن تدبير أماكن لإيوائهم ، وتكونت عدة لجان لمساعدتهم وجمعت أموالاً وفيرة من الأهالى .. وانتشرت بينهم الأمراض بعامة ووباء التيفوس بخاصة . وانتهز خصوم السلطان عبدالحميد هذه الفرصة ، واستغلوا سوء أوضاعهم واندسوا بينهم واستخدموهم كمخلب قط للإطاحة بحكم السلطان عبدالحميد ، كما مر بنا فى حادث قصر چراغان وحادث إحراق مبانى الباب العالى . ولولا أن السلطان بادر إلى طلب وقف إطلاق النار وأبرم هدنة مع الروسيا ووزعهم فى أقاليمهم الأناضول لعرضوا للنفاء . وكانوا يرفضون العودة إلى بلادهم التى احتلها الروس وحلفاؤهم وساد فيها المسيحيون رفضاً قاطعاً .

ظهور مشكلتين لم تكونا فى حسابان عبدالحميد :

(١) رغبة اليونان فى دخول الحرب ضد الدولة :

فى هذا الوقت العصيب طفت على السطح مشكلتان ، لم تكونا فى الحسابان ، جعلتا الموقف أمام السلطان عبدالحميد أقدح خطورة وأشد ظلاماً . وتمثلت المشكلة الأولى فى تحريك

سياسي صاحبه تحرك عسكري ، قامت بهما المملكة اليونانية مستغلة متاعب السلطان عبدالحميد من أجل تحقيق توسعات إقليمية وامتيازات على حساب الدولة العثمانية عقب اشتعال الحرب العثمانية الروسية في عام ١٨٧٧ . ومن المعروف أن اليونان لم تشترك في هذه الحرب ولكنها لم تكن ، في أثناء ثورة بلغاريا وحرب الصرب والجبل الأسود الأولى ، دولة متفرجة ولكنها اهتمت اهتماماً زائداً بتتبع أحداثها . ورأت الحكومة اليونانية أنه من الحكمة أن تستعد حربياً إذا تطلبت المصلحة القومية أن تتدخل عسكرياً ضد الدولة العثمانية .

وتماشياً مع هذا الاتجاه ، أقدمت الحكومة اليونانية على تعزيز جيشها باستيراد أسلحة وذخائر وزيادة عدد أفرادها . وكان هناك فريق من اليونانيين يريدون اغتنام فرصة الحرب العثمانية الروسية ؛ خشية أن تتم تسوية المسألة الشرقية بطريقة تنطوي على إغفال أو تغافل ما أسموه «العامل الهيليني» ، The Hellenic Factor ، وأثاروا اضطرابات في الأقاليم اليونانية الخارجة عن حدود المملكة اليونانية ، والتي كانت لا تزال تابعة للدولة العثمانية . وأجمعت الآراء في أثينا على ضرورة إزالة أو وقف الخلافات بين الأحزاب ؛ حتى تستطيع البلاد التفرغ لحركة الجامعة الهيلينية Panhellénism ، ويقصد بها جمع شتات الأقاليم اليونانية المبعثرة والخارجة عن حدود المملكة اليونانية وضمتها إلى نطاق هذه المملكة ، التي كان أنصار هذه الحركة ينظرون إليها على أنها للمملكة الأم .

وذهبت الدوائر السياسية في أثينا إلى أن هذه الحركة الهيلينية أصبحت في مفترق الطرق ، وعلى البلاد أن تواجهها بقيادة موحدة وعقلية موحدة وتوجيه موحد . وتشكلت في أثينا في شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٧٧ وزارة ائتلافية A coalition cabinet ، سميت The Oecumenical Government ضمت مجموعة من كبار الساسة اليونانيين القدامى ، ويقول عنها ميلر Miller إن مملكة اليونان لم تشهد من قبل ولا من بعد مثل هؤلاء الصفوة من الساسة المحنكين ، يجتمعون في وزارة واحدة ^(١) . وأعلن وزير الخارجية في الوزارة الجديدة - أو «الوزارة العظمى» ، كما سميت - استعداداته لأن يقم في حدود استطاعته حركات العصيان بين رعايا الدولة العثمانية اليونانيين ؛ بشرط أن تعترف الحكومة البريطانية ، عندما يحين الوقت لتسوية المسألة الشرقية ، بأن هناك مسألة هيلينية أمام أوروبا . وكان دربي وزير خارجية بريطانيا ميالا إلى إدراج إصلاحات إدارية أو امتيازات لرعايا الدولة العثمانية اليونانيين على غرار الإصلاحات والامتيازات ، التي تقرّر للجنسيات المسيحية الأخرى في البلقان ، ولكنه لم يكن راغباً في إعطاء وعود بتأييد منح المملكة اليونانية توسعات إقليمية ، على حساب الدولة العثمانية .

الروسيا تعرض على اليونان الاشتراك في الحرب :

وعلى الرغم من أن السلطان عبدالحميد استخدم قوات من الباشى بوزوق الألبانية في إخماد ثورات الرعايا اليونانيين في تراقيا ، وعلى الرغم من ضغط جمعية الإخوان اليونانيين لتصعيد حركة المقاومة في وجه السلطان عبدالحميد ، أخذ معظم أعضاء الوزارة الإنتلافية بنصيحة الحكومة البريطانية ، وهى الاعتذار عن عدم قبول عرض فيصر الروسيا في أثناء حصار مدينة بلقنا بأن تدخل اليونان الحرب ضد الدولة العثمانية ، ويضمن لها القيصر المشاركة في أسلاب الحرب .

كما ترجع أسباب هذا الرفض إلى أن الشعب اليونانى رفض إبلاء وشمم أن يزج بقضية القومية الهيلينية مع قضية البلقان . ولكن لما تطورت العمليات الحربية بسقوط مدينة بلقنا وجاءت الأنباء بزحف الجيوش الروسية على مدينة أدرنة العاصمة السابقة للدولة العثمانية .. قامت المظاهرات الصاخبة في شتى أنحاء المملكة اليونانية ، تطالب بدخول الحرب ضد الدولة العثمانية .

وحاولت وزارة الائتلاف نهضة نائرة الجماهير ، فأعلنت تأييدها للانتفاضات التى قامت في تراقيا وإبيروس Epirus وجزيرة كريت ، وصرح وزير الخارجية اليونانية في اليوم الثانى من شهر فبراير - شباط - عام ١٨٧٨ أن الحكومة قررت أن تحتل مؤقتاً بجيوشها الأقاليم اليونانية التابعة للدولة العثمانية . ولكن جاءت الأنباء بوقف إطلاق النار وإبرام هدنة بين الدولة العثمانية والروسيا فأوقفت هذا الغزو ؛ إذ انتصح لأعضاء الوزارة أنه إذا استمرت عمليات الغزو .. فإن المملكة اليونانية ستقف بمفردها في الحرب أمام القوات العثمانية ، وكان وزير الخارجية اليونانية يرى أن تشترك بلاده في الحرب البلقانية العثمانية الروسية حتى يضمن لبلاده مقعداً في مؤتمر الصلح على غرار مافعل كافور Cavour (١٨١٠-١٨٦١) رئيس وزراء بيدمونت ، عندما اشترك في حرب القرم وجلس بجانب مندوبى الدول في مؤتمر باريس قسمنى له إيصال صوت إيطاليا إلى آذان الدول الكبرى مباشرة . ويبدى ميلر أسفه العميق ؛ لأن المملكة اليونانية لم تنهج نهج بيدمونت ، ولأنها أضاعت وقتاً ثميناً وطويلاً ، ولما أرادت التدخل حربياً جاء قرارها متأخراً (١) .

وكانت القوات اليونانية قد بلغت في زحفها دوموكوس Domokos ، فلما أمرت الحكومة بعودة قواتها إلى قواعدها ، أعلنت في الوقت ذاته أن المسألة الهيلينية ستناقش في المؤتمر ، ولكن لم يكن لهذا التصريح أثر كبير .. فقد استمرت الثورات ، وغير المتطوعون حدود المملكة اليونانية نحو إبيروس وتراقية . أما في إبيروس فقد أخمدت الثورة سريعاً ، بعكس ثورة تراقيا

فقد أخذت فيها اتجاهاً خطيراً ، إذ أعلن الثوار قيام حكومة مؤقتة ونادوا بالوحدة مع المملكة اليونانية .

ولما أذيعت معاهدة الصلح بين الدولة العثمانية والروسيا- معاهدة سان استفانو - وتقرر فيها إدماج أجزاء كبيرة من مقدونيا في ولاية بلغاريا ، قامت ثورة عازمة تنادى فيها اليونانيون إلى ضم جميع أجزاء مقدونيا إلى المملكة اليونانية ، وأخفقت السلطات العثمانية في السيطرة على الموقف . وتدخلت الحكومة البريطانية في شهر مايو - آيار - عام ١٨٧٨ ، وأبلغت الثوار أن المصالح الهيلينية لن تضار إذا استمعوا إلى نصيحتهما ، وعرضت عليهم مشروعاً للصلح يقضى بصدر عفو عام من الباب العالي عن الثوار ، وإعفاء لمدة سنة من الضرائب ، وإنشاء إدارة منفصلة في كل من تراقيا وإبيروس ، وقد وافق الباب العالي على هذه الاقتراحات وألقى الثوار سلاحهم .

(٢) ثورة كريت :

أما للسؤال الثانية .. فكانت تتمثل في ثورة قام بها السكان المسيحيون في جزيرة كريت في عام ١٨٧٧ ، وقد استغلوا الأخطار التي نزاحمت على السلطان عبدالحميد إبان الحرب العثمانية الروسية التي نشبت في تلك السنة . وقد طالب الثوار بإدخال تعديلات على اللائحة الأساسية^(١) Organic Statute الصادرة في عام ١٨٦٨ بمنحهم المزيد من الامتيازات . ولما رفض السلطان عبدالحميد الاستجابة إلى مطالبهم عقد زعماء الثوار اجتماعاً في أثينا ، وقرروا تحريك ثورة ضد الدولة العثمانية ، وهبط المتطوعون اليونانيون الجزيرة وشكل زعماء الثورة جمعية باسم الجمعية العامة للكريتيين ، طالبت بمنح الجزيرة حكماً ذاتياً كاملاً ، وأن تحكم الجزيرة هيئة تنفيذية يرأسها حاكم ينتخبه الأهالي ، وأن تكون الرابطة بين الدولة والجزيرة

(١) تقرر بمقتضى هذه اللائحة تقسيم الجزيرة إلى خمسة أقسام ، يطلق على كل منها «متصرفية» ويحكمها «متصرف» . وتنقسم هذه المتصرفيات بنورها إلى تسع عشرة وحدة إدارية ، وأن تقوم في الجزيرة سلطتان رئيسيتان تتمثلان في وال وهـر عسكري أي قائد عام ، ويصح أن يشغل المنصبين شخص واحد . ويكون للوالي مساعدان ، أحدهما : مسيحي يعاونه مجلس إدارة يتكون من أعضاء مسلمين ومسيحيين ، ينتخب بعضهم ، ويعين بعضهم الآخر بحكم مناصبهم ex officio ، وإذا كان المتصرف مسيحياً يعين له «معاون» مسلم وإذا كان المتصرف مسلماً يعين له معاون مسيحي ، وأن تكون اللغتان التركية واليونانية اللغتين الرسميتين في الجزيرة . وتقرر إنشاء جمعية عامة ، تكلف اللائحة عن طريقة تشكيلها وتجتمع مرة في السنة لمدة لاتزيد عن أربعين يوماً ، وتناقش المسائل ذات المنفعة العامة ، أما المسائل الدينية فنناقش في جلسات خاصة يشترك فيها رجال الدين المختصون ، كما تعرضت اللائحة الأساسية لسؤال الضرائب ، والرسوم المقررة على منتجات الجزيرة والرسوم الجمركية .
انظر :

مقصورة على جزيرة سنوية حددت بنصف مليون قرش ، وأن تضمن الدول الأوروبية الكبرى هذا الوضع السياسى الجديد للجزيرة .

ولما أبطأ عليهم عبدالحميد أعلنوا قطع العلاقات مع الدولة العثمانية وإعلان الحرب عليها وتصاعدت موجة الحركة الهيلينية - وهى تهدف إلى ضم جميع الأقاليم التى يسكنها يونانيون إلى المملكة اليونانية باعتبارها المملكة الأم - وكان يحلو لرجال الحركة الهيلينية أن يطلقوا على جزيرة كريت «الجزيرة اليونانية الكبرى» ، وكان بعضهم من أنصار ضمها إلى المملكة الأم ، بينما كان البعض الآخر من أنصار اتخاذها . وكانوا على استعداد دائماً لمساعدة الجزيرة حريباً بل ومحاربة الدولة فى تحقيق هدفهم ، وقد أعلنت الحكومة اليونانية أن المستقبل السياسى لجزيرة كريت يههما أكثر من أى دولة أخرى . ومع ذلك لم يمض وقت طويل على نشوب الثورة حتى أعلنت الهندسة لسببين : أولهما أن الدولة العثمانية كانت قد سحبت أجزاء من قواتها فى الجزيرة ووجهتها لمحاربة الجيوش الروسية ، وثانيهما أن الثوار كانت تعوزهم الذخائر والأسلحة والأطعمة .

ولكن لما أرسل السلطان تعزيزات عسكرية إلى الجزيرة ، نقض الهندنة واستأنف الحرب من جديد ضد الثوار ، وبدأت كفة العثمانيين ترجح كفة الثوار . وتدخلت الحكومة البريطانية نيابة عن مسيحيى الجزيرة لدى الباب العالى ، الذى وعد بأنه «سيعمل بالإتفاق مع الحكومة البريطانية على إدخال ترتيبات لنوع جديد من الحكومة فى الجزيرة طبقاً للمطالب الشرعية واحتياجات الجزيرة» ، وشكلت حكومة مؤقتة تتكون من سبعة أعضاء وافقت فى اليوم السادس والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨٧٧ على قبول الوساطة البريطانية ، وإبرام هدنة على أساس القاعدة المعمول بها فى بعض الأحوال ، والتى يطلق عليها فى القانون الدولى العام (١) *Uti possidetis* . وبذلك عاد السلام مؤقتاً إلى جزيرة كريت . ولكن سرعان ما تجدد نشوب الثورات تبعاً فى السنوات المتبقية من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، بتحريض وتدخل مملكة اليونان والدول الأوروبية الكبرى عسكرياً ، وكان من بين هذه الدول : روسيا ، والنمسا والمجر ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا ؛ لتصعيد الأزمات والأخطار فى وجه السلطان عبدالحميد .

(١) معنى هذا المصطلح الامتلاك بحق الاحتلال ، فإذا قامت حرب وعقدت هدنة ، فإن كلا من الفريقين المتحاربين يعتبر مالئاً للأرض التى تحتلها قواته . ويستمر هذا الوضع قائماً حتى يحسم على أى نحو من الأتقاء فى معاهدة الصلح النهائية .

وصول القوات الروسية إلى ضواحي إستانبول :

وشروط جائزة فرضتها روسيا لعقد هدنة :

اقتربت القوات الروسية من مشارف إستانبول في شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٧٨ ، وشاهد جنود الجيش الروسي بالعين المجردة مآذن مساجد أكبر عاصمة إسلامية في العالم وقتذاك ، والتي أصبحت مهددة باقتحام الروس لها ، وكانوا يتحرقون شوقاً لإعادة الصليب إلى مبنى كاتدرائية القديسة صوفيا ، والذي كان السلطان محمد أبو الفتوح قد حوله إلى مسجد جامع منذ أربعمئة وأربعة وعشرين عاماً خلت . وتركت الدولة العثمانية بمفردها تواجه مصيرها . ولما رأى السلطان عبدالحميد أن إطالة مدة الحرب ستجلب على الدولة كوارث محققة طلب من روسيا وقف إطلاق النار وإبرام هدنة ، واشترطت روسيا لعقد الهدنة أن تشمل عدة مبادئ أساسية ، منها : استقلال الصرب ورومانيا والجبل الأسود ، وتنازل الدولة لهذه الدول عن بعض الأراضي ، ومنح بلغاريا استقلالاً إدارياً ، وجعل الإدارة في البوسنة والهرسك مستقلة ، وتقرير غرامة حربية تدفعها الدولة إلى روسيا . وعقدت الهدنة في أدرنة في اليوم الثلاثين من شهر يناير - كانون ثان - على هذه الأسس ، ووضعت الحرب أوزارها بعد قتال استمر تسعة أشهر .

بريطانيا ترسل أسطولها إلى البوسفور :

انتشرت أنباء هدنة أدرنة في أوروبا ، وكان لها بوجه خاص أصداء بعيدة لدى الحكومة البريطانية ، التي لم تكن تعتقد أن هزيمة الدولة العثمانية تكون بهذا الحجم الرهيب الذي بلغ حد الكارثة المروعة .. فإن انتصار روسيا الساحق ومراقبة القوات الروسية في ضواحي إستانبول^(١) وفرض هدنة أدرنة ، كل أولئك حمل الحكومة البريطانية على الاعتقاد بأن هذه الحرب جعلت من الدولة العثمانية دولة تابعة للروسيا ، وخشيت حكومة لندن على مصالحها في الدولة : في المضائق وقناة السويس والشرق الأوسط ، وعلى نفوذها في منطقة الخليج العربي والهند .

ووقف الرأي العام في إنجلترا وراء حكومته في التخوف من نتائج الهزيمة الأليمة والمذكورة التي لقيتها الدولة العثمانية ، وسرى حماس بالغ لدخول بريطانيا الحرب إلى جانب الدولة العثمانية ، وذاعت أغنية ترددت في المسارح ، ذكر مطلعها المؤرخ إنزور Ensor^(٢) ،

(١) نص في هدنة أدرنة على أن تحتل مقدمة الجيش الروسي خط بيوك چكمجه وكوجوك چكمجه من ضواحي إستانبول ، وأن تنسحب القوات العثمانية إلى ماراء هذا الخط ، وقبلت الدولة هذا الشرط منعاً لاحتلال القوات الروسية إستانبول .

(2) We don't want to fight; But by Jingo if we do, We've got the men, we've got the ships, we've got the money too.

انظر :

واتخذت الوزارة البريطانية برئاسة بنيامين دزرائيلي اليهودي - وقد غدا اسمه لورد بيكونزفيلد Beaconsfield منذ أغسطس - آب - عام ١٨٧٦ عقب تعيينه عضواً في مجلس اللوردات - إجراءات مالية وعسكرية تهديداً للروسيا إذا احتل جنودها إستانبول .

وكان من هذه الإجراءات أن طلبت الوزارة من البرلمان اعتماد ستة ملايين جنيه ، ووافق البرلمان على فتح هذا الاعتماد دون تردد ، وصدرت الأوامر في اليوم الثالث والعشرين من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٧٨ ، وفي اليوم التاسع من شهر فبراير - شباط - إلى الأسطول البريطاني بالتحرك من مياه خليج بزيكا Besika إلى البوسفور بحجة حماية الرعايا البريطانيين ، ولكن كان الهدف الحقيقي هو مراقبة تحركات القوات الروسية عن كثب ومنعها بالقوة من احتلال إستانبول حفاظاً على المصالح البريطانية بمنع الروس من السيطرة على المضائق ، ومن التوسع نحو البحر المتوسط^(١)؛ فلم يكن من أهدافها حماية الدولة العثمانية أو الإبقاء على صداقتها لهذه الدولة ومن المعروف أن من مبادئ السياسة البريطانية أنه ليس لبريطانيا أصدقاء دائمون ، ولكن لها مصالح دائمة .

وقد طبقت هذا المبدأ في التاريخ الحديث والمعاصر على الدولة العثمانية وعلى شعوب الأمة العربية ، ومضت الوزارة البريطانية في إجراءاتها ، فأقصت في شهر فبراير - شباط - لورد كارنارفون Camarvon وزير المستعمرات ، كما أقصت في شهر أبريل - نيسان - لورد دربي Derby وزير الخارجية لتمسكهما بأهداف السلام وعينت مكانهما على التوالي سير هيكن بيتش Sir Hicks Beach M. ، ولورد سالزبوري ، وأصدرت الوزارة البريطانية في اليوم السابع والعشرين من شهر مارس - آذار - قرارين : أولهما باستدعاء الجيش الاحتياطي فوراً ، وثانيهما بإرسال قوات هندية ، وقد وصلت إلى مالطة في شهر مايو - أيار - وكان عددها سبعة آلاف مقاتل .

الروسيا تطلب إرسال أسطولها إلى المضائق ودخول جيشها في إستانبول :

ولما وصل الأسطول البريطاني إلى مياه البوسفور تصاعد الموقف الحربي .. فقد طلب القائد الروسي من الدولة العثمانية إدخال بعض فرق من المشاة الروس في إستانبول ، وأرسل الأمير غورتشاكوف في اليوم العاشر من شهر فبراير - شباط - إلى جميع السفراء الروس لدى الدول الأوروبية الكبرى ، منشوراً جاء فيه أنه لما كانت بريطانيا قد أدخلت وحدات من

= وترجمة هذا المطلع «لا نريد أن تحارب ، ولكن إذا حاربنا فنحارب انبثاقاً وانطلاقاً من وطنيتنا الدافقة ، فطينا الرجال ، وطينا السفن ، وطينا الأموال أيضاً» .

ويقول هذا المخرج إن كلمة Jingo قد دخلت منذ ذلك الوقت في عداد الكلمات الإنجليزية المنحوتة والدخيلة ، ومعناها : المغالي في وطنيته ، واشتقت منها كلمة Jingoism أي المغالة في الوطنية .

(1) Fisher H.A.L.; op. cit., pp. 1040-1042.

أسطولها في اليوسفور لحماية رعاياها .. فإنها تطلب من الباب العالي السماح لأسطولها بدخول اليوسفور ، كما أنها ترى ضرورة تحريك جزء من جيوشها المرابطة حول إستانبول إلى داخل العاصمة لحماية المسيحيين ، واضطربت الحكومة البريطانية من هذا المنشور ، وكتبت إلى سفيرها في سان بطرسبرج ، كي يحتج على ماورد في هذا المنشور ، وأوضحت أنه لا يوجد وجه للمقارنة بين إرسال الأسطول البريطانى إلى اليوسفور واحتلال إستانبول عسكرياً بواسطة القوات الروسية . وطلبت من سفيرها إبلاغ الحكومة الروسية بأنها لاتسمح على الإطلاق ، وعلى أى نحو من الأنحاء باحتلال إستانبول ، وأنه لو دخل الجيش الروسى هذه العاصمة .. فإن الحكومة الروسية تكون مسئولة عن الأخطار التى تنجم عن هذا الإجراء العسكرى ، وإزاء إصرار الحكومة البريطانية على موقفها تراجعت روسيا عن مشروعها ، ولكنها أبدت تحفظاً هاماً هو أن الجيش الروسى لن يدخل إستانبول إلا إذا أنزلت بريطانيا جنودها إلى البر ، ومادامت الحكومة البريطانية لاترغب فى ذلك .. فلاخوف على إستانبول من احتلال الروس لها ، وظل الجنود الروس مرابطين خارج العاصمة العثمانية ، لايتعدون الخط الذى حددته هدنة أدردنة (١) .

ضغط مهين مارسه روسيا على الدولة العثمانية :

بدأت المفاوضات فى أدردنة بين الحكومتين العثمانية والروسية لوضع معاهدة الصلح . وعينت الحكومة العثمانية كلاً من صفوت باشا وزير الخارجية الذى أعيد إلى منصبه ، وسعد الله بك الأتقى العثمانى فى برلين . وعينت الحكومة الروسية كلاً من إجناتيف ، ونليدوف (٢) . وقد سبقهما فى الذهاب إلى أدردنة الأمير غورتشاكوف Gortchakov ، وطلب من المتدربين العثمانيين نقل مقر المفاوضات من أدردنة إلى سان ستفانو ، وهى قرية ساحلية صغيرة على بحر مرمرية تبعد عشرة أميال عن إستانبول ولم يكن يسمع بها أحد . وقد اكتسبت شهرة عالمية منذ ذلك الوقت لارتباط اسمها بمعاهدة الصلح ، وتوجه العضوان العثمانيان إليها مع مستشاريهما ، كما ذهب إليها الأمير غورتشاكوف بصحبة قوة من ألف جندي بمثابة حرس ،

(١) عن الحرب العثمانية الروسية (١٨٧٧-١٨٧٨) ، انظر كلاً من :

Ensor R.C.K.; op. cit., pp. 42-54.

Miller W.; op. cit., pp. 358-398.

Fisher H.A.L.; op. cit., pp. 1040-1042.

Grant A.J. & Harold Temperley; op. cit., pp. 300-307.

Taylor A.J.P.; op. cit., pp. 228-254.

(٢) جاء فى ديباجة معاهدة الصلح عن إجناتيف أنه حائز على رتبة أمير اللواء وياور القيصر ومن أعضاء المجلس الخصوصى ، ويحمل رسالاً روسياً مرصعاً هو رسام «صان غلكساندر نويسكى» وأوسمة أجنبية عديدة . كما جاء عن نليدوف أنه من قرند الدائرة الإمبراطورية ، ومن أعضاء شورى الدولة ، ويحمل «سنام «صانت أن» من الطبقة الأولى مع السيوف المختصة به ، وعداً من الأوسمة الروسية والأجنبية .

ولم تلبث أن زاد عدد أفراد هذه القوة حتى بلغ عشرين ألف مقاتل ، دون أن يكون للدولة العثمانية سبيل لمنعهم ، واتضح أن هدف إرسال هذه القوة هو تهديد الوفد العثماني لحمله على - التوقيع على المعاهدة .

وبعد عدة اجتماعات ، أبلغ إجناتيف المندوبين العثمانيين ضرورة الموافقة على الشروط المعروضة قبل اليوم الثالث من شهر مارس - آذار - عام ١٨٧٨ ؛ لأن هذا اليوم يوافق عيد قيصر روسيا ، وإلا فإن هدنة أدنة تعتبر لاغية ويحتل الجيش الروسي إستانبول . ويقول أحد الباحثين المصريين^(١) إنه لم يتسن للمندوبين العثمانيين دراسة شروط معاهدة الصلح دراسة متأنية نظراً لضيق الوقت وتهديد الجانب الروسي . ولكن الحقيقة لم يكن في مقدور المندوبين العثمانيين الاعتراض على مواد معاهدة الصلح ؛ لأنهما كانا يمثلان دولة منهزمة وتجنباً لتعريض إستانبول للاحتلال الروسي .

وفي اليوم الثالث من شهر مارس - آذار - أقام الأمير غورنشاكوف عرضاً عسكرياً للقوات الروسية في قرية سان ستفانو ابتهاجاً بعيد ميلاد القيصر . ولما بلغت الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم ، ولم يأت إليه نبأ عن توقيع المعاهدة توجه إلى قاعة اجتماع الوفدين العثماني والروسي . وطلب من الوفد العثماني التوقيع على المعاهدة في اليوم ذاته ، وإلا فإن القوات الروسية الموجودة في سان ستفانو ، وكان عددها عشرين ألفاً ، ستشرع في احتلال إستانبول في مساء اليوم ذاته . وفي الساعة الخامسة مساء خرج إجناتيف ومعه المعاهدة ، وقد وقع عليها المندوبان العثمانيان ، وسلمها إلى الأمير غورنشاكوف الذي كان في ساحة العرض يحف به أركان حربه ، فصاح الجنود الروس مستبشرين ، وأقام لهم أحد القسيسين صلاة شكر في ميدان العرض ، نزل في أثناءها الضباط والجنود عن ظهور خيولهم وركعوا سجداً لله شكراً له سبحانه وتعالى .

معاهدة سان ستفانو

عرض وتحليل ونقد :

١ عرفت معاهدة الصلح باسم معاهدة سان ستفانو (الثالث من شهر مارس - آذار - عام ١٨٧٨) ، وهي من أكثر المعاهدات ضرراً بالدولة العثمانية ، وتعد في القانون الدولي العام من أنواع المعاهدات غير المتكافئة أمثلتها دولة منتصرة على دولة منهزمة . وعلى قدر حجم الهزيمة كان حجم الخسائر السياسية والعسكرية والمالية ، التي فرضت على الدولة في معاهدة سان ستفانو . لقد أعلنت روسيا الحرب على الدولة تحت شعار الانتصار للشعوب المسيحية المعذبة في البلقان والخاصة للحكم العثماني ، ثم فرضت على الدولة معاهدة تتشع بروح

الاستيلاء على أراضيها وإنشاء كيانات سياسية مسيحية ذات حدود جديدة ، بعد إضافات إقليمية إليها تزيد من رفعتها ومنحها الاستقلال التام أو الذاتي . وفي كلتا الحالتين تدور هذه الدول في فلك روسيا التي خولت لنفسها الحق في احتلالها احتلالاً مؤقتاً ؛ حتى تستطيع تنظيم شئونها وبناء جيوش وطنية تدود عن وضعها السياسي الجديد . كما استولت روسيا بمقتضى المعاهدة على أقاليم عثمانية هامة في أوروبا وآسيا ، ووضعت نظاماً جديداً لمرور السفن في البوسفور والدردنيل ، روى فيه تحقيق مصالحها الحربية والتجارية ، وفرضت على الدولة غرامة حربية كبيرة للغاية .

كانت غالبية الشعوب المسيحية البلقانية وروسيا هما الطرفين اللذين حققت لهما المعاهدة أعظم المكاسب .. فقد نصت على إنشاء ما اصطلح رجال السياسة وقتذاك على تسميته «بلغاريا الكبرى» Big Bulgaria ، وأفردت لها مساحات شاسعة في البلقان ، ذات أربعة أضلاع تحدد بنهر الدانوب شمالاً ، والبحر الأسود شرقاً ، وبحر إيجة جنوباً ، وألبانيا غرباً .

وقررت المعاهدة أن يكون «مأمورو» الحكومة وجنودها من المسيحيين ، وأن يحكمها أمير ينتخبه الأهالي ، وبشرط ألا يكون هذا الأمير أحد أعضاء الأسرات الحاكمة في أوروبا . ويصدر السلطان فرماناً بتعيينه بعد موافقة الدول الأوروبية الكبرى ، الموقعة على معاهدة باريس لعام ١٨٥٦ ، وأن يجتمع «مجلس المتعبرين» أى مجلس الأعيان لوضع دستور للبلاد قبل انتخاب الأمير ، وعلى الدولة العثمانية أن تسحب قواتها من بلغاريا ، وعلى الحكومة المحلية أن تهدم القلاع المقامة في أنحاء البلاد . وأن ترابط القوات الروسية في بلغاريا لمدة سنتين حتى يتم إنشاء جيش من البلغاريين ؛ بحيث لا يكون في بلغاريا عند انسحاب القوات الروسية سوى الجيش البلغارى ، الذى تقرر أن يتكون من ست فرق من المشاة وفرقتين من الفرسان ، ويكون تعددهم جميعاً خمسين ألفاً ، وأن تدفع بلغاريا جزية سنوية للسلطان تردع في أحد المصارف (البانوك) يختاره الباب العالي بعد الاتفاق مع روسيا والدول الأوروبية الكبرى .

ويلاحظ أن المعاهدة لم تحدد قيمة الجزية ، بل اكتفت بذكر «مبلغ معلوم» ، وأن يراعى في تحديده الظروف المالية التى تواجهها الإدارة البلغارية في مستهل عهدها . وأعطت المعاهدة الباب العالي الحق في أن تمر القوات العثمانية وذخائرها ومهماتا ، عبر طرق معينة في داخل بلغاريا إلى الولايات العثمانية الأخرى الواقعة فيما وراء بلغاريا ، وأن يكون مرور هذه القوات مقصوراً على الجنوب للنظاميين فقط دون قوات الباشى بوزوق والشراكسة والجنود «المعاونة» . وتقرر أيضاً هدم جميع القلاع المقامة على شاطئ نهر الدانوب ، ومنع وجود سفن حربية في مياه هذا النهر في مياه بلغاريا ورومانيا والصرب سوى السفن الصغيرة والقوارب ، التى تستخدم في أعمال الشرطة النهرية ، وجعل الملاحة في نهر الدانوب حرة ، وما يتطلبه تطبيق هذا المبدأ من الإبقاء على لجنة الدانوب الدولية المختصة بتنظيم عمليات النقل النهري

والحفاظ على وضعها القانوني وحقوقها ووظائفها وامتيازاتها . وبذلك أصبحت بلغاريا بما تضمنه من مساحات إقليمية واسعة مرتبطة بالدولة العثمانية برباط ضعيف واهن، تمثل في جزيرة سنوية وصدور فرمان سلطاني بتعيين أمير للدولة الجديدة بعد موافقة الدول الأوروبية على هذا الأمير ، وحق الدولة في أن تعبر قواتها الأراضي البلغارية .

وقررت المعاهدة استقلال إقليم الجبل الأسود ، وزيادة مساحته على حساب ألبانيا مع إعطاء الجبل الأسود ثغرين على البحر الأدرياتي . وحددت المعاهدة حدود هذا الإقليم ، ومع ذلك .. فقد احتاطت فقررت أن تترك التحديد النهائي للحدود إلى لجنة دولية ، تتكون من مندوبين عن الدولة العثمانية والروسيا والدول الأوروبية الكبرى والجبل الأسود ، وأن يكون لهذا الإقليم الحق في تعيين ممثلين له في إستانبول والبلاد العثمانية . وإذا حدث خلاف بين الدولة العثمانية وإقليم الجبل الأسود وتعذرت تسويته .. فإن روسيا والنمسا تفصلان فيه ، وتقرر أن يتم جلاء جنود الجبل الأسود عن الجهات غير الداخلة في حدود الإمارة .

ونصت المعاهدة على منح الاستقلال الدائم لرومانيا ، وأن يضم إليها ثلث إقليم دبروجه - الواقع جنوب مصب نهر الدانوب في البحر الأسود - وأن يؤخذ منها إقليم بيسارابيا - الواقع شمال نهر بروث - لضمه إلى روسيا .

وقررت المعاهدة منح الصرب استقلالها مع إضافة إقليم نيش إليها ، وحددت حدودها على أن تجتمع لجنة ، تتكون من مندوبين عن الدولة العثمانية والروسيا والصرب ؛ لأجل تعيين خط الحدود على الوجه القطعي في خلال ثلاثة شهور .

وقررت المعاهدة أيضاً وضع ولايتي البوسنة والهرسك - في غربي البلقان - تحت مراقبة روسيا والنمسا طبقاً لما طلبته الدول في مؤتمر الأستانة (ديسمبر - كانون أول - ١٨٧٦) ، على أن تحتفظ الدولة العثمانية بسيادتها على هاتين الولاياتين .

وتعرضت المعاهدة لمسألتى جزيرة كريت وأرمينية .. فقررت بالنسبة للمسألة الأولى أن تتعهد الدولة العثمانية بتنفيذ أحكام اللائحة الأساسية الصادرة عام ١٨٦٨ ، وطبقاً لرغبات سكان الجزيرة . أما المسألة الثانية وهي الخاصة بأرمينية ، فأبذت للروسيا تخوفها من أن يؤدي جلاء القوات الروسية عن أرمينية العثمانية وإعادتها إلى الحكم العثماني إلى وقوع خلاف . ولهذا قررت المعاهدة أن يتعهد الباب العالي بإجراء إصلاحات ، حسب الاحتياجات المحلية في المناطق ، التي يسكنها أرمن ، وتأمين المسيحيين من اعتداءات الأكراد والمشاركة . وسجلت المعاهدة تعهد الباب العالي بإصدار عفو عام عن المسجونين السياسيين والمعتقلين والمنفيين .

أما روسيا فقد قررت لها المعاهدة المكاسب التالية :

أولاً : تقرير حرية المرور في الدردنيل والبوسفور في وقت السلم وزمن الحرب للسفن التجارية،

التي نريد عبور هذه المضائق إلى روسيا وفي عودتها من البحر الأسود إلى البحر المتوسط ، بشرط أن تكون حرية المرور مضمونة على السفن التابعة لدول على الحياد زمن الحرب . وليس للباب العالي أن يفرض حصاراً على الشطوط الموجودة فيما بين البحر الأسود وبحر آزوف .

ثانياً : استيلاء روسيا على أقاليم هامة في آسيا ، هي : أردمان ، وقارص ، وباطوم ، وبازيد ، مع الأراضي الملحقة بهذه المدن إلى جبل صوغانلي ، وبذلك امتدت الأراضي الروسية إلى قرب شمالي العراق وشمالي الشام والأناضول .

ثالثاً : استيلاء روسيا على أقليم هام للغاية في أوروبا هو بيسارابيا ، ويشمل مصب نهر الدانوب . وكان هذا الإقليم ذو الموقع الممتاز قد أخذ من روسيا في معاهدة باريس عام ١٨٥٦ ، عقب هزيمتها في حرب القرم .

وباستيلاء روسيا عليه .. تكون الأراضي الروسية قد امتدت إلى مصاب نهر الدانوب في البحر الأسود .

رابعاً : كان إنشاء «بلغاريا الكبرى» عبارة عن إنشاء ولاية مترامية الأطراف في البلقان ، تدور في فلك روسيا ، وتشكل تهديداً مستمراً لإستانبول وقاعدة حرية ، يمارس منها الروس أعمالهم العدوانية ضد الدولة العثمانية .

خامساً : فرض غرامة حربية قاذحة على الدولة العثمانية حددت بمبلغ ١,٤١٠,٠٠٠,٠٠٠ رويل ، أي ما كان يوازي في ذلك الوقت ٢٣٥ مليون جنيه ، وهو مبلغ رهيب بالنسبة لقيمة النقد في ذلك الوقت .

وجاءت مفرقات هذه الغرامة الحربية على النحو التالي :

٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠ رويل في مقابل ثمن الأسلحة والذخائر والمهمات الحربية ، التي استهلكت في الحرب ومصاريف القوات الروسية .

٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ رويل في مقابل الأضرار التي حدثت في السواحل الشمالية للبحر الأسود .

١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ رويل في مقابل الأضرار التي نجمت عن هجوم العثمانيين على القوقاز .

١٠,٠٠٠,٠٠٠ رويل في مقابل الخسائر التي حاققت برعايا روسيا المقيمين ، في ولايات الدولة العثمانية والمنشآت الروسية .

وقد رت المعاهدة ثمن الأقاليم والأراضى التى انتزعت من الدولة العثمانية وأعطيت للروسيا بمبلغ ١,١١٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل ، تخصص من مجموع الفرامة الحربية . وتتفق الدولتان فيما بينهما على طريقة سداد الجزء الباقى من الفرامة ، وهو ثلاثمائة مليون روبل بما يكفل دفعها للروسيا .

سادساً : المحافظة على أوضاع وحقوق وامتيازات القسيسين والرهبان ومن إليهم من رعايا روسيا والقاطنين فى الدولة العثمانية ، وكذلك الزوار الروس الذين يقيمون أو ينجولون فى الأراضى العثمانية ، سواء الأناضول أو الروم إيلى (الجزء الجنوبى من البلقان) فهؤلاء جميعاً بمختلف طوائفهم ودياناتهم ونوعياتهم ، يتمتعون بالأوضاع والحقوق والامتيازات ذاتها ، التى يتمتع بها أقرانهم من رعايا الدول الأخرى . ويحمى السفير الروسى فى إستانبول والقناصل الروس فى شتى أقاليم الدولة حقوق أولئك الأشخاص وممتلكاتهم ومؤسساتهم الديرية ، مع مشتملاتها المتعلقة بهم .

وطبقاً لمعاهدة سان ستافنو .. ضاعت بلاد البلقان من الدولة العثمانية ، بحيث لم يبق لها شىء فيها سوى ترافيا ، ومدينة سالونيك ، وتساليا ، وإبيروس ، وجبال ألبانيا . وقصلاً عن ذلك فقد أثارت المعاهدة سخط بعض الدول المسيحية البلقانية ، ونذكر على سبيل المثال مملكة اليونان ورومانيا .. فالدولة الأولى رأت أنها لم تخرج من المعاهدة بغنيمة إقليمية .

وقد مر بنا فى هذا الفصل أن الأحزاب السياسية كانت ترى ضرورة الاشتراك فى الحرب ضد الدولة العثمانية تحقيقاً لأهداف «الحركة الهيلينية» ، وكان من مبادئها ضم الأقاليم اليونانية المبعثرة والخارجة عن حدود مملكة اليونان وضمها إليها ، وزاد من سخطها أن أضافت المعاهدة إلى «بلغاريا الكبرى» الأقاليم المجاورة لمملكة اليونان والتى يسكنها يونانيون ، وكانت مساحتها أكبر من مساحة هذه المملكة .

أما رومانيا فكانت تعتقد أنها أسدت خدمات جليلة للروسيا فى أثناء الحرب ، ثم اغتصبت المعاهدة منها إقليم بسارابيا وضمته إلى روسيا . أما تعويض رومانيا عن فقدتها بسارابيا بإعطائها ثلثى إقليم دوبروجة فكان تعويضاً تافهاً ، وكذلك نعم الأرمن المسيحيين على المعاهدة ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنهم قدموا خدمات جليلة فى أثناء الحرب للروسيا ولكن تنكرت لهم الأخيرة فى المعاهدة ؛ إذ ابتلعت بعض قطاعات من أراضيهم ولم تحرر الأرمن سواء فى أرمينية العثمانية أو فى أرمينية الروسية . وتوالت الاحتجاجات والاستغاثات على الدول الأوروبية الكبرى من اليونانيين والصرب والرومانيين على ماتضمنته المعاهدة من خرق لمبادئ العدالة وامتهان لحقوقهم ، ولم يشذ المسلمون فى آسيا فقد استغاثوا بالملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا بصفتها إمبراطورة الهند ، لها مئات الملايين من الرعايا المسلمين ، واحتجوا على

استحواذ الروسيا على باطوم وغيرها (١) .

كانت معاهدة سان ستفانو ضربة قوية ، أصابت السلطان عبدالحميد في الصميم ، ولم يكن قد أمضى على ارتقائه العرش إلا عاماً وخمسة أشهر ، ولكنه ورث مقدمات الحرب كما ورث العرش .. فكانت المعاهدة استهلالاً سيئاً لحكمه وإذلالاً للدولة وله وللكتلة الإسلامية في الولايات العربية والتي وقفت بجانبه تشد أزره ؛ إذ أرسل حكامها قوات عسكرية تتألف من الجنود العرب شاركت في الحرب التي انتهت بعقد هذه المعاهدة . وكان من بينها قوات من الجيش المصري أرسلها الخديو إسماعيل ، وكان عدد أفرادها اثني عشر ألف مقاتل بقيادة الأمير حسن باشا ثالث أنجاله ، أبحرت بهم السفن المصرية إلى إستانبول ، ومنها إلى ورائه على الساحل الغربي للبحر الأسود . وكان مجلس شورى النواب قد وافق على فرض ضريبة جديدة ، سميت «ضريبة الحرب» قدرها عشرة في المائة من مجموع الضرائب لسد نفقات الحملة المصرية (٢) .

إخفاق الدبلوماسية الروسية بعد الحرب :

إذا كانت الدبلوماسية الروسية قد أصابت نجاحاً كبيراً قبيل الحرب وفي أثناءها في تأليب الولايات العثمانية في البلقان على الدولة من ناحية ، وفي استمالة معظم الدول الأوروبية الكبرى لالتزام الحيطة من ناحية أخرى .. فإنها أخفقت في مرحلة ما بعد الحرب ؛ لأنها فرصت على الدولة العثمانية معاهدة ، انطوت على تمزيق وطلب ممتلكاتها في البلقان بصورة لم تشهد لها الدولة من قبل مثيلاً ؛ مما اعتبر إذلالاً مهيناً لها وعصفاً بمبدأ التوازن الدولي .

اعتراض الدول على معاهدة سان ستفانو :

لذلك لم تكد تذاع تفاصيل معاهدة سان ستفانو ، حتى واجهت روسيا تكتلاً دولياً ؛ إذ هاجمتها الدول الأوروبية الكبرى هجوماً عنيفاً اعتراضاً عليها . ولم يكن مبعث هذا الاعتراض هو العطف على الدولة العثمانية في محنتها ، في مستهل حكم السلطان عبدالحميد ، ولكن لانفراد الروسيا بالمكاسب الهائلة وبالنفوذ العريض في البلقان والقوقاز ، دون أن تنال الدولة الأوروبية الكبرى نصيباً من الأسلاب .. وكانت الإمبراطورية النمساوية المجرية من أشد الدول اعتراضاً على معاهدة سان ستفانو لأنه لم يرد فيها نص على احتلالها للولايتين العثمانيتين البوسنة والهرسك في غربي البلقان ، ورأت النمسا في تصرف القيصر الروسيا أمراً مشيئاً لأنه بعد أن تحقق له النصر العظيم على القوات العثمانية نقض وعده لإمبراطور النمسا في هذا الصدد .

(1) Miller W.; p. cit., p. 385.

(٢) عبدالرحمن الراغبى بك ، عصر إسماعيل ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٩٦-١٩٧ .

وكانت النمسا شديدة الرغبة في احتلال هاتين الولايتين لتعويض خسائرها في إيطاليا بعد هزيمتها من روسيا في معركة سادوا (١٨٦٦) .. أما بريطانيا فطلى للزغم من أن معاهدة سان ستفانو لم تعرض لمصر ولا لقناة السويس ، إلا أنه أفرعها أن الروسية غدت صاحبة النفوذ الأول في البلقان ، وأن بلغاريا الكبرى التي أنشأتها المعاهدة كانت في لحمتها وسداها ولاية روسية بحرية كبرى ، تمتد من البحر الأسود إلى بحر إيجه وتشغل أقاليم واسعة ، وتشكل تهديداً مستمراً لإسطنبول وقاعدة عسكرية لهجوم ، تقوم به الروسية على هذه العاصمة وعلى غيرها من أقاليم في الحوض الشرقي للبحر المتوسط في قابل الأيام ، فضلاً عن حرية مرور السفن الروسية في المضائق وصولاً إلى المياه الدافئة في البحر المتوسط ، وإغلاق المضائق في زمن الحرب في وجه السفن التابعة لدول متحاربة مع الروسية .

واعتقدت أن المعاهدة جعلت من البحر الأسود بحيرة روسية ، كما رأت أن استيلاء روسيا على أردهان وقارص وباطوم والمناطق الملحقة بها في القوقاز يجعلها على مقربة من العراق وشمالي بلاد الشام ، وهما إقليمان عثمانيان لها أهمية عسكرية خطيرة لوقوعهما على أحد الطرق المؤدية إلى الخليج العربي والهند . وهو طريق «احتياطي» قد تلجأ إليه بريطانيا ، إذا تعطلت الملاحة في قناة السويس لسبب من الأسباب .. ولذلك صحت عزيمتها على أن تنتزع من الدولة العثمانية طوعاً أو كرهاً جزيرة قبرص ، كخطوة أولى لاحتلال مصر بما فيها قناة السويس .

المطالبة بعقد مؤتمر دولي لإعادة النظر في معاهدة سان ستفانو :

طلب الكونت أندراسي مستشار النمسا عقد مؤتمر دولي ، يعيد النظر في معاهدة سان ستفانو ، ورفضت روسيا هذا الطلب بمقولة أنه ليس لأوروبا أن تتدخل في مسائل لا تمسها ، ثم عادت فطلبت أن يحدد بادية ذي بدء تحديداً دقيقاً نطاق المناقشات ، التي يسمح لأعضاء المؤتمر المقترح أن يخوضوا فيها . ولكن رأى بسمارك المستشار الألماني عدم تقيد حرية المؤتمر في المناقشات التي تثار ، وطلب أن يعقد المؤتمر في برلين بدلاً من فيينا أو من أى عاصمة أخرى ، على أساس أن برلين عاصمة دولة محايدة لم تمس معاهدة سان ستفانو المصالح الألمانية مساً مباشراً . وقبلت بريطانيا طلب النمسا وألمانيا ؛ لأن معاهدة سان ستفانو من صنع الروسية وحدها ولأنها تقسم للممتلكات العثمانية في البلقان دون استشارة بريطانيا ؛ ولأنها وضعت الدولة العثمانية تحت رحمة الروسية ، ولأنها أوجدت دولة بحرية جديدة هي بلغاريا الكبرى ، وأنه لا بد من إنقاص حجمها ؛ ولأن في المعاهدة تهديداً لسلامة المواصلات البريطانية إلى الهند .

أما فرنسا .. فقد اشترطت لاشتراكها في المؤتمر أن تكون عضويته مقصورة على الدول

الأوروبية الكبرى الموقعة على معاهدة باريس لعام ١٨٥٦، وألا يتعرض المؤتمر في مناقشاته لمسائل مصر والشام وتونس وحقوق فرنسا في الأماكن المقدسة في فلسطين ورفض أى معاهدة تفرض حماية روسية على الدولة العثمانية، أو تثبت مركز الأسطول الروسى فى البحر المتوسط . وارتاحت بريطانيا لهذه الشروط ووافق بسمارك على شروط فرنسا إرضاء لها ، وسأيرت الدول الأخرى بسمارك ووافقت على الاشتراك فى المؤتمر .

مؤتمر برلين الأوروبي ١٨٧٨ :

اجتمع المؤتمر فى اليوم الثالث عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٧٨ فى برلين وبرئاسة بسمارك ، وكان قبول الدول الكبرى الاجتماع فى برلين اعترافاً ضمناً بالمركز السياسى الممتاز ، الذى أصبحت ألمانيا تشغله فى الساحة الدولية ، ويتفوق بسمارك على كل رجال السياسة المعاصرين له .

وكان مؤتمر برلين أكبر تجمع فى صعيد واحد لأقطاب السياسة فى أوروبا ، منذ أن اجتمع مؤتمر باريس عام ١٨٥٦ لبحث المسألة الشرقية ، وقد سمح لوفود من المملكة اليونانية والصرب ورومانيا والجبل الأسود وفارس ، وعن الأرمن واليهود بالحضور إلى المؤتمر، دون أن يشتركوا فى مناقشاته ، ولكن يسمح لهم المؤتمر بحضور بعض جلساته .. إذا طلب منهم أيضاً عن بعض المسائل التى يبحثها ، وكان يمثل الدولة العثمانية - وهى التى سيجرى لها المؤتمر عدة جراحات خطيرة - إسكندر قره تودرى باشا ، وهو يونانى الأصل ، والمشير محمد على باشا ، وهو جندى ألمانى قديم اعتنق الإسلام^(١) . وسعد الله بك الآلجى العثمانى فى برلين . وكان عليهم أن يدافعوا عن حقوق الدولة الإسلامية وسط هذا الجو المسمىح الرهيب . ولم يكن لهم نفوذ ولا احترام .. وكان بسمارك يسعى معاملة محمد على باشا .. وكان لبسمارك الصوت الأعلى والرأى الأول فى المؤتمر ، ويضع حداً للمحاولات العقيمة ، ويهدد الأعضاء بترك المؤتمر إذا لم يصغ الساسة إلى أوامره .

معاهدة برلين ١٨٧٨ :

كانت معاهدة برلين لعام ١٨٧٨ - طبقاً لقواعد القانون الدولى العام - معاهدة جماعية بلغ عدد الدول الأطراف فيها سبع دول ، هى: بريطانيا ، وفرنسا ، والروسيا ، وألمانيا ، والنمسا والمجر ، والدولة العثمانية ، وإيطاليا ، بينما كانت معاهدة سان ستافانو معاهدة ثنائية بين الدولة العثمانية والروسيا ، واعتبرت ملغاة بعقد معاهدة برلين .

كان المفروض أن تعيد معاهدة برلين تماسك ولايات الدولة العثمانية ، وتستبعد المواد

(١) تذكر بعض المراجع أنه روسى الأصل . وكان مسيحي الديانة ، وأن اسمه الأول كان شارل دتروا ، انظر ص ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ فيما سبق .

الجائزة التي جاءت بها المعاهدة المغلقة . ولكن جاءت المعاهدة الجديدة فجعلت موقف الدولة العثمانية أكثر سوءاً من موقفها طبقاً لأحكام معاهدة سان ستفانو ؛ إذ أضافت - بالمواد التي اشتملت عليها وبالاتفاقيات السرية ، التي تمت بين الدول الكبرى والتي سبقت ولحقت عقد المعاهدة الجديدة - خسائر جديدة وقادحة نزلت بالدولة في أوروبا وآسيا وحوض البحر المتوسط وإفريقية .

أولاً : خسائر الدولة في أوروبا :

كان من أهم مآثره معاهدة برلين :

أولاً : أن تحتل الإمبراطورية النمساوية - المجر - الولاياتين العثمانيتين الهامتين : البوسنة والهرسك في غربي البلقان احتلالاً مؤقتاً ، رغبة من الدول الكبرى في استرضاء النمسا والمجر ، وفي إعطائها نصيباً موفوراً من ممتلكات الدولة العثمانية ^(١) . ومن مظاهر الضغط المشين على السلطان عبدالحميد الثاني أن المندوبين العثمانيين في مؤتمر برلين قد وقعوا اتفاقاً سرياً . في ذات اليوم الذي تم فيه التوقيع على معاهدة برلين - مع مندوبي النمسا والمجر ، تقرر فيه أن هذا الاحتلال للولاياتين العثمانيتين لا يعتبر مأساً بحق السيادة المقررة للسلطان على الولاياتين ، وأن احتلال النمسا والمجر للولاياتين إنما هو احتلال مؤقت ^(٢) . وقد دلت الأحداث على أن هذا الاحتلال المؤقت كان مقدمة لعملية ضم نهائية لممتلكات النمسا والمجر بصفة رسمية ، بعد ثلاثين سنة في عام ١٩٠٨ .

ثانياً : أن تقيم الإمبراطورية النمساوية - النمسا والمجر - حاميات عسكرية ، وتحتفظ بطرق عسكرية وتجارية في صنجق نوفى بازار ^(٣) Novibazar بين الصرب والجبل الأسود ، على أن تظل الإدارة العثمانية قائمة في هذا الصنجق .

ثالثاً : أقيمت معاهدة برلين النفوذ الروسى في شرقى البلقان بتأكيد مانقرر فى معاهدة سان ستفانو من ضم إقليم بيسارابيا إليها ، وبذلك أصبح هناك وجود روسى فى شرقى البلقان ووجود نمساوى فى غربى البلقان ^(٤) .

(١) كان هذا القرار تنفيذاً لاتفاقيات سرية بين روسيا وبريطانيا واتفاق بين النمسا والمجر وألمانيا .
Miller W.; op. cit., pp. 390-391.

(٢) يرد اسمها في بعض المراجع يكي بازار .

(٣) كان بسمارك المستشار الألماني هو صاحب الفكرة في أن تحتل النمسا والمجر صنجق توفى بازار ، لأنه رأى أن روسيا تقف من ألمانيا موقفاً غير ودي في جلسات مؤتمر برلين ، فإراد أن يكيد لها كيداً بإتاحة الفرصة للنمسا لتوطيد مركزها في البلقان باحتلال هذا الموقع العسكرى المهم ، الذى يتصل بالمنزلة الرئيسية في أنحاء البلقان .

(4) Miller W.; op. cit., 389.

رابعا : أكدت معاهدة برلين استقلال رومانيا طبقاً للحدود ، التي وضعتها معاهدة سان ستفانو .
خامسا : أكدت المعاهدة أيضاً استقلال كل من الصرب والجبل الأسود ، كما جاء في معاهدة سان ستفانو ، على الرغم من أن الصرب خرجت منهزمة من الحرب مع الدولة العثمانية وأضافت إليها المعاهدة الجديدة بعض الأراضي العثمانية . وبذلك وضعت الأساس الذي ستقوم عليه دولة يوغوسلافيا الحديثة .

سادسا : أنقست المعاهدة حجم «بلغاريا الكبرى» بتقسيمها إلى قسمين :

(أ) قسم يحتفظ باسم بلغاريا وحددت حدوده ، ويكاد يكون مستقلاً ، وله حكومة مسيحية وقوات عسكرية من أهل البلاد . ويحكمه أمير مسيحي ينتخبه الأهالي انتخاباً حراً ، ويصدر السلطان فرماناً بتعيينه بعد موافقة الدول الأطراف في المعاهدة عليه ، ويشترط في الأمير ألا يمت بصلة القرابة لأى أسرة حاكمة في أوروبا .. فإذا توفى الأمير عن غير ولد أجريت انتخابات عامة لانتخاب أمير جديد طبقاً للشروط والأصول المقررة . كما تقرر ألا تبقى القوات العثمانية في بلغاريا ، وأن تهدم الحصون المقامة في الإمارة على نفقة الحكومة المحلية في خلال سنة واحدة ، وأن تستولى الدولة العثمانية على الخزائن والأسلحة الموجودة بهذه الحصون ، ولايجوز لحكومة بلغاريا بناء حصون جديدة ، وعلى هذه الحكومة أن تدفع جزية سنوية للدولة العثمانية ، وتكون الحرية الدينية مكفولة للسكان . وتحفظ القوات الروسية العسكرية في بلغاريا بموافقتها إلى أن تنتهى الحكومة الجديدة من إنشاء قوات عسكرية لحفظ الأمن والنظام .

ونصت المعاهدة أيضاً على أن يجتمع ، بعد انتخاب الأمير . أعيان بلغاريا لوضع القوانين الأساسية ، وأن يراعى فيها تقرير الحرية الدينية والمساواة السياسية والمدنية لجميع سكان الإمارة . وأن تشكل إدارة مؤقتة تتولى شئون الحكم من مندوبين عن روسيا إلى أن يتم وضع القوانين الأساسية . ويقوم بمراقبة أعمال هذه الإدارة المؤقتة مندوبون عن الدولة العثمانية والدول الموقعة على المعاهدة . ولاتستمر هذه الإدارة الروسية في تولى شئون الحكم أكثر من تسعة أشهر تبدأ من تاريخ التوقيع على المعاهدة . وتقرر أيضاً أن تسرى على بلغاريا جميع المعاهدات التجارية والبحرية المعقودة بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية ، والتي لاتزال سارية المفعول .

(ب) أما القسم الثانى فيقع في جنوبى البلقان بين مقدونيا وأدرنة ، وتكون عاصمته فيليبوبوليس Philippopolis ، ورفض المؤتمر تسمية هذا القسم بلغاريا الجنوبية وأطلق عليه «روم إيلى شرقى» وتكون إدارته الداخلية مستقلة ، ولايجوز للدولة العثمانية أن تربط قواتها في الداخل ، بل يكون لها الحق في الدفاع عن حدوده البرية والبحرية مع تخويل

الدولة العثمانية الحق فى بناء منشآت عسكرية ترابط فيها قوات عثمانية .. بشرط ألا تكون من «الباشى بوزوق» أى القوات غير النظامى . وتقرر أيضاً أن يحكم هذه الولاية أمير مسيحي ينتخبه الأهالى انتخاباً حراً ، ويصدر السلطان فرماناً بتعيينه بعد موافقة ا لدول عليه ، وأن يكون تعيينه لمدة خمس سنوات ، وأن يكون تابعاً للدولة من الناحيتين السياسية والحربية .

ورأى بعض المراقبين السياسيين المعاصرين لمؤتمر برلين أن تقسيم بلغاريا الكبرى إلى قسمين كان انتصاراً لوجهة النظر البريطانية بإنقاص حجم بلغاريا الكبرى وهزيمة للروسيا؛ لأنه أدى إلى انكماش نفوذها فى البلقان . ولكن رأى ميلر المؤرخ الإنجليزى أن هذا الرأى كان خاطئاً ؛ لأن هذا الانقسام لم يعمر طويلاً ، إذ انضم القسمان بعضهما إلى بعض بعد سبع سنوات من انقضاء مؤتمر برلين ، وكانت بريطانيا من مؤيدى هذا الانضمام وعارضته للروسيا (١) .

ثانياً : خسائر الدولة فى آسيا :

أما فى آسيا .. فقد قررت معاهدة برلين أن تتنازل الدولة العثمانية للروسيا عن أراضى أردهان ، وقارص ، وباطوم فى شرقى البحر الأسود مع ميناء باطوم ، وعدم إقامة تحصينات عسكرية فيه على أن يكون ميناء حراً ، لا تفرض فيه رسوم جمركية على الصادرات والواردات . وهكذا امتد النفوذ الروسى فى آسيا بعد إخضاع بلاد القوقاز كلها ، وأصبحت حدود الروسية متاخمة لحدود أرمينية العثمانية . وأصبح فى استطاعة الروس القفز إلى آسيا الصغرى المهاد الأولى للدولة العثمانية وإلى شمالى بلاد ما بين النهرين - العراق - وشمالى الشام ، وقررت المعاهدة أيضاً أن تسترد الدولة العثمانية وادى الأكراد ومدينة بايزيد وأن تتنازل لفارس عن مدينة ختر (قطور) وأراضيه ؛ طبقاً لرأى اللجنة البريطانية الروسية ، التى عهد إليها بتعيين حدود الدولتين العثمانية والفارسية .

أما بالنسبة للغرامة للحربية المفروضة على الدولة العثمانية لصالح الروسية .. فقد قرر المؤتمر اعتبار الروسية آخر دائئى الدولة ؛ بمعنى أنه لا يحق للحكومة الروسية أن تتقدم بالمطالبة بالغرامة ، قبل الدائئين السابقين للدولة العثمانية .

(١) بالنسبة للأسرة النولية ، قررت معاهدة برلين حرية المرور فى المضائق على النحو ، الذى ورد فى معاهدة باريس عام ١٨٥٦ ومعاهدة لندن لسنة ١٨٧١ .

كما قررت المعاهدة الإبقاء على لجنة الدانوب النولية ، الخاصة بتنظيم حرية مرور السفن فى نهر الدانوب.. عن جلسات مؤتمر برلين ومناقشاته ، انظر تقارير ودينجتون وزير الخارجية الفرنسية والمؤرخة فى ١٤ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٦ يونيو - حزيران - وأول ، ٦ ، ٨ ، ١٤ يوليو - تموز - عام ١٨٧٨ فى :

Documents Diplomatiques Français. I èrie, tome 2.

ثالثاً : خسائر الدولة في حوض البحر المتوسط :

رأت بريطانيا مدى تدهور الدولة العثمانية ، وهو التدهور الذي كشفت عنه الحرب العثمانية الروسية (١٨٧٧-١٨٧٨) وأنه لا أمل يرتجى من إنهاضها ، ومن ثم صحت عزيمتها على نبذ سياستها التقليدية ، وهي المحافظة على استقلال الدولة العثمانية وتماسك ولاياتها ؛ فقد ثبت لديها أنها سياسة عقيمة جلبت ضياع الأرواح وتبديد الجهود والأموال والوقت . وكان صاحب هذا الاتجاه الجديد في السياسة البريطانية هو سالزبوري وزير الخارجية ، ورأى أنه لا مناص من أن تخرج بريطانيا من تلك الأزمة العثمانية بنصيب من أملاك الدولة أسوة بالدول الكبرى والشعوب البلقانية الخاضعة للحكم العثماني ، ولم يكن يتعذر عليه اختلاق التبرير لهذا الاتجاه الجديد في السياسة البريطانية تجاه الدولة العثمانية .. فإن استيلاء روسيا إبان حرب ١٨٧٧-١٨٧٨ على أرمغان ، وقارص ، وباطوم ، وتمسكها بهذه الأقاليم في مقابل قبولها تفتيت بلغاريا الكبرى ، كان نذيراً بفتح الباب أمام القوات الروسية لاكتساح سهولة العراق أو الانسياب في بطاح الشام أوهما معاً^(١) .

كان أمام سالزبوري ثلاثة مشروعات : احتلال مصر أو احتلال إحدى الجزيرتين قبرص أو كريت ، ورأى أن استيلاء بريطانيا على مصر يؤدي إلى قيام نزاع حاد مع فرنسا ، ولم تكن بريطانيا مستعدة في ذلك الوقت لمواجهة آثاره .. فانصرف مؤقتاً عن مصر وبقيت أمامه الجزيرتان ، واقترح برأى الخبراء البريطانيين بأفضلية جزيرة قبرص على جزيرة كريت . فهي أقرب إلى مصر وبالتالي فهي تشرف على قناة السويس والإسكندرية ، وهي بمثابة جبل طارق جديد ،^(٢) A New Gibraltar ومفتاح غربي آسيا ،^(٣) The Key of Western Asia . وكان على سالزبوري أن يختلق المبررات للضغط على السلطان عبدالحميد الثاني ؛ كي يوافق على أن تحتل بريطانيا جزيرة قبرص احتلالاً مؤقتاً ، ببذل الوعود له بأن بريطانيا في مؤتمر برلين المزمع عقده ستضع ثقلها السياسي ، دفاعاً عن مصالح الدولة العثمانية ، وأنها ستتكفل بالدفاع عن أي هجوم روسي على إسطنبول أو على الممتلكات العثمانية في آسيا^(٤) .

وقام أوستن هنري لايارد Austen Henry Layard ، السفير البريطاني في إسطنبول

(1) Lady Gwendolen Cecil; Life of Rober Marquis of Salisbury. 4 vols., (1921-1932), vol. 2. p. 213; Salisbury to Beaconsfield, 21 st., March, 1878.

(2) Safwat M.M.; op. cit., p. 147.

(3) Grant A.J. & Harold Temperley; op. cit., p. 303.

(٤) كان على رأس المؤيدين لاحتلال جزيرة قبرص الكولونيل هوم Colonel Home ، أوفدته الحكومة البريطانية سنة ١٨٧٦ إلى إسطنبول ليبحث أفضل الوسائل لتعزيز الدفاع عنها . ولما عاد من مهمته عين في وزارة الحرب ، ووضع مذكرة إضافية استعرض فيها الثغور والسواحل والجزر والمراكز القائمة ، في منطقة الشرق الأدنى ، والتي لها أهمية عسكرية بحيث تخدم المصالح البريطانية . وقد فضل عليها جزيرة قبرص لتكون قاعدة الحشود العسكرية البرية والبحرية . وقد نشرت هذه المذكرة فيما بعد في :

Journal of Modern History. June, 1931, pp. 236-241.

بالضغط على السلطان عبدالحميد الثاني ، في هذا الوقت العصيب بل وتهديده لإرغامه على قبول احتلال بريطانيا جزيرة قبرص ، وإلا عملت بريطانيا على انهيار إمبراطوريته The Disruption of His Empire ورضخ السلطان عبدالحميد لهذا التهديد . وتم في اليوم الرابع من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٧٨ للتوقيع على معاهدة ، أطلق عليها اتفاقية التحالف الدفاعي Defensive Alliance بين الدولة العثمانية وبريطانيا ، أجازت فيها الدولة الأتلي لبريطانيا أن تحتل وأن تدير جزيرة قبرص في مقابل تعهد بريطانيا بأن تشترك قواتها المسلحة مع القوات العثمانية في الدفاع عن أراضي السلطان في آسيا إذا احتفظت روسيا بكل من باطوم ، وأردهان ، وقارص ، أو إحداها ، وأرادت بعد ذلك أن تتوسع على حساب الأقالييم العثمانية في آسيا ، وهي الأقالييم التي ستحددها معاهدة السلام النهائية (معاهدة برلين) (١) .

وباحتلال جزيرة قبرص ، حققت بريطانيا توسعاً استعماريّاً على حساب الدولة العثمانية مستغلة قيام الأزمة العثمانية الروسية عام ١٨٧٨ واستكملت سيطرتها على حوض البحر

(١) أبرم في أول يوليو - تموز - عام ١٨٧٨ ملحق Une Annexe لهذه الاتفاقية ، جاء فيه أن احتلال بريطانيا لجزيرة قبرص وإدارتها لها مؤقتان ببقاء روسيا في قارص وفي غيرها من الأقالييم في أرمينية . فإذا ردت روسيا هذه الأقالييم إلى الدولة العثمانية انسحبت القوات البريطانية من جزيرة قبرص . كما نص الملحق على قيام بريطانيا بدفع جزية سنوية للباب العالي حددت قيمتها ، وعلى وجود محكمة شرعية لمسئلي الجزيرة ، وعلى أن يكون لنظارة الأوقاف في إستانبول «مأمور» في الجزيرة يشرف - بالاشتراك مع «مأمور» تعيينه بريطانيا - على إدارة الأملاك والعقارات والمساجد والمدارس والمكاتب والمقابر ، التي تتبع الإدارة الدينية في الجزيرة . كما تقر في ملحق الاتفاقية تخويل الباب العالي الحق في أن يبيع أو يؤجر دون مانع الأملاك أو الأراضي وغيرها من العقارات ، التي هي أملاك أميرية أو أملاك سلطانية ولايدخل إيرادها ضمن إيراد الجزيرة . ونص الملحق أيضاً على تخويل السلطات البريطانية في جزيرة قبرص الحق في أن تشترى جبراً بأسعار مناسبة أراض ، تحتاج إليها للمنفعة العامة أو لأغراض أخرى وأراض غير مزروعة .

وفي ١٤ من أغسطس - آب - عام ١٨٧٨ ، أضيفت إلى الملحق السابق مادة ، أطلق عليها «مادة إضافية عن التشريع Additional Article on Legislation خول فيها سلطان الدولة العثمانية للملكة بريطانيا سلطات كاملة ، طالما كان الاحتلال البريطاني لجزيرة قبرص قائماً لإصدار قوانين وعقد اتفاقيات باسم الملكة نيابة عن حكومة الجزيرة لتنظيم العلاقات التجارية والفنصلية دون إخضاعها لرقابة الباب العالي .

وفي ٣ من فبراير - شباط - عام ١٨٧٩ ، أضيف إلى الملحق «تصريح عن الأرض Declaration on Land ، تقر فيه تحديد مبلغ ثابت ذكرت قيمته تدفعه الحكومة البريطانية سنوياً للسلطان طوال فترة الاحتلال البريطاني ، ابتداء من بداية السنة المالية التالية ، على أن يدخل في هذا المبلغ الثابت إيراد الأملاك والعقارات الأميرية والسلطانية ، بما فيها حصيلة كل من الطابو ، والمحلول ، والانتقال .

انظر نص اتفاقية ٤ من يونيو - حزيران - عام ١٨٧٨ ، وإضافتين اللاحقتين في :

Hurewitz J.C.; op. cit., vol. I, pp. 187-189.

وانظر مدلول كل من الطابو ، والمحلول ، والانتقال في ثبوت المصطلحات في نهاية هذه الدراسة .

المتوسط من أقصى غربيه إلى أقصى شرقيه ، وأصبح لها فيه ثلاث قواعد عسكرية : بوغاز جبل طارق ، وجزيرة مالطة ، وجزيرة قبرص ؛ لتتخذ من هذه الجزيرة الأخيرة في قابل الأيام نقطة وثوب إلى مصر بما فيها قناة السويس ، وتكون المحصلة النهائية هو ضمان سلامة المواصلات البريطانية البحرية إلى الهند عبر البحر المتوسط وقناة السويس .

ولاعبرة بما يقوله بعض المؤرخين والباحثين إن بريطانيا حين احتلت جزيرة قبرص، أرادت أن تحافظ على التوازن الدولي في أوروبا أمام توسع روسيا في شرقي البلقان وأمام توسع النمسا والمجر في غربي البلقان .. فهذا التفسير هو أقرب إلى التحليل السريع للأحداث السياسية وقت وقوعها عام ١٨٧٨ ، أو ما يدخل تحت العلوم السياسية في ذلك العام ، ولكنه بعيد كل البعد عن إعطاء صورة صحيحة عن أهداف التوسع البريطاني الاستعماري في الثمانينيات من القرن التاسع عشر .

ولم تكن الأسباب التي ساقها لايارد السفير البريطاني للسلطان عبدالحميد أو التي ورد ذكرها في إتفاقية جزيرة قبرص أسباباً جدية .. إنما كانت مجرد اختلاق ذرائع أو مبررات، استهدفت منها بريطانيا التفرير بالسلطان عبدالحميد ؛ فقد أثبتت الأحداث التي توالى بعد عقد الاتفاقية عدة حقائق ، نذكر من بينها :

أولاً : أن بريطانيا لم تساند الدولة العثمانية في معظم جلسات مؤتمر برلين ، وإنما وقفت إلى جانب النمسا والمجر والشعوب المسيحية البلقانية وفارس على حساب الدولة العثمانية .

ثانياً : إن روسيا لم تقم بهجوم بعد مؤتمر برلين على إستانبول أو غيرها من أملاك الدولة العثمانية ، بل إن حرب ١٨٧٧-١٨٧٨ كانت أخر حرب بين الدولتين في القرن التاسع عشر ، كما سبق أن ذكرنا ، وانصرفت روسيا عقب هذا المؤتمر إلى الاستعمار في شمالي آسيا ووسطها وشرقيها ؛ حيث أخذت تصطدم بالشعوب الآسيوية الشرقية واليابان التي بدأت في الظهور على مسرح السياسة الآسيوية والعالمية ، كما أخذت تصطدم بالمصالح البريطانية والفرنسية في الصين .

ثالثاً : إن احتلال بريطانيا لجزيرة قبرص لم يكن احتلالاً مؤقتاً ، كما نص على ذلك في ملحق إتفاقية قبرص ، وإنما كان احتلالاً دائماً .

بقيت هذه الاتفاقية في طي الكتمان ، لم يعلم بها سوى المستشار بسمارك والكونت أندراسي مندوب النمسا ، ولم يعترضاً عليها لتعهد سالزبورج بمساعدتهما في تقرير احتلال النمسا والمجر للولايتين العثمانيتين البوسنة والهرسك . ولما اقترب مؤتمر برلين من نهايته في ١٣ من يوليو - تموز - عام ١٨٧٨ ، وفي أحد الممرات الجانبية تراءى لسالزبورج وزير خارجية بريطانيا أن يخبر زميله وادنجتون وزير خارجية فرنسا في ٧ يوليو - تموز -

باتفاقية قبرص .. فثارت ثائرة الوزير الفرنسى ، وأبرق بهذا النبا إلى باريس فهاج الرأى العام الفرنسى وهاجم الملكيون والجمهوريون والصحافة الفرنسية الاتفاقية هجوماً عنيفاً . وكان مما قيل فى هذا الصدد إن فرنسا قد لقيت فى براين إذلالاً على يد بريطانيا ، لا يقل عن إذلالها فى معركة سيدان على يد بروسيا ، وإن جزيرة قبرص تقف كالديديان تحرس قناة السويس .

وأوضح وزير الخارجية الفرنسية بجلاء أن الحكومة الفرنسية لن توافق إطلاقاً على تلك الاتفاقية ؛ لأنها هزيمة للنظام الجمهورى الذى لم تتوعد دعائمه بعد فى فرنسا . وأنه ليس أمام الوفد الفرنسى سوى الانسحاب من المؤتمر . ولكن سالزبورى ويسمارك كانا مستعدين لاسترضاء الوزير الفرنسى الثائر، وتقديم عرض مغر لفرنسا فى مقابل احتلال بريطانيا لقبرص . ومما هو جدير بالذكر أن سالزبورى تعمد ألا يخبر أعضاء الوفد الإيطالى بالاتفاقية ، وتركهم يعرفونها من الصحف الأمر الذى زاد من استيائهم وإذلالهم .

رابعاً : خسائر الدولة فى إفريقية

(١) تونس

كان لمعاهدة برلين آثار بالغة الخطورة على ولايتين عربيتين خاضعتين للدولة العثمانية فى إفريقية ، هما : تونس ومصر .. كان معظم اهتمام فرنسا موجهاً إلى الاستيلاء على تونس ، سواء بضمها نهائياً إلى الممتلكات الفرنسية أو بإعلان الحماية عليها . وجاءت اتفاقية قبرص .. فجعلت من تونس موضوع الساعة فى فرنسا بحجة المحافظة على التوازن الدولى فى حوض البحر المتوسط ، وكانت مهمة لورد سالزبورى وزير الخارجية البريطانية ورئيسه لورد بيكونزفيلد رئيس الوزارة ورئيس الوفد البريطانى فى مؤتمر برلين شاقة وعسيرة . وكانت هذه المهمة ذات شقين : يتمثل الشق الأول فى تهديد مخاوف فرنسا من مشروعات بريطانيا التوسعية فى مصر وقناة السويس ، وكان هذا الشق يمثل قمة النفاق السياسى البريطانى .

أما الشق الثانى .. فيتلخص فى تقديم عرض مغر لفرنسا باحتلال تونس تعويضاً لها عن احتلال بريطانيا جزيرة قبرص ، وبذلك أصبح استيلاء أوروبا المتحضرة المسيحية عنوة على ممتلكات الدولة العثمانية الإسلامية وسيلة عملية وفعالة لتسوية المنازعات التى تنشأ بين الدول . وكان الباعث لبريطانيا على تقديم هذا العرض هو رغبتها فى استرضاء فرنسا ؛ حتى لا تنضم إلى المعسكر الروسى ، وقد دار الشق الأول من المباحثات فى برلين ، بينما بدأ الشق الثانى من المحادثات فى برلين وامتدت المحادثات إلى لندن عقب عودة الوفد البريطانى إليها .

وكانت المحادثات ضافية ، وأعن لورد سالزبورى لوزير الخارجية الفرنسية فى أثناء تواجدهما فى برلين أن بريطانيا رفضت احتلال مصر ، كما رفضت أن تراطب قوانينها على

ضغاف قناة السويس ، ورفضت أيضاً أن تحتل الساحل الغربي للأناضول ، وأن هذا الرفض ينبثق عن رغبتها في عدم إثارة مخاوف فرنسا أو شكوكها من بريطانيا .

وفي جلسة تالية وافق رئيس الوزارة البريطانية موافقة كلية على ماذكره له وزير خارجية فرنسا من أن بلاده كدولة من دول البحر المتوسط لها مصالح في الأماكن المقدسة في فلسطين ، ولها نفوذ على الموارد الكاثوليك في لبنان مستمد من التنظيم الموضوع لهذا الإقليم سنة ١٨٦١ ووافقت عليه الدول ، ولها مصالح مادية وأدبية في مصر ، وهي لاتسمح بالتمسك بهذه المصالح . وطالب بأن يكون لكل من فرنسا وبريطانيا نفوذ متماو في وادي النيل .. نفوذ يقوم على احترام متبادل ومتواز لمصالحهما ، وأقر رئيس الوزارة البريطانية هذا المطلب كما وافق على وجهات النظر الفرنسية هذه .

ثم انتقل ساليبوري وزير خارجية بريطانيا إلى موضوع تونس .. فقال لوالدنتون وزير الخارجية الفرنسية «خذوا تونس إذا شئتم ، ولن تعارضكم إنجلترا هناك وستحترم قراراتكم، وفي حديث لاحق أضاف وزير خارجية بريطانيا قائلاً «إنكم لاتستطيعون ترك قرطاجنة^(١) في أيدي المتبريرين ، وقد أمن وزير الخارجية الفرنسية على هذه التصريحات الخطيرة التي وردت على لسان وزير خارجية بريطانيا . وقال إن مصير تونس أن تقع يوماً ما بحكم قوة الأمور تحت النفوذ المباشر لفرنسا ، ولكمل مجموع الممتلكات الفرنسية في إفريقية ، ولنا لن نسمح لأي دولة بأن تتواجد هناك . وسندفع بقوة السلاح كل محاولة من هذا القبيل . ولذلك فإنني أشكركم على التصريح الذي أدليتم به الآن ، وأعتبره عربون صداقة أو تعهداً على الوفاق الطيب الذي نريد تدعيمه بين بلدينا . وسأكون سعيداً بإبلاغه إلى حكومتى ... إن ما نتمسك به هو أن تكون الحماية التي نمارسها في الواقع في تونس حماية معترفاً بها رسمياً ، وأن يكون لنا مطلق الحرية في بسط نفوذنا وترقية مصالحنا على أفضل وجه ، دون أن تعوقنا ادعاءات منافسة .

"Prenez Tunis, si vous vovlez, m'a dit Lord Salisbury, l'Angleterre ne s'y opposera pas et respectera vos décisions. D'ailleurs, a-t-il ajouté dans un autre entretien, vous ne pouvez pas laisser Carthage aux mains des Barbares.

"Sans doute, ai-je répondu, La Tunisie est destinée par la force des choses à tomber un jour sous la domination directe de la France, et à compléter l'ensemble de nos possessions en Afrique, aussi bien nous ne permettrions à aucune Puissance de s'y établir, et nous repousserions par les armes toute tentative de ce genre. Je vous remercie donc de la déclaration que vous venez

faire; je la considère comme un gage précieux de la bonne entente que nous désirons maintenir entre nos deux pays, et je serai heureux de la transmettre à mon Gouvernement.... Ce à quoi nous tenons, c'est que le protectorat de fait que nous exerçons dans ce pays soit formellement reconnu, et que nous ayons toute liberté d'y étendre notre influence et d'y développer nos intérêts de la façon qui conviendra le mieux, sans nous heurter à des prétensions rivales"^(١)

وكان لورد بيكونزفيلد رئيس الوزارة البريطانية ، ومعه لورد سالزبوري وزير الخارجية ، قد عادا من برلين وبلغاريا ل لندن في اليوم السادس عشر من شهر يوليو - تموز - عام ١٨٧٨ ، واستقبلا استقبالا حافلا . وألقى رئيس الوزارة خطاباً نوه فيه بالعلاقات الطيبة الوطيدة التي تربط باريس بلندن ، وتنبأ بمستقبل زاهر لفرنسا كدولة من الدول العظمى في العالم ، وقال في خطابه إن بريطانيا تجنبت احتلال مصر ؛ لأنها تعلم أن هذا الاحتلال يثير سخط وشكوك فرنسا . وكان قد أقيم في ذلك الوقت معرض في باريس ، وكان من بين كبار زائريه ولي عهد بريطانيا ، وزادت هذه الزيارة من الروابط السياسية والاجتماعية بين الدولتين ، وأعلن ولي عهد بريطانيا في اليوم الحادي والعشرين من شهر يوليو - تموز - عام ١٨٧٨ موافقته على نهاب فرنسا إلى تونس ^(٢) .

لهذا .. رأت الحكومة الفرنسية أن تلتهمز فرصة هذا المناخ الصحي بينها وبين الحكومة البريطانية ، وغضت الطرف عن انتزاع بريطانيا جزيرة قبرص من الدولة العثمانية ، وقبلت «العرض» البريطاني بالاستيلاء على تونس بصفة الأخيرة ولاية عثمانية ، لاستطيع الدولة العثمانية الدفاع عنها أمام القوات الفرنسية ، وهذا أثر الرأى العام الفرنسي . وأخذت الصحافة الفرنسية وفي مقدمتها جريدة Les Débats تمجد بريطانيا وتنتحل لها الأعذار في عقد اتفاقية قبرص ، وتحولت إلى مهاجمة روسيا وانتقاد التقدم الروسى فى آسيا ، ووصفت روسيا بأنها «دولة مستبدة استعمارية» ، وسرعان ما نسى الشعب الفرنسى اتفاقية قبرص .

(١) تجد هذه النصوص وكذلك النصوص الأخرى ، التي ترد في بقية هذا الفصل مذكورة في المصدر الاتي : Documents Diplomatiques Français. I ère Série. t. 2., docs. nos. 331, 332, 333, 334, et 336.

ومذكورة أيضاً في المرجعين التاليين :

Newton P.C. Lord; Life of Lord Lyons. 2 vols. London, 191. vol. 2, p. 139, pp. 155-156, 158 & 159.

Safwat M.M.; Tunis and the Great Powers. 1878-1801. Alexandria, 1943, p. 147, pp. 211-212 & 224.

(2) Safwat M.M.; op. cit., p. 227.

وكان بسمارك المستشار الألماني يؤيد فرنسا في استيلائها على تونس؛ كي توجه طاقاتها الحربية ونشاطها السياسي إلى ميادين الاستعمار خارج القارة الأوروبية، ولا تفكر في استعادة الأناضول والبلقان من ألمانيا. وكان الحزب الجمهوري في فرنسا قد عاد إلى الحكم في نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٧٧، وعمل الجمهوريون على نبذ سياسة التقرب من روسيا، وسعوا لتوثيق علاقاتهم مع بريطانيا وتركيز اهتمامهم على مسائل البحر المتوسط وتحسين علاقاتهم مع ألمانيا ونبذ الرغبة في الانتقام منها مؤقتاً، كما رأوا أن من صالح فرنسا أن تعاود سياستها بالتقيام بدور بارز في السياسة الأوروبية بعد كارثة سيدان عام ١٨٧٠؛ حتى لا تنفقد مركزها نهائياً كدولة عظمى.

وكانت المحصلة النهائية لهذه السياسة الجديدة أن استقر رأى الجمهوريين الفرنسيين على ضرورة إحراز نصر خارجي، إذا أرادوا تثبيت مركزهم في الداخل؛ خاصة وأنه لفرنسا قوات مسلحة بعد أن أعادت بناءها، وأنه في الاستطاعة الاعتماد عليها في ميادين الاستعمار. وقد أرتاح بسمارك لهذا الاتجاه الجديد في السياسة الفرنسية، ومن هنا جاء تأييده لفرنسا في استيلائها على تونس بصفتها ولاية عثمانية وكتعويض لها عن خروجها من مؤتمر برلين دون أن تنال نصيباً من ممتلكات الدولة العثمانية. وكان مما صرح به المستشار الألماني في حديث مع سان فالليه Saint Valliet السفير الفرنسي في برلين «أعتقد أن الكمثرى التونسية ناضجة». وقد حان لنا (أي للفرنسيين) قطافها. وإن وقاحة الباي كانت شمس شهر أغسطس - آب - لهذه الفاكهة الإفريقية التي يمكن أن تتعرض للعطب أو يسرقها آخر (يقصد إيطاليا) إذا تركتموها وقتاً طويلاً أكثر من اللازم على الشجرة».

“Je crois que la poire tunisienne est mûre, et qu'il est temps pour nous de la cueillir. L'insolence du Bey a été le soleil d'août de ce fruit africain qui pourrait bien se gâter ou être volé par un autre si vous la laissez trop longtemps sur l'arbre”.

وفي مناسبة أخرى صرح بسمارك بقوله إنه خير للإيطاليين أن ينصرفوا إلى معالجة متاعبهم ومصائبهم (١).

(١) كان بسمارك يعلم جيداً أن إيطاليا تتطلع إلى تونس، وكان يرى عند توزيع معظم ممتلكات الدولة العثمانية أسلماً بين الدول قبيل مؤتمر برلين إعطاء طرابلس لإيطاليا، إرضاء لها وكتعويض لها عن احتلال النمسا والمجر للولايتين العثمانيتين: اليوسنة والهرسك، وهو الاحتلال الذي أثار قلق إيطاليا ومخاوفها، مع وجوب ترك تونس لفرنسا.

ولكن بسمارك غير رأيه في سنتي ١٨٧٧، ١٨٧٨؛ لأنه لم ترقه سياسة إيطاليا، فهي في نظره تقوم على المشاغبة والعجز والتردد؛ إذ ساءه أن إيطاليا كانت تحاول التقرب من روسيا، وساءه أيضاً =

ورأت فرنسا أن تستفيد أيضاً من التشجيع الألماني لها على الاستيلاء على تونس، ولكنها تحفظت فلم تذهب مع ألمانيا إلى الحد الذي وصلت إليه مع بريطانيا؛ إذ لم تطلب منها أن تسجل في وثيقة رسمية تصريحاً بموافقة برلين على ذهاب فرنسا إلى تونس كما فعلت مع بريطانيا. ويقول أحد الباحثين إن وادنجتون وزير الخارجية الفرنسية لم يشأ أن يتلقى المنحة الاستعمارية من يد ألمانيا العدو التقليدية لفرنسا؛ حتى لا تتخذ المعارضة في فرنسا من مصدر هذا العرض وسيلة للطنن في قيمته^(١).

وأخيراً اصطنعت الوزارة الفرنسية، وكان يرأسها جيل فرى Jules Ferry، مبرراً لغزو تونس. وجدير بالذكر أن العسكريين الفرنسيين في الجزائر والمستوطنين الأوروبيين فيها كانوا قلقين من وجود دولة إسلامية مستقلة في غرب الجزائر، هي مراکش، ونبابة إسلامية عثمانية في شرقها هي تونس. ويتوجسون خيفة من أخطار إسلامية تهدد الجزائر، لذلك كان العسكريون والمستوطنون في الجزائر جد متحمسين لقيام فرنسا بغزو تونس^(٢). وكانت الذريعة التي اختلقها جيل فرى هي حوادث الحدود، وتتمثل في تحركات قبائل الكرومير أو الكرومير Kroumirs التي تسكن الركن الشمالي الغربي من تونس. ولم تكن حوادث الحدود جديدة بل ترجع إلى ما يقرب من خمسين سنة خلت، منذ أن احتلت فرنسا بلاد الجزائر عام ١٨٣٠، فقد هاجر عدد من الجزائريين، وأقاموا في مناطق الحدود الجزائرية التونسية يمثلون أنفسهم بالعودة إلى الجزائر يوماً ما. وحرص جيل فرى على أن يعطي حملة تونس طابع الحملة التأديبية، وأرسل إنذاراً مؤرخاً في اليوم الرابع من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٨١ إلى محمد الصادق باي تونس سلمه إليه روستا Roustin القنصل الفرنسي العام. وجاء في هذا الإنذار أن الحكومة الفرنسية قررت التدخل لتأديب قبائل الكرومير. وتأسيساً على ذلك.. فإن القوات الفرنسية الغازية قوات صديقة، وذهب الإنذار الفرنسي في استهزائه بالحكومة التونسية إلى حد أنه طالب بأن تتعاون القوات التونسية مع القوات الفرنسية في أداء مهمتها.

=مواقفها العدائية من صديقتها النمسا، إذ كان شطر كبير من الرأي العام الإيطالي يطالب باسترداد إقليم تورنتينو Terentino من النمسا، وكانت الدوائر العليا في الحكومة الإيطالية تؤيد هذا الاتجاه بل وتشجعه؛ إذ كانت هذه الدوائر غير مستعدة لشراء صداقة النمسا، في مقابل ترك جزء من الوطن الإيطالي، يجب أن يعود إلى إيطاليا الأم؛ وإذا تخلى بسمارك وصديقتها النمسا عن تعويض إيطاليا سواء بتونس أو طرابلس.

انظر:

دكتور محمد مصطفى صفوت، مؤتمر برلين، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨-٤٠.

(١) دكتور صلاح العقاد: المغرب العربي إلغ، مرجع سبق ذكره، ص ١٩١.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٧.

اجتازت القوات الفرنسية حدود تونس في اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٨١ ، ونزلت قوات أخرى في ميناء بنزرت في أول مايو - آيار - ووصلت في اليوم الحادي عشر من الشهر ذاته إلى قصر الباي المعروف بقصر باردو Bardo ، على بعد عشرين كيلو متراً من تونس . وهناك لحق القنصل الفرنسي بقائد الحملة الجنرال بريار Brear ، ولم يكن القنصل قد غادر تونس باعتبار أن التدخل الفرنسي ليس حرباً رسمية ، بل هو مجرد عملية بوليسية . وكان الجنرال بريار يحمل معه نص المعاهدة التي وضعها رئيس الوزارة الفرنسية فقدمها إلى الباي ، لتوقيعها بعد أن أعطاه مهلة خمس ساعات . وهدده الفرنسيون بخلعه عن العرش وتنصيب أخيه الطيب الذي اتفق معهم على التوقيع على المعاهدة ، إذا رفض الباي محمد الصديق توقيعها . وتحت الضغط وقع الباي معاهدة باردو في اليوم الثاني عشر من شهر مايو - آيار - عام ١٨٨١ ، التي تعد أساس الحماية الفرنسية على تونس ، وإن لم يرد فيها لفظ «الحماية» ، بل نص فيها على أن الاحتلال العسكري هو إحتلال مؤقت^(١) ، ولذلك احتاج الفرنسيون إلى دعم مركزهم في إدارة البلاد في معاهدة أخرى ، هي معاهدة المرسى في اليوم الثامن شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٨٣^(٢) ، وقد استخدمت لفظة الحماية فيها لتحديد العلاقة بين فرنسا وتونس . وأصبح الباي لا يملك إلا سلطة وهمية ، لأن المندوب السامي الفرنسي كان الحاكم الفعلي ، الذي يشرف على إدارة البلاد الداخلية ويتولى شئونها الخارجية .

احتلال مصر :

لم يكن ضياح تونس من الدولة العثمانية هو الأثر الوحيد لاتفاق بريطانيا وفرنسا وألمانيا في أثناء انعقاد مؤتمر برلين وبعده .. فإن الدولتين الاستعماريتين - بريطانيا وفرنسا - في المحادثات التي سبقت ثم صحبت ولحقت مؤتمر برلين ، قد أكدتا تساوى نفوذهما في مصر بحيث لم يكن للمصريين نفوذ فعلي في بلادهم ، وغدت سلطة الخديوي إسماعيل سراباً . ولما حاول الأخير الاعتماد على نمو الوعي القومي المصري وضمه إلى جانبه في مواجهة التدخل الأوروبي المتزايد ، ثارت بريطانيا وفرنسا على سياسة إسماعيل وأيدتهما ألمانيا . وطلبت من السلطان عبدالحميد خلعه في السنة التالية لمؤتمر برلين ، ونزل على رأى بريطانيا وفرنسا وألمانيا ، وأصدر بناء على قرار مجلس الوزراء العثماني إرادة ، بخلع إسماعيل وتعيين ابنه توفيق خديوياً لمصر .

وطير الصدر الأعظم هذه الإرادة في برقية وجيزة ، أرسلها إلى إسماعيل في صبيحة يوم الخميس ٢٦ من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٩٧ ، كما أرسل في الوقت ذاته برقية إلى

(١) دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي وبكتور جلال يحيى : وثائق ونصوص إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٤-٦٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٦-٦٧ .

توفيق بإسناد منصب خديو مصر إليه . وكان هذا التصرف من الأخطاء السياسية الجسيمة ، التي وقع فيها السلطان عبدالحميد الثاني ؛ إذ اعتقد أن النجاء الدول الكبرى إليه لعزل اسماعيل يكسبه نفوذاً كبيراً ، ولم يحسب حساباً لعواقب هذا التصرف .

حقيقة أنه لم يكن يعطف على الخديو اسماعيل ، كما لم يكن راضياً عن أسلوبه في حكم مصر . وكان يعتبره مسئولاً عن الارتباك المالي ، التي تعرضت لها الحكومة المصرية وعن التدخل الأوروبي السافر في شئون البلاد . ولكن كان لاستجابته لطلب بريطانيا وفرنسا وألمانيا بعزل اسماعيل نتائج وخيمة ؛ إذ ارتسمت في أذهان أوروبا عن عبدالحميد صورة الحاكم الذي يصدر بما يؤمر به . وانعكست هذه الصورة لدى الحكومات الأوروبية ؛ خاصة البلقانية التي أرادت الإخلال بقرارات مؤتمر برلين طمعاً في مزيد من التوسع الإقليمي ، كما حدث عندما طالبت حكومة الجبل الأسود بضم ثغر دولسينو Dulcigno إليها . وتحت تهديد الدول الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا بالتدخل الحربي ، اضطرت الدولة العثمانية إلى إجابة هذا الطلب التعسفي ، وسلمت الثغر إلى حكومة الجبل الأسود في ٢٦ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٨٠ .

أما في مصر .. فقد فقدت الحكومة المصرية هيبتها نهائياً ، وأصبح لبريطانيا وفرنسا من الناحية العملية حق خلع حكام مصر وتوليهم . ولما تولى توفيق خديوية مصر سيطرت عليه بريطانيا وفرنسا ، وأدرك هذا الخديو ماتستطيع أن تفعله هاتان الدولتان .. فوافق على أن تعيدا نظام المراقبة الثنائية ، وأن تعمل على حماية مصالح دائليهما بوضع قانون التصنيف بحيث خصصت كل موارد مصر لخدمة مصالح الأجانب قبل كل شيء .

ولم تكف الدولتان بذلك بل ساندتا الخديو في مقاومة الحركة العربية وفي كبت الشعور القومي ، وأبدناه وتدخل الدولتين المسلح ثم تدخل بريطانيا الحربي المنفرد ، واحتلت مصر مدعية بأنها فعلت ذلك باسم الخديو توفيق ونياية عنه وتأييداً لسلطته (١) ، وأعلنت أن احتلالها مؤقت وأنها ستجولو عن مصر حالماً تستطيع الحكومة البريطانية بوسائلها تثببت سلطة الخديو وإعادة النظام العام بها ، والواقع أنه لم يكن في مقدور الحكومة البريطانية في سنة ١٨٨٢ أن تعلن الحماية للسافرة على مصر أو أن تطلب إلى الدول الاعتراف بمثل هذه الحماية ؛ فلجأت إلى بسط حماية مقنعة a veiled Protectorate إلى أجل غير مسمى ، ومارست في ظلال هذا النظام سلطات واسعة لأحد لها (٢) ، ونظرت بسيطرة انفرادية على قناة السويس واعتبرتها شرياناً بريطانياً رئيسياً للمواصلات البريطانية بين أجزاء إمبراطوريتها . وغذا الإبقاء على نفوذها في القناة ومصر ركناً رئيسياً في سياستها .

(١) دكتور محمد مصطفى صفوت : مؤتمر برلين إلخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٠ .

(2) Hurewitz J.C.; op. cit., vol. 1, pp. 197-199.

وقد ارتاحت بريطانيا كل الارتياح لانفرادها باحتلال مصر دون مشاركة فرنسا لها ، لأنها أدركت أن تونس التي استولت عليها فرنسا تفوق كثيراً جزيرة قبرص من حيث ثرواتها المعدنية والزراعية والبشرية ، وخرجت بريطانيا من هذه المقارنة بين تونس وقبرص بأن القسمة بينها وفرنسا إنما هي قسمة ضئيلة في غير صالح بريطانيا ، فكان انفرادها باحتلال مصر خير تعويض لها .

وهكذا فرغ البريطانيون من احتلال مصر في سبتمبر ١٨٨٢ ، وفرغ الفرنسيون من احتلال تونس في العام السابق . وأصبحت الدولة العثمانية بضريقتين متلاحقتين في عامين متتاليين بفقد ولايتين عربيتين في إفريقية ، ولم يبق لها في شمال إفريقية سوى ولايتي برقة وطرابلس .

مطامع إيطاليا في ولايتين عثمانيتين : تونس ومصر :

أما إيطاليا .. فإذا كانت قد خرجت من مؤتمر برلين نظيفة اليدين ، كما صرح كورتى Corti وزير خارجيتها .. فإنها خرجت أيضاً فارغة اليدين ، مما أثار سخط الرأي العام الإيطالي ، وكان يتطلع إلى أن يكون لإيطاليا نصيب في ممتلكات الدولة العثمانية ، تقرره معاهدة برلين على غرار ما حصلت عليه الدول الأخرى . ورأى أن هذه النتيجة السلبية التي انتهى إليها المؤتمر بالنسبة لإيطاليا إنما هي إذلال لها ، وكان الإيطاليون يرون بأبصارهم إلى الاستعمار بعد أن استقامت لهم الوحدة السياسية ، وأصبح الاستعمار من الأهداف الرئيسية لإيطاليا المتحدة . وكانت ترى في تونس المجال الحيوي لها بحجة زيادة عدد السكان وحاجتها إلى الهجرة والتوسع . وكانت تونس أكثر البلاد إغراء للإيطاليين لأسباب جغرافية وتاريخية واقتصادية ؛ إذ لا يفصل صقلية عن تونس إلا ممر مائي صغير ، وأن تونس هي امتداد طبيعي لإيطاليا . أما الأسباب التاريخية .. فقد كانت تونس أهم أقاليم الدولة الرومانية القديمة ، ومن المعروف أن الإيطاليين يعتبرون أنفسهم ورثة الرومان في البحر المتوسط . وكانت الجالية الإيطالية في تونس هي أكبر الجاليات الأجنبية عدداً تليها الجالية المالطية ثم الفرنسية . أما الأسباب الاقتصادية فإن اتصال البحارة وصيادي الأصداف الإيطاليين بتونس أقدم من غيرهم من الأوروبيين ، فهو يرجع إلى القرن السادس عشر . كما أن تونس تشتهر بثروات معدنية ، وبها أراض زراعية بقيت غير ذى زرع . وقد تأثرت تونس اجتماعياً بإيطاليا ؛ إذ دخلت في لهجتها بعض الكلمات الإيطالية ، كما أن معظم مستشاري الحكومة التونسية من الأوروبيين في أوائل القرن التاسع عشر كانوا من الإيطاليين ، وقد سبق أن ذكرنا في هذه الدراسة أن إيطاليا حاولت الاستيلاء على تونس عقب كارثة سيدان سنة ١٨٧٠ .

وأمام ضغط الرأي العام الإيطالي ، تخبطت الحكومة الإيطالية في سياستها الاستعمارية ،

فهي شديدة الرغبة فى تحقيق آمال الشعب الإيطالى فى مواكبة الدول الكبرى فى سياسة التوسع والاستعمار . ولكن الحكومة الإيطالية أدركت أن فرنسا متمسكة بالاستيلاء على تونس ، ولكنها لم تكن لديها قوات مسلحة تستطيع أن تنصدى بنجاح للقوات الفرنسية ، ومن ثم تطلعت بالطرق الدبلوماسية إلى تعيين وزير إيطالى فى الوزارة المصرية بالاتفاق مع الحكومة البريطانية . وكانت قد تكونت فى مصر فى شهر أغسطس - آب - عام ١٨٧٨ وزارة برئاسة نوبار باشا تضم وزيرين أجنيين ، كان أحدهما إنجليزياً هو ريفرز ولمن Rivers Wilson ، وقد عين وزيراً للمالية ، وكان الآخر فرنسياً هو دى بلنيير de Blignières وقد عين وزيراً للأشغال .

وفوجيء باجت Paget السفير البريطانى فى روما ، واعتبرته الدهشة حين عرض عليه مافى Maffei وكيل وزارة الخارجية الإيطالية تعيين أحد الإيطاليين وزيراً فى الوزارة المصرية ، وقال له السفير إنه فى حيرة من إصرار الحكومة الإيطالية على هذا الطلب ، وإنه لا يدري المصالح الإيطالية الخاصة فى مصر ، والتى تخول لها حقاً أو ادعاء أقوى من حق أو ادعاء ألمانيا أو النمسا والمجر أو أى دولة أخرى حتى تكون إيطاليا ممثلة فى الوزارة المصرية بوزير إيطالى . وأوضح السفير البريطانى لوكيل الخارجية الإيطالية أن للحكومة البريطانية لن توافق على وضع مصر تحت نوع من الحماية الأجنبية ، أو إعطاء الحكومات المصرية طابعاً دولياً .

وقد أجابه وكيل الخارجية الإيطالية أن إيطاليا قد تلقت مؤخراً صدمة فى تونس ، وأن حرمانها من أى نصيب فى الترتيبات الجديدة فى مصر يكون إذلالاً آخر لها ، وقد جاء فى المذكرة التى بعث بها السفير البريطانى فى أول نوفمبر - تشرين أول - عام ١٨٧٨ إلى لورد سالزبرى وزير الخارجية البريطانية ما يلى :

"I told m. Maffei (the Italian Under Secretary of State for Foreign Affairs) that I was at a loss to understand the persistence with which the Italian Government continue to pursue this object (the admission of an Italian into the Egyptian Cabinet). I was not aware, I said, what were the special interests Italy had in Egypt, which gave her better title or claim to be represented in the Egyptian Government than Austria-Hungary, Germany or any other Power. Her Majesty's Government, I said, would never consent to placing Egypt under a sort of foreign protectorate, nor to giving an international character to the Egyptian Government.

M. Maffei replied that Italy had lately received a check in Tunis, and her

exclusion from all share in the new arrangements in Egypt would be a further humiliation".^(١)

ولما رأت الحكومة الإيطالية أن فرنسا بسطت حمايتها على تونس سنة ١٨٨١، وأن بريطانيا احتلت مصر سنة ١٨٨٢ ردت ردّاً عملياً على كلتا الدولتين انتقاماً منها وتشغيلاً فيها، فانضمت عام ١٨٨٢ إلى التحالف الثنائي، الذي أبرم بين الإمبراطورية الألمانية والإمبراطورية النمساوية المجرية عام ١٨٧٩، وبانضمام إيطاليا إليه أطلق عليه اسم التحالف الثلاثي. ولكن الحكومة الإيطالية اتبعت سياسة ذات وجهين، وتقربت بعد سنوات ذات عدد من بريطانيا كي تساعد على أخذ نصيبها من الممتلكات المصرية على الساحل الغربي للبحر الأحمر والساحل الشرقي لإفريقية، بعد أن أخلت القوات المصرية السودان منذ عام ١٨٨٤ على النحر الذي بسطناه في الفصل السابق. وكان ضياع تونس ثم مصر من الدولة العثمانية سبباً في ازدياد ضعف هذه الدولة وهوانها.

مجموعة كوارث تنزل بالدولة في مستهل حكم عبدالحميد :

على هذا النحو، افترنت بداية حكم السلطان عبدالحميد الثاني بمجموعة من الكوارث، نزلت بالدولة، وحققت الدول الكبرى في معاهدة برلين أطماعها على حساب الدولة العثمانية التي سارت بخطى سريعة نحو نهايتها المحقومة، فالروسيا والنمسا والمجر وبريطانيا أخذت نصيبها من الأسلاب العثمانية في أوروبا وآسيا والحوض الشرقي للبحر المتوسط... أخذت كل منها ما راق لها أن تستولى عليه، كما انفصلت غالبية الكيانات البلقانية السياسية انفصالاً تاماً عن الدولة، وظلت بقية قليلة العدد من الكيانات الأخرى، يربطها رباط واهن من التبعية الاسمية والشكلية بالدولة. واتخذت الدول العظمى مع الشعوب البلقانية المسيحية الخطوة الكبرى في سبيل تصفية الوجود العثماني في أوروبا وطرد العثمانيين منها تنفيذاً لأراء جلاستون، وتطبيقاً لسياسة لورد سالزبوري وزير خارجية بريطانيا، وتماشياً مع خطة قيصر روسيا.

أكذوبة رئيس وزراء بريطانيا :

لقد صرح لورد بيكونزفيلد رئيس الوزارة البريطانية عقب وصوله إلى لندن قادمًا من مؤتمر برلين قائلاً إنه عاد يحمل «السلام مع الشرف»^(٢) Peace with honour، وهي عبارة مضللة لإستقيم مع قرارات مؤتمر برلين؛ فالشرف لايقوم على تمزيق أوصال دولة إسلامية كبرى وتوزيع معظم ممتلكاتها على الدول الأوروبية الكبرى المسيحية والشعوب البلقانية المسيحية في عصر كان يعد من أسوأ عهود الاستعمار؛ فلا يمكن اعتبار أواخر القرن التاسع

(1) Miller w.; England in Egypt, 1920., p. 28.

(٢) يلاحظ أن هذه العبارة بالذات قد وردت على لسان نيفيل تشيرلن Neville Chamberlain، رئيس الوزارة البريطانية بعد ستين عاماً، حين عاد إلى لندن بعد توقيع اتفاقية ميونيخ في ليلة ٢٩-٣٠ من شهر=

عشر عصر التحرر . ولم يقف الأمر عند هذه الكوارث .. ففي أعقاب مؤتمر برلين واكبت فرنسا الدول العظمى فى سياستها فبسطت حمايتها على تونس عام ١٨٨١ ، وتبعته بريطانيا فى هذا السباق الاستعمارى المحموم ، ونجحت فى احتلال مصر فى السنة التالية .

وجدير بالذكر أن أوروبا لما تحالفت ضد الإمبراطور نابليون الأول ، وهزمت فى معركة واترلو (١٨ يونيو - حزيران - عام ١٨١٥) .. لم تفقد فرنسا من ممتلكاتها ما فقدته الدولة العثمانية بعد حرب ١٨٧٧-١٨٧٨ ، ولذلك فإن معاهدة برلين ١٨٧٨ تعد من أسوأ المعاهدات فى التاريخ العثمانى .

وكان من المنتظر أن تعطى أوروبا الدولة العثمانية فرصة استجمام لالقاط أنفاسها وإعادة تنظيم شلونها ، ولكن الكوارث لم تنته بإبرام معاهدة برلين ، فقد توالى عليها الأزمات السياسية والحربية ، تثيرها الدول الأوروبية للقضاء على ماتبقى لها من ممتلكات ونفوذ ؛ فقوت الدول الأوروبية دعائم نفوذها ونظام امتيازاتها الأجنبية فى الدولة ، وسجلت نمو النفوذ القفصى . وكان هذا النفوذ بمثابة سرطان استشرى فى جسم الدولة ، وعمل على قتل كل حركة إصلاح سياسى أو اقتصادى أو تشريعى أو اجتماعى فى الدولة ، وأوغل بها سريعاً فى مرحلة الاحتضار ، وحرصت الدول الأوروبية العظمى الشعوب البلقانية المسيحية التى ظلت خاضعة للحكم العثمانى على تحريك الثورات ، وإشعال الحروب ابتغاء الانفصال عنها تحت ستار شعار القديم وهو تحرير الشعوب المسيحية من حكم إسلامى متخلف .. وكان همها فى الواقع زوال الدولة النهائية .

سبتمبر-أيلول - عام ١٩٢٨ ، واشترك معه فى التوقيع عليها هتلر ، وموسولينى ، والاديبه رئيس وزراء فرنسا وقتذاك . وبمقتضاها تترك تشيكوسلوفاكيا عاجلاً لآلانيا أقاليم معينة ، تسكنها أغلبية كبيرة من الألمان ، ويجرى فى أقاليم أخرى استفتاء تحت إشراف دولى ، كما يعهد إلى لجنة دولية تخطيط الحدود بين ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا . واتفق الكبار الأربعة على وضع تسوية لمطالب المجر وبولندا من تشيكوسلوفاكيا فى خلال ثلاثة شهور ، وعاد تشمبرلان إلى لندن وخاطب مواطنيه قائلاً : « لقد جلبت لكم السلام مع الشرف » ، ولكن ونستن تشيرشل الذى كان يقف موقف المعارض لسياسة التهمدة رد عليه قائلاً . « لقد كان على بريطانيا وفرنسا أن تختارا بين الحرب والعار ، ولقد اختارتا العار . ومع ذلك فستتقم الحرب نفسها عليهما » . وأذعن تشيكوسلوفاكيا لهذه التسوية وعبر الجنود الألمان الحدود فى أول أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٣٨ ، وصحت نبوة تشيرشل بعد أحد عشر شهراً من اتفاقية ميونيخ : إذ اشتعلت الحرب العالمية الثانية فى أول سبتمبر - أيلول - عام ١٩٣٩ .

انتظر :

الفصول الثلاثة التى وضعها الامتاذان أحمد نجيب هاشم ، وويبع الضبع فى نهاية الجزء الأخير الذى عرياه من كتاب فيشر بعنوان : تاريخ أوروبا فى العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠) . دار المعارف . القاهرة ؛ ١٩٥٠ وهذه الفصول الثلاثة هى الفصل الثامن والثلاثون والتاسع والثلاثون والأربعون (ص ٦٤١-٧٣٦) ، وقد استقينا المادة العلمية فى هذه الحاشية من ص ٦٥٧ .

THE OTTOMAN EMPIRE

An ISLAMIC MALIGNED STATE

By

Abdel Aziz M. El-Shennawy

Professor of Modern History,

Head of the Department of History,

Faculty of Humanities,

Azhar University, Women's Branch, Cairo.

Volume II

Publisher : Anglo - Egyptian Bookshop, Cairo.

هذا الكتاب

دائمًا ما ينظر إلى التاريخ باعتباره حافظة الوعي الإنساني ، وحاوية نتاج هذا الوعي من سابق وحاضر ومستقبل الأمم والشعوب .. وفي هذه السلسلة ، التى تتكون من أربعة أجزاء متكاملة ، تحكى قصة الدولة العثمانية من منظور أنها دولة إسلامية لم تأخذ حقها من الإنصاف والعدل والرؤية الموضوعية الحيادية .. تأتى محاولة المؤلف الجادة والرائعة فى هذا التتبع التاريخى الدقيق ، فى طرح كل قضايا هذه الدولة ومتاعبها ونجاحاتها وإخفاقاتها .. تأتى هذه المحاولة من منظور أن التاريخ يفسر الإنسان للإنسان .. تتكامل هذه الأجزاء الأربعة لتشكل دافعا منطقيًا للقارئ لأن يعيد تشكيل ثوابته ومعارفه التاريخية ، على أساس من البحث والموضوعية ..

السلسلة جديرة بأن يقرأها كل متخصص فى الدرس التاريخى ، وكل غير متخصص راغب فى أن يعرف تاريخ أمته وعلاقتها بغيرها من الأمم .. لأن ماورد فى أجزاءها الأربعة ، " فى ثلاثة وستين فصلا كاملة تتجاوز ألفى صفحة " ، هو محاولة رائعة لموضع الأمور فى نصابها الصحيح ، تجعلنا أمام تاريخ غير مزيف ، غير مدفوع بهوى شخصى ، غير مدفوع بانحياز مسبق ..

الناشر